نساء من الأندلس

تأليف

أحمد خليل جمعة

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت

الطبعة الأولى

١٤٢١هـ - ٢٠٠١م

اليمامة
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - برامكة - جانب الهجرة والجوازات - ص.ب ٣٧٧ - هاتف: ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥
بيروت - برج أبو حيدر - خلف دبوس الأصلي - ص.ب ١١٣/٥٤٨٨ هاتف: ٧٠٢٩٥٩

أديب الشام

عطاؤك والصباح له ابتسام ◦ ووجهك والضياء له التمام
وحرفك همس أرواح تندّت ◦ بعطر الخير ينشره الخزام
تجوب بما كتبت سماء نفسٍ ◦ كأنك بين زرقتها الغمام
إذا هطلت نفائسكم عليها ◦ تبسّم صبحها وصحا السلام
نفائس في الهداية لا تضاهى ◦ ودوح يستظل به الكرام
وكم جاهدت في طلب المعالي ◦ كما فعل الأئمة والعظام
فتقوى الله مبعث كل خيرٍ ◦ ويحسن يا أخيّ بها الختام
وأجمل ما بقلبك فيض طهرٍ ◦ وإيمانٌ وصبرٌ والتزام

◦ ◦ ◦ ◦ ◦

أديب الشام ليس المدح صنعي ◦ ولكنّي بمدحك لا أُلام
فأنت بمبسم العلياء نورٌ ◦ وأنت بوجنة الإبداع شام
وأنت أخٌ لوجه الله تسعى ◦ مثيلك لا يُذلّ ولا يضام
ومثلك إن يكن في الناس عدلٌ ◦ يُخلّد فوق هامته الوسام
وأنت أخٌ عصاميٌّ تأسّى ◦ بمن سعدت بطلعته الأنام
أديب الشام ما جاوزت حدّي ◦ ولكنّ المحبّ له هيام
فأنت الفكر والأدب المعلّى ◦ ونورهما، وإن جحد اللئام

مهداة إلى صديقي الأديب الفن: أحمد خليل جمعة - شعر: محمد محمود عثمان - دمشق ١٩٩٩م

الإهداء

إلى اللّواتي ينشدن السّعادة

كيما يجعلنها نعيم الحياة وحياة النعيم .

إلى اللّواتي يشعرن بقيمة رسالتهن

ليكنّ روح الحياة وحياة الروح .

أهدي هذا الكتاب

أحمد

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدّمة وعرض الكتاب

* الحمدُ للهِ الذي جَعَلَ الحمْدَ أَوَّلَ كتابِ رحْمتِه ، وآخرَ دعوىٰ ساكِني جنَّتِه .

* أحمدُهُ حَمْدَ ﴿مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النّازعات : ٤٠] ، وعَلِمَ أنَّ مَنِ اتَّبَعَ رضْوانَه ﴿فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ [النّازعات : ٤١] .

* سبحانَه فَقَدْ أَوْضَحَ للحقّ سَبيْلا ، وَمَدَّ ظِلَّ رحمتِهِ على الخَلْقِ ظَليلا ، ونزَّلَ الأَحْكَامَ على قَدْرِ المَصالحِ تَنْزيلا .

* اللهمَّ إنّي أشكُرُكَ وأحْمَدُكَ إذْ جَعلْتَنِي منْ أهلِ بيتٍ أَشْرَبَ حبُّ العِلْمِ نُفوسَهُمْ ، وشَغَلْتَ بِطَلبِ البيَانِ والتَّبيين قلوبَهُمْ ، وجَعلْتَ عيونَ الأَخْبارِ بغيَتَهُمْ ، ليكونَ عَمَلُهمْ ربيعاً للأَبْرارِ ، وتذكرةً للأَخْيارِ ، وَحِلْيَةً لأَهْلِ الوَقارِ .

* اللهمَّ إنّي أسأَلُكَ أنْ تلهمَنِي ما يرضيكَ عملاً ومعتقداً وقيْلا ، وأنْ تلهمَنِي التَّسبيحَ والذِّكْرَ بكرةً وأَصيْلا .

* وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلاّ هوَ العزيزُ الحميدُ ، ﴿وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ۝١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البُروج : ١٤ ـ ١٦] ، أَزْلَفَ الجنَّةَ للمتَّقين غيرَ بعيد ، وجَعلَ لهمْ ما يشاؤُونَ فيها وَلَديْهِ مَزِيْد .

* والصَّلاةُ والسَّلامُ علىٰ سَيِّدِ العَالَمِيْن ، وخاتَمِ النَّبيين ، محمَّد الرَّسُولِ الأَمين ، المُرسَلِ رحمةً للعَالَمين ، الذي فَضَّله بِخُلَّتِهِ واصْطِفَائِهِ تَفْضِيْلا ، وبَعَثَه بالحنيفيّةِ السَّمْحةِ وفَصَّلَها تَفْصيْلا ، حتى ثبتَتْ سُنَّةُ اللهِ ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴾ [فاطر : ٤٣].

* اللهمّ صَلِّ علىٰ خيرِ الأَنَام ، وَلَبِنَةِ التَّمام ، سيِّدِ وَلَدِ آدم ونخْبَةِ أنبيائِه ، المفَضَّل علىٰ العالَمين باجتبائِه واصْطِفَائِه ، إذْ فضَّلَه بالآيات البَاهِرة ، والمعجزاتِ الظَّاهِرة ، علىٰ أمثالِه منَ المُرسلين ونُظرائِهِ ، صلّى اللهُ عليه وسلم. وبعد:

صُوَرُ المَعَاني بِالتَّأَمُّل تُجْتَلىٰ أَبْكَارُهَا في الخَطّ والأَلْفَاظِ
فانْظُر لنُزْهَةِ لَحْظِ فِكْرِكَ إنَّما تُجْلَىٰ الحِسَانُ لِنُزْهَةِ الأَلْحَاظِ

* وهَا نحنُ أولاءِ نَجْلو صورةَ بَلَدٍ جَميلٍ ، في موضوع جميلٍ ، في كتَابٍ جميل ، ولفْظٍ جميلٍ ، وعَرْضٍ جميلٍ؛ ومَنْ منا إذا ذُكِرَتِ الأندلسُ لا تَهْفُو نَفْسُهُ إلىٰ جَمَالِهَا ، وتعيدُهُ الذِّكْرىٰ إلىٰ مكانَتِها وجَلالِها؟!.

* وكيفَ لا تَهْفُو النُّفوسُ أَيْضاً إذا كانَ الحديثُ موصولاً بالأَوَانِسِ الكَاتباتِ ، والمُعلِّماتِ العَالماتِ ، والنَّجيباتِ الفَاضِلاتِ ، والأَديْباتِ الشَّاعِراتِ ، والأميراتِ الحاكماتِ ، والجميلاتِ السَّاحِرات ، وكُلّ ما يتَّصِلُ بأخْبارِ النِّساءِ ، وما تركْنَه منْ ثَناءٍ وسَناء؟!.

* وهذا الكتابُ روضٌ أيْـنَـعَتْ ثماره ، وأَيْكٌ غَرَّدَتْ أطيارُهُ ، يفيدُ خواصَّ المتأدّبين ، وينْفَعُ جماعةَ المتعلِّمين ، لأنّني اقتطفْتُ كثيراً مِنْ أَزاهِرِ أخْبارِ النِّساءِ الأندلسيّات ، وجمعتُها بِما لَمْ يُجْمَعُ ـ منْ قَبْلُ في كتابٍ على ما أظنُّ ـ في مؤلَّفاتٍ أو مصنَّفَات ، وذلك بما وصَلَتْ إليهِ يدي من مَصَادِرَ ومراجِعَ مبثُوثَةٍ في المكتبَات.

* ولعلَّ أحَدَ مَنْ يُغْريهِ حَسَدُه ، وتُسوِّلُ له نَفْسُه أنْ يقولَ: وهَلْ تَركَ الأَوّلُ للآخرِ شيئاً؟! فنقولُ له: مَهْلاً فلا اعتبارَ لِقَوْلِ الشَّاعِر ، لأنَّه يمثِّلُ رأْيَه ليكونَ كالمَثَلِ السَّائِر:

نَقِّلْ فُؤادَكَ حيثُ شِئْتَ منَ الهَوىٰ   مَا الحُبُّ إلاَّ للْحَبيْبِ الأَوَّلِ
كَمْ منْزِلٍ في الأَرْضِ يأْلَفُهُ الفَتَى   وحنيْنُه أَبَداً لأَوَّلِ منْزِلِ

* وقَدْ قيْلَ في الرَّدِّ عليهِ ، وعَدَمِ الالتِفَاتِ إليهِ:

افْخَرْ بِآخِرِ مَنْ كَلِفْتَ بحُبِّهِ   لَا خَيْرَ في حُبِّ الحبيْبِ الأَوَّلِ
أَتَشكُّ في أنَّ النَّبيَّ محمّداً   سَادَ البَرِيَّةَ وهو آخرُ مرسَلِ

* ونَقُولُ أيضاً:

العِلْمُ نُورٌ وَهُدَىٰ   فَكُنْ بِجِدٍّ طَالِبَه
واحْرِصْ عَلَيْهِ واعْتَمِدْ   فِيْهِ الأُمورَ الواجِبَه
مَنْ لازَمَ العِلْمَ عَلاَ   علىٰ الأَنَامِ قَاطِبَه

* لذلكَ فإنَّ كتابَنَا هذا: للعَالِمِ بُسْتَان ، وللعاشِق سلْوَان؛ وللمحبّ الصَّادقِ ، حبيبٌ موافِق؛ وللنَّاسي تَذْكرة ، وللأعمىٰ تَبْصِرة؛ وللشَّاعِرِ المجيدِ ، بيتُ القَصيد ، وللأَديْبِ الماهِر ، مثلٌ سَائِر؛ وللمحدِّثِ قَصَصٌ ، وللحاسدِ غَصَصٌ؛ وللمجالِس أنْسٌ ، وللمحاضِر هَمْسٌ؛ و......:

وَلِيْ فيْهِ نَظْمٌ إنْ تَضَوَّعَ نَشْرُهُ   ففِي طَيِّهِ حُلْو الكَلَامِ وَنَادِرُه
وَلِيْ فَيْه منْثُورٌ غَدَا فيْ مَقَامِهِ   وعَرْفُ شَذَاهُ مُشْرِقُ الرَّوضِ عَاطِرُه
وَلِيْ فيْهِ منْ سِحْرِ البيَانِ رسَائِلٌ   إذَا مَا جَفَاني أَحْوَرُ الطَّرْفِ سَاحِرُهُ

* نَعم ، فَنَفَحاتُ الأَزْهَارِ منْ شَذَا آدابِه ، ونَسَمَاتُ الأَسْحار منْ عِطْرِ أَهْدابِه ، و:

مَعَانِيْهِ الرِّيَاضُ لأَجْلِ هَذا   سَرَتْ أَلْفَاظُه مثْل النَّسيْمِ

* أجَلْ ، وإنَّكَ تَحْسبُ أَلفَاظَه دُرَّ السَّحاب ، وأهْنَىٰ منْ هَمسِ العُشَّاقِ في قُلوبِ الأَحْبَاب ، وفَوائِدُهُ أرخَصَتْ جواهِرَ البُحور ، المنظومةُ في قَلائِدِ اللبَّاتِ والنُّحور:

مَعَانٍ وألْفَاظٍ تَنظَّمُ منْهُمَا عُقُودُ لآلٍ في نُحُورِ الشَّمَائِلِ
وَزَهْرُ كَلامٍ كالحَدَائِقِ نَسْجُهُ غَنِيْنَا بِهِ عَنْ حُسْنِ زَهْرِ الخَمائِلِ

* وهذا الكتابُ يَجْلُو عَنِ النَّفْسِ سَحائِبَ الهُمُوم ، ويعتقُ من رقِّ الهُموم ، ويحلُّ بهِ الابتهاج ، ويزولُ مَعه الانْزِعَاج.

* وما ظنُّكَ بكتَابٍ كَريمٍ ، يشتملُ على فَضْل عميم ، وغنْمٍ جَسيم ، ظَاهِرُه روضٌ مَمْطُور ، ولؤلؤٌ منْثُور ، وسِرُّهُ سُرور ، وأُنْسٌ موفُور ، وينْجِي صَاحِبَه منَ الأَحْزَان ، ويُصْلِحُ ما بيْنَه وبينَ الزَّمَان ، فكمْ فيهِ منْ مَعْنىً لَطيْف ، في لَفْظٍ خفيْف؛ وما أجملَ قَول أَبي الفَتْح البُسْتي:

كِتَابُكَ سَيِّدي جَلَّىٰ هُمُوميْ وَحَلَّ بِهِ اغْتِبَاطِي وابْتِهَاجِي
كِتَابٌ في سَرائِرِهِ سُرورٌ مُنَاجِيْهِ عَنِ الأَحْزَانِ نَاجِ
فكَمْ مَعْنىً بديعٍ دَرْجُ لَفْظ هُنَاكَ مُزَاوِجاً أَيَّ ازْدوَاجِ
كَرَاحٍ في زُجَاجٍ بَلْ كَروحٍ سَرَتْ في جِسْمِ مُعْتَدِلِ المِزَاجِ

* ومَعَ أنَّ كتابَنا هذا يتحدَّثُ عنِ المَرأةِ الأندلسيّةِ ، إلاّ أنَّه أيضاً نُزْهَةٌ في مُتَنزَّهَاتِ تلك البلادِ الأُنْسيّةِ ، ووَصْفِ رياضَها السُّنْدسيّة حيثُ تَصْبُو الرُّوحُ إلىٰ تلكَ البِطاح ، التي تروِّحُ النُّفوسَ والأَرْوَاح ، وحَدَائِق تُعْشِي أنوارُهَا الأَحْداق ، وتُسلِّي بمناظِرِها قُلوبَ العُشَّاق.

* وقد وصفَ كثيرٌ منَ البُلغَاء أرْضَها المُشْرِقَة ، ورياضَها المورقَة ، ونسيمَها العَليل ، وزَهْرهَا البليْل ، و:

بَلَدٌ تَحفُّ بِهِ الرِّيَاضُ كَأَنَّه وجْهٌ جَميلٌ والرِّيَاضُ عذَارُهُ
وكأَنَّما واديْهِ مِعْصَمُ غَادةٍ ومنَ الجُسورِ المحكَماتِ سِوارُهُ

* وهذا البلدُ الجميلُ الأندلسُ هو بلدُ الرِّقةِ والعُذوبةِ الأنيقةِ ، بلدُ

اللطافة الرَّقيقةِ ، كأَنْسامِ السَّحَر في ربيعٍ دمشقيٍّ ساحِر ، وأنْفَاسِ العاشقِ في ليلٍ بقربِ محبوبته سَاهِر .

* فكمْ هيَّجَتِ الأندلسُ بجمالِها قلوبَ الثَّمالىٰ ، وداعَبتْ أقلامَ الحَيارى ، وفَتَنَتْ قلوبَ العَذارىٰ ، ورمتْهُم بسَهمِ لحظِها الفتَّان ، فهامُوا بها هيامَ العاشِق الولْهَان ، ودنِفوا لحبِّها ، وثمِلُوا على آهاتِها ، وسهروا علىٰ أنغامِ أمواهِها؛ فلقد أحبَّ أهلوها بلادَهم ، وتعلَّقَتْ بها أكبادُهُم ، وفُتِنوا بروضِها وسمائِها ، وتروَّحُوا بنسيمها ومائِها ، وتعلَّقوا بها تَعلُّقَ المحبِّ بِمَنْ يحبّ ، وإذا كان ذلك فإنَّ المحبَّ يصنعُ لأجلِ محبوبه المعجزات ، ويعطي في سبيلهِ الهِبات والصِّلاَت .

* ومحاسنُ الأندلسِ لا تُستوفىٰ في عِبَاره ، ومجاري فضلها لا يُشقُّ غباره ، وأنىٰ تُجارى وهي الحائزةُ قَصبَ السَّبْقِ ، في أقطار الغَرب والشَّرق!!

* قال أبو عُبيد البكريّ : الأندلسُ شاميّةٌ في طِيْبِها وهوائِها ، يمانيّةٌ في اعتدالِها واستوائِها ، هنديّةٌ في عِطْرِها وذكائِها ، أهوازيّةٌ في عِظَم جبايَتِها ، صينيّةٌ في جواهرِ معادنِها ، عدنيَّةٌ في منافِع سَواحِلها[١] .

* وقال أبو عَامر السُّلَميّ : الأندلسُ منَ الإقليم الشَّامي ، وهو خيرُ الأقاليم ، وأعدلُها هواءً وتراباً ، وأعذبُها ماءً ، وأطيبُها هواءً وحيواناً ونباتاً ، وهو أوسطُ الأقاليمِ ، وخيرُ الأُمورِ أوساطُها[١] .

* وسيجدُ القارىءُ الكريمُ في هذهِ الموسوعةِ وقْفَاتٍ وآراءً نَعرضُها بِكْراً ، ونجلو محاسِنَها ، وننفي خبائِثَها ، كما سيجدُ بعضَ اللطائفِ النَّادِرة ، وهو يسرِّحُ نَظَره وفكْرَه في أزْهار رياضِها المُزهِرة ، وسيطَّلعُ على أدبِ المرأةِ الأندلسيّةِ الذي يتبوأُ مكانةً عظْمىٰ في الأدبِ الأندلسيّ .

---

(١) نفح الطيب (١/ ١٢٨) طبعة دار الفكر .

* فالمرأةُ الأندلسيّةُ قد ساهَمتْ في بناءِ صَرحِ الأدبِ وتنميقِهِ وتزيينِهِ ، وأَثْـرَت مجالِسَه بالمناظراتِ والمُسَاجَلاتِ والمُطَارحَاتِ ، وساعدَ علىٰ ازدهارِ ذلكَ مباهجُ الحضارةِ الرَّاقيةِ التي غَلَّفَتْ جوَّ الأندلسِ بزُخْرفها ، ناهيك بجمالِ البيئةِ الأندلسيّة التي جعلَتْ أهلَها ينطقون برقائقِ الأشعَار ، عند نسَماتِ الأَسْحارِ ، فتزهرُ الآدابُ ، وتتغذَّىٰ الأَلْباب .

* ولمعتْ أسماءُ كثيرٍ منَ النِّساءِ في جوِّ الأندلسِ ، وغرَّدتْ كثيراتٌ منهنَّ علىٰ غُصْنِه الرَّطيْبِ ، بأجملِ الألحانِ ، وأندىٰ الكلماتِ ، وأعذبِ الهَمَسات .

* ومنَ الواضح أنَّ النّساءَ الأندلسيّات حرائر وإماء وجواري كُنَّ يشارِكْنَ في إثراءِ المعرفةِ والأدبِ النّسائي ، وإنْ كانتِ الحرائرُ والسَّيِّدات أكبرُ أَثَراً ، إلاّ أنَّ الجواري كُنَّ أبعدَ أثراً؛ بل إنَّ النِّساءَ بعامّةٍ كُنَّ مادّةً دسمةً للشُّعراءِ الأندلسيّين ، حيثُ راحُوا يفتنُّون ويتفنَّنُون بذكْرِ المرأةِ في شِعْرِهم وفي ألوانِ نَظْمِهم ، وخصوصاً في الغَزلِ ، وفي وصْفِ الطَّبيعةِ الأندلسيّةِ السَّاحرةِ الآسرةِ ، كما سنقرأُ في الفِقْرةِ التَّاليةِ:

المـرْأَةُ في غَـزَلِ الأَنْـدَلُـسيِّـن:

* كانتْ لهواتُ الشُّعراءِ تَـتَجاوبُ بالـغَـزَلِ في كلِّ صقْعٍ منْ أَصْقاعِ الأرضِ العربيّةِ في مشرِقها ومغرِبها ، ينفسونَ به عنِ الحُبِّ الّذي اختزنُوه في قُلُوبهم ، وعنِ الحرمانِ الممضِّ الذي أقضَّ مضاجِعَهم ، وعنِ الشَّوقِ الذي يجدونَه في نُفوسِهم ، فكانُوا يفتنُّون في وصْفِ مفاتنِ النِّساء الجسديّةِ والنّفسيّة .

* فقد اعتادَ معظمُ الشُّعراءِ تَشْبيهَ محاسنِ المرأةِ بمفاتِنِ الطَّبيعةِ ، كأَنْ جعلُوا قدَّها جَميلاً ميّاساً كالغُصنِ الرَّطيبِ ، وشَعْرَهَا الفاحمَ الطَّويل كالليلِ الطَّويلِ ، ووجهَها كالقمرِ ، وزنْـدَها كالجدولِ في نعومتِه

وانسيابِه ، واسمعْ لأحدِهم يصفُ زنْدَي امرأةٍ فيقول:

وزِنْــدانِ لــولا أُمْسِكَــا بَــأَسَــاورٍ لَسَالا مِنَ الأكْمامِ سَيْلَ الجداولِ

* غير أنَّ شعراءَ الأندلسِ أبدعُوا مع مشاهدِ الطَّبيعةِ السَّاحرة التي حفلَتْ بها بلادُهم الجميلةُ ، والتي ترفلُ في حُللها السُّندسيّة ، وكانَ منَ الطَّبيعي أنْ تشيعَ معالمُ الطَّبيعةِ في موضوعاتِ الغَزلِ ، ويسري نسغُها في عناصِرِ تصويرِ جَمالِ المرأةِ ، كَقَولِ المُعْتَضدِ بنِ عبّاد متغزّلاً:

نَضَتْ بُرْدَهَا عَنْ غُصْنِ بَانٍ مُنَعَّمٍ نَضيْرٍ كما انشَقَّ الكمَامُ عنِ الزَّهْرِ

* وأحياناً نَجِدُ الطَّبيعةَ عند بعضِ الشُّعراء متَّسِمَةً بملامحِ المرأةِ ، فهذا ابنُ سَهْل الإشبيلي يصوِّرُ بهاءَ الطَّبيعةِ ، مُستعيراً لها معنىٰ الـغَـزَلِ ، وواجداً في الأرضِ امرأةً حسناءَ تتبرَّجُ بزَهوٍ:

الأَرْضُ قـد لَبِسَـتْ رِدَاءً أَخْضَـرا والطَّلُّ يَنْثُرُ في رُبَاهَا الجَوهَرا
وكـأَنَّ سـوسَنَهـا يُصَـافِـحُ وَرْدَهَـا ثَغْــرٌ يقبِّــلُ مِنْــه خَــدّاً أَحْمَــرا

* وأكثرُ ما تتجلّىٰ مفاتِنُ الطَّبيعةِ معانقةً لمحاسنِ المرأةِ في غَزَلِ ابنِ زيدونَ ، حتّى ليصعبُ التَّمييزُ خلالَ أشعارِه في كثيرٍ منَ الأحيانِ بينَ ملامحِ المرأةِ ، وبين مشاهدِ الطَّبيعة ، وذلك في مِثْلِ قافيتِهِ المشهورةِ الجميلةِ:

إنّـي ذكـرتُـكِ بـالـزَّهْـراءِ مُشْتَـاقـا والأفقُ طَلْقٌ ووجْهُ الأَرضِ قَدْ راقَا
وللنّسيـمِ اعتــلالٌ فــي أصـائِلـهِ كـأنّمـا رقَّ لـي فـاعتـلَّ إشْفَـاقـا
والرَّوضُ عن مائِهِ الفِضّي مبتسمٌ كمـا شَقَقْـتِ عـن اللَّبـاتِ أَطْـواقـا

* وأمّا ابنُ خَفَاجَة شاعرُ الطَّبيعةِ الأكبر في الأندلسِ ، فهو يزاوِجُ بينَ الطَّبيعةِ والمرأةِ في أكثرِ شِعْرِه ، وكم تألَّقَتْ ربوعُ بلادِهِ الجميلةِ في مخيّلَتِه فتاةً حسناءَ لمياءَ تأخذُ بمجامعِ القَلْب:

إنَّ للجنَّــةِ فــي الأَنْــدلُــسْ مُجْتَلَــى حُسْــنٍ وريّــا نَفَــسِ
فَسَنَــا صُبحتِهــا مــنْ شَنَــبٍ ودُجَــىٰ ظُلمتِهــا مــنْ لَعَــس

* والأراكةُ الباسقةُ عند ابن خفَاجَةِ ليستْ سوىٰ حسناءَ ، وأيّ حسناء!؟!

وأَراكـةٍ ضَـرَبَـتْ سمـاءً فَـوقَنـا   تَنْـدى وأَفْـلاكُ الكـؤوسِ تُـدارَ
وكـأنَّهـا وكـأنَّ جـدولَ مـائِهـا   حَسْنـاءُ شُـدَّ بخصـرِهـا زنّـارُ

* وابن خفَاجةَ شاعرٌ مِفَنٌّ ، يبرِزُ جمالَ المرأةِ ممزوجاً بمفاتنِ الطَّبيعةِ ، فالطَّبيعةُ غادةٌ حسناءُ كثيرةُ التَّثنّي ، ازدهت بأبهى حليّ ، وازدانَتْ بأحلىٰ زينةٍ ، جميلة السَّوالف ، و:

وصقيلَـةِ الأَنْـوارِ تلـوي عطفَهـا   ريـحٌ تلـفُّ فـروعُهـا معْطَـارُ
والنّورُ عَقْدٌ والغُصون سَوالفٌ   والجـذعُ زنْـدٌ والخليـجُ سـوارُ

* وتتكرّرُ الصُّورةُ عند ابنِ خفَاجَة بألوانٍ زاخرةٍ بالحياةِ الممزوجةِ بينَ الطَّبيعةِ وسحْرِ المرأةِ ، كما نقرأُ ذلكَ في وصْفهِ النَّهر:

للهِ نَهْـرٌ سَـالَ فـي بَطْحـاء   أَشْهـى وروداً مـنْ لَمـى الحَسْنَاءِ
متعطّـفٌ مثْـل السّـوار كـأنَّـه   والـزَّهْـرُ يكنفـه مجـرُّ سَمـاءِ
وغَدَتْ تحفُّ بهِ الغُصون كأنَّها   هَـدَبٌ يحـفُّ بمقْلَـةٍ زَرْقـاءِ

* لقد شُغِفَ ابنُ خفاجةَ بالمرأةِ وبالطَّبيعةِ حتى يحقُّ لنا أنْ نلقِّبه شاعر الجنَان ، فإذا وصفَ المرأةَ ، نابَتْ نضَارةُ الطَّبيعةِ عنها:

يـا بَـانَـةً تهتـزُّ فَيْنَـانَـةً   وروضَـةً تنفـحُ مِعْطَـارا
للهِ أعطـافُـك مـنْ خُـوطَـةٍ   وحبّـذَا مـن نـورك النّـورا

* وإذا وصفَ السَّفينةَ في الماءِ بَدت امرأةً من خلال وصْفه:

وجَـاريـةٍ ركبْـتُ بِهـا صَبـاحـاً   يطيـرُ مـنَ الـرّيـاحِ بهـا جنَـاحُ
إذا المـاءُ اطمـأنَّ فَـرَقَّ خَصْـراً   عَـلا مـنْ مـوجِـهِ ردْفٌ ردَاحُ

* ويحلو الغَزلُ وتحلو المرأةُ عند أبي بكْر بنِ عمّار في رحاب الطَّبيعةِ الجميلةِ فيقول:

والرَّوضُ كالحَسْنَا كَسَاهُ زَهْرُه وشْيــاً وقلَّــده نَــداهُ جَــوْهَــرا

* وابنُ حمديس يجعلُ المرأةَ الفاتنةَ والطَّبيعةَ الجميلةَ مُنىٰ روحِه:

طَـرقْـتْ والليـلُ ممـدود الجنَـاح مرحِّباً بالشَّمس في غيرِ صَبَاح
غــادةً تحمــلُ فــي أجفــانِهــا سقمــاً فيــه منيّــات الصّحــاح
فــالقضيــبُ اهتــزَّ والبــدرُ بــدا والكثيــبُ ارتــجَّ والعنبــر فَــاح

* لقد ملأتِ المرأةُ الأندلسيّةُ دنيا الشُّعراء بالإلهامِ، وامتزجتْ كلماتُهم السَّاحرةَ بسحرها، وقد لمَسَ المقّري في «نَفْح الطِّيب» هذه الظَّاهرةَ الرَّاقصةَ الرَّائعةَ لدى شعراء الأندلس فقال: إنَّهم إذا تغزّلُوا صاغُوا منَ الوَرْدِ خُدوداً، ومنَ النَّرجسِ عُيوناً، ومن الآسِ أَصْداغاً، ومنَ السَّفرجَلِ نُهوداً، ومن قَصَبِ السُّكَّرِ قدوداً، ومن قلوبِ اللوزِ وسُرَرِ التُّفاحِ مباسمَ، ومن ابنةِ العِنَب رضاباً...

الـنِّسَــاءُ الـغَـزِلاَتُ:

ما منْ شَكٍّ في أنَّ المرأةَ كالرَّجُل تحبُّ وتتشوّقُ، وتتذكّرُ وتتمنّىٰ، وإذا كانتْ شاعرةً أديبةً، فإنَّ المتوقَّع أنْ تتغنّىٰ حبّها في شِعر تُزْجيهِ العاطِفَة الهَادئة.

* ومنَ الطَّبيعي أنْ يتَّسم غَزَلُ المتغزّلاتِ بالكتْمانِ، لأنَّ النِّساءَ مطبوعاتٌ على الاستحياءِ من الجهْرِ بحبِّهنَّ، ومجبولاتٌ على كتمانِ الهوى المعتلج بقلوبهنَّ، بينما يحبُّ الرّجلُ فلا يطيقُ أنْ يحتبسَ حُبَّه، فيعبّرُ عن مشاعرِهِ بقصيدٍ يقرضُه، أو لحنٍ ينشدُه، ويطيرُ به خيالُه في فضَاءٍ رحْبٍ، فيملأُ الدُّنيا غَزَلاً، ولقد يفتنُّ فيتغزَّلُ غزلاً روحياً يصوِّرُ محبوبَتَه مَلَكاً، أو يتغزَّل غزلاً حسيّاً يصوِّرُ جمالَها، ويكشفُ عن بدعِها.

* أمّا المرأةُ فتحبُّ، ولكنّها تسرُّ عاطفتَها، وتكتمُ مشاعِرَها،

وتحبسُ حُبَّها في صدرِها ، على أنَّها ليستْ أقلّ منَ الرّجلِ حبّاً ، لذلك نَجِدُ كثيراتٍ منهنَّ يعمدنَ ـ أحياناً ـ إلى السِّحْرِ والرُّقىٰ لاجتذابِهِ إلى فلكِهِنَّ ، وتتجمَّلُ وتتزَّينُ وتتمنعُ لاختلابِه.

* إنَّ حُبَّ الرَّجُلِ يمتازُ بأنَّه سافرٌ ناطقٌ ، وحبُّ المرأةِ يمتازُ بأنَّه محجَّبٌ صامِتٌ ، ثمّ إنَّ المرأةَ مطلوبةٌ مرغوبةٌ ، فهيَ إذاً قديرةٌ علىٰ كتْمانِ عاطفتها ، لأنَّ مقاليدَ الحُبِّ بيدها لا بيدِ الرّجُل.

* وقليلاً ما يغلبُها الحبُّ فتبوحُ ، لأنَّ الرَّجُلَ أَغْراها بوعودِه ، وسَحَرها بنشيدِه ، وفكَّ عقْدةَ لِسَانِها ببلاغَتِه ، أو لأنَّها ضاقَتْ بما تَجِدُ ، فنبسَتْ بكلمةٍ ، أو تخفَّفَتْ من ثِقَل الحُبّ بأبياتٍ منَ الشِّعْرِ ، ولكنَّ هذا نادرٌ نَزِر.

* يقولُ أبو عثمان الجاحظُ: والمرأةُ تحبُّ أربعين سَنة ، وتقوى علىٰ كتمانِ ذلك ، وتبغضُ يوماً واحداً فيظهر ذلك بوجهِها ولسانِها ، والرَّجلُ يبغضُ أربعينَ سنة فيقوى على كتمانِ ذلك ، وإنْ أحبَّ يوماً واحداً شهدت جوارِحُه[1].

* ولقد تغزّلتِ المرأةُ الأندلسيّةُ ، وكانَ غزلهُا يبدو في عدّةِ مظاهر ، فهيَ تبُوحُ بالحبِّ والشَّوق وإن لَقِيتْ نكَالاً كحفصةَ الرّكُونيّة ، وقد تصوِّرُ شوقَها ولهفتَها إلىٰ الحبيبِ كالشِّعْرِ المنسوبِ إلى ولاّدة ، وقد تسترُ حبَّها فتتجهُ بغَزَلِها إلىٰ محاكاةِ الطَّبيعةِ ، أو محاكاةِ الغَزَالِ مثل قسمونةَ بنتِ إسماعيل وغيرِها.

* إذاً ، لقد كانتِ النِّساءُ الأندلسيّاتُ يتغزلْنَ ويبدعْنَ في هذا المجالِ وغيرِه؛ ومنْ روائعِ الأَغْزالِ النّسائيّةِ الجميلةِ ما نسمعُه من غَزلِ حفصةَ بنت الحاجِ الرّكونيّة:

---

(١) المحاسن والأضداد (ص١٧٩) طبعة مصر ١٩١٢م.

ثَنَـائي علىٰ تِلْكَ الثَّنـايا لأنّني أقولُ على علْمٍ وأنطقُ عَنْ خُبْرِ
وأُنْصِفُهـا لا أكـذبُ اللهَ أنّنـي رشَفْتُ بِها ريقاً أَلَذَّ منَ الخَمرِ

* وفي رحلةِ غَزَلٍ أُخرىٰ نستمعُ إلىٰ حفصةَ بنتِ حمدون وهي تتغزّلُ في ابن جميل فتقول:

لَه خُلُقٌ كالخَمرِ بَعْدَ امتزاجِها وحُسْنٌ فما أحْلاَه منْ حينِ خَلْقَتِه
بِوجْهٍ كَمثْلِ الشَّمْسِ يدعو ببشرِه عيـونـاً ويُعْشيهـا بـإفـراطِ هَيْبتِـه

* ونجدُ ألواناً منَ الغَزَلِ النّسويِّ الأندلُسيِّ ، فقد تتغزَّلُ المرأةُ بِنَفْسِها أحياناً ، وتبرزُ ملاحتَها ، وتتحدَّثُ عن حُسْنِها ومحاسِنها ، ويظهرُ هذا اللون عند حفصةَ بنتِ الحاج الركونيّة فتقولُ:

زَائِـرٌ قَـدْ أَتَـى بِجِيْـدِ الغَـزَال مطْلَـعٌ تَحْـتَ جنْحِـهِ لِلْهِــلاَلِ
بِلحاظٍ منْ سِحْرِ بَابِلَ صِيْغَتْ ورُضَـابٍ يفـوتُ بنْـتَ الـدَّوالـي
يفضحُ الوردَ ما حوىٰ منه خدٌّ وكـذا الثَّغْـرُ فـاضِـحٌ لـلآلـي

* وربّما تتغزَّلُ المرأةُ الأندلسيّة بأُنْثَى مثْلَها ، وتجعلُ منها مهاةَ حُسْنٍ يَسبي فؤادَهَا ، وألحاظُها تَفْتِكُ بها ، أمّا ذوائبُها فتتركُ حبّاتِ القلوبَ ذوائباً ، اسمعْ إلىٰ قولِ حمدةَ بنتِ زياد تَصِفُ وتتغزَّل بفتاةٍ أعجَبتْها منْ بينِ فتياتٍ جميلاتٍ كُنَّ يسْبَحْنَ:

وَمـنْ بيـنِ الظِّبـاءِ مَهَـاةُ حُسْـنٍ سَبَـتْ لُبِّـي وقَـدْ مَلَكَـتْ فُـؤادي
لَهَـــا لَحْـــظٌ تُـــرقِّـــدُه لأَمْـــرٍ وذَاكَ الأَمْـــرُ يمنعنـــي رقَـــادِي
إذَا سَـــدَلَـــتْ ذَوائِبَهـــا عَلَيْهـــا رأَيْـــت البَـــدْرَ فـــي أُفُـــقِ السَّـــوادِ

* ونجدُ منْ بينِ النّساءِ الأندلسيّاتِ مَنْ تَصِفُ جمالَها وتفرّدهَا في عالَم المِلاحِ ، فهذه حفصةُ بنتُ حَمدونَ تصِفُ جمالَها في معرِضِ حديثها عنِ الجمالِ والجميلاتِ فتقولُ:

لــي حبيْــبٌ لا يَنْثَنــي بِعتَــاب وَإذا مـــا تـــركْتُـــه زَادَ تِيْهـــا
قالَ لي هَلْ رَأَيْتِ لِيْ منْ شَبيهٍ قُلْتُ أيضاً وهَل ترىٰ لي شَبِيْها؟

* وهذه قسمونةُ بنتُ إسماعيل تصفُ جمالَها ، وتتحسَّرُ عليهِ ، فتقولُ مخاطبةً ظبيةً حوراءَ جميلةً:

يـا ظَبْيـةً تـرعـىٰ بِـرَوضٍ دائمـاً　　إنّي حكيتُكِ في التَّوحُّشِ والحَوَر
أمسىٰ كِلانا مُفْرداً عن صاحبٍ　　فلنصطبـرْ أبـداً علـى حُكْـمِ القَـدَر

* وسنقرأُ ونرىٰ في هذهِ المقدّمةِ وهذا العَرْضِ ألواناً أخرىٰ من معارفِ المرأةِ الأندلسيّةِ وعلومِها وآدابِها.

دِيـنُهَـا وَفَضْلُـهَـا:

* كانَ منْ بينِ الأندلسيّاتِ نساءٌ فاضِلاتٌ عُرِفْنَ بالدِّينِ والعِلْمِ ، فقد كانتْ مريمُ بنتُ أبي يعقوبَ تعلِّمُ النِّساءَ الأدبَ ، وتحتشمُ لدِيْنها وفَضْلِها ، حتّى شبَّهَها أدباءُ عَصْرِها بأنَّها تحاكي مريمَ العَذْراء في عفّتها ، والخنساءَ في أدبِها وشِعْرِها:

أَشْبَهْتِ مريمـاً العـذراءَ في وَرَعٍ　　وفُقْتِ خَنْسـاءَ في الأَشْعَارِ والمَثَلِ

* وكذلكَ طونةُ بنت عبد العزيز زوجُ أبي القاسم بن مديرِ الخطيبِ المُقرىء ، كانت فاضلةً ديّنةً قارئةً مجوِّدَةً.

* ومنَ الفاضلاتِ الدَّيِّناتِ فاطمةُ بنتُ يحيىٰ المغَامي التي كانت خيّرةً فاضلةً عاملةً فقيهةً؛ ومنهنّ خديجةُ بنتُ أبي عبد الله بن سعيد الشَّنتجيالي العالمةُ الخيّرةُ الفاضلةُ؛ وغيرهنّ كثيراتٌ جدًّا ممن يطّلعُ علىٰ أخبارهنَّ القارىءُ في ثَنَايا هذا الكتابِ.

عُلُومُـهَـا ومَعَارِفُـهـا:

* لم تكنِ المرأةُ الأندلسيّةُ بمعزلٍ عنِ العِلْمِ وعنِ المعرفَةِ والعِلْم ، وإنَّما طرقَتِ النِّساءُ الأندلسيّاتُ أبوابَ المعرفةِ ، وتضلعْنَ في العُلُومِ الفقهيّة والحديثيّةِ والفرائضِ وسائرِ ألوانِ المعارفِ والعُلُوم.

* والمتتبِّعُ آثارَ وأخبارَ النِّساءِ الأندلسيّاتِ يَجدُ كثيراتٍ برعْنَ في ميدانِ العِلْمِ والرِّوايةِ ، فهذه امرأةٌ راويةٌ تُدعىٰ أمَّ السَّعد القُرطبيّة تروي عن أبيها وجدها وغيرهما منْ أهلِ بيتها.

* وظهرَ منْ بينِ النِّساءِ الأندلسيّات عالماتٌ حافظاتٌ طبيباتٌ ، جَمَعْنَ مِنْ كلِّ علْم بطَرف ، ومنهنّ أمُّ الحسن بنتُ أبي جعفرَ الطَّنجاليِّ التي كانتْ ثالثةُ حمدةَ وولادةَ ، وفاضلةُ الأدبِ والمجادة ، وكانت أديبةً طبيبةً عالمةً.

* وكذلك نقرأُ عن عائشة بنتِ أحمدَ القُرطبيّة التي لم يكنْ في مِصْرِها مَنْ يعدلُها فَهْماً وعِلْماً وأَدَباً وشعْراً ، وفَصَاحةً وعفّةً وجَزالةً وحَصَافةً ، وكانتْ عائشةُ هذه شديدةَ الشَّغَفِ بالعِلْمِ والمعرفةِ ، ولَها خزانَةُ كتبٍ نفيسةٍ ، حتى قالَ عنها ابنُ بشْكوال: كانَتْ تعنىٰ بالعِلْم ، ولها خزانَةُ علْمٍ كبيرةٌ حَسَنَـةٌ ، ولها غنىً وثروةٌ ، تعينُها علىٰ المروءةِ.

رِيَـاسَتُـهَـا وَإِبَـاؤُهَـا:

* في تاريخ نساءِ الأندلسِ نلمحُ كثيراتٍ قد وُلدْنَ مع الرِّياسةِ ، وكنَّ أميراتٍ ولهنَّ أثرٌ كبيرٌ في تاريخِ المرأةِ الأندلسيّةِ ، فقد كُنَّ ذوات آثارٍ محمودةٍ في صعيدِ الحياةِ الاجتماعيّةِ والسِّياسيّة والأدبيّة.

* وقد برزتْ نساءٌ لهنَّ نصيبٌ في هذا المجالِ ، وكُنّ من ربّات العَقْلِ ، والصَّلاحِ والفَضْلِ ، وعُرفْنَ برباطةِ الجأْشِ ، وإثراءِ التَّاريخِ بجلائلِ الأعمالِ والأقوالِ.

* ومن مشاهيرِ النِّساء الأندلسيّات عائشةُ بنتُ أبي عبد الله الأَيْسر ، المعروفةِ باسْم «عائشة الحرّة» ، وهي أمُّ آخرِ ملوكِ غرناطة بالأندلسِ ، وهي التي كانَ لها دورٌ كبيرٌ في تثبيتِ ابنها أبي عبد الله الصَّغير على العرشِ مدّةً منَ الزَّمنِ ، ولها كلمتُها المشهورةُ السائِرةُ التي تخاطبُ ابنَها

عندما خرجَ منْ غَرناطةَ ، وسلَّمَ مفاتيحها للإفرنج :

إبْـكِ مثْـلَ النِّسـاءِ مُلْكـاً مُضَـاعـاً   لـم تُحـافِـظْ عليـهِ مثْـلَ الـرِّجـالِ

* ومنَ الرّئيساتِ الأميراتِ اعتمادُ الرّميكيّة التي شَغَلَتْ قلبَ المعتمدِ ابنِ عبّاد ، وملأَتْ نَفْسَه وساعَدَتْـهُ في كثيرٍ من أموره ، واحتملتْ معه مرارةَ الأَسْرِ في مدينةِ أغْماتَ بالمغربِ ، وذات مرّة شَقَّ عليها الأَسْرُ ـ وهي الرّئيسةُ الأميرةُ ـ فقالتْ للمعتمدِ : يا مولاي لقد هُنَّا هُنَا ، فقالَ المعتمدُ ـ رحمه الله ـ :

قَـــالَـــتْ لَقْـــدَ هُنَّـــا هُنَـــا   مَـــوْلاَيَ أَيْـــنَ جَـــاهُنَـــا

قُلْـــــتُ لَهَـــــا إلَهُنَـــــا   صَيَّـــرَنَـــا إلَـــىٰ هُنَـــا

* وعن نكبةِ المعتمدِ يقولُ صلاحُ الدِّين الصَّفدي : قَدْ جرحَتْهُ الليالي ولَمْ تأْسُهُ ، وفَقَدَ عنْدَ الشِّدَّةِ رهْطُهُ وناسُهُ ، وواقِعَةُ المعتمدِ بنِ عبّاد صَدَعَتِ الأكْباد ، ودكَّت لها من القُلوب أَطْواد ، فإنَّه لَمْ يَجْرِ علىٰ مَلِكٍ مَا جرىٰ عليهِ ولا ذَويه ، ولا أُصِيْبَ أحدٌ بمصيبتِهِ في مُلْكِهِ ومالِه ونَفْسِه وبنيه ، ومارعتِ الأيّامُ له حُقوقَه ، ولا أَرَتِ المعَالي بَعْدَ غروبِه شُروقَه ، ولا عَدَتْ أَنْ عُدَّتْ بنوه الأَمْلاكُ في السُّوقَة[1] .

* ومع كُلِّ هذا ظلَّتِ اعتمادُ ذاتَ رياسةٍ ، وكان لها مواقفُ تشيرُ إلى عُلو همّتها ، وإنْ كانَ لها بعضُ الدَّلالِ على زوجِها ـ كما سنقرأُ ذلك في سيرتِها ـ .

* ومنَ الأميرات اللواتي لهنّ أثارةٌ وأثرٌ في الشَّهامة وعزّةِ النَّفس والرِّياسةِ : بثينةُ بنتُ المعتمد بن عبّاد ، وأمُّ الكرم بنتُ المعتصم بن صُمَادح وغيرهما .

---

(١) انظر : الغيثُ المسجم في شرح لاميّة العجم (٢/ ٢٩٧) .

الخَطَّاطَاتُ الأَنْدَلُسيّاتُ:

* لا شكَّ في أنَّ العربَ المُسلمينَ قد اهتمّوا بالخطِّ، وعُنُوا بهِ عنايةً فائِقةً، حتّى غَدا من فنونِهم المتميزةِ مع الفنونِ الأُخرىٰ كالأدبِ والشِّعْرِ وروايةِ الأَخْبارِ وغيرِ ذلك.

* وكانتْ هناكَ نساءٌ أندلسيّاتٌ أحبَبْنَ هذا الفنَّ العظيمَ، وبرعْنَ وأبدعْنَ في الخطِّ الذي اشتُهِرَ بهِ الرِّجَالُ؛ وظهرتْ طائفةً منَ النِّساءِ عُرِفْنَ بتجويدِ الخطِّ وتجميلهِ، ومنهنّ صفيّةُ بنْتُ عبدِ الله الرَّيي التي كانَتْ موصوفةً بحُسْنِ الخطِّ، والتي كانَتْ أديبةً شاعرةً، فقد وَرَدَ أنَّ امرأةً قد عابَتْ خطَّها حَسَداً، فقالَتْ صفيّةُ:

وَعَائِبَةٍ خَطّي فَقُلْتُ لَها اقْصُري ... فَسوفَ أُريْكِ الدُّرَّ في نَظْم أَسْطُرِي
وَنَادَيْتُ كَفّي كَي تَجُودَ بِخَطِّهَا ... وقرَّبْتُ أَقْلامي ورقّي ومحْبَرِي
فَخَطَّتْ بأَبْياتٍ ثَلاثٍ نَظَمْتُها ... ليبدو بها خَطّي فَقلْت لهَا انْظُرِي

* ولم تكنْ صفيّةُ هذه متفرِّدةً في هذا الفَنّ الجميلِ، بل كانتْ هنالِكَ خطَّاطاتٌ أندلسيّاتٌ نابغاتٌ بحسنِ الخطّ منهنّ: فاطمةُ بنتُ زكريا الشَّبلاري، وطونةُ بنتُ عبد العزيز، وريحانةُ جاريةُ الطَّبيب أبي عبد اللهِ الكنانيّ التي اشْتُهِرتْ بجودَةِ الكِتابَةِ، وعائشةُ بنتُ أحمدَ القرطبيّ التي كانَتْ حسنةَ الخطّ وتكتبُ المصَاحِفَ، وغيرُهنّ كثيراتٌ جدّاً، وقد ذكَرْتُ معظمهنَّ في هذا الكتابِ النَّفيس.

شِعْرُهَا وَأَدَبُهَا:

* كانَ للمرأةِ العربيّةِ بعامّةٍ والأندلسيّة خاصّة نصيبٌ مرموقٌ في مَجالِ الشِّعْرِ والأَدَبِ، وقد اهتمَّ الأمراءُ والخُلفَاءُ في الأندلسِ بتربيةِ المرأةِ من جميعِ نواحي المعرفةِ، وكانوا يفضّلُون المرأةَ المتعلّمةَ علىٰ غيرِها من النِّساءِ، كما كانوا يفضّلونَ الجواري المتأدّباتِ على غيرهنَّ منَ النِّساءِ،

وكانُوا يدفعونَ في شرائهنَّ الأثمانَ الباهظةَ والخياليّةَ أحياناً.

* فقد كانَتْ هناكَ أوانسُ كَاتباتٌ شَاعِراتٌ راوياتٌ لأعذبِ الشِّعْر، وحافظاتُ لغرائبِ الأَخْبارِ ونوادرِ الأشعْارِ، وقد نافَسْنَ الرِّجالَ في العِلْم والأَدَب والشِّعْرِ.

* وممَّنْ علا صيتُها في عَصْرِها في هذا المجالِ نزهونُ بنتُ القلاعيّ التي كانَتْ أديبةً شاعرةً سريعةَ الجوابِ، صاحبةَ فُكاهَةٍ ودعَابةٍ، وحفْظِ الشِّعْر، والمعرفَةِ بضربِ الأمثالِ، مع جمالٍ فائقٍ وحُسنٍ رَائق؛ فَقَد وردَتْ مواردَ الأَدبِ ونهلَتْ منْها، واستطاعَتْ أنْ تصدَّ بشَّارَ الأندلس أبا بكر المخزوميّ الأعمىٰ بقولِها:

إنْ كَانَ مَا قُلْتَ حقّاً ... مِنْ بَعْضِ عَهْدِ كَرِيْمِ
فَصَارَ ذِكْرِي ذَميْماً ... يُعْزَىٰ إلىٰ كلّ لَوْمِ
وَصِرْت أَقْبَح شَيءٍ ... مِنْ صُورَةِ المَخْزُومي

* وتتجلّىٰ شاعريّةُ نزهونَ وسخريتُها وظرفُها حين سخرتْ من أحَدِ قِبَاحِ الوجوهِ حيْنَ خَطَبها، وأمَرَتْهُ أنْ يضَع البُرقُعَ كَيْلا يُؤذي النَّاسَ بقُبحِهِ.

* كما كانتْ نزهونُ الغرناطيّةُ هذه شَاعرةً وشَّاحةً، ولها موشَّحٌ منْ أجملِ الموشَّحاتِ ذات النَّفَسِ النِّسائيّ علىٰ الإطلاقِ، وسيطَّلِعُ عليه القارىءُ الكريمُ في ترجمتها.

* وقد ظهرتْ نساءٌ شواعرُ بلَغْنَ السُّهَا في مِضْمارِ الشِّعْر، من مثلِ حفْصَةَ بنةِ الحاج الرّكونيّة، التي بلغتْ منزلةً لا يُسْتَهانُ بها في الأَدَب، حيثُ كانتْ أديبةً شاعرةً جميلةً مشهورةً بالحَسَبِ والمالِ؛ وقد وصفَها لسانُ الدِّين بنُ الخطيب بقولهِ: حفصةُ بنتُ الحاج الرّكونيّة فريدةُ الزَّمانِ في الحُسْنِ والظَّرفِ والأدبِ واللوذعيّة، كانَتْ أديبةً نبيلةً، جيدةَ البديهةِ سريعةَ الشِّعْر.

* لذا فَقَدْ كانَتْ حفصةُ الرّكونيّةُ أستاذةَ الشَّواعرِ في عَصْرِها ، وأستطيعُ أنْ أقولَ: إنَّها كانَتْ أميرةُ الشَّاعِراتِ في عَصْرِها ومصْرِها ، ومن رقائقِ شِعْرها قولُها:

أَغَارُ عَلَيْكَ مِنْ عَيْني رقيْبِي ومنْكَ ومِنْ زَمانِكَ وَالمَكَانِ
وَلَو أنّي جَعَلْتُكَ في عُيُوني إلىٰ يَومِ القِيَامَةِ مَا كَفَانِي

* ومنْ شِعْرِها الرَّائقِ الذي يدلُّ علىٰ تبحُّرِهَا في الأَدَبِ ، ما ورَدَ أنَّ امرأةً منْ أعيانِ غَرناطةَ سألَتْها أنْ تكتبَ لها شيئاً ، فكتَبَتْ إليْها:

يَا رَبَّةَ الحُسْنِ بَلْ يا رَبَّةَ الكَرَمِ غضّي جُفُونَكِ عمَّا خَطَّهُ قَلَمِي
تَصَفَّحيْهِ بِلَحْظِ الوُدِّ منعِمَةً لا تَحْفَلِي بِرَديءِ الخَطّ والكَلِمِ

* ولحفصةَ الرّكونيّةُ مداعباتٌ ومطارحاتٌ تَشْهَد بعلوّ منزلتِها في عالَم الشَّاعِراتِ وعالَم النِّساءِ الأندلسيّات اللواتي يتعاطيْنَ الأدبَ.

* وأمَّا حمدةُ بنتُ زياد شاعرةُ الطَّبيعةِ الأندلسيّةِ ، وصَنوبريّة الأندلسِ ، فهيَ شاعرةُ جميع الأندلسِ ، وخَنْساءُ المغْربِ ، قال عنها لسانُ الدِّين بنِ الخَطيْب: حَمْدَةُ نَبيلةٌ ، شَاعرةٌ ، كَاتِبَةٌ.

* وقالَ عنها ابنُ الأبَّار: هي إحدى المتأدِّباتُ المتصرّفاتُ المتغزّلاتُ المتعفِّفاتُ.

* ومنْ شِعْرِها الجميلِ السَّائِر قولُها:

ولمَّا أَبَىٰ الواشُونَ إلاّ فِراقَنَا وَمَا لَهُمْ عنْدي وعنْدَكَ مِنْ ثَارِ
وشَنُّوا عَلىٰ أَسْماعِنَا كُلَّ غَارةٍ وقَلَّ حُماتي عنْدَ ذَاك وأَنْصَارِي
غَزَوْتَهُمْ مِنْ مُقْلَتَيْكَ وَأدْمُعي ومنْ نَفْسي بالسَّيْف والسَّيْل والنَّار

* واشتُهرتْ حمدةُ ـ هذه ـ بوصفِها لوادي آش بالميميّةِ المشهورةِ التي يحفظُها معظمُ المتأدّبين ، والتي تشهدُ لحمدةَ بحسنِ الدِّيباجةِ ، ورونقِ الكلماتِ ، وسحْر الهمسَات حيثُ تقولُ:

وَقَـانَـا لَفْحَـةَ الـرَّمْضَـاءِ وَادٍ   سَقَـاهُ مُضَـاعَـفِ الغَيْـثِ العَمِيْـمِ
حَلَلْنَـا دَوْحَـه فَحَنـا عَلَيْنَـا   حُنُـوَّ المُـرضعَـاتِ عَلـىٰ الفَطِيْـمِ
وَأَرشَفَنَـا عَلـىٰ ظَمـأٍ زُلاَلاً   أَلـذّ مـنَ المُـدامَـةِ للنَّـديـمِ
يَصـدُّ الشَّمـسَ أنّـىٰ واجَهتَنَـا   فَيحجبُهـا ويـأْذَنُ للنَّسيـمِ
يَـروعُ حَصَـاهُ حَـالِيَـةَ العَـذَارىٰ   فَتَلْمِـسَ جـانِـبَ العِقْـدِ النَّظيْـمِ

* وهناكَ شاعراتٌ وأديباتٌ في هذهِ الموسوعةِ قد حلَّقْنَ في سَمَاءِ الأَدبِ والشِّعْر ، ومنهنَّ ولادةُ ـ المزعومةُ ـ وحسَّانَةُ التَّميميَّةُ ، وأمُّ العلاءِ بنتُ يوسُفَ الحِجاريّة ، وغيرُهن ممّن نُظِمْنَ في هذا العِقْد النَّفيسِ.

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّه ليسَ بصحيحٍ كلَّ شِعْرٍ عُزِيَ إلىٰ بَعْضِ النِّساء الأندلسيّاتِ ، فإنَّ بعضَه دخيلٌ عليهنَّ ، نَحَلَه بعضُ الرُّواةِ إياهُنَّ ، وقد يكونُ بعْضُه لشاعرةٍ ويُنْحَلَ أُخرىٰ ، وبعضُه لشاعرٍ وينحلَ شَاعِرة ، وبعضُه منْ عَملِ الرَّاوي أو المؤلِّف.

* ولا عجبَ في هذا فَقْد اختلقَ الرُّواة شخصيّةً طويلةً عريضةً ليس لها وجودٌ هي ولادةُ بنتُ المستكفي الخليفة الأمويّ ، ووضعوا على لِسَانِها منْ رائقِ الشِّعْرِ وذائِعه مالا يجيدُه أكابرُ زعماءِ الشِّعْرِ في عَصْرِها ، كما صاغُوا حَولَها كثيراً منَ الأَحْداثِ التي لا وجودَ لها ، وهي ضَرْبٌ منَ الخَيالِ والأَوْهَام(١) ، وسيجدُ القارىءُ اضطرابَ بعضِ الأَشْعارِ في نِسْبَتها إلىٰ ولادة ـ المزعومةِ ـ وغيرِها منَ الشَّاعرات الأندلسيّات من خلال قراءَته لهذا الكتاب.

---

(١) هناك كثيرٌ منَ الشّخصياتِ المصنوعةِ الموضوعةِ في التّاريخ النّسوي، وليستْ ولادةُ وحدَها مزعومةً، فقد تكون هناك ولادة ولكن ليستِ ابنةَ المستكفي. كما أنَّ الرواة وبعض أهلِ الأخبار قد صنعوا منْ قبل بناتٍ لبعضِ الصَّحابة، وقد كَشَفْنا اللثامَ عن ذلك بفصل وبابٍ خاص من كتابنا «بنات الصَّحابة» فليراجع.

رِثَـاؤُهَـا وَحُـزْنُـهَـا :

* لعلَّ الرِّثاءَ هو الفنُّ الشِّعْريُّ الفَسيحُ الذي تنطلقُ فيه عواطفُ المرأةِ الأندلسيّةِ لأنَّه نوعٌ منَ النُّواحِ والبُكاءِ؛ والمرأةُ بعامّةٍ تلجأُ إلىٰ دموعِها أوّلَ ما تلجأُ إذا ألمَّ بها أمْرٌ ، وضاقَ صدرُها ، وعيْلَ صَبْرُهَا ، وإنّها لتلتذُّ الحُزْنَ ، وتوالي البُكَاء وفاءً وحَسْرةً ، أو ضَعْفاً وَرِقَّةً ، وتنفِّسُ عمّا في نَفْسِها بمقطوعاتٍ تسكبُ فيها لوعتَها وحرقَتَها .

* ومنْ أوائِلِ النِّساءِ الأندلسّياتِ الرَّاثياتِ حسَّانَـةُ التَّميميّةُ التي نَجدُهَا ترفعُ شكْوَاها ودموعَها إلىٰ الحكَمِ بنِ هشَام ، وتذكر فَقْدَ والدِها أبي المخشيّ في تألُّمٍ وتوجُّعٍ فتقولُ:

إنّي إليْكَ أَبَا العَاصِي موجّعةٌ   أَبَا المخْشِّي سَقَتْه الوَاكِفُ الدِّيَمُ
قَدْ كُنْتُ أَرْتَعُ في نُعْمَاهُ عَاكِفةً   فاليومَ آوِي إلىٰ نعماكَ يا حَكَمُ

* ونجدُ حفْصَةَ بنتَ الحاجِ الرَّكونيّةِ باكيةً راثيةً حزينةً ، وفي رثائِها للوزيرِ ابنِ سُعَيد تظهرُ حرقتُها فتقولُ:

وَلَو لَمْ يكُنْ نَجْماً لمَا لاَحَ نَاظِري   وَقَد غِبْتَ عَنْه مُظْلِماً بَعْدِ نُورِهِ
سَلامٌ علىٰ تِلْكَ المحاسِنِ من شَجٍ   تَنَـاءَتْ بِنُعْمَـاهُ وطيْـبِ سُـرورِه

* وفي موضعٍ آخَر نلمحُها باكيةً ، بل تدعو النَّاس أنْ يبكُوا مَعَها ، وترجُوهم أنْ يبكُوا مُصَابَها ، وهي لا تخشىٰ التَّهديدَ إذا لبِسَتْ ثيابَ الحِداد ، فقد قَتَلُوا ابنَ سُعيد بالمرهفاتِ الحِداد ، وتترحَّمُ علىٰ مَنْ يبكي قتيلَ الأَعَادي فتقولُ:

هَدَّدُوني منْ أَجْلِ لبْسِ الحِدَادِ   لِحَبِيْـبٍ أَرْدَوه لـيْ بـالحِـدَادِ
رَحِـمَ اللهُ مَـنْ يَجُـودُ بِـدَمْـعٍ   أَوْ ينـوحُ علـىٰ قَتيـلِ الأَعَـادِي
وسَقَتْـه بِمِثْـلِ جُـودِ يَـدَيْـهِ   حيثُ أَضْحَىٰ مِنَ البِلادِ الغَوادِي

* إنَّ النِّساء يحاكينَ الرِّجالَ في مجالِ الرّثاء ، على الرّغمِ منْ ضيقِ

أفقِ خيالِهنَّ في هذا المِضمار ، وعجزهنَّ عن تصويرِ حُزنهنَّ ، والتَّعبيرِ عن مشاعِرهنّ ، بحيثُ يشركْنَ الآخرينَ والأخريات معهُنَّ فيما يشْعُرْنَ بهِ ، كما لاحظْنَا هذا عنْد حفصةَ بنتِ الحاج الرّكونيّة.

* والنّساءُ بشكْلٍ عام أشجىٰ منَ الرِّجالِ قُلوباً عند الفجيعةِ ، وأشدُّ منهم حُزناً ، وأعظمُ لوعةً ، لأنّهنَّ أضعفُ احتمالاً ، وقلوبُهُنّ أسرعُ انْخِلاَعاً ، ومعَ هذا لا نَجِدُ الحرارةَ الشَّديدةَ ، والتّأثيرَ في رثائِهنّ. ولعلَّ السَّببَ بذلك أنَّ النِّساءَ يخفِّفْنَ حزنهنَّ بالدُّموعِ الغِزَارِ الحِرَارِ ، وبالآهاتِ والأنَّات والعويلِ وبالصَّمت الحزينِ ، والاسْتِغْراقِ الأَليْمِ ، والذكْرىٰ المُوجعَةِ ، فإذَا ما عمدْنَ إلىٰ القَريضِ ، مَتَحْنَ منْ عاطِفَةٍ قَد تنفَّسَتْ ، أو أويْنَ إلى لُغَةٍ كانَ البكاءُ والدَّمْعُ السَّخينُ أطوعَ منها وَأَصْدَقَ تَعْبِيراً.

* ولذلكَ نجدهنَّ أكثرَ منَ الرِّجال ذِكْراً للَّوعَةِ ، وأكثرَ حديثاً عنِ البُكَاءِ والدُّموعِ والوجيعةِ ، لأنَّ ضَعْفَهنَّ وأنوثتَهنَّ وسرعةَ انفعالِهنَّ يتجلّىٰ في تصويرهنّ لَلتَّرحِ بالحديثِ عن البُكاء ومخاطبةِ العيونِ والدُّموعِ ، حتى لتتسمَ مراثيهنَّ بالنَّواح أكثر مما تتسمُ بغيرِه ، ونواحهنَّ متشابهٌ لا تمايزَ بينه ولا خِلاف[1].

مَـديْـحُهَـا:

* أبدعتِ المرأةُ الأندلسيّةُ في فَنّ المديحِ ، وكان لها أثارةٌ جميلةٌ في هذا المجالِ ، فقد وصَلَ شِعْرُهَا إلى قصورِ الملوكِ والأُمراءِ ، فهذه عائِشةُ القُرطبيّة تمدحُ المظفَّر بنَ المنصورِ بنِ أبي عامر بقصيدةٍ منْها:

فَـأَنْتُـم آلَ عَـامِـرَ خَيْـرُ آلٍ ... زَكَـا الأَبنـاء منْكُـم والجُـدودُ

(١) للمزيدِ منْ هذا الفنّ النّسائي الشّجيّ راجعْ كتابنَا الشّهير: «نساء في قُصور الأمراء» في ترجمة: الخِرنِق بنتِ بَدْر أختِ طرفة بن العبد (ص١٠٣ـ١٤٥) ، حيث توسّعنا برثاء المرأة ، وتجدُ هناك ما يسرُّ الخاطرَ بإذنِ الله.

وَلِيْــدُكُــمُ لَــدَىٰ رأْيٍ كَشيــخٍ　　وشيخُكُــمُ لَــدى حَــرْبٍ وَلِيْــدُ

* وتمدحُ مريمُ بنتُ أبي يعقوبَ الفَيْصُولي ، أحَدَ الكُبراءِ بقصيدةٍ آخِرُهَا :

مَنْ كَانَ وَالِدُهُ العَضْبُ المهنَّدُ لَمْ　　يَلِدْ مِنَ النَّسْلِ غَيْر البِيْضِ والأَسَلِ

* ونَجِدُ حسَّانَةَ التَّميميَّةَ تجيدُ المَدْحَ ، وخَلْعَ الصِّفَاتِ علىٰ الممدوح بِصورةٍ لائِقَةٍ ، من مثْلِ قولِها الذي تمدحُ فيه الحكمَ بنَ هشَام ، حيثُ تجعلُه الإمامَ الذي امتَلَكَ مقاليدَ الأممِ ، وقد ذلّتْ بين يديهِ العربُ والعجمُ فتقولُ :

أَنْتَ الإِمَامُ الذي انْقَادَ الأَنَامُ لَهُ　　وَمَلَّكَتْــهُ مَقَــالِيْــدَ النُّهــىٰ الأُمَــمُ

لَا زِلْتَ بِالعِزَّةِ القَعْساءِ مُرْتَدياً　　حتّى تَذِلَّ إليكَ العُرْبُ والعَجَمُ

* وتمدحُ فيما بعد ابنَه عبدَ الرَّحمن بنَ الحَكَمِ ، وتَخْلَعُ عليهِ كلَّ الصِّفاتِ التي يحمدُها النَّاسُ منَ الخيرِ والفَضْلِ وحسنِ الأَصْلِ والحَسَبِ والمآثِرِ فتقولُ :

ابْنُ الهِشَامَيْنِ خَيْرُ النَّاسِ مَأْثُرةً　　وَخَيْــرُ منْتَجــعٍ يَــوْمــاً لِــرُوَّادِ

قُلْ للإِمَامِ أَيَا خَيْرَ الوَرَىٰ نَسَباً　　مُقَــابَــلاً بَيْــنَ آبَــاءٍ وَأَجْــدَادِ

* وهذه قمر البغداديَّةُ تمدحُ مولاها إبراهيمَ بنَ حجّاجٍ اللخميّ صاحبَ إشبيليّةَ ، فهو جَوَادٌ كريمٌ ، تفرَّدَ بالكَرمِ في الأَندلُسِ ، وهو حليفُ كلِّ مكْرُمةٍ ، فتقولُ :

مَا فِي المَغَارِبِ مَنْ كَرِيْمٍ يُرتَجىٰ　　إلاّ حَلِيْــفُ الجــودِ إبْــراهيــمُ

إنّــي حَلَلْــتُ لَــديْــهِ منْــزِل نعْمَــةٍ　　كــلُّ المنَــازلِ مــا عَــدَاهُ ذَميــمُ

* وفي ثَنايا الكِتاب يطَّلِعُ القارىءُ الكريمُ علىٰ هذا الفَنِّ الشّجي النَّدِي الجميلِ ، الذي وشَّتْهُ أناملُ الشّاعراتِ الأندلسيّاتِ على خدِّ الزَّمنِ ، وجَعَلْنَ مُهَجهُنَّ بينَ ثَنايا الكَلمات .

هِـجَـاؤُهَـا:

* ممّا لا شَكَّ فيهِ أنَّ الهِجَاءَ فنٌّ مِنَ الفُنونِ الشِّعريةِ الشَّهيرةِ، وهو فنٌّ عظيمُ القيمةِ والخَطرِ في الحياةِ الاجتماعيّةِ في كلّ عَصْر ومصْر، لأنَّه حربٌ لسانيةٌ، وَذَكِرٌ لِمثَالِبِ النَّاسِ.

* ولعلَّ شِعْرَ الهجاءِ عنْد الأندلسيّاتِ له طابَعُ خَاصٌّ، ولكنّه لا يختلفُ في جَوهَرِهِ عن سائِرِ أَلوانِ الهِجَاء.

* ومنَ الطَّبيعي أنْ يكونَ الهجاءُ أَقَلَّ ألوانِ الشِّعْر النّسوي بعامّة، إلاّ أنَّه قد وَصَلَ إلينا بعضُ المقطوعاتِ النَّسويةِ الأندلسيّة في هذا المجالِ الطَّريف.

* وكانَ هجاءُ الشَّاعراتِ الأندلسيّات تعبيراً عمّا يجولُ في نفوسِهنَّ، إلاّ أنَّه يحملُ بينَ ثناياهُ السُّخريةَ، وإظهارَ العيوب، أو إظهارَ بعضِ الخِلال السُّودِ، أو إظْهارَ العَيْبِ الجَسَديّ، حتّى وصَل الحالُ مع بعضهنّ إلىٰ الفُحشِ والفَضيْحَة.

* ومنْ مشاهيرِ النّساء اللّواتي اشتهرنَ بالهِجاء: نزهونُ بنتُ القُلاعي التي هَجَتْ هجَّاءَ الأَندلُس وبشَّارَها الأعمىٰ المخزوميَّ منْ قصيدةٍ قالَت فيها:

قُــلْ للــوضيْــع مَقَــالاً ... يُتْلَــىٰ إلــىٰ حيْــن يُحْشَــر
خُلِقْــتَ أَعْمــىٰ وَلكــنْ ... تَهِيْــمُ فــي كُــلّ أَعْــوَر

* وتهجو نزهونُ أحدَ النَّاس، وكان قد تقدَّمَ إلىٰ خطبتِها، وكان دَميماً قَبيحاً، فقالَتْ فيهِ متندِّرةً:

عُـذَيـري مِـنْ عَـاشِـقٍ أَنْـوكٍ ... سَفِيْــهِ الإشَــارَةِ والمَنْــزَعِ
يَـرومُ الـوِصَـالَ بِمَـا لَـوْ أَتَـى ... يَـرومُ بـهِ الصَّفْـعَ لَـمْ يُصْفَـعِ
بِــرأْسٍ فَقيْــرٍ إلــىٰ صَفْعَــةٍ ... وَوَجْــهٍ فَقيْــرٍ إلــىٰ بُــرقُــعِ

* ولعلَّنا نلمحُ نُضْجَ الهِجَاء في الشِّعْرِ المنْسُوبِ إلى ولّادةَ المزعومةِ ، فقد زعَمُوا أنَّها هَجَتْ ابنَ زيدون وعرَّضَتْ بهِ فقالَتْ:

إنَّ ابْنَ زَيْدُونَ عَلىٰ فَضْلِهِ   يُغْتَابُنِي ظُلْماً ولا ذَنْبَ لِي
يَلْحَظُنِي شَزراً إِذَا جِئْتُهُ   كأَنَّما جِئْتُ لأُخْصِي عَلي

* وتظهرُ ولّادةُ ـ المزعومةُ ـ هجاءةً بارعةً ، حيثُ تَخْلَعُ الألقابَ المضحكةَ «الكاريكاتيريّة» علىٰ ابنِ زيدون ، فها هي تلقبّه بالمُسَدَّسِ ، وها هو يحملُ ستّ صفاتٍ شائنةٍ قبيحةٍ ، فتقولُ:

وَلُقِّبْتَ المُسدسَ وهوَ نَعْتٌ   تُفَارِقُكَ الحَيَاةُ ولا تُفَارِق
فَلُوطيٌّ ومأْبُونٌ وزَانٍ   ودَيُّوثٌ وقَرنَانٌ وسَارِق

* وفي هجاءِ النِّساءِ الأندلسيّاتِ نَجِدُ نوعاً آخرَ من الهِجَاء ، وهو أنْ تهجو المرأةُ بناتِ جنْسِها ، فهذه مهجةُ بنتُ التَّيّاني القُرطبيّةِ تهجو صديقتَها ولّادة هجاءً فاحِشَاً ينْدىٰ لهُ الجبينُ فتقول:

ولّادَةُ قَدْ صِرْتِ ولاّدَة   مِنْ غَيْرِ بَعْلٍ فُضِحَ الكَاتِمُ
حَكَتْ لَنَا مَرْيَمَ لَكِنَّه   نَخْلَةُ هَذي . . قَائِمُ

* وقد شبّه بعضُ أكَابِرِ أَهْلِ الأدَبِ هجاءَ مهجةَ بهجاءِ ابنِ الرُّومي ، فقال: لو سَمِعَ ابنُ الرُّومي هذا الهِجاء من مهجةَ لأَقَرَّ لها بالأَمْرِ.

* وسيطَّلِعُ القارىءُ الكريمُ علىٰ نماذجَ منْ هذا الفَنِّ الطريفِ من خِلالِ رحلتِهِ مَعَنا في أجواءِ هذه الموسوعَةِ الجَميلةِ.

حِكْمَتُهَا:

* ينتثرُ شعْرُ الحِكْمَةِ في بَعْضِ الآثارِ النَّسويّةِ لشاعراتِ الأندلسِ ، وهو لا يَعْدو عن كونِهِ تَجْرِبَةً بسيطةً ، أو حكمةً مقتبسةً من غَيْرِهَا. وقد وجدنَا بعضَ الشَّاعراتِ الأندلُسيّاتِ قد صَدَرتْ عنهنَّ الحكْمَة في ألوان متعدّدةٍ ، ونَواحٍ مختلفةٍ ، واتجاهاتٍ مُتَبايِنةٍ.

* ولعلَّ حكمةَ كثيراتٍ منهنّ لا تظهرُ في أكثر منْ بيتٍ أو بيتَيْنِ ، أو مقطّعاتٍ صغيرةٍ تتحدَّثُ عن فكرةٍ صغيرةٍ .

* ونجدُ مثل هذَا عنْد الشَّاعرةِ مريمَ بنتِ أبي يعقوبَ الفَيْصولي التي تتحدَّثُ عن كِبَرِ السِّنّ والهَرمِ فتقول :

وَمَا تَرتَجي منْ بنْتِ سبعينَ حِجّةً ... وسَبْعٍ كَنَسْجِ العَنْكَبُوت المُهَلْهَلِ
تَدبُّ دَبِيْبَ الطِّفْلَ تَسعىٰ إلى العَصَا ... وتمشي بِها مشْيَ الأَسيرِ المُكَبَّلِ

* كما نلمحُ ثَنايا الحكمةِ تبدو منْ بينِ كلماتِ عائشةَ الحرّةِ أمِّ أبي عبد اللهِ الصغير آخرِ ملوكِ غَرناطةَ عندما قالَتْ تخاطبُ ابْنَها :

ابْكِ مثْلَ النِّسَاءِ مُلْكاً مُضَاعاً ... لَم تُحافِظْ عَليهِ مثْلَ الرِّجَالِ

* وفي شِعْر أمِّ العلاءِ الحِجاريّةِ نَجِدُ الحكمةَ البسيطةَ ، حيثُ تخاطبُ رَجُلاً أشيبَ فتقولُ :

الشَّيْبُ لاَ يُخْدَعُ فِيْه الصِّبَا ... بِحيْلَةٍ فاسْمَعْ إلىٰ نُصْحِي
فَلا تكُنْ أَجْهلَ مَنْ في الورىٰ ... يبيْتُ في الجَهْلِ كما يُضْحِي

* وللشَّاعرةِ الغسانيّةِ البجانيّة نونيةٌ شهيرةٌ ، وصلَ إلينا بعضُ أبياتِها التي تتّشِحُ بالحكمةِ كقولِها :

أتجزَعُ إنْ قَالُوا سَتَرحَلُ أَظْعَانُ ... وكَيْفَ تُطيْقُ الصَّبْرَ ويْحَكَ إنْ بانُوا
فَما بَعْدُ إلا المَوتُ عنْد رَحيْلِهم ... وإلاّ فَصَبْرٌ مثلُ صَبْرٍ وأَحْزَانُ

* هذا وللمرأةِ الأندلسيّةِ فنونٌ أدبيّةٌ وعلميةٌ أخرىٰ في شتّى المجالاتِ ، وسيجدُها القارىءُ الكريمُ مبثوثةً في ثنايَا هذا الكتابِ وأطوائِه ، وقد تحدَّثْنا عن بعضٍ منها في هذا العَرْضِ وهذا التَّقديم لتتوضَّح صورة المرأةِ الأندلسيّةِ في الأذْهان ، ولتعرفَ مكانتها بينَ النِّساء قاطبةً .

* وقبلَ أنْ ننتهيَ منْ هذه المقدّمة نَوَدُّ أنْ نتحدَّثَ عن نوعَيْنِ منَ

النِّساءِ الأندلسيّاتِ ممّنْ كانَ لَهُما كبيرَ الأثرِ في هاتيكَ البلادِ وهما: الجَواري ، والمغنيّات كيما تكونَ الصُّورةُ النّسويّةُ الأندلسيّة أكثرَ وضوحاً في الأذهانِ ، ولكي تكونَ موسوعتنا هذهِ أكثرَ شمولاً وفائدةً بإذن الله .

النِّسَاءُ الجَوَارِي:

* لَعِبَتِ الجَواري دوراً كَبيراً في تاريخِ المرأةِ الأندلسيّة ، وفي التَّاريخ الأندلسيّ بِشَكْل عام .

* وكانتِ الجَواري اللواتي عُرِفْنَ بحفظهنَّ للأَدبِ ونوادرِ الأخبارِ ، ويتسمْنَ بالملاحةِ والجمالِ يُشْتَرَيْنَ للملوكِ والأمراء والسَّادَةِ ، فَأَخَذَتْ بعضُهنّ طريقَها إلى الشُّهْرةِ ، أَو كانَ المَلِكُ أو الأَميرُ يلتقي الجارية مُصَادفةً فتحسنُ في عينَيْه فيشتريها ، وتحظىٰ عنده حظوةً عظيمةً ، حتى تصيرَ سيّدةَ القُصورِ وسيّدةَ سيِّدِها ، وقد يعملُ بما تُوحي إليهِ ، وتصبحُ الآمرةَ النَّاهيةَ ، وخصوصاً إذا استولَدَها سيّدُها ، كما حَدث تماماً مع اعتمادِ الرُّميكيّةِ التي غَدَتْ سيّدة قُصور المعتمدِ بنِ عبّاد الذي اجتمعَ تحتَ لوائِهِ جماهيرُ منَ الكماةِ ، ومشَاهيْرُ منَ الحماة ، وأعلامُ الأدباءِ والشُّعراء ، فغدا هو أسيرَ لحاظِها علىٰ الرّغم من أنَّ المعتمدَ كان فارسًاً شُجاعاً ، عَالماً أَديباً ، ذكيّاً شَاعراً ، مُحسِناً جَوَاداً ، ممدّحاً كبيرَ الشَّأْنِ ، أندىٰ الملوكِ راحةً ، وأرحبَهم ساحةً ، وكان بابُه محطَّ الرِّحالِ ، وكعبةَ الآمال .

* وكانَ المعتمدُ مع هذا كُلِّه يقولُ في اعتماد:

حُبُّ اعْتِمادٍ في الجَوانِحِ سَاكِنٌ   لا القَلْبُ ضَاقَ بهِ ولا هُوَ رَاحِلُ

* وتارةً يطرِّزُ اسْمَها فيقولُ منْ قصيدةٍ مطرَّزَةٍ آخرُها:

دَسَسْتُ اسْمَكِ الحُلوَ في طَيِّه   وَأَلَّفْــتُ فيــهِ حُــروفَ اعْتِمــاد

* بَلْ إنَّ المعتمدَ إذا ما ابتعدَ عن إشبيليةَ ابتعدَ بجسمِهِ فقَط ، وأمّا

قَلْبُه فيبقىٰ عند اعْتِماد ، وكثيراً ما كانَ يحلمُ بها ، ويَراهَا في منامِهِ ، فيرسلُ الأَشْعار الرَّائِقَةَ في ذلك؛ اسمعْهُ يقولُ عنها عندما زارَتْه ليلةً منَ الليالي في مَضْجَعِه وفَتَنَتْه بِدلاَلِها:

أَبَاحَ لِطَيْفِي طَيْفُها الخَدَّ والنَّهْدَا فَعضَّ بِهِ تَفَّاحَةً واجْتَنَىٰ وَرْدَا
وأَلْثَمَني ثَغْراً شَمَمْتُ نَسِيْمَهُ فخُيِّلَ لي أنِّي شَمَمْتُ بِهِ نَدّا

ثمَّ يقولُ:

هيَ الظَّبْيُ جِيْداً والغَزَالَةُ مقْلَةً وروضُ الرُّبَا عرفاً وغُصْنُ النَّقا قَدّا

* وكانَ لاعتماد أثرٌ كبيرٌ في الحياةِ الأندلسيّةِ الاجتماعيّة والسّياسيّةِ ـ كما سنقرأُ ذلكَ في سيرتها ـ ، وقد سَبقَها في الدَّلِّ والدَّلال طروبُ جاريةُ عبدِ الرّحمنِ الأوسَط التي كان يكْلَفُ بها ويهيمُ خصوصاً بَعْدَ أنْ ولَدَتْ له ابنه عبدَ الله ، وكثيراً ما أنْشَدَ فيها:

إِذَا مَا بَدَتْ لي شَمْسُ النَّها ر طالعةً ذكَّرتْني طَروبَا

* وكانتْ طروبُ ـ هذه ـ تزورُ سيِّدَها عبدَ الرحمن الأوسط في المنام وهو بعيدٌ عنها ، تماماً كما كَانَتِ اعْتِمادُ ـ فِيْما بَعْدُ ـ تزورُ المعتمدَ بنَ عبّاد وتُنَاغيه؛ ومنَ المُطْرِبِ أنَّ طَرُوباً هذهِ كانَتْ تبرمُ الأُمورَ ، فلا يَرُدُّ لها الأميرُ عبدُ الرحمن شيئاً ممّا تبرِمُه ، وكذلك نلحظُ هذا عنْد صُبْح ملكةِ قرطبةَ وأمِّ المؤيّدِ ، وكذلك نجدُ هذا واضحاً عند ثُريّا أو كوكبِ الصُّبحِ الجاريةِ التي كانَتْ زوجاً لأبي الحَسن والد آخرِ ملوكِ غرناطةَ ، حيثُ لعَبتْ ثريّا هذه دوراً خطيراً ، فقد كانتْ جميلةً ومع جَمالِها جمَعتْ دهاءً ومكْراً ، وتطلَّعَتْ إلىٰ أنْ يكونَ ولدُهَا الأكبرُ يحيىٰ وليّاً للعَهْدِ ، بينما كانَ المؤهَّلُ لولايةِ العهدِ ابنُ ضرّتها عائشة الحرّة أبو عبد الله الصَّغير ، وتمكَّنَتْ ثريّا منْ إقْنَاع زوجِها أبي الحسنِ لإقصاءِ عائشةَ وولديها فَفَعل. ـ كما سنقرأُ ذلكَ في سيرتها ـ.

* كانَ معظمُ هؤلاءِ الجواري اللواتي صِرْنَ أميراتٍ لا يهمُهنَّ من أمورِ

المملكةِ شيئاً إلّا حظُّهنَّ وحظُّ أولادهنَّ ، لذلك كانَ لمعظمهنَّ أثرٌ سيىءٌ في تربيةِ أولادِهنَّ ، كما كانَ لَهُنَّ أخبارٌ فظيعةٌ في الحياةِ السِّياسيّة نتيجةَ أهوائِهنَّ ، كما كُنَّ سبباً في كثيرٍ منَ الأمورِ والاضطراباتِ والأحداثِ الدَّاخليّةِ.

* ومنَ الواضِح في التَّاريخ النَّسويّ أنَّ المرأةَ الأوربيّةَ كانتْ محتقرةً مزدراةً ، وكانت تُعَيَّرُ بأنَّها أنثىٰ ، وكانَتْ على العمومِ مملوكةً للرَّجلِ لا قيمةَ لها.

* إلّا أنَّ اختلاطَ المسيحيّين بالمسلِمين والعربِ زمناً طويلاً في الأندلسِ وصقيليةَ قد تأثّروا بالعَربِ ، فأخذوا يقدّرونَ المرأةَ.

* وفي تاريخِ العربِ بإسبانيةَ ما يثْبِتُ أنَّه حَفِلَ بتقديرِ النّساء ، وأنَّ المرأةَ العربيّة كانَتْ عاليةَ القَدْرِ هناك ، حتى إنَّ «ترند» Trend يرىٰ أنَّ النِّساءَ تمتعْنَ في ظلِّ الأمويّين بالأندلس بنصيبٍ منَ الحرّيةِ ، وحظٍّ منَ التَّقْديرِ أعظمَ ممّا تمتعْنَ بهِ في ظلِّ العبّاسيين ببغدادَ.

* ويذهبُ «جِب» Gibb إلى أنَّ الشِّعْرَ البُروفانسيَ حافِلٌ بعشْقٍ غنيٍّ بالصُّورِ الجميلةِ ، وإلىٰ أنَّ هذا الضَّرْبَ منَ الحبِّ أو التَّقْديس للمرأةِ لم يكُنْ نتيجةً لتقاليدِ العصورِ الوسْطىٰ ، ولم يكنْ صدىً للأدبِ اليونانيّ أو اللاتيني ، وإنَّما قامَ علىٰ تقاليد أدبيةٍ راسخةٍ صادرةٍ من شِعْرِ العَربِ في إسبانيّة ، لأنَّ الأدبَ العربيَّ كانَ في كلِّ عُصوره يستمدُّ منْ ينبوع حُبِّ الرَّجُل للمرأةِ.

* وكانَ لهؤلاءِ الجواري أثرٌ غير محمودٍ فيما بَعْدُ علىٰ الأندلسِ ، فقد سُلِبَتْ هذه الجنَّةُ الجميلةُ لمّا تنافَسَ بعضُ الولاةِ وبعضُ الحكّام علىٰ الجواري والقِيان ، حتى غَدتِ الجواري ساحات للمنافسةِ ، وأحياناً للمعاركِ والنِّزال ، وأصبحَ الاقترانُ بالجواري النَّصْرانيّات عادةً متَّبَعَةً **بينهم** ، وكانتْ هؤلاء يعْبَثْنَ بحياةِ أسيادهنّ ، وربّما أدَّى عبثهنَّ إلىٰ

قَتْلِهم ، فقد ذكر عددٌ من المؤرّخين أنَّ وفاةَ ابن هُود عام (٦٣٥هـ) كانت على يَدِ وزيره محمّد الرّميمي بِسَببِ النِّزاع حولَ فَتاةٍ نَصْرانيّة كانَتْ لابنِ هودٍ ، فدّبرَ له مكيدةً قُتِلَ بها .

* ولا نَنْسى دلالَ اعتمادِ الرُّميكيّة زوجِ المعتمدِ بنِ عبّاد التي اشتهتْ أنْ تخوضَ في الطِّينِ ، وتحملَ القُرَبَ لأَنَّها رأَتِ البدوياتِ يخُضْنَ في الطِّينِ ويحملْنَ القُرب ، فصنَع لها المعتمدُ طِيْناً ولكنْ منَ المِسْكِ والكافورِ والزَّعْفران وسائر أنواعِ العِطْر والطِّيْبِ ، وخاضَتْ فيه تحقيقاً لشهوتها ، ولكَ أنْ تتخيَّلَ كم أُتْلِفَتْ منَ الأموالِ منْ أَجْلِ هذه الشّهوة الرُّميكيّة!!! ثمَّ آل مآلُها وزوجُها وأولادُه وبناتُه أنْ أُخِذوا أسرىٰ إلىٰ أغماتَ بالمغرب ، وفي يوم العيد قال المعتمدُ يذكرُ سرورَه قبل أَسْرِه ، ويذكرُ يومَ الطّيْن من قصيدةٍ جميلةٍ مؤثّرة مَطلَعُها :

فِيْما مَضَى كنْت بالأَعْيَادِ مَسْرُورا   فَسَاءَكَ العِيْدُ في أَغْمَاتَ مَأْسُورا

ثمَّ يقولُ :

تَرىٰ بَنَاتِكَ في الأَطْمَارِ جائِعَةً   يَغْزِلْنَ للنَّاسِ ما يَمْلِكْنَ قِطْمِيْرَا

بَرزْنَ نَحْوكَ للتَّسْلِيْم خَاشِعَةً   أَبْصَارُهُنَّ حَسيراتٍ مَكَاسِيْرا

يَطَأْنَ في الطِّيْنِ وَالأَقْدَامُ حَافِيةٌ   كأَنَّها لَمْ تَطَأْ مِسْكاً وكافُورَا

وهكذا يبدِّل اللهُ منْ حالٍ إلى حالٍ ، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكَهْف : ٤٩] .

النِّسَاءُ المُغَنّيَاتُ :

* عُرِفَتْ كثيرٌ منَ المغنّياتِ في الأندلسِ ، وأخذْنَ مساحةً واسعةً منْ تاريخِ المرأةِ الأندلسيّةِ ، وظهرتْ مغنياتٌ منْ جميعِ الجنسيّاتِ من بناتِ الرُّومِ والفُرسِ والإسْبَانِ ، وكُنَّ ينشرنَ سِحْرهنَّ وفتونهنَّ بينَ العربِ في الأندلسِ .

* وكانتِ القيانُ الأندلسيّات يؤثِّرْنَ في النُّفوسِ ، إذْ طبيعةُ البلادِ جميلةٌ ، وحياةُ أهلِها مليئةٌ بالتَّرفِ ، وقد تطوَّرَ فنُّ الغِناء حتى وضعُوا له فنّاً منَ الشِّعر سمّوه الموشَّحاتِ.

* ونهضَ فنُّ الغِناء في الأندلسِ وارتقىٰ ، وخصوصاً بعد أنِ احتفلتِ الأندلسُ بقدومِ «زِرْيَاب» إليها ، وكانَ زِريابُ منَ المغنّيَن البارزين ، والملحّنينَ البارعين ، فتخرَّجَ في مدرستِهِ الزِّريابيّة كثيراتٌ منَ الجواري والقِيان والنِّساء ، ومنهنّ ابنتاه: حمدونةُ وعُليّةُ.

* واشتهرَ منَ الجواري «قَلَم» جاريةُ الأميرِ عبدِ الرحمنِ الأوسط في قرطبةَ ، وهي منْ أصلٍ رُومي من سَبي البَشْكَنْس ، وكذلك اشتُهِرت جوارٍ أخرياتٌ من مثلِ «فَضْل» و«عَلَم» ، وكذلك «قمر» جاريةُ إبراهيمَ بنِ حجّاج اللخميّ ، والجاريةُ المعروفة «بالعَجفاء».

* ومنَ الطَّبيعي أنْ تكونَ القِيانُ أليقَ باحترافِ الغِنَاءِ منَ الرِّجالِ ، لأنَّ هؤلاءِ القيانَ كُنَّ ـ علىٰ الأغْلَب ـ أندىٰ صوتاً ، وأحلىٰ تَرجيْعاً ، وأرقَّ نغماً ، ولأنَّ لجمالهنَّ وأنوثتهنّ كبيرَ الأثرِ في الطَّرب لهنَّ ، وكانَ الكبراءُ والأغنياءُ في الأندلسِ يختارونَ القِيانَ الآسراتِ بجمالهنَّ العقولَ والقلوبَ ، ويتفاخرن بهنَّ ، ويبرزْنَ جمالهنَّ وبراعتهنَّ في الغِناء.

* وقد ذهبَ الجاحظُ ـ في المَشْرقِ ـ إلىٰ أنَّ الغِناءَ المطْرِبَ في الشِّعْرِ الغَزِلِ منْ حُقُوقِ النِّساءِ ، وإنَّما ينبغي أنْ تغنّيَ بأَشْعارِ الغَزَلِ والتَّشبيبِ والعشْقِ والصَّبابةِ النِّساءُ اللواتي فيهنّ نُطِقَتْ تلْكَ الأشعارُ ، وبهنّ شبَّبَ الرِّجَالُ ، ومن أجلهنّ تكلَّفوا القولَ في التَّشبيبِ[1].

* ويقولُ: وكَمْ بينَ أنْ تَسْمَعَ الغناءَ من فَمٍ تَشْتَهي أن تقبِّلَه ، وبينَ فَمٍ

(١) رسالة العشق والنساء للجاحظ (ص١٦٥) بتصرف يسير.

تشتهي أنْ تَصْرِفَ وجهَك عَنْه؟ علىٰ أنَّ الرِّجالَ دخلاءَ علىٰ النِّساءِ في الغِنَاء[1]. . .

* وكانتِ الكثرةُ الكاثرةُ للقيناتِ والمغنياتِ غيرَ عربيّات ، وما منْ شَكّ في أنَّ الغناءَ يقتضي منَ المرأةِ المغنِّيةِ أنْ تتزيَّنَ للسَّامعينَ ، وأنْ تُبْرِزَ لهم بعضَ مفاتِنِهَا ، وأنْ تكونَ مناطَ أنظارِهم ومَجْمَعَ اشتهائِهم ، وكانت معظمُ القيانِ فارسيّات ، أو يونانيّات ، أو روميّات ، أو كُنّ يُغَنِّيَن بالعربيّةِ ، وكانَ معظمُ هؤلاءِ القِيان المغنيات منَ العبيد المملوكيْنَ.

* وكانتِ القينةُ تحفظُ الأشْعَارَ والألحانَ ، فكانَ المستمعُ يعجبُ بجمالِ القينةِ المغنيةِ ، ويطربُ لصوتها الحسنِ ، وكان معظمُ القِيان في الأندلسِ يغنِّينَ للتَّطريْبِ ، وللغَزَل؛ ممّا أثَّرَ ذلك في النُّفوسِ ، وكانَ يصاحِبُ الغناءَ الشَّرابُ ، الذي غَدا منْ مستلزماتِ مجالسِ الغِناء.

* ومنْ هنا راحتِ القيانُ والمغنِّياتُ يأخذْنَ مكانةً كبيرةً في المجتمعِ الأندلسيّ ، وخصوصاً إذا ما كُنّ جميلاتٍ ، ولهذا راحَ الشُّعراءُ يصفونَ محاسِنَ أجسادهنَّ ورخامةَ أصواتهنَّ ، ولباقةَ حركاتهنَّ ، وقد وصفَ لنا ابنُ حمديس إحداهنّ في شِعْرٍ رقيقٍ سنجده بينَ ثنايا هذا الكتابِ.

* ونَشَأَ منْ هذا عشْقُ الرِّجالِ للنِّساءِ القيانِ المغنّياتِ ، وليس بعجيبٍ أنْ يعشقوهُنَّ ، وعشقهنَّ عنيفٌ لأنَّه نابعٌ منْ عدّة حواس ، ولأنّهنّ كما يقولُ الجاحظُ: يجمعنَ للإنسانِ منَ اللذاتِ ما لا يجتمعُ في شيءٍ على وجْهِ الأرضِ ، واللذات كلّها إنّما تكونُ بالحواسِ ، والمأكولِ والمشروبِ حظّ حاسةِ الذَّوق ، ولا يشركها فيه غيرُها ، فلو أكَلَ الإنسانُ المسْكَ الذي حظّ الأنْفِ وَجَدَه بَشِعاً قَذِراً. . . فإذا جاءَ بابَ القِيانِ اشْتَركَ فيه ثلاثٌ منَ الحواس ، وصارَ القَلْبُ لها رابعاً ، فللعينِ النَّظَرُ إلىٰ القينةِ

(١) المصدر السابق (ص١٦٤) بتصرف واختصار.

الحَسْناءِ ، وللسَّمْعِ منها حظُّ الذي لا مؤونة عليهِ ، ولا تطربُ آلته إلا إليـهِ ، وللّمْـسِ فيهـا الشَّهـوةُ ، والحـواس كلُّهـا روادٌ للقلـبِ وشُهـودٌ عنده(١) .

* وشاعَ اقتناءُ هؤلاءِ القيان ، والاستمتاعُ بهنَّ ، وجنحَ النَّاسُ إلىٰ التَّرفِ واللّذةِ ، فتضاءلَتِ الأَخْلاقُ العربيّة ، وخَبَـا نورُهَا ، وتغيَّرتْ أخْـلاَقُ العـامّـة ، لأنَّ مجالـسَ المغنّيـاتِ كـانـت مفتـوحـةً أحيـانـاً ، ومسموعةً ، لأنَّ القيانَ كُنَّ يَخْتَرْنَ منَ الشِّعر ما كانَ وزْنُه سَهْلَ التَّلحين والتَّرجيع ، وبالتَّالي يؤثِّرُ في النُّفوس ويحفظُه العامّة والخَواص ، ومن ثمَّ غَدتِ القَيانُ شيئاً مذكوراً في قصورِ بعض الأُمراء والأغنياءِ ، وأخذنَ حظّاً لمْ تأخذْهُ النِّساءُ الحرائِر .

* وزادَ الطِّين بلّة أنَّ الأمراءَ والموسرين ، كانُوا لا يستأْثِرون بالقيان ، فكانُوا أحياناً يُشْرِكون معَهم غيرهم في سماعِهنَّ ، وربّما كانوا يهبوهُنّ أحياناً ، أو يشترونَهنَّ .

* ونتجَ عن هذا كلِّه أَنِ انغمسَ النَّاسُ في الشَّهواتِ ، وركَنوا إلىٰ الدَّعَةِ والتَّرفِ ، ولذلك انحدرَ العربُ في الأندلسِ وخَبا نجمُهم شيئاً فشيئاً .

* يقولُ المؤرِّخُ «كوندي» : «العربُ هَووا عندما نَسُوا فضائِلَهم التي جاؤُوا بها ، وأصبحوا علىٰ قَلْبٍ متقلّب ، يميلُ إلىٰ الخفّة والمرحِ ، والاسترسالِ بالشَّهوات» .

* لقد ركَنَ الأندلسيّون في نهايةِ أيّام مَجدِهم إلىٰ النَّعيم ، واجتناءِ الملـذّات ، وبـاكَـروا إلـىٰ حيـاةِ اللهـو والعبَـث والمجُـون ، وعـاقـروا

---

(١) رسالة القيان (ص٦٩) .

الشَّراب ، وركنوا إلىٰ ألحانِ الحَان ، فذهبت أخلاقُهم ، وعندما تذهبُ الأَخْلاقُ تذهبُ الأممُ:

وَإنَّما الأُممُ الأَخْلاقُ ما بقيَتْ فإنْ هُمو ذَهَبَتْ أخلاقُهم ذَهَبُوا

* ولذلك غَدا الإغراقُ في المُجونِ والملذَّاتِ من مظاهِرِ حياتِهم ، وأصيبُوا في أخْلاقِهم:

وَإذا أُصِيْبَ القُومُ في أَخْلاقِهم فـأَقِـمْ عَليْهِـم مَـأْتمـاً وعَـويْـلا

* ولم يتوقفِ السَّيلُ الجارفُ عند هذا الحدّ ، بل كانَ للنِّساءِ والقيانِ المغنّياتِ دورٌ كبيرٌ في الهدْمِ وتلاشي الأخلاقِ ، وانحسارِ الفَضَائل ، فقد كانَ اهتمامُ النِّساءِ بمظاهِرِ التَّبرجِ والزّينةِ بالدِّيباجِ والحليّ والحُللِ والأصْباغ من أبرزِ المميزاتِ في أيّام الأندلسِ الأخيرة ، واستنامَ معظمُ القَوم للشَّهواتِ ، وركنوا مرحينَ للأُمْسِياتِ الماجنَةِ ، وللجواري والقيان الشَّاديات الصَّادِحَاتِ بأعذبِ الألحانِ ، وأرقِّ الأَصْوات ، وعندها جاءَهم الويلُ من كُلِّ مكان ، وفَقَدُوا فردوسَهم العظيمَ ، وكانُوا شُموساً فغدوا ظلاماً ، وكانوا عِظَاماً أقوياءَ ، فَصَاروا عِظاماً نخرةً ، ومرّة أخرىٰ نتذكَّر قول ربِّنا عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

* والآنَ أَزِفَ الـرَّحيْـلُ ، وحـانَ الـوَداعُ ، لنلتقـيَ مـا رسمنـاهُ فـي الكتابِ ، وما أردْنَاه من سِيَرِ نساءِ الأندلس من مختلفِ الطَّبقاتِ ، وقد جاءَتْ صياغَةُ الكتاب نفيسةً بحمدِ اللهِ جميلةً أنيقةً شهيّةً للأسماعِ والأذواقِ.

* وقد عدنا إلىٰ مئاتِ المصَادر والمراجعِ والكُتُبِ ودواوين الشُّعراء لنجلوَ صورةَ المرأةِ الأندلسيّة بشكلٍ جميل.

* وكانَ في مقدّمة ما رجَعْنَا إليهِ كِتَابُ اللهِ عزَّ وجلَّ ، وهو الكتابُ العظيمُ وكلامُ اللهِ الكريمُ الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فُصِّلَت: ٤٢].

* ومن كُتُب الصَّحيح وكتُب السُّنَّة نَهلْنَا ما يزيِّنُ كتابنَا ويزيدُه حلاوةً وطلاوةً.

* أمّا كتبُ الأَدب فكانَت هي مادَّة الكِتابِ وقوامه ، وروح وريحان هذا البَحثِ ، حيث نَظَمْنا ما تفرَّقَ منَ الأخبارِ وصَنَعْنَا منها طاقاتٍ جميلةً تسرُّ النَّاظرين ، وتبهجُ السَّامعين وتزيدُ منْ رصيدِ القَارئين ، وكانَ في مقدّمةِ المصَادر الأدبيّة الكتبُ الرَّئيسةُ التي تحدَّثَت عن الأندلسِ وأدبائِها وتراجمِ أعلامها من مثل: الذَّخيرة في محاسنِ أهلِ الذَّخيرة لابن بسّام؛ والإحَاطة في أخبارِ غَرناطةَ لابن الخطيب ، ونَفْح الطِّيب للمقّري ، والمُطْرب لابن دحيةَ ، وعشَرات الكتب التي يراهَا القارىءُ مبثوثَةً في ثنايَا الكِتاب.

* وأمّا دواوينُ الشُّعراءِ الأندلسيّين ، كابنِ زيدونَ ، وابنِ خَفاجَة ، وابنِ دراج ، وابنِ حمديس وغيرِهم فكانتِ الرَّوضَ المِعْطار وزْهَر النَّوار الذي نفحْنَا فيه بحثَنَا ، وزيَّنا فيه عمَلَنا ، فقد يجدُ الباحثُ بغيتَه في ديوانِ شاعِر قد لا يجدُ ذلك في كتابٍ آخرَ.

* ولم نتوقفْ عند هذا الحدّ فَحسْب ، وإنّما أخذنا بطرفٍ من كتبِ التَّاريخ التي هي الإهابُ لهذا الكِتاب ، حيثُ نقفُ منْ خلالها على أهمِّ الأحداثِ والأيّامِ والأَعْوام ، لتتوضحَ صورةُ المرأةِ المترجم لها ، أو لمعرفةِ حادثةٍ ما سجّلَتْها هذهِ المصادرُ التَّاريخيّةُ.

* ورفدْنَا عملنَا بكتبِ اللّغة والأمْثال حيث كَشَفْنا عن غوامضِ ما أبْهِمَ علينا ، وما استغلقَ عنّا معانيه ، فجاءت الأمورُ واضحةً جليّةً لا لبسَ فيها ولا غموض ، وقد جادَتْ علينا كتُب اللّغة واللّسانيات بمعلوماتٍ مهمةٍ أعطتْ بحثَنا رونقاً وبهاءً وسَناءً ، وصارَ الكتابُ بها أكثرَ فائدةً ، وأعظمَ أثَراً.

* ومنَ المصادرِ التي عُدنا إليها وكانت زَهْر كتابِنا وريحانَه ، كُتُب التّراجم المتخصِّصة بالنِّساء ، القديمِ منها والحديث ، حيثُ أفَدْنا منها في بناءِ صَرْح هذه الموسُوعة النَّسويّة اللطيفة المتألّقة ، وسيجدُ القارىءُ أسماءَها منثورةً في هوامِشِ الكتاب وبينَ أعْطَافِه.

* وكانَ لكتُبِ المعارفِ العامّةِ ، والموسوعاتِ المتعدّدة ، وكتبِ الجغرافية والبُلدان ، وبعضِ المجلات مساحةٌ واسعةٌ في أرضِ هذا الكتاب ، إذْ لا غنى للباحثِ عَنْها ، فهيَ أكْسِيرُ حياةِ الكُتُب ، ومادّةُ روحِها ، ولا تُسْتَبْدَلُ بغيرِها ، حيثُ فوائدُها جليلةٌ ، ومعارفُها مفيدةٌ ، تجعلُ الكتابَ مزداناً بأجملِ الحُلل السّندسيّة ، وفيهِ ما فيهِ من خيرٍ ومن حِكَم ، ويحقُّ لكَ أنْ تقولَ:

فَمَا شِئْتَه فيْهِ تَجِدْه كَأَنَّهُ   لِنَاظِرِه بَحْرٌ طَمَىٰ وَجَوَاهِرُ
أَبَنْتَ بِمَا فِيْهِ أَتَيْتَ حَيَاةَ مَنْ   حَوَتْهُ عَلىٰ مَرّ الدُّهُورِ المَقَابِرُ
وأَبْديْتَ فيهِ سِحْرَ لَفْظِكَ رَائقاً   تَلَذُّ بهِ الأَجْفَانُ وهي سَوَاهِرُ

* وبعْدُ ـ عزيزي القارىء ـ فقد بذلْتُ قَدْرَ المستطاعِ في تنسيقِ هذه الموسوعةِ وتأليْفِها ، واللهُ وحْدَه يعلمُ كم سَهِرتُ مِنَ اللّيَالي ذواتِ العَددِ وأنَا أُسرّحُ الفِكْرَ والنَّظَرَ في بطونِ المصَادرِ ، أُحَلِّلُ وأقارنُ ، وأصحّحُ ما غَاب عنْ بعضِ المصنّفين ، وأدعو إلىٰ سُلوكِ نَهج الحقّ ، من أجْلِ الحقِّ ، ليعلو الحقُّ ، وتكون كلمةُ الحقِّ ، هي الحقّ.

* وفي ظنّي أنّي قدَّمْتُ شيئاً مفيداً ـ بإذنِ اللهِ ـ إلى طُلاّب العلْم ، وشُداةِ المعرفةِ ، ومحبّي الحقّ ، وسامعي الكَلِم الطَّيِّب ، لأسمعَ دعوةً صادقةً من قَلْبٍ صادقٍ يدعوها محبٌّ لي بِظَهْرِ الغيْبِ تنفعُني.

* لقد عملتُ هذا العَمل وغيرَه مَن الكُتُب ابتغاءَ وجْهِ اللهِ ، وابتغاءَ مرضَاتِه ، وليعمّ نَفْعُها بين الخاص والعام ، فقد اقتبستُ منَ القديمِ ، وصُغْتُ بما يناسِبُ العَصْرَ الحديثَ وفْق الأُصولِ ، ودونَ الخروجِ عن

الجَوهَرِ ، فجاء ـ بحمدِ الله ـ عملُنا كما قَال أستاذُنا الدّكتور محمّد فَوزي فيضُ الله: يلذُّ الأَسْماع ويوقِظُ القُلوبَ ، ويعجبُ مَنْ يحبّ السَّلف ، ويقدّره قَدْره(١) .

* نعم لقد صغتُ حِلْيَةَ هذا الكتاب ليكونَ حليةً لمن أرادَ أنْ يتحلَّى بِحُلىٰ الآدابِ ، ولمن يطلبُ الحقَّ ، ويميّز الخبيثَ منَ الطِّيِّب ، ولأولئك الذين يقدّرون العَملَ الجادّ ، ومَنْ ينزلونَ النَّاسَ منازِلَهم ، فهؤلاءِ القِلّة النَّادرةُ يعلمونَ صعوبةَ التَّتبُّع في المَصَادر والمراجِعِ لإخراجِ كتابٍ بل موسُوعةٍ تضمُّ أكْبَر عَددٍ منْ نسائِنا في الفِردوسِ المفقود؛ وهذا يعني جهداً متميّزاً ، وعملاً مُتواصلاً ، وأُسلوباً نديّاً ، وفكرةً وقّادةً ، لأنَّ البحثَ في هذا الميدانِ ليس سَهلاً ، وإنْ بدا ليّناً لطيفاً قريبَ المنال ، ومَنْ شَاءَ فليجرّب وسيجدُ المشقَّةَ وبُعْد الشُّقَّةِ ، لقلةِ المصَادر والمراجعِ التي تحملُ المادَّة العلميّة ، ولعُسْرِ تجميعِ المادّة وصياغتها صياغةً جميلةً مناسبةً ، ولكنَّ اللهَ وحْدَه هو المستعانُ وهو اللطيف الخبيرُ الذي يعلمُ السِّرَّ وأخفىٰ ، ويعلمُ الهدفَ الذي نرمي إليهِ منْ وراءِ تصنيفِ هذه الكُتُب ، والتي افتتحناها بكتابِ «نساء مبشّرات بالجنّة» الذي طُبِعَ عدّة طبعات ، ثم تلاه كتُب أخرى من مثْل: نِساء من عَصْر النّبوة ، ونِسَاء من عَصْر التّابعين ، ونساء من التّاريخ ، ونِساء من المشْرق العربيّ ، وهذا الكتاب: نساءٌ منَ الأَندلُس ، ونساءُ الأَنْبياء في ضوءِ القُرآن والسُّنَّة ، ونساءٌ في قُصورِ الأُمَراء ، وغيرُ ذلك كثيرٌ وكثيرٌ وكثيرٌ مما يَسرُّ السَّامع والنَّاظر ـ بإذنِ الله ـ.

* والآن ، فقد طالَ بنا الوقوفُ علىٰ أطلالِ هذا الكتاب ، فلنَظْعَن معه حيثُ يظْعَنُ ، ولنقتطف منْ أزاهِرِه ما يحلو منْظَرُه ومخبرُه.

---

(١) انظر كتابنا «رجال مبشرون بالجنة» (ص٧) ط٤ دار ابن كثير ـ دمشق ـ ١٩٩٩ .

* أخيراً: أرجو الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أنْ يجعلَ جميعَ أعمالِنا خالصةً لوجههِ الكريم ، وأنْ يلهمنَا الصَّوابَ فيما نقولُ ونعملُ ، وأنْ يجعلَ خيرَ أيّامنا يومَ لقائِه ، وأن يكرمنَا بعفوهِ ومغفِرتهِ ، فهو الكريمُ وهو الغفورُ الودودُ؛ وأرجو القرّاء الكرام أنْ يتجاوزوا عن الخللِ إن وجَدوا الخطأَ فيما نكتُبُ ، فالكمالُ لله وحْده ، وأنَا بَشَرٌ أصيبُ وأخطئُ كما أرجو القُراء الكرامَ أن يخصّوني بدعوةٍ خالصةٍ منهم في ظَهْرِ الغَيب ، لأنَّ الدعاءَ مخُّ العِبادة ، وعسىٰ أنْ يكرمني اللهُ بدعوةِ كريمةٍ مستجابةٍ من أحَدِ الصَّالحين . . ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

دمشق ـ حرستا — وكتب

حي الشيخ موسى — أحمد بن خليل جمعة

الإثنين ٣ شوال ١٤٢٠هـ

١ كانون الثاني ٢٠٠٠هـ

اعتماد الرُّميكية

* زوجة المعتمد بن عباد الملك الأندلسي.
* ذات جمال نادر، وحديث عذب، وأنوثة لطيفة.
* تُعرف بالسيدة الكبرى، وصاحبة يوم الطين المعجون بماء الورد.

اعتماد الرُّميكيّة

فـي رِحَـابِ الـسَّعَـادَةِ:

* قد تخدمُ السَّعادةُ الإنسانَ ، وتسيرُ في رِكَابه ، فيغدو شَيئاً مذْكُوراً ، ويُشَارُ إليهِ بأصابعِ الإعْجابِ أينَ حَلَّ ، وأنَّىٰ رحَلَ ، ويخدمهُ الكبيرُ والصَّغيرُ ، ولا عجبَ في هذا ، فالسَّعادة قد ظلَّلتْ هذا الإنسانَ ، وحرسَتْه عيونُها ، فغَدا آمِناً:

وَإِذَا السَّعَـادَةُ لاَحَظَتْـكَ عُيـونُهـا نَـمْ فَـالمخَـاوِفُ كُلُّهـنَّ أَمـانُ

* وعيـونُ السَّعـادَةِ وأَلْحـاظُهـا ، قـد لاحظـتْ إحـدىٰ النِّسـوة الأندلسيّاتِ ، في إحدى المُصَادفَات ، فرفَعَتْها منْ طَبقَةِ الجواري إلى مصافّ نساءِ المُلوك ، شأنُها في ذلك شَأْنَ الخيزُرَان[1] بنتِ عَطَاء بالمشْرِق التي اشتَراها الخليفةُ المهديُّ العبَّاسيُّ ، وقدَّمها على جميعِ نسائه لأدبِها وظَرفِها وخفَّةِ ظلِّها وسرعةِ بديهَتِها ، فولَدَتْ له الهَادي والرَّشيد ، وكانَ لها شَأْنٌ كبيرٌ في عَصْرِها لم تبلغْهُ إلا بضعُ نِسْوةٍ منْ نساءِ وأمَّهات الخُلفاء.

* وصاحبةُ السَّعادةِ اليومَ امرأةٌ جَذَبَـتْها المصادفاتُ كيما تلتقيَ مَلِكاً

---

(١) للمزيد من أخبار الخيزُران بنت عطاء الجُرشيّة ، اقرأ سيرتها بتوسّع في كتابنا «نساء منَ التَّاريخ» (ص ٢٢٩ ـ ٢٥٤) ، حيث تجدْ بأخبارِها ما يدخل السُّرور إلى النّفسِ بإذنِ الله.

شَاعِراً ، وأديباً فارساً ، وكريْماً جَوَاداً ، جَمَعَ المَحاسِنَ منْ أطرافِها ، فكانَ واحداً من فرائدِ الدَّهْرِ ، ووَاحِداً من سَادَة الملوكِ الأسْخِياءِ ، وأَسْخياءِ الملوكِ السَّادة .

* ولعلَّ سِحْرَ الكَلِمةِ ، وفنَّ الأدبِ ، وعذوبةَ الكَلامِ الذي كانتْ تَتحلَّى به هذهِ المرأة ، ناهيكَ بجمَال الطَّلعةِ ، وسرعةِ البديهةِ ، وملاحَةِ الوَجْهِ ، كُلُّ هذا جعلَها تحتلُ عَرشَ قَلْبَ مَلِكِ عَصْرِها ومصْرِها ، ذلكَ الذي امتلكَتْ فؤادَه بعَذْبِ كلامِها ، وأنغامِ صوتِها ، ورقَّةِ مشاعِرها ، فاحتكَمَتْ فيه طيلةَ عمرها .

* ترىٰ ، قَلْبَ أيِّ مَلِك مَلَكَتْه واحتلَّتْه هذه المرأةُ التي تختلسُ القلوبَ والألْبَاب؟! وأيّ مَلَكٍ كانَ هو؟!

* حَسَناً ، تعالوا نتعرّفْ ملامحَ هذا المَلِك الهُمام ، بما نَسَجَه عنه ابنُ خَاقَان في «قلائِد العِقْيان» حيثُ افتتح تَرجمتَه له بقولهِ: مَلِكٌ قَمَعَ العِدَا ، وجَمَعَ البَأْسَ والنَّدى ، وطَلَعَ عَلى الدُّنيا بَدْرُ هدى ، لمْ تَتَعَطَّلْ يوماً كفُّه ولا بَنَانُه ، آونةً يراعُهُ ، وآونةً سِنَانُه ، وكانتْ أيَّامهُ مواسمَ ، وثُغُورُ بِرِّه مواسم ، ولياليه كلُّها دُرراً ، وللزَّمان أَحْجَالاً وغُروراً. . . اجتمعَ تحتَ لوائِه منَ جماهيرِ الكُماة ، ومشاهيرِ الحُماة ، أعدادٌ يغصُّ بها الغَضَا ، وأنجادٌ يزْهَىٰ بهم النُّفوذُ والمضَا. . . . فأصبحتْ حضرتُه مَيْداناً لِرِهَانِ الأذْهَانِ ، وغَايةٌ لرميّ هَدفِ البيَان. . . وأصبحَ عَصْرُه أجملَ عَصْر ، وغدا مصْرُه أَحْسَن مصْر ، تُسْفَحُ فيه دِيَمُ الكَرام ، ويفصحُ فيهِ لسَانَا سَيْفٍ وقَلَم(١) .

* ونقلَ ابنُ خلِّكان عَنْ أبي الحَسن عليّ بنِ القَطّاع السَّعدي أنَّه قال في حقِّ هذا المَلِك الهُمام: أندىٰ ملوكِ الأَنْدلسِ راحةً ، وأرحبُهم

---

(١) انظر: قلائد العقيان (١/ ٥١ و٥٢) باختصار.

ساحةً ، وأعظمُهم ثماداً ، وأرفعُهم عِماداً ، ولذلك كانتْ حضرتُه ملتقى الرّحال ، وموسم الشُّعراء وقبلةَ الآمال ، ومألَفَ الفُضَلاء ، حتّى إنّه لم يجتمعْ ببابِ أحَدٍ منْ ملوكِ عَصْرِه منْ أعيانِ الشُّعراء ، وأفاضلِ الأُدباء ، ما كانَ يجتمعُ ببابِه ، وتشتملُ عليه حاشِيتا جنَابه[1] .

* ووصفَه ابنُ الأبّار بقوله: كانَ له في الأدبِ باعٌ وسَاعٌ ، ينظمُ وينثرُ ، وفي أيّامه نَفَقَتْ سوقُ الأُدَبَاءِ ، فتَسَابقُوا إليهِ وتهافَتُوا عليهِ ، وشعرُهُ مُدوَّنٌ موجودٌ بأيدي النَّاس ، ولم يكُ في ملوكِ الأندلس قَبْلَه أَشْعَر منْه ، ولا أَوْسَع مادَّة ، وهو القائلُ في صِباه بديهةً ، وقد سَمِعَ الأذانَ لبعضِ الصَّلوات:

هَـذَا المُـؤَذِّنُ قَـدْ بَـدا بَـأَذَانِـهِ   يَرْجُو الرِّضَا وَالعَفْوَ مِنْ رحْمَانِه
طُـوبـى لَـهُ مِـنْ نَـاطِـقٍ بحقِيْقَـةٍ   إنْ كَـانَ عَقْـدُ ضَمِيْـرِه كَلِسَـانِـهِ[2]

* وفي «سِيره» قالَ الذَّهبيُّ ـ رحمهُ الله ـ: كانَ فارِساً شُجاعاً ، عَالِماً أَديباً ، ذكيّاً شَاعِراً ، مُحْسِناً جَوَاداً ممدَّحاً ، كبيرَ الشَّأْن ، وكانَ أَنْدى الملوكِ راحةً ، وأرحبَهم ساحةً ، كان بابهُ محطَّ الرِّحالِ ، وكعبةَ الآمالِ[3] .

* وقالَ اليافعيُّ في «مِرآته»: كانَ مَلِكاً جَليلاً عالِماً ذكيّاً ، شَاعراً مُحسناً ، وبَطَلاً شُجاعاً ، وجَواداً ممدوحاً ، كانَ بابُه محطَّ الرِّحال ، وكعبةَ الآمال ، وشعرهُ في الذِّروةِ العُليا[4] .

* وقالَ العمادُ الأصْفهانيُّ الكاتب في «خَريدته»: ولم تَزَلْ أيّامهُ

---

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٢٤).
(٢) الحلة السِّيراء (٢/ ٥٥).
(٣) سير أعلام النبلاء (١٩/ ٦١).
(٤) مرآة الجنان (٣/ ١٤٧).

صافيةَ المشَارِع منَ الكَدر ، ضافيةَ المَدَارِع بالظَّفر ، محميةً منَ الغِيَر ، واضحةَ الحجولِ والغُرر[1] .

* هذا الملكُ الذي أثنىٰ عليه عامّة النَّاسِ وخاصَّتهم هو المعتمدُ بنُ عبَّاد صاحبُ قرطبةَ وإشبيليةَ وما والاهُما من جزيرةِ الأندلس. وكانَ المعتمدُ منَ الملوكِ الفُضَلاء ، والشُّجعان العُقَلاء ، والأجوادِ الأَسْخياءِ المأمونينَ ، عفيفَ السَّيف والذَّيْلِ ، حَسَنَ السِّيرةِ ، عَادلاً محبُوباً بين النَّاس.

* أمَّا المرأة التي قَفَزَ بها أدبُها فجعلَها في مصافّ نساءِ المُلوك ، ومنْ مشاهير نساءِ الأندلس فهيَ اعتمادُ الرُّميكيّة[2] التي شاركتِ المعتمدَ سرَّاء حَياتِهِ وضراءَها ، وساقَتْه كأْسَ السَّنَاء والشَّقاء ، واحتلَّتِ المرتبةَ الأولى بين نسوةِ عَصْرِها ، ومنَ المشهوراتِ بالأَندلسِ في القَرن الخامسِ الهجريّ ، وتُعْرَفُ بالسَّيِّدةِ الكُبْرىٰ[3] .

* قال ابنُ الأبَّار: وهيَ أمُّ الرَّبيع ، وتُعْرفُ بالسَّيِّدةِ الكُبْرىٰ ، وتلقَّبُ بالرَّميكيّةِ نسبةً لمولاها رُمَيك بنِ حَجَّاج ، ومنْه اشْتَراها المعتمدُ في أيَّامِ

---

(١) خريدة القصر وجريدة العصر (٢/ ٢٥).

(٢) المغرب (١/ ٣٩٠) ، وخريدة القصر و جريدة العصر (٢/ ٧١) ، ونفح الطيب (١/ ٤٢٢) و (٢/ ٢٠٩) و(٥/ ٣٤٣ و٣٤٤ و٣٥٧) و(٦/ ٥٣ و٦٣ و٦٥) و(٩/ ٢٢٠) ، ونزهة الجلساء (ص ٨٧) ، وأعلام النساء (١/ ٧١) ، وتحفة العروس ومتعة النفوس (ص ٤٥١ ـ ٤٥٣) ، والحلة السيراء لابن الأبار (٢/ ٦١ و٦٢ و٧٠) ، ووفيات الأعيان (٤/ ٤٢٨ و٤٢٩) ، وشاعر ملك لعلي الجارم من سلسة اقرأ رقم (٦) طبعة عام (١٩٤٣ م) ، وديوان المعتمد بن عباد ، والدر المنثور (ص ٤١ و٤٢) ، ومصادر حديثة ومترجمة.

(٣) الحلة السِّيَراء (٢/ ٦٢)؛ وذكر التّجاني أنَّ اسم الرميكية: أم البنين. وقال: وصفَها الحِجاري بالجمالِ وطيبِ النَّادرةِ ونظم الشعر (تحفة العروس ص ٤٥١).

أبيهِ المُعْتَضد ، وكانَ مفرطَ الميلِ إليها ، حتّى تلقَّب بالمعتمدِ لينتظمَ اسمه حروفَ اسْمِها(١) .

اعْـتِمَـادُ وَمَحَاسِـنُ المُصَادَفَـاتِ :

* مَنْ كَانَ يَعْرِفُ اعتمادَ هذه قبل أنْ تلتقيَ المعتمدَ بنَ عبّاد؟ ومَنْ كانَ يسمعُ بِها لولا أنْ جمعَتْها المصادَفةُ العجيبةُ بالمعتمدِ في إحدى جولاتهِ ومتنزَّهاتِهِ؟!

* أعتقدُ أنَّها ستكونُ عَلىٰ هامشِ التَّاريخِ ، بل لم يَحْفَلْ بها تاريخُ بلدِها ، فَضْلاً عن تاريخِ النِّساء في الأَنْدلس ، حتّى هي نَفْسُها لم تكنْ تتوقَّعُ أنْ تكونَ ممّنْ تُـقْرَأُ سيرتُها وأخبارُها في الكُتُب ، ومعَ سِيَرِ أعْلام النُّبلاء والمشَاهيرِ في دُنيا الأَنْدلُس! .

* إذاً ، فكيفَ اقتعدتْ هذهِ المرأةُ سدّةَ الشَّهيرات والمشاهير؟ وكيفَ ظهرَتْ على سَاحَة الشُّهرة؟ وغَدتْ في تاريخِ النِّساءِ شيئاً مذكُوراً؟! وأَمْسَتْ منَ الآمراتِ النَّاهيات حيناً منَ الدَّهر؟! وملكةً منْ شاعِراتِ وأديباتِ نساءِ الملُوك؟ وغَدَتْ تُدعىٰ السَّيِّدة الكبرىٰ؟!! هذا ما ستفصحُ عنه السُّطور التَّاليات بإذنِ الله .

* كانَ المعتمدُ بنُ عباد ـ رحمه الله ـ يحبَّ أنْ يزورَ متنزَّهات إشبيليةَ مع إِلْفه وصديقه الأديب الشَّاعر المطبوع أبي بكر محمد بن عمَّار ، فقد كانَ في إشبيليةَ منَ المُتَفرَّجاتِ والمتنزَّهاتِ كثيرٌ ، ومنها متنزَّهٌ اسمهُ: «مَرْجُ الفِضَّةِ» ، الذي يغْشَاهُ النَّاس لجمالِهِ وطيْبِ هوائِهِ وحسنِ موقعِهِ من نهرِ إشبيليةَ ، وفيه يقولُ أبو الحسنُ عليُّ بنُ موسىٰ بنِ سعيد العنسيّ من قصيدة :

---

(١) الحلة السِّيَراء (٢/ ٦٢)؛ وذكر التّجاني أنَّ اسم الرميكية: أم البنين. وقال: وصفها الحجاري بالجمال وطيب النَّادرة ونظم الشّعر (تحفة العروس ص ٤٥١).

الغُصْنُ يَمْرحُ تَحْتَه والنَّهْرُ في قَصْـفٍ تُـزَجّيـه يَـدُ الأَرْوَاحِ
وَكَـأَنَّمـا الأَنْسـامُ فَـوق جَنَـانِـهِ أعـلامُ خَـزٍّ فَـوْقَ سُمْـرِ رِمَـاحِ

* وما أجْمَل قول الآخر:

وَالـرِّيـحُ تَبْعَـثُ أَنْفـاسَـاً مُعَطَّـرةً مثْـلُ العَبيـرِ بمـاءِ الـوَرْدِ مُخْتَلِـطُ!

* وإشبيليةُ مدينةُ السِّحْرِ والجَمَال وَالأدبِ والفنِّ والعِلْمِ ، وقال بعضُهم فيها: إشبيليةُ قاعدةُ بلادِ الأندلس وحاضرتُها ، ومدينةُ الأدب واللهوِ والطَّرب ، وهيَ على ضفَّة النَّهر الكبيرِ ، عظيمةُ الشَّأْن ، طيِّبةُ المكانِ ، لها البرُّ المديدُ ، والبحرُ السَّاكنُ ، والوادي العظيم[١].

* وقال ابنُ مفْلح عنها: إنَّ إشبيليةَ عروسُ بلادِ الأَندلُس لأنَّ تاجَها الشَّرق ، وفي عُنُقِها سِمْطُ النَّهر الأعْظَم ، وليسَ في الأرضِ أتمُّ حُسْناً منَ هذا النَّهْرِ ، يُضاهي دجلةَ والفراتَ والنَّيلَ ، تَسيرُ القواربُ فيه للنُّزهةِ والسّيرِ والصّيدِ تحتَ ظلال الثِّمارِ ، وتَغْريد الأطيار أربعةً وعشرينَ ميْلاً[٢].

* وفي إحدىٰ الأُمْسياتِ النَّديةِ بأنفاس العِطْر ، والتي رقَّتْ فيها الأنسامُ ، وراقَ فيها الماءُ ، خرَجَ المعتمدُ بنُ عبَّاد متخفّياً مع صديقهِ ابنِ

---

(١) نفح الطيب (١/١٩٦) طبعة دار الفكر ١٩٨٦ م.
(٢) نفحُ الطِّيب (١/١٩٦). ومنْ محَاسنِ إشبيليةَ: اعتدالُ الهَواءِ ، وحُسْنُ المبَاني ، ونهرُهَا الأعظمُ الذي يَبْلغُ المدُّ فيهِ اثنينَ وسَبعينَ ميْلاً ثمّ يحسرُ ، وفيه يقولُ ابن سفرَ المريني:
شَـقَّ النَّسيـمُ عليـه جَيْـبَ قميصـهِ فـانْسَـابَ مـنْ شطَّيْـهِ يطلـبُ ثـاره
فتضـاحكَـتْ وُرْقُ الحمـام بـدوحِهـا هـزْءاً فضـمَّ مـنَ الحيـاءِ إزاره
وقيلَ لمنْ رأىٰ مصْرَ والشَّام: أيُّهما أحْسَن ، أهذانِ أمْ إشبيلية؟
فقال بعد تفضيل إشبيليةَ: شرقيّها غابةٌ بلا أَسَد ، ونهرُها نيلٌ بلا تمْسَاح؛ وكانتْ عاصمةُ مُلْكِ المعتمد بنِ عبّاد منْ ملوكِ الطَّوائف.

عمار[1] إلى متنزّه «مرج الفِضّة»[2] ، حيثُ ينعُمان بمناظِرِ الرِّياضِ النَّضرة ، ونضرة الرِّياض ، والبَساتين الخَضِرة ، وخضْرةِ البساتين ، ويسرِّحانِ النَّظَر في مياهِ النَّهر الجميلِ المُنْسَاب الذي تلثُمه ثغورُ الأَنْسام التي تهبُّ متراقصةً بينَ الفينةِ والأخرى ، فتتركُ على صفْحَتهِ الباسمةِ دوائرَ منَ المحبَّة والدَّلال والرِّقة.

* وجلسَ المعتمدُ إلىٰ ابنِ عمّار ، وقد اقتَعَدا السُّندسَ الأخضرَ الجميلَ يرنُوانِ إلى ذلك النَّهْر الذي تمسُّه نسماتٌ منَ الهواءِ ، فتجري مياهُهُ في تموُّجٍ رجْراجٍ كأنَّه شَعْرُ غانيةٍ غيداءَ ترسِلُه متموِّجاً لطيفاً ، وإنَّ الشاعريْن المعتمدَ وابنَ عمَّار لينعمان بتلكَ النُّسيماتِ الغَزِلةِ الأنيقةِ التي تداعبُ وجنَتَيْهما ، وتنفحُ وجهيهما بهواءٍ ليِّنٍ أليفٍ كأنّما هو القُبُلاتُ الرَّقيقةُ تغمرُ به الحبيبةُ الوامِقَةُ وَجْهَ مَنْ تحبّ ، أو الأمّ الرَّؤومُ تغمرُ وَجْهَ وحيدها الجميل بعَذْبِ قُبلاتها المندّاةِ بالحُبِّ.

* وكانَ الشَّاعرانِ الحميمان يصمتان تائهَيْنِ تيْهَ المخلوقِ أمامَ روعةِ الخالقِ المبدعِ العظيم ﴿ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴾ [السَّجدة : ٧] ؛ وكانَ بالقُرب منهما امرأةٌ منَ الغَسَّالاتِ ـ وهي إحدى جواري رُميك بنِ حجَّاج ـ ولم تكنْ تَشْعُرُ بهما ، ولا هما يَشْعُران بها أو يأبهان لغيرِها.

* وحرّكَتْ هَمَسَاتُ الأَنْسام الأغصانَ الجميلةَ ، كما حرَّكَتِ مشاعرَ الملكِ الشَّاعرِ وأيقظتْ أحَاسِيسَه ، وداعبتِ الرِّيحُ المتراقصةُ مياهَ النَّهْر فجعلتْ منه حُبُكاً وزَرَداً ، فإذا بدواعي الشِّعْر تنبعثُ منْ أعماقِ

---

(١) ويُقال : إنَّ المعتمدَ كانَ معه صديقهُ «أبو القَاسم الهوزَنيّ» ، والأوّلُ أَشْهر.

(٢) «مَرْجُ الفِضَّة» : كانَ متَنَزَّهُ مرجُ الفضةِ يقعُ خارجَ المدينةِ بعيداً عَنْها ، على شاطىءِ الوادي الكبير ، ويجذبُ إليهِ كبارَ الشَّخصيَّات المعروفةِ المشهورة عَصْر ذاك.

المعتمدِ ، وتنبثقُ منْ وجدانهِ ، فقال لصديقه: أجِزْ: «صَنَعَ الرِّيْحُ مِنَ الماءِ زَرَد»(١).

* وأطالَ ابنُ عمّار الفِكْرَ في هذا ، وصالَ وجَالَ ، إلاّ أنَّ جميعَ بحورِ الشِّعر قد تلاشَتْ منْ ذاكرته ، وأُرْتِجَ عليه حينئذٍ ، وخانَتْه بديهتهُ اليَقِظَةُ في تلك اللحظات ، فلمْ يستطعْ أنْ يقولَ كلمةً واحدةً ، ولعلَّ الطَّبيعةَ السَّاحِرةَ قد سَحَرتْهُ ومَلَكَتْ بجمالها كلَّ جوارحِهِ ومشاعرِه ، وإذا بصوتِ تلكَ المَرأةِ الغسَّالةِ ينبعثُ رقيقاً كنسيم الوادي الزَّاهر ، وينظرُ إلى الشَّاعرين بعينَيْن ساحرتَيْن ، وجِيْدٍ لطيفٍ ، وقَدٍّ ممشوق ، ثمَّ انطلقتْ تقولُ على البديهة بصوتٍ عَذْب ذي نَغَمٍ آسِرٍ: «أيّ دَرْعٍ لِقتَالٍ لو جَمَد»(٢).

---

(١) وقيل: إنَّ المعتمدَ بنَ عبّاد قال لابنِ عمَّار: يا أبا بكر ، أجز هذين البيتين:
تَــــرقــــرقَ المــــاءُ بهفْــ ... ــهــافِ النّسِيـــم واطّـــردْ
يـــا لـــوحـــةً أبـــدعَهـــا ... بفنّـــه الفـــردُ الصَّمَـــدْ
ولكنَّ صوتاً رقيقاً عَذْباً ينسابُ منْ قريبٍ يخاله الشّاعرُ نسيماً من النّسيم ، أو خفقةً منَ النَّهرِ ، أو صوتاً للكونِ الطَّروبِ حولَهما قد انبعثَ يكملُ البيتَيْن..
ويلتفتانِ إلى الصَّوتِ ، فيجدانِ حوريةً قد جَلَسَتْ منهما غيرَ بعيد رانيةً إلى النّهر ، غير ملتفتةٍ إلى الصَّاحبَيْن ، وإنّما هيَ تنشدُ شِعْرها وكأنَّما تنشدُهُ لنفسها ، وينظرانِ إلى جانب وجهها ، فيريَانِ جمالاً لم يَرَيَاهُ منْ قَبْلُ ، ثمَّ يسمعَان شِعْراً لم يسْمَعاه من امرأةٍ قبل.
قالتِ الفتاةُ مجيزةً البيتَيْن:
أجْمِـــلْ بهـــا يـــومَ الـــوغـــى ... لـــو أنَّ ذا المـــاء جَمَـــدْ
تَخَـــالَهـــا منْسُـــوجـــةً ... مـــنْ حلـــقٍ ومـــنْ زَرَد
ويقفزُ الشَّاعِران منْ مكانَيْهما ، ويهفوانِ إلى تلكَ الحُورية التي انبعثتْ تترنَّمُ ، لا يدريان منْ أينَ ، ولكنَّ الحوريةَ تلتفت إلى المعتمدِ وفي فمِها ضحكةٌ ، وفي وجهها بشْرٌ ، وفي عينيها وميضٌ ، وتقول: أنا روميكا أيُّها الأميرُ. (ابنُ عمار ص ٣٩ و٤٠) لثروت أباظة ، بتصرف واختصار.
(٢) نقلَ ابنُ حمديس الصِّقليّ هَذا المَعْنى إلى غَير هذا الوصْفِ ، فَقَالَ: =

* ويعجبُ المعتمدُ بنُ عبّاد منْ حسنِ ما أتَتْ به هذهِ المرأةُ مع عَجْزِ الشَّاعرِ المفلِق ابنِ عمَّارَ ، والتفتَ المعتمدُ فَنظَرَ إليها ، فإذا هي في صورةٍ حَسَنَةٍ ، وإذا وجهُها يَبْهرُ العيونَ ، وجسمُها يثيرُ الشّجونَ ، فقد خَلَعَ عليها الجمالُ رداءَه ، وفيها سِحْرُ الرَّبيع ، وربيعُ السِّحْرِ ، وهمساتُ الأَمْواهِ التي تتماوَجُ في النَّهر ، أمّا عيناها فكانَتا كما قاله ذو الرّمة :

وَعَيْنَانِ قَالَ اللهُ كُونَا فَكَانَتَا فَعُولانِ بالأَلْبَابِ ما تَفْعَلُ الخَمْرُ[1]

= نَثَرَ الجو على الأرضِ بَرَدْ أيّ دُرٍّ لِنُحورٍ لو جَمَدْ
لؤلؤٌ أصدافُهُ السُّحبُ التيْ أنْجَزَ البارقُ منها ما وَعَدْ
(ديوان ابن حمديس ص ١١٧)

كما أَخَذَ هذا المعنى كثيرٌ منَ الشُّعَراء ، ومنهم «ابنُ ظافر» صاحبُ كتاب «بدائع البَدائه» ، حيثُ قال :

لو دامَ ذاكَ النَّبْتُ كانَ زَبرجَدا وَلو جَمَدتْ أنهارهُ كُنَّ بلُّورا

وهذا المعنى مأخوذ من قول علي التونسي الإيادي من قصيدته الطائية المشهورة :

ألؤلؤٌ قَطْرُ هذا الجوِّ أمْ نُقَطُ ما كانَ أَحْسَنه لو كانَ يُلْتَقَطُ
(نفح الطيب ٥/ ١٤٣) بتصرف يسير

وقال ابنُ حمديس :

صنَعَ لنا الشّاعرُ أبو محمّد عبدُ الجليل بنُ وهبون المرسيّ بإشبيليّة نزاهةً في الوادي ، شَهِدهَا جماعةٌ منَ الشُّعراء والأُدباء والمغنّين ، فأقمنا بها منْ بكرة إلى العشي ، فَبردَ الهواءُ ، وهبَّتِ الريحُ لطيفةَ النّسيم ، صنَعَتْ في الماءِ حُبُكاً جمَيلاً ، فقُلْتُ عند ذلك للجماعةِ أجيزوا : «حاكتِ الريحُ منَ الموجِ زَرَد» . فأجازَ هذا القِسْم كلُّ إنسان بما سَنَح في خاطِره ، وكانَ في القومِ الشَّاعر أبو تمّام غالبُ بنُ رباح ـ الغالب على اسمه الحجّام ـ فلمّا سَمِعَ ما أتىٰ به كلُّ واحدٍ منهم قال : لم يصنعُوا شيئاً؛ ثم التفتَ إليَّ وقال : كيفَ قلتَ أنتَ يا أبا محمّد؟ قلتُ : «حاكتِ الريحُ منَ الموجِ زَرَدْ» .

فقال مجيزاً : «أيّ درعٍ لقتال لو جَمَد» . (ديوان ابن حمديس ص ١٦٨ و١٦٩) .

(١) ديوان ذي الرمة (ص ٢٠٩) . وقولهُ «كُونا فكانتا» : يريدُ : أنْ تجيئا فجاءَتا . «فعُولان بالألبابِ ما تَفْعَلُ. . .» : أي : سَحرَتَا الألْباب ، ذهَبتَا بالعقولِ ، كما =

* وأمّا خدُّها فكانَ متورِّداً تورُّدَ الزَّهْر في الرُّبى ، وكأَنَّ الشَّاعر عنَاها بقولهِ:

تـوريْـدُ خَـدِّكِ لـلأَحْـدَاقِ لـذَّاتُ ... عَلَيْـهِ مـنْ عَنْبَـرِ الأَصْـدَاغِ لامَـاتُ

* وصفوةُ القولِ: لقد أرادَ اللهُ لهذه المرأةِ الشُّهرةَ والسَّعادةَ حيناً منَ الدَّهْرِ، فجعلَ المعتمدُ يعجبُ بها، ويُؤْخَذُ بجمالِها وملاحتِها ، فقد راقَتْ في عينَيْه ، ورآها الدُّنيا بينَ يديه[1] ، وهنالك سألَها: أذاتَ زوجٍ أنْتِ؟

فقالت: لا ، ثمَّ انصرفَتْ إلى سبيلِها.

* ثمَّ إنَّ المعتمدَ قالَ لخادم كانَ يصحبُه ويتبعُه: يا غُلام ، سَلْ عن هذهِ الفتاةِ ، واعرفْ شَأْنَها ومكانَ أَهْلِها.

* وانطلقَ الخادمُ فجاءَ بالخبرِ اليَقين ، وعَلِمَ أنَّ هذه الجاريةَ هي جاريةُ رمُيك بنِ حجاج ، وأنّها تُدعى اعتماد[2].

= تذهبُ الخمرُ بعقولِ النَّاسِ. «فعولان»: يَستأنفُهما. قال الأصمعيُّ: «فعولَيْن بالألبابِ»، فقال له إسحاقُ بنُ سُويد: ألا قَلْتَ: «فَعولان»: فقال: لو شئْتَ سبَّحْتَ.
وهذا البيتُ منْ قصيدةٍ طويلةٍ لذي الرّمّة تعد (٦٠ بيتاً) وأوّلُها:

أَلا يا اسْلمي يا دارَ ميّ على البِلى ... ولا زال منهـلاً بجـرعـائِـكِ القَطْـرُ

(١) وكأنَّ الشَّاعر عنَاهَا بقولِهِ:

فَتَـاةٌ حَـوَتْ فـي الـوَجْنَتَيْـن شَقيقـا ... لها البدرُ أَضْحىٰ في الكَمَالِ شَقيقا
فمـا احمـرَّ منْهَـا الخَـدُّ إلاّ لأنَّـهُ ... عَليْـهِ دِمَـاءُ العَـاشقيـنَ أُريْقَـا
وَمَـا اسْـوَدَّ فيـهِ الخَـالُ صبغاً وَإنَّمـا ... لِفَـرطِ لهيـبٍ يصْطَليـهِ حَـريقـا
لها سَهْمُ لَحظٍ يَرشقُ الصَّبَ عاشقاً ... وقـد يتثنّـى بـالـدَّلال رشيقـا
بـديعـةُ حُسْـنٍ مـا بـدا درُّ ثغـرهـا ... مِـنَ الـدَّمـع إلا قَـدْ ذرفـتُ عقيقـا

(٢) قالَ ابنُ الأَبَّار: اعتمادُ هي أمُّ الرَّبيع ، وتُعْرَفُ بالسَّيِّدة الكبرى ، وتلقَّبَ بالرُّميكيّةِ نسبة لمولاها رميك بن حجاج ، ومنه ابتاعَها المعتمدُ في أيَّام أبيه المعتضد ، وكان مفرط الميلِ إليها ، حتَّى تلقَّب بالمعتمد لينتظم اسمه حروف اسمها. (الحلَّة السَّيراء ٢/ ٦٢).

الـزَّوْجَـةُ المَلِيْـحَـةُ:

باتَ المعتمدُ يفكّرُ في اعتماد جاريةِ ابنِ رُميك ، فقد احتلَّتِ اعتمادُ مكَاناً رحْباً في قَلْبه، وصادفَ جمالُها هوىً في نَفْسه الخاليةِ الصَّافية ، وسَدَّت عليهِ مَسالِكهُ ، ومَلَكَتْ جوانحَه ، وراقتْ في عينَيْه وخاطرِه ، وألهبتْ مشاعِرَه، فذهَبَ إلىٰ أمِّه فكَاشَفَها بغرامِهِ الشَّديد ، وشَغَفِه بهذهِ الجاريةِ الجميلةِ السَّاحرةِ الفاتنةِ التي قَتَلَتْه بجمال عَينَيْها وطلعتِها ، وأنَّها أصابَتْ شغافَ قَلْبِه فاستولَتْ عليهِ ، وأنَّه لا يستطيعُ البُعْدَ عنها ، ومنْ ثمَّ سألَها المعتمدُ أنْ تستعطفَ أباهُ المعتضدَ وترجوه أنْ يزوِّجَه منها ليكتملَ أُنْسه وتتمَّ سعادته.

* ووعدتْهُ أمُّه خَيراً ، ثمَّ إنَّها ذات يومٍ اغتنمتْ فرصةً صادفَتْ من خلالِها طيبَ نَفْسٍ منْ زوجها المعتضدِ ، فقالتْ له: يا مولايَ ، إنّي نظرتُ اليومَ منْ خلالِ نافذةِ القَصْر ، فرأيتُ ابنَك بينَ قوَّادِ الجيش ، وعليهِ مهابةٌ وجلالٌ ملأَ جوانبَ نَفْسي زَهْواً وإعجاباً ، إنَّ كلَّ لمحةٍ منْ لمحاتهِ يا مولاي تقولُ إنَّه مَلِكٌ ، وقد وقَفَ الرُّؤساءُ أمامَه خاشعينَ وهو يشيرُ بأصبعِهِ هنا وهناكَ في حُسنِ سَمْتٍ ، وجَلالةِ مَوقفٍ.

* قالَ المعتضدُ: إنَّهُ ابني يا طاهرةُ ، وفيه دَمُ ملوكِ بني المنذر ، وإنَّ أخوفَ ما أخافهُ عليه تلك النَّزعةُ الجائعةُ إلى اللهوِ والعَبَثِ.

* فقالت أمُّ المعتمدِ: إنَّه في مَيْعَةِ الصِّبا والشَّباب يا مولاي ، ولو نَظَرَ كلُّ شيخٍ نظرةً إلى الوراءِ لأَغْضَى عن هَفَواتِ الشَّباب وَعَذَرَهم.

* قال المعتضدُ لزوجهِ: لكنْ لا يا طاهرةَ الذَّيْل ، إنَّ التَّمادي والشَّطط في الشَّهوات نكبةُ الملوكِ ، وكارثةُ العُروش.

* قالتْ أمُّ المعتمدِ: يا مولاي ، لعلَّه لو تزوَّج بمن يحبُّ ويهوى ، كَفَّ وارعوىٰ.

* فأجابَها المعتضدُ: هو كالعصفور المرحِ لا يثبتُ على غُصْنٍ ، له نقرةٌ في كلّ ثَمَرةٍ ، فإذا فرغَ منْ نَـقْرِ الثِّمار ، ملأَ الجوَّ غناءً وشَدْواً.

* فقالتْ أمُّ المعتمدِ في هدوءٍ وقد عَلَتْ وجهَهَا ابتسامةٌ لطيفةٌ: يا مولاي ، إنَّه يريدُ أنْ يفرغَ إلى شؤونِ المُلْك بالزَّوجِ وقد أحبَّ جاريةً أديبةً مهذَّبةً عاقلةً لرُميك بنِ حجاج ، وألحَّ في أنْ أطلبَ إليك أنْ تزوِّجه منْها.

* قال المعتضدُ: قد يصبرُ المرءُ على مرّ الدَّواء إنْ كانَ فيه شِفَاؤه ، فليتزوجها لو كانَ في ذلك أنْ يَقْصُرَ باطِلهُ ، وترعوي نوازعه[١].

* وفي اليومِ التَّالي دُعيَ رميكُ بنُ حجاج إلى قَصْرِ الملِك، فنزلَ عنِ الجاريةِ، وما لبثَ أنْ عَقَدَ عليها المعتمدُ وتزوَّجها، وولدتْ أولادهُ الملوكُ النُّجباء رحمهم الله تعالى[٢]، وكانَ هذا الزَّواج في ربيعِ سنة (٤٥٠ هـ) ، وكان عمر المعتمدِ آنذاك تسعةَ عشرَ عاماً ، حيث وُلِدَ في باجَّة سنَة (٤٣١هـ).

* ومنَ الجدير بالذّكْر هنا أنَّ اعتمادَ الرُّميكيّةَ هذه ، كانتْ معاصرةً لولادةَ في قرطبةَ ، بَيْدَ أنَّها تَقْصُرُ عنها في ميدانِ الشِّعْر وساحاتِ الأدَبِ ، إلا أنَّ اعتماد الرُّميكيّة ، تُساويها في الأحاديثِ العِذاب ، وخفَّةِ الرُّوح ، ولطافةِ الأُنوثَـةِ ، إذْ كانَ المعتمـدُ وهو الملكُ الفارسُ في حَومَاتِ الميدان ، والملكُ الفارسُ في حوماتِ الشّعر والأدبِ ، كانَ يستطيبُ حديثَها ، ويأنسُ بظرفها ، ويتلذَّذُ بحلوِ نوادرِها وفكاهتِها[٣] ،

---

(١) شاعر ملك (ص ٦٤ و٦٥) بشيء من التصرف.

(٢) نفح الطيب (٥/ ٣٤٣) بتصرف. وانظر: تحفة العروس (ص ٤٥١ و٤٥٥) ، وذكَرَ التِّجاني أنَّ المعتمدَ تزوَّجَها ، وقطَعا برهةً من عمرها في سُرور متوال.
(تحفة العروس ص ٤٥٢).

(٣) منْ مُلَحِ ونوادِر وفكاهات اعتماد الرميكية ما ذكَره ابنُ عاصم الغَرناطيّ قالَ: خرجَ=

ويزيـدُ بها هياماً ، ويفنىٰ في نظراتها غَراماً. ولو لم تكنِ اعتمادُ ذاتَ أنوثـةٍ خارقـةٍ لما استطـاعتْ أنْ تستـوليَ على قَلْب مَـلِكِ الأُدبـاء ، وأديبِ الملوك ، وملكِ الشُّعراء ، وشـاعرِ الملوك المعتمدِ بنِ عبَّاد؛ صـاحـبِ اللفتـاتِ الفنيّـةِ والأدبيّـةِ الآسرة[1] ، التي تستـولـي على

= خطيبُ إشبيلية يتوضأ تحتَ برجِ الذَّهب ، وكانَ أَصْلعَ ، دونَ شيءٍ في رأْسه ، فأخرجتِ الرميكيةُ رأْسَها وقالت: بكم تلك القَرعة؟

قال لها: بدرهم.

قالت: إنّما أعطيكَ فيها مقْرعاً.

قال: إنْ كانتَ غاليةً رجحتُها لكِ بهذا الببرير. (حدائق الأزاهر ص ٨١).

ـ ومما يَحْسنُ ذِكْره في نوادرِ النِّساءِ وخفّة روحهنّ ما وَرَدَ منْ أنَّ رجُلاً قد نَظَر إلى طاقٍ عاليةٍ ، فوجدَ فيه امرأةً جميلةً ، وهي تستاكُ ، فقالت له: أتحبّ سواكا؟

قال لها: لا أحبُّ سِواكِ.

قالتْ له: ما ساقَك إلى هنا؟ قال: إلهنُا.

قالت: فما أوقفك للهوى. قال: الهوى.

قالت له: ما اسمُك؟ قال: وجهُك ـ أي جميل ـ قالت: ادخُلْ إذاً.

(١) ممّا يُستَطابُ جَنَاه في هذا المقَام؛ أنَّ اعتمادَ الرميكيّة امرأةٌ فريدةٌ في حياةِ المعتمد بنِ عباد ، بل في عَصْرِها ، علماً بأنّه كانَ هناك جميلاتٌ ، وذواتُ حُسْنٍ مُفْرطٍ ، إلاّ أنهنَّ لم يملكنْ قلبَ المعتمدِ كما ملكتْه اعتمادُ بحلاوةِ حديثها؛ ومنْ أمثلةِ ذلك؛ أنَّ المعتمدَ مرَّ معَ وزيرهِ ابنِ عمار ببعضِ أرجاءِ إشبيليةَ ، فلقيتْهُما امرأةٌ ذات حُسْنٍ مفْرِط ، فكشفتْ وجهَهَا ، وتكلّمتْ بكلامٍ لا يقتضيهِ الحياءُ ، وكانَ ذلك بموضعِ الجبّاسيْن الذين يصنعون الجبْس؛ والجيَّاريْن الصَّانعين للجيرِ بإشبيليةَ ، فالتفتَ المعتمدُ إلى موضع الجيَّارين وقال: يا بنَ عمَّار: «الحَيَازَيْن» فَفهِمَ مرادَه ، وقالَ في الحالِ: يا مولاي و«الخَنَاشَيْن»؛ فلم يفهمِ الحاضرون المرادَ ، وتحيّروا فسألوا ابنَ عمار ، فقال له المعتمد: لا تَبِعْها منهم إلاّ غاليةً.

وتفسيرُها أنَّ ابنَ عبّاد صحَّفَ «الحيَازَيْن» بقولهِ الجيَّارين ، إشارةً إلىٰ أنَّ تلكَ المرأةَ لو كانَ لها حياءٌ لازْدَانَتْ ، فقال له: و«الخَناشَين» أي هيَ وإنْ كانَتْ جميلةً بديعةَ الحُسْنِ ، لكنَّ الخنا شَانَها. وهذا شَأْوٌ لا يُلْحَق.

(نفح الطّيب ١/ ٤٠ و٤١) بتصرف يسير. و(نفحة الريحانة ١/ ٤٦٤ و٤٦٥) و(شرح مقامات الحريري ٢/ ٢١٤). =

القلوبِ ، وتجتذبُ النُّفوسَ ، وتطربُ الأسْمَاعَ.

* ولذلك فقد نَـقَل المقّريُّ عن ابنِ سُعيد قوله: كان المعتمدُ كثيراً ما يأْنَس باعتماد الرُّميكيّة ، ويستظرفُ نوادِرَها ، ولم تكنْ لها معرفةٌ بالغِنَاء ، وإنَّما كانتْ مليحةَ الوجْهِ ، حسنةَ الحديثِ ، حلوةَ النَّادرةِ ، لها في كلّ ذلك نوادرُ محكيّة ، وكانت في عَصْرِها ، ولادةُ بنتُ محمّد بن عبد الرَّحمن ، وهي أبدعُ منْها مُلَحاً ، وأحسنُ افتتاناً ، وأجلُّ منْصِباً ، وكانَ أبوها أميرَ قرطبة ، ويلقَّبُ بالمُسْتكفي بالله ، وأخبارُ أبي الوليد بن زيدون معها وأشعارهُ فيها مَشْهورة(١).

* ونلحظُ ـ عزيزي القارىء ـ من هذا بأنَّه كان للنِّساء أثرٌ كبيرٌ في إثراءِ الأدبِ الأندلسيّ بألوانِ الفُنونِ وأنواعِهِ ، فقد أعانتِ المرأةُ الشُّعراء

= أقول: وهذهِ المرأةُ على الرغم منْ جمالِها وحُسْنِها المفرط لم تجتذبْ إليها المعتمدُ أو تلفتَ نظره. وقد أوردَ ابنُ عاصم الغَرناطيّ تلك الحادثةَ على النّحو التَّالي فقال:

ومنْ مُلَحِ ابن عبّاد ، أنَّه خرجَ يوماً مع جملةٍ وزرائهِ الأدباء ، فاجتازُوا بإشبيليةَ بالموضعِ الذي يُباع فيه الجيرُ والجبْسُ ، فلقيَ جاريةً منْ أجملِ النِّساء وأقلِّهم حياءً ، قد كشفتْ عن وجهِها ، فأقبلَ على ابنِ عمَّار وقال له: يا بنَ عمار الجيَّارِيْن؛ فقالَ له: نَعمْ يا مولاي ، والجبّاسين ، وضحكا معاً ، فَعَلِمَ مَنْ حَضَر أنَّهما لم يُريدا أنْ يُعرِّفا كلَّ واحدٍ منهما بما ذَكَر ، وسألوا ابنَ عمّار عن مرادهما بذلك ، فقالَ له ابنُ عبَّاد: لا تَبِعْهَا منهم إلا غاليةً. ثم إنَّ ابنَ عمَّار أخبرهم أنَّ ابنَ عبَّاد أعجبه حُسْنُ الجارية ، وعابَها بقلّةِ الحياء ، فصحَّفَ «الحيازَيْن» فجاء منه «الجيَّارين» وصحفتُ أنا «والخَنَاشيَن» فجاء منه «والجبَّاسين» ، فاستغربُوا من حضورِ أذهانِهما وحُسْنِ كنايتهما. (حدائق الأزاهر ص ٢٠٤).

(١) انظر: نفح الطيب (٦/ ٥٢)؛ لقد كانت اعتمادُ الرميكيّة ملكةَ إشبيليةَ الأثيرةَ ، وكانت تحتلُّ مكانةً بارزةً في حياةِ المعتمد ، وفي بلاطِ إشبيلية ، وكانتْ تشاطرُ زوجَها هوىَ الشّعر ونظمه ، وكانتْ تعيشُ في هذا الأفقِ الأدبي الرّفيع الذي يسيطرُ على بلاط إشبيلية ، ويجتمعُ في ظلّه أعظمُ شعراءِ ذلك العَصْر ، وتشتركُ ـ على ما يبدو ـ في كثيرٍ من الأحيانِ في مجالس الشّعر والأدب.

على تذَوُّقِ طبيعتهم السَّاحرة الفَاتِنة الفتَّانة ، والمورقة الفَيْنَانة ، واستلهام مجالس الفتنة فيها ، وكانت إلهامُهم في مجالسِ اللهوِ والأُنْس والغِنَاءِ ، وكان منهنّ أديباتٌ أَسْهَمْنَ في إثراءِ الأَدب بما أُثِر عنهنَّ منْ أشعارٍ ، وبما أَثَرنَ حَولَهنَّ منْ اهتمام ، كما قامت بعضُهنَّ بدورٍ خطير في مجالِ السِّياسةِ والثَّقافة والاجتماع.

فالغزلُ هو الفنُّ الذي عُرِفَ متّصلاً بالمرأةِ ، ولم يكن منَ الذُّيوع والانتشار في عَصْر أندلسيّ ، مثلما كانَ في عَصْرِ ملوكِ الطَّوائف ، ولم تسهمْ فيه المرأةُ حرَّةً وأَمَةً كما أسهمتْ في هذا العَصْرِ.

* ونطْلعُ في موسوعتنا ـ الحافلةِ هذه ـ بأخبارِ النّسوة الأندلسيّات على أخْبَارِ عديدات أَثَرنَ الإعجابَ للكبراء والأعلياء ، وأثرنَ حنايا الأَدب وجوانبه ، فقد كانت ضيفتُنا اعتماد الرّميكيّة إحدى أديباتِ الأندلسِ البارزات ، وقد أظهرَها إلى عالَم الشُّهرة شَطْرُ بيت ـ كما رأينا ـ ، وجَذَب إليها نَظَر المعتمد وقَلْبه ، فظلَّت شهيرةً في عالَم النِّساء وتاريخهنَّ إلى أيامِنا هذه ، ولعلَّها تظلُّ منَ المشاهيرِ إلى ما شاء الله.

اعْـتِمَـاد والـمُعْتَمِـدُ:

* قَالَ أحَدُ أدباءِ الشُّعراء الأندلسيّين وظرفائِهم:

لَا تَلُمْنِـي إِذَا طَـرِبْـتُ لِشَجْـوٍ   يَبْعَـثُ الأُنْـسَ فَـالكَرِيـمُ طَرُوبُ
ليـسَ شَـقُّ الجُيـوبِ حِقّـاً علينَـا   إِنَّمَــا الحــقُّ أَنْ تُشَــقَّ القُلُــوبُ

* والحقُّ فقد شقَّتِ اعتمادُ قَلْبَ المعتمدِ ، واحتلَّتْ عرشَه ، فمنذُ أنْ عرفَ المعتمدُ اعتمادَ الرُّميكيَّةَ ، عرفَتْ كيفَ تستغلّ دلَّها ودلالَها مَعُه ، فأَفْرطَ في المَيْلِ إليها ، وغلَبَتْ عليه.

* ويبدو أنَّ اعتماداً هذه قَدْ مَلَكَتْ على المعتمدِ لُبَّه وقَلْبَه ، فصاغَ

اسْمَه ليوافقَ اسْمَها ، إِذْ أَطْلَقَ على نَفْسِهِ لَقَبَ «المعتمدِ»[1] ، وكان يُعْرَفُ منْ قَبْلُ بمحمّد «الظّافر» ، «والمؤيّد» ، وكان المعتمدُ في بادىء أَمْرِه قد تلقَّب بالمؤيد. ولذلك قالَ له أبو بكر ابنُ عمار في إحدى اعتذارياته من قصيدةٍ طويلةٍ مطلعُها:

سَجَاياكَ إنْ عافَيْتَ أَنْدَىٰ وأَسْجَح وعذرُكَ إنْ عاقَبْتَ أَجْلَىٰ وأَوْضَحُ

وفي هذهِ القصيدةِ يسمّيه «المؤيّد» فيقول:

أَلَا إِنَّ بَطْشاً للمؤيَّدِ يتَّقَىٰ ولكنَّ حِلْماً للمؤيدِ أَرْجَحُ[2]

* وقالَ ابنُ اللبّانَة فيه منْ قصيدةٍ ويسمّيه المؤيّد:

أَسْتَودعُ اللهَ أَرضاً عنْدَما وضُحَتْ بشَائرُ الصُّبْحِ فيها بُدِّلَتْ حَلَكَا
كانَ المؤيّدُ بُسْتَاناً بساحتِها يجني النَّعيمَ وفي عليائِها فَلَكَا[3]

* ولأبي الوليد حسّانَ بنِ المصيصيّ يمتدحُ المعتمد ويسمّيه المؤيد ، وذلك من قصيدةٍ لاميةٍ جميلة مطلعُها:

مَن استطالَ بغيرِ السَّيفِ لم يَطُلِ ولم يخبْ منْ نَجاحٍ سائلُ الأَسَلِ

---

(١) ممّا تَطْرَبُ له الأَسْماعُ ، وتلذُّ بهِ الأَعْيُنُ ، وتُهَذَّبُ بهِ الطِّباعُ ، أَنَّ أبا بكر بنَ اللبّانة المعروف بالدّاني ـ رحمه الله تعالى ـ قد أَلَّفَ كِتاباً مستقلاً عنْ آلِ عبّاد والدَّولة العبّاديّة بالأندلسِ سمّاه «الاعتماد في أخبارِ بني عبّاد» ، وهذهِ التَّسميةُ جميلةٌ مطْربةٌ ، فيها نفحاتٌ أنيقةٌ ، أزكى منْ زَهْر الحديقة ، حيثُ ذكَرَ فيه تاريخ بني عبّاد منذ كانُوا حتى مضوا.
ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ ابنَ اللبّانة ـ واسمهُ محمّد بنُ عيسى اللخميّ الدَّاني ـ هو شاعرُ الأندلس صاحبُ الدِّيوانِ والتَّصانيفِ الأدبيّة ، مدَحَ الملكَ ابنَ عبّاد ، وكان محتشماً كبيرَ القَدْر ، توفي بمدينةِ مَيُورقةَ ـ وهي جزيرةٌ في شرقيّ الأندلس ـ في سنة (٥٠٧ هـ)؛ وكان ابنُ اللبّانة منقطعاً إلى بني عبّاد ، وفيهم أجودُ مدائِحِه ومراثيه ، ولهم أبدعُ ما نظمَ منْ شعره في مختلف الفنون.

(٢) انظر: قلائد العقيان (١/ ٢٨٦ و٢٨٧).

(٣) المصدر السابق (١/ ٩٣).

ومنها يذكر أنَّ اسمَه المؤيد:

حَـازَ المـؤيّـدُ ممّـا قُلْـتُ أَفْضَلَـه   وَزَادَ للفـرقِ بيـنَ القَـولِ والعَمَـلِ
مَلِكٌ تُواصِلُهُ الدُّنْيا ويَهْجُرَهَا   شرّاً ويلبسُ تَقْوىٰ اللهِ في الحُلَلِ

ومنها وقد أجَادَ وأبدعَ:

يَطْوي على نورِ إيمانٍ جوانحه   فالنَّفْسُ من كوكبٍ والجسمُ منْ رجُلِ
جَرُّ الذُّيول ولكنْ منْ جَحَافِلِهِ   على القَتَادِ ولكنْ من شَبا الأسَلِ

ثمّ اختَتَمَها بقولِهِ:

قَـدْ يَـدخُـلُ المُسْلِـم المُخطـي الجِنَـانَ غَـداً
بِـنِـيَّـتِـــي أَرتَجـــي الغُفْـــرانَ لا عَمَلـــي[1]

* وهكَذا تلقَّب بالمعتمدِ من أجْلِ زوجِهِ المغناجِ اعتماد الرّميكيّة ، التي كَسَتْ كُتبَ الأدبِ حُلَلَ جمالِ السِّيرِ ، وحسنَ الأحدوثةِ ، وترفَ الدَّلال ، حتى غلَبتْه على أمْرِهِ[2] ، فقد ألْقَىٰ إليها المعتمدُ زمامَه ، وفي سبيلها أرخىٰ عنانه ، ومن اسْمِها اشتقّ اسمهُ ليكونَ وقْعُه أجملَ في النُّفوس.

* ولعلَّ منْ طرائفِ دلالِها على المعتمد أنَّها كانتْ تهوىٰ منظرَ الثَّلج في بدايةِ فَصْل الرَّبيعِ ، ووِدَّتْ لو كانتِ السَّنَةُ بفصولِها الأربعةِ ثلجيّةَ الطَّبيعةِ.

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (١/ ٢٦١ و٢٦٢) طبعة بيروت.

(٢) قيل: إنَّ المعتضدَ والد المعتمد قَدْ غاظَه ما بلغَه من غلبةِ اعتماد على ابنهِ المعتمدِ أوّل ما اشتراها ، فتوجَّه إليهِ عازماً على عقابهِ ، ومعتقداً على التَّنكيلِ بهِ ، والمعتمدُ إذ ذاك بشِلْب عاملٌ له ، وقد ولدَتْ اعتماد منه أكبرَ أولادِه سِراجَ الدَّولَة عبّاداً ، فأمرهَا المعتمدُ أن تتلقّى أباهُ المعتضدَ بابنها لتعطفَه رؤيته عليها ، فكانَ ذلك كذلك ، ورقَّ له المعتضد وفترَ عزْمهُ على الإيقاعِ به.
(الحلة السِّيَراء ٢/ ٧٠ و٧١) بتصرف يسير جداً.

* وكان قصرُ المعتمدِ بإشبيليةَ منْ أجملِ المواضعِ ، وأنْزَهِ الأمكنةِ ، وكان يطلُّ علىٰ سَفْح جَبلٍ ، فأطلَّتْ اعتمادُ ذاتَ يومٍ ـ وكانَ الوقتُ آخرَ فَصْلِ الشِّتاء ـ فرأتِ السَّماءَ وهي تندفُ بالثَّلج ، والثَّلْجُ يتراقَصُ في دَلالٍ في الجوِ وهو يهبطُ إلى الأرضِ ، ثمّ يلثمُ خدَّ الأرضِ في حنوٍ لطيفٍ كحنو المرضعاتِ على الفَطيم.

* ويبدو أنَّ هذا المنظرَ الجميلَ قد أثارَ فيها مكامنَ الدَّلالِ في أعماقِها ، فلماذا لا تطلبُ منَ المعتمدِ زوجِها أنْ يوفِّر لها مثل هذا المنظرِ كلّ شتاءٍ وربيع؟!

* ودخلَ المعتمدُ عليها وهي بينَ الوجومِ والإعجابِ بما تشاهدُ وترى ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النّمل: ٨٨]؛ وسألَتْه أنْ يوفِّر لها مثلَ هذا المنظر الأبيضِ الجميلِ الأنيقِ ذي الصِّبْغَةِ اللطيفةِ ، فما كانَ منَ الملكِ العاشقِ الوامقِ الشَّغِفِ إلاّ أنْ أمَرَ بزرعِ شَجَرِ اللوز على سَفْح الجبلِ المشرفِ على القَصْر ، حتى إذا أقبلَ الرَّبيع الطَّلق يختالُ ضَاحِكاً ، وصافحَ شَهرُ آذارَ الدّنيا بجمالِهِ ، ومن ثمّ تـلَقتْـهُ بالأعراسِ ، فنوَّرَ زَهْرُ اللوزِ ، وتفتَّحَ عن تيجانٍ بيضٍ ، فَبَدَتْ للناظرِ كأنَّها قطعٌ منَ الثَّلج قد ظَلَّلَتِ الجبلَ ، فحلَّت عند اعتماد الرُّميكية محلَ كورِ الثّلج التي طالَما أُعْجِبَتْ بها في شتاءِ إشبيليةَ الجميلِ.

* حقاً إنَّ هذا لدلالٌ عظيم من اعتماد التي جَعَلَتْ سَفْحَ الجبلِ يتيهُ ببياضِ زَهْره في فَصْلِ الرَّبيع!! وعبيرِ الزَّهر يندّي دنيا إشبيليةَ بأريجِ عطْرِ اللوز! ويا ليتَ اعتماد قد سخَّرتْ دلالَها في شيء ينفعُ النَّاس! ولكنْ للهِ في خَلْقه شُؤون.

* ومن خلالِ هذا كُلّهِ يظهرُ لنا أنَّ اعتمادَ الرّميكيةَ قد نَزلَتْ من نَفْس المعتمد منزلاً رفيعاً ومَكاناً رحْباً ، وصادفتْ قَلْبَه خالياً فتمكَّنتْ منه واحتلَّتْ عرشَه ، فكانت بهجة حياتِه ، وحياةَ بهجتِهِ ، ونورَ وجودِه ،

ووجودَ نورِه ، وسلوة روحِهِ ، ورروحَ سلوتهِ ، وزهرَ حياته ، وحياةَ زهره ، وعطر أنسامِهِ ، وأنسامَ عِطْره؛ فقد حَبَاهَا اللهُ الجمالَ الفَاتِن[1] ، وجمالَ الفتنةِ ، والأدب الفائق ، والدّلّ الذي يدفعُ إلى ذِروة الهُيام ، فطارَ لبُّ المعتمدِ بحبِّها ، ورأىٰ الدُّنيا ومفاتنَها فيها ، وأفرطَ في الميلِ إليها ، وهي تثيرُ كوامنَ هواه ، وتهيج حسَّه وبلواه ، حتى لجَّ في التَّرفِ منْ أجلِها ، وعاشَ معها همساتِ الودِّ وأنغامَ الأشعارِ.

* وهكذا غَدَت اعتمادٌ سيِّدةَ إشبيلية ، لا تتمنَّى أمْراً إلاّ أتىٰ ، ولا تطلبُ شيئاً إلا أُحْضِرَ ، ولا ترغبُ في شيءٍ إلاّ نفذَّهُ المعتمدُ ، ولا ترغبُ في شيءٍ إلا أبعده ، فجميعُ أمورها مقضيةٌ ، وكيفَ لا والمعتمدُ أسيرُ هواهَا؟! فهي شَمْسُ دنياهُ وضُحَاها. !!.

اعـتمَـادٌ وَيَـوْمُ الـطِّيْـن:

* لا يَحْسَبَنَّ القارىءُ الكريمُ أنَّ طينَ اعتماد الرُّميكيّةِ من ترابِ الأرضِ الممزوجِ بالمَطرِ أو الماءِ ، وإنَّما طينُها ماءُ الوردِ معجونٌ بأخلاطِ الطِّيْبِ والعِطْرِ ومصنوعٌ بالأيدي. وهذا نوعٌ آخر من دلالِ اعتماد الرُّميكيّة على المعتمد ، تُرى كيف كانَ خَبرُ ذلك الطّين؟!

---

(١) ومَا أجملَ أنْ نعيشَ أويقاتٍ معَ الغزَلِ في الفواتِنِ في هذهِ الأبيات الفَواتِن.
قال الشَّاعر في الاقتباس:

أقـولُ لـذَاتِ حُسْـنٍ قـد تـوارَتْ ... مخـافـةَ كَـاشـحٍ فـي الحـيّ فَـاتـن
أرينـي وجْهَـكِ الـوضـاحَ قَـالـتْ ... ﴿ألَـمْ تـؤْمـن﴾ فقلـتُ «بلـى ولكـن»

وقال غيره:

أقـولُ لبـدرٍ تـمّ قَـدْ رمَـانـي ... بسَهـم مـنْ لـواحِظـه الفَـواتـن
قَتيلـكَ كيـفَ تحيّيـه فنـادى ... ﴿ألمْ تؤمن﴾ فقلتُ ﴿بلى ولكن﴾

وقال إبراهيم الأكرمي:

أقـولُ لمـن أمـوتُ بـه وأحيـا ... مـراراً وهـو لاهـي القلـبَ سَـاكـن
أيحيـي وصْلـك المـوتـى فنـادى ... ﴿ألم تؤمن﴾ فقلتُ ﴿بلى ولكن﴾

* كانتِ اعتمادُ لا تشعرُ بأنَّ في الحياةِ أمنيةً عزيزةً ، أو مطلباً بعيداً لا تَقْدِرُ على تحقيقهِ ، فما نزعَتْ نفسُها إلى شيءٍ حتى وجدَتْه بين يديْها على أَحْسَن صُوَرِهِ ، وأيْمَن وجُوهِهِ ، وذلك لأنَّ التَّرفَ قد تأصَّلَ وشَاعَ ، وأهواء اعتماد قد تنوَّعَت وشاعَتْ أيضاً ؛ وعرفَها أهلُ إشبيليةَ ومَنْ حولَها.

* فقد كانتْ تجلسُ ذاتَ يومٍ منْ أيّام الشِّتاء في قَصْرِها بإشبيليةَ بعد أنْ غدا زوجُها مَلِكاً ، فأطلَّتْ مِنَ الشُّباكِ ، فرأتِ النَّاسَ وبعضَ نساءِ البادية يَبِعْنَ اللبنَ في القِربِ ، وهُنَّ حافياتٌ رافعاتٌ عنْ سُوقهنَّ في الطِّين ، فراقَ منظرهنَّ في ناظريْها ، واستهواها شَكْلُهنَّ وهُنَّ في تلكم الحالة ، وأَمْلَتْ عليها خواطرُهَا شهوةَ تقليدِهنَّ مع جواريها ، وقويَتْ رغبتُها في ذلك وتجسَّدت أمامَها ، فصارحتِ المعتمدَ برغبتها الطارئةِ هذه ، وقالَتْ له: يا سيّدي ، أَشْتهيْ أنْ أفعلَ أنا وجواريَّ مثلَ هؤلاء النّسوة ، وأنْ نخوضَ في الطِّين. فتبسَّمَ المعتمدُ ضَاحكاً منْ قولها ومنْ رغبتِها الغريبةِ هذه.... فقالت له اعتمادُ في دلال واستغْرابٍ: ما الذي يضحِكُكَ يا سيّدي؟! فأجابَها وهو ينظرُ إلى عَينَيْها الجميلتَيْن السَّاحرتَيْن: أضْحَكُ منْ هذهِ الأمنيةِ العجيبةِ والرَّغبةِ الغريبةِ ، ثمَّ قال: يا اعتماد ، يا أيَّتُها الحبيبةُ الغاليةُ ، أمَا اشتهيتِ إلاَّ هذا؟! وكيفَ يمسُّ الطِّينُ قدميكِ وساقَيْكِ وبشرتكِ؟! أودُّ أنْ تطلبي غيرَ هذا يا مُنىٰ روحي ، ومهجةَ نفسي ، وبهجةَ حيَاتي ، وحياةَ بَهْجتي.

* وَلكنَّ الحبيبةَ المُحَبَّةَ اعتمادُ لجَّتْ في لُجَجِ الدَّلال ما شاءَ لها الدلال بذلك ، وأصرَّتْ على تنفيذِ طلبِها ورغبتها ، فأذْعَن الملكُ الوامقُ لإرادتها ، واستجابَ لهذه الرَّغْبةِ الغريبة ، وأمرَ بأنْ يُؤتى بالعنبرِ والمسْكِ والكافورِ وماءِ الوَرْدِ ، وأشياءَ أخرىٰ منَ الطِّيْبِ والعِطْر ، ثم عُجِنَتْ تلكم الأخلاطُ وهاتيكم الأشياءُ الغاليةُ بأيدي الأوَانِس ذوات

العيونِ النَّواعس ، حتى أصبحتْ كالطِّين ، وأيّ طين! ثم صُيِّرَ قُرْبَ القَصْرِ ، وجعلَ لها قِرباً لطيفةً ، وحِبَالاً منْ حرير ، ثمَّ تجهَّزَت اعتمادُ وخرجَتْ هي وجواريها وخُضْنَ في ذلك الطِّينِ العجيبِ ، وهُنَّ حافياتٌ جَذِلاتٌ يُـقَهْقِهْن ويغنينَ غناءَ القرويّات ، ويثرنَ طينَ المِسْك بأيديهنَّ يميناً وشمالاً حتى المسَاء ، وشَفَت اعتماد نفسها ممّا تَجِد من تقليدِ أولئك البدويّات الحافيات[١] .

* وعادتِ اعتمادٌ ـ ومَنْ معها ـ إلى القَصْر نشوىٰ ، وقد عَلَتْ وجهها المليحَ ابتسامةُ الرّضا والنّشوة بتحقيقِ مطلوبها ومرغوبها .

* ومرّت الأيّامُ ، فغاضبَها المعتمدُ في بَعْضِ الأيّام ، وجرىٰ بينهما ما يجري بينَ الزَّوجين منْ خلافٍ وخصامٍ ونفَارٍ ، فعَلا صوتُها على صوتهِ ، وتبرّمَتْ ، ثم أقسمتْ باللهِ قائلةً : واللهِ ما رأيتُ منك خيراً قطّ .

فقال لها المعتمدُ بهمسٍ لطيفٍ والدّموع تغزو عينَيْه والذّكريات الحلوة تزورُ خيالَه : ولا يوم الطِّين يا اعتماد؟! تذْكيراً لها بذلك اليوم ـ يوم العنبر والمِسْك والكافور المعجون ـ الذي أبادَ فيه منَ الأموالِ والدَّنانير ما لا يعلمهُ إلاّ الله منْ أجْلِ طيشِها ودلالِها وهواها .

* هنالك صدَعَتْ اعتماد للحقِّ ، واستحيَتْ ، وأقبلتْ إليهِ تعتذرُ ، وتأْسَفُ عمَّا بَدَرَ منْها[٢] .

---

(١) إذا كانَ مستوى الحضارةِ يُقَاسُ بالقَدْر الذي بلغَتْه في كثرةِ استخدام الأشياءِ الثَّمينة ، فيجبُ أنْ نقولَ بأنَّ العَصْرَ الذي عاشَتْه الأندلس في القرنِ الخامس الهجريّ كان منْ أزهىٰ عصورها ، وفيه بلغتْ أوجَ بهائِها ، وقصّة طين اعتماد الرميكية دليلٌ على ذلك .

(٢) انظر : نفح الطيب (١/ ٤٢٢) و(٦/ ٥٣) تصرف . وقد علّقَ المقّري على هذه القصة بقوله : وهذا مصداقُ قولِ نبيّنا ﷺ في حقِّ النِّساء : «لو أحسنتَ إلىٰ إحداهنَّ الدهرَ كلَّه ثمَّ رأتْ منكَ شيئاً قالت : ما رأيتُ منكَ خيراً قطّ» . =

اعتِمَادٌ وَمُتَنَزَّهَات إشْبِيْلِيةَ:

* كانَ المعتمدُ بنُ عبّاد ـ رحمه الله ـ كثيرَ الإعجابِ بمتنزَّهَاتِ الأندلسِ، وبساتين إشبيليةَ التي تسمّى حمصَ الأندلس، لجمالِها وكثرةِ مائِها.

* وكانَ المعتمدُ كثيراً ما ينْتَابُ «وادي الطَّلح» مع رُميكيّتهِ، وأولي أنْسهِ ومسرّتهِ، وهو وَادٍ بشرق إشبيليةَ ملتفُّ الأشجارِ، كثيرُ ترنّمِ الأطيار، فما شئتَ منْ دوحةٍ لفّاء، وغصنٍ يميسُ كمعطفَي هيفاء، وماءٍ ينسابُ في جداولِهِ وزهرٍ يضمّخُ بالمسكِ راحةَ مُتَناوِله، ولا تكادُ الشَّمْسُ ترمقهُ من تكاثفِ الظِّلال، ففي كُلّ موضع منها تبصرُ ظِلاًّ ضَافياً، ونَهراً صَافياً، وزَهْراً قد قبَّلَتْه الأَنْداءُ، وتركَتْ عليه مسحةً منْ أَثَرِ السَّمَاء، ويرحمُ اللهُ أبا إسحاق بنَ خَفَاجة أديبَ الأندلس المشهور، الذي شَدا بجمالِ الأندلس فقال:

يَا أَهْلَ أَنْدلُسٍ للهِ درُّكُمُ ... ماءٌ وظلٌّ وأَنْهارٌ وأَشْجَارُ
ما جنَّةُ الخُلْد إلاّ في ديارِكمُ ... ولو تخيَّرتُ هَذا كنْتُ أَخْتارُ
لا تَخْتَشُوا في غَدٍ أنْ تدخلُوا سَقَراً ... فَلَيْسَ تُدْخَلُ بَعْد الجنَّةِ النَّارُ

* وأمّا وادي الطَّلح المذكور فقد هامَ به الشُّعراء الأندلسيّون،

= وقال المقّري: ولعلّ المعتمدَ أشارَ في أبياتهِ الرَّائيةِ إلى هذهِ القضيةِ حيث قال في بنَاته:

يطأْنَ في الطِّينِ والأَقْدامُ حافيةٌ ... كأنَّها لم تطأْ مسْكاً وكافُورا

ويُحتمل أنْ يكونَ أشارَ بذلك إلى ما جَرَتْ به عادةُ الملوك من ذرِّ الطِّيْبِ في قصورِهم حتى يطؤوه بأقدامهم، زيادة في التَّنعّم. (نفح الطيب ٥/ ٥٣).

وقال بعضُ الأماثلِ بما يتوافقُ مع ما ذكرناه:

إذا رأتْ أهلُ بيتي الكيسَ ممتلئاً ... تبسَّمَتْ ودنَتْ منّي تمازحني
وإنْ رأتْه خليّاً منْ دراهِمِه ... تجهَّمَتْ وانثنتْ عنِّي تقابحني

وتركُوه في شعرِهم يسعى ليطلَّ على النَّاس في كلِّ زَمانٍ ومكانٍ ، وهذا الوادي الجميل يصفهُ نورُ الدِّين بنُ سُعيد في قصيدةٍ طويلةٍ بائيةٍ مطلعُها:

سَائِلْ بِوَادي الطَّلحِ ريْحَ الصَّبا   هَلْ سخَّرتْ لي في زَمان الصِّبَا

ثمّ يقول:

وَاذكـرْ بـواد الطَّلـح عَهْـدَاً لنَـا   للهِ مَـــا أحْلـــى وَمَـــا أطْيَبَـــا
بِجـانِـبِ العَطْـفِ وقَـدْ مَـالـتِ الأَغْصَـانُ والـزَّهـرُ يبـثُّ الصَّبـا
والطَّيـرُ مَـازَتْ بَيْـنَ أَلْحـانِهـا   وَلَيْـسَ إلا مُعْجبـاً مُطْـرِبـا[1]

* ولمَّا طَارَ المُلْكُ وتلاشىٰ من يَدِ المعتمد كانَ يذكرُ وادي الطَّلح وينوحُ عليهِ؛ ولعلَّ أحمد شوقي ـ رحمه الله ـ قد استوحىٰ مأْسَاة ابنِ عباد في أندلسيته النُّونية التي عارضَ بها ابنَ زيدون فقال يشيرُ إليه:

يَـا نَـائِـحَ الطَّلـحِ أَشْبَـاهٌ عَـوادينـا   نَشْجَىٰ لواديكَ أمْ نَأْسَىٰ لوادينا[2]

* ومن متنزّهات المعتمدِ التي كانَ يأْنَسُ إليها «قَصْر الشَّراجِيب» ، وهو قصرٌ واقعٌ في مدينة شِلْب قاعدة ولاية الغرب ، وكانتْ شِلْبٌ ملعبَ شبابِه ، ومألفَ أحبابِه ، وقد وَصَفَ هذا القَصْرَ ابنُ خاقان فقال: إنَّه مُتَنَاهٍ في البَهاءِ والإشْراقِ ، مُبَاهٍ لزوراء العِراق[3] ، ركَضَتْ فيه جيادُ راحاتِهِ ، وأومضتْ بروقُ أمانيهِ في ساحَاتِهِ ، وجرىٰ الدَّهْرُ مُطيعاً بينَ بُكَرِهِ وروحَاتِه ، أيّام لَمْ تُحَلَّ عنْه تَمائِمهُ ، ولا خَلَتْ منْ أزهارِ الشَّباب كمائِمُه ، وكانَ يعتدّها مجنىٰ آمالِه ، ومنتهىٰ أعمالِهِ ، إلى بهجةِ

---

(١) نفح الطيب (٢/ ٢٠٩ و٢١٠).
(٢) الشوقيات (٢/ ١٠٣) و«نائح الطَّلح»: برأينا هو المعتمد بنُ عباد ـ رحمه الله ـ.
(٣) «الزوراء»: مدينةُ أبي جعفر المنصور ، وهي في الجانبِ الغربيّ ، وسمّيت بذلك لأنَّه لما عمَّرها ، جعلَ الأبوابَ الدَّاخلة مزوّرةً عن الأبوابِ الخارجة ، أي: ليستْ على سِمتها.
(معجم البلدان ٣/ ١٥٦).

جنباتِها ، وطيبِ نَفَحاتِها وهبّاتها ، والتفافِ خمائِلها ، وتقلدها بنهرِها مكان حمَائِلها[1] .

* وفي هذا القَصْر الجميلِ يقولُ المعتمدُ منْ قصيدةٍ له :

وسَلِّمْ على قَصْر الشَّراجيْبِ منْ فَتىً لهُ أبَداً شوقٌ إلى ذَلكَ القَصْرِ[2]

* ولعلَّ المعتمدَ قَدْ أَمْضَى أويقات سعادةٍ في هاتيكَ البِقاع الجميلةِ مع دنيا أملهِ ، وأَملِ دنياه اعتماد الرُّميكيّة .

* ومنَ الأمكنةِ الجميلةِ والمتنزَّهَات الرَّائِعة التي كان المعتمدُ يأْنَسُ إليها معَ آنستِـهِ اعتماد «دار المزينيّة» وهذهِ الدَّارُ منْ أعاجيبِ الجمالِ الطَّبيعيّ في دُنيا جَمالِ الطَّبيعةِ الجميلةِ الآسرةِ ، وقد وصفَها الفتحُ بنُ خاقان بقوله : الغصونُ قد التحفتْ بِسُنْدسِها ، والأزهارُ تحيّي بطيب تنفّسِهـا ، والنّسيـمُ يلـمُّ بهـا فتضعـهُ بيـنَ أجفـانِهـا ، وتـودعـهُ آذارهَـا ونَيْسَانَها[3] .

اعـتِمـاد فـي قَلْـبِ الـمُعْتَمِـدِ وَشِـعْـرِهِ :

* المرأةُ المليحةُ صورةٌ منْ محاسنِ الطَّبيعةِ الأندلسيّة ، بل من محاسن الطَّبيعة بشكلٍ عام ، والطّبيعةُ تَجِدُ في المرأةِ ظلّها وجمالَها ، ولذا كانتِ الحبيبةُ روضاً وجنّة وشمساً ، وقد قال المقّري عن شعراءِ الأندلس : إنَّهم إذا تغزّلُوا صاغُوا منَ الوردِ خُدوداً ، ومنَ النَّرجسِ عُيوناً ، ومنَ الآس أصداغاً ، ومن السَّفرجلِ نُهوداً ، ومن قَصَب السُّكر قدوداً ، ومن قُلوبِ اللوزِ وسُررِ التّفاح مباسم ، ومن ابنةِ العنب رُضَاباً .

* وهكذا كانتِ العلاقةُ شديدةً بينَ جمالِ المرأةِ وبين الطَّبيعة ،

---

(١) قلائد العقيان (١/ ١١٢) .
(٢) قلائد العقيان (١/ ٥٥) ، ونفح الطيب (٢/ ١٨٤) .
(٣) قلائد العقيان (١/ ٦٣) .

فلا تُذْكَر المرأةُ إلا وتُذْكَر معها الطَّبيعة ، وتذكر معها المشاعرُ والأحاسيسُ والأنفاسُ العطراتُ.

* ولا شكَّ في أنَّ اعتماد قد حلَّتْ من قَلْبِ المعتمدِ مكاناً عليّاً ، وقد هامَ بها هُياماً عجيباً ، فحبُّها قد مَلَكَ عليهِ مُسبلَ قلبِه وجوانحِه وشعْرِه ، فهيَ الحبيبُ الأوَّلُ الذي صادَفَ قلبَه الصَّافي النَّقي الفتيّ خالياً ، فاستولىٰ عليه استيلاءَ المُرضِعِ على فطيمها الوحيد الجميلِ ، بل إنّها أصبحَتْ جزءاً من قلبهِ ومن وجْدَانه وهمساتِه ، لذلك نجدهُ يقولُ لها:

حُبُّ «اعتِمادٍ» في الجَوانحِ سَاكِنٌ ... لا القَلْبُ ضَاقَ بهِ ولاَ هُو رَاحِلُ

* وماذا عن اعتماد؟!

هِـيَ للقَلْـبِ مُنْيـةٌ ولكَـمْ مِـنْ ... صَـدِّهـا الصَّـبُّ ذَاقَ طَعْـمَ المنيَّه
ذاتُ لَحْـظٍ وسِنَـانَ يَفْعَـلُ مَـا لَـمْ ... يَفْعَـلِ السَّيـفُ في قُلُـوبِ الـرَّعيَّه
ومُحيَّـا مِـنْ دُونـهِ يخْسِـفُ البـد ... ر إذا لاحَ فـي الليـالـي البَهيَّـه
حَـوَتِ الحُسْـنَ كلَّـه فهـيَ ممّـا ... أَبْـدَعَ اللهُ صُنْعَـه فـي البَـريَّـه
كـلُّ شـيءٍ يَخْفَـىٰ إذا مـا تَبَـدَّتْ ... وهـيَ كـالشَّمْـسِ لا تَـزَالُ مُضيَّـه

* وعلى الرغمِ منْ كثرةِ الجواري اللواتي كنّ يَذْرعْنَ قَصْرَ المعتمدِ ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال ، وفيهنَّ ما فيهنَّ ومَنْ فيهنَّ منْ جميلاتٍ مشرقياتٍ ومغربياتٍ وأندلسيّاتٍ ، وحُسْنٍ مُشَرِّقٍ ومُغَرّب ، وعلى اختلافِ ألوانهنَّ وأشكالِهنَّ وتَفَنُّنهنَّ ، فإنَّهن لم يستطعْنَ أنْ ينفذْنَ إلى جزءٍ بسيطٍ من قلبِهِ الذي التَفَّتْ عليه اعتماد التفافَ جنّات وادي الطَّلح بالوادي ، وعلى الرَّغم من تدلّل كثيراتٍ منهنّ أمامَه ، إلاَّ أنَّ رميّكيته هي التي استأثرتْ بفؤادِه وروحهِ ، وقد عبَّر عن ذلك بقوله:

فَمَـا حَـلَّ خِـلٌّ مـنْ فُـؤادِ خَليلِـهِ ... مَحَـلَّ اعتمـادٍ مـنْ فُـؤَادِ مُحَمّـدِ

فقد كانتِ اعتمادٌ كما وصفَها المعتمد:

هِيَ الظَّبـيُ جيْـداً والغَـزَالـةُ مقْلَـةٌ ... وروضُ الرُّبىٰ عَرفاً وغُصْنُ النَّقا قدًّا

* ولم يكتفِ المعتمد بهذا في حقِّ اعتماد ، إذ هي عمادُ قلبهِ وحنايا أضالُعهِ ، وهي حسُّه وروحهُ ، وهي التي يَلقَىٰ الجيوشَ الجرّارةَ منْ أجلِها ـ ولا عجبَ في هذا فقد كان المعتمدُ فارسَ الميدانِ والسّنانِ واللّسان والفصاحةِ والبيانِ ـ بل لا يخشىٰ من أجْلِها من تَسربلَ بالسِّلاح ، ولو كانوا جَيشاً كجنح الليل يزحفُ بالحصىٰ وبالحُمْرِ والخطيّ وكلّ أدوات السِّلاح ، ولكنّه يؤمنُ بِيَدِ القَادر القدير التي تَنْتَزِعُ الأرواحَ ، وفي ذلك يقولُ:

أَدَارَ النَّوىٰ كَمْ طَالَ فَيْك تَلدُّدي ... وكَمْ عُقْتِني عنْ دارِ أَهْيفَ أَغْيَدِ
حَلَفْتُ بهِ لو قَدْ تعرَّضَ دونَه ... كُماةُ الأعادي في النّسيجِ المُسَرَّدِ
لجرَّدْتُ للضَّربِ المهنَّدَ فانْقَضَىٰ ... مُرادي وعـزمـاً مثْـلَ حَـدِّ المهنَّـدِ
فَمـا حَـلَّ خِـلٌّ فـي فُـؤادِ خَليْلِـهِ ... محـلَّ اعتمـادٍ مـنْ فُـؤَادِ محمّـدِ
وَلكنَّهـا الأَقْـدارُ تُـردي بِـلا ظُبـا ... وتُصْمِي بلا قَتْلٍ وتَرمي بلا يَدِ

* وكانَ المعتمدُ لا يفتأ يذكرُ اسمَ اعتماد في كلِّ مناسبةٍ ، وفي كلِّ موقفٍ وكلِّ شيء ، فهذِه الزَّوجَةُ الحلوةُ الملاَّحَةُ التي شَغَلتْ أكبرَ حيِّزٍ منْ حياتهِ ومن شعره؛ هي نفسُها التي جاذَبَتْ عواطِفهَ الرَّقيقةَ من مكامِنها ، ليشدوَ برفيع مشاعره ، ورقيقِ أشعاره ، وهي التي تتوِّجُ عاطفتَه المشبوبةَ ، وتفتِّقُ ذهنَه عن بدائعِ البدائهِ التي تشيرُ إشاراتٍ واضحةً إلى ذكائهِ ، وإلى صفاءِ وُدِّه الذي يتدفَّقُ من سُويداء قلبِهِ ، فقد زخرَفَتْ حياتَه بالحبّ والهُيام ، وزيَّنت شِعْره بأحلىٰ الكلام.

* لقد كانت اعتِمادٌ الرُّميْكيّة محورَ أدبِ وأدبيّاتِ المعتمد ، فلا تكادُ تمرُّ حادثة إلا يجعلُ من اسمِها بَلْسَماً شافياً يرطِّبُ به ما عَراهُ ، بل إنَّ المعتمد قد تفنَّنَ في اسمِ اعتمادٍ بشعرِهِ ، فها هو يرسمُ اسْمَها شِعْراً ،

ويطرّزُه أجْمَل تطريزٍ[1] ليجعلَ منه قصيدةً جميلةً تَضَمَّنَ كلّ بيتٍ منها الحرفَ الأوَّل من حروفِ اسمها؛ ولنستمعْ إليه ينظم اسمَ اعتماد في هذا التَّطريزِ الجميلِ وقد أرسلَ إليها برسالةِ شوقٍ وهو بعيدٌ عنها:

(ا)أغَائبةَ الشَّخْصِ عَنْ نَاظِري ... وحاضرةً في صَميْمِ الفُؤَاد

(ع)عليكِ سَلامٌ بقَدْرِ الشَّجو ... نِ ودمعِ الشُّؤون وقَدْر السُّهادِ

(ت)تملّكْتِ منّي صَعْبَ المرَا ... مِ وصادفتِ ودّي سَهْلَ القِيادِ

(م)مُرادي لقْياكِ في كلِّ حين ... فياليتَ أنّي أُعْطىٰ مُرادي

---

(١) «التَّطريز»: لونٌ منَ الألوانِ الأدبيّةِ والشّعْرية تفنَّنَ به الشّعراءُ المتأخّرون، وأولعَ بهِ بعضُهم ولعاً شَديداً، وقَصدُوا به أنْ يَجعلَ الشَّاعرُ حروفَ أوائلِ الأبيات تشكّلُ اسماً معيناً.

فإذَا أرادَ الشَّاعرُ تطريزَ اسم «أحمد» جَعَلَ الحرفَ الأوّلَ منَ البيتِ الأوّل ألفاً، وجَعلَ الحرفَ الأوّل منَ الثَّاني حاءً، وهكذا، كقولِ عبد القادر الطّبريّ المكيّ متغزلاً:

(أ) أَستودعُ اللهَ ظَبياً في مدينتكم ... سَلامُه كانَ لي في الحالِ تَوديعا

(ح) حُلْوُ المراشفِ إلاّ أنَّ مبسمَه ... قد رصَّعَتْه لآلي الثَّغر ترصيعا

(م) مهفْهَفُ القَدّ إلاّ أنَّ عاشقَه ... علىٰ الودادِ له مازالَ مطبُوعا

(د)دنوتُ منْه فَحابَاني بمنْطِقهِ ... فأنْتَجَ الفِكْرَ تأصيلاً وتفريعا

وكقولِ الأميرِ نظام الدِّين أحمدَ بنِ محمّد معصوم الحُسينيّ مُطرّزاً اسم «خديجة»:

(خ) خِلْتُ خَالَ الخدِّ في وجْنَتِه ... نُقْطَةَ العَنْبَر في جَمْر الغَضَا

(د) دامتِ الأفْراحُ لي مُذْ أبصرتْ ... مُقلتي صُبحَ محيّا قَدْ أضَا

(ي) يتمنّى القَلْبُ منه لفتةً ... وبهذا الخطّ للعينِ رضَا

(ج) جاهلٌ رامَ سلوّاً عنه إذْ ... خَطَر الوصْل وأولاني النَّضَا

(هـ) هامتِ العينُ به لمّا رأتْ ... حُسْنَ وجْهِ حين كُنّا بالأَضَا

(سلافة العصر لابن معصوم ١/ ٤٩)

* هذا ومَنْ أرادَ الاستزادةَ منْ هذا الفَنِّ اللطيف فليرجعْ إلى المصدرِ ذاتِه «سلافة العصر» يجدْ تطريزاً كثيراً في اسم «أحمد» و«غريبة» وذلك في الصَّفحات (٤٩، ٥٦، ٦١، ٦٣، ١٩١، ١٩٢) يُضاف إلى ذلك دواوين شعراء العصريْن المملوكي والعثماني حيث أُغرِم هؤلاء بفنون البديعِ جميعها.

(ا)أقيمـي علـى العَهْـدِ مـا بينَنـا ولا تَسْتَحيْلـــي لطُـــولِ البُعَـــاد
(د)دسَسْتُ اسْمكِ الحلوَ في طيِّه وألَّفْـتُ فيـهِ حـروفَ «اعتمـاد»[1]

* ولعـلَّ اعتمـادَ قـد طـربـتْ لهـذا التَّطـريـزِ الـذي أعجـبَ عُلَمـاءَ البَلاغَةِ[2] ، وكتبُوا فيه ما كتبُوا وجمعوا ما جَمعوا منْ ألوانِه؛ ولعلَّ

---

(١) الحلة السيراء (٢/ ٦١) وغير ذلك كثير جداً.

(٢) لعلماءِ البلاغةِ أقوالٌ في التّطريزِ ، فهو عند أبي هلال العَسْكريّ المتوفىٰ سنة (٣٩٥ هـ) أنْ يقعَ في أبياتٍ متواليةٍ منَ القصيدة كلماتٌ متساويةٌ في الوزنِ ، فيكونُ فيها كالطّراز في الثَّوبِ ، ومثالهُ قول أحمد بن أبي طَاهِر:

إذَا أبـو قَـاسِـمٍ جـادَتْ لَنَـا يَـدُهُ لم يَحْمَدِ الأَجْوَدان: البَحْرُ والمَطَرُ
وإنْ أضـاءَتْ لنـا أنـوارُ غُـرَّتِـهِ تضـاءَلَ الأنـوران: الشَّمـسُ والقَمَـرُ
وإنْ مضَـى رأيـهُ أو حـدَّ عَـزْمَتـه تـأخَّـر المـاضيـان: السَّيـفُ والقَـدَرُ
منْ لم يكنْ حَذِراً منْ حدِّ صَولتهِ لم يَدْرِ ما المزعجان: الخوفُ والحذَرُ

فالتّطريزُ في قوله: الأَجْودان ، والأَنْوران ، والماضيان ، والمزعجان.
(كتاب الصناعتين ص ٤٨٠)

أمّا التّطريزُ عند يحيى بن حمزة العلويّ اليمنيّ صاحب كتاب «الطّراز» فقد جاءَ علىٰ النَّحو الآتي حيثُ قال: التّطريزُ: وهو تفعيلٌ منْ طرَّزْتُ الثّوبَ ، إذا أتيتَ فيه بنقوشٍ مختلفةٍ ، واشتقاقه منَ الطّراز ، وهو فارسيٌّ معرّب ، وهو في مصطلح علماء البيانِ مقولٌ علىٰ ما يكونُ صَدْر الكلامِ والشّعر مشتملاً على ثلاثةِ أسماء مختلفة المعاني ، ثم يُؤتىٰ بالعجز ، فتكرّرُ فيه الثّلاثة بلفظٍ واحدٍ ، ومن أمثلته ما قاله بعضُهم:

وتَسْقينـــي وتشـــربُ مـــنْ رحيـــقٍ خليـــقٍ أنْ يُلقَّـــب بـــالخلـــوقِ
كـــأنَّ الكـــأسَ فـــي يَـــدهـــا وفيهـــا عقيـــقٌ فـــي عقيـــقٍ فـــي عقيـــقِ

وأرادَ بالثّلاثةِ: يدها ، والكأْس ، والخمر ، وكلّها محمرّة ، فكرّرَ لفظةَ العقيق إشارةً إلى ما ذكرناه ولأبي نواس:

فثـوبـي مثـلُ شِعْـري مثـلُ نَحْـري بَيـاضٌ فـي بيَـاضٍ فـي بيـاضِ

ومنْ عجيبِ ما جاءَ في التّطريز منْ أبيات:

فثـوبُـك مثـلُ شَعْـرك مثـلُ حظّـي سَـوادٌ فـي سَـوادٍ فـي سَـوادِ

فالأوّل: مَقُول في لابسِ ثوب أبيض؛ والثَّاني: في لابس ثوب أسود. ولقد أحسَنا في ذلك غاية الإحسان. (الطراز ص ٤٤٤).

اعتماد قد لذَّت اسماعُها بما سطَّره الملكُ العاشقُ لاسمِها وشخصها ، والعاشق[1] الوامقُ لملاحتِها وروحها .

* وبينما كانَ المعتمدُ ينعمُ بحبّ زوجتهِ اعتماد شَكلاً ومعنىً ، كانت هي تُغريه بأنْ ينطلقَ في المُتعةِ بكلِّ ألوانِها ، فكان أحياناً يحتجبُ عن ندمائهِ منْ أجْلِها ، وطوراً يطلقُ عليها كنية «أمّ الربيع» أو «أم عُبيدة» ، وكان يروقُ له أنْ يشيرَ إلىٰ اسمِها بهذه الكُنية لما تحمله منْ مشاعرَ ومعانٍ تصقُل حبَّه ، وتهذّب طبْعَه نحوها .

* فقد اصطبحَ المعتمدُ في يومٍ غائمٍ مع زوجتهِ اعتماد الرّميكيّة ، واحتجبَ عن ندمائهِ ، فافتقدوه وافتقدوا أُنْسه وأدبَه وظرفه ، فكتبَ إليه ابنُ عمار صديقه :

تَجهَّمَ وَجْهُ الأُفْقِ واعْتَلَّتِ النَّفْسُ   لأنَّك لم تَلُحْ للعَيْنِ أنْتَ ولا الشَّمْسُ
فإنْ كَانَ هذا منْكُما منْ توافُقٍ   وضمّكُما أُنْسٌ فَيَهنيْكما الأُنْسُ

* فأجابهُ المعتمدُ بأنَّ اعتماداً «أمَّ الربيع» هي الشَّمس والأُنْس فقال :

خَليليَّ قُولا هَلْ عَليَّ مَلاَمَةٌ   إِذَا لَمْ أَغِبْ إلاَّ لتَحضُرَني الشَّمْسُ
وأهدي بأكْواسِ المُدام كواكباً   إذا أبصرتْها العَينُ هشّتْ لها النَّفْسُ
سَلامٌ سَلامٌ أنتما الأُنْسُ كُلُّه   وإنْ غبتُما أمُّ الرَّبيع هيَ الأُنْسُ

* إنَّ اعتماداً «أمَّ الربيع» هذه امرأةٌ من نوع جذَّاب ـ على ما يبدو ـ ، فقد ملكتْ على المعتمد قِيادَه ، فهي أنْسُ روحهِ ، وروحُ أنْسهِ ، وريحانةُ نفسه ، وحبيبةُ النَّفس ومالكةُ زمامِه ، وهاهو يزيحُ كلَّ شبهةٍ قد تراودُ نَفْسَها بأنَّه قد يَسْأَمُ منها ، أو يسلو عنها ، وكيف يسلو وهي بينَ

---

(١) إذا كانَ إنشادُ الشّعر حُلْواً وجَميلاً ، فما أجملَ قول الشَّاعِر في العِشْق :
وما العشْقُ إلا النَّار تُوقدُ في الحشَا   وتـذكـىٰ إنْ انضمَـتْ عليـه الجـوانِـحُ

أضالعه ، وطيفها بدرٌ أمام ناظريه؟ وهي روضةُ الحسنِ التي يجتني منها ما تشتهيه نَفْسه ، وتلذّ له عينه:

تَظـنُّ بِنَـا أمُّ الـرَّبيـع سـآمـةً ... أَلا غَفَـرَ الـرّحمـنُ ذَنْبـاً تُـواقعـهُ
أَأَهْجُر ظَبْياً في ضُلوعي كناسُه ... وبَـدْرُ تمـام فـي جُفـونـي مطَـالِعـهُ
وروضـةَ حُسْـنٍ أجْتَنيهـا وبـارداً ... منَ الظَّلْمِ لم تُخْطَرْ عَليَّ شَرائعهُ
إذا عَـدمـتْ كفِّـي نَـوالاً تُفيضُـه ... على مُعْتَفيها أو كميّاً تُقارِعهُ[1]

* ولعلَّ من بدائع أشعارِه في اعتماد قولُه:

قَامَتْ لتحجبَ قُرصَ الشَّمْس قامتُها ... عنْ ناظري حُجبتْ عن ناظرِ الغِيَرِ
علمـاً لعَمـرُكَ منْهـا أنَّهـا قَمَـرٌ ... هل تحجبُ الشَّمسُ إلا غرَّةَ القَمر؟[2]

* ولعلَّه قال فيها أيضاً:

يـا صَفْـوتـي مـنَ البَشَـر ... يـا كـوكبـاً بَـلْ يَـا قَمَـرْ
يـا غُصُنـاً إذَا مَشَـىٰ ... يـا رشَـأ إذَا نَظَـرْ
يـا نَفَـسَ الـرَّوضـةِ قَـدْ ... هَبَّـتْ لهـا ريـحُ سَحَـرْ
يـا ربَّـةَ اللحـظِ الـذي ... شَـدَّ وثَـاقـاً إذ فَتَـرْ
متـىٰ أداري يـا فَـدا ... ك السَّمْـع منّـي والبَصَـر
مـا بفـؤادي مـنْ جَـوى ... ممّـا بفيـكِ مِـنْ خَفـر[3]

* إنَّنا نخالُ أنَّ اعتماداً الرّميكيّة هذه إحدى سواحرِ النِّساء بالطَّرفِ والوجْهِ والكلامِ والدَّلّ ، فقد كانتْ ـ كما تنمُّ أخبارها ـ تجيدُ فنونَ الدّلّ والـدّلال[4] مـعَ المعتمـدِ الـذي جَعَلَتْـه دائـمَ الفِكْرة فيهـا ، فَجنَّـدَتْ

---

(١) الذخيرة (١/ ٢٣) طبعة بيروت ، وخريدة القصر (٢/ ٣١) ، والحلة السيراء (٢/ ٦٠ ، ٦١).

(٢) الحلة السيراء (٢/ ٦٠) ، والذخيرة (٢/ ٢٤) طبعة بيروت.

(٣) خريدة القصر وجريدة العصر (٢/ ٣٢).

(٤) لعلَ اعتماد كانت ذات حديثٍ عذْب كالماءِ الزُّلال ، فقد كانت أحاديثُها تأسرُ =

سلاحَها ، وغَزَتْهُ واحْتَلَّتْ تلكم المواضعَ الضَّعيفةَ ، وعند إذ سيطَرتْ على مشاعرِه ، فَأسْلَم لها قيادَ نَفْسهِ أكثرَ من ذي قبل ، ويؤكّدُ لها منْ خلالِ عَواطِفِه نحوها ، ومنْ خلالِ أَشْعارِه فيها أنَّه على العَهْدِ القديم مقيم ، ويرسمُ منْ أشعارِه فيها قلائدَ وفرائدَ ، يبثُّ منْ خلالها صَدْقَ حُبِّه لها ، وغَرامه فيها ، ويروي كالعُشَّاق ما اعتراهُ من صُفْرةٍ باللونِ ، ومدامعَ هَواطِل ، وجسمٍ ناحلٍ ، وهاهو يطْلُع علينا بهذهِ الأبيات التي تؤكِّدُ أنَّ حبَّ اعتماد سَاكِنٌ في قَلْبِ محمّد المُعتمد الذي سَلَبَتْه من بين أضالعه وهوَ الأسدُ الهَصُورُ الباسلُ ، ومع ذلك فهو هائمٌ بِها مُغْرمٌ؛ إنَّ هذا لشيءٌ عَجيب.

بَكَرتْ تلُومُ وَفي الفُؤَادِ بَلابلٌ ... سَفَهاً وهَلْ يثْني الحَليمَ الجاهلُ
يـا هـذه كُفّـي فـإنّـي عـاشـقٌ ... مَـنْ لا يـردُّ هـوايَ عنهـا عَـاذِلُ
حُبُّ اعتمادٍ في الجَوانحِ سَاكِنٌ ... لا القَلْبُ ضَاقَ به ولا هُوَ رَاحلُ
يَـا ظبيـةً سَلَبَـت فـؤادَ محمّـدٍ ... أَوَ لَـمْ يـروّعـكِ الهـزبْـرُ البَـاسِـلُ
مَنْ شَكَّ أنّي هائمٌ بكِ مغْرمٌ ... فَعَلَـىٰ هـواكِ لـه علـي دلائـلُ
لَـونٌ كَسَتْـه صُفْـرةٌ ومـدامـعٌ ... هَطَلَـتْ سَحـائبها وجسـمٌ نـاحِـلُ

* لقد كانتِ اعتمادٌ زوجُ المعتمدِ ملكةَ إشبيليةَ الأثيرةَ ، وهي من ذواتِ البراعةِ في الشِّعْر والأَدبِ ، تَمْثُلُ في كثيرٍ من المجالسِ الأدبيّةِ ، وتضْفِي بجمالِها ، وبارعِ خلالِها علىٰ تلكم المجالسِ كثيراً منَ الرّوعةِ

= النَّفوس ، ولعلها كانت نزهةَ العيونِ ، وعقالَ العُقول ، وكأنَّ ابنَ الرومي قد أصابَ حينما وصفَ إحداهنَّ فقال:

وَحَـديثُهـا السِّحْـر الحـلالُ لـو أنَّـه ... لـم يَجْـنِ قَتْـل المُسلـم المتحـرّزِ
إنْ طالَ لم يمللْ وإنْ هيَ أوجَزَتْ ... ودَّ المحـدِّثُ أنَّهـا لـمْ تُـوجِـزِ
شَـرَكُ النّفـوسِ وفتْنَـةٌ مـا مثلُهـا ... للمطمئـنِ وعقلـةُ المتـوفّـزِ

وبالجملة فقد هامَ بها المعتمدُ وبأوصافها الحِسَان ، وقد بهرتْه بحسنِها وطلعتها وصادته بعينها ، وسلّطت عليه أسيافَ لحظها ، فظلَّ أسيرها طيلة حياته.

والسِّحْرِ ، فكأنَّها بحقّ كوكبُ السَّحَرِ في سَماءِ الرَّوعَةِ وَالسِّحر ، وكانَ المعتمدُ يستضيءُ بنورِ أَدبِها ، ويجلو قَلْبَه بمحاسنِ سَمرِها ، ناهيك بِمن يجتمعُ عنْده من أعلياءِ الأدباءِ في ذلك العَصْر[1] .

* ومِنَ العجائبِ في حياةِ اعتماد الرُّميكيّة هذه ، ما أورَده التَّجاني في «تُحفَةِ العَروس» نَقْلاً عن الحِجاري في المُسْهِب ما مفاده قال: جلسَ المعتمدُ بنُ عباد في بعضِ الأيّام بموضع منَ المواضع المُشرفة على أشبيليةَ ، وأحبَّ الاجتماعَ بزوجته الرُّميكيَّة ، فوجَّه إليها يعرّفها بذلك ويستفهمُها ، هل غرضُها وصولُها إليه ، أو وصولهُ إليها ، فأحبَّتْ أنْ يأتيَها هو ، ويقضيا لحظاتِ السَّعادة واللقاءِ فكتبتْ إليه ثلاثةَ أبيات أوّلها :

غرضي أَنْ يكونَ منْكَ وصُولٌ ... بِخُطىً تَسْبِقُ الرِّياحَ حِثَاث

قال الحجاري: فعَمل إليها الخُطى الحثَاث ، وبلّغَها مرادَها[2] .

طَيْفُ اعتِمَادٍ يُلاَحِقُ المُعْتَمِد:

* هذه اعتمادُ الرُّميكيّةُ التي هَبَطَتْ علىٰ قَلْبِ المعتمدِ ، ولعلَّها في رأْيِهِ واحدةٌ منَ الحُورِ ، وقد هَرَبَتْ منَ الجنَّةِ لتدخلَ من سوادِ عينَيْه إلى سُويداء قَلْبه ، فتقيمَ فيه .

* إنَّ اعتماداً الرُّميكيّة قد فتكَتْ بقلبِ المعتمدِ بنواظرِها السَّواحر ، فهو إنْ أقامَ أو رَحَلَ فإنَّ طيفَها يصحبُه ، ويزورُه في نَومه .

---

(١) كانَ المعتمدُ بنُ عبّاد ـ رحمه الله ـ يجمعُ حولَه عدَداً منَ الوزراء ، منْ ألمع كتّاب عَصْره ، (٤٣١ ـ ٤٨٨ هـ) ، ومنْ ألمعِ شعرائِه منْ مثْل: أبي بكر بنِ عمار ، وأبي الوليد بنِ زيدون ، وأبي بكر الداني المعروف بابنِ اللبانة ، وابنِ حمديس الصِّقلّي ، وغيرهم.

(٢) تحفة العروس (ص ٤٥١) بتصرف.

* وهذا ما حَدَثَ فَعْلاً ، فقد ذَهَبَ المعتمدُ منْ إشبيليةَ إلى مدينةِ «لُـوْرَقَـة»[1] لقضاءِ بَعْضِ أَعْمالهِ ، ولكنَّ طيفَ اعتمادٍ يلاحقُهُ بعد أنْ ودَّعَهـا ، وسـافـرَ إلـى لـورقَـة ، وهنـاك شَكـا حـالـه إلـى نـائِبـه عنْهـا أبي الحسن بنِ اليسع؛ ولنستمعْ إلى ابنِ خاقان الذي تحدَّثَ عن ذلك بأسلوبِه السَّاحِرِ الآسِرِ فقال:

* ولمّـا وَصَـل المعتمـدُ لُـورقـةَ استـدعـىٰ ذا الـوزارتَيْـن القـائـدَ أبا الحسنَ بنَ اليسع في ليلتهِ تلك ، فلما مَثُلَ بينَ يديهِ أنَّسَهُ ، وأَزَالَ توجُّسَه ، وقال له: خرجتُ منْ إشبيليةَ وفي النَّفْس غرامٌ طويتهُ بينَ ضُلوعي ، وكَفْكَفْتُ فيه غَرْبَ دموعي ، بفتاةٍ هيَ الشَّمْسُ ، أو كالشَّمس إخالُها ، لا يحولُ قلبُها ولا خَلْخَالُها ، وقد قلتُ في يومِ وداعِها ، عند تفطُّر كبدي وانصداعِها:

ولَمَّـــا التقَيْنـــا لِلـــودَاع غَـــديّـــةً ... وَقَد خَفَقَتْ في سَاعَةِ القَصْر راياتُ
بَـكيْـنَـــا دَمـاً حتّـى كَـأَنَّ عُيـونَنَـا ... لجَري الدُّمُوعِ الحُمرِ فيها جِراحَاتُ[2]

ثمَّ يقول:

---

(1) «لُوْرَقَة»: بالضَّم ثمَّ السّكون ، والراء مفتوحة والقاف ، هي مدينةٌ بالأندلس من أعمال تدمير ، بها فواكه كثيرة (معجم البلدان ٥/ ٢٥). و«تُدمير»: من كُور الأندلس ، سميّت باسم مَلكها تُدمير. (جزيرة الأندلس ص٦٢). وقال المقري: ومن كور الأندلس الشَّرقية تُدمير وتسمّى مصْر أيضاً لكثرةِ شبهها بها ، لأنَّ لها أرضاً يسيحُ عليها نَهرٌ في وقتٍ مخصوص من السَّنة ، ثم ينضبُ عنها ، فتزرعُ كما تزرعُ أرض مصر. (نفح الطيب ١/ ١٥٨).

(2) انظر: قلائد العقيان (١/ ٦٤) بتصرف يسير. هذا وفي البيتِ جمالٌ أَخَّاذٌ وأيّ جَمال ، وقد أكثرَ الشّعراءُ في هذا الباب ، ومن جميل ما قيل في هذا المجالِ قول أحدهم وقد أبدعَ:

بكيْـتُ دمـاً حتّـى لقـد قـالَ قـائِـلٌ ... أهذا الفتىٰ منْ جَفْنِ عينيه يرعُفُ؟!

وَكُنَّا نُرجّي الأوْبَ بَعْدَ ثَلاثَةٍ فَكَيفَ وقَدْ طالَتْ عَلينا زِيادَاتُ[1]

* هكذا كانَ المعتمدُ يروي شجونَه لأبي الحسن بنِ اليسع ، ومنَ الواضحِ أنَّه قد مضىٰ عن بعادِه عن اعتماد بضعةُ أيّام ، وهذا البعاد الذي تجاوزَ ثلاثةَ أيَّام قَدْ أقضَّ مضْجَعه ، وباتَ كأنَّ العَائِداتِ[2] فرشْنَ له الشَّوْكَ بَدَل فُرُشِ الحريرِ والدّيباج والدَّمَقْس ، بل إنَّه باتَ كأنَّ حيّةً رَقْشَاء قد وثَبتْ عليه ، فعاشَ كالملدوغ في لَيلٍ طويلٍ أرخى سدولَه وليس ينْجَلي.

* كان أبو الحسن بنُ اليسعِ يسمعُ لأنينِ وشكوىٰ المعتمدِ الملكِ الشّاعرِ ، ذي المعاني الرّقيقة والمغَاني الأنيقة ، فقد كانت كلماتهُ وأشعارُه تنبضُ بالوَجْد ، وتهيمُ بالعَواطِف ، وتمتلكُ المشَاعر ، لأنَّ اعتمادَ الرّميكيّة في إشبيليةَ ، وهي وإنْ كانت بعيدة عنه فإنّها في سُويداء قَلْبِهِ ، وطيفُها يرتسمُ ويمْثُلُ دائماً بينَ أَضَالعِه وحنَاياه.

* ولنتابع رحلةَ هُيام المعتمد معَ اعتماد ، ورحلةَ طيفِها الذي زارَهُ في مَضْجعه في لُورقة ، وكيفَ عانَقَ طيفَه طيفُها ، وكم تمنَّى لو تَقْدِرُ أنْ تزورَه ، ولكنَّ حجابَ المسافاتِ حالَ دونَ ذلك ، إذاً فسقىٰ اللهُ اعتماداً «أمّ عُبيدة» قَطْر النَّدى ، فكثيراً ما برَّدَتْ قَلْبَه ، وشَفَتْ نَفْسَه.

* ولنتركْ زمامَ الحديثِ الآن لابنِ خاقان ، كيما ينقل لنا بقيَّة المَشْهَد مع المعتمدِ وجليسهِ ابن اليسع فيقول: وقد زارتْني هذه الليلة في مضْجَعي ، وأبرأتْني منْ توجُّعي ، ومكّنَتْنِي منْ رضابِها ، وفتنَتْنِي بدلالِها وخضابِها ، فقلتُ:

أباحَ لِطَيفي طيفُها الخَدَّ والنَّهْدَا فَعَضَّ بهِ تُفَّاحةً واجْتَنى وَرْدَا

(١) انظر: ديوان المعتمد (ص ٤٤).
(٢) «العائدات»: زائرات المريض.

وأَلثمني ثَغْراً شَمَمْتُ نَسِيمَهُ فَخُيِّلَ لي أنّي شَمِمْتُ بهِ نَدَّا
ولو قَدرتْ زارَتْ علىٰ حالِ يقْظَةٍ وَلَكِنْ حِجَابُ البَيْنِ مَا بَيْنَنَا مَدَّا
أَمَا وجَدَتْ عنّا الشّجونُ معرَّجاً ولا وَجَدَتْ منّا خطوبُ النَّوى بُدَّا
سَقَىٰ اللهُ صَوْبَ القَطْر «أمَّ عُبيدةٍ» كما قَدْ سَقَتْ قلبي علىٰ حرِّهِ بَرْدَا
هِي الظَّبيُ جِيْداً والغَزَالةُ مقْلَةً وروضُ الرُّبا عرفاً وغُصْنُ النَّقا قَدّا[١]

* ثمَّ ماذا عَنْ طيْفِ اعتماد؟!

* إنَّ المعتمدَ ـ على ما يبدو ـ قد نعمَ في الحِلْم بوصالِها ، وتقلَّب على وثيرِ ساعدِها ، وشَكا وَجْدَه وطولَ سُهادهِ ، فهو في بحرٍ منْ هَواها ، ولولا أنْ زارَتْه في المنام ، لما ذاقَ طعْمَ الرّقاد ، ولمّا لامَسَتْ عيناه لذّة الكرى ، أَلاَ ما أجملَ الأحلام ما دام طيفُ الحبيبة اعتماد في الزّيارة! ولعلَّ اعتماداً الرّميكيّة قد وصلتْها أشعارُ زوجِها المعتمد ، فانتشَتْ بها ، وزادتْ دلاًّ ودلالاً ، وهاهو مرّة أخرى يقولُ فيها :

إنّي رأيتُكِ في المنام ضَجيعي وكأَنَّ سَاعِدَكِ الوثيرَ وسَادي
وكَأَنَّما عَانقْتِني وشكَوتِ مَا أشكوهُ مِنْ وَجْدي وطولِ سُهادي
وكَأنّني قَبَّلْتُ ثَغْرك وَالطّلا والوجْنَتَيْن ونلْتُ منْكِ مُرادي
وهَواكِ لولا أَنَّ طيفَك زَائرٌ في الغبِّ لي ما ذُقْتُ طعْمَ رُقادِ

* إنَّ طيفَ اعتماد الرُّميكيّة قد احتلَّ جُزءاً كبيراً منْ شِعْرِ المعتمد؛ واعتماد قد احتلَّت قَلْبَه واحتوَتْ عليه ، تُرى هل اعتماد كانت هي المقصودةُ في هذه الأهزوجة النّشوى المُعتمديّة؟! :

أَنَا في عَذابٍ مِنْ فراقِك نَشْوان مِنْ خَمْرِ اشتياقِك
لا تَحسبي أنّي سَلَوْ تُ لما توالىٰ مِنْ فِراقِك

---

(١) قلائد العقيان (١/ ٦٥) ، ونفح الطيب (٩/ ٥٩) ، وديوان المعتمد (ص ٤٩) ، ونلاحظ أنَّ المعتمدَ قد كنّى زوجته اعتماداً الرّميكية بأمّ الربيع.

صَبُّ الفُؤادِ إلى لقائِكِ وارتشَافِكِ واعتناقِكْ
هذي جُفوني أقْسَمتْ لا ملتقىٰ ما لَمْ تُلاقِكْ
فَصِلي جميلَ الظَّنِّ بي وثِقي فَقَلْبي في وثَاقِكْ

* إنَّ هذه الأشعارَ اللطيفةَ لم تُنْقِصْ منْ قَدْرِ المعتمد ، وإنَّما زادَه ذلك علوّاً على معاصريه منَ الملوكِ والأمراءِ ، وما أجملَ ما قالَه عنه ابنُ بسّام: كان متمسّكاً منَ الأَدب بسبب ، وضَارباً في العِلْمِ بسَهْم ، وله شعر كما انشقَّ الكمام عن الزَّهْر ، لو صَدَرَ مثله عمّنْ جعل الشِّعر صنَاعة ، واتّخذه بضاعة ، لكان رائعاً معجباً ونادراً مستغرباً[1].

* إنَّ المعتمدَ بنَ عبّاد ـ رحمه الله ـ كما شَهِدَ له معاصروه فَمَنْ بعدهم فارسُ الميدان ، وبطلُ الكلمات المندّاة بمعسولِ الرُّضاب ، إلاّ أنَّ اعتماداً الرُّميكيّة المرأة الملاّحة المليحة الآسرة قد غَزَتْه بغيرِ سِنَان ، واستولَتْ عليه ، فجعلَتْه وَسْنانَ ، فهو بين يديْها كالطِّفْل الوحيد ، فقد ملكَتْ قَلْبَه وكلماتِه وأحاسيسَه دونَ قِتالٍ أو نِزَال ، ولكنّها أنزلَتْه من علياءِ مُلْكه لتملكَ قَلْبَه ولُبَّه وشعْره ، فما أذكاها من امرأة!!

اعتِمَاد وَمَصْرَعُ ابنِ عَمَّار:

* يبدو أنَّ الوزيرَ أبا بكر بنَ عمار[2] قد اشترى مقْتَله بنفسه ، إذ

(١) الذخيرة (٢/ ٢٢) طبعة بيروت.

(٢) وصفَ ابنُ الأبّار ابنَ عمّار فقال: وكانَ ابنُ عمّار شاعرَ الأندلس غيرَ مدافع ولا منازع ، إلا أنَّ مساوىءَ أفعالِه ذهبتْ بمحاسنِ أقواله: أدْمَنَ الخمر ، وهوَّنَ على نفسهِ الغَدْر ، فأدَّاه ذلك إلى ردَاه ، وكان كالذي نفخَ فوهُ ، وأوكَتْ يَداه. (الحلة السِّيراء ٢/ ١٣٤).
وقال ابنُ بسَّام: كانَ شاعراً لا يُجارىٰ ، وسَاحِراً لا يُبارى ، إذا مَدحَ استنزلَ العُصْمَ ، وإذا هَجا أسمع الصّم . . . وكيف لا يُرغب في شعره ، ويُتنافس فيما ينْفثُ فيه من سِحْره ، وهو يضرب في أنواع الإبداع بأعلى السِّهام ، ويأخذُ منَ التَّوليد والاختراع بأوفرِ الأقْسام. (الذخيرة ٢/ ٢٢٢) باختصار.

«مَقْتلُ المرء بين فكّيه»[1] ، بالإضافةِ إلى طموحهِ البعيد ، وآمالهِ الطوال العراض ، ناهيك بغرورهِ ، والشُّبُهات التي دارتْ حولَه من حيثُ الولاء لملِكِه المعتمدِ بنِ عبّاد.

* والذي يهمُّنا منْ هذا كُلِّه ، أنَّ ابنَ عمار قد نَظَمَ قصيدةً لاميةً ، هجَا فيها المعتمدَ والرَّميكيّةَ أمَّ بنيه ، فأوغرت[2] صَدْر المعتمدِ وأغرتْه فقَتَلَهُ.

* ولعلَّ هناك نوازعَ متناقضةٌ قد جَثَمتْ على نَفْس ابن عمّار ، فصاغَ قصيدةً موجعةً مؤلمةً مقذعةً في الهجاء ، شَتَمَ وسبَّ فيها المعتمدَ وزوجتَه اعتماداً الرّميكية[3] وأولادَه سبّاً قبيحاً ، بل أَسَفَّ فيها إسْفافاً

---

(١) «مقْتَلُ الرّجلِ بين فكّيه»: هذا مثَلٌ لأكثم بن صيفي أحد حكماء العَرب في الجاهلية ، ومعناه: إنَّ الإنسانَ إذا أطلقَ لسانه فيما لا ينبغي قَتَله. والأمثال في هذا المعنى كثيرة.
ومنْ أجودِها قولُ الشّاعر:
رأيــتُ اللّســان علــى أهْلِــهِ إذا سَــاسَــهُ الجَهْــلُ ليثــاً مُغيــرا
قوله: «ساسَه الجهلُ»: استعارةٌ حَسَنَة.
(جمهرة الأمثال ٢/ ١٨٨).

(٢) أخضعَ التَّرفُ الحكْم في الأندلسِ لسلطانِ النّساء ، منَ الجواري والمحظيّات اللواتي أسهمنَ في التَّدبيرِ والتّآمرِ ، وكانَ لبعضهنَّ يَدٌ في إزهاقِ الأرواحِ. وانظرْ في هذا حديث المسعودي عن سُلطان النّساء في خلافةِ المقتدر. (التنبيه والإشراف ص ٣٢٨) ، وكذلك دور اعتماد الرميكية في قتلِ ابن عمار ـ كما سنقرأ في هذه الصفحات ـ.

(٣) كانَ أبو بكر بنُ عمّار منْ أساطينِ مجالس المعتمد الأدبيّة ، وكانَ له منزلةٌ عُليا عنده ، فكانَ في إبَّان مجدِه ونفوذِه يستأثرُ لَدى المعتمدِ بثقَتهِ ، ويملكُ عليه كلَّ حبّه وعطفِه ، ويبدو أنَّ اعتماداً الرُّميكيّة كانتْ تنظرُ إلى مكانةِ ابنِ عمار ، وتمكن نفوذِه بعينِ السُّخطِ ، وكانَ ابنُ عمار منْ جانبهِ يحقدُ عليها ، ويخشىٰ بأْسَها. وسعايتَها ومكانتَها في نَفْسِ مليكه المعتمدِ بنِ عبَّاد ، واستمرتِ المعركةُ والمنافسةُ حيناً منَ الدَّهر بين الوزير واعتماد الرّميكيّة حتى أسفرتْ عن نتيجتها =

ساقِطاً جعلتْ موقفَه منَ المعتمدِ ضعيفاً هَزيلاً. قال ابنُ عمَّار في مطْلَع قصيدته اللامية يعرّضُ بالمعتمد:

ألا حيّ بالغَربِ حيّاً حَلالاَ   أَناخُوا جِمَالاً وَحَازُوا جَمالاَ
وَعَرِّجْ بِيُومِيْن أُمِّ القُرىٰ   وَنَمْ فَعسىٰ أَنْ تَراهَا خَيالاَ[١]
لِتَسْأَلَ عنْ سَاكنِيْهَا الرَّماد   ولَمْ تَرَ للنَّار فيها اشْتِعَالاَ

* وفي هذه القصيدةِ المشؤومةِ علىٰ ابنِ عمار يقولُ معرّضاً باعتمادِ الرُّميكيّة زوجِ المعتمد وأولاده فيقول:

تَخيَّرتَها مِنْ بنَاتِ الهِجَان   رُميكيّة ما تُسَاوي عِقَالاَ[٢]
فَجَاءَتْ بكلِّ قَصيرِ العِذَار   لَئيم النَّجاريْن عمَّاً وخَالاَ
قِصَارِ القُدودِ وَلكنَّهم   أقامُوا عليها قُروناً طِوالاَ

* ثم إنَّ ابنَ عمار أخذَ يطعنُ في رجولةِ المعتمد، ويسخرُ منه، ويشوِّهُ سمعتَه وشرفَه فيقولُ متحدّثاً عن أيّامه السَّالفات:

أتذكرُ أيَّامَنا بالصِّبَا   وَأَنْتَ إذَا لُحْتَ كُنْتَ اطّلالاَ
أُعَانِقُ منْكَ القَضيبَ الرَّطيبَ   وَأَرْشفُ مِنْ فيك مَاءً زُلالاَ
وأَقْنعُ منْكَ بدونِ الحرَام   فتقسمُ جَهْدَكَ أنْ لا حَلالاَ
سأهْتِكُ عرضَكَ شَيئاً فَشَيئاً   وأكشِفُ ستْركَ حَالاً فَحالاَ

ومنها:

فيا عامِرَ الخيلِ يا زَيْدَها   مَنعْتَ القِرىٰ وَأَبَحْتَ العِيالاَ[٣]

= الطّبيعيّة، وهي هزيمةُ الوزير، وتغير مَلكِه عليه، ثمَّ بطشهِ به.

(١) «يَوْمِيْن»: اسم قرية بإشبيلية كانت منها أولية بني عباد.

(٢) انظر: الحلة السيراء (٢/ ٦٣) ومصادر أخرى كثيرة.

(٣) ويقالُ إنَّ المعتمدَ بنَ عبّاد حقَد على ابنِ عمَّارَ في قولِهِ:

ممّا يزهّدُني في أرض أندلسٍ   أسماءُ معتضدٍ فيها ومعتمدِ
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعِها   كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولةَ الأسدِ=

* ووصلتْ هذه القصيدةُ أسْماعَ المعتمدِ ، فجرحَتْ مشاعِرَه وتألّم كثيراً إذ:

جـراحَــاتُ السِّنَـانِ لهــا التئـامٌ   ولاَ يلْتَــامُ مَــا جَــرَحَ اللِّسَــانُ

* ولما وقعَ ابنُ عمار بيدِ المعتمد ، سَجَنَهُ في بيتٍ في قَصْرِه ، وألقاهُ مكْتُوفاً مكبّلاً بالقُيود ، وحاولَ ابنُ عمار أنْ يصْلِحَ ما أَفْسَدهُ ويستعطفَ المعتمد ، فكتبَ له قصيدةً حائيةً يستدرُّ بها عطْفَه ومطلعُها:

سَجَاياكَ إنْ عَافَيْتَ أنْدَى وأسْجَحُ   وَعُذْرَكَ إنْ عَاقَبْتَ أَجْلَىٰ وأَوْضَحُ[1]

* إلاَّ أنَّ المعتمدَ أعرضَ عنه كما قال ابنُ خاقان: فلم يصخْ إلى رقَاه ، ولم ينفعْه ما عوَّذَه به وَرَقَاه ، والموتُ لا يُتوسَّلُ إليه ولا يُستشفع:

وَإِذَا المنيَّــةُ أَنْشَبَــتْ أظفَــارهــا   ألفيــتَ كــلَّ تميمــةٍ لا تَنْفَــعُ[2]

= وفهمَ المعتمدُ أنَّه يعنيه ، فكان هذا سببَ قتْله ، بعد أنْ استوزَره وأحسنَ إليه. على أنَّ كثيرين منَ المشتغلين بالأدبِ قَد نسبُوا هذيْن البيتَيْن إلى ابن رشيق القيرواني ، والله أعلمُ بحقيقةِ الصَّواب.

(١) انظر القصيدة في الحلة السيراء (٢/ ١٥٣ و١٥٤) ، وخريدة القصر (٢/ ٧١ ـ ٨٣) وغيرها كثير من المصادر الأندلسية.

(٢) هذا البيتُ من قصيدةٍ عينيةٍ مشهورةٍ جميلةٍ لأبي ذؤيب الهذليّ ، يرثي أولادَه الخمسة ، وكانوا قد هلكوا جميعاً في الطّاعون ، وأوّلها:

أمِــنَ المنــونِ وريبــهِ تتــوجــعُ   والــدَّهــرُ ليس بمعتـب مَـنْ يجـزعُ
أودىٰ بنــيّ وأعقبــونــي حســرةً   بعــد الــرُّقــادِ وعبــرةً لا تقلــعُ

ومنها:

وبقيــتُ بعــدهــمُ بعيــشٍ نــاصــبٍ   وأخــالُ أنّــي لاحــقٌ مستتبــعُ
ولقــد حــرصــتُ بــأنْ أدافــعَ عنهــم   وإذا المنيــةُ أقبلــتْ لا تُــدفــعُ
وإذا المنيــةُ أنشبــتْ أظفــارَهــا   ألفيــتَ كــلَّ تميمــةٍ لا تنفــعُ
وتجلّــدي للشّــامتيــنَ أريهــمُ   أنّــي لــريــبِ الــدَّهــر لا أتضعضــعُ

وهي قصيدةٌ جميلةٌ من عيونِ الشّعر مبثوثة في مصادر كثيرة.

* وقال ابنُ الأبّار: وكانَ ابنُ عمار خاطبَ المعتمد قبل ذلك من معتقله بأبياتٍ منها:

وَاللهِ مَـــــــا أدْري إِذَا قـــالُـــوا غَـــداً يـــوم اللّقـــاء
مَـــا أقْتَـــلَ الحـــالَيْـــن لـــي إِنْ كـــان خَـــوفـــي أَوْ حيَـــائـــي

فما أصغىٰ إليه ، ولا أبقىٰ عليه[1].

* وعاتبَ المعتمدُ ابنَ عمَّار علىٰ ما بدرَ منه ، فلم يستطعِ الإنكارَ ، فقامَ إليه المعتمد والشَّررُ يتطايرُ منْ عينيه ، فجعل يزحفُ بقيوده ، وقبَّلَ الأرضَ بين يدي المعتمد ، إلاّ أنَّ المعتمدَ ضَرَبَه بالطَّبرزين[2] فَفَلَق رأْسَه ، وتركَ الطَّبرزينَ في رأْسِه ، فقالتِ الرُّميكيَّةُ: قد بقيَ ابنُ عمار هُدْهُداً[3].

---

(١) الحلة السيراء (٢/ ١٥٤).

(٢) «الطّبرزين»: فأسٌ تشبه المطرقة ، أوهو فأسٌ مرهفُ الحدَّيْن ، أو ذو حدَّيْن ، أو فأسٌ منْ حديد ، أو فأسٌ يقطعُ من النَّاحيتَيْن. وقيل: هو فأسُ السَّرج ، أي أنَّه كان يُعلّقُ في السَّرج ، ويُكْتَبُ أحياناً «طَرَبَزِيْن».
وكان أذفونش قد أهداهُ إلى ابن عمار ، فأهداهُ هو إلى المعتمد ، والمعتمدُ أهدىٰ إليه الموت!!

(٣) قال ابنُ سُعيد عن نهايةِ ابن عمار: وسَجَنه ابنُ عبَّاد في بيتٍ في قَصْره ، ولم يزلْ يستعطفه ، وهو لا ينعطفُ له ، إلى أنْ كانَ ليلةً يشربُ ، فذكرته الرّميكية بهِ ، وأنشدته هجاءَه فيه ، وقالتْ له: قد شاعَ أنَّك تعفو عنه ، وكيفَ يكونُ ذلك بعدما نازعَك مُلككَ ، ونالَ منْ عرضِ حُرَمِكَ؟ وهذان لا تحتملُها الملوكُ ، فثارَ عند ذلك ، وقَصدَ البيتَ الذي هو فيه ، فهشَّ إليهِ ابنُ عمار ، فضربَه بطبرزين شقَّ بهِ رأسه ، ورجعَ إلى الرُّميكية ، وقال: قد تركتُه كالهدهد.
قال ابنُ بسَّام: ولذلك يقولُ فيه صنيعته ابنُ وهبون:
لله مَـــنْ أبكيـــهِ مـــلءَ مـــدامعـــي وأقـــولُ لا شلَّـــتْ يميـــنُ القَـــاتِـــل
(المغرب ١/ ٣٩٠ و٣٩١).

* ثمَّ هدأَتْ ثورةُ المعتمدِ بعد مقتلِ ابنِ عمَّار ، وأمر بغَسْله وتكفينهِ ، ثمَّ بدفْنهِ[1].

* ومنَ الطَّريف في عَالَم الأَدَبيَّاتِ المسرحيَّة أنَّ الشَّيخَ إبراهيمَ الأحدب الطَّرابلسيّ قد صوَّر في إحدىٰ مسرحيّاته نهاية ابن عمار ، وأجرىٰ هذا الحوارَ المسجوعَ الجميلَ على لسانِ المعتمدِ والرّميكيّة بعد مَقْتَلِ ابنِ عمار ومحاربةِ الأَذْفُونش فقال :

المعتمدُ : أيَّتُها الملكةُ الكريمة ، ذات الشِّيمِ الوسيمة ، طالَتْ إليكِ أشواقي ، حتى كادتْ تبلغُ الرُّوح التَّراقي ، وقد حالَت محاربةُ الأذفونش دونَ تلاقينا ، وكدَّرت ما كانَ صفا من وردِ تَهانيا ، لكنْ حيثُ أظْفَرنا اللهُ تعالى به ومنَّ بالفتحِ المبين ، قَضَىٰ أنْ نعودَ إلى محاضراتِ الأنْس في كلِّ حِين ، وقد قطعتُ علىٰ ابنِ عمار لرضاكِ مَدَدَ الحياة ، وعجَّلْتُ له بيدي لعدمِ وفائه الوفَاة، فلا كان من يكْفُر بالنِّعم، ويجني ما يبدلها بالنّقم.

الرّميْكيّة : أَحْمَدُ اللهَ على عودِك بالسَّلامةِ ، ورجوعك حائزاً من معجزاتِ الظَّفر كلّ كرامة ، فقد عادَ الأندلس بذلك لمواسمِ اللذَّات عوائد ، وفاءَ إليها بعد ذلك الجهاد أعظم فوائِد ، وأمَّا قَطْعُ مدَدِ الحياةِ علىٰ ابنِ عمار ، وخراب بيت وجودهِ في هذه الديار ، فَلِما جنَاه عليه لسانهُ ، حيث نمَّ على ما يجنّه جنَانُه ، إذْ تجرّأ على هجونا بما خبُث نَشْرُه ، وقَبُحَ في وَجْهِ المحاسِن ذِكْره ، وقد تعدّى إلى هجو والدِكَ المعتضد ، وتجاوزَ القَصْد بما كان فيه غَير مقتصد ، فلا شلَّت يمينُك بإعدامِه وتأجيل أَذاه بتعجيل حِمَامِه .

المعتمد : قد ذَهبَ بما كسبت يداه ، وجنَى بيده ما لا يطيبُ جناه ، فلنرفعْ ذِكْرَه منَ البين ، بعدما ذهَبَ أثره والعين ، وإنْ كنتُ أسفتُ على

---

(١) عن قلائد العقيان (١/ ٢٨٧ و٢٨٨)، ونفح الطيب (٥/ ٣٤٤) مع الجمع والتصرف .

فَقْدِ أديبٍ مثلهِ ، تتفاضلُ الملوكُ بفَضْله ونُبْله ، لكنَّ الهممَ الأبيةَ ، تأبى أنْ تقرَّ على الدَّنية .

الرّميكيّةُ : هو ما قلتَ أيّها الملكُ الكريمُ ، فليذهبْ إلى دارِ البوارِ وعذابِ الجحيم ، وحيثُ قرب حضور جلاّسكَ إلى هذا المكان لاجتناءِ بيان المعاني ومعاني البيان فألتمسُ الإذنَ بالذَّهاب ، ليكون بيني وبينهم حجاب .

المعتمد : الإذنُ لكِ بما تريدين ، وإنْ كنتُ أرغبُ أُنْسَك في كلِّ حِين .

الرُّميكيَّةُ : إذاً ، أستودعُك الآن .

المعتمد : بالحفظِ والرّعايةِ والأمان[١] .

لا بُـدَّ مِـنْ نِهَايـة :

* ظلَّتِ اعتمادُ الرُّميكيَّةُ تنعمُ بلينِ العَيْشِ ، وعيشِ اللين حيناً منَ الدَّهْر ، وظلتْ تنعمُ في مَدارجِ السَّعادة أعواماً طويلةً إلى أنْ حلَّتِ الكارثةُ بزوجِها المعتمد ، حيثُ خُلِعَ وسجنَ بأغْمَاتَ[٢] بالمغْرِب ، وعندها تهدَّم صَرْحُ سعادتها ودلالها .

---

(١) انظر : مسرحيات الشيخ إبراهيم الأحدب (ص ١٩ و٢٠) .

(٢) «أغمات» : بُليدة وراء مراكش ، بينهما مسافة يوم ، وخرجَ منها جماعةٌ مشاهير . قال ياقوت : أغماتُ : ناحيةٌ في بلادِ البربرَ منْ أرضِ المغرب قربَ مراكش . . وليسَ بالمغربِ ـ فيما زعموا ـ بلدٌ أجمعَ لأصنافِ الخيرات ولا أكثرَ ناحية ، ولا أوفرَ حظاً ، ولا خصْباً منها .

ويُنْسبُ إليها أبو هارون موسى بنُ عبد الله بن إبراهيم الأغماتي المغربي ، رحل إلى الشَّرق ، وأوغلَ حتى بلغَ سمرقند ، وكان فاضِلاً ، وله شِعْر حَسَنٌ منه :

لعَمرُ الهوىٰ إنّي وإنْ شَطّتِ النّوىٰ ... لـذو كَبِـدٍ حـرّىٰ وذو مَـدْمَـعٍ سَكْـبِ
فإنْ كنتُ في أقصىٰ خراسانَ ثاوياً ... فجسمي في شَرقٍ وقلبي في غرب

(معجم البلدان ١/ ٢٢٥) .

* وأقامَ المعتمدُ في أغماتَ أَسيراً[١]، كاسِفَ البالِ، حزينَ القلْبِ، وكان أكثرُ ما يُؤْذيه منْظَرُ زوجِه الرّميكيّة وبناتِه النَّاشئات في ظلالِ النَّعيم، وأدواحِ العزّ، وهُنَّ الآنَ في الأطمارِ يغْزِلْنَ بالأجرةِ ليحصلنَ على القوت.

* فقد كان المعتمدُ وزوجُه اعتماد الرّميكيّة التي كانتْ تسطعُ في الأندلسِ بجمالها وخلالها البارعة، وأبناؤُه الأمراءُ، وبناتُه الأقمار، يرتدون الثِّياب والأَطْمَار الخَشِنَة، وكان بنات المعتمدِ يشتغِلْنَ بالغَزْلِ، كيما يقدمْنَ المعونةَ لوالدهنَّ وأسرتهنَّ[٢].

* وفي يوم عيدٍ دخَل عليه بناتُه السِّجْنَ، فلمّا رآهُنَّ في أطمارهنَّ الرَّثَّةِ، وقد بَدَتْ عليهنَّ آثارُ الفَاقَةِ والبؤْسِ والشَّقاء، تألَّمَ، وإذا به يشْدو بقصيدةٍ جميلةٍ تأسرُ القلوب الكريمَة الصَّافية، يقولُ منْ قصيدةٍ، وقد دخل عليه بناتُه للسَّلام يوم عيد:

فيمَا مَضَىٰ كنْتُ بالأَعْيَادِ مَسْرورا ... فَسَاءَكَ العيدُ في أغْماتَ مأْسُورا
ترى بناتِك في الأَطْمارِ جائِعَةً ... يغْزلنَ للنَّاسِ ما يملكْنَ قِطْميرا
بـرزْنَ نَحـوكَ للتّسليـمِ خـاشعـةً ... أبصـارُهُـنَّ حَسيـراتٍ مكـاسِيـرا
يطأْن في الطِّينِ والأَقدامُ حافيَةٌ ... كـأَنَّهـا لـم تَطَـأْ مِسْكـاً وكـافُـورا
لا خدَّ إلَّا تَشكَّى الجدبَ ظاهِرُهُ ... وليـسَ إلا مَـع الأَنْفـاسِ ممطُـورا

---

(١) كان يوسُف بنَ تاشفين صاحبَ بلاد المغرب قد أسرَ المعتمدَ بنَ عباد وسجَنَه وأهْلَه. قال ابنُ كثير ـ رحمه الله ـ: وقد كان المعتمدُ هذا موصوفاً بالكرم والأدبِ والحلمِ وحسنِ السّيرة والعشرةِ والإحسان إلى الرعيةِ، والرّفق بهم، فحزنَ الناسُ عليه، وقال في مُصَابه الشُّعراء فأكثروا. (البداية والنهاية ١٢/ ١٣٧ و١٣٨).

(٢) تحدث الذهبي عن فقر أهل المعتمد وبناته فقال: افتقروا بالمرة، وتعلموا الصنائع، وكذلكَ الدهر، نسأل الله المغفرة. (سير أعلام النبلاء ١٩/ ٦٦).

أفطَرتَ في العيدِ لا عادَتْ إساءتُهُ   فكـانَ فطْـرك لـلأعيـادِ تَفْطيْـرا
قد كانَ دَهْرُك إنْ تأْمُره مُمتثِلاً   فـردَّك الـدَّهْـرُ مَنْهيّـاً ومَـأْمُـورا
مَنْ باتَ بَعْدك في مُلْك يُسَرُّ به   فـإنَّمـا بـاتَ بـالأحـلامِ مَغْـرورا[1]

* هذا وقد ظلَّ المعتمدُ يقاسي هوانَ الأسْر[2] ، وقد زَاره[3] عددٌ من محبّيه ، وعشّاق أدبهِ وهو في سجنهِ ، إذْ كانَ المعتمدُ يعرف مكانتهَ في نفوسِ كثيرين لسالفِ أياديه البيضِ لديهم ، وقديم إحسانه لهم ، وسابغِ كرمه عليهم ، ويعلمُ أنَّ أخبارَ أَسْرِه وسجنه سيكون لها وقْعٌ بالغٌ وأثرٌ عظيمٌ في نفوسِ كثيرين منْ أحبابه ومحبّيه .

(١) الذخيرة (٢/ ٤١ و٤٢) ، وانظر : نفح الطيب (٦/ ٥٣ و٥٤) ، وديوان المعتمد (ص ١٠٠) وسير أعلام النبلاء (١٩/ ٦٤) وغيرها .
(٢) لقد نعىٰ المؤرّخون صنيعَ يوسُف بن تاشفين الذي أَسَرَ المعتمدَ؛ ووصفه الكتّاب بأقسى الصِّفات ، قال ابنُ الأثير ـ رحمه الله ـ: وفَعَلَ أميرُ المسلمين ـ لقب يوسف بن تاشفين ـ بهم ـ أي بالمعتمدِ وآله ـ فِعالاً لم يسلكْها أحدٌ ممن قبله ، ولا يفعلُها أحدٌ ممن يأتي بعده ، إلا مَنْ رضيَ لنفسهِ بهذه الرَّذيلة . . . وأبانَ أميرُ المسلمينَ بهذا الفعلِ عن صِغَر نَفْسه ولؤم قَدْره . (الكامل ١٠/ ٦٥) .
وتروي المصادرُ أنَّ المعتمدَ قد طلبَ منْ حواءَ بنتِ تاشفين خباءً عارية ، فاعتذرتْ بأنَّه ليس عندها خباءٌ فقال متهكّماً:
أمـا يخجـلُ المجـدُ أن يـرحلـو   ك ولـم يصحبـوك خبـاءً مُعَـارا
تـراهـم نَسُـوا حيـنَ جـزتَ القِفَـا   رَ حنينـاً إليهـم وخضـتَ البحـارا
بعهـدٍ لـزوم لسُبْـلِ الـوفَـا   إذا حَـادَ مَـنْ حـادَ عنْهـا وجَـارَا
(٣) تشيرُ الأخبارُ إلى أنَّ زيارةَ السَّجين كانت ميسورةً في معظم الأحايين ، ولكنّه لا يُعْلَمُ نظامٌ للزيارة ولا لمواعيدها ، إلا أنَّ زيارة الكبار والسَّياسيين كانتْ تُستأذَنُ لها السُّلطة العُليا في الدّولة .
ومما نحصدُه منَ الأخبار في هذا المجال ، أنّ منَ الأصدقاءِ مَن كان يَسعى إلى إخوانهِ ليواسيه في سجنهِ ، ومنَ الشّعراء مَنْ كانَ يقصدُ الملوكَ أو الولاة المعزولين ، وأولي السّؤدد منهم ليمدَحهم .

* وقد زارَ المعتمدَ عددٌ منْ الأكابرِ والأماثلِ في سجنه كابنِ حمديس، وعبدِ الله بنِ إبراهيم صاحب كتاب «المُسهب» وغيرهما كثير[١]، وقد كَتَب أبو محّمد عبد الله بن إبراهيم على حائطِ سجن المعتمد متمثلاً:

فَإنْ تَسْجُنوا القَسريَّ لا تَسْجنوا اسْمَه   وَلا تَسْجُنوا مَعْروفَه في القَبائِلِ[٢]

* وكانت زياراتُ هؤلاءِ الأماثلِ والأعلامِ تُؤْنسُ المعتمدَ وتبعثُ فيه وميضَ الشِّعر، ولكنَّ ثِقَلَ القيودِ والآلامِ أثّرت به، واشتدَّتْ عليه الأمراضُ في السَّنَتيْن الأخيرتَيْن منْ حياته.

* وأمّا اعتمادُ الرّميكيّة فقد ثَبَتَتْ على عَهْدها، وعلى وفائها، فلم تُغَادِرِ المعتمدَ طرفةَ عَيْن، وقد شاركتْه آلامه وشَاطرته أحْزانَه، ولعلَّ وجودَ محبوبتهِ الرّميكيّة بقربهِ قد خفَّفَ عنه كثيراً منْ آلامه، وشيئاً منْ بلْواه وشكْواه، وقد أشارَ إلىٰ صبرِها وثباتِها، وذلك في رثائِه لابنَيْه المأمون والرَّاضي بعد خَلْعِه:

مَعي الأَخَواتُ الهَالِكاتُ عَليكُما   وأمُّكُما الثّكْلى المضرَّمَةُ الصَّدْرِ
تُبكّي بدمعٍ ليسَ للغَيْثِ مثلُهُ   وتزجُرُها التَّقوىٰ فتصغي إلى الزَّجْر
تذلِّلُها الذِّكْرى فتفْزَع للبُكَا   وتصبرُ في الأَحْيان شَحّاً علىٰ الأَجْر[٣]

* وهكذا ظلَّ المعتمدُ نديَّ الفِكْرِ، نديَّ اليَد، قد كَتَمَتْ مدينةُ أغماتَ كلَّ هاتِيكم العبقرية المعتمديّة والجمال الرّميكيّ الآسِر، فقد كانَ

(١) وكان ممن وفدَ عليهِ أبو بكر الدّاني، إذ وفدَ على المعتمدِ وهو بأغمات، عدّة وفادات، لم يَخْلُ في جميعها منَ إفادات، وقال في إحداها: هذهِ وفادةُ وفاء، لا وفادةُ اجتداء.
(٢) يقول أبو محمد: فتفقّدتُ الكتابةَ بعد أيام فوجدتُ تحتَ البيت: لذلك سجنّاه.
(٣) انظر: الحلة السيراء (٢/ ٦١) وغيره كثير.

المعتمدُ ريحانةَ إشبيليةَ ، وشَمسَها المشرقةَ ، فكسِفتْ[1] بأفعالِ ابنِ تاشفين السُّود البربرية ، وغابتْ تلكم الهمَسَات الأدبيّة عن سَمْع الزَّمان.

* وعلى الرغمِ منْ أنَّ اعتماداً الرّميكيّة كانتْ تُعاني البؤسَ والشّدَّة والحرمانَ ، لكنّها ظلَّتْ غزيرةَ الفِكْر ، ذكيةَ الخاطِر ، قالت له وهو في مرضَه: يا سيدي مالنا قدرةٌ علىٰ مَرْضاتِك في مَرضَاتِك[2].

---

(١) قال أبو بكر محمد بنُ عيسى المعروف بابن اللبّانة ، يذكرُ المعتمدَ بنَ عباد صاحب إشبيلية ، وكانَ لما أُزيلَ أمرُه ، وانتزع منه ملكُه ، حُمِلَ إلى أغمات ، فحُبِسَ بها:

انفضْ يديْكَ منَ الدُّنيا وساكِنها ... فالأرضُ قد أَقْفَرَتْ والنَّاسُ قَد ماتُوا
وقلْ لعَالِمَها الأرضيِّ قد كتمتْ ... سريرةَ العَالَم العُلْويِّ أغماتُ

(معجم البلدان ١/ ٢٢٥).

ولابنِ اللبانة أيضاً ـ ووفدَ بها إلى السَّجين الكريم المعتمدِ رحمه الله الذي غابَ وكُسِفتْ شمسه ـ:

تنشَّقْ رياحينَ السَّلام فإنَّما ... أفضُّ بها مِسْكاً عليكَ مختّما
وقلْ لي مجازاً أنْ عدمتَ حقيقةً ... بأنّك في نعمىٰ فقد كنْتَ مُنْعِما
أفكّرُ في عَصرٍ مضىٰ لكَ مشْرقاً ... فيرجعُ ضوءُ الصُّبح عنديَ مظلما
وأعجبُ منْ أفقِ المجرّة إذْ رأىٰ ... كسوفَكَ شمساً كيف أطلعَ أنجما

(الذخيرة ٢/ ١/ ٧٧ و٧٨) طبعة مصر. وسير أعلام النبلاء ١٩/ ٦٥ و٦٦).

ولابن اللبانة أيضاً يندب المعتمد في قصيدة مطلعها:

تبكي السَّماءُ بدمعٍ رائحٍ غَادِ ... علىٰ البهاليلِ منْ أبناءِ عَبّادِ

ومنها:

كمْ منْ دراري سعودٍ قد هَوَتْ وزَهَتْ ... منهم ومنْ دررٍ للمجدِ أَفْرادِ

(المنازل والدّيار ص ٣٨٤ و٣٨٥). و«الدّراري»: واحدها دريّ ، وهو الكوكبُ المتوقّد المتلالىء ، قال تعالى: ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ . . . ﴾ [النور: ٣٥] و«الدرر»: اللالىء العظيمة الكبار. «أفراد»: لا نظير لهم.

(٢) نفح الطيب (٥/ ٣٤٤) ، ومرضاتك الأولى: بمعنى رضَاك ، والثّانية جَمْع مرضة ، المرّة من المرض ، وهذا يشيرُ إلى بلاغتها ، وجمال وكمال فطنتها ، وسلاسة كلامها.

* وقالت له مرّة: يا سيدي، لقد هُنَّا هُنَا.

فنظمَ المعتمدُ كلامَها في تجنيسٍ[1] جميلٍ فقال:

---

(1) هذا جنَاسٌ جميلٌ صاغَه المعتمدُ؛ والجنَاسُ في اللُّغة ـ ويسمى التَّجنيس ـ: المشَاكلة، والاتّحاد في الجنْس، يُقَال لغةً: جَانَسه، إذا شَاكَله، وإذا اشترَكَ مَعه في جنْسهِ. والجنَاسُ في الاصطلاح هنا: أنْ يتشابَهَ اللّفظان في النُّطق، ويختلفا في المعنى.

والجناسُ فنٌّ بديعٌ في اختيارِ الألفاظ التي تُوهم في البدء التّكرير، لكنّها تفاجىءُ بالتّأسيسِ واختلافِ المعنى. ويُشترط فيه أنْ لا يكون متكلّفاً، ولا مُسْتكرهاً استكراهاً، وأنْ يكونَ مُستعذباً عند ذوي الحسّ الأدبيّ المرهف، وقد نَفَر منْ تصنعه وتكلُّفه كبارُ الأُدَباءِ والنُّقاد. قال ابنُ رشيق في كتابه «العُمدة»: «التَّجنيسُ منْ أنواعِ الفراغ، وقلّةِ الفائدةِ، وممّا لا يُشَكُّ في تكلُّفهِ، وقد أكثرَ منه السَّاقَةُ المتعقِّبونَ في نَظمِهم ونَثرهم حتى بَرَدَ وَرَكَّ». ويعني ابن رشيق بالسَّاقة: الذين لم يصلُوا إلى أنْ يكونوا فرسان أدبٍ في نَثْرٍ أو شِعْرٍ.

أمَّا شيخ البلاغةِ عبدُ القاهر الجرجاني فقد أعطى الجِنَاسَ قيمتَه، فلم يبخَسْه حقَّه، ولم يَغْلُ فيه، فقال: «أما التَّجنيس فإنَّكَ لا تستحسنُ تجانسَ اللفظتيْن إلا إذا كانَ موقع معنيهما من العَقْل موقعاً حميداً، ولم يكن مرمىٰ الجامع بينهما مرمىً بعيداً.

وللجنَاس أنواعٌ منها: الجنَاسُ التّام؛ والجناسُ المحرّف؛ والجناس النَّاقص؛ والجنَاس المُضَارع، والجنَاس اللّاحق، والجناس المزدوج، وجناس القَلْب، والجناس المصحَّف ويسمى: جناس الخط.

ومن أمثلةِ الجناس في مختلفِ ألوانه ما يلي: قال ابن نباتة:

قَمراً نَراهُ أمْ ملحياً أمْردَا ... ولحاظُه بينَ الجوانِح أم رَدَى

ومثلهِ لبهاءِ الدّين السُّبْكيّ:

كُنْ كيفَ شئْتَ عنِ الهوىٰ لا أنْتَهي ... حتّى تعودَ لي الحياةُ وأنتَ هِيْ

ولغيره:

بأَرْكانِ هذا البيتِ إنّي لطَائِفُ ... وفي الكونِ أَسْرارٌ وفيهِ لَطَائِفُ

وقال غيره:

عضّنا الدَّهْرُ بِنَابِه ... لَيْت ما حلَّ بِنَابِهْ

كلُّ مَنْ مَالَ إليهِ ... خَامِلٌ ليس بِنَابِهْ=

قَــــالَــــتْ لَقَـــد هُنَّـــا هُنَـــا   مَــــوْلاَي أيـــنَ جَـــاهُنَـــا
قُلْــــتُ لَهـــا إِلَـــى هُنَـــا   صَيَّـــــرنَـــــا إِلَهُنَـــــا [1]

فـي دِيْـوَانِ الـشَّهيْـرَاتِ:

* ظلَّتِ السَّيِّدَةُ الكبرىٰ اعتماد الرّميكيّة بجانبِ زوجها فارسِ الكرماء، وأميرِ الملوكِ الأسخياءِ المعتمدِ بنِ عبّاد، وقَدْ بَلغَ الجهدُ منها كلّ مبْلَغ؛ وبلغَ كذلك منْ حالِ المعتمد وهو في سجْنهِ بأغمات أنَّ ابنَةَ آثرِ محظيّاته اعتماد، وأكرم بناته أُلْجِئَتْ إلى أنْ تَستدعي غَزْلاً منَ النَّاس تَسدُّ بأجرتهِ بعضَ حَالِها، وتصلحُ به ما ظهرَ من اختلالها، وبلغَ من حَيْفِ الزَّمن عليها أنَّه أُدْخِلَ فيما أُدْخِلَ غَزْلٌ لبنْتِ عريفِ شرطةِ أبيها، كان بينَ يديه يَزَعُ النَّاس يومَ بروزِه، ولم يكنْ يراهُ إلاَّ ذلكَ اليوم، وفي ذَلك قالَ المعتمدُ من أبيات:

أَأَرْغَــبُ أنْ أعيــشَ أرىٰ بنَــاتــي   عَــواري قَــدْ أضَــرَّ بــه الحفَــاءُ
خَوادمُ بنْتَ مَنْ قد كانَ أَعلىٰ   مَـــــراتبـــــهُ إذا أبـــــدو النِّـــــداءُ
وَطَـردُ النَّـاسِ بيـن يـدي ممـرّي   وكَفّهـــــم إذا غَـــــصَّ الفَنَـــــاء [1]

= وما أَحْسَنَ قولَ القائل:
اقنـــعْ فمـــا تبقـــى بـــلا بُلغَـــةٍ   فليـــسَ ينســـى ربُّـــك النَّملَـــه
إنْ أقبــلَ الــدَّهــرُ فقــم قــائمــاً   وإنْ تــولّــى مُــدْبــراً نَــمْ لَــه
ولغيره:
يـا مغـرمـاً بـوصـالِ عَيشٍ نـاعـمٍ   ستصــدُّ عنــه طــائعــاً أوكــارهــا
إنَّ الحـوادثَ تَـزعـجُ الأحـرار عـن   أوطــانهــم والطيــر عــن أوكــارهــا
ولغيره:
سـألـتُ وصـالهـا فـأبـتْ وصَـالـي   وآلَـــــتْ أنَّهـــــا لا كلمّتنـــــي
لقـد صـدقـتْ وبـرّت غيـرَ أنّـي   رأيــتُ لحــاظَهــا قــد كلّمتنــي
فقلـتُ لهـا دعـي صـدّي وهجـري   فعــن حَمْـل التّجـافـي كـلَّ متنـي
(١) انظر: ديوان المعتمد (ص ٩٠).

* وهكذا الأيّامُ ، ولله دَرُّ القَائِل :

رُبَّ ركْبٍ قَدْ أنَاخُوا عيشَهم ... فـي ذُرَا مَجْدهِمُ حيْنَ بَسَقْ
سكَتَ الدَّهْرُ زماناً عنْهمُ ... ثُمَّ أبكاهم دماً حينَ نَطَقْ

نعم لقد أبكىٰ الدهرُ اعتماداً الرّميكيّةَ والمعتمدَ ، وسكَتَ عنهما لما أسرهُمَا ابنُ تاشفين ، لكنّه لم يستطعْ أنْ يأْسِرَ مكارمَهما التي طارتْ محلّقةً تجوبُ آفاقَ الدُّنيا؛ فالكريمُ يبقىٰ كريماً ، وإن افْتقر ، واللئيمُ يظلُّ لئيماً حقيراً مرذولاً وإن اغْتَنَىٰ ، وما أجملَ قول الشَّاعرِ في هذا المجال :

إذَا افْتَقَرَ الغَنِيُّ فَلُذْ إلَيْهِ ... فَشَمُّ الوَرْدِ بَعْدَ القَطْفِ عَادَه
وَإنْ سَعِدَ البَخِيْلُ فَصُدَّ عَنْهُ ... فَكَالمرحَاض تُتْلِفُهُ الزِّيَادَه[1]

* وظلتِ اعتمادُ الرّميكيّةُ الملكةُ الأسيرةُ بجانبِ المعتمدِ في أَسْرهِ وسجْنهِ ، فاتَّفَق أنِ اعتلَّتْ ، وأصابَها مرضٌ ألمَّ بجسمِها فأرهقَها ، وكانَ الوزيرُ أبو العلاء زُهر بنُ عبد الملك بنِ زهر[2] بمراكشَ ، قد استدعاهُ أميرُ المسلمين لعلاجِه ، فكتبَ إليه المعتمدُ راغباً في علاجِ السَّيِّدةِ الكُبرىٰ اعتماد الرّميكيّة زوجته ، ومطالعةِ أحوالها بنفسهِ ، فكتبَ إليه الوزيرُ مؤدياً حقّه ، ومجيباً له عن رسالتِه ، ومُسْعِفاً له في طلبتِه ، واتَّفقَ أنْ دعا له في أثناءِ الرِّسالة بطولِ البقاء ، فقال المعتمدُ بنُ عبّاد في ذَلكَ :

---

(١) ويشبهُ هذا قول الآخر :
إذا امتلأَتْ أيدي اللئيمِ منَ الغنىٰ ... تنفَّسَ كالمرحاضِ فاحَ وأَنْتَنَا
وأمّا كريمُ الأصل كالغصنِ كلّما ... تحمَّلَ منْ خير تواضعَ وانحنىٰ

(٢) وصفه ابنُ دحية في «المطرب» بقوله : وزيرُ ذلك الدَّهر وعظيمهُ ، وفيلسوفُ ذلك العصر وحكيمهُ ، زعيمُ فنِّ الموشّحات ، وهي زبدةُ الشّعر وخلاصةُ جوهره وصفوتهُ ، وهي من الفنون التي أغربتْ بها أهلُ المغرب على أهل المشرق ، وظهروا فيها كالشّمس الطّالعة والضّياء المشرق. توفي الوزير أبو العلاء بقرطبة سنة (٥٢٥ هـ). (المطرب ص ٢٠٣ ـ ٢٠٧) بتصرف.

دَعَا لي بالبقَاءِ وكيفَ يَهْوىٰ أَسِيرٌ أنْ يَطُولَ بِهِ البَقَاءُ
أَليسَ الموتُ أرْوَحَ مِنْ حيَاةٍ يطولُ علىٰ الشَّقيّ بها الشَّقاءُ
فَمَنْ يَكُ مَنْ هَوَاهُ لِقاءُ حُبّ فإنَّ هوايَ مِنْ حَتْفي اللّقَاءُ

* ثمَّ إنَّ المعتمدَ يذكرُ دعاءَ الوزيرِ أبي العَلاء له ، ويشكرُهُ على اهتمامِهِ بالرّميكيّة العليلةِ بقربهِ ، فيقول:

وَلكنَّ الدُّعَاءَ إذَا دَعَاهُ ضَميرٌ خَالِصٌ نَفَعَ الدُّعَاءُ
جُزيتَ أبا العَلاء جزاءَ بِرٍّ نوىٰ بِرّاً وصَاحَبكَ العَلاءُ
سَيسلي النَّفْسَ عمّا فاتَ عِلْمي بأنَّ الكُلَّ يُدرِكُهُ الفَنَاءُ[1]

* ما أشدَّ مرارةَ الذّلةِ بعد العزّ!! وما أقسىٰ الشَّقاء بعد النَّعيم! لقد عرفَ المعتمدُ ـ رحمة الله ـ كيفَ يؤثّرُ في القُلوب بأنَّاتِهِ الحَرّىٰ الكسيرةِ ، وكيفَ أنَّ الألمَ يفجّرُ ينابيعَ النَّفس بالكلامِ المؤثّر؟!.

* ولما أحسَّ المعتمدُ بدنو أَجلِه ، أوصىٰ بأنْ يُكْتَبَ على قبره عشْرة أبيات أوّلُها:

قبرَ الغريبِ سَقَاكَ الرَّائحُ الغَادي حَقّاً ظَفِرتَ بأَشْلاءِ ابنَ عبَّاد
بِالحِلْمِ بالعِلْم بالنُّعمى إذَا اتَّصَلَتْ بالخصْبِ إنْ أجدبُوا بالرّي للصَّادي

وآخرها:

ولا تَزَلْ صَلَواتُ اللهِ دائمةً عَلَى دفينِكِ لا تُحصَىٰ بتعدادِ

* ووصفَ ابنُ خاقان الأُويقاتِ الأخيرةَ منْ حياةِ المعتمدِ بأسلوبهِ الأخّاد السَّاحر فقال: ولم تزلْ كبدهُ تتوقّدُ بالزَّفرات ، وخَلَده يتردَّد بينَ النّكبات والعثَرات ، ونفسه تتقسَّمُ بالأشجان والحسرَات ، إلى أنْ شَفَتْه منيّتهُ ، وجاءته بها أمنيّته ، فدُفِنَ بأغماتَ ، وأُريح منْ تلك الأزمات ، وعطّلت المآثر منْ حلاها ، وأفردت المفاخرُ من عُلاها ، ورُفعت مكارمُ

---

(١) انظر المعجب (ص ٢١٨) باختصار وتصرف.

الأخلاق ، وكَسَدَت نفائس الأعلاق ، ويئسَ منْ تأييده ونَصْره ، وصار أمرهُ عبرةً في عَصْره ، وصابَ أبداً عبرة في مَصْره[1].

* وهكذا استأثرتْ رحمةُ اللهِ المعتمدَ بنَ عباد في السّجنِ بأغماتَ في (١١) من شهرِ شوّال سنة (٤٨٨ هـ) التي توافقُ عام (١٠٩٥ م) ، بعد أَسْر دامَ أربعَ سنوات كانتْ عجافاً هزيلةً ، وكانت قد استأثرتْ رحمةُ اللهِ اعتماداً الرميكية قبله.

* فلقدِ اشتدَّتْ وطأةُ الأَسْر علىٰ اعتماد ، ولم تَقْوَ طويلاً علىٰ مغالبةِ المحنةِ ، وهي المرأةُ الرَّقيقةُ ، والأديبةُ الشَّاعرة النَّاثرة ، ذات الأحاسيس المرهفةِ ، وذات الجمالِ والدّلال ، فذوَتْ نضَارتُه بسرعة ، ثم ما لبثت أنْ لبَّتْ نداءَ ربّها وتوفيت ، ودُفنَتْ بأغماتَ على مقربةٍ منْ معتَقَلِ زوجها وأولادِها ، فحزنَ المعتمدُ لوفاتِها أيّما حزنٍ ، واشتدَّ به الضَّنىٰ والأسىٰ؛ فلقد كانتْ وفاتُها قَبْله ، فلم ترقأْ له عَبرة ، حتى قَضَىٰ نَحْبَه أسَفاً وحزناً ، ودُفِنَ بقربها لتبقىٰ وفيةً له حيّاً وميتاً وليبقىٰ هو محبّاً قريباً حيّاً وميتاً.

* ولم تندثرْ سجايا المعتمد مع الذي اندثرَ من مجدِه المؤثّل على يدِ ابن تاشفين ، وإنّما ظلتْ سجايا المعتمد ترفلُ في حللٍ قشيبةٍ عند معاصريه وأصحابه فَمَنْ بَعْدَهم وبَعْدَ بعدِهم ، فهذا شاعرهُ البليغُ الأديبُ أبو بحر عبدُ الصَّمد الذي كانَ به خصيصاً ، وكم ألبسه المعتمدُ من برّه حُلّةً وقميصاً ، وقفَ على قَبْرهِ مع جماعةٍ وقال في رثائهِ قصيدةً طويلةً أجادَ فيها ما شَا ، وجَلبَ بها إلىٰ أَنْفُسِ الحاضرينَ بعد الأُنْسِ إيْحاشَا ، ومطلعُها:

مَلِكَ المُلوكِ أَسامِعٌ فأُنَادي ... أمْ قَدْ عَدَتْكَ عنِ السَّمَاعِ عَوادي

---

(١) قلائد العقيان (١/ ١٠٦).

ومنها:

لمّا خَلَتْ منْكَ القُصُورُ ولم تكنْ فيها كما قَدْ كُنْتَ في الأَعْيادِ
قبّلْتُ في هذا الثّرىٰ لكَ خَاضِعاً وجَعَلْتُ قَبْرَكَ مَوضِعَ الإنْشَادِ
قد كُنْت أَحْسَبُ أنْ تبدِّدَ أدمعي نيران حُزْنٍ أُضْرِمَتْ بفؤادي
فَإذا بدمْعي كلّما أجريتهُ زادَتْ عَليَّ حرارةُ الأكْبَاد

فبكىٰ النَّاسُ أحرَّ بُكَاء ، وهم يطوفُون بالقَبْرِ طوافَ الحجيج ، وكان منْظراً يفتِّتُ الأكباد.

* قال ابنُ الأبار: ورُزِقَ منَ النَّاس حُبّاً ورحمةً ، فهم يبكونه إلى اليوم(١).

* قال ابنُ الصَّيرفيّ عن أبي بكر بنِ عبد الصَّمد: ثمَّ خرَّ يبكي ويعفّرُ وجْهَه في ترابِ قبره... فبكى ذلك الملأُ حتى أخْضَلُوا ملابِسَهم ، وارتفعَ نشيجُهم وعويلُهم.

* وقال صاحبُ القلائد: وأقاموا أكثرَ نهارِهم مطيفينَ به طوافَ الحجيج ، مديمينَ البكاء والعجيج.

* ومنَ الجميلِ المُطرب في تاريخِ الآدابِ والأدب الأندلسيّ والعربي ، أنَّ مأساةَ المعتمدِ بنِ عبّاد ـ رحمه الله ـ قد أحدثَتْ أدباً جميلاً حزيناً في شِعْرِنا العربيّ ، وظهرَ شعرُ التَّفجّع الذي يأْسِرُ القلوبَ الصَّافيةَ بصفاءِ معانيه ، ورقّة مغَانيه ، ولطافة مبانيه ، وذلك لأنَّ نكبةَ المعتمدِ

---

(١) الحلّة السِّيراء (٢/ ٥٥). هذا وقد طبّق أسْرُ المعتمدِ الآفاق ، ولعلَّ الشِّعْرَ الذي يرسُله المعتمدُ ، والنّفحاتُ والأنّات تسلّيه وتغذّي روحَه ، فكانَ يطلقُ تلكَ الهمسَاتِ الحائرةِ الممزوجةِ بأنداءِ الإحساس المرهفِ ، ويتحدَّثُ عن أسْرِهِ الذي عمَّ خبرهُ الأرضَ منْ أقْصَاها إلى أقْصَاها:

أنباءُ أسْرِكَ قَدْ طبقْنَ آفَاقَا بل قد عَمَمْنَ جهاتِ الأرضِ إطْلاَقا
سارتْ منَ الغربِ لا تُطوىٰ لها قَدمٌ حتّى أتتْ شرقَها تنعاكَ إشْراقا

وسقوطه كانَ معناه سقوط الأميرِ ، وسقوطَ الإمارةِ ، وسقوطَ المدينةِ ، وسقوطَ الأدبِ الأميريّ في آنٍ واحد ، وصارَ المعتمدُ رمْزاً لهذا كلّه ، وأحدثَ ردَّ فِعْلٍ عنيف في نفوسِ الشُّعراء والأُدباء ، وأصابَها بمفاجأةٍ مُذْهِلة ، تركتهم يعيشونَ في فَراغٍ هائِل ، فبينَ ليلةٍ وضُحاها ، أَصبحَ أمثالُ ابنِ حمديس ، وابنِ عبدِ الصمد ، وابنِ وهبون ، وأبي بكر الخولاني ، وابنِ اللبّانة؛ غرقىٰ في المأْسَاة والحيرة؛ وكانَ المعتمدُ في نَظرهم فَارِساً ، وكان كريماً جواداً ، وكان صَديقاً ، وكانَ حاكماً عربيّاً ، وأحسَّ الشُّعراء هذا كلّه ، فلمسُوا في محنتِه فاجعةَ الكريمِ ، والكريم الصَّديق ، وكانوا في تصويرِ هذه الفاجعة أعمقَ انفعالاً ، وأشدَّ اشتعالاً .

* ومنَ الطَّريف أنَّ الشُّعراءِ إذا كانوا قد خَسِروا هذا كلّه ، فإنَّ الأدبَ قد كَسبَ نواحيَ كثيرة ، ومنها الوفاءُ والمودّة في نكبةِ الأحباب ، وهل هناك أجملُ منَ الوفاءِ إذا نزلَتْ عوادي الدّهر بامرىءٍ كريمٍ أصيل حسيبٍ كالمعتمد[1]؟! .

---

(١) لعلَّهُ منَ المفيدِ هنا أنْ نشيرَ إلى أولئكَ الذينَ يحسدونَ النَّاس علىٰ ما آتاهم اللهُ من فضْلِهِ ، ويفرحون إذا نزلتْ نائبةٌ بهم. وهذا ما حَدَثَ معي ، فقد حدثَ أنْ نُكِبْتُ مرَّةَ عام (١٩٩٠ م) في محنةٍ كبيرة ، وجاء بعضُ الأقرباءِ يسعىٰ شَامتاً شماتةً عجيبةً وقال في سخريةٍ أشدّ عجباً: لا تحزنْ على ما فاتك ولا يهمك ، سنسجّل اسْمَك في جمعيّةٍ خيريّة ، ثم قال في ضحكةٍ صَفْراء: هكذا الزّمنُ يا أستاذ. ومنَ العجيب أنَّ هذا الإنسان كانت تَصِلُه صِلاَتي مع أولادِه وزوجتهِ وأقربائِه!!. وكان جوابي له: السُّكوت.. فلا دواء للحَاسدِ والشَّامت... نعم لا دواء له إلا أنْ يفارقَ الحياة... ويُستراحَ منه.

وكان من المتوقّع منْ هذا القريبِ الحاسدِ وأمثالهِ أنْ يواسيَ ويعملَ ما يعملُ الكُرماء في مثلِ هذه المواقف... ولله دَرُّ القائل:

وإنَّ أولىٰ البرايا أنْ تواسيه ... عند السُّرور لمن واسَاكَ في الحزنِ
إنَّ الكرامَ إذا ما أَيْسَروا ذكروا ... مَنْ كانَ يألفهُم في المنزلِ الخشنِ

* فقد كانَ هناك طائفةٌ منَ الشُّعراء قد تأثروا بهذه المأساةِ الأليمةِ القاسيةِ الحاقِدةِ ، وكانوا مثالَ الوفاءِ ، ومنهم : ابنُ حمديس الصّقلّي ، وأبو بكر بن اللبانة ، وأبو بحر بن عبد الصّمد ، وغيرهُم ، فقد توجَّعَ هؤلاء جميعاً للصَّداقةِ المندثرةِ التي تلاشَتْ بمأساةِ المعتمد ، حتى إنَّ ابن اللبانة ذكَر المراسلات بينه وبينَ المعتمد فقال : وجَرَتْ بيني وبينه مخاطبات ألذّ منْ غَفَلاتِ الرّقيب ، وأشهىٰ من رشَفات الحبيب ، وأدلَّ على السَّماح ، من فجر الصَّباح .

* وبقيتِ الآثارُ والسَّجايا المعتمدية ، والقَصَصُ الرّميكيّة ماثلةً عاطرةً في نفوسِ الأَماثِل ، بل ظلَّ الأكابرُ والأُصَلاَءُ يلهجونَ بالثَّناءِ علىٰ المعتمد ، ولا ينسونَ معروفَه حتى وهو تحتَ التُّراب مدفون ، بل سَرَتْ محبتُه إلى الأماثِل منْ بَعْدُ ، وزاروا قَبْره وقبر الرّميكية[1] ، وكان ممن زارَ قبره وقبرها الوزير الأندلسيّ والكاتب والعَالم لسانُ الدِّين ابن الخطيب ، حيث نَقل عنه المقّري في «النَّفح» ما صورتهُ :

* قال لسانُ الدِّين بنُ الخطيب ـ رحمه الله تعالى : وقَفْتُ علىٰ قبرِ المعتمد بن عبّاد بمدينةِ أغماتَ في حركةِ راحةٍ أعملتُها إلى الجهاتِ

= ولم يكنْ هذا الرجلُ من الكرام وقد وَرِثَ أبناؤه عنْهُ ذلك ، فلا باركَ اللهُ في اللؤم وأهله .

(١) لما ذهبتْ دولةُ المرابطين بعد موتِ المعتمد والرميكيّة ، ومضى نحوٌ من أربعينَ عاماً ، غدا قبرُ المعتمدِ بن عباد ، وقبرُ زوجتهِ اعتماد الرميكيّة في أغمات مَزَاراً يأتي إليه الوافدون منْ أنحاءِ المغرب والأندلس ، واستمرَّ ذلك حتّى زاره لسانُ الدِّين بنُ الخطيب سنة (٧٦١ هـ) ، والمقّري سنة (١٠١٠ هـ) .
كما زارَ قَبْرَ المعتمدِ والرميكية عددٌ منْ الأماثل فيما بعد ، وقد أضحىٰ كومةً منَ الأحجارِ المتناثرةِ تحفُّ بها الأعشابُ البرية ، لكنَّ مآثر هذَيْن العلمَيْن الكريمَيْن ما تزالُ ربوةً خضراءَ في قلوب عشّاق الأدبِ والشِّعْر ، وفي نفوسِ عشّاقِ الكَرَمِ والسَّماحَةِ والنَّدىٰ والجودِ ومكارمِ الأخلاق .

المراكشيّة ، باعثها لِقاءُ الصَّالحين ، ومشاهدةُ الآثار سنة (٧٦١ هـ) ، وهو بمقبرة في نَشَزٍ منَ الأرضِ ، وقد حفَّت به سِدْرة ، وإلى جانبه قَبْر اعتماد حظيّته مولاةُ رُميك وعليهما هيئةُ التغرّب ، ومعاناةُ الخمول بعد المُلْك ، فلا تملكُ العين دمْعَها عند رؤيتها ، فأنشدتُ في الحال:

قَدْ زُرْتُ قَبْركَ عنْ طَوعٍ بأَغْماتِ   رأَيْتُ ذَلك مِنْ أَولىٰ المُهِمَّاتِ
لِمْ لاَ أَزُورُكَ يَا أنْدىٰ المُلُوكِ يَداً   وَيَا سِرَاجَ اللّيالي المُدلَهِمّاتِ
كَرمْتَ حيّاً وَمَيتاً واشتُهِرتَ عُلاً   فَأَنْتَ سُلْطَانُ أَحْيَاءٍ وَأَمْواتِ[1]

* هذا وقد نَظَم لسانُ الدِّين بنُ الخطيب في كِتابه «رقم الحُلل» ملوكَ الطوائف ، وعرَّج على ذكْرِ المعتمد ودولته في إشبيليةَ ، ـ حمص المغرب ـ فقال:

وَقَامَ في حِمْص بنُو عَبَّادِ   وفَضْلُهم مثْلُ الصَّباحِ البَادي[2]
ثانيهُمُ عبّادُ ثمَّ المُعْتَمِدْ   وهو الذي في النَّظْمِ والنَّثْرِ حُمِدْ
وماتَ في أَغْماتَ لمّا غُرِّبَا   منْ بَعْدِ خَلْعٍ واعتقَالٍ وسِبا[3]

* هذا وقد زارَ المقّري أيضاً قَبْر المعتمد والرّميكيّة تأسياً بالوزيرِ لسان الدِّين بنِ الخطيب فقال: وقد زُرْتُ أنَا قَبْر المعتمد والرميكيّة أمّ أولاده ، حين كنْتُ بمراكشَ المحروسة عام (١٠١٠ هـ) ، وعُمِّي عَليَّ أمْرُ القَبْر المذكورِ ، وسألْتُ عنه مَنْ تُظَنُّ معرفتهُ له ، حتّى هداني إليه شَيخٌ طَعَنَ في السِّنِّ وقالَ لي: هذا قَبْرُ مَلِكِ مُلوكِ الأندلس ، وقَبْرُ حظيّته التي كان بحبِّها خفّاقاً غيرَ مطمئن. فرأيتهُ في ربوةٍ حسبما وصفَه ابنُ الخطيب ـ رحمه الله تعالى ـ في الأبياتِ ، وحَصَلَتْ لي منْ ذلك المحلِّ

---

(١) نفح الطيب (٥/ ٢٣٨ و٢٣٩) و(٩/ ٢٢٠) بتصرف واختصار في الأبيات.
(٢) «حمص»: هي إشبيليةُ هنا ، وذلك أنَّ بني أميّة لما ملكُوا بالأندلس سمّوا عدةَ مدنٍ فيها بأسماء مُدن الشّام.
(٣) رقم الحلل في نظم الدول (ص/ ١٦٧) ط دمشق ١٩٩٠ م.

خشيةٌ وادّكار ، وذهَبَتْ بي الأفكارُ في ضُروب الآياتِ ، فسبحانَ مَنْ يؤتي مُلْكَه مَنْ يشاء ، لا إله غيره وارثُ الأرض ومَنْ عليها وهو خيرُ الوارثين[1] .

* وبعد ـ أعزائي وأحبابي ـ فهذه الرّميكيّةُ المرأةُ الأندلسيّةُ التي ملأَتْ دنيا المعتمد ، ودنيا إشبيليةَ وشَغَلَتِ النَّاسَ ، فهل تظلُّ سيرتُها تملأُ الدنيا؟! وهل يكونُ في سيرتها عبرةٌ وعِظةٌ وفائدةٌ من بين نساءِ الأندلس؛ لنساءِ المشرقِ العربي ، بل ولنساءِ الدّنيا؟!! . . .

* * *

(١) نفح الطيب (٥/٣٥٧). ومنَ الجدير بالذّكْر ، أنَّ قبرَ المعتمد بن عبَّاد ـ ورميكيته ـ ما يزالُ إلى هذا الوقتِ في ربوةٍ عاليةٍ قُربَ مرّاكش بالمغرب العربيّ ، والطّريقُ إليه وعرةٌ صعبةُ المَسْلَك. وفي سنةِ (١٩٦٢ م) أمَرَ الملكُ الحسنُ الثّاني ملكُ المغرب بتجديد القَبْر ، وتمهيد الطَّريق إليه ، وذلك تعويضاً للملك الشَّاعر المعتمدِ عنْ بعضِ ما نَاله حيّاً وميتاً ، وذلك بعد قرابةِ تسعة قرون منْ محنتهِ المؤثّرة الخالدة في نفوسِ النَّاس وعشَّاق الأدب وشُداة الكرم.
ومن الطَّريف أَنْ نشيرَ إلى أنَّ مَلِكَ شعراء العَصْر الجاهلي وأميرهم امرأ القيس قد دُفِنَ إلى جانبِ امرأةٍ غَريباً ، وكذلك المعُتمد دُفن إلى جانب امرأةٍ غريباً.

أُمّ الحسن الطنجالي

* قارئة مجيدة للقرآن الكريم ، شاعرة ، أديبة ، كأنها مكتبة علم وخزانة أدب وفَهْم .
* ذات معرفة واسعة بالخط .
* طبيبة ، عالمة ، أخذت من كل علم بطرف .

أمّ الحسن الطّنجالي

* هذهِ امرأةٌ منْ نساءِ الأندلسِ في العَصْرِ الغابر ، وقد جَمَعَتْ منَ العُلُوم أَلواناً ، ومنَ الفُنونِ أَفْناناً ، كأَنَّها مَكْتُبةُ عِلْمٍ وخزانَةُ أدبٍ وفَهْمٍ ، يُضافُ إلى ذلك كلِّه أنَّها نبيلةٌ حسيبةٌ ذاتُ أَصْلٍ كريمٍ في غِراسِ المعَالي.

* فهيَ قارئةٌ تجيدُ قراءةَ القُرآنِ الكريمِ وتجويدَه ، وربّما تعرفُ كَثيراً منْ عُلومِهِ؛ يُضَاف إلى ذلك أَنَّها كانتْ طَبيبةً وتشارِكُ في فُنون الطِّبِ ، من مبادىء غريبةٍ ، وإقراءِ مسائلِ الطِّبِّ.

* وكانتْ هذهِ المرأةُ مشاركةً في كثيرٍ منَ الفُنُونِ ، فهي شاعرةٌ وأديبةٌ منْ شاعِراتِ لَوْشةَ.

* ومنَ الجديرِ أنَّ مدينة لوشة هذه ، مدينةٌ قد أنجبتِ الكُبَراءَ والعُلماءَ ، ومنها ابنُها الكبيرُ الشُّهرةِ لسانُ الدِّين بنُ الخطيب صاحبُ كتاب «الإحاطة في أَخْبار غَرنَـاطَـة» ، وتقعُ لَوْشَة غربي مدينةِ غرناطةَ على قيد نحو خمسينَ كَيْـلاً منها ، على الطّريقِ الممتدّ من غرناطةَ إلى أشبيليةَ ، وقد كانتْ أيّامُ الدَّولةِ الإسلاميّةِ منْ مدنِ الإسلام الزَّاهرةِ ، وسَقَطَتْ في أيدي الـقَشْتـاليّين ، خلالَ حَرب غرناطةَ الأخيرة ، في شَهْرِ جُمادى الأولىٰ سنة (٨٩١ هـ) بعد دفاعٍ مجيد.

* أمّا اليومُ فإنَّ لوشةَ مدينةٌ إسبانيّةٌ متوسطةُ الحجْمِ ، ذاتُ شوارعَ كبيرةٍ ، وتقومُ بعضُ مبانِيْها فوقَ ربوةٍ صخريةٍ عاليةٍ ، ويقومُ بعضُها الآخرُ في منخفضِ الوادي ، ويخترقُها نهرُ شِنّيل منَ الشّمال.

* أمّا عددُ سكّان لوشةَ في هذهِ الأيّام فيبلغُ نحو عشرين ألفاً ، بيد أنَّهم كانُوا في أيّام الِدَّولةِ الإسلاميّةِ الأندلسيّةِ يبلغونَ أَضْعافَ هذا العَدد.

* وأمّا ابنةُ لوشة التي نَحْفَلُ بترجمتِها فهي أمُّ الحسَنِ بِنْتُ القَاضِي أَبي جَعْفَرَ الطَّنْجالي[1].

* ولعلَّ أباها أَبا جعْفَر الطَّنْجالي هو نفْسُه أحدُ شيوخِ لسان الدِّين بن الخَطيب[2]؛ وابنُ الخطيبِ منْ علماءِ وأدباءِ القرنِ الثَّامن الهِجريّ ، ومنْ هنا نستخلصُ بأنَّ أمَّ الحسنِ بنتَ أبي جعْفَر الطَّنجالي ممنْ عاشَ في القَرنِ الثَّامنِ الهجريّ ، لأنَّ ابنَ الخطيبِ صاحُب «الإحاطة» لم يذكرْ لنَا مَولدَها أو شيئاً عن بدايةِ حياتها ولا عَنْ وفاتِها ، وإنّما أشارِ إلىٰ أنَّها منْ أَهْل لوشة[3]. كما ذكرَ بأنّها نبيلةٌ حسيبةٌ[4].

* وأفادَ لسانُ الدِّينِ بنُ الخطيب بأنَّه قد ذكَرها في خاتمةِ كتابه «الإكْليل» بما نصّه: أمُّ الحسنَ بنتُ أبي جعفرَ الطَّنجالي.... «ثالثةُ حَمْدة[5] وولاّدة[6] ، وفاضِلَةُ الأَدبِ والمجادة ، نشأَتْ في حجْرِ أبيها ، لا يدّخرُ عنها تدريجاً ولا سَهْماً ، حتى نهضَ إدراكُها ، وظهرَ في المعرفةِ

---

(١) انظر: الإحاطة في أخبار غرناطة (١/ ٤٣٠ و٤٣١) ، وأعلام النّساء (١/ ٢٥٩ و٢٦٠).

(٢) ذكر المقري في نفح الطيب (٨/ ١٤٩) أن أبا جعفر الطنجالي من شيوخ ابن الخطيب.

(٣) الإحاطة (١/ ٤٣٠).

(٤) الإحـاطـة (١/ ٤٣٠) ، والطّنجاليـون ذوو حَسَب ونَسَبٍ ، فهم يُنْسَبُون إلى جعفرَ بنِ أبي طالب ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ فهم من النبعة الهاشمية ، لذا فإن ابنَ الخطيب قد أشَارَ إلى هذا.

(٥) «حمدة»: أي حمدة بنت زياد المؤدب الشاعرة الشهيرة. واقرأ سيرتها في هذا الكتاب.

(٦) «ولادة»: يقصد ولادة بنت المستكفي ، واقرأ قصتها وحقيقتها في هذا الكتاب.

حِراكُها، ودرّسَها الطِّبَّ فَفَهِمَتْ أغراضَه ، وعلمتْ أسبابَه وأعراضَه»[1] .

* ومن خلال هِذا الخبر يتبيَّنُ لنا بأنَّ والد أُمِّ الحسَنِ قد عُنِيَ بابنَتِه عِنَايةً فائقةً ، فكانَتْ أديبةً طبيبةً عالمةً أَخَذتْ مِنْ كُلّ عِلْمٍ بطَرفٍ وَأَجَادَتْه .

* وعندَما تعرَّضَ ابنُ الخطيبِ إلىٰ ذكْرِ شعْرِها قال منوّهاً عَنْ معرفتها الواسعةِ به ، وعن حديثِ أبيها عَنْها ما نصُّه: ولمّا قدمَ أبوها منَ المَغْرِب ، وحدَّثَ بخبرِها المُغْرِب ، توجَّه بعضُ الصُّدورِ إلىٰ اختبارِها ، ومطالعةِ أخْبَارِها ، فاسْتَنْبَلَ أغراضَها واستحسنَها ، واستظرفَ واستطربَ لَسِنَهَا ، وسألَها عنِ الخَطِّ ، وهو أكْسَدُ بضاعة جُلِبَتْ ، وأشحُّ درّةٍ حُلِبَتْ ، فأنشدَتْه من نَظْمِها:

الخَطُّ لَيْسَ لَه في العِلْمِ فائِدةٌ ... وإنَّمـا هُـو تَـزييـنٌ بقـرطَـاسِ
وَالدَّرْسُ سُؤْلِيَ لا أَبغي بهِ بَدلاً ... بِقَدْرِ علْمِ الفَتى يَسْمو علىٰ النّاسِ[2]

---

(١) الإحاطة (١/ ٣٠).

(٢) الإحاطة (١/ ٤٣٠ و٤٣١).

وَلكنَّ هذَا الرَّأيَ في الخطِّ وَأنَّه تزيّينٌ وتنميقٌ يعبّر عَنْ نَظْرةِ أمّ الحَسنِ هذِه إلىٰ الخَطّ ، بِيدَ أنَّ الوزيرَ الكاتبَ أبا حَفْص بنَ بُرد الأَصْغَر الأندلسيّ الذي كَانَ في وقْتِه فَلَك البلاغةِ الدّائر ، ومَثَلها السَّائر يقولُ مِن فِقَر له في وصْفِ القَلمِ والمدادِ والكتابِ والخطّ أشياء تسرُّ النّاظرين وتبهج المتعلّمين.

فاسمعْ إليه حيث يقول: ما أعجبَ شأنِ القَلمِ ، يشربُ ظلمةً ، ويلفظُ نوراً.

ويقول: علىٰ غيثِ القَلَمِ يتفتّحُ زَهْر الكلم.

ويقول: ما أصوغَ القَلم لَحَلي الحِكَم!!.

ويقول: فسادُ القَلمِ خَدَرٌ في أعضاءِ الخطّ.

ويقول: رداءة الخطّ قذىً في عينِ القَارىء.

(الذخيرة ١/ ٣٠٨) بتصرف طبعة بيروت.

إنَّ جمالَ الخطِ يدلُّ على جمالِ اللغة العربيّة ، فكم تبارىٰ الخطّاطون علىٰ مدار التّاريخ في إظهارِ إبداعِهم في الخطّ ، وكم تبارىٰ أعلياءُ هذا الفنّ في مشْقٍ كثير =

* ويبدو أنَّ لأمِّ الحسَنِ أَشْعاراً أخرىٰ في مجالاتٍ شتّى ، ولكنَّ ريْشَةَ لسانِ الدِّينِ بنِ الخطيب لم ترسمْ لها سوىٰ هذَيْن البيتَيْن في غَرضِ المَدْحِ لمن يسمّى «رضْوان» :

إنْ قِيْلَ مَنْ في النَّاسِ رَبُّ فَضيلَةٍ   حَـازَ العُـلاَ وَالمجـدُ مِنْـهُ أَصيْـلُ
فـأَقُـولُ رضْـوانٌ وَحيـدُ زَمَـانِـهِ   إنَّ الـزَّمَـانَ بمثْلِـهِ لَبَخيـلُ[1]

* وبهذَيْن البيتَيْن يكونُ ختامُ اللقاءِ مع أُمِّ الحسَنِ الطَّنجاليّةِ ، حيث إنَّ المصادرَ قد بَخِلَتْ علينا بكثيرٍ منْ ألوانِ معرفتِها ، وظلَّتْ في ذاكرةِ التَّاريخِ ، لكنَّنا عرفْنَا واحدةً من نساءِ الأندلسِ اللواتي تركْنَ أَثارةً في تاريخ النِّساء .

* * *

= من الآيات التي تعتبرُ آية من آيات الجمالِ ، في هذا المجال .

(١) الإحاطة (١/ ٤٣١) ، وأعلام النساء (١/ ٢٦٠) .

أُمّ السعد القرطبية

* ذات يد طولى في البلاغة ، والفضل ، والخير .
* محبة للعلم والأدب والرواية وعلوم الدين .
* لها نفحات شعرية رائعة .

أمّ السّعد القرطبيّة

لم تكُنِ النِّساءُ الأندلسيّاتُ مقصوراتٍ علىٰ قَرْضِ الشّعْر فحسب ، وإنّما كانَ منهنَّ طَبيباتٌ ومعلماتٌ وشاعراتٌ وأديباتٌ مربّياتٌ ، بالإضافةِ إلىٰ العالِماتِ والرَّاويات لِلعلْمِ.

* وكانتِ الحركةُ الأدبيّة والشّعريةُ النَّسويةُ قد قامَتْ بما جادَتْه قرائِحُ الحرائِرِ منَ النّساء ، بينما انصرفَت الجواري إلىٰ الغناءِ وروايةِ بعضِ الأخبارِ والأَسْمَار.

* وقد ظهرتْ في الأندلسِ جملةٌ منَ النِّساء اللاتي كانَ لَهُنَّ اليدُ الطُّولىٰ في البلاغةِ ، والأدبِ ، والمعرفةِ ، حيث لم يكنْ ذلك مقْصُوراً ومقْتَصِراً علىٰ جماعةِ الرِّجال.

* قال المقّريُّ بَعْدَ أنْ تحدَّثَ عن جُملَةٍ منْ مشَاهيرِ رجالِ الأندلس وأعلامِ نبلائِهم: رأَيْتُ أَنْ أذكُرَ جملةً منْ نساءِ أهلِ الأندلسِ اللاتي لهنَّ اليدَ الطُّولىٰ في البلاغَةِ ، كي يُعْلَمَ أنَّ البراعَةَ في أهلِ الأندلسِ كالغريزةِ لهم ، حتّى في نسائِهم وصبيانِهم[1].

* ثمَّ إنَّه يورِدُ سِجلاًّ حافِلاً بأَسْماءِ النِّساء بدأَ فيهِ بذكْرِ هذه المرأة التي نضمُّها إلىٰ سِلْكِ دُرَرِ نساءِ أهلِ الأندلسِ ، ممن كان لهنَّ في تاريخهِ نَصيب.

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٢٩٩ و٣٠٠).

* افتتحَ المقّريُّ سِجلَّه بتسجيلِ اسمِ ضيفتِنا فقال: فمنَ النِّساءِ المشْهُوراتِ بالأندلسِ: أمُّ السَّعْدِ بنتُ عِصَام الحِمْيَرِيّ[1]، من أهلِ قُرطبةَ، وتُعْرَفُ بِسَعْدونَةَ.

* وذكرَها السُّيوطيُّ في «نُزْهَتِهِ» فقال: أمُّ السَّعْدِ بنتُ عصام بنِ أحمدَ ابنِ محمّد بنِ إبراهيم بنِ يحيىٰ الحِميريّ منْ أهْلِ قرطبةَ، وتُعرَفُ بسعدونَةَ[2].

* ويظهرُ لنا منَ الأَخْبارِ الضَّامِرةِ التي وصلتْنَا عن أمِّ السَّعْدِ هذه أنَّها نَشَأَتْ مُحِبَّةً للعِلْمِ والأَدَبِ والرِّوايةِ وعلومِ الدِّين. حيثُ يذكرُ المقّري بأنَّ لها روايةً عن أبيها عصام، وعن جدّها أحمدَ[3]، ونَقَلَ السُّيوطيُّ في «نُزْهَتِه» عن البدر النّابلسيّ أنَّه قال في «التَّذييل»: لها روايةٌ عن أبِيْها وجدِّها وغيرِهِما من أَهْلَ بِيتها[4].

* كانتْ أمُّ السَّعْدِ هذه منْ أهْلِ قرطبةَ، وكما نَعْلَمُ أنَّ النِّساءَ القرطبيّاتَ كُنَّ يتعلَّمْنَ ويتفقهْنَ في الدِّين، ويدرسْنَ الأدَبَ، وكان كثيرٌ من الأُمراءِ وأعلياءِ القوم وأعيانِهم يحرِصونَ علىٰ تعيين مؤدّباتٍ عالماتٍ قارئاتٍ لبناتِهم، كيما يُعلمنَهُنَّ أَطْرافاً منَ الأَدَبِ وعلوم الدِّين، وطُرُفاً منَ الأَخْبارِ والسِّيَرِ التي تهذِّبُ النُّفوسَ، وكانَ بعضُ هؤلاءِ النِّسوة شَاعراتٍ أَديباتٍ منْ مثْلِ: مريمَ بنتِ أبي يعقوبَ الأَنْصَاريّ التي عشْنا مَعَها بينَ ثنايا هذه الموسوعَة، وكذلك حَفْصَةَ بنةِ الحاجِ الرّكونيّة التي

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٣٠٠)، وانظر: أعلام النساء (٢/ ١٨٤).
(٢) انظر: نزهة الجلساء في أشعار النساء (ص ٢٢).
(٣) نفح الطيب (٦/ ٣٠٠).
(٤) نزهة الجلساء (ص ٢٢) ولعلَّ المقصودَ منْ قولِهِ: «وغيرُهما منْ أهلِ بيتها» أنّها روتْ عن خالَيْها: عامر وأبي بكر ابني هشَام بن عبد الله الأزديّ.

كانت مؤدّبةً لبناتِ عبدِ المؤمنِ بنِ عليّ سُلطانِ الموحِّدين ـ كما قرأنا ذلك في سيرتها في هذا الكتاب ـ.

* قُلنا: إنَّ أمَّ السَّعْدِ هذه نَشَأَتْ نشأةً دينيةً، ويبدو أنَّها استظهرتِ السِّيرةَ النَّبويّةَ الشَّريفةَ، وأحبَّتْ أخبارَ النَّبيِّ ﷺ وأحواله الشَّريفةَ، وكانت تحرِصُ علىٰ معرفةِ شمائلِه ﷺ، فقد وَرَدَ أنَّها أنشدَتْ لنفسِها في تِمثَالِ نَعْلِ النَّبيِّ ﷺ تكملةً لقولِ مَنْ قَال:

سَـأَلْثُـمُ التِّمثَـالَ إِذْ لَـمْ أَجِـدْ   لِلَثْـم نَعْـلِ المُصْطَفَـى مِـنْ سَبِيْـل

فقالتْ مذيّلةً علىٰ البيتِ السَّابق:

لَعَلَّنِـي أَحْظَـىٰ بِتَـقْبِيْلـهِ   فـي جَنَّـةِ الفِـردَوسِ أَسْنَـى مَقِيْـل
فـيْ ظِـلّ طُـوبـىٰ سَـاكِنـاً آمِنـاً   أُسْقَـىٰ بـأكْـواسٍ مَـن السَّلْسَبِيْـل
وَأَمْسَـحُ القَلْـبَ بِـهِ عَلَّـهُ   يُسَكِّـنُ مـا جَـاشَ بِـهِ مِـنْ غَلِيْـل
فَطَـالَمـا اسْتَشْفَـى بـأطْـلالِ مَـنْ   يَهْوَاهُ أَهْل الحبِّ في كُلّ جِيْل[١]

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّه كانَ بقرطبةَ مئاتُ النِّساءِ اللواتي نشَأْن نشأةً دينيةً وكُنَّ خيِّراتٍ فاضلاتٍ منْ مثل: فاطمةَ بنتِ يحيى بنِ يُوسُفَ المُغَامي، التي تُشْبِه بأعْمالِها أُمَّ السَّعْد.

* ويذكرُ المقّريُّ بأنَّ أمَّ السَّعدِ لها نَفَحاتٌ شعريّةٌ أخرى، فيقول: أَنْشَدني ابن جابر الوادي آشي عن شيخِه المحدِّث أبي محمّد بنِ هارون القُرطبيّ لجدّتِهِ سَعْدونة، وأظنُّها هذه:

آخِ الـرِّجَـالَ مِـنَ الأبَـا   عِـدِ وَالأَقَـارِب لا تُقَـارِب
إنَّ الأَقَـارِبَ كَـالعَقَـا   رِبِ أو أَشَـدَّ مِـنَ العَقَـارِب

---

(١) فاطمةُ بنتُ يحيىٰ بنِ يوسُف المغامي أختُ الفقيهِ يُوسُفَ بنِ يحيى المغامي، كانت خيِّرةً فاضلةً، عالمةً فقيهةً، استوطنتْ قرطبةَ وبها تُوفيت سنَة (٣١٠ هـ) ودُفنَتْ بالرَّبَضِ، وكان لها أحوالٌ غريبة.
(الصلة ٢/ ٦٥٣) و(الحلل السندسية ٢/ ٣٠).

ورأيتُ نِسْبَةَ البيتَيْن لابنِ العميد ، فالله أَعْلَم[1] .

* إذاً فالبيتانِ منْسُوبان لأُمّ السَّعْد ، ولَيْسَا منْ نَظْمِها ، بل إنَّ رائحةَ الرّجُولةِ والذّكُورَةِ تفوحُ منْهُما ، وتنمُّ عن أنَّهما منْ نَظْمِ الرِّجال؛ وقد ذكرَ ابنُ خَلّكان أنّهما لابنِ العميد فقال ما نصُّه: «وذكَرَ لَهُ ـ أي لابن العميد ـ الأميرُ أبو الفَضْل الميكالي في كتاب «المُتنخَّل»: آخِ الرِّجال منَ الأباعد. . . الخ . . »[2] .

ومَن المعروفِ أَنَّ ابنَ العميدِ أسْبَقُ وفاةً منْ أمِّ السَّعْدِ ، بحوالي ثلاثة قرون ، لأنَّ ابنَ العميد توفيَ سنةَ (٣٥٩ هـ) وأم السَّعدِ توفيتْ بمالقَةَ حوالي سنة (٦٤٠ هـ) .

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ هذَيْن البيتَيْن: «آخِ الرِّجال. . » لهما أثرٌ كبيرٌ وغورٌ بعيدٌ في الأدبِ العَربيّ ، وقد عُرِفَتِ العَداوةُ بينَ الأقاربِ في الشِّعرِ والنَّثرِ ، وممّا قيلِ شعْراً في هذا المجال:

أَقَـارِبَـكَ الأَبَـاعِـدَ فَـاجْتَنِبْهُـم ... وَلاَ تَـرْكَـنْ إِلَـىٰ عَـمٍّ وَخَـالِ
فَكَـمْ عَـمٍّ أَتَـاكَ الغَـمُّ مِنْـهُ ... وَكَـمْ خَـالٍ مِنَ الخيرَاتِ خَـالـي

* وَعَنْ أسبابِ العداواتِ يقولُ سهلُ بنُ هارون لرجلٍ شَكا إليهِ عداوةَ رجل: العداوةُ تكونُ منَ المشاكَلةِ والمناسبةِ والمجاورةِ واتِّفاقِ الصَّنائع ، فمن أيّها مُعَاداته لَك[3]؟

* وقيل لشبيبِ بنِ شَبّة: ما بالُ فُلان يُعَاديك؟ فقال: لأنَّه شقيقي في

---

(١) نفح الطّيب (٦/ ٣٠٠) ، والحقيقةُ إنَّ البيتَيْن منسوبان لابنِ العميد كما في يتيمة الدّهر للثّعالبي (٣/ ١٨٣ و١٨٤) .

(٢) انظر وفيات الأعيان (٥/ ١٠٩) .

(٣) محاضَراتُ الأدباء (١/ ٢٥١) ، هذَا وَكلُّ العَداوَاتِ ممكن أَنْ يكونَ لها حَلّ إلا عداوَة الحسَد ، قال الشّاعر:

كـلُّ العَـداوةِ قَـدْ تُـرجـىٰ إمَـاتتُهـا ... إلاّ عـداوةَ مَـنْ عَـاداكَ مِـنْ حَسَـدِ

النَّسب ، وجاري في البَلد ، ورفيقي في الصِّنَاعة[1].

* وعن عداوةِ الأقارب قيل: عداوةُ الأقاربِ كالنَّار في الغَابةِ.

* وقيل: عداوةُ الأقاربِ كَلَسْعِ العَقاربِ.

* وسُئِلَ بعضُهم عن بني العمّ فقال: هُم أعداؤُك وأعداءُ أعدائِك.

* والحقيقةُ فهذا بابٌ طويلٌ اكتفينَا بذكْرِ شَذراتٍ منه ، ونعودُ إلى أُمِّ السَّعْد لنودّع إحدىٰ نساءِ الأَندلُس اللواتي عشْنَ في القرنِ السَّابع الهجريِّ ، وكُنَّ منْ فاضِلاتِ النِّساءِ ، فرحمَ اللهُ أمَّ السَّعْدِ ، وأدخَلها جنّات عَدْن ، إنَّه سميعٌ مجيب.

* * *

أُمّ العلاء الحِجاريّة

* نابهة ، نابغة ، شاعرة ، أندلسية .
* فاتنة الجمال ، مليحة ، محطّ أنظار الخاطبين .
* لها شعر غزلي يرقى ذروة الجمال الفني .

أمّ العلاء الحجارية

مِـنْ نَـابِـغَـاتِ الأَنْـدَلُـسِ:

* في وَادي الحِجارة بالأندلسِ قربَ طُليطلة ، نبغَتْ أمُّ العلاءِ بنتُ يوسُفَ بنِ حرز المجليّ الحِجاريّةِ الأنْدلسيّةِ[1] ، التي كانَتْ منْ نابهاتِ ونابغاتِ الشَّاعراتِ الأندلسيّات وممَّنْ يفخرُ بها بلدُهَا ومصْرُها وعَصْرُها.

* ووادي الحجارة[2] هذا قد أنجبَ عدَداً كبيراً من الشَّاعِراتِ والأديباتِ ، منْ أشهرهنَّ: حفصةُ بنتُ حمدون[3] ، وضيفةُ اليومِ أمُّ العلاء بنتُ يوسُف ، وغيرهما ، كما أنَّ هذا الوادي الخصبَ قد أنجبَ عدداً منَ الأماثلِ والعُلماء والأدباءِ والنُّحاة والأعيانِ والفرسانِ والوزراءِ وأعلام الكُتَّاب.

---

(١) المغرب (٢/ ٣٨) ، ونفح الطيب (٥/ ٣٠٢) ، والدر المنثور (ص ٥٤) ، وأعلام النساء (٣/ ٣٢٧ و٣٢٨) ، وشاعرات العرب (ص ٢٥٨) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٤٣ و٤٤) ، ونزهة الجلساء (ص ٢١ و٢٢) بتحقيق عبد اللطيف عاشور ، مكتبة القرآن ، القاهرة. وغيرها.

(٢) «وادي الحجارة»: يسمّى وادي الحجارة أيضاً «مدينـة الـفَرج»؛ وقد ألّـفَ أبو بكر عيسى بنُ مزين الأندلسيّ المعروف كتاباً اسمه: مغناطيسُ الأفْكار فيما تحتوي عليه مدينةُ الفرج من النَّظم والنثر والآثار. ومدينة الفرج هي وادي الحجارة.

(٣) اقرأ ترجمتها في هذا الكتاب.

* فمنَ العلماءِ أبو محمّد القاسمُ بنُ عبد الرحمن الأوسيّ الذي سادَ بنفسه ، وكان متفنّناً في العُلوم ، وقال عنه ابنُ دحيةَ: صاحبُ لواءِ العربيّة ، وذو الأنسابِ السَّرية[1].

* ومنَ الأدباءِ الفرسانِ: الحسينُ بنُ عليّ بنِ شُعيب ، ومنْ أعيانِ الوزراء وأعلامِ الكتّاب والشُّعراء: عبدُ الملك بنُ غصنٍ الحِجاري[2].

* ومن وادي الحِجارة أيضاً جاحظُ المغربِ ، وصاحبُ كتاب «المسْهِب»: أبو محمد عبدُ الله بنُ إبراهيمَ الحجاري الذي قالَ عنْهُ والدُ ابنِ سعيد: وَبِمَ أَصِفُهُ وقُدْرَةُ اللِّسانِ لا تنصفُه[3].

---

(١) المغرب (٢/ ٢٦).

(٢) أبو مَروانَ عبدُ الملك بنُ غصنِ الحِجاري توفي سنة (٤٥٤ هـ) ، نكَبَهُ المأمونُ بنُ ذي النّون ، واعتَقَلَه مع جماعةٍ منَ النُّبهاء بوَبْذَة ـ وَبْذَةُ مدينةٌ بالأندلسِ وهي حِصْنٌ على وادٍ بقربِ أقليش ـ منْ أعمالِ طليطلة ، وكانَ سببُ نقمةِ المأمون بن ذي النون عليه صحبتُه لرئيس بلده ابنُ عبيدة ، وبلغَ المأمونُ أنَّه يقَعُ فيه كثيراً ، فنكبَه شرّ نكبة وحَبَسه ، فكتبَ إليه رسالةً في «صفة السّجن والمسجون ، والحزن والمحزون» دلّتْ على مكانتهِ منَ العِلْمِ والأدبِ والحفْظ ، وأودعَها ألف بيتٍ منْ شِعره في الاستعطافِ ، منها قولهُ:

أزاحَ الدّهرُ حلوَ الماءِ عنّي ... علىٰ ظمأ وأَسْقاني زعاقَهِ
وبالمرجوّ إنْ أظفرْ به منْ ... رَضا المأمونِ يُحلي لي مَذَاقهِ

ومنها:

إذا صارَ الهلالُ إلىٰ كمالٍ ... وتمَّ بهاؤُه فارقبْ محاقهِ
وإنْ جاءت عبوسَ الدهرِ يأتي ... علىٰ أثرِ البشَاشةِ والطّلاقَه

وقوله من قصيدة أخرى:

وخلٌّ يُسليني على بُعْدِ داره ... ويكشفُ من كرب المشوقِ المتيَّم
وَدَادِيَ موقوفٌ عليهِ وخُلّتي ... وفكري مشغولٌ به وتوهمي

(إعتاب الكتاب ص ٢١٨ و٢١٩).

(٣) المغرب (٢/ ٣٥ و٣٦).

* وممن برعَ في فنونٍ شتّى في وادي الحِجارةِ الطَّبيب أبو حاتم الحجاري ، فقد كانَ متقلّباً بينَ شاعرٍ وخطيبٍ وطبيبٍ وجندي(١).

* ومنَ الشُّعَراءِ الفَطَاحِل : الحسنُ بنُ حَسَّان السّنّاط ، شاعرُ زمانِه ، وواحدُ أوانِه ، وغيرهم كثيرون لا يُحْصَون.

* ومنْ ينابيع تلكم الثَّقافاتِ المتنوّعةِ في وادي الحجارة نَهَلَتْ أمُّ العلاء ابنةُ يوسُفَ عَذْب نميرِها ، فَغَدَتْ إحدىٰ شواعرِ وأديبات القرنِ الهجريّ الخامس في الأندلسِ ، حيث كانتْ شاعرةً لبيبةً فصيحةً أديبةً ، ذاتَ حسنٍ وجَمالٍ ، وأدبٍ وكَمالٍ ، ولها قصائدُ وموشحاتٌ جميلةٌ رائعةٌ.

* وقد أنجبَ القُرنُ الخامِس الهجريُّ ، عدداً من نجيباتٍ وشهيراتِ النِّساء الأندلسيّات ، في شتّى ألوانِ الفنونِ والعلوم ، فكان منهنَّ الأديباتُ والخطَّاطاتُ والشَّاعراتُ والعَالِماتُ؛ ومنْ هؤلاء النّسوةِ الأديباتِ والشَّاعراتُ الخطَّاطةُ صفيّةُ بنتُ عبد الله الرَّيي(٢) ، وفاطمةُ بنتُ زكريا بنِ عبد الله الكاتب(٣) ، وأمَةُ الرَّحمن بنتُ أحمد بنِ عبد الرحمن

---

(١) المغرب (٢/ ٣٦ و٣٧).

(٢) صفيَّةُ بنتُ عبدِ الله الرَّيّي ، أديبةٌ شاعرةٌ موصوفَةٌ بحسنِ الخَطِّ وجَمالِه ، عابتِ امرأةٌ خطّها فقالتْ:

وعَـائبـةٍ خطّـي فقلـتُ لهـا اقْصـري	فسوفَ أريكِ الدُّرَّ في نَظْمِ أَسْطُري
ونـاديـتُ كفّـي كـي تجـودَ بخطِّهـا	وقـرَّبْـتُ أقـلامـي ورقّـي ومحبَـري
فخطَّـتْ بـأبيـاتٍ ثـلاثٍ نظمتُهـا	ليبـدو لهـا خطّـي فقلـتُ لهـا انْظُـري

وهذه الشَّاعرةُ الأنيقةُ ، ذات المشاعرِ الرّقيقة ، لم تعشْ طويلاً ، فقد ودَّعتِ الحياةَ وهي في ميعةِ الصِّبا وزَهْر الشّباب ، فقد توفيتْ في آخر سنة (٤١٧ هـ) وهي دون ثلاثينَ سَنَة. (بغية الملتمس ص ٤٤٣) ترجمة رقم (١٥٨٦) ، و(الصلة ٢/ ٦٩٣) ترجمة رقم (١٥٣٣) مع الجمع والتصرف.

(٣) فاطمةُ بنتُ زكريا بنِ عبد الله الكاتب المعروف بالشَّبلاري مولىٰ بني أميّة. كانتْ =

الزَّاهدة[1] ، وإشراقُ السَّوداء العروضيْة[2] ؛ وغيرهن كثيرات .

قِصَّتُهَا مع الأَشْيَبِ الخَاطِبِ :

* تظهرُ لنا في حياةِ النِّساءِ الأندلسيّاتِ بعضُ الوقْفَاتِ اللطيفةِ الجميلةِ ، وفي حياةِ ضيفتنا أمِّ العلاءِ وقفةٌ آسرةٌ تسترعي الانتباهَ ، وتفصحُ عن طبيعةِ الأُنْثى والأنوثةِ ، فقد كانتْ أمُّ العَلاءِ كغيرِها من فواتنِ النِّساء اللائي يكرهْنَ الشُّيَّبَ والمشيْبَ ، ويبدو أنَّ اللهَ قد حَباهَا مسحةً من الملاحةِ والجمالِ ، فكانت مهوىٰ آمالِ الخاطبين ومحطّ أنظارهم ، ومنَ الطَّريف أنَّ رجُلاً أشيبَ قد هَام بأمِّ العَلاء وشُغِف بها حبّاً ، وحاولَ بجميعِ الوسائِل والسُّبُل أنْ يلفتَ نظرها إليه ، إلا أنَّ شيبه ومشيبَه كان له بالمرصادِ ، وكان يفضحهُ[3] ، ويفصحُ عن شيخوخَتهِ ، ويصدُّ عنه

= كاتبةً جزلةً متخلّصَةً ، عُمرِّت عُمراً كثيراً ، واستكملتْ أربعاً وتسعينَ سنة ، تكتبُ على ذلك الكتبَ الطّوال ، وتجيدُ الخطّ ، وتحسنُ القَولِ؛ توفيتْ سلخَ جمادى الأولى سنةَ (٤٢٧ هـ) ، ودُفنَت بمقبرةِ أمّ سلمة ، وشهدها جَمعُ النّاسِ ، ماتَتْ بِكْراً ـ رحمها الله ـ (الصِّلَة ٢/ ٦٩٤) ترجمة رقم (١٥٣٦) .

(١) أَمَةُ الرّحمن بنتُ أحمدَ بنِ عبد الرحمن بن عبد القاهر العبسيّ الزَّاهدة ، روتْ عن أبيها ، وكانت صوّامة قوّامة ، توفيت بكْراً لم تُنكَحْ قَطّ ، وكانتْ وفاتُها في شهرِ شعبان سنة (٤٤٠ هـ) ، وعمرها نيف وثمانون سنة ـ رحمها الله ـ. (الصّلة ٢/ ٦٩٤) ، ترجمة رقم (١٥٣٥) .

(٢) إشْرَاق السَّوداء أو السُّويداء العروضيّة ، مولاة أبي المُطرّف عبدِ اللهِ بنِ غلبون ، سكَنَتْ بلنسيةَ ، وأخذتِ النَّحو واللّغة عن مولاها ، لكنْ فاقته في ذلك ، وبرعَتْ في العَروض ، وكانت تحفظُ «الكامِل» للمبّرد ، و«النّوادر» للقالي. قرأَ عليها أبو داود بن نجاح ، وماتَتْ بدانيةَ بعد سيِّدها في حدودِ سنَة (٤٥٠ هـ) . (بغية الوعاة ١/ ٤٥٨) ترجمة رقم (٩٣٩) .

(٣) ولله درُّ ابنِ الورديّ ، إذْ حلّق في هذا المعنىٰ وأجادَ فقال :

ظننْتُ أنَّ مشيبي ... يصدُّني عنْ هَواهَا
فَما نَهاني مشيبي ... عنْها ولكنْ نَهاهَا=

أمَّ العلاء وغيرها مِنْ حِسَان وادي الحِجارة ، ولما أوغلَ الرَّجُلُ في طلبهِ خطبة أمِّ العلاء ، تصدَّتْ له ، وصدَّت عنه ، وأرسلتْ إليه أنْ لا حاجةَ لها برجلٍ قد ضحكَ المشيبُ برأسهِ ، فهو يبكي علىٰ شبابِه كلّما رأىٰ شيْبَه ، ثمّ إنّها كتَبَتْ إليهِ ثلاثةِ أبياتٍ تجمع الدَّعابة والحكمةَ والدَّلالَ والإعراضَ والتَّوبيخَ ، والصَّدَّ ، كما أنَّ فيها نصيحةً له ، فقالت:

يا صُبْحُ لا تَبْدُ إلىٰ جُنْحي ... فالليلُ لا يبقىٰ معَ الصُّبْحِ
الشَّيبُ لا يُخْدَعُ فيهِ الصِّبا ... بحيلةٍ فاسمعْ إلىٰ نُصْحِي
فلا تكُنْ أَجْهَلَ مَنْ في الورىٰ ... يبيتُ في الجَهْلِ كَما يُضْحي[1]

* وهكذا فإنَّ الغَواني والمِلاحَ والحِسَانَ والجميلاتِ يَنْفُرْنَ من الشَّعْرِ الأبيضِ في الرَّأسِ والعارضَيْن ، ويكرهْنَ صاحِبَه ويُعرضْنَ عنه بالخدودِ النَّواضِرِ؛ وفي هذا المعنىٰ يقول أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله العتبي ، وهو من ولدِ عتبةَ بنِ أبي سُفيان:

رَأَيْنَ الغَواني الشَّيْبَ لاَحَ بِعَارضي ... فأَعْرَضْنَ عنّي بالخُدودِ النَّواضِرِ[2]

* وما دَمنا عند الحديثِ عن الشَّيْبِ والمشيب فلا بأْسَ أنْ نوردَ بعضَ الأشعارِ الجميلةِ في الجميلاتِ والتي قالها الشُّعراء الذين غَزاهم الشَّيْبُ ، وفي هذه الأشعار متعةٌ وفائدةٌ وفَنٌّ ، فقد كانَ بعضُ النَّاسِ يلجأُ

= (ديوان ابن الوردي ص ٢٠٧) طبعة دار القلم بالكويت ١٩٨٦ م.

(١) نفح الطيب (٥/ ٣٢٠) ، وشاعرات العرب (ص ٢٥٨) ، ونزهة الجلساء (ص ٢٢) ، و«الجُنْح»: بضمّ الجيم منَ الليل: جانبٌ منه. وأمّ العلاء ، ترىٰ في الشّيب معركةَ النَّهار معَ الليلِ ، حيثُ يزول سوادُ الشَّعْر ليحلَّ محلّه بياض الشيّب ، وتنصحُ لهذا العاشقِ الأشيبِ بألّا يتصابىٰ وهو يحاولُ إخفاء شَيْبه بالمراوغَةِ والأصْباغِ ، فتلكم حِيَلٌ يدركُها الصَّبيُّ والجاهِل ومَنْ يظنُّ بأنَّه يستطيعُ أنْ يخدعَ غيرَه ، إنَّ الذي يفعلُ هذا ، فإنَّه يبيتُ في الجَهْل كما يُمْسي ويُضحي.

(٢) هذا البيتُ من شواهدِ ابنِ عقيل علىٰ ألفيّةِ ابنِ مالك؛ والشَّاهد فيهِ قولُه: «رأيْنَ» حيثُ أَلْحقَ به نون النّسوة؛ ولغةُ الجمهور أنْ يقولَ: رأتِ الغَواني الشَّيْبَ. . . .

إلىٰ الخِضَاب ليمحوَ آثار الشَّيب ويستره ، إلا أنَّ ثلاثة أيّام فَقْط كافيةٌ لأنْ تَفْضَحَه وتفصحَ عن حقيقتهِ ، وتعودَ الشَّعراتُ البيضُ إلىٰ الظُّهور منْ جديد[1] .

* وقد خضبَ بعضُ الشُّعراءِ لحيتَه وشَعْره ، وتعرَّضَ إلى الحسَانِ منْ ذواتِ الخدودِ النَّواضر ، وكانتْ فصيحةً لطيفةً ، فقالتْ له: ما هذا؟ لقد تكاثرَ الغِشُّ حتى صَار في الشَّعْر؟!! وهناك أنشدَ قائلاً:

قالَتْ أَراكَ خَضَبْتَ الشَّيْبَ قُلْتُ لَها ... سِتَرْتُه عَنْك يا سَمْعِي ويا بَصَري
فقَهْقَهَتْ ثمَّ قَالَتْ منْ تَعجُّبِها ... تَكَاثَر الغِشُّ حتَّى صَارَ في الشَّعَرِ

* وأمّا عبدُ اللهِ بنُ المعتزّ فقد بَرِعَ في وصْفِ المشيْبِ ، وفي صدودِ الغواني عن الأَشْيَب ، فإذا ما استطاعَ الإنسانُ أنْ يستوليَ على عَقْل وقَلْب الغَانية ، غمزَها الشَّيْبُ ، ونمَّ عليه وأشارَ إليها بألاّ تلتفتَ إليه ، وفي هذا المعنىٰ البديع يقول:

لمّا رَأَتْ شَيْباً يَلُوحُ بِعَارِضي ... صَدَّتْ صُدودَ مَغَاضِبٍ مُتَحمِّلِ
نَظَرتْ إليَّ بعينِ مَنْ لم يَعْدلِ ... لمّا تمكَّنَ طَرفُها مِنْ مَقْتَلي
مَا زلْتُ أَطْلُبُ وصْلَها بتَدلُّل ... والشَّيبُ يغمزُها بأنْ لا تَفْعلي[2]

---

(١) وقديماً قالَ الشَّاعر:

نُسَوِّدُ أَعْلاها وتأبىٰ أُصُولُها ... وليسَ إلىٰ ردِّ الشَّبابِ سَبيلُ

وقال شاعرٌ آخر:

يا خَاضِبَ الشَّيْبِ الذي ... في كُلِّ ثَالثَةٍ يَعُود
إنَّ الخضَابَ إذا نَضَا ... فكأنَّه شَيبٌ جَديد
فَدَعِ المشيبَ وما يُريد ... فَلَنْ يعودَ كما تُريد

(٢) ومما يُستَطرفُ في هذا المجالِ ما جاءَ عن مالك بنِ أسماءَ بنِ خارجةَ أنَّه قالَ لجاريةٍ له: قومي اخضُبي رأسي ولحيتي.
فقالت: دعني ، فقد عييتُ مما أُرقِّعك. فَقال:

عيَّرتْني خَلَقاً أبليتُ جِدَّتَه ... وهَلْ رأيْتِ جَديداً لم يَعُدْ خَلَقا

(شرح مقامات الحريري للشريشي ٢/ ١٠١).

* ولابن المعتز أيضاً في الشُيَّبِ منَ الرِّجالِ والنِّساء:

قـالَـتْ وقَـدْ راعَهـا مَشيبـي كُـنْ ابـنَ عـمٍّ فَصِـرْتَ عَمّـا
واسْتَهْـزَأَتْ بـي فقلـتُ أيضـاً قـد كُنْـتِ بِنْتـاً فَصِـرتِ أمَّـا[1]

* ولابنِ جابرٍ الأندلسيّ وقفةٌ رائعةٌ مع إحدىٰ الغواني الحسَان ومع الشَّيب وكرهها للأشْيبِ الذي جَمَعَ الفَقْرَ إلى شَيْبه ، وفي هذا المعنى اللطيف يقول:

رأَتْ مشيْبي وفَقْري فَانْثَتْ هَرباً وكيفَ يُرضي قَليلُ المالِ شَايِبُهُ
فقلت مَهلاً سأمحو غيب ذاك وذا أما مشيبي فإني اليوم خاضِبُهُ

* وأملحُ منه قولُ الآخر مع إحدىٰ الغَواني ، وقد كشَفَتْ خضَابَه:

قَالَتْ خَضَبْتَ الشَّيْبَ ثُمَّ أَتَيْتَنَا تَبْغـي لَـدَيْنـا بـالخضَـابِ ودَادَا
فأَجَبْتُهـا لَـمْ أَخْتَضِـبْ لـكِ إنّمـا شَيبي صَبَغْتُ علىٰ الشَّباب حِدادَا

* ومنْ بدائعِ وروائعِ ما قيلَ في الشَّيبِ ، قول أبي فراس الحَمْدَانيّ:

رأيـتُ الشَّيْـبَ لَاحَ فقُلْـتُ أهْـلاً وودَّعْـتُ الغِـوايَـةَ والشَّبـابـا
وَمَـا إنْ شبْـتُ مـنْ كِبَـرٍ ولكـنْ لقيـتُ مـنَ الأحبَّـةِ مـا أَشَـابـا[2]

* ولعلَّه منَ الطَّريفِ ونحنُ في رحابِ الحديثِ عن الشَّيبِ أنْ نشيرَ إلى ظَرفِ الأندلسيّين في حياتِهم ، فمنَ المعروفِ أنَّ أَهْلَ المشرقِ يلبسونَ السَّواد لحزنهم ، وأهلَ الأندلسِ يلبسونَ البيَاضِ لحزنهم ، وقد أشارَ بعضُ الظُّرفاء منَ الشُّعراء إلى هذهِ النَّاحيةِ ، وتحدَّثَ عن الشَّيب فقال:

أَلا يـا أَهْـل أنـدلـسٍ فَطِنْتُـم بِلُطفِكـمُ إلـىٰ أمـرٍ عجيـبِ

(١) انظر: المحاسن والمساوىء للبيهقي (٣٩٥).
(٢) انظر: النجوم الزاهرة (٤/ ١٩).

لَبِسْتُمْ فِي مآتِمِكُمْ بَيَاضاً ... وَجِئْتُمْ مِنْه فِي زِيٍّ غريبِ
صَدقْتُمْ فَالبيَاضُ لِبَاسُ حزْنٍ ... ولا حُزنٌ أشدُّ مِنَ المشيبِ[1]

* وقال الحلوانيُّ أيضاً وقد أشَارَ إلىٰ الشّيب:

لئنْ كَانَ البيَاضُ لِباسَ حُزْنٍ ... بأَنْدلُسٍ فَذَاكَ مِنَ الصَّوابِ
أَلَمْ تَرني لبسْتُ بَياضَ شَيْبي ... لأَنّي قَدْ حَزِنْتُ عَلىٰ الشَّبَابِ

أمُّ العَلاءِ والغَزَلُ الرَّقيق:

* كانتْ أمُّ العَلاءِ الحِجاريّة واحدةً منْ نساءِ القرنِ الخامسِ الهجريّ في الأندلسِ، ومعنى هذا أنَّ بابَ الغَزل كانَ مفتوحاً علىٰ مصْرَاعيه أمامَ الشُّعراء العشَّاق والشَّاعرات العاشِقات، وكلٌّ يدلي دلْوه في هذا المضمارِ؛ إلاّ أنَّ شاعرتَنا أمَّ العلاء كان شعرها في هذا المجالِ منَ النَّظْم الرَّشيقِ المليحِ، الخفيفِ الرُّوح، الذي حكىٰ الماءَ سلاسةً، والصَّخْرَ ملاسَةً.

* ومنْ شعرِها الغزليّ، قولُها تتحدَّثُ عنِ الحبيبِ الذي يتحلّى الزَّمنُ بعليائهِ، وبدونه لا تكونُ الحياةُ إلا كالسَّراب، أو بعضِ أوهامه:

كُلُّ ما يصدرُ عنكم حَسَنُ ... وبعليـاكم يُحلَّى الزَّمَنُ
تعكفُ العينُ علىٰ منظرِكم ... وبذكْراكم تلذُّ الأُذُنُ
مَنْ يعشْ دونكم في عمرهِ ... فهو في نيلِ الأماني يُغْبَنُ[2]

* إنَّ غزلَ أمِّ العلاءِ هذا غزلٌ رقيقٌ منسوجٌ نَسْجاً ناعماً منْ وشيِ المعاني اللطيفة التي تداعبُ حنَايا القلوبِ، وتحركُ همساتِ الأوتار، في أوقاتِ الأسْحار.

---

(١) شرح مقامات الحريري للشَّريشي (١/ ١٢٤) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
(٢) المغرب (٢/ ٣٨)، ونفح الطيب (٥/ ٣٠٢) وشاعرات العرب (ص ٢٥٨)؛ و«يُغبن»: الغبن في البيع أو الشراء، غلبة وخداع ونقص في الثمن وغيره. وترى أم العلاء أن الحياة لا تتم إلا بوجود المحبوب.

* نعم إنَّ غزلَ أمِّ العلاء يرقىٰ ذِرْوَةَ الجمالِ الفنّي ، فهي أديبةٌ لطيفةُ المعنىٰ في غَزَلها ، وكانتْ في أغزالُها تضارعُ مشاهير الشّاعرات اللواتي عاصرْنَها ممن رسَمْنَ أحلىٰ لوحاتِ الغَزَلِ في عالَم المتغزّلاتِ منَ النِّساء الأندلسيّات.

* وتظهرُ في شِعْرِ أمّ العَلاء بعضُ الألوانِ والمعاني الجميلةِ والتَّفنُّنِ في الألفاظِ ومداعبةِ النُّفوسِ ، فهي منَ العواتقِ العاشقاتِ ، فمرَّةً تتغزَّلُ ، ومرّةً تشكو ، ولكنَّ شكواها منَ الحبيبِ يحملُ في أردانِهِ أنسامَ الاعتذارِ لمن عَلِقَهُ قلبها؛ وهاهي تصرِّحُ بذلك وتقولُ:

افْهَمْ مَطَارِحَ أَحْوَالي ومَا حَكَمَتْ ... بِهِ الشَّواهِدُ واعْذُرني ولا تَلُمِ
وَلا تَكِلْني إلىٰ عُذْرٍ أُبَيِّنُه ... شَرُّ المعَاذيرِ ما يَحْتَاجُ للكَلِمِ
وكُلُّ ما جِئْتُه مِنْ ذلّةٍ فَبِما ... أَصَبحْتُ في ثقةٍ مِنْ ذلكَ الكَرم[1]

أخْلاقُهَا وَشَخْصيّتُهَا:

* تظهرُ لنا أخلاقُ وشخصيّةُ أمِّ العلاء واضحةَ المعالمِ في شِعْرها ، فهي محافظةٌ علىٰ القِيَم وعلىٰ الأخلاقِ ، وهي وإنْ فكَّرَتْ في الإقدامِ على عَمَلٍ منَ الأَعْمالِ ، فإنَّ تفكيرَها فيهِ لا يتعدَّىٰ النِّيَّةَ ، ولن يبلغَ العَزْمَ ، لأنَّ الإقدامَ على سواقطِ الأعمالِ يسقطُ مروءتها وكرامتها ، ففي إحدىٰ معانيها الرَّائقة الرّائعة تقولُ:

---

(١) نفح الطيب (٥/٣٠٢ و٣٠٣) ، ونزهة الجلساء (ص ٢٢) ، ومنَ الملاحظِ في هذهِ الأبيات أنَّ أمَّ العَلاءِ الحجاريةِ تطلبُ إلى محبِّها أنْ يلتمسَ لها العذرَ منْ دونِ أنْ يلومَها أو يسألَها ، أو يستوضحَ منها أي شيءٍ ، إذْ إنَّ شرَّ المعاذيرِ ما يحتاجُ صاحبُه إلىٰ الكلام وإلى البيانِ والتّوضيح.
وتطلبُ أمُّ العلاء أنْ يكونَ كرمُ وتسامحُ محبِّها همّاً منْ طبعه، ومنْ يدري، فقد يقعُ العاشقُ في زلّةٍ أو خطأ غيرِ مقصود، إذاً فليكن كرمُ الأخلاقِ هو مقياسُ التَّعامُلِ.

لولا[1] مُنَافَرةُ المدامةِ للصَّبابةِ والغنَا
لعكفْتُ بينَ كؤوسِها وجَمَعْتُ أَسْبابَ المُنى[2]

* وفي مجالِ وصْفِ الطَّبيعةِ ، رسَمَتْ أمُّ العَلاء صورةً جميلةً لبستانِها الذي هفَا به القَصَبُ المندّىٰ ، وإذا ما رفرفَتْ بَيْنَهُ الأنسامُ ، بدا القَصَبُ نديّاً طريّاً في كفِّ الرِّياح ، فَظهر كالبنود التي ترفرفُ على همَسات النَّسيم ، فهاهي تنظرُ إلىٰ بستانِها ، فتهتزُّ لمناظرِهِ الجميلة ، وتصفه بهذا التّشبيه الرّائع البارع :

للهِ بُسْتَانِي إِذَا يَهْفُو بِهِ القَصَبُ المندّىٰ
فَكَأَنَّما كَفُّ الرِّيَاحِ قد أَسْنَدَتْ بَنْداً فَبَنْدا

* وبعد ، فهذهِ أمُّ العلاءِ بنتُ يوسف الحِجاريّة شاعرة وادي الحِجارة في غضونِ القرنِ الخامسِ الهجريّ ، وخليفةُ حفصة بنت حمدون ، وأميرةُ شاعراتِ ذاك الوادي الجميل الذي أنجبَ كثيراً وكثيراً من أعلامِ النُّبلاء .

* * *

---

(١) «لولا» : تأتي لولا بثلاثة أوجه : حرف امتناع لوجود ، حرف عرض وتحضيض ، حرف للتوبيخ والتقديم. ولولا هنا : هي حرف امتناع لوجود ، وهي حرف يتضمن معنى الشرط يدل على امتناع شيء لوجود غيره ، وهو مختص بالجمل الاسمية مثل : ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ : ٣١].
(٢) المغرب (٢/ ٣٨).

أُمّ الكرم بنت المعتصم

* أميرة ، ابنة الملك المعتصم بن صُمادح الأندلسي .
* أديبة ، شاعرة ، ناثـرة ، ذكيـة .
* لها شعر غزلي يحاكي المشارقة عذوبة وملاحة .

أُمّ الكرَم بنت المعتصم

الأَمـيـرةُ الأَديْـبَـةُ:

* حلَّقَتْ هذهِ المرأَةُ الأندلسيّةُ عَالياً في سَماءِ المعالي ، إذْ أحاطتْ بها المكارمُ منْ كلِّ جانبٍ ، فهيَ منَ الأسماءِ النّسويّةِ التي تنتسبُ إلىٰ بيوتِ المجدِ والسُّلطان والعزّ والرِّفْعَة؛ وهي أميرةٌ كريمةُ الأصولِ ابنةُ مَلِكٍ مَلَكَ الكَرمَ ، وازدانَ بالفَضْلِ ، وأحبَّه النَّاسُ لعَدْلهِ وفَضْلِهِ ، هذا الملكُ هو المعتصمُ بنُ صُمادح[1] الأندلسيّ الذي قلَّده ابنُ خاقانَ قلادةَ الفَضْلِ في قلائدِهِ فقال: مَلِكٌ أقامَ سُوقَ المعارفِ علىٰ ساقِها ، وأبدعَ في انتظامِ مجالسِها واتّساقِها ، وأوضحَ رسْمَها ، وأثبتَ في جَبينِ أوانِهِ وسْمَها ، ولم تَخْلُ أيّامُه منْ مناظَرة ، ولا عُمِرَتْ إلّا بمذاكَرة أو مُحاضَرة. . . . . وكانتْ دولتُهُ مَشْرعاً للكَرم ، ومَطلعاً للهمَم ، فلاحتْ بها شُموس ، وارتاحَتْ فيها نُفوس ، ونَفَقَتْ فيها أقدارُ الأَعْلامِ وتدفَّقتْ فيها بحارُ الكَلام[2]. .

* وقالَ عنه ابنُ بسَّام الشَّنتريني في «ذخيرتهِ»: كان رحبَ الفناءِ ،

(١) المعتصمُ بنُ صُمادح هو أبو يحيىٰ محمّد بنُ معن بنِ محمّد بنِ أحمدَ بنِ صُمادح ، ولقبُهُ المعتصم التّجيبيّ ، صَاحِبُ المَريّة وبجاية والصُّمادحية منْ بلادِ الأندلس ، توفي بالمريةِ في سنة (٤٨٤ هـ). (المطرب ص ٣٤) و(وفيات الأعيان ٥/ ٣٩ ـ ٤٥).

(٢) قلائد العقيان (١/ ١٤٦).

جَزْلَ العَطَاء، حليماً عنِ الدِّماء والدَّهْماء، طافَتْ به الآمالُ، واتَّسعَ في مدحهِ المقال، وأُعْمِلَتْ إلى حضرتِهِ الرِّحالِ، ولزمه جملةٌ منْ فحولِ شُعراء الوقْتِ كأبي عبد الله بنِ الحدّاد، وأبي الفَضْل ابنِ شرف، وابنِ عُبادَةَ، وابنِ الشَّهيد وغيرِهم ممن لم يُعْلِقْ بسواه سَبباً، ولا شدَّ إلىٰ غيرِ ذُراه كوراً ولا قَتَباً[1].

* أنشدَ أبو عبد الله محمّد بنُ عبادة الوشّاح[2] المعتصمَ بنَ صُمادح، وأشارَ إلىٰ فضله وجودِه في شِعْرٍ جميل يقولُ فيه:

---

(١) انظر: الذّخيرة (١/٤٥٨) طبعة دار الكتب العلمية ـ بيروت ط١ ١٩٩٨م، وطبعة مصر.

(٢) أبو عبد الله محمّد بنُ عبادة المعروف بابنِ القزّاز، منْ مشاهيرِ الأدباء والشّعراء، وأكثر ما اشتُهِر في الموشّحات.

قال عنه ابنُ بسَّام: منْ مشَاهيرِ الأُدباءِ الشُّعراءِ، وأكثرُ ما ذُكِر اسمُه وحُفِظ نظمُه في أوزانِ الموشّحات التي كَثُرَ استعمالها عند أهلِ الأندلس.... وهو ممن نَسجَ على منوال ذلك الطّراز، ورقّم ديباجه، ورصّع تاجَه، وكلامه نازلٌ في المديح، فأمّا ألفاظهُ في التّوشيح فشاهدةٌ له بالتّبريز والشّفوف، وكان ابنُ القزّاز شاعر المعتصم بن صمادح.

كما أنَّه قال في المعتمد بن عباد لما جُرحت كفُّه يومَ الزّلاقة الذي كانَ على النَّصارى:

ثنـاؤك ليـسَ تسبقُـه الـرّيـاحُ ... يطيـرُ ومـنْ نـداكَ لـه جنَـاحُ
لقـد حَسُنَـتْ بـكَ الـدُّنيـا وشبَّـتْ ... فغنّـتْ و هـي نـاعمـةٌ ردَاحُ
تطيـبُ بـذكـركَ الأفـواهُ حتّـى ... كـأنَّ رضـابَهـا مِسْـكٌ وراحُ
ملكـتَ عنـانَ دهـرِك فهـو جـارٍ ... كمـا تهـوىٰ فليـسَ لـه جِمـاحُ
جـزاكَ اللهُ خيـراً عـن بـلادٍ ... مَحـا عنهـا الفسـادَ بـك الصَّـلاحُ
محمـدُ بـنُ عبـادٍ هـزبـرٌ ... لعُبّـاد المسيـحِ بَـدا فطـاحـوا

ومن شعره قوله:

يـا دوحـةً بظـلالهـا أتفيـأُ ... بـل معقـلاً آوي إليـه وألجـأُ
رمدتْ جفوني مذْ حللتَ هنا ولو ... كُحِلَـتْ بـرؤيتكـم لكـانـتْ تبـرأ
لـم أختـرعْ فيـك المـديـحَ وإنّمـا ... مـن بحـرك الفيـاض هـذا اللـؤلـؤُ

(المغرب ٢/ ١٣٤ ـ ١٣٧) بتصرف.

ولو لَمْ أكُنْ عَبْداً لآلِ صُمَادحٍ ... وفي أرضِهْم أَصْلي وعَيْشي ومَولدي
لمَـا كـان لـي إلاّ إليهـم تَـرحُّـلٌ ... وفي ظلِّهم أمْسي وأضحي وأغتدي

فـارتـاحَ المعتصـمُ بـنُ صمـادح لـذلـك ، وقـال: يـا بـنَ عبـادة ، ما أَنْصَفناك ، بل أنتَ الحرُّ لا العَبْدُ ، فاشرحْ لنا في أَمَلِكَ؛ فقال: أنا عبدُكم كما قالَ ابنُ نباتةَ:

لَمْ يُبْقِ جُودُكَ لي شيئاً أؤمّلُه ... تركْتَني أَصْحبُ الدُّنيا بلا أَمَلِ

فالتفتَ المعتصمُ إلىٰ ابنهِ الواثقِ يحيىٰ ولي عهده وقال: إذا اصطنعْتَ الرِّجالَ فمثلَ هذا فاصطنِعْ ، ضمَّهُ إليك ، وافعلْ معهَ ما تقتضيه وصيّتي به ، ونبّهني إليه كلَّ وقت[1].

* وأمّا إخوتُها فقد كانُوا دُرراً وجواهرَ في جَبين الأندلسِ ، وقد وصفَهم ابنُ دِحيةَ في «المُطرب» بقولهِ: وبنو صُمادح بيتُ العلوم الفَائقة ، والآداب الرائقة[2].

* وكانتْ مع إخوتها الثّلاثة منْ أعيانِ الأَشْراف[3] في المريةِ ، ارتضعُوا لبانَ العلومِ والمعرفةِ ، ونشؤوا على حُبِّ العِلْم والعُلماء ، وحبِّ النَّدى والمعروف.

* فأخوها الأوّلُ: رفيعُ الدَّولةِ أبو يحيى ابنُ المعتصم بنِ صُمادح أحدُ الأكارم النُّجباء ، قالَ أبو عمرو ابنُ الإمام في وصفه: ذو الخُلقِ

---

(١) نفح الطيب (٤/ ٣٨٢ و٣٨٣) طبعة دار الفكر.
(٢) المطرب (ص ٣٤).
(٣) «الأشرافُ»: في اللّغة: الأعيانُ منْ أيّ القَبائِل كانوا ، قال الحسَنُ البصريُّ: حدِّثوا عن الأشراف ، فإنّهم لا يرضون أنْ يدنّسُوا شرفَهم بالكذبِ ولا بالخيانةِ.

الكريمِ ، والشَّرف الباذخ الصَّميم ، راضعُ لبان الرِّياسة ، ومرتشفُ مياه تلك الجلالةِ والنَّفاسة[1] .

* وقال الحِجاريُّ فيه : فَرْعٌ زاكٍ منْ تلكَ الشَّجرة الكريمةِ ، وعارضُ جودٍ منْ صَوبِ تلك الدِّيمة .

* وأخوها الثّاني : أبو جعفر أحمدُ ؛ جرىٰ في طلقِ أبيه وإخوته ، وله نظمٌ جميلٌ رائق[2] .

* وأخوها الثَّالث : واسمُه الواثق عزُّ الدَّولةِ أبو محمد عبد الله ؛ قال عنه صاحبُ المسهب : قمرٌ عاجلَه المحاقُ قبل التَّمام ، فنشرَ منْ يديهِ ما كان عَقَدَهُ أبوه منْ ذَلك النِّظام ، وقد كان خصَّه بولايةِ عَهْدِه ، ورشَّحَه للمُلْكِ منْ بعده[3] .

* وقال فيه ابن اللبَّانَة : كان الواثق كأنَّ اللهَ لم يخلقْه إلاّ للمُلكِ والرِّياسة وإحياءِ الفضائل ، ونظرةٌ إلىٰ همّته تنمُّ من تحتِ خموله ، كما ينمُّ فرندُ السَّيف وكرمُه من تحتِ صدئِه[3] .

* وقال ابنُ اللبّانة فيهِ أيضاً : إنّي رأيتُ منه خيرَ من يُجْتَمع به ، كأنَّه لم يخلقْه اللهُ إلا للملكِ والرِّياسةِ مع حفْظِهِ لفنونِ الأَدبِ والتَّواريخِ وحسنِ استماعِهِ وإسْماعِهِ ، ورقّة طبعه ، ولطافة ذهنه .

* في هذه البيئةِ المعطاءِ المدْرَار بالمكارمِ ، والمشَاعر الأنيقةِ والأشعَار الرَّقيقةِ عاشتْ أختُهم أمُّ الكرم[4] بنتُ المعتصم بنِ صُمادح

---

(١) المغرب (٢/ ١٩٩).

(٢) المغرب (٢/ ٢٠٠ و٢٠١) ، والمطرب (ص ٣٧).

(٣) انظر : المغرب (٢/ ٢٠١ و٢٠٢).

(٤) وفي بعض المصادر وردَ اسمها أمّ الكرام. انظر : المغرب (٢/ ٢٠٢ و٢٠٣) ، ونفح الطِّيب (٤/ ٣٤٥) و(٥/ ٣٠٣) وسماها المقّري أمّ الكرام. وانظر : نزهة الجلساء (ص ١٨) ، وأعلام النّساء (٤/ ٢٣٨) ، والدّر المنثور (ص ٥٤) ، ومعجم =

الأميرةُ الأندلسيّةُ الأديبةُ الشَّاعرةُ النَّاثرةُ الموشّحةُ التي نزيّنُ كتابَنا هذا بأخبارِها وأشْعارِها ، وهي بذلك تنتظمُ في عقْد النِّساء اللواتي عشْنَ أميرات في الأندلسِ في عَصرها البهيّ ومجدها الأدبيّ والعلميّ.

النَّشْأَةُ الكريْمَةُ والأَدَبُ الجَمُّ:

* أمُّ الكرمِ ابنةُ المعتصم بنِ صمادح بنتُ مَلِك أديبٍ شاعرٍ ، وهي نفسُها أديبةٌ ليستْ من طبقةِ العامّة ، ولا من سَوادِ الشَّعب ودهمائِه ، ولا منْ سوقَةِ النَّاس ، وإنّما هي سيّدةٌ منَ السَّادة الذين سَمَتْ بهم المنازلُ ، وارتفعَ بهم الجَاه ، وميّزهم عنْ سواهم السُّلطان ، لأنَّها نَشَأَت في بلاطِ المُلك ، وفي نعمةِ الحُكْم ، وجلالِ السِّيادة ، وعظمةِ الأَمْر والنّهي ، تحت إشرافِ أبيها المعتصم بنِ صمادح.

* وذكر ابنُ خاقان المعتصم بن صمادح ، فأكثرَ له الممادح ، وذكر أنَّ دولتَه منْبَعاً للجودِ ، ومطلعاً للسُّعود ، ومَشْرعاً للوفود ، ووصفَه بروَاجِ بضَائعِ الرَّجاءِ في سُوقهِ ، وإنارةِ مطالعِ الفضلاء بشروقه ، واتّساقِ نظام نفائِس الأفاضل ، واتّساع مجالي مجالس الأماثل ، وتحلّي السَّاعات بمذاكرة الفَضْل ، وتخلّي الأوقاتِ عن مساورةِ الجهل ، وكان متنقّلاً من مدارسةٍ إلى مؤانسة ، ومن مُذَاكرة إلىٰ معاشرة ، وهو من مغنى أدب إلىٰ مثوى طَرب ، لم يُزاحمْ مليكاً على مُلكهِ ، ولم ينظرْ إلاّ في إجراءِ فَلَكِهِ ، وإرساء فُلْكِهِ[1].

* ففي قَصْرِ المعتصم بنِ صمادح عاشتْ أمُّ الكرم حياةَ الأميراتِ الأديباتِ المُتَأَدّباتِ ، فقد كان منْ عادَةِ ملوك الأندلس ، وأمرائهم العظام

= الأديبات الشواعر (ص٤٥) ، والشّعر الأندلسي في عصر الطوائف (ص ٣٧٤).

(١) جريدة القصر (٢/ ٨٦).

أنْ يعهدوا بأولادهم مِنَ البنين والبنات بالتَّعليم ، فقد عهدوا ببناتِهم ونسائهم إلىٰ معلماتٍ فاضلاتٍ يتعهدنهنَّ بالتَّعليمِ والتَّثقيفِ والتَّهذيبِ ، وقراءةِ علومِ الدِّين ، ومطالعةِ الأدبِ والشِّعر ، واستظهارِ جواهرِ الأدب وعيونِ الأخبار والأشْعار.

* واعتنى المعتصمُ بنُ صمادح بابنتهِ الأميرة أمِّ الكرم ، فقد رأىٰ مخايلَ الذّكاء تشهدُ لها لا عليها، ورأىٰ مَيْلَها إلى الأدب وإلى نَظْمِ الأشْعار، بل نظمتِ الشِّعْر الجميلَ الخفيفَ اللطيف ، ومن ثمَّ فَطِنَتْ إلى فنِّ الموشّحات[1] الذي يرطّب الأسْماع ، وينديّ القلوب ، فأسهمتْ فيه

---

(١) عرِفَتْ أسماءُ كثيرٍ منَ الوشّاحين الذين عاشُوا في عَصْرِ الطَّوائِفِ والموحّدين ، ومنهم مَنْ وصلتنا بعضُ موشحاتهم ، ومنهم مَن ذُكِرَ عنهم أنّهم كانوا ينظمون الموشحات ، إلا أنّنا لا نعرفُ شيئاً ممّا نظموه ، ومن هؤلاء ضيفةُ حلقتنا أمّ الكرم بنت المعتصم بنِ صمادح التي نظمتِ الشّعر والموشّحات؛ ولكنَّ ذاكرةَ التّاريخ لم تحفظْ ولم تحتفظْ بشيءٍ من موشّحاتها لأنَّ المصادرَ قد أحرقَ معظمها الحاقدون الذين استلبوا الأندلس.
وقد جَعل النُّقَّادُ والأدباءُ عبادةَ القزّاز في مقدمةِ الوشّاحين في عَصْر الطّوائف ، وكان عبادةُ هذا شاعرَ المعتصمِ بنِ صُمادح صاحب المريَة. وقد ذكر الأعلم البطليوسي أنّه سَمِعَ أبا بكر ابن زُهر يقولَ: كلُّ الوشّاحين عيالٌ علىٰ عبادة القزّاز فيما اتّفق له من قوله:

بَــدْرُ تــمّ شَمْــسُ ضُحــى   غُصْــنُ نقــا مِسْــكُ شــمّ
مــا أتــمّ مــا أوضَحــا   مــا أورَقــا مــا أنــمّ
لا جــرم مَــنْ لمحــا   قــد عَشِقــا قــد حَــرَم

وزعموا أنّه لم يسبقْه وشَّاح منْ معاصريه الذين كانُوا في زمن الطَّوائف. (مقدمة ابن خلدون ٢/ ٢٩١) بتصرّف. طبعة مكتبة نزار الباز بمكة المكرمة.
ومن موشحات ابن القزاز الجميلة:

هَــويــتُ هــلالا   فــي الحُســنِ فــريــدا
أعــارَ الغَــزَالا   ألحــاظــاً وَجيــدا
وتــاهَ جَمَــالا   لــم يَبْــغِ مــزيــدا=

أيضاً[١]؛ هنالِكَ عَمِلَ على تثقيفِها وعهدَ إلىٰ متخصّصاتٍ فواضلَ قُمْنَ بتعليمها ما تحتاجُ إليه. فأبوها علىٰ مفرقِهِ التّاجُ، وفي يَدِهِ الصّولجان، والدُّنيا مقبلةٌ عليه، والسَّعْدُ كلُّه حاضرٌ بين يديه، ومع هذا كلِّه غَلَبَتْ عليه نزعةُ الأدب، لذلك تفتَّق ذهْنُ أمِّ الكرمِ عنِ الشِّعْر، وامتلأتْ نفسُها بالأوزان، ونَظْمِ الأَشْعار الحِسَان.

* وفي أحضانِ مدينةِ أبيها المريةِ، كانتْ نشأةُ أمُّ الكرم، ومدينةُ

= بـــــــــــدرٌ يتـــــــــــلالا فـــــي حُسْـــــن اعتـــــدال
زانَـــــــــــه رشْـــــــــــقٌ والعـــــــــــدُ رشيـــــــــــق
(ديوان الموشحات الأندلسية ١/ ١٦٩).

(١) هناكَ بعضُ الموشّحاتِ المبثوثةِ في المصادرِ، ولا يُعْرَفُ مَنْ قالَها، وإنْ كنّا نستشفّ منْ خلالها أنَّ فيها همَسَات نسائية..

مَـــنْ لـــي بمـــنْ سَبَـــانـــي وزادنـــــــي غَـــــــرامْ
خَلعْـــتُ مِـــنْ عنـــانـــي فـــي حبّـــهِ فَـــدَامْ
عَـــدلـــتُ لـــو جفَـــانـــي صبـــــرتُ للسَّقـــــامْ
وفـــي ســـوىٰ الحبيـــبِ مـــا طـــابَ لـــي مَعَـــاشْ
ولـــو اعتقـــدتُ خِلّـــهْ أن أصغـــي فيـــهِ لـــوَاشْ
ريـــمٌ مـــنَ الـــرِّجـــال يُـــزهَـــى علـــى الإمـــامْ
غصـــنٌ مـــنَ الـــلآلـــي يُسْبَـــى بـــه الأنـــامْ
شُبِّـــه بـــالهـــلالْ فـــي ليلـــةِ التَّمـــامْ
يبـــدو علـــىٰ قضيـــبْ فـــوقَ الكثيـــب مَـــاشْ
يَسطـــو علـــىٰ الأهلّـــه فـــالسِّـــرُّ فيـــه فـــاشْ
بقُـــرطـــهِ وشِنْفـــهِ نـــورٌ مـــع الظّـــلامْ
بثغـــرهِ ورشْفـــه درٌّ مـــع المُـــدامْ
بصُـــدْغـــهِ وطـــرفِـــه نَصْـــلٌ مـــع السِّهـــامْ
بسهمـــه المُصيـــب والسَّهـــمُ ذو ريـــاشْ
والنّصـــلُ إنْ يسلُّـــهْ فـــالقلـــبُ ذو ارتعـــاشْ
(ديوان الموشحات الأندلسية ٢/ ٦٥٤ و٦٥٥).

المريةِ إحدىٰ مُدنِ الأندلسِ التي سجَّلَتْ عبقات زاكيات مع مدنِ الأندلس الأخرىٰ.

* ويبدو أنَّ المريةَ ليستْ منَ المدنِ الجميلةِ التي تزدانُ بجمالِ الطَّبيعةِ كغيرِها من مُدنِ الأندلس الأخرىٰ منْ مثل: قرطبةَ، وإشبيليةَ، وطُليطلةَ وغيرِها. ولكنَّها مدينةٌ مهمّةٌ لأنَّها كانتْ مكان قصْرِ الأسطول الإسلامي الذي واجَهَ المعارك البحريّة بشجاعةٍ أمامَ الفِرنجةِ، وكانت تعتمدُ في مواردِها على ما يأتيها منَ المدنِ المجاورةِ، أو منَ المدنِ الخارجيّة، ومما يحمله إليها التُّجَّار، وأربابُ الأموال لأنَّ أرضها جرداء.

* ويظهرُ أنَّ تطوُّراً مهمّاً قد حَصَلَ في المريةِ وخصُوصاً في النّواحي العمرانية، إذ اتَّسَعتْ في عهدِ ملوك الطَّوائف، وأصبحت تغصُّ بالمباني الجميلةِ الواسعةِ، وكثرةِ الحمّامات والفنادق التي ناهزتِ الألفَ، وقد حُفِرتْ فيها العيونُ الشَّهيرةُ، وقد وصفَها ابن درّاج القَسطليّ حين مرَّ بها بحراً فقال:

مَتَى تلحظُوا قَصْرَ المَريةِ تَنْزلُوا ... ببحـرِ نـدىً يمْنَـاه درٌّ ومُـرجَـانُ
وتستبدلُوا منْ موجِ بحرِ سَجاكُمُ ... بمـوجٍ لكـمْ منْـه لجيـنٌ وعقْيَـانُ

* وتطلعُ علينا كتبُ الأندلس بوصفٍ مفصَّلٍ لبلدِ أم الكرم والتي ازدانت بالقُصور والمتنزَّهَات في عَهْد أبيها المعتصمِ بنِ صمادح، فقد قال ابنُ خاقان عنه بعد أنْ وصفَ شُحَّ الأراضي الزِّراعية في أمارته: فاقتصرَ على صمادحيتهِ البديعةِ، وقصبتهِ المنيعةِ[1].

* وقَصْرُ الصُّمادحيّةِ الذي خلَّدَ اسم المُعتصم بنِ صمادح كان قد شُيّدَ منَ المرمرِ الخمريّ، وتجري الجداولُ ثعبانيّةَ الشَّكْلِ في حديقتهِ

(١) قلائد العقيان (١/ ١٤٧).

حولَ الاستراحاتِ الموجودةِ فيه ، والتي كان يجلس عليها المعتصمُ مع ندمائِهِ وأولاده وسُمَّاره .

* وقد وصفَ المعتصمُ حُسْنَ هذه الجداولِ وجمالَها حين جلسَ في يوم غَيْمٍ ، ومعه أعيانُ الوزراء ، ونبهاءُ الشُّعراء ، فقعدَ على موضعٍ يتداخَلُ الماء فيه ، ويتلوّىٰ في نواحيهِ ، وهو منشرحُ النَّفسِ والصَّدرِ ، مجتمعُ الأُنْسِ والبشرِ فقال :

انْظُرْ إلىٰ حُسْنِ هَذا المَاءِ في صَببه   كـأنَّـه أرقَـمٌ قَـدْ جَـدَّ فـي هَـرَبـه

فاستبدعُوه وتيّمُوه وأولعُوه ، فأسْكَب عليهم شآبيبَ نداه ، وأغربَ بما أظهره منْ بشْرِه وأبداه[1] .

* ومن المتوقّع أنَّ أنباءَ هذه المجالس الطّريفةِ وأخبارِها كانت تُـنْـقَـلُ إلىٰ الأميرةِ الشّاعرةِ أمّ الكرم ، فتشحَذُ بذلك ذهنها ، وتجدّدُ ما غابَ عن حفْظِها ، وتنعمُ برضاب الآدابِ التي تتمخَّضُ عنها تلكم المجالس السَّنية .

أمُّ الـكَـرَمِ وشَغَـفُـهَـا بـالأَدَب :

* لعلَّ عَصْرَ المعتصمِ بـنِ صمادح كان العصْرَ الذَّهبيَّ في مدنيةِ المريةِ ، حيثُ عاشتْ أمُّ الكرمِ حياةً ناعمةً مثريةً مفعمةً بالخيراتِ ، فقد كانتِ الرِّحالُ تشَدُّ إلىٰ المريةِ ، وتُعْقَدُ الآمالُ في ظلّ بني صُمادح ، فقد كان بنو صُمادح أدباءَ شُعراءَ ، وكانت نساؤهم كذلك أديباتٍ شاعراتٍ ، وكانت قصورهم تزهرُ بالوزراءِ والأعيانِ ، وممن يعنون بفنونِ الأدب والشِّعر .

* لذلك نجدُ أنَّ الشَّاعر النّحليّ البطليوسيّ يشبِّه المريةَ[2] بالجنَّة التي

(١) قلائد العقيان (١/ ١٥٠ و١٥١) ، وخريدة القصر (٢/ ٨٧) .

(٢) في «نفحِهِ» تحدَّث المقّري ـ رحمه الله ـ عن المريّةِ ووصفها بقوله : وأمّا المَرِيّـةُ =

خرجَ منها آدمُ ـ عليه السَّلام ـ فقد ذكرَ النَّحليُّ المريةَ التي أحْسَنَتِ استقبالَه يوماً ، ثم أُجْبِر علىٰ تركها لخطأ ارتكبَه ، فهاهو يقولُ حين خافَ المعتصم بن صمادح أميرها ، ففرَّ منها :

رضَا ابنِ صمادحٍ فارقْتُه فلمْ يرضِنِي بَعْده العَالَمُ
وكانتْ مريَّتُهُ جنَّةً فجئتُ بِما جَاءَه آدَمُ

ولكنَّ المعتصمَ بنَ صُمادح ما زالَ يتفقَّد النحليَّ بالإحسانِ على بُعْدِ ديارِه ، وخروجِه عنِ اختيارِه[١].

* ومن بدائعِ محمّد بن أحمد الحداد الوادي آشي في مَدْحِ المرية قولُه من قصيدةٍ طَويلةٍ طائية منها :

يَا وافدي شَرقي البلادِ وغَربها أُكْرِمتُما خير الوفادةِ فارْبُطَا
ورأيتُما مَلِكَ البريةِ فارهِنَا ووردتُما أرضَ المريّة فاحْطُطَا

= فإنّها البلدُ المشهورُ الذّكْر ، العظيمُ القَدْر ، الذي خُصَّ أهلهُ باعتدالِ المزاج ، ورونقِ الدِّيباج ، ورقّة البشْرة ، وحسنِ الوجوه والأخلاقِ ، وكرم المُعَاشرة والصُّحبة ، وساحِلُها أنظفُ السَّواحل وأشرحُها وأملحُها منظراً ، وفيها الحَصَا الملوَّنُ العجيبُ الذي يجعلُه رؤساءُ مراكشَ في البراريدِ والرّخام الصَّقيل الملوكي ، ووادِيها المعروف بوادي بجانة من أفرجِ الأودية ، ضفّتاهُ بالرّياضِ كالعذاريْن حولَ الثغر ، فحقّ أنْ يُنْشَدَ فيها :

أرضٌ وطئْتَ الدُّرَّ رضْراضاً بها والتّرب مسْكاً والرّياض جنَانا

وفيها كانَ ابنُ ميمون القائدِ الذي قَهرَ النَّصارى في البحر ، وقَطَع سفرهم فيه ، وضربَ على بلاد الرّمانية ، فَقَتَل وسبىٰ ، وملأَ صدور أهلها رعباً.

وبها كان محطّ مراكب النّصارى ، ومجتمع ديوانهم ، ومنها كانت تسفَّرُ لسائر البلاد بضائعُهم ، ومنها كانوا يوسقون البضائع التي تصلحُ لهم ، ولم يوجدْ لهذا الشَّأْن مثلها لكونها متوسّطة ، ومتّسعة قائمة بالواردِ والصَّادر ، وهي أيضاً مصنعٌ للحللِ الموشية النّفيسة . (نفح الطيب ٤/ ٢٠٩ و٢١٠) بتصرف يسير جداً.

(١) نفح الطيب (٥/ ١٥٧) بتصرف يسير.

يدمي نحورَ الدَّارعينَ إذا ارتأىٰ ويـذلّ عـزَّ العـالمـيـن إذا سَطَـا[١]

ولا شكّ في أنَّ أمَّ الكرمِ كانت تَصْقُل موهبتَها بما يترامىٰ إلى سمعها منَ الشِّعْر ، ومن نَـثْـرِ الـدُّرِّ الممزوجِ برحيقِ الأدبِ.

بـيـنَ أُمِّ الكَـرمِ وَعُلَيّـةَ بنْـتِ الـمَهـدي :

* منَ الأعاجيبِ المُذْهِلَةِ أنْ نَجدَ في أَخْبارِ النِّساءِ الشَّريفاتِ العربياتِ بعضَ القَصَصِ التي تُلوِّثُ سيرتهنَّ ، وتحطُّ منْ شَأْنهنَّ ، ولعلَّ الغَرضَ منْ ذلك هو الإثارةُ ليس غير ، فقد راقَ لكثيرٍ من الوضَّاعين أنْ يختارَ شخصيّةً نسويةً مرموقةً في المجتمعِ ، ومن ثَّمَ يلصقُ بها بعضَ قَصَصِ الغَرامِ والحبِّ والهيامِ ، ليجعلَ منها مَسْرَحاً لخيالِهِ.

* ففي سيـرةِ أُمِّ الكرم بنتِ المعتصـم نَجـدُ غَـزَلاً لهـا في فتـىً من فتيـانِ مـدينـةِ دانيـة[٢] ، ونجـدُ هـذا تمـامـاً قـد نُسِـبَ إلـى

(١) نفح الطيب (٩/ ٢٦١). ومنَ الجديرِ بالذِّكْرِ ، أنَّ هناك بعضَ الشَّعراء الذين كانت لهم آراءُ أخرىٰ في المريّة ، فلئن شبّه النّحلي المريّةَ بالجنةِ ، فقد كان الشّاعر السَّمْسير يذكرها بنقيضٍ ذلك حيث يقول:

بئْـس دارُ المـريـةِ اليـوم داراً ليـسَ فيهـا لسـاكـنٍ مـا يحـبُّ
بلـدةٌ لا تُمـارُ إلاّ بـريـحٍ ربمـا تهـبُّ أو لا تهـبُّ

وفيها يقولُ شاعرٌ آخر:

قـالـوا المـريـةَ صِفْهـا فقلـتُ نـطّ وشيـحُ
وقيـلَ فيهـا معـاشٌ فقلـتُ إنْ هـبَّ ريـحُ

(٢) «دانية»: مدينةٌ بالأندلس ، منْ أعمالِ بلنسية ، على ضفّة البحر شرقاً ، وأهلُها أَقْرأُ أهلِ الأندلس. (معجم البلدان ٢/ ٤٣٤).
أقول: قد نشأ في دانيةَ عددٌ منْ علماءِ الدُّنيا ، كما نُسِبَ إليها أكابرُ العلماء ، فمن مشاهير قـرّاء الدنيـا: أبو عمرو الدّاني ، قال عنـه المقّري: ومنَ الرَّاحلين منَ الأندلس إلىٰ المشرقِ، مَنْ هو الأحقّ، بالتّقديم والسَّبْق ، الشّهير عند أهلِ الغرب والـشّرق ، الحافـظُ المقرئُ الإمامُ الرّبانـي ، أبـو عمرو الدّاني عثمانُ بنُ =

عليّـةَ[1] بنتِ المهدي العبّاسيّة أختِ الرشيد حيث زعموا أنَّها عشقَتْ فتىً يُقال له «طلّ» حتى اضطر الرّشيدُ ـ كما زعموا ـ أن يدعَ لها فَتاها طلاًّ وما تهوى[2]!!..

* إنَّ أمَّ الكرام الأميرةَ الأديبةَ ذات المشاعرِ الرّقيقةِ ، يُنْسبُ لها أنَّها عشِقتْ فتىً جميلاً من دانيةَ يُدعى «السَّمّار» ، والسَّمار يعني: «بائع القرنْـفُل» ، أو صانعه ، أو «الحدّاد» الذي يصنَعُ المسَامير ، وزعموا أنَّها قالَتْ فيـه أشعاراً غزليّـةً بعيدةً عنِ الوقارِ وعن كبرياءِ الأميرات؛ ومن العجيبِ أنْ نَجِدَ في عَصرِنـا الحالي مَنْ يؤكّـد ذلك ويربطُ بين أمّ الكرمِ وبينَ عُليةَ بنتِ المهدي بحبلٍ سِريّ منَ العشقِ والهيام؛ ولنْ أطيلَ عليكَ الكلام ، وسنقرأُ سوياً الـفقْرةَ التّاليـة من كتاب «الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه» للدكتور مصطفى الشّكعة ، حيثُ يقولُ ما نصّه عن

= سعيد بنِ عثمان بنِ سعيد بنِ عمر الأمويّ مولاهم القُرطبيّ ، صاحبُ التَّصانيف التي منها المقنع والتَّفسير ، وعُرف بالدّاني لسُكْناه دانية ، ولد سنة (٣٧١ هـ).
كان أبو عمرو الدّاني يقول: ما رأيتُ شيئاً قطّ إلا كتبتهُ ، ولا كتبتهُ إلا حفظتُه ، ولا حفظتُه فنسيتُه.
وقال ابنُ بشكوال: كانَ أبو عمرو أحدَ الأئمةِ في عِلْم القُرآن ، ورواياته وتفسيره ومعانيه وطرقه وإعرابه ، وله معرفةٌ بالحديث وطرقه وأسماء رجاله ، وكان حسنَ الخطّ والضّبط ، من أهل الحفْظِ والذّكاء واليقين ، وكان ديناً فاضلاً ورعاً سنياً ، توفي سنة (٤٤٤ هـ) رحمه الله.

(١) اقرأ سيرة علية بنت المهدي في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» وانظر ردنا على مفتريات الخراصين.

(٢) هناك نِساءٌ كثيراتٌ قد لَعِبَ الرُّواةُ والوضّاعون في سيرهنّ ، وزوروا ما شاءَ لهم التّزوير ، واختلقُوا القَصَص العجيبةَ عنهنّ ، حتى باتَتْ عند بعضِ النّاس منَ المُسلّماتِ ومنَ البدهيّات ، ومنهنّ: قصّة أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان ، وقصّة علية بنت المهدي ، وقصّة العبّاسة بنت المهدي ، وقصّة أخرى مختلقة عن سُعاد إحدى نساء بني عذرة في عهد سيدنا معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما ، والهدف من ذلك التشويه والتشويش.

أمِّ الكرم بنتِ المعتصم بن صُمادح الأميرة الأصيلة؛ التي قرنَها معَ شاعرتَـيْن هما: زينبُ المرية[1] ، والغسَّانيّةُ البجانية[2] ، وخلعَ عليهما الوقار ، بينما جَعل من أمّ الكرمِ امرأةً متبذلةً فقال:

إذا كانَ غزلُ زينب المريّة ، والغسّانية البجانية قد اتَّسَم بالعمقِ مع الوقَار ، والرِّقة معَ الكبرياءِ ، فإنَّ أميرةَ المريةَ لم تكنْ في وقارِهما ، ولا كبريائهما ، وإنّما كانْت تُشْهر بحبِّها ، وتصرخُ طالبةً خلوةً بحبيبِها ، ولم يكنْ هذا الحبيبُ الذي أخرجَ الأميرةَ أمَّ الكرمِ عمَّا ينبغي أنْ تلوذَ بهِ

---

(١) زينب المريّة: قالت زينب فواز عنها: هي ابنةُ أحدِ مشاهير العرب ، وُلِدتْ بالمرية من أعمالِ الأندلس ، ولم نقفْ علىٰ تاريخِ ولادتها واسم أبيها ، والذي وصَلَ إلينا أنَّها كانت ذاتَ حسْنٍ وجمالٍ وبهاءٍ ، وكمالٍ وأدَبٍ وظرفٍ وتهذيبٍ ولطْفٍ؛ رقيقةَ المعاني ، جزلةَ الألفاظ ، حاضرةَ النّادرة ، لها شعرٌ بديعٌ ، جالستِ الأدباء وساجلتِ الشّعراء ، حتى إنّه كان يُشارُ إليها بالبنَان ، في ذلك الأوان ، ومن شعرها:

يـا أيّهـا الـراكـبُ الغـادي مطيّتـه ... عـرّجْ أنبّئْك عـن بعضِ الـذي أَجِـدُ
ما عالجَ النَّاس من وَجْدٍ تضمَّنهم ... إلاّ ووجدي بهم فوقَ الذي وَجدوا
حبّـي رضـاهُ وإنّـي فـي مسّـرتـه ... وودّه آخــــر الأيــــام أجتهـــدُ

وتوفيتْ بالمريةِ مأسوفاً عليها من ذوي الأدبِ وأهل العلم. (الدر المنثور ص ٢٢٨).

(٢) الغسّانية البجانية: الشّاعرة الغسّانية البجانية ، نسبة إلىٰ بجانة ، وهي كورةٌ عظيمةٌ ، وتشتهرُ بإقليم المرية ، كانت ذات ظرفٍ وأدبٍ وجمالٍ ولطفٍ وبهاء وكمال ، عالمة بالعَروض وضروبه ، والشّعر وروايته.

وذكر الحجاري أنّها كانت في مدّة ملوكِ الطَّوائف ـ أي: من شَاعرات القرن الخامس الهجري ـ ومن شعرها قولها:

أتجـزعُ أنْ قـالـوا ستـرحـلُ أظعـانُ ... وكيف تطيقُ الصَّبر ويحك إنْ بانوا
فمـا بَعْـدُ إلا المـوتُ عنـد رحيلهـم ... وإلا فصبـــرٌ مثـــلُ صبـــرٍ وأحـــزانُ
عهدتُهم والعيشُ في ظلّ وصلهم ... أنيـقٌ وروضُ الـوصـل أخضرُ فينـانُ
فـاليتَ شعـري والفـراقُ يكـون هـل ... يكونون منْ بعد الفراقِ كما كانوا

ويقال: إنَّ لها قصائدَ وأشعارَ غير هذه، وهي منَ الشاعرات الموصوفات بالأندلس. (المغرب ٢/ ١٩٢) ، و(الدر المنثور ص ٣٥٦) مع الجمع والتصرف.

منْ أناةٍ وكتمانٍ واحتشامٍ ، سوى فتىً منْ فتيانِ قَصْرِ أبيها عُرِفَ بالسَّمَّار ، تماماً كما فَعَلَت «عُليةُ بنتُ الخليفةِ المهدي» ، وأختُ الخليفةِ الرَّشيدِ مع فتاها «طلّ» ، وصرخَتْ بأعلىٰ صوتها تردِّدُ تتغزَّلُ بهِ فيهِ ، ردّدَتْه أوّلاً رَدَهَاتُ قَصُور الخلافةِ ، ثمَّ ما لبث أنْ ردَّدَه التَّاريخُ بعدها .

* لعلَّ قلوبَ «الأميراتِ» أقلُّ تحملاً ، وأرقُّ رهافةً من قلوبِ بناتِ الشَّعب ، لقد فعلتْ ذلك عُليةُ بنتُ المهدي مع «طل» ، وكذلك فعلت أمُّ الكرمِ بنتُ المعتصم بن صُمادح ملك المرية مع «السَّمَّار» .

* إنَّها تنادي علىٰ النَّاس تطلبُ إليهم أنْ يعجبُوا معها على ما سبَّبُهُ الحبُّ من لوعةٍ لها ، وتتغزَّلُ في فتاها بمعانٍ وصيَغٍ هي ما وصلَ إلىٰ أسماعنا في مجالِ هذا البحث حتى الآن من صراحةٍ في إعلان العشقِ مطّرحةً كلَّ معنىً منْ معاني الكبرياء التي هي منْ مستلزماتِ طبيعة المرأةِ[1] .

* والحقيقةُ ـ عزيزي القارىء ـ فهذا كلامٌ خطيرٌ ابتدعَه واخترعَه الشَّكْعة هذا دون تروٍّ وأناةٍ ، فالأمْرُ ليسَ هيّناً كما يزعُم ، وهل يُعقل أنْ تصرخَ امرأةٌ أميرةٌ جليلةُ القَدر لتدل على عشيقها؟ إنَّ هذا لشيءٌ عجيبٌ!! نعم فكلامُ الشَّكْعةِ يدلُّ على تبذّل بنات الأشراف مِنَ الملوك والأمراء ، كما يدل علىٰ استهتارهنَّ بالقيمِ والأخلاقِ ، علماً بأنَّ والدَ أُمّ الكرم «المعتصمَ بنَ صُمادح» منَ الملوكِ الأندلسيّين ذوي العَدْل والأخلاق الحسَنَة ، وكذلك بنوه ، وقد نشأتْ ابنتُه أمُّ الكرم علىٰ الكَرَم ، تنعمُ في ظلالِ قصورِ المحامدِ والفضائلِ والأخلاقِ الذي شيَّده المعتصمُ في حياته .

---

(١) الأدبُ الأندلسي : موضوعاته وفنونه (ص ١٤٨) . ونقولُ لهذا الشّكعة : مَنْ أخبره بأنَّ علية بنتَ المهدي فَعَلَتْ وصرخَتْ تطلبُ العشْقَ والغزلَ مع فتاها طلّ؟! بل مَنْ أنبأه بأنَّ أمَّ الكرم اقتفتْ أثرها؟! الأمر يحتاج إلى هدوء وتروّ . . وكيف يعقل أن تنادي أم الكرم على الناس ليعجبوا من عشقها؟!

* وليس عجيباً أنْ تُنسبَ قصَّة عشْقِ أُمِّ الكرم للسَّمَّار ، فقد ذَهبَ المُلكُ منْ يَدِ أبيها ، وهنالك انتهزَ أعداؤُه الفرصةَ ، ونسجوا قصَّة هذا الغَرامِ المزعوم؛ وربّما نسجوا الأبيات التَّالية عنها وهي:

يـا معشَـرَ النَّـاسِ ألاَ فـاعْجَبُـوا ... ممّـا جَنَتْـهُ لـوعَـةُ الحـبِّ
لـولاهُ لَـمْ يَنْـزِلْ ببـدرِ الـدُّجـىٰ ... مَـنْ أُفْقُـه العلـويُّ للتُّـربِ
حَسْبـي بِمَـنْ أهـواهُ لـو أنَّـه ... فـارقَنـي تـابَعَـهُ قَلْبـي[1]

* وأودُّ أنْ أهمسَ في أذنِ القارىءِ الكريم فأقول: إنَّ هذهِ الأبيات تفوحُ منها رائحةُ الذّكُورة ، وأنَّ قائلها منْ جماعةِ الرّجال وليسَ من جماعةِ النِّساء ، والبصيرُ بالشِّعْر يدركُ ما نقوله.

* ثمّ نقولُ: لو صحَّت نسبةُ الأبياتِ لأُمّ الكرم ، فهل كانت متحرّرة إلىٰ هذا المستوىٰ؟! وهل كان أبوها ممّن يفرّط بكريمتهِ ووحيدتهِ ـ وهي الأميرةُ الحصيفةُ ـ أنْ تعشقَ حَدّاداً أو أحدَ السّفْلة ولا يردَعْها؟!

* تعالوا ـ أحبائي ـ نلقي ضوءاً كاشِفاً علىٰ شطْرٍ من حياةِ مَلِكِ المريةِ المعتصمِ بنِ صُمادح كيما نميزَ الخبيثَ من الطَّيِّب ، وكيما نعلمَ كيف تستوي الأمورُ وتستقيم.

* فقد ذكرَ ابنُ دحيةَ في «مُطْربِه» أنَّ المعتصمَ بنَ صُمادح قد روىٰ عن أبيهِ مَعْن، عن أبيهِ محمّد بنِ صُمادح مختصر غريب تفسير القُرآن للطَّبري[2].

* وفي «ذخيرته» شهدَ ابنُ بسَّام للمعتصمِ هذا بحسنِ الخاتمةِ والسِّيرة فقال: وكانَ بينَ المعتصمِ وبينَ اللهِ سريرة ، أسلفتْ له عند الحمام يداً

(١) انظر: المغرب (٢/ ٢٠٢ و٢٠٣) ، ونفح الطيب (٥/ ٣٠٣) ، ونزهة الجلساء (ص ١٨) ، وأعلام النساء (٤/ ٢٣٨) وغيرها.
(٢) انظر: المطرب (ص ٣٤).

مشكورة ، فماتَ وليس بينَه وبينَ حلولِ الفَاقِرة[1] به إلا أيّامٌ يسيرةٌ في سُلْطانه وبلدِه ، وبين أهلهِ وولده.

* حدَّثني مَنْ لا أردُّ خبرَه عن «أروىٰ» بعضِ مَسَانِّ حظايا أبيهِ قال: إنّي لعنده وهو يُوصي بِشَأنه ، وقد غُلِبَ علىٰ أكثرِ يده ولسانِهِ ، ومعسكرُ أميرِ المسلمين ـ تعني يُوسُف بن تاشفين ـ يومئذٍ بحيثُ نَعدُّ خَيْماتِهم ، ونسمعُ اختلاطَ أصواتِهم ، إذ سمعَ وجبة منْ وجباتهم فقال: لا إله إلا الله ، نُغِّصَ علينا كلُّ شيءٍ حتّى الموت!

قالت أروىٰ: فدمعتْ عيني ، فلا أنسىٰ طرفاً إليَّ يرفعُهُ ، وإنشادَه لي بصوتٍ لا أكادُ أسمعُه:

تَرفَّقْ بِدَمْعِكَ لا تُفْنِهِ ... فَبَيْنَ يَدَيْكَ بُكَاءٌ طَوِيْل[2]

* هذه هي أخلاقُ المعتصمِ والد أُمِّ الكرم ، ولا شكَّ في أنَّها استقَتْ منه هذهِ الفضائل ، ولا شكَّ في أنَّه قد ربَّاها علىٰ العِلْم والرِّوايةِ ثمَّ علىٰ مائدةِ الأدبِ ومائدةِ الفضيلةِ والمكارمِ.

* على أنّني بعد هذا كُلِّه ، لا أزعمُ أنَّ أمَّ الكرم مبرأةٌ منْ كلّ عيب ، وأنَّها حَوتِ الفضائلَ كلَّها ، وتأزرتْ بالمكارمِ جميعها ، ولكنَّ الأبياتَ التي أسندتها المصادرُ إليها والتي قرأناها ، لا تدلُّ على تبذّلها واستهتارِها ، وهي أبياتٌ بسيطةٌ تعبّرُ عن مكنوناتِ النَّفْس ، ولا تحتملُ ذلك الضَّجيج الذي أُثير حولَها ، بل إنَّ المصادر التي أوردتْ غزلَها لم تُشِر إلىٰ سوءِ سيرتها ، أو عدمِ اكتراثها بالقيم الأخلاقيّة والاجتماعية.

---

(١) «الفاقرة»: داهيةٌ عظيمةٌ تَقصم فِقَار الظّهر. وفي القُرآن: ﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٥].

(٢) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٤٤) نقلاً عن الذخيرة (١/ ٢: ٢٤٠) ، وانظر: قلائد العقيان (١/ ١٤٨).

* يقول عبدُ الله عفيفي عن بعضِ نساءِ عَصْر أمّ الكرام بنِ المعتصم: وبدأتِ المرأةُ الأندلسيّةُ في هذا العَصْر تنكشفُ ، وتأخذُ فيما أخذَ النَّاس فيه منْ لهوٍ ونعيمٍ ، وجاذبتِ الرَّجُلَ فنونَ المَرحِ ، وقالتْ ما لم يكنْ يقولُه غيره من تغزُّلٍ وتخالُعٍ، وتفرّقٍ وتواصلٍ، ومُنَاقَضَةٍ ومماجنةٍ، ومُنَاقلةٍ ومداعَبةٍ ، ولكنَّ الأخلاقَ بقيتْ في جُملتِها مستمسكةً في هذا الجيلِ منَ النِّساء[1].

* لقد كانتْ أمُّ الكرم تَعي مكانتَها في عالَم النِّساء الأندلسيّات ، وتعرفُ أصْلَ دوحتِها ، ونجابةَ أبيها وإخوتها ، وهي أكبرُ منْ أنْ تنزلق في مزالق الجواري وعبثهنّ ومجونهنّ.

* صحيح أنَّ المجتمعَ الأندلسيّ عَصْرَ ذاك كانَ أكثر انفتاحاً ممّا كان عليه في المشرقِ العربيّ؛ إلاّ أنَّ هذا لا يعني بأنَّ الأخلاقَ قد تلاشَتْ أو تبخَّرتْ وذهبَ الحياءُ منَ النَّاس.

الحَرَائـرُ الأَنـدلسيّاتُ والـجَـوَاري:

* لعلَّ بعضَ النِّساء الأندلسيّات ، كُنَّ يتمتعنَ بحريةٍ أكثر مما كانت تتمتعُ به النِّساء في المشرقِ العربي ، ولعلَّ هذه الحرية قد أدَّت إلىٰ ظهورِ عددٍ منْ مشاهيرِ النِّساء ، وأخريات شاعرات ملأْنَ الدُّنيا وشغَلْنَ النَّاس ، وظهرَت طبقةٌ منهنّ قُلْنَ شِعْرَ الغَزَلِ المتنوِّع ، ونعتقدُ أنَّ معظمهنَّ كُنَّ منَ الجواريِ والقيان[2] والإماء.

---

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (٣/ ١٣٠).

(٢) الجواري والقيان: تَسْرحُ في الأذهانِ مَناظرُ التّرفِ والثّراء في قُصورِ الأندلسِ ، وتقفزُ إلىٰ الذّهنِ كثرةُ الجواري والقيَان اللائي كُنَّ يملأنَ تلكم القصور ، ويعملنَ علىٰ ترفيهِ أصحابِها من شِعْرٍ وعزفٍ وغِنَاء ، وكان منهنّ السّراري ، ثمّ ما لبث بعضُهنّ أنْ صرنَ أمّهات أولاد ، وأنجبنَ بعضَ الخُلفاء والنّجباء اللامعين في دنيا الشّهرة. =

* أمّا دورُ الإماءِ في الأندلسِ فلا شكَّ في أنَّه كانَ أكثر سيطرةً في شِعْر الغَزَل ، وفي التّغَزّل ، وذلك نَظراً لكثرتهنَّ وتبذلهنَّ ، واختلاطهنّ بالرِّجالِ في مجالسِ اللهو والشَّرابِ والغناءِ ، وكُنَّ يرقُصْنَ ويغنينَ ويَسْمَعنَ ، ولا يتحرَّجُ النَّدامىٰ منْ إنشادِ الأَشْعار فيهنَّ ، فصوَّروا فتاةَ الأندلسِ راقصةً ، أو مغنيةً ، مُحدِّثةً أو ملاطِفَةً ، ووصفوا ملابسها ، وشَعْرَها ، وملامحَ وجهِها ، وصفاءَ بشرتها ، ومحاسنَ جسدِها وصْفاً مفصَّلاً ، بل قد يُطْلَبُ منهم ذلك ، كما حَدثَ مع ابنِ حمديس الصِّقلي ، وقد سألَه رجلٌ أديبٌ من الأندلسِ أنْ يصفَ له راقصةً علىٰ مذهبِهم في رقْصِ قيناتِهم ، وذلك أنَّ الرَّاقصةَ منهنَّ تشيرُ بأنْملها وهي تغنّي إلىٰ كُلِّ عضو ، وما يحلُّ به منْ تعذيبِ الهوى ، فإنْ ذكَرَتْ دَمْعاً أشارتَ إلىٰ العَيْنِ ، وإنْ وصَفَتْ وَجْداً أشارتْ إلىٰ القلبِ ، وهي مع ذلك تعبِّرُ عن تدللِ المحبوب ، وتذللِ المُحبّ بما يليقُ بهما منَ الإشاراتِ الحسنةِ والحركاتِ المنبّهة علىٰ ما أرادتْ فقال:

وَرَاقصَةٍ بالسِّحْر في حركَاتِها ... تُقيمُ بـه وَزْن الغِنَـاءِ عَلـىٰ حـدِّ
مُنغِّمَـــةٌ أَلفَـــاظُهـــا بتَـــرنُّـــمٍ ... كَسَا مَعْبداً[1] منْ عزّةٍ ذلّة العَبْدِ
تدوسُ قُلُوبَ السَّامعينَ برخْصةٍ ... بهـا لَقَطَـتْ مـا للّحـونِ مـنَ العـدِّ
بقَدٍّ يموتُ الغُصْنُ منْ حركَاتِهِ ... سكوناً وأينَ الغُصْنُ من بَـرَهِ القَدِّ[2]
وتحسبُهـا عمَّـا تُشيـرُ بـأَنْمُـلٍ ... إلىٰ ما يُلاقي كلّ عضوٍ من الوَجْدِ

= ولقد كانَ للقيان في الأندلسِ دورهنّ المتنوّعِ على مسرحِ الحياة الاجتماعية ، وكان أكثرهنّ قد تلقينَ أصولَ العَزفِ والغناء ، وبرعنَ في هذه الظّاهرة ، وغطين بذلك على المرأة العربيّة العفيفة ، إذ أنَّ وضْعَ الجواري يختلفُ عن الحرائر.

(١) «معبداً»: هو معبد المغني المشهور.

(٢) «بَـرَه»: الـبَـرَهُ: البضَاضة والامتلاء.

بِنا لا بِها مَا تَشْتكي منْ جَوىٰ الهوىٰ وأدْمعِ أَشْواقٍ مخدّدة الخَدِّ[١]

* وثمّة ناحية أخرىٰ نضيفها إلىٰ تَمتّع النِّساء الأندلسيّات بالحريةِ أكثر منْ غيرهنَّ ، وهي جمالُ البيئةِ ، فالأَندلسُ بلادٌ جميلةٌ ، حبَاها اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ طبيعةً ساحرةً ، ففيها ماءٌ وخضرةٌ ، وأنهارٌ وبساتين ، وسهولٌ وجِبال ، وفواكهُ مما تشتهيهِ الأَنْفس وتلذُّ لهُ الأعين؛ وزهْرٌ يزينُ حدائقها في أيّامِ الرَّبيع ، وقصورٌ تملأُ ساحاتها ، ثمَّ أضفىٰ حُسْنُ الحضارةِ الجديدةِ الممزوجةِ بكلّ الألوانِ الأوربيّة علىٰ الأندلس من الرّقي المرموقِ ما جعلَ سكانها يحافظونَ على روحِ الجمال الطَّبيعيّ في بلدِهم ويزيدون فيه ، فأصبحتِ الأندلس أهزوجةً نشوىٰ على فم كلِّ شاعِرٍ وشاعِرةٍ، يترنم جميعُهم حاضرُهم وغائبُهم بجمالِها وزينتها، والشِّعْرُ الأندلسيّ بعامّةٍ يشهدُ على مصْدَاق ما أوردنَاه، حيثُ أكثرَ الأندلسيّون من وصفِ الرِّياضِ والمتنزَّهَاتِ والجداولِ والأزهارِ والرَّياحين والأشجارِ والأَنْهار وما شَابَه ذلك.

* ولعلَّ فيما أوردْنَاه مسوّغات لظهورِ عدد منَ الشَّاعراتِ الأندلسيّات اللاتي ساهمنَ في فنونِ الشِّعرِ والأدبِ ، وأَثْرَيْنَ فنَّ الغَزَلِ ، كما ظهرَ عددٌ منَ الجواري احتللنَ مكانَ الصَّدارة في قُصورِ الأمراءِ الأندلسيين من مثل عابِدة المدنية[٢] .

---

(١) ديوان ابن حمديس (ص ١٣٣) ، قصيدة رقم (٨٤).

(٢) «عَابدة المدنية»: منَ الجواري اللاتي اقتعدْنَ سدَّة الصَّدارةِ في القُصور الأندلسيّة ، وحظينَ بالمكانةِ السَّنية.
قال المقّري: منَ النّساء الدّاخلات الأندلس منَ المشرقِ عابدة المدنية ، أمّ ولد حبيب بن الوليد المروانيّ المعروفِ بدحون.
كانت جاريةً سوداءَ من رقيقِ المدينة حالكةَ اللون ، غير أنّها تروي عن مالك بن أنس إمام دار الهجرة وغيرِه من علماء المدينة ، حتى قال بعضُ الحفّاظ: إنّها تروي عشرة آلاف حديث. =

* إنَّ معظمَ الذين تصدّوا لدراسةِ الشِّعرِ الغزليّ في الأندلسِ ـ من الشَّرق والغرب ـ ، لا يتحدثون عن شعراء الغزلِ بقدرِ ما يتحدثون عن شاعرات الغَـزل، نعم شاعرات الغَـزَل اللواتـي كثرن كثـرةً ملفتـةً للنَّظر .

* وقد أوردتْ بعضُ الدِّراسـاتِ المستقـاةِ منَ المصـادرِ أنَّ هناك مئات منْ شاعراتِ الغَـزَلِ منَ الأندلسِ ، ولكنَّ هؤلاء الشّاعرات كُـنَّ علىٰ الأغلبِ منَ الجوارِي[1] ومن القيان وطبقتهنّ؛ وكذلك منَ النِّساء الحرائـر. وقد احتفـظَ تاريـخُ الشَّـاعرات بأسماء شواعـر منَ القيـان والحرائـر ، ومنهنَّ: قَـمر[2] ، عائشَـةُ القرطبيّـةُ ، حَفْصَـةُ الحِجاريـةُ ،

= وقال ابنُ الأبّار: إنّها تسندُ حديثاً كثيراً ، وهي أمُّ ولده بشْر بن حبيب والذي وهبها لدحون في رحلتهِ إلىٰ الحجّ هو محمّد بنُ يزيد بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان ، فقدم بها الأندلس ، وقد أعجبَ بعلمها وفهمها ، واتّخذها لفراشه ، رحم الله تعالى الجميع. (نفح الطيب ٤/ ١٣٧).

(١) لقد نَمتْ في الأندلس شخصيّة بعضُ الجواري حتّى نازعْنَ الحرائرَ منازلهنّ السَّاميّة داخلَ القُصور وخارِجَها ، وكانَ لهنّ شهرةٌ ذائعةٌ في الأَدَبِ والشِّعر ، حتى فرضْنَ على ساداتِهنّ احترامهنّ وتقديرهنّ ، وماضي هؤلاء في الحريّة مشهورٌ معروفٌ ، حيث إنّهنّ كُنَّ إسبانيات حرائرَ لم يفارقهنّ بمجردِ وقوعهنّ في الأَسْرِ ، وظللْنَ أوفياءَ لوطنهنّ حتى لقد كُنَّ عاملاً منْ عواملِ القَضاء علىٰ الحكمِ الإسلاميّ في الأندلس ، بما أشعْنَ في قُلوب أبنائهنَّ من ولاءِ لوطنهنّ ، والنّظرة إلىٰ الحكم العربيّ على أنّه حكْمٌ دخيلٌ ينبغي التّخلّص منه ، وساعَد علىٰ نمو هذه الشّخصيّة كثرتهنَّ في القُصُور. انظر (الحلة السِّيَراء ٢/ ٤٣).

(٢) «قمر»: عندما تحدَّثَ المقريُّ عنِ النِّساء القادماتِ منَ المشرقِ إلىٰ الأندلسِ قال: ومنَ النّساءِ الدَّاخلاتِ إلىٰ الأندلسِ منَ المشرقِ: قَمر جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية.
كانتْ من أهلِ الفَصَاحة والبَيان ، والمعرفةِ بِصَوغ الأَلْحَان ، وجُلبَتْ إليهِ منَ بغداد ، وجَمعَت أدباً وظرفاً ، وروايةً وحفظاً ، مع فَهْمٍ بارعٍ ، وجمالٍ رائعٍ ، وكانت تقولُ الشّعر بفضل أدبها ، ولها في مولاها تمدحُه:

ما في المغَارِبِ من كريمٍ يُرتَجىٰ ... إلا حليـفُ الجـودِ إبْـراهيـمُ =

وهؤلاء ممن عشْنَ في القرنَيْن الثَّالث والرَّابع الهجريَّيْن.

* كما ذكرَ التَّاريخُ شاعرات منَ القرنِ الخامسِ الهجريّ منهنّ: زينبُ المَريَّة، غايةُ المنى، حمدةُ بنتُ زياد[1]؛ وأختُها زينب، ونزهون الغَرناطية[1]، ثم شاعرات قرطبةَ، وفي مقدمتهن: ولادةُ بنتُ المستكفي[1]، وشاعراتُ إشبيليَة، ومنهنّ: بثينةُ بنتُ المعتمد بن عباد[1].

* ثم يطلُّ القرنُ السَّادس الهجريّ ليحملَ أسماء شواعر أخريات ومنهنَّ: حفصةُ بنتُ الحاج[1]، وأسماءُ العامريّة، والشَّاعرة الشِّلبيّة.

* إنَّ طبيعةَ الحياةِ الأندلسيّةِ، وحياةَ المرأةِ فيها بالذَّاتِ، قد تعرَّض عَبْرَ التَّاريخ لتشويهٍ وتحريفٍ وأهواءٍ متفرّقة، ولا شكَّ في أنَّ الكتابةَ عنِ المرأةِ الأندلسيّة موضوعٌ دسِمٌ ومثيرٌ، ومنَ السَّهلِ أنْ تكثرَ الوقائعُ والأحداثُ البرّاقة في حياةِ مشاهيرِ النّساء، أو تُصَاغ بعضُ القَصص حَسْبَ الأهواء، وممن وقع في شَرَكِ أولئك الخرّاصين: ولادةُ بنتُ المستكفي ـ المزعومةُ ـ، وأمُّ الكرم بِنتُ المعتصم وغيرهما من نساءِ الأندلس.

آخـرُ الـمشـوَار:

* قبلَ أنْ نودِّعَ أمَّ الكرم بنتَ المعتصم بنِ صُمادح، دعونا نقفْ هذه

= إنّـي حَلَلْتُ لـديـهِ منـزلَ نعمـةٍ ... كـلُّ المنـازلِ مـا عـداهُ ذميـمُ

وأنشدَ لها السّالميُّ لمّا ذكرَها عدّة أشْعار، منها قولُها تتشوّق إلىٰ بغداد:

آهـاً علـىٰ بغـدادِهـا وعِـراقِهـا ... وظبـائِهـا والسّحْـر فـي أحْـداقِهـا
ومجـالِهـا عنـدَ الفُـراتِ بـأوجـهٍ ... تبـدو أهلّتُهـا علـىٰ أطـواقِهـا
مُتَبَخْتِـراتٍ فـي النّعيـم كـأنّمـا ... خُلِـقَ الهـوى العـذريُّ مـنْ أخلاقِهـا
نَفْسـي الفـداءُ لهـا فـأيّ محـاسِـنٍ ... في الدّهر تشرقُ من سَنَا إشراقِها

(نفح الطِّيب ٤/ ١٣٨).

(١) اقرأ سيرهن في هذه الموسوعة اللطيفة.

الوقْفَة القصيرة معها ، فقد ذكرتِ المصادرُ أنَّ لها شِعراً في الغَزلِ يحاكي أشعارَ المشَارِقة ، وقد سجَّل لها صاحب «المُغرب» هذين البيتين:

ألا لَيْتَ شِعْري هَل سَبيل لخلوةٍ يُنَـزَّهُ عنهـا سَمْـعُ كـلِّ مُـراقـبِ
ويَا عَجباً أشْتَاقُ خَلوةَ مَنْ غَدا ومثْواهُ ما بينَ الحَشَا والتَّرائبِ[١]

* وكما نلحظُ أنَّ في هذيْن البيتَيْن رقّة اللفظِ ، وفَنّ الكلمةِ اللطيفةِ ، لكنْ ترى هل قالتْهما في الفتىٰ السَّمَّار ـ كما زعموا ـ؟!

* إنَّ ابنَ سعيد قال عن ذلك وبلغَ المعتصم خبره ، فخفي أمره من ذلك الحين[٢] .

* لكنَّ الذي تطمئنُ إليه النَّفس ، أنَّ مثل هذه المقطّعات الشّعرية قيلت منْ بابِ التّعبير عن رقيقِ الكلام ، ولطيف المشاعرِ ، ولو كان الأمرُ كما زعموا لما احتاجَت أمُّ الكرمِ إلى خلوةٍ مع من أحبّتْ حبّاً غير شرعي ، وهي الأميرةُ صاحبةُ القصور ، وابنةُ ملك المرية صاحب الصُّمادحية العجيبة في هندسة البناء وفن العمارة.

* أخيـراً ، أرجـو الله أنْ أكـونَ قـد وفّقـتُ فـي عَـرض صـورةِ أمّ الكرم بنتِ المعتصم الصُّمادحية إحدىٰ نساءِ الأندلسِ في تاريخنا الوضيء.

* * *

(١) المغرب (٢/ ٢٠٣) ، وكأني بأحد الشّعراء قد أغارَ على هذهِ المعاني فقال:

جمالُك في عيني وذكْرَك في فمي وحبُّـك فـي قلبـي فـأيـنَ تغيـبُ؟!

(٢) المغرب (٢/ ٢٠٣).

أمّ الهناء بنت عبد الحق

* كانت مثالاً للمرأة المثقفة ، والقدوة المثلى؛ في علوم الدين والتفسير.
* شاعرة ، حاضرة النادرة ، من أهل العلم والفهم والعقل.
* ذات تآليف في الفقه وغيره.

أمّ الهناء بنت عبد الحق

* منْ قرطبةَ الغرّاءِ ، تأتي اليومَ إحدىٰ النِّساءِ ، لتشُقَّ طريقَها بينَ نسوة الأنْدلُسِ اللواتي ننظمُهنّ في هذا العقْدِ الفريدِ اللطيفِ ، لتكونَ سيرتُها بهجةَ المَجالِسِ ، ولطْفَ المُجالسِ ، وأنْسَ الأديبِ والعَالِمِ.

* ولم تكنْ ضيفتُنا منْ مجهولاتِ نساءِ عَصْرِها ومصْرِها ، بل إنَّ أبَاها واحدٌ منْ كُبراءِ عَصْرِه ، وعلماءِ مصْرِه ، وقُضاةِ وقْتِه ، وهو أبو محمّد عبدُ الحقّ بنُ غَالب بنِ عبد الرّحمن بنِ عطيّةَ المحاربيّ منْ أهلِ غَرناطةَ ، ومشهور بابن عطيّة. قال ابنُ بشكوال عنه: كانَ واسعَ المعرفةِ ، قويَّ الأدَبِ ، متفنّناً في العُلوم ، أخذَ النَّاسُ عنه ، وتوفيَ ـ رحمهُ الله ـ في سَنةِ (٥٤٢ هـ)[١].

* وذكَرهُ ابنُ سُعيد في «المُغْرب» قال: عبدُ الحق بنُ عطيّة صاحبُ التَّفْسير الكبير في القُرآن ، ومنْ أَحْسَن شعْره قولُه:

وَكُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ جِبَالَ رضْوىٰ ... تَزُولُ وأنَّ وُدَّكَ لا يَزُولُ
وَلكَنَّ الزَّمَانَ لَهُ انْقِلابٌ ... وَأَحْوَالُ ابنِ آدمَ تَسْتَحيلُ
فَإِنْ يَكُ بَينَنَا وَصْلٌ جَميلٌ ... وَإلاَّ فليكُنْ هَجْرٌ جَميْلُ[٢]

---

(١) انظر: الصِّلة (٢/ ٣٦٧ و٣٦٨) طبعة الخانجي بمصر.

(٢) انظر: المغرب (٢/ ١١٧ و١١٨) بتصرف يسير جداً.

* أمّا ابنتُه التي نَحْفَلُ بنظمِها مع بناتِ أندلِسها وعراقِها ومصْرِها ، فهي أمُّ الهناءِ[1] ، وقد وَرَدَ اسمُها بالكنيةِ هكذا : أمُّ الهناءِ بنْتُ القاضي أبي محمّد عبد الحقّ بنِ عطية[2] .

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ أبَاها قد عُنِي بها عنايةً فائقةً ، وأنَّها تخرَّجَتْ في مدرستِهِ العِلْميّةِ التي كانَتْ تضمُّ كبراءَ علماءِ عَصْره ، وأدباء مِصْرِه ، وفقهاء قرطبةَ ومَنْ حولَها .

* ولما شبَّتْ أمُّ الهناءِ عنِ الطَّوقِ كانَتْ أحدوثةً طيّبةً ، وقدوةً مُثْلىٰ لبناتِ عَصْرِها ، حيث كانَتْ مِثالاً كريماً ـ يُحتذىٰ للمرأةِ المثقّفَةِ والتي نالَتْ منْ علومِ الدِّينِ والتَّفسيرِ حظّاً وَافراً لا يُسْتَهان به .

* وقد نَهَلَتْ أمُّ الهنَاء معارفَها في بلدِها قرطبةَ ، وقرطبةُ من أشهرِ مُدنِ الأندلس ، فقد كانتْ قبّةَ الإسلامِ ، ومجتمعَ أعلامِ الأنام ، وإليها كانتِ الرّحلةُ في الرِّوايةِ إذ كانت مركَزَ الكُرماء ، ومعدنَ العُلماء ، وهي منَ الأندلسِ بمنزلةِ الرّأس منَ الجسدِ ، ولأهلها رياسةٌ ووقَار ، ولا تزالُ سِمَةُ العِلْمِ متوارثةً فيهم ، إذ قرطبةُ منْ أكثرِ بلادِ اللهِ كُتُباً .

* ومنَ العجيبِ أنَّ أهْلَها لا يصبرونَ على فِراقها ، وكأنَّهم كالرُّضعِ إذا فُصِلُوا عن الثَّدي فإنَّهم يبكونَ ويضطربون[3] .

---

(١) نفح الطِّيب (٦/ ٧٢) ، وأعلام النِّساء (٥/ ٢١٣) ، وأوردتْ بعضُ المصادرِ بأنَّ اسمها هو : أمَةُ الرّحمن ، وَأنّ كنيتَها هي : أمّ هانىء ، إلاّ أنَّ المشهور هو : أمّ الهناء .

(٢) نفح الطّيب (٦/ ٧٢) .

(٣) منْ ذَلكَ ما نَـقَـلَه المقّريُّ في «نَـفْحه» قال : وَحَكىَ الإمامُ ابنُ بَشْكُوال عنِ الشَّيخ أبي بكر بنِ سَعادة ، أنّه دخَلَ مدينةَ طُليطلةَ مع أخيهِ علىٰ الشَّيخِ الأُستاذِ أبي بكر المخزوميّ ، قَال : فَسَأَلَنا : منْ أينَ؟
فقُلنا : من قرطبةَ .
فقال : متَىٰ عهدُكما بها؟ =

* وقد كانَ والدُ أُمِّ الهنَاء ممن شُغِفَ بقرطبةَ حبّاً ، فقد أبدعَ في ذكْره لها إذا ما فارقَها. قال المقّريُّ: وما أَحْسَن قولَ الشيخِ الإمام أبي محمّد عبد الحق بن غالِب يستودعُ أَهلَ قرطبةَ لمّا أرادَ الارتحالَ عنها ، فقصدَ المسجدَ الجامعَ وأنْشَدَ:

أَسْتَـودعُ اللهَ أَهْـلَ قُـرطُبَـةٍ حَيْـثُ وَجَـدْتُ الحَيَـاءَ والكَـرمَـا
وَالجَـامِـعَ الأَعْظَـمَ العَتيـقَ ولاَ زَالَ مَدَى الدَّهْرِ مَأْمناً حَرَما(١)

* وهكذا كانتْ قرطبةُ روحَ حياةِ ابنِ عطيّة وحياةَ روحهِ ، ومعقلَ الحياءِ والكَرم والأمْنِ ، بل إنَّ قرطبةَ هي سيّدةُ الأَمْصارِ الأندلسيّة ، ورئيسةُ تلك النَّواحي ، حيث ذكَر ابنُ عطيَّة بأنَّها فاقَتِ الأَمْصَار بأربعةِ أشياء أكبرُها وأعظمُها العِلْم ، وفي ذلك يقولُ ـ رحمه الله ـ:

بِـأَرْبَـعٍ فَـاقَـتِ الأَمْصَـارَ قُـرطُبَـةٌ وَهُـنَّ قَنْطَـرَةُ الـوَادِي وَجَـامِعُهـا
هَـاتَـانِ ثِنْتَـانِ والـزَّهْـراءُ ثَـالِثَـةٌ والعِلْمُ أكْبَرُ شَيءٍ وهُوَ رَابِعُها(٢)

* ومنْ هذا المعينِ الفُرات العَذْب نَهلَتْ أمُّ الهنَاء ، فكانتْ شاعرةً رقيقةَ الإحْسَاسِ ، وكانَتْ حاضرةَ النَّادرةِ ، سريعةَ التَّمثُّلِ ، منْ أهْل العِلْم والفَهْم والعَقْل ، ولها تأليفٌ في القُبور(٣).

* ولعلَّ هذا التَّأليفَ مِنَ المؤلفات الفِقْهيّةِ التي استقَتْها من علومِ أبيها

= فقلنا: الآن وصَلْنا منها.

فقال: اقربا إليَّ أشمُّ نسيمَ قرطبةَ، فقرَّبنا منه، فشمَّ رأْسي وقبَّله، وقال لي: اكتبْ:

أَقُـرطُبَـةُ الغـرّاء هَـلْ لـي أَوْبَـةٌ إِلَيْـكِ وَهَـلْ يـدنُـو لنَـا ذَلـك العَهْـدُ
سَقَىٰ الجانِبَ الغربيَّ منْك غَمامَةٌ وقَعْقَعَ في سَاحَاتِ دَوحَاتِك الرَّعْدُ
لَيـالِيْـكِ أَسْحـارٌ وأرضُـك روضَـةٌ وتُـربُـك فـي استنشـاقِهـا عَنْبـرٌ وَرْدُ

(نفح الطيب ١/ ١٥٠ و١٥٢).

(١) نفح الطِّيب (٢/ ١٤٧).
(٢) نفح الطيب (٢/ ١٤٧).
(٣) نفح الطيب (٦/ ٧٢).

ومن مكتبتِهِ وتصانيفِهِ ، وذكروا أنَّها قد صنَّفَت تأليفاً في الأدعيةِ اطَّلعَ عليه ابنُ عبد الملك ووقَفَ عليه بنفْسِهِ.

* وكانتْ أمُّ الهناءِ رقيقةَ المشاعر كأبيها ، فقد ذكَر المقَّري أنَّ أباها لما وَليَ قضاء المريَّة ، دخلَ دارَه وعيناهُ تَذرفان وَجْداً لمفارقةِ وَطنِهِ ، وتلمح أمُّ الهناء الدَّمْعَ يسيلُ من عَيْنَي أبيها الشَّيخِ العالمِ الوقورِ ، فأنشدتْه متمثّلة :

يَا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عنْدَكِ عَادةً تَبْكيْـنَ فـي فَـرَحٍ وَفـي أَحْـزَانِ

* وهذا البيتُ الجميلُ السَّاحِرُ الذي تمثَّلَتْ بهِ أمُّ الهنَاء ، ليس بيتاً يتيماً مُفْردَاً ، وَإنّما هو حبّةٌ في عقْدِ بضعةِ أبياتٍ غزليّةٍ رقيقةٍ كأنْسامِ الصَّباح في قرطبةَ ، تحملُ بين سُطورِها وحروفها براءةَ القَولِ ولطافَتهِ ، والأبياتُ هي :

جَـاء الكِتَـابُ مِـنَ الحبيْـبِ بِـأَنَّـهُ سَيـزُورُنـي فَـاسْتَعْبَـرتْ أَجْفَـانـي
غَلَـبَ السُّـرورُ علـيَّ حتّـى إنَّـهُ مِـنْ عظـمِ فَـرْطِ مَسَـرَّتـي أَبْكَـانـي
يَا عَيْنُ صَارَ الدَّمْعُ عنْدكِ عَادةً تَبكيْـنَ فـي فَـرَحٍ وفـي أَحْـزَانِ
فَـاسْتَقْبلـي بِـالبِشْـرِ يَـومَ لقـائِـهِ وَدَعي الدُّموعَ لِلَيْلَةِ الهِجْرانِ[١]

* وتسكتُ المصادرُ ، فلا تنبسُ ببنْت شَفَة عنْ وفاةِ أُمّ الهناء هذه ، لكنَّنا نستطيعُ أنْ نقولَ بأنَّها منْ نساءِ القرنِ السَّادس الهجريّ لأنَّ أبَاها وليَ قضاءَ المريةَ سنة (٥٢٩ هـ) ، وتوفيَ سنة (٥٤٢ هـ) أو (٥٤١ هـ) ، وعندما أَنْشَدتْ أباهَا البيتَ المذكور كانَتْ في ريعان الشَّباب ، ولا نعلمُ بعد ذلك عنها شيئاً ، لكنّنا استطعنا الاقترابَ من العَصْر الذي عاشَت فيه أمُّ الهناء ، فكانَتْ منْ نساءِ الأندلسِ المعْروفات.

* * *

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٧٢) ، وأعلام النساء (٥/ ٢١٣).

أُنْسُ القلوب

* صاحبة جمال باهر ، وسحر عيـون ظاهر .
* شاعرة ، أديبة ، مغنية .
* لهـا آثـار أدبيـة جميـلة فـي قـصـور المـلوك والأمـراء والكبراء .

أُنْسُ القلوب

* حفلتْ قُصُورُ المُلوكِ وَالأُمراءِ الأندلسيّين بأَنْواعِ الجواري وأصْنَافِ القيانِ ، حتى كثرنَ كَثْرةً ملفتَةً للنَّظَر ، وكانتِ القصورُ الأندلسيّةُ آيةً منْ آياتِ الجمالِ والبذخِ والإسرافِ. ممّا نقرؤه في أَشْعَارِ الأندلسيّين أنفسِهم في مقامِ المديحِ ، أَو التَّهْنِئَةِ ببناءِ قَصْرٍ جميلٍ لأحدِ الأُمراءِ أو المُلوك.

* وهنا تقفزُ إلىٰ الذّهْنِ مع هذا الثَّراءِ وهذه الفَخامةِ ، أعدادُ الجواري والقِيان اللواتي كُنَّ يملأْنَ القصورَ ، ويأخذنَ مساحةً كبيرةً من حياةِ أصحابِها ، بما يقدمْنَه منْ ترفيهٍ ومنْ غناءٍ وشِعْرٍ وأدبٍ ، ثمّ صِرْنَ سَراري ، ثم ما لبثَ بعضهنَّ أنْ صِرْنَ أمّهاتِ أولاد ، وأنجبنَ بعضَ الخُلفاءِ الذين خلّفُوا أَعْمَالاً جِساماً في تاريخ بلدهم.

* ومنَ الملفتِ للنَّظَر أنَّ الأميرَ عبدَ الرحمن الأوسَط قد أفردَ للجواري بناءً وداراً كانَتْ مُلحقةً بقصرِهِ سمّيت دَارَ المدنيَّات[1] ، نسبةً إلىٰ الجواري اللاتي كُنَّ يأْتِينَ منَ المدينةِ؛ وكانتْ قصورُ عبدِ الرحمن الأوسط منَ الفخامةِ بحيثُ إنَّ الشُّعَراء حَاروا بوصْفِها ، ومنها قولُ أحدهم:

حَنَـايـا كَـأمْثَـالِ الأهلَّـةِ رُكّبَـتْ   على عُمُـدٍ تَـعْتَـدُّ في جَوهَر البَـدْرِ
كَأَنَّ منَ الياقُوت قيْسَتْ رؤوسُها   علىٰ كلّ مسنونٍ مقيضٍ منَ السَّدْرِ

---

(١) انظر: نفح الطيب (٤/ ١٣٧).

* وكانتْ بعضُ السَّراري والجواري يمتلكنَ مَالاً وفيراً وثروةً طائلةً ، من ذلك أنَّه ماتَتْ للنَّاصِرِ سُرِّيةٌ ، وتركَتْ مَالاً وفيراً ، فأمرَ بأنْ يُفَكَّ بالمال أَسْرىٰ المسلمين في بلادِ الفِرنْجَة ، فلم يُوجَدْ ـ في عَصْره ـ أسيرٌ واحدٌ لديهم.

* وكانَتْ له جاريةٌ قريبةٌ إلىٰ نَفْسهِ اسمُها الزَّهراء ، فقالَتْ له: اشتهيتُ لو بنيتَ لي مدينةً تسميها باسْمِي ، وتكونُ خاصّةً لي ، فأَمَر النَّاصرُ ببناءِ المدينة تحت جَبَلِ العروس غربيّ قرطبة ، وجَعَلها مستنْزَهاً للزَّهراء[1] جاريتهِ ، وكذلك لحاشيته ورجالِ دولته.

* ومهما يكُنْ منْ أمرٍ ، فإنّه كانَتْ لبعضِ الجواري آثارٌ في تاريخِ المرأةِ الأندلسيّة ، وفي أَدبها.

* ولكنّ كثيراً منَ المصادرِ لم تَجُدْ بأَدَبِ هؤلاء الجواري إلا بالنَّزْرِ اليَسيـر ، واقتصـرتْ بعـضُ الـرّوايـات علـىٰ ذِكْـرِ بعـضِ المُنـاظـرات والمُطارَحَات بينَ جاريةٍ وشاعرٍ ، أو بينَ جاريةٍ وأخْرىٰ ، عِلماً بأنَّنا نَجدُ المصادرَ تَنْعَتُها بأنّها شاعرةٌ محسنةٌ ، أو أنَّها منْ أشْعَرِ نساءِ زمانِها ، أو أنَّها فَخْرُ بلدِها ، ومَا شَابه ذلك.

* وَأغلبُ الظَّنّ أنَّ الجواري كان لهنَّ شِعْرٌ رقيق خفيف ، فاقتصرَ الرُّواةُ على ذِكْرِ ما يصلحُ منْه للرِّوايةِ ، ولعلَّ بعضَهم قد أَنِفَ منْ روايتهِ ، وأضْرَبَ عن حفظه ، وضَرَبَ صَفْحاً على كثيرٍ منْ أخبارِهنَّ وذكْرِ

---

(١) مَن المُستَبْعَدِ أنْ يستجيبَ مَلِكٌ عظيمُ الشَّأْن كالنَّاصر لرغبةِ جاريةٍ من جواريه ، أو أنْ يقعَ أسيرَ رغبتها ببناءٍ مدينة الزَّهراء ، وهو الذي أَسَرَ الملوكَ ودوَّخهم.
ولعلَّ بناءَ الزهراءِ قد شَابَهُ خيالُ الرُّواةِ والأدباءِ ، ومنَ المرجّح في بنائِها هو التوسُّعُ العمراني ، وضيقُ قرطبة وازدحامُها ، فبنىٰ الزّهراء كما فَعَل أجدادُه من قبل ، ناهيكَ بغرام النّاصر وفتونهِ بالعمران. ولعلّه أطلقَ لقبَ الزَّهراء على مدينته تفاؤلاً بها ، أو لبياضِهَا وجمالها.

شِعْرهنَّ ، لأنَّه اعتبرَ أنَّ شعرهنَّ وأدبهنَّ لا يرتقي إلىٰ مستوى الجَودة.

* ونلتقي اليومَ جاريةً قينةً شاعرةً أديبةً مغنيةً تُدعى أُنْس القُلوب[١] ، هذه القينةُ لها أثارةٌ أدبيةٌ جميلةٌ في قُصور الملوكِ والأمراءِ، وأمام الوزراء والكبراء.

* لقد أثَّرتِ الجواري في الشِّعر ، وأَثَرْنَ المشَاعِرَ بشِعرهنَّ الأنيقِ ، ذي الألفاظِ النَّاعمةِ المتناغِمة ، والمعاني الرَّقيقةِ اللطيفةِ ، كُنَّ كذلك مَصْدَر وحيٍ لنُبَغَاءِ الشُّعراء ، يوحينَ إليهم ببدائع البدائِهِ الشِّعريّة ، ويلهمنهم أَجْمَل المعاني كما سنقرأُ في أخبارِ أنْس القُلوب هذه.

* كانَتْ أُنْس القلوب تملأُ أنحاءَ «منية السُّرور» بالزَّاهرة ـ التي بناها المنصور بن أبي عامر ـ غناءً وأُنْساً وسُروراً ، وتشغَلُ حيّزاً كبيراً منْ نَفْسِ مليْكِها المنصور.

* ذكر المقّريُّ حكايةً عنِ الوزيرِ الكاتبِ أبي المُغيرة بن حَزْم قال: نادمتُ يوماً المنصورَ بنَ أبي عَامرٍ في منْيةِ السُّرور بالزَّاهرة ذات الحسن النَّضير ، وهي جامعةٌ بينَ روضةٍ وغديرٍ ، فلّما تضمَّخَ النّهارُ بزعفرانِ العشي ، ورفْرفَ غرابُ الليلِ الدَّجُوجيّ ، وأسبلَ الليلُ جُنْحَه ، وتقلَّد السِّماكُ رُمْحَه ، وهمَّ النّسْرُ بالطَّيرَان ، وعامَ في الأفقِ زورق الزِّبْرقَان[٢] ، وأوقدنا مصابيح الرّاح ، واشتملْنَا مُلاَءَ الارتياح ، وللدَّجْنِ فوقنا رُواق مَضْروب ، فَغَنَّتْنا عند ذلك جارية تسمّى أنْس القُلوب وقالت:

قَدمَ الليلُ عنْد سَيْرِ النَّهَارِ وَبَدا البدْرُ مثْلَ نصْفِ السِّوارِ
فَكَأَنَّ النَّهارَ صَفْحة خَدٍّ وكأَنَّ الظَّلاَمَ خَطُّ عَذَارِ

---

(١) انظر: نفح الطيب (١٤٧ ـ ١٤٩) ، وأعلام النساء (١/ ٩٧ ـ ٩٩).
(٢) «الزّبرقان»: البدر.

وَكَــأَنَّ الكُــؤوسَ جَــامِــدُ مَــاءٍ   وكـــأَنَّ المُـــدَامَ ذَائِـــبُ نَـــارِ
نَظَـرِي قــد جَنَــىٰ علـيَّ ذُنُــوبـاً   كَيـفَ ممّـا جَنَتْـهُ عَينـي اعتِـذَاري
يَـا لَقَـومـي تَعَجّبُـوا مـنْ غَـزَالٍ   جَـائِـرٍ فـي محبَّتـي وهُـو جَـاري
لَيْـتَ لـو كَـانَ لـي إليـهِ سَبيـلٌ   فَـأُقَضِّـي مِـن الهَـوىٰ أوْطَـاري

* وكانَ الوزيرُ الأنيقُ والشَّاعر الرقيقُ أبو المغيرة بنُ حزم يصيخُ إلىٰ اللحنِ اللطيفِ الذي ينبعثُ رقيقاً منْ أنْسِ القلوب ، فيلامسُ شغافَ القُلوب؛ وتفاعَلَ الوزيرُ مع كلماتِها العذابِ ، وأدائها العَذْب ، فهاجَتْ بلابلُ شِعْره ، وأجابَها على نَفْس الوزنِ والرّوي ، كما وصَفَ لنا ذلك قال: فلمّا أكْملَتِ الغِنَا ، أَحْسَسْتُ بالمعنىٰ ، فقلتُ:

كَيْـفَ كَيْـفَ الـوصُـولُ لـلأَقْمَـار   بَيْـنَ سُمْـرِ القَنَـا وَبيْـضِ الشِّفَـارِ
لَــوْ عَلِمنَــا بــأنَّ حُبَّــكَ حَــقٌّ   لَطَلَبْنَـــا الحيَـــاةَ مِنْـــك بِثَـــارِ
وَإذا مَــا الكِــرامُ هَمُّــوا بِشَــيءٍ   خَـاطَـروا بـالنُّفـوسِ فـي الأَخْطَـارِ

* وظَـنَّ المنصـورُ أنَّ وزيـرَهُ وأُنْـس القُلـوب عـاشقـانِ يتحـاوران ويتطارَحَان أمامَه ، فأخذَ منه الغَضَبُ كلَّ مأْخَذٍ ، ولعبتْ به الغيرةُ ، وكادَ يبطشُ بأُنْسِ القُلوب ، ولنتركْ مِقْودَ الحديثِ للوزير الآن ، قال: فعنْدَ ذلك بادرَ المنصورُ لحسامِه ، وغلظَ في كلامه ، وقال لأُنْسِ القُلوب: قولي واصْدُقي إلىٰ مَنْ تشيرين ، بهذا الشَّوق والحنين؟!

فقالتِ الجاريةُ: إنْ كانَ الكذبُ أَنْجَىٰ ، فالصِّدْقُ أَحْرىٰ وأولىٰ ، واللهِ ما كانت إلاّ نَظْرةٌ ، ولَّدتْ في القَلْب فِكْرة ، فتكلَّمَ الحبُّ علىٰ لِسَاني ، وبرَّحَ الشَّوق بكتْماني ، والعفوُ مضمونٌ لديكَ عند المقدرةِ ، والصَّفح معلومٌ منْك عند المعذرة ، ثم بكَتْ؛ فكأَنَّ دمعَها درٌّ تناثرَ من عقْدٍ ، أو طَلٌّ تساقَط من وَرْدٍ ، وأَنْشَدتْ:

أَذْنَبْـــتُ ذَنْبـــاً عَظِيْمـــاً   فَكَيْـــفَ مِنْـــهُ اعْتِـــذَارِي؟
وَاللهُ قَـــــدَّرَ هَـــــذَا   وَلَـــمْ يَكُـــنْ بـــاخْتِيَـــارِي

والعَفْـــوُ أَحْسَـــنُ شَـــيءٍ يكُـــونُ عنْـــد اقْتِـــدَارِ

* قالَ الوزيرُ الكاتب أبو المغيرة بن حزم متابعاً حديثَ أنْسِ القلوب وما جرىٰ في مَجلسِ المنصورِ: فعند ذلك صرفَ المنصورُ وجْه الغَضَب إليَّ، وسَلَّ سيفَ السُخط عَلَيَّ؛ فقلتُ: أيّدكَ اللهُ تعالى، إنّما كانَتْ هفوةٌ جرَّها الفِكْرُ، وصبوةٌ أيّدها النَّظرُ، وليسَ للمرءِ إلا ما قُدِّرَ له، لا ما اختارهَ وأمَّله.

* قال: فأطرقَ المنصورُ قليلاً، ثمَّ عَفَا وصَفَح، وتجاوزَ عنَّا وسمحَ، وخلّى سبيلي، فَسَكَنَ وجيب قلبي وغليلي، ووهبَ الجاريةَ لي، فبتْنا بأنعمِ ليلة، وسَحبنا فيها للصّبا ذَيلَه، فلما شمَّر الليلُ غدائره، وسلَّ الصَّباحُ بواتره، وتجاوبتِ الأطيارُ بضروبِ الألحانِ، في أعالي الأغْصان، انصرفتُ بالجاريةِ إلى منزلي، وتكامل سُروري(١).

---

(١) انظر: نفح الطيب (٢/١٤٧ ـ ١٤٩) بشيء من التصرف، وانظر: أعلام النّساء (١/٩٧ ـ ٩٩).
ويشبهُ هذهِ القصَّة ما رُوي أنَّه كانَتْ للرشيدِ جاريةٌ غلاميّةٌ، وكانَ ابنهُ المأمونُ يميلُ إليها، وهو إذ ذاكَ أمردُ، فوقَفَتْ تصبُّ على يَدِ الرّشيد منْ إبريقٍ معَها، والمأمونُ خَلْفَ الرّشيدِ، فأشارَ إليها يقبِّلُها، فأنكَرتْ ذلك بعينِها، وأبطأتْ في الصَّبِّ على قَدْرِ نظرِها للمأمونِ، وإشارتها إليهِ.
فقالَ الرّشيدُ: ما هذا؟ ضَعي الإبريقَ منْ يدِك، ففعلتْ، فقالَ لها: واللهِ لئن لم تصدقيني لأقتلنَّكِ.
فقالت: يا سيّدي، أشارَ إليَّ كأنَّه يقبّلني، فأنكرتُ ذلك عليهِ.
فالتفتَ إلىٰ المأمونِ، فنظرَ إليه كأنَّه ميّتٌ لِمَا داخَله منَ الجزَع والخَجلِ، فرحمه وضمَّه إليه، وقال: يا عبدَ الله، أتحبُّها؟ قال: نعَم يا أميرَ المؤمنين، قالَ: هي لك، فاخْلُ بها في تلك القبَّةِ، ففعلَ، ثمّ قال له: هل قُلْتَ في هذا الأمْرِ شيئاً؟! قال: نعم يا سيّدي، وأنشد:
ظَبْـــيٌ كَنَيْـــتُ بِطَـــرْفِـــي مـــنَ الضَّميـــرِ إليْـــهِ
قبَلتُـــــهُ مـــنْ بعيـــدٍ فـــاعتـــلَّ مـــنْ شفتَيْـــهِ=

* وهكذا كان اللحظُ عند أنْسِ القُلوب يعرب عن اللفظِ ، ولصْدِقها كانَتْ من نصيبِ الوزير أبي المغيرة بنِ حزم.

* ويبدو أنَّ أُنْسَ القلوب كانت ذاتَ جمالٍ باهرٍ ، ولعلَّ نظراتها الوسنىٰ قد أسَرتْ قَلب الوزيرِ ابنَ حزم الذي يقولُ في النَّظراتِ والعُيون والأَحْداج :

طَعَنَتْ وَفيْ أَحْداجِهَا منْ شَكْلِهَا عِيْــنٌ فَضَحْــنَ بحُسْنِهِــنَّ العِيْنَــا
مَا أَنْصَفَتْ في جَنْبِ توضحَ إذْ قَرَتْ ضِيْفَ الـودَادِ بَـلابِـلاً وشُجُـونـا
أَضْحَىٰ الغَرامُ قَطِيْنَ ربْع فُؤَادِهِ إذْ لَـمْ يَجِـدْ بـالـرّقمَتَيْـنِ قَطيْنَـا

* وكأنَّ الشَّاعَر قد عَنَى جمالَ وسحْرَ عينِ أُنْس القُلوب ، وفتكَها بالقلوبِ عندما قال هذا الشِّعر البديعَ السَّاحِرَ:

لَقَدْ مَزَّقَتْ قَلْبي سِهَامُ جُفُونها كمَا مزَّقَ اللخْميُّ مَذْهَبَ مَالِكِ
وَصَالَ عَلىٰ الأَوْصَالِ بالقَدّ قَدُّهَا فَأَضْحَتْ كأبياتٍ بتَقْطيعِ مَالِكِ[1]
وَقَلَّدتُ إذْ ذَاكَ الهوَىٰ لِمُرَادِهَا كَتَقْليْد أَعْلامِ النُّحاةِ ابنَ مَالِكِ[2]

= وَرَدَّ أخْبَــــــــث رَدٍّ بــالكَسْــرِ مــن حَــاجِبَيْــهِ
فمــا بَــرِحْــتُ مَكــانــي حتّــى قَــدَرْتُ عَليــه

(١) يعني بقوله : «بتقطيع مالك» : مالك بن المرحل السَّبتي.

(٢) «ابنُ مالك» : هو صاحبُ الألفيّة في النّحو المشهورة أكثر من «قِفا نبك» واسمُه : جمالُ الدّين محمدُ بنُ عبد الله بنِ مالك الطّائيّ الجيّاني المالكيّ النّحوي نزيلُ دمشق ، وُلِدَ سنةَ ستمئة أو في التي بَعْدها ، وأتقنَ العربيّة وكافّة العُلوم ، وكان إماماً في القِراءات ، وأما النّحو والتّصريف فكانَ بحراً لا يشقُّ لجّه.

ولابن مالك تصانيفُ كثيرة ، وله شعرٌ جميل منْه قولهُ:

إذا رمـدتْ عينـي تـداويـتُ منكـمُ بنظـرةِ حُسْـنٍ أو بسمـع كَـلامِ
فإنْ لم أجدْ ماءً تيممتُ باسمكم وَصَلّيـتُ فَـرضـي والـدِّيـارُ أمـامـي
وأَخْلَصْتُ تكبيري عن الغيرِ معرضاً وقـابَلْـتُ أعْـلامَ الـورىٰ بِسَـلامِ
ولـم أرَ إلاّ نـورَ ذاتِـك لائحـاً فَهـل تـدعُ الشّمسُ امتـدادَ ظـلامِ =

وَمَلّكْتُهـا رِقِّـي لِـرِقَّـةِ لَفْظِهَـا وَإنْ كُنْتُ لاَ أَرْضَاهُ مُلْكاً لِمالِكِ
ونَادَيْتُها يَا مُنْيَتي بَذْلُ مُهْجَتِي وَمَالي قَليْلٌ في بَديْعِ جَمالِكِ

* أمّا أنْسُ القُلوب فاتنةُ الفَواتن ، فلا نعلمُ متى ماتَتْ ومتى كانتْ رحلةُ حياتِها إلىٰ الدارِ الآخرة ، ونعتقدُ أنَّه كانت بنهايةِ القرنِ الرابع لأنَّ وفاةَ المنصورِ كانَتْ سنة (٣٩٢ هـ) وكانتْ في قَصْره. واللهُ أعْلم.

* * *

= ولابنِ مالك ألفيةُ النّحو التي طار صيتُها وفيها يقولُ أحدهم:
أَلَفيـــةُ ابــنِ مــالــكِ مشـــرقـــةُ المســالـــكِ
وكَـــمْ بِهـــا مشتغـــلٌ عـــلا علـــىٰ الأرائِـــكِ
هذا وأخبارهُ كثيرةٌ جداً ، ومَن أرادَ الاستزادة فعليه بكتُب التّراجم.

ثبينة بنت المعتمد

* أميرة أندلسية ، جمعت أطراف المحاسن .
* جميلة ، أديبة ، عالمة بالخط ، شاعرة .
* أمها اعتماد الرميكية ، وأبوها الملك المعتمد بن عباد .

ثبينة بنت المعتمد

كَـريْـمَـةٌ مِـنْ دَوْحَـةِ عَـلْيَـاء :

ارفَعــــي الــــرَّأْسَ وَبَـــاهِـــي بِكـــــرَيْمـــــاتِ النِّســـــاءِ
وَبــــــزَهْــــوٍ وفَخَـــــارٍ نَـــافِســـي شُهْـــبَ السَّمـــاءِ
أَنْـــتِ معنـــىً لِـــرمُـــوزٍ تَتَبـــــارىٰ بــــالثَّنـــــاءِ
دَوحـــــةٌ تنشـــىءُ جيـــلاً رَافعـــــاً أسْمَـــىٰ البِنَـــاءِ
كَـــوكَـــبٌ يَسْطَـــعُ عِلْمـــاً نَـــاشِـــراً أَبْهـــى الضِّيـــاء
رَوْضَـــــةٌ تَنْفَـــحُ عِطْـــراً بَـــاعِثـــاً معنـــىٰ الـــرَّجَـــاءِ
أَرَأَيْــــتَ النَّحـــل يغـــدو بســــــــرورٍ وصَفَـــــــاءِ
يجتَنــــي مـــنْ كـــلِّ زَهْـــرٍ صَـــانِعـــاً شَهْـــد الشِّفَـــاءِ
أَخَـــذَ الـــدَّرسَ فُنـــونـــاً عـــنْ كـــريمـــاتِ النِّســـاء[1]

* أميرةٌ أندلسيّةٌ كريمةٌ ، جَمعتِ المحاسِنَ منْ أطْرافِها ، وخَدَمَتْهَا السَّعادة منْ بدايةِ حياتِها ، تفرَّعَتْ من دوحَةِ سَنَاء «أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السَّماء»[2] ، تحدَّرتْ مِن سلالةِ أكابر ، وملوكِ أَسِرَّةٍ ومنَابر ، وكَلِفَتْ بالأَدبِ حتى صارَ ملهجَ لسانها ، وروضةَ أجفانِها ، تُسَابقُ بظرفِها الرِّياح ، وتحاكي بجمالها البدَر اللّماح ، عريقةٌ في السَّناء ، أصيلةُ الأجدادِ والآباء ، كريمةٌ منْ دوحةٍ عَلْيَاء .

---

(١) من ديوان وفاء لعفيفة الحصني (ص ١٥٧ ـ ١٥٩) باختصار وانتقاء. طبعة عام ١٩٦٦ م.

(٢) اقتباسٌ منْ الآيةِ (٢٣) منْ سورة إبراهيم.

* نشأتْ في كَنَفِ أبوَيْن شاعرَيْن يتعاملانِ مع الكَلمات برقّةِ الحبيبِ لحبيبتِهِ ، فتفاعَلتِ ابنتُهما مع الكلماتِ الحُلوة منذْ أنْ تفتَّحتْ بصيرتُها علىٰ دُنيا الأدب ، فهيَ ابنةُ مَلِكٍ شَاعرٍ مطبوع ، مَلَكَ زِمامَ الكَلام والسِّنان ، وهي كذلك ابنةُ شاعرةٍ جميلةٍ مَلكَتْ بملاحتِها وحلاوة لِسانها الجَنَان ، فلا عجبَ إنْ أُشْربت أميرتُنا حبَّ الأدب والشِّعر مذْ كانَتْ في المهدِ صبيةً ، إلىٰ أنْ غَدتْ تنظمُ منْ بدائعِ القولِ لآلىءَ وعقوداً ، وتزيِّنُ بهِ من محاسنِ الدُّنيا جِيْداً.

* فأبوها المعتمدُ بنُ عبّاد ، جَمعَ فضائِلَ الأخلاقِ ومحاسنَ الشمائلِ كالأَدَبِ والشَّجاعةِ والسَّخَاءِ والحياءِ ، وناهيك بها من شمائل. فقد كانَ المعتمدُ ذا نَفْسٍ أبيّةٍ ، وغزارةِ أدب ، وكانَ شِعْرهُ كأنَّه الحللُ المنشَّرة ، وكانَ مقْتَصراً منَ العلومِ على علْمِ الأَدبِ ، وما يتعلَّقُ به ، وينضمُّ إليهِ ، وكان فيه ـ مع هذا كُلّه ـ منَ الفضَائِلِ الذَّاتية ما لا يُحصىٰ ، ولا تُوجد خصْلَة تحمدُ في رجلٍ إلاّ قد وهبه اللهُ منْها أوفرَ قسْم ، وضربَ له فيها بأوفرِ سَهْم ، وإذا عُدَّتِ الأندلس منْ لدن فَتْحِها إلى وقْتِهِ ، فالمعتمدُ أحدها بلْ أكبرُها[1].

* وأمُّها اعتمادُ الرُّميكيّة[2] ذاتُ الجمالِ البَاهِر ، والسِّحْرِ الظَّاهر ، والشِّعْرِ الهامس ، والهمسِ الشَّاعر ، والأدبِ اللدْنِ ، والكلمةِ المغْنَاج ، والنَّظرةِ الفاتنةِ الآسرةِ.

* كانت اعتمادُ حسنةَ الحديثِ ، حُلوةَ النَّادرة ، كثيرةَ الفُكَاهة ، لطيفةَ المحاضرة ، جيّدةَ المُذاكرة ، اعتنتْ بابنتها ـ ضيفتنا ـ عنايةً فائقةً ، وورثَّتْها مكارمَ الأَخْلاق ، وأخلاقَ المكارم ، ومحاسنَ

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص ١٥٨) بتصرف واختصار.

(٢) اقرأ سيرتها في هذه الموسوعة اللطيفة.

الفضَائل ، وفضائلَ المحاسن ، ناهيكَ بالجمالِ والظَّرفِ والشِّعر والأدبِ التي ازدانتْ به فزَادَتْ زينةً عَلىٰ زينة .

* أمّا ابنتُها المتفرّعةُ منْ دوحتِها ، فهيَ الأميرةُ بُـثَينة[1] بنتُ المعتمدِ بنِ عبّاد إحدىٰ نساءِ الأندلسِ جَمالاً وبهاءً ودَلاَلاً ، وأدَباً وعِلْماً وظَرْفاً ، وكمَالاً وحَسَباً ولُطْفاً.

* كانتْ بثينةُ هذهِ نَحْواً منْ أُمّها في الملاحَةِ والجمالِ ، والنَّادرة ونَظْم الشِّعر ، عاشتْ بينَ رحابِ الكلماتِ العَطِرات ، وأنداءِ الهمساتِ السَّاحرات ، ودرجَتْ في بيئةٍ تعشقُ الكلماتِ الرَّائقاتِ ، فغَدَتْ إحدىٰ النِّساء الأندلسيّاتِ النَّادراتِ ، اللواتي حفِظَ لهنَّ التَّاريخُ أعذبَ العبارات .

بُثَيْنَةُ وَحَوادِثُ عَصْرِها :

* مكثَتْ بثينةُ[2] بنتُ المعتمدِ حيْناً منَ الدَّهْرِ ترتشِفُ منْ رحيقِ الحياةِ ، وتعبُّ منْ حلاوتها في ظِلال حُكْمِ أبيها في إشبيليةَ ، ولم تكنْ

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٦٤ و٦٥) ، والدر المنثور (ص ٨٩ و٩٠) ، وشاعرات العرب (ص ٢١٢) ، وأعلام النساء (١/ ١١٨ و١١٩) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ١٢٠ و١٢١) ، وتحفة العروس للتجاني (ص ٤٥٢ و٤٥٣) ، والشعر الأندلسي في عصر الطوائف (ص ٣٧٥ و٣٧٦) وغيرها.

(٢) «بثينة»: قال ابنُ مَنْظُور: البَثْنَةُ والبِثْنَةُ: الأرضُ السَّهْلةُ اللينةُ. وقيل: الرّملةُ . وأنشدَ ابنُ برّي لجميل:

بَدَتْ بَدْوَةً لمّا استقلّتْ حُمُولُها ... بِبَثْنَةَ بَيْنَ الجُرفِ والحاج والنُّجْل

وبها سُمّيت المرأةُ بَثْنَة ، وبتصغيرها سميت بُثَيْنَة.

والبثنية : ضربٌ منَ الحنطة ، والبثنيةُ : بلادٌ بالشّام.

وقيل : البثنيةُ : حنطةٌ منسوبةٌ إلى بلدةٍ معروفةٍ بالشّام منْ أرضِ دمشقَ . قال الغنويُّ : بثنيةُ الشَّام حنطةٌ أو حبَّةٌ مُدحرجةٌ ، ولم أجدْ حبةً أفضلَ منها.

(لسان العرب ١٣/ ٤٦) باختصار مادة بثن.

تفكِّرُ في يومٍ منَ الأيّام أنَّ هذا النَّعيم والعزَّ صائِرٌ إلىٰ الزَّوال ، فلا عِزٌّ يدومُ ولا سرورُ.

* بدأَ الوهنُ يدبُّ في الممالكِ الأندلسيّة ، وملوكِ الطَّوائفِ ، فكلٌّ منهم قَدْ جاءَهَ ما يَشْغَله في مملكتهِ الصَّغيرة ، فقد كَثُر النّزاعُ بينَهم ، والإفرنجُ الإسبانيون يستولون علىٰ المدنِ الأندلسيّةِ خلالَ ذلك الضَّعف السِّياسي ، والعَجْزِ الحربيّ ، فكانتِ الممالكُ تَسْقُط واحدةً إثْر أُخرىٰ.

* وكانَ المعتمدُ بنُ عبَّاد مَلِكُ إشبيليةَ في قَلَقٍ وَهَمّ ، فهذهِ مملكتهُ تكادُ تَسْقُط أسيرةً في يَدِ الإسبان ، وكانَ أعيانُ دولتهِ يجتمعونَ بهِ ، ويشيرونَ عليه أنْ يستنجدَ بسُلطانِ المغربِ يوسُفَ بنِ تاشفين ، كيما يُوقفَ معه زَحْفَ الإسبان علىٰ إشبيليةَ ، واطمأنَّ المعتمدُ إلىٰ هذا الرَّأْي ، إلّا أنَّ زوجتَه اعتماد الرُّميكيّة أخذَتْ تحذِّرُه منَ العاقبةِ ، ومنْ غَدر ابنِ تاشفين ، وكذلك حذَّره بعضُ رجالِ الحاشيةِ من مجيءِ ابن تاشفين ، لأنَّ ذلك معناهُ تلاشي مُلْك بني عبّاد ، ولكنَّ المعتمدَ يردُّ عليهم ردّاً جامِعاً فَاصِلاً فيقول: لأنْ أكونَ حادي إبل في مرّاكش ، أفضل منْ أنْ أكونَ راعي خنَازير في قَشْتَالة.

* وطلبَ المعتمدُ منْ ابنِ تاشفين أنْ ينجدَه ويمدّه بالجنودِ ، فأكَّدَ له أنَّه وجنودَهُ في طريقهم إلىٰ إنقاذِ بلادِه من براثنِ الإسبان النَّصارىٰ.

* ورجعَ المعتمدُ إلىٰ الأندلسِ مسروراً بإسعافِ ابن تاشفين إيّاه في طلبَته ، ولم يَدْرِ المعتمدُ أنَّ تدميرهَ كان في تدبيرهِ واستنجاده بابنِ تاشفين ، وسلَّ سيفاً يحسبه له ، ولم يَدْرِ أنَّه عليه ، فكانَ كما قالَ أبو فِراس:

إذَا كَانَ غَيْـرُ اللهِ للمـرءِ عُـدَّةً ... أَتَتْـهُ الـرَّزَايـا مِـنْ وُجُـوهِ الفَـوائِـدِ
كمَا جرَّتِ الحَنْفَاءُ حَتْفَ حُذَيْفَةٍ ... وكَـانَ يَـراهـا عـدّةً للشَّـدائِـدِ

* وسارَ ابنُ تاشفين حتّى دخلَ مع جَيْشهِ إشبيليَةَ ، وعَسْكَرَ وجنوده

خارجَ المدينةِ ، بينما بالغَ المعتمدُ في التَّرحيبِ به ، وأضافَه وجيشَه ، وأظهرَ منْ برِّهِ وإكرامِهِ فوقَ ما كان يظنُّ ابنُ تاشفين ويَحْسَب ، وقدَّمَ إليه منَ الهدايا والتُّحفِ والذَّخائرِ الملوكيّة ما لم يظنُّه يوسُف بنُ تاشفين عند مَلِك ، فكان هذا أوّل ما وقَع في نَفْس يوسُف التشوّف إلىٰ مملكةِ جزيرةِ الأندلس(١).

* وبدأَ المعتمدُ وابنُ تاشفين وجنودهما يستعدُّونَ للمعركةِ مع النَّصارى بقيادةِ الأَذْفنش الذي استنْفَر الصَّغيرَ والكبيرَ ليقضيَ علىٰ المسلمين والعربِ في الأندلسِ.

* ولما تراءىٰ الجمعانِ منَ المسلمينِ والنَّصارى ، رأىٰ ابنُ تاشفينَ كثرةَ عَددِ النَّصارى ، وجودةَ سِلاحٍ وخيلٍ فقال للمعتمدِ: ما كنتُ أظنُّ هذا الخنزير ـ لعنَه الله ـ يبلغُ هذا الحدّ!!

* وبدأتِ المعركةُ ، واختلطَ الفريقانِ ، وصبرَ المسلمون ، وهزمَ اللهُ العدوَّ ، ونجَا الأذفنش ـ لعنَه الله ـ في تسعةٍ منْ أصحابِه بعد أنْ أُصيبَ في إحدىٰ ركْبَتَيه إصابةً لزمه أثرُهَا ما بقيَ منْ حياتِه.

* وتُسمّىٰ هذه الوقعة ، وقعةَ الزَّلاقَة ، وكانتْ في سَنةِ (٤٧٩ هـ) ، وانهارَ الإسبانُ ، واستعادَ الأندلسيون الأَمْنَ والطُّمأنينة ، وهدأَ المعتمدُ منْ بعد أنْ كادت تعصفُ به الحوادثُ ، ورحلَ ابنُ تاشفين إلىٰ مرّاكشَ وفي نفسهِ بلابلُ منْ إشبيليةَ والأندلسِ ، وحَسَدَ المعتمدَ على ما آتاهُ اللهُ منْ فضلِهِ وجمالِ بلاده.

* كانتْ بثينةُ بنتُ المعتمد قد عاشتْ كلَّ هذهِ الأحداث ، ونعمتْ بانتصاراتِ أبيها علىٰ الإسبانِ ، ولكنَّها كانت ـ هي الأخرى ـ توجسُ خيفةً في نفسها من ابنِ تاشفين الذي سولّت له نفسُه أمْرَ الاستيلاءِ على

---

(١) المعجب (ص ١٩١) باختصار وتصرف يسير.

مملكةِ أبيها ، حيث أسرَّتْ لها أمُّها اعتمادُ الرُّميكيّةُ بذلك ، وأخبرتْها بأنَّ ابنَ تاشفين قد تشوَّفَ إلىٰ الأندلسِ ، وقد ظهرتْ للمعتمد ـ قبل عبور ابنِ تاشفينَ إلى بلده ـ أشياءُ عرفَ بها أنَّه غُيِّر عليهِ ، وأنَّه قد لَعِبَ الحسدُ بهِ ، وضاقَتْ عينُه علىٰ نِعَمِ المعتمدِ التي آتاهُ اللهُ إيّاها .

* ورجعَ ابنُ تاشفينَ إلى مراكش ، وفي نفسهِ منْ أمْرِ الأندلسِ المقيمُ المُقْعِد ، وصَغُرَتْ مملكتُه في عينيهِ الضَّيقتَيْن لما رأى من اِتّساع وجمالِ الأندلس ، فزيَّنَت له نفُسه أنْ يستوليَ على مُلْكِ المعتمدِ بنِ عباد ، وأنْ يستأصلَ شأْفَتَه ، وصرَّحَ بهذا ، حيثُ قال لبعضِ ثِقَاتهِ من وجوه أصحابِه : كنْتُ أظنّ أنّي قَدْ ملكْتُ شيئاً ، فلما رأيتُ تلكَ البلادِ صَغُرتْ في عيني مملكَتي ، في تحصيلها[1]؟!! . . .

الأميْـرَةُ الأَسِـيْـرَةُ :

* حلّتِ النكبةُ بالمعتمدِ بنِ عبّاد ، وطوَّقَتْ جيوشُ ابنِ تاشفين قَصْرَه ، والنّاسُ قد خامَرهم الجزَعُ ، وخالَطَ قلوبَهم الهلَعُ ، ودافعَ المعتمدُ عن قَصْر مُلْكِهِ وعنْ حريمِهِ ، وارتمىٰ علىٰ الموتِ بنفسه ، وأظهرَ منْ ضُروبِ البَسَالة ما لا مزيدَ عليه ، إلىٰ أن استولىٰ المرابطونَ على قَصْره ، وانْتُهِبَتْ قُصورُه نَهْباً قبيحاً ، وأُخِذَ هو قَبْضاً باليدِ ، ثمَّ وضعوا القيودَ في يديهِ ورجْلَيه ، ورُحِل بالمعتمدِ وآلِه ، بَعْد استئصالِ جميعِ أحْوَاله ، ومن ثمَّ قرَّرَ ابنُ تاشفين بتسيير المعتمدِ وآله وزوجه اعتمادَ إلىٰ مدينةِ أَغْماتَ بالمغربِ .

* وخرجَ المعتمدُ من قُصوره من مثل قَصْر الزَّاهي ، والزَّاهر[2] ،

---

(١) المعجب (ص ١٩٩) ، ونعوذُ باللهِ منَ الحسَدِ وضيقِ العين ، وسوءِ الظّنْ بالله ـ عز وجل ـ الذي جَعَلَ النَّاس درجات .

(٢) كتبَ المعتمدُ ـ رحمهُ اللهُ ـ منْ سجنهِ إلىٰ ابنِ حمديس الصِّقلّي الشّاعر قصيدةً =

والمبارك ، والثُّريا ، وخرجَ من غِنَاهُ وأمواله ، يحملُ الفَقْر والعجزَ والهوانَ ، وفَاجَأَهُ السُّقوط منَ العرشِ بمفارقاتٍ ودَوَاهٍ ارتاعَ لها أيمّا ارتياع ، وكانَ يزيدُ في فَداحَتِها ، وتعميقِ إحساسه بالتَّعاسة مواقفُ الإحراج التي تعرَّض لها أثناءَ أَسْره ، وهي مواقفُ تتفَتَّتُ لها الأكْباد[1] ، منها: حاجةُ المعتمدِ إلىٰ اللّئام ، وشماتةِ[2] الحُسَّاد والعُذَّالِ.

= رائيةً جميلةً ، وذكرَ في بعضِ أبياتها قَصر الزَّاهي والزَّاهر فقال:

غَريبٌ بأرضِ المغربَيْن أسيرُ ... سيبكي عليهِ منْبَرٌ وسَريرُ
وتندبُه البيضُ الصَّوارم والقَنَا ... وينهلُّ دمعٌ بينهنَّ غزيرُ
سيبكيه في زاهيهِ والزَّاهر النَّدىٰ ... وطلّابه والعرفُ ثمّ نكيرُ

(ديوان المعتمد ص ٩٥ ـ ٩٦).

(١) منْ هذهِ المواقفِ المفُتِّتةِ للأكباد ، حاجةُ الكريمِ إلىٰ اللئيم ، وما أصعبَ وأشدَّ وأنكىٰ منها! فقد طلبَ المعتمدُ منْ أختٍ ليوسفَ بنِ تاشفين عنْد رحيلهِ عنِ الأندلسِ خباءً عارية فلم تُعِرْه ، فاستعبرَ حزناً ، وقالَ منْ أبيات:

همْ أوقدوا بينَ جَنْبَيْك نَارا ... أطالُوا بها في حَشَاك استعَارا
أما يخجلُ المجدُ أنْ يرحلوكَ ... ولم يصحبُوكَ خباءً مُعَارا
فَقَدْ قنعوا المجدَ إنْ كان ذَاك ... وحاشاهمُ منكِ خزياً وعارا

(ديوانه ص ٩٧).

(٢) الشَّماتَةُ: الفَرحُ ببليةِ العدوّ ، يُقَال: شَمِتَ بهِ ـ بالكَسْر ـ يشْمَت شماتةً ، وأشمَته غيره ، وباتَ فلانٌ بليلةِ الشَّوامت ، أي: شمت الشَّوامت.

وفي الصَّحيحَيْن: عن أبي هريرةَ ـ رضي الله عنه ـ عنِ النّبي ﷺ قالَ: «تعوَّذُوا باللهِ من جَهْدِ البلاء ، ودَرْكِ الشَّقاء ، وسُوءِ القَضاء ، وشماتةِ الأعداء» ، أخرجَه البخاري (٦٦١٦) ، ومُسْلم (٢٧٠٧). وكان ﷺ يدعو: «اللهمّ لا تُشْمِتْ بي عدواً حاسِداً» أخرجه مسلم (٢٢٠٣).

وقد حكىٰ الله ـ عزَّ جلَّ ـ عن هارونَ عليه السَّلام أنّه قال: ﴿فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]. وقيلَ لنبيّ اللهِ أيوبَ عليه السَّلام: أيّ شيءٍ منْ بلائك كانَ أشدَّ عليك؟ قال: شماتةُ الأعْدَاء.

وقال الشَّاعر عبد الله بن أبي عتبة:

كُلُّ المصَائبِ قَد تمرُّ علىٰ الفَتَىٰ ... فتهونُ غَيْرَ شَماتةِ الحُسَّاد=

* وجاءَ الرّعاعُ منَ السُّوقة ، فهاجَمُوا قَصْر المعتمدِ في اللحظاتِ الأخيرة ، وأعْملُوا السَّلْبَ والنَّهْبَ ، وكانتِ الأميرةُ الصَّغيرةُ الجميلةُ بثينةُ قَدْ ذُهِلَتْ ممّا شاهدَتْ من همجيّةٍ ووحشيةِ المهاجمين ، وأرادتْ أنْ تهربَ منَ القَصْر بعد أنْ أشْعَلُوا فيهِ النَّار ، وكانتْ لا تدري أينَ تسيرُ ، وأبواهَا لا يدريان منْ أمرِها شيئاً ، إذْ ذُهِل ـ في تلكم اللحظاتِ الحرجاتِ ـ كلُّ خَليلٍ عنْ خليلهِ .

* كانتْ بثينـةُ في غايـةِ الذُّهـولِ والارتبـاكِ ، وهنـاكَ جـاءَ رجلٌ منَ السُّوقةِ، فأخَذَها إلىٰ منزلهِ سبيّةً، ثمَّ خرجَ بها إلى سوقِ الجواري، وباعَها علىٰ أنَّها مْن جُملةِ الرَّقيقِ والعبيدِ ، فاشْتَراها أحدُ تجّارِ إشبيليةَ وهو يظنُّ أنَّها واحدةٌ منَ الجواري اللاتي يعملنَ في القُصور الملكيّة بإشبيليةَ .

* إنَّ أحوالَ السَّبايا والأسرىٰ منَ النِّساء ، أشدُّ شقاءً منْ أحوالِ الرِّجالِ ، وذلك لما هُنَّ عليهِ منَ الوهنِ والضَّعف ، ولما يلحقُ بهنَّ منَ الشَّيْنِ والمعرَّةِ ، يُؤْخَذْنَ رقيقاتٍ ، وإنْ كُنَّ في أهْلِهنَّ مكرماتٍ ، أو بنات ملوكٍ أو أمراءَ أو رؤساءَ ، فَيُسْلَبْنَ[1] حَلْيَهُنَّ وزينتَهُنَّ ، ويُمْتَهَنَّ أيَّ امتهان ، ويُـقْذَفُ بهنَّ مع الرَّقيق يقمنَ بالخدمةِ وأعمالِ المنازل[2] .

= وقال غيره:

إذا مـا الـدَّهْـرُ جـرَّ علـىٰ أنـاسٍ ... حـوادثَـهُ أنـاخَ بـآخـرينـا
فقُـلْ للشَّـامتيـنَ بنَـا أفيقُـوا ... سيلقـىٰ الشّـامِتُـون كمـا لَقينـا

ولغيره:

لـولا شمـاتَـةُ أعـداءٍ ذوي حَسَـدٍ ... أو اغتمـامُ صـديـقٍ كـان يـرجُـونـي
لمـا طلبـتُ مـنَ الـدنيـا مـراتِبَهـا ... ولا بـذلـتُ لهـا عِـرضـي ولا دِيْنـي

(١) وقد أشارَ زهيرُ بنُ جناب الكلبيّ إلى سرقَةِ حَليِّ المرأةِ فقال:

تبـاً لتغلـبَ أنْ تُسَـاقَ نسـاؤهـم ... سَـوْقَ الإمـاءِ إلـىٰ المـواسـمِ عُطَّلا

(الأغاني ٢١/ ٦٤).

(٢) كانتِ السَّبايا ـ وخُصوصاً الغنيّات وبناتُ الرّؤساء ـ هُنَّ زبدةُ الغنيمة ، فكانَ =

* ولا يمكنُنا أنْ ننكرَ أنَّ بعضَ النِّساء السَّبيات ، قد كُنَّ يلقَيْنَ صيانةً وإحساناً ، ويعرِفُ آسِرُها أو مالِكُها مكانتَها وأصالتَها ، فيعملُ علىٰ صيانتها ، كما حَصَل مع بثينةَ بنتِ المعتمد التي استَخْدَمَتْ بذلك ذكاءَها وعقْلَها كي لا تكونَ في عدادِ المسبيّات.

* وقد كانتْ بثينةُ عاقلةً ذكيةً رغْمَ محنتِها ، فاستسلمتْ لقضاءِ العزيزِ الحميدِ الذي له مُلْكُ السَّموات والأرض ، وقد لاحظَ التَّاجرُ الإشبيليُّ جمالَها المفرطَ ، وملاحتَها الأخّاذةَ ، وأدبَها الجمَّ ، فعاملَها معاملةً طيِّبةً ، كما لاحظَ مسحةَ الحزنِ التي لم تكنْ تفارقُ وجْهَها النَّضِرَ الجميلَ ، وكان الخوفُ يساورها دائماً ، حيثُ إنَّها لم تكنْ تَعْلَم عنْ مصيرِ أبويْهَا شيئاً ، وهما لا يعلمانَ ما آلَ إليهِ أمرُها.

* ورأىٰ فيها التَّاجرُ علائمَ الأدبِ والذّكاءِ ، وربما كان يسمعُها وهي تترنَّم بالشِّعْر الذي تَنْفُثُه بينَ حينٍ وآخر ، فأحبَّ أنْ يهبَها لابنهِ لتكونَ زَوْجاً له.

* وخلال هذه المدّةِ لم تكنْ بثينةُ تفْصِحُ عنْ نَسبِها وحسبِها ، إلى أنْ كانَ يوم زفافِها ، وهُيِّئتْ لابنِ التَّاجر ، فلمّا أرادَ الدُّخولَ عليها

= الرّجلُ يرىٰ قريبتَه في يدِ غيره ، أو تُؤْسَر وتُسْبَىٰ ولا يعْلَمُ عنها شيئاً ، ولا يُقْدَر علىٰ شيءٍ في استخلاصها ، وتنطلقُ هي تبكي حظَّها ، وربّما شرفَها وما آلت إليه. ولا غرابَة إذا رأينا بعضَ فرسانَ العرب أحياناً حرجاً بالمرأةِ ، إذ يرىٰ فيها هوانَه وعارهَ بسبب ما ينالُها منَ السَّبي ، ويلطخُ الدهر بما لحقَ بها ، ولعلَّ هذا ما وضعَ منْ منزلتها ومكانتها عنده ، وربّما كان حصانُه ومطيتهُ أكرمَ عنده منها ، وقد صارحَ عنترةُ عبلةَ عندما سَأَلَتْه أنْ يؤثرِها بالغَبوقِ قبلَ الفَرس فقال:

لا تـذكُـري مُهْـري ومـا أطعمتـهُ ... فيكـونَ جلـدُك مثـل جلـدِ الأَجْـربِ
إنَّ الـرّجـالَ لهـمْ إليـك وسيلـةٌ ... إنْ يـأخـذوكِ تكحّلـي وتخضّبـي
ويكـونَ مـركبُـك القعـود ورحْلَـهُ ... وابـنُ النّعـامـةِ يـوم ذلـك مـركبـي
وأنـا امـرؤٌ إنْ يـأخـذونـي عنـوةً ... أقـرنْ إلـىٰ شـرّ الـرِّكـاب وأجنـبُ

امتنعتْ ، وهُنَا بدأتِ الأميرةُ الحسناءُ تفصحُ عنْ نسبِها ، وأخبرتِ التَّاجرَ وابنهَ بأنَّها حرّةٌ لا رقيقةٌ ، وهي من بيتٍ طويلِ النّجاد رفيعِ العِماد ، من بيتِ بني عبّاد ، وهي بثينةُ بنتُ الملك المعتمد بن عبّاد مَلِكِ إشبيليةَ الذي حلَّتْ به المِحَنُ ، وخانَه الدُّهر فأنْزَلَهِ علىٰ حكْمِهِ منْ شامخٍ عالٍ إلىٰ خَفْضٍ ، وغَالَه بوفْر الغِنَىٰ ، فلم يُبْقِ له سوىٰ مآثِره وفضائِله ومعروفهِ وآثارهِ الحِسان ، التي تسيرُ بينَ الرّكبان ، في سائر البُلدان.

* ثمَّ إنَّ بثينةَ قالتْ لابنِ التَّاجر: لا أَحِلُّ لكَ إلاّ بعقدِ النّكاح إنْ رضيَ أبي بذلك ـ وكانت قد عَلِمَتْ مآلَ أبيها وأمِّها ـ ، فإنْ وافقَ أبي رضيتُ بذلك.

* وتعجَّبَ الابنُ وأهْلُهُ منْ ذلك ، وعلموا أنَّ السَّعادة قد لاحظتْهم عيونُها ، وأشارتْ بثينةُ عليهم بتوجيهِ رسالة من قِبَلِها إلىٰ أبيها تستأذنُه في الموافَقَةِ علىٰ هذا الزَّواج ، وانتظار جوابه إليهم ، وبذلك يكونُ زواجها كزواجِ البنَات الأحرار لا السَّبيّات.

الرِّسالَةُ البُثَيْنِيَّةُ:

* في مدينةِ أغماتَ بالمغربِ ، كانَ المعتمدُ بنُ عبّاد ، وزوجُه اعتمادُ الرُّميكيّةُ يُقَاسيانِ آلامَ النَّفْي والسَّجْنِ ، وعذاب الحرمانِ والغربةِ ، ويتحمّلان مرارةَ فَقْد بثينةَ الأميرة الصَّغيرة ، التي غالَتْها يدُ الغَدْرِ والغَادرين ، وهما يَجْهلان مصيرَها وما آلتْ إليهِ بعد نكبتِهما والغَدْرِ بهما.

* وكانتْ بثينةُ ـ وهي في قَصْرِ أبيها ـ قد تعلَّمتِ الخَطَّ ، فكانت كاتبةً شاعرةً ، فكتبتْ رسالةً شعريّةً بخطِّها تحكي فيها قصَّتَها ، وتستشيرُ أبويْها في هذا الموقفِ الذي صارتْ إليه بعدهما ، فما عسىٰ أنْ تكتبَ الأميرةُ الجميلةُ الشَّاعرةُ لأبيها المعتمدِ الشَّاعرِ الأديبِ ، وأُمِّها الرُّميكيّةِ الأَديبةِ الشَّاعرةِ؟

* لقد صاغتْ بثينةُ قصَّتَها[١] وحالَتَها بأسلوبٍ شعْريٍّ جميلٍ خلَّدها في تاريخِ نساءِ الأندلسِ ، وفي تاريخ بناتِ الملوكِ الشَّواعر ، لقد كانَ ما كتَبْتَه بثينةُ بخطِّها منْ نظمها ما صُورتُه:

اسْمَعْ كَلامِي وَاسْتَمِعْ لِمقَالَتي ... فَهِيَ السُّلُوك بَدَتْ مِنَ الأَجيادِ
لا تنكرُوا أَنّي سُبيْتُ وأنَّني ... بنْتٌ لِمَلْكٍ مِنْ بني عَبَّادِ
مَلِكٌ عظيمٌ قد تولّىٰ عَصْرَه ... وكذا الزَّمانُ يؤولُ للإفسادِ
لَما أَرَادَ اللهُ فِرقَةَ شَمْلِنا ... وأذاقَنا طَعْمَ الأَسىٰ منْ زَادِ
قَامَ النِّفاقُ علىٰ أبي في مُلْكِهِ ... فَدنَا الفِراقُ ولمْ يكُنْ بِمُرَادِ
فَخَرجْتُ هَارِبةً فَحَازَنيَ امْرؤٌ ... لَمْ يأْتِ في أَفْعالِهِ بِسَدادِ
إذْ بَاعَني بَيْعَ العَبيدِ فضمَّني ... مَنْ صَانَني إلّا مِنَ الأَنْكادِ
وأرادَني لِزَواجِ نَجْلٍ طَاهِرٍ ... حَسَنِ الخَلائق منْ بني الأَنْجادِ
ومضىٰ إليك يسومُ رأيك في الرّضا ... ولأَنْتَ تنظرُ في طريقِ رشَادي
فَعَسَاكَ يا أَبتي تعرّفُني بهِ ... إنْ كَانَ ممّن يُرتجىٰ لِودادِ
وعَسىٰ رميكيةُ المُلوكِ بفضْلِها ... تدعُو لنا باليُمْنِ والإسْعَادِ

* إنّها لكلماتٌ قد اعذوْذَبتْ مواردُها ، واخضوضَلَتْ منابتُها ، وإنّها لقصيدةٌ شعريةٌ مؤثّرةٌ حزينةٌ ، وهي ثابتةُ التَّعبير ، رصينةُ الإيقاعِ ، موحيةُ المعاني ، كما أنَّها موشّاة بالحكمةِ الجميلةِ الهادفةِ التي تحكي نكبةَ أبيها وذهابَ عِزّهِ ، وفيها التّعقُّل والهدوء مع العِلْم بأنَّ بثينَة كانتْ في عمر زَهْر الرَّبيع ، إلا أنَّها قد هُذّبتْ بالأَنَفَةِ والفخر والإباء[٢] ، وورثتْ

---

(١) يقولُ عبدُ الله عَفيفي: وفي هذا العَصْر ذَاعَ الشِّعْرُ النَّسويُّ القَصصيُّ ، فكانَ ممّا يألفُه النّساء أنْ يبسطنَ حديثهنَّ شِعراً ، وقد يكونَ ذلكَ في حفْلٍ حاشدٍ ، أو بين يدي مَلِك ، أو في رسالةٍ إلىٰ أبٍ ، أو صديقٍ ، ومنْ أمثلةِ ذلكَ رسالةُ بثينة بنت المعتمد إلىٰ أبيها. (المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ٣/ ١٣٤).

(٢) وكأنَّ بثينةَ كانتْ تتذكرُ دائماً قولَ أبيها المعتمد الذي يدلُّ علىٰ الأنفةِ والفخر: =

حميدَ الفضائلِ ومحاسنَها عن أبيها المعتمد ، واستطاعَتْ باتّزانها أنْ تقنعَ الفَتى وأبَاه بأنْ ينتظرا مدّةً ليعرِفا مكانتَها في عالم نِساء الأَنْدلُس.

* وقد وصفَ المقّري ـ رحمهُ اللهُ ـ وصولَ هذه الرِّسالةِ الشّعريةِ الشّائقةِ إلى المعتمدِ وزوجهِ الملكةِ الرُّميكيّة أُمِّ الأميرةِ بثينةَ اللذَيْن سُرَّا بحياتِها ووجودِها ، ومآل أمْرِها ومصيرِها فقال: فلما وصَل شعْرُها لأبيها وهو بأغماتَ ، واقعٌ في شَرَاك الكروبِ والأزَمَات ، سُرَّ هو وأمُّها بحياتِها ، ورأيَا منْ ذلك للنَّفس من أحسنِ أمنياتها ، إذْ علما مآل أمرِها ، وجَبْر كَسْرِها ، إذ ذاك أخفّ الضَّررَيْن ، وإن كانَ الكَربُ[١] قد سَتَر القَلْب منه حجابُ رَيْن[٢] ، وأشهَد على نَفْسه بعَقدِ نكاحِها من الصَّبي المذكورِ ، وكَتَب إليها أثناءَ كتابته ما يدلُّ على حُسْن صَبْره المشكور:

بُنيّتي كُوني بِهِ بَرّةً … فقَدْ قَضَىٰ الدَّهْرُ بإسعَادِه[٣]

* ورجعَ رسولُ بثينةَ يحملُ رسالةَ أبيها الغريبِ بأرضِ المغربِ ،

= قالوا الخضوعُ سياسةٌ … فَلْيَبْدُ منْك لهمْ خُضُوع
وألذّ منْ طعمِ الخضوع … علىٰ فمي السُّمُّ النّقيع
فالقلبُ بينَ ضلوعِه … لم تسلم القلب الضّلوع
لم أُسْتَلَبْ شَرفَ الطّبا … ع أيسلبُ الشّرفُ الرّفيع

(١) لقد كانَ المعتمد بنُ عبّاد ـ رحمه الله ـ شديدَ الحزن لِما نزلَ بِهِ وهو في سجْنه بأغمات، ورأىٰ ما حلَّ بهِ وما نزلَ منْ ذلّ ببناتهِ ، ونُهيَ إليه ما آلَ حال بثينة وأخواتها ، فنفَّس عن نفسهِ بهذهِ النَّفثات الحزينة ، وأنشدَ قصيدةً جميلة نقتطفُ منها قوله:

أأرغبُ أنْ أعيشَ أرىٰ بنَاتي … عواريَ قَدْ أضرَّ بها الحفَاءُ
خوادمَ بنْتَ مَنْ قد كان أعلىٰ … مراتِبه إذا أبدو النّداءُ

ثم يختم نفثاته بقوله:

سيُسْلي النّفسِ عمّا فَاتَ عِلْمي … بأنَّ الكُلَّ يدركُه الفَنَاء

(٢) «رَيْن»: المقصود بها هنا الحزنُ الذي غلَّف قَلْبَه.

(٣) نفح الطّيب (٦/ ٦٤ و٦٥)؛ وانظر: الدر المنثور (ص ٨٩ و٩٠) ، وتحفة العروس للتجاني (ص ٤٥٢ و٤٥٣) ، وأعلام النساء (١/ ١١٨ و١١٩).

والحزين[1] الأَسِفِ الذي يبكيهِ المنبرُ والسَّريرُ ، وتندبُه الصَّوارمُ والقَنا ، ويرثيهِ الأحبابُ والأصحابُ والأنجابُ .

* رجعَ الرسولُ بكتَابِ المُعْتَمدِ ، وألقاهُ لبثينةَ التي تشوَّفَتْ لخطِّ أبيها وأنفاسِ يَراعه ، فأخذتْ رسالتَه وقبَّلَتْها ، ومنْ ثمَّ دفعَتْها للفتىٰ الإشبيليّ الذي قَضَىٰ له بأنْ يكونَ منَ السُّعداء بِبُثَيْنَةَ ابنةِ المعتمد .

* هذه بثينةُ بنتُ المعتمد الأندلسيّة الإشبيليّة الأميرةُ ، التي خلَّدتْها رسالتُها الشِّعْرية المكوّنة منْ أحَدَ عَشَر بيتاً[2] ، تشيرُ بجملتِها إلىٰ أنَّها فتاةٌ شجاعةٌ شريفةٌ عربيةُ المشاربِ والأَحْسابِ ، وقد سجَّلَتْ أبياتها تلك على رسالِتها لتبقىٰ مسجَّلَةً في ذَاكرةِ الزَّمَنِ ، لتحكيَ قصَّتَها التَّاريخيةَ المؤثِّرةَ ، التي تأخذُ بمجامعِ الأَحاسيسِ والخواطرِ ، وتبعثُ الإعجابَ في النُّفوسِ التي تحبُّ الصَّفَاء في دُنيا النّساء ، فإذا كانتْ بثينةُ وهي الأميرةُ الحسيبةُ النَّسيبةُ قَدْ أرغمَتْها الظُّروف ، وتزوَّجَتْ منْ رجلٍ دونَها

---

(١) ذكرَ ابنُ خاقان في «قلائدِهِ» شدَّةَ حُزْنِ المعتمدِ في أوّلِ عيدٍ مرَّ عليهِ في أغماتَ ، عندما دخَلَتْ عليه بناته وهُنَّ يلبَسنَ الملابسَ الخشنَة فقال: وأوّلُ عيدٍ أخذَه بأغمات وهو سَارِحٌ ، وما غير الشّجون له مَسَارحٌ ، ولا زيّ إلا حالة الخمول ، واستحالةَ المأمول ، فدخلَ عليه منْ بنيهِ مَنْ يسلم عليه ويهنيه ، وفيهم بناتُه وعليهنَّ أطمار ، كأنّهنّ كسوفٌ وهنّ أقمار ، يبكينَ عند التّساؤل ، ويبدينَ الخشوعَ بعد التّخايل ، والضّياع غَيَّر صُوَرَهُنَّ ، وحيَّر نَظَرهُنَّ ، وأقدامهنَّ حافيةٌ ، وآثارُ نعيمهنَّ عافِيةٌ فقال:

فيما مضىٰ كنتُ بالأعيادِ مَسْرورا ... فساءَكَ العيدُ في أغماتَ مأْسُورا
ترىٰ بناتِك في الأطمارِ جائعةً ... يغزلنَ للنّاس ما يملكنْ قِطميرا
برزنَ نحوك للتّسليم خاشعةً ... أبصارهنّ حسيراتٍ مكاسيرا
يطأنَ في الطين والأقدامُ حافيةٌ ... كأنّها لم تطأْ مِسْكاً وكافُورا

(قلائد العقيان ١/ ٩٥ و٩٦).

(٢) اختارت بثينة بحر الكامل فنظمت أبياتها ليكون وقعها أجمل في النفس ، وأكثر أثراً في القلب .

طبقةً ومستوىً ، فقد احتفظتْ بنُبْلِ روحها وأصالةِ تربيتها ، لأنَّ المجدَ ظلَّ كامِناً في ضلوعِها وحناياها .

* تلكم همساتٌ دافئات منْ حياةِ إحدىٰ نساءِ الأندلُس في القَرنِ الخامِسِ الهِجْرِيّ . وإذا كُنّا لا نَعْلَمُ شَيئاً عن حيَاةِ بثَينة بعد رسالِتها ، فإنَّ أنداءهَا شذيةٌ باقيةٌ علىٰ مرِّ الأيام إلىٰ ما شاءَ الله .

* * *

حسّانة التميميّة

* شاعرة ، فصيحة ، عزيزة النفس ، جميلة الفِعال .
* أول صوت نسوي سُمع في الأندلس يقرض الشعر الجزل .
* سمعها الأمير الحكم بن هشام ، وأجرى لها مرتّباً .

حسّانة التميميّة

الأديبةُ ابنةُ الشَّاعِرِ:

* كانتْ منْ أحسنِ نساءِ زمانِها، وأفصحِهنَّ مقالاً، وأجملِهنَّ فِعالاً، تأدَّبَتْ وتعلَّمَتِ الشِّعر منْ أبيها، فنشأَتْ نشأةً يكتنِفُها الطُّهْرُ والعفافُ، وعزَّةُ النَّفْسِ والإباءِ، لم يؤثرْ عنها ما يخدشُ كرامتَها، أو يلوِّثُ شَرفَها.

* ولدتْ هذهِ المرأةُ ـ حسب تقديرنا ـ بُعَيدَ منتصفِ القَرنِ الثَّاني الهِجْريّ، وكانَ مولدُهَا في قريةٍ «شَوْس» بقرطبةَ في الأَنْدلسِ، وورثتِ الأدبَ وفنَّ الشِّعْرِ والنَّظمِ عن أبيها أبي المخشيّ ـ أو المُخَشَّىٰ ـ واسمه عاصمُ بنُ زيد بنِ يحيىٰ التّميميّ العبّاديّ الشَّاعر المشهور، كانَ منْ فحولِ الشُّعراءِ القُدماءِ المتقدمينَ بالأندلس[1].

* أمّا ابنتهُ التي نشأَتْ على حبِّ الأَدبِ والشِّعْرِ فهيَ حسَّانَة بنتُ أبي المخشيّ التّميميّةِ العبّاديّةِ[2].

---

(١) انظر ترجمته في: المغرب (٢/ ١٢٣ و١٢٤)، وبغية الملتمس (ص ٥١٣)، وجذوة المقتبس (ص ٣٧٧).

(٢) نفح الطِّيب (٥/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢)، والدُّرُّ المنثور (ص ١٦٤ و١٦٥)، ومعجم الأديبات الشَّواعر (ص ١٨٤ و١٨٥)، وشاعرات العَرب (ص ٢١٣) وأعلام النّساء (١/ ٢٥٦ و٢٥٧).

* كانَ والدهَا أبو المخشيّ أحدَ شعراءِ عَصْرِ الإمارة الأمويّة[1] في الأندلسِ إبّانَ مجدِهَا وعزِّها ، وكان أحدَ الذين مدحُوا الحكَم الرَّبضيّ بنَ هشَام بنِ عبد الرحمن الدَّاخل ثالث أمراء بني أميّة ، بالأندلس[2] ، وقد تندَّتْ قريحَتُه بأشعارٍ جميلةٍ جعلتْهُ من فحولِ شعراء عَصْره.

* ويبدو أنَّ أبا المخشيّ هذا كان أباً لبضع بنات ، وقد اشتُهرتْ منهنَّ حسَّانة ، وظَهر ذلك لنَا من خلالِ شعْرِه ، إذ تحدَّثَ في قصيدةٍ لهُ عن موضوعٍ طريفٍ عن العمىٰ ـ بعد أنْ سُمِلَتْ عيناه[3] ـ حيثُ يصوِّرُ مأساته تصويراً رائعاً ينمُّ عن إحساسٍ شعري ، وقُدْرةٍ على النَّظم ، علىٰ الرّغمِ منْ أَنَّ هشامَ بنَ عبد الرَّحمن قَدْ أَمر بقَطْعِ طَرف لسانِه ، وسَمْلِ عينيه[4] ، فصار الرَّجلُ أبكمَ أعمىٰ ، ولذا فقد عَظُمَ مُصابُه ، وكثُرَتْ

---

(١) ظلَّ الأمرُ بالأندلسِ لبني أميَّةَ منْ سَنَةِ (١٣٨ هـ إلى سنةِ ٤٢٨ هـ) وتولَّىٰ الحكمَ منهم (١٦ أميراً).

(٢) وُلدَ الحكمُ الرَّبضيُّ سنةَ (١٥٤ هـ) ، ومدَّةُ حُكْمِه ستٌّ وعشرون سَنَة ، وماتَ سَنة (٢٠٦ هـ) وعمره (٥٣ سنة).

(٣) كانَ أبو المخشيّ شاعرَ عبد الرحمن الدَّاخل ، وقد مَدَحَ سُليمانَ بنَ عبد الرحمن بشعْرٍ ، وتوهّم عليه فيه أنَّه عرَّض بهشام أخيه ، وكانت بينهما مُباعَدة ومنافسة ، فتعصَّبَ مُتعصِّبٌ لهشام ، فَسَمَل عينَيْه ، فقال في العمىٰ شِعْراً حَسَناً ، ثمّ قَصَدَ به عبدَ الرحمن بنَ معاويةَ ، فأنشدَه إيّاه ، فرقَّ له واستعبر ، ودَعَا بألفَي دينار فأعْطَاه ، وضاعفَ له دِيَةَ العينَيْن ، وهو الشِّعْرُ الذي أوّلُه:

خَضَعَتْ أمُّ بَنَاتي للعِدَا ... أنْ قَضىٰ اللهُ قَضَاءً فمضىٰ
وَرأتْ أعمىٰ ضريراً إنَّما ... مَشْيَهُ في الأرضِ لَمْسٌ بالعَصَا
فاسْتكانَتْ ثمَّ قالتْ قَولةً ... وهي حرّىٰ بلغَتْ منّي المدىٰ
ففُؤادي قَرِحٌ منْ قولةٍ ... ما مِنَ الأدْواءِ داءٌ كالعَمىٰ

(٤) كانَ هشامُ قد دبَّرَ للانتقامِ منْ أبي المخشيّ لأنَّه ظنَّ أنَّه عرَّضَ به ، لأنَّ هشامَ بنَ عبد الرحمن كانَ أحولَ ، فأرسلَ إلىٰ أبي المخشيّ يستدعيه إلى مدينة «ماردة» التي كانَ هشامُ والياً عليها ، فأسرعَ أبو المخشيّ طمعاً في رِفْدِه وعطائِه ، فلّما دخلَ عليه قال له هشام: إنَّ المرأةَ الصَّالحةَ التي هَوَتْ ابنها ، فَقَذَفتَها فأفحشتَ =

شكْوَاه في أشعارِه ، علىٰ الرِّغم من أنَّ عبدَ الرحمن الدَّاخل قد ضاعَفَ ديتَه ، وعنَّفَ ولدَهُ علىٰ فعْلَتِه هذه. ويُقال: إنَّ هشَاماً قَد نَدِمَ علىٰ ما فَعل بأبي المخشيّ ، وحاولَ استرضاءه بكُلّ سَبيل.

* وقد تناولَ أبو المخشي بِشِعْرِهِ تَجرِبةً العمىٰ وفُقْدَانَ البَصر تناوُلاً لم يُسْبَقْ إليهِ منْ قَبْلُ ، وذلك منَ النَّاحيةِ التَّصويريّةِ الفنيّةِ ، وترجمَ أثرَ العمىٰ بعد الإبصار علىٰ صاحبهِ ومَنْ يعولهم ترجمةً فيها شيءٌ من الجِدَّةِ ، وعبَّر عن هذه التّجرِبة في قصيدةٍ منها:

خَضَعَتْ أمُّ بَنَاتي للعِدَا ... إذْا قَضَىٰ اللهُ بأَمْرٍ فَمَضَى
ورأَتْ أَعْمَىٰ ضَريراً إنّما ... مَشْيُهُ في الأَرضِ لَمْسٌ بالعَصَا
فاستكانَتْ ثمَّ قالَتْ قولةً ... وهْي حَرَّى بَلَغَتْ منِّي المدىٰ
فَفُؤادي قَرِحٌ مِنْ قَولِها ... مَا مِنْ الأَدْوَاءِ داءٌ كالعَمىٰ
وإذَا نالَ العمىٰ ذا بَصَرٍ ... كانَ حيّاً مِثْل مَيْتٍ قَد ثَوىٰ
وكأَنَّ النَّاعِمَ المسرورَ لَمْ ... يَكُ مُسْروراً إذا لاحَ الرَّدىٰ

وفي هذهِ القَصيدةِ يقولُ:

أَبْصَرَتْ مُسْتَبدلاً منْ طَرفهِ ... قَائِداً يَسْعىٰ به حيثُ سَعَىٰ
بالعَصَا إنْ لم يَقُدْهُ قَائِدٌ ... وسُؤالِ النَّاسِ يمشي إنْ مَشَىٰ

* وعندما نتأمَّل أبياتِ أبي المخشي ، نرىٰ أنَّه يتحدَّثُ عن تجربتِهِ بِصِدْقٍ ، وأنَّ عاطفتَه متدفّقةٌ ، وهي عاطفةٌ حزينةٌ باكيةٌ ، حيثُ استخدمَ التَّعبير الموحيَ ، وركَّزَ علىٰ ناحيةٍ مهمّةٍ في حياتِهِ ، إذْ تحدَّثَ عن امرأتِه وأمِّ بناتِه ، وعلىٰ بناتِهِ اللواتي ليسَ لهنَّ منْ عائلٍ سواه ، فلَقَدْ أخْضَعَتْهُنَّ

= فيها ، قد أخْلَصَتْ دعاءَها للهِ في أنْ ينتقمَ منكَ ، فاستجابَ رجاءَها ، وسلّطني لأقتصَّ لها.

(الأدب الأندلسي د. أحمد هيكل ص ٩).

المحنةُ للعِدا ، وحولتهنَّ منَ العزِّ إلى الذُّلِّ ، وخيَّمَ علىٰ قلوبهنَّ الحزنُ الشَّديدُ لمصابِ عائلِهنَّ ، وهذا الحزنُ الذي تحوَّلَ إلى نارٍ مشتعلةٍ في تلكَ الصُّدور ، فانعكستْ حرارتُه عليه ، وانتقلَ لهيبُه إليهِ ، فتألَّم ألماً بلا حُدود ، وحَزِنَ حزناً غيرَ محدود ، حتّى لقد تقرَّح فؤادُه وانْفَطَر لسماعِه قولَ زوجته: «. . . . ما منَ الأدواءِ داءٌ كالعمىٰ».

* ويعلِّلُ أبو المخشيُّ لهذا الحكْم الذي أصْدَرَتْهُ زوجته في صُورةِ زفرةِ حزنٍ منْ زَفَراتها الحارّةِ بقولِهِ:

وَإذَا نَالَ العَمَىٰ ذَا بَصَرٍ كانَ حيّاً مثْلَ مَيْتٍ قد ثَوىٰ
وكأنَّ النَّاعِمَ المسرورَ لَمْ يَكُ مَسْروراً إذَا لاَحَ الرَّدَىٰ

* وهكَذَا نرىٰ أنَّ أبَا المخشيَّ في شِعْرِه هذا بأنَّه لم يُرزَقْ بالذّكُور ، بل هو أبو بنَات ، حيثُ كَشَفَ عن محنَتِهِ وأثرِها في زَوْجه وبناتِه ومَنْ حولَه ، فقد تحوَّل إلىٰ عالةٍ علىٰ زوجهِ العاجزةِ بدورها ، والباكيةِ دائماً ما كانَ منْ أمرِها وأمْرِ زوجها ، وفي هذا يقولُ:

وأُمُّ بُنَيَّاتي الضَّعيفُ حَويلُهَا تَعُولُ امرأً مثْلي وكَانَ يَعُولُها
إذَا ذكَرتْ ما حَال بيني وبينَها بكَتْ تَسْتَقيلُ الدَّهْر ما لاَ يقيْلُها

حَسَّانَةُ ومَوتُ الأَبِ:

* كانَتْ حسَّانَةُ قد نَشَأَتْ نشأةً علميةً[1] وأدبيّةً ، وورثتِ الشِّعْرَ عن أبيها ، وتعلَّمت نَظْمه ، وبدأَ نجمُها يَسْطَعُ بين شاعراتِ الأَنْدلسِ ، وبدأَ

(١) كانَ النّساءُ في عَصْر حسَّانة يخرجْنَ إلىٰ المسجدِ الجامعِ في قرطبةَ ، وإلىٰ سواه منْ معاهدِ العِلْم ، فَيجلسْنَ في حلقاتٍ للدُّروس متنقّباتٍ محتشماتٍ. وقد ظهرَ منَ النّساء عددٌ لا كفاءَ له في فنونٍ منَ العلمِ والأدبِ ، وكان لهنَّ في تلك الحياةِ العاملةِ شأنٌ نابهٌ وشأوٌ بعيد ، ومنهنّ الشّواعرُ ، والكاتباتُ ، والمحدّثاتُ ، والمتفقّهات ، والمعلماتُ ، والمتطبباتُ.

صوتُها يَصِلُ إلىٰ قُصورِ الأُمراء ، ولَعَلَّ أخبارَها تضيءُ لنا بعضَ جوانب حياتها ، فقد مدحَتِ الحكمَ بنَ هشام الرّبضيّ وابنهَ عبد الرحمن.

* وكانَ الحكمُ بنُ هشام أميراً شَاعِراً ، وَرِثَ مَلَكَةَ الشِّعْرِ عن جَدِّهِ عبد الرّحمن الدَّاخل(١) ، وكان يُقدِّرُ الشُّعراء ويُعطيهم ، وممَّنْ نالَ رِفْده وعطاءَه: حسَّانَةُ بنتُ أبي المخشيّ التي تُعْتبرُ بحقّ مِنْ أولىٰ أديباتِ وشاعراتِ الأندلسِ إنْ لم تكُن أوّلهنَّ ، بل إنَّ صوتَها أوَّلُ صوتٍ نَسوي سُمِعَ في أرضِ الأَنْدلس يقرضُ الشِّعر ، وكانَ شعرْاً في غايةِ القُوَّةِ والجزَالةِ ، لم تداعبْهُ أنداءُ الحضَارةِ ، ولم تحركْهُ بَعْدُ همساتُ الطَّبيعةِ الأندلسيّةِ السَّاحرةِ.

* وبينما كانت حسَّانَةُ تَصْقُل موهبتَها بقرضِ الشَّعر وحفظه ، توفي أبوها وذلك في دولةِ الحكمِ بنِ هشام ، وتركها تمضغُ الأسىٰ ، بعد أنْ كانت ترتَعُ في حياتِه بين نعيمِ الكلماتِ ، ونعيمِ رعايتِهِ وحمايتِهِ ، أمّا الآن ـ وقد قضىٰ أبوها نَحْبَه ـ فلا تَجِدُ مَنْ تلتجىءُ إليه في حياتِها إلا

(١) عبدُ الرحمن الدّاخل هو صَقْر قريش وُلِدَ سنة (١١٣ هـ) وماتَ سنة (١٧٢ هـ) وشخصيّته مشهورةٌ جداً في عالم التّراجِم بين الأوائل في الدُّنيا ، أَجْمَلَ ابنُ حيّان مؤرِّخُ الأندلس صفاته بقولهِ: كانَ عبدُ الرحمن راجحَ الحلم ، فاسحَ العلم ، ثاقبَ الفَهْم ، كثيرَ الحزم ، بريئاً منَ العجز ، سريع النّهضة في طلبِ الخارجين عليه ، متّصلَ الحركة ، لا يخلدُ إلىٰ راحة ، ولا يسكنُ إلى دَعَة ، ولا يكلُ الأمورَ إلى غيره ، ثم لا ينفردُ في إبرامها برأيِه ، شجاعاً مقداماً ، بعيدَ الغور ، شديدَ الحذر ، قليلَ الطمأنينة ، بليغاً ، منوهاً ، شاعراً ، محسناً ، سمحاً ، سخياً ، طلق اللسان.

رأىٰ بروضِ الرّصافةِ نخلةً منفردةً ، فأثارَ منظرها في نفسهِ ذكرى وشجناً وأنشد:

تبدَّتْ لنا وسْطَ الرَّصافةِ نخلةٌ ... تناءَتْ بأرضِ الغربِ عن بلدِ النَّخْلِ
فقلتُ شبيهي في التّغرُّب والنّوى ... وطول التّنائي عن بنيَّ وعن أهلي
نشأتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلُكِ في الإقصاءِ والمنتأى مثلي
سقتكِ غوادي المُزْنِ من صَوبها الذي ... يسحُّ ويستمرىء السّماكين بالوبلِ

الأميرُ الحكمُ بنُ هشام[1] الشَّاعرُ الأديبُ الذي فَصَّلَتْ له أثوابَ المديحِ مِنْ شِعرها ، وخلالَه صوَّرتْ حالتَها التي آلتْ إليها ، وعرضَتْ شكايتَها بأسلوبٍ لطيفٍ حَسنٍ يمسُّ شِغَافَ القَلْبِ ، ويحرّكُ أضالعه ، لا سيما أنَّه مِنِ امرأةٍ مهيضةِ الجناحِ ، كسيرةِ الفؤادِ ، فَقَدَتْ عائِلهَا وهيِ بكْرٌ في ميعةِ الصَّبا لم تتزوَّجْ؛ تقولُ حسَّانة:

---

(١) الحكمُ بنُ هشام بنِ عبد الرحمن بنِ معاويةَ بنِ هشام بن عبد الملك.. كنيتُه أبو العَاصي، أمُّه أمُّ ولدٍ اسمها «زُخْرُف»، له أربعون وَلَداً، ١٩ ذكور و٢١ إناث.
كان الحكمُ شديدَ الحزم، ماضي العزم، حسنَ التّدبير في سلطانه، وتوليةِ أهل الفَضْل، والعدلِ في رعيته، وكانَ فصيحاً، بليغاً، شاعراً مجيداً، أديباً، نحوياً، ومنْ شِعره في جواريه:

قُضُبٌ منَ البانِ ماسَتْ فوقَ كثْبانِ ... ولَّيـنَ عنّـي وقـد أزْمَعْـنَ هجـرانـي
مَلكْنَنـي مِلْـكَ مَـنْ ذلَّـت عـزيمتُـه ... للحُـبّ ذلَّ أسيـرٍ مـوثـقٍ عـانـي
مَنْ لي بمغتصباتِ الرُّوح من بَدني ... يغْصبنني في الهوىٰ عزّي وسُلطاني

وللحكمِ هذا منقبةٌ معتصميّةٌ ونخوةٌ أمويّةٌ، مفادها أنَّ العباس بنَ ناصح أنهىٰ إليهِ أنَّ امرأةً بالثغر منْ وادي الحجارة سمعها تقولُ: واغوثاهُ، يا حَكَمُ ضيّعتنَا، وأسلمتَنا واشتغلتَ عنّا حتَّى استأسدَ العدوُّ علينا؛ ورُفِعَ إليه شِعْرٌ في هذا المعنىٰ والغَرض، فخرج منْ قرطبةَ كاتماً وجهته، وأوغلَ في بلاد الشّرك، ففتحَ الحصون، وهدمَ المنازل، وقتلَ وسبَىٰ، وقَفَلَ بالغنائم علىٰ النّاحية التي فيها تلكَ المرأةِ، فأمرَ لأهلِ تلك النّاحية بمالٍ منَ الغنائم يفدونَ به أسْرَاهم، ويصلحونَ به أحوالَهم، وخصَّ المرأةَ وآثرها، وأعطاها عَدداً منَ الأسرى، وقال لها: هل أغاثَكِ الحكَمْ؟ قالت: أي واللهِ أغاثنا وما غَفَل عنّا، أعانَه اللهُ وأعزَّ نَصْرَه.
ماتَ الحكمُ لأربعٍ بقينَ من ذي الحجة سنة (٢٠٦ هـ) وعمره (٥٢ سنة)؛ وذكَرَه لسانُ الدّين بنُ الخطيب في كتابه: رقم الحُلل، وهو رجَزٌ نَظَمه في تاريخِ الإسلام فقال:

حتّـى إذا الـدّهـرُ عليـه احتكمـا ... قـامَ بهـا ابنـه المسمّـى حَكَمـا
واستشعـرَ الثـورةَ فيهـا وانقبـضْ ... مستـوحشـاً كـالليـثِ أقعـى وربـضْ

وسنقرأُ شذراتٍ منْ سيرةِ الحكم الرّبضي في هذه التّرجمة بإذن اللهِ. (الإحاطة ١/ ٤٧٩ ـ ٤٨٢).

إنِّي إليـكَ أبَـا العَـاصي مُـوَجِّـعَـةٌ أبَا المخشيْ سَقَتْه الوَاكِفَ الدِّيمُ
قـد كُنتُ أرتـعُ في نُعمـاهُ عاكفـةً فاليومَ آوي إلىٰ نعماكَ يا حَكَمُ
أنتَ الإمامُ الذي انقادَ الأنامُ له وملَّكَتْـه مَقَـاليـدَ النُّهـىٰ الأمـمُ
لا شيءَ أخشىٰ إذا ما كنتَ لي كَتِفاً آوي إليـهِ ولا يعـرونـيَ العـدمُ
لا زِلْتَ بِالعزَّةِ القَعْسَاءِ مُرتدياً حتّى تذلَّ إليكَ العربُ والعَجمُ

* فلمّا وقَفَ الحكمُ علىٰ شعرِ حسَّانة ـ وكان شَاعراً يطربُ للشِّعر الحَسَنِ ـ وقَعَ منه موقعاً لطيفاً واستحسنَه ، ورقَّ لشكواها وحالَها ، وأمرَ بإجراءِ مرتَّبٍ لها ، ثمَّ كتبَ إلى عامِلِهِ جابرِ بنِ لبيد والي إلبيرة[1] ، فجهَّزهَا بجهازٍ حَسَنٍ ، وأكرَمَها وأحْسَنَ إليها ، واحتفظتْ حسَّانَة بكتابِ الحكَمِ ، وجعلَتْه في مكانٍ حصين[2] .

* وهكذا استطاعتْ حسَّانَة ابنةُ أبي المخشي التّميمية أنْ تنبِّـهَ قَلْبَ الأميرِ الشَّاعر الفارس الحكَم الرَّبضي ، وتستحثَّهُ علىٰ أنْ يأخذَ بيدِ الضَّعيفِ ، وجعلَتْ منه أذُناً صاغيةً واعيةً لصوتِ المرأةِ[3] الذي كانَ

---

(١) «إلْبيرة»: مدينةٌ رومانيةٌ قديمةٌ ، وبالإسبانية Elvira وكانت عاصمةَ الولايةِ التي تُسمّى بهذا الاسم. ولما فَتَح المسلمون الأندلسَ كانت إلبيرةُ مدينةً كبيرةً عامرةً ، وإلىٰ جانبها محلّة «غَرنَاطة» الصَّغيرة ، ثمَّ تطوَّرَ الزَّمنُ ، وعفَتْ إلبيرة وخربتْ ، ونمتْ غرناطةُ ، وأصبحتْ منذُ القرنِ الخامسِ الهجريّ قاعدةَ الولايةِ ، ثمّ غدتْ عاصمةً لمملكةِ غَرناطة.

(٢) انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٥/ ٣٠١) بتصرف يسير؛ ومعجم الأديبـات الشـواعـر (ص ١٨٤) ، والـدر المنثـور فـي طبقـات ربـات الخـدور (ص ١٦٤) ، وأعلام النساء (١/ ٢٥٦).

(٣) يقولُ عبدُ الله عفيفي: لم يكنْ ذلك العهدُ الأمويُّ بالأندلسِ عَهْدَ لذَّاتٍ مجترحة ، ولا حرماتٍ مُباحة ، ولم يظهرْ منَ النَّاس مَنْ دأْبُه قَذْفُ المحُصنات وإشاعة الفاحشةِ بينَ النَّاس ، كما كانَ يفعلُ ذلك شُعراءُ الفرسِ وأدباؤهم في بغدادَ لتوهينِ الأعراضِ ، وإباحةِ الحُرمات.
وكانَ للدِّين سُلطانٌ مُبين علىٰ الأعلياءِ والدّهماء، وممّا زادَ الرُّوح الدّيني استطارةً =

ضَعيفاً عَصْرَ ذَاك ، ولكنَّه بدأَ يلامسُ الأَسْماعَ ، ويهذِّبُ الطِّباعَ.

* ولعلَّه منَ المفيدِ هنا أنْ نشيرَ إلىٰ واقعةٍ عظيمةٍ ومنقبةٍ كريمةٍ حدثَتْ للحكمِ الرَّبضي ، حيثُ استجابَ لصوتِ امرأةٍ أندلسيّةٍ تَسْتَصرِخُه ، فأغاثَها ولبَّىٰ صرخَتَها ، وغَدا صوتُ المرأةِ مسموعاً في قَصْرِه يدوّي فيه ، كما دوّىٰ صوتُ المرأةِ المسلمةِ وهي في عموريّةَ عندما صَرخَتْ: وامعتصماه فلبّىٰ المعتصمُ بنُ الرشيدِ نداءَها ، وذهَب بجحافِله إلىٰ أرضِ الرُّوم وفَعَلَ الأفاعيل ، وخَلَّده أبو تمّام الطّائيّ بقصيدتَهِ البائيّة التي ما تزالُ تطربُ القلوبَ والأسماعَ ، في جميعِ الأزمنةِ والبقاع.

* فمنْ مطربِ وبديعِ أخبارِ الحكَمِ بنِ هشام أنَّ العبَّاسَ بنَ ناصح الجزيريّ الشّاعر ، توجَّه إلىٰ الثَّغر(١) ، فلمّا نَزلَ في وادي الحِجارة(٢) ، سَمِعَ امرأةً تقولُ هناك: واغوثَاهُ بكَ يا حَكَم ، لقد أهملتَنا حتّى كَلِبَ(٣) العدوُّ علينا ، فأيَّمَنَا وأيتَمنَا.

* فسألَها العبَّاسُ بنُ ناصح عن شأنِها وعمّا جرىٰ لها ، فقالت:

= واستفاضةً تلك الشّوكةُ العظيمةُ التي كانَ المسلمون يقابِلون بها عدوانَ الجلالقةِ وغيرهم منَ المترصّدين للعرب والإسلام.
منْ أجل ذلك لم يكنْ طريقُ المرأةِ الأندلسيّةِ شائكاً وعراً ولا ضيّقاً حرجاً ، بل كانَ واضحاً قصداً ، وصراطاً قويماً ، لا لغو فيه ولا تأثيم. (المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ٣/ ١٢٨).

(١) «الثّغْرُ»: كلمةُ الثّغرِ يُقْصَدِ بها هنا: الثّغرُ الأدنىٰ ، الذي يشمَلُ طليطلة وأعمالها. وهو يقابلُ اليومَ ولاية قَشْتالة القديمة ، وأمّا الثّغرُ الأعلىٰ فقد كان يشملُ سرقسطة وأعمالها ، ويقابلُ اليوم ولاية أراجون.

(٢) «وادي الحجارة»: مدينةٌ منْ مدنِ الأندلس القديمةِ ما تزالُ قائمةً حتّى اليوم ، وهي تقعُ شمال غربي مدريد على مقربةِ منها ، والنّسبة إليها حِجَاريّ ويُنْسبُ إليها جماعة.

(٣) «كَلِبَ»: أي قَسَا واشتدَّ.

يا هذا ، كنتُ مقبلةً منَ الباديةِ في رفقةٍ ، فخرجَتْ علينا خيلُ عدوٍّ ، فقتلَتْ وأسَرَتْ ، وسَبَتْ؛ فَصَنَع العبّاسُ قصيدتَه الرّائية التي يقولُ في أَوّلها :

تَملْمَلْتُ في وَادي الحجَارةِ مُسْئِداً ... أُراعي نُجوماً ما يَرون تَغيّرا[1]

إليكَ أبا العَاصي نَضَيْتُ مطيّتي ... تَسْيرُ بهمٍّ سَارياً ومُهجِّرا[2]

تَدَارَكْ نِسَاءَ العَالَمين بنصرةٍ ... فإنّكَ أحْرىٰ أنْ تغيثَ وتَنْصُرا

* فلما دخلَ العبَّاسُ بنُ ناصح الشَّاعر علىٰ الحكم الرَّبضي ، أنشَده القصيدةَ ، ووصفَ له خوفَ أهلِ الثَّغر ، واستصراخَ المرأةِ بِاسْمِه وقولها : يا غوثاه ، واغوثاه بكَ يا حكَم؛ فأَنِفَ الحكَمُ منْ ذلك ، ونادىٰ في الوقْتِ والحينِ بالجهادِ والاستعدادِ ، ومن ثَمَّ خرجَ بعد ثلاثةِ أيَّام إلىٰ وادي الحجارة ، ومعه العبّاسُ الجزيريُّ الشَّاعر ، ثمَّ سأَلَ عنِ الخيلِ التي أغارتْ من أيِّ أرضِ العدوّ كانَتْ ، فأُخبِرَ بذلك .

* وانطلقَ الحكمُ ، فغزا تلك النَّاحية وأثخنَ فيها ، وفتحَ الحصونَ ، وخرَّبَ ديارَ القومِ ، وقَتلَ عَدداً كثيراً منهم ، ثمَّ جاءَ إلىٰ وادي الحِجارة ، وأمرَ بإحضارِ تلك المرأةِ التي استغاثَتْ به واستصرخَتْه ، وجميعِ مَنْ أُسِرَ له أحَدٌ في تلك البلاد ، فحضَرَ جميعُهم والمرأةُ في مقدّمِتهم ، هنالك أمرَ بضربِ رقابِ الأسرىٰ بحضرتها ، ومن ثمَّ التفتَ إلىٰ العبَّاسِ بنِ ناصح الشَّاعر وقال له : يا عبّاسُ ، سَلْهَا : هل أغاثها الحكمُ بنُ هشام أبو العَاصي؟!

فقالتِ المرأةُ الحِجاريَّةُ ـ وكانتْ نبيلةً حصيفةً عاقلةً ـ : أي واللهِ ، لقد

---

(١) «مسئداً» : سائر ليلاً .
(٢) «أبا العاصي» : كنية الحكم بن هشام .

شفىٰ الصُّدورَ ، وأنكىٰ العدوَّ ، وأغاثَ الملهوفَ ، فأغاثَه اللهُ ، وأعزَّ نَصْرَه .

* وارتاحَ الحكمُ وسُرَّ منْ قولها ، وتبسَّم ضَاحِكاً وبدا السُّرور في وجههِ الأسْمَرِ ، وأنشدَ قَائلاً يخاطبُ العبَّاس :

أَلَمْ تَرَ يا عبّاسُ أنَّي أجبْتُها على البُعْد أقتادُ الخميسَ المُظَفَّرا[1]
فأدْرَكْتُ أوْطَاراً وبرَّدْتُ غلَّةً ونَفَّسْتُ مكْروباً وأغنيت مُعْسِرا

فقالَ عبَّاسٌ الشَّاعر : نَعم ، جَزَاكَ اللهُ خيراً عنِ المسلمين[2] .

حَسَّانَةُ وَنسَاءُ ابنِ الحَكَمِ :

* ظلَّتْ حَسَّانَةُ بنتُ أبي المخشيّ تنعمُ بعطفِ الحكَم الرّبضيّ ، وكان

---

(١) «الخميْسُ» : الجيش كثير العدد .

(٢) انْظر : نفح الطِّيْب (١/ ٣٢٨ و٣٢٩) بتصرُّف يسير جداً . وهكذا كانَ الحكمُ ، وله أخبارٌ أخرىٰ تدلُّ على علوّ همّته وإغاثته الملهوف .
ففي سنة (١٩٧ هـ) ، وإبّان إمارته حدثَتْ مجاعَةٌ وكانتْ شديدةً ، فأكثرَ الحكَمُ مواساةَ النَّاس وأهل الحاجاتِ وجَبَرَ العَثَرات ، وفي ذلك يقولُ عبّاس بنُ ناصح الجزيريّ فيه :
نَكِدَ الزَّمانُ بأزمة أيّامه منْ أنْ يكونَ بعَصْره عُسْرُ
ظلعَ الزَّمانُ بأزمةٍ فَجلا لَهُ تلكَ الكريهة جودُه الغَمْرُ
والحكمُ أوّلُ مَنْ جنَّد الأجنادَ بالأندلس ، واتّخذ العدّة ، وكان أَفْحلَ بني أميّة بالأنْدلس ، وأشدّهم إقداماً ونجدةً ، وكان يُشَبّه بأبي جعفر المنصور العبّاسي في شدّةِ المُلك ، وتوطيد الدَّولة ، وقمعِ الأعداء وقهرِهم ، وكانَ نَقْشُ خاتمه : «بالله يثقُ الحكمُ ويعتصمُ» .
وكان يباشرُ الأمورَ بنفسهِ ، ويقرّب الفقهاء والعلماءَ والصَّالحين ، وهو الذي وطَّأَ الملكَ لعقبه بالأندلس ، وكان يقولُ : ما تحلَّى الخلفاءُ بأزْينَ منَ العَدْلِ؛ ومن حكاياتهِ المستحسنة أنّه توجّه عليه حُكْمٌ منَ القاضي في أمِّ ولَدٍ ، فانقادَ للحقِّ ، ودفعَ ثمنَها لمولاها . توفي الحكم سنة (٢٠٦ هـ) .

عاملُه علىٰ إلبيرة يُمْضِي كتابَ الحكَم فيها ، ويخشىٰ مخالفَته ، فكان يحسنُ إليها ، ويبتعدُ عمّا يؤذيها.

* وتمرُّ الأيّامُ هنيةً مريةً علىٰ حسَّانة ، ولكنَّ المنيةَ زارتِ الحكمَ الرَّبضيَّ سنةَ (٢٠٦ هـ) ، وانتقلَ إلى جوارِ ربِّه ، فينكث جابرُ بنُ لبيد عامل إلبيرةَ العَهْدَ ، ويقعُ علىٰ حسانةَ حَيْفٌ منه؛ فقد انتهزَ جابر موتَ الحكمِ بنِ هشام ، وقطعَ عنها ما أجراهُ الحكمُ منْ مرتَّبٍ ، ولم يَعُدْ ينفِّذُ ما خطَّتْه أناملُ الحكمِ منْ حقوقٍ لحسَّانَةَ ، بل أخذَ يضيِّقُ عليها ، ويعبثُ بأملاكها ، فتوسَّلَتْ إلى جابر أنْ يكفَّ عنها ، وأخرجتْ كتابَ الحكمِ وأرتْهَ خطَّه بحفظِ حقِّها وبرّها وإكرامها ، فلم يفدْهَا ذلك شيئاً ، فضاقَتْ عليها دُنيا الأندلُس بما رحُبَتْ ، واغتالتْها يَدُ الظُّلم ، وعصَفَتْ بها ذات اليمين وذات الشّمال ، وأخذتْ تفكِّرُ في طريقةٍ تدخلُ بها قَصْرَ الأميرِ عبد الرحمن بن الحكم كيما ترفعَ إليه شكْوَاها.

* وكانت حسَّانَةُ التَّميميَّةُ إحدىٰ النِّساء الشَّاعرات اللواتي رُزِقْنَ ذكاءً عظيماً ، فكانتْ لّماحَةً فَطِنَةً ، فاهتدتْ بفطرتها الأنثوية إلىٰ طريقةٍ تدخلُ منْ خلالها قَصْر الأميرِ عبد الرحمن ـ الأوسط ـ وارث الحكم ، وهناك أعدَّتْ أهْبَتَها ، ودخلت قصْرَ الأمير عبد الرحمن ، وأقامتْ بفنائِه ، وعرفتْ بعضَ أمورِهِ ، ومكانة بعضِ نسائه ، هنالك تلطَّفَتْ معها ، وشرحَتْ لها حالتَها ، فأوصلتْها إلىٰ زوجها الأميرِ عبدِ الرحمن وهو في حالِ سُرورٍ ، فانتسبتْ إليه ، فعرفَها وعرفَ أباها أبا المخشيّ الشَّاعر ، هنالك قصَّتْ عليه القَصَص مع عامِله ، وكيفَ سَلبَها حقَّها ، وتركَها وأيتامَها دونَ شيءٍ ، وأعدَّتْ منْ شِعْرها قصيدةً تهزُّ القُلوبَ ، وتستدرُّ الدُّموع ، واستطاعَتْ بذكائِها أنْ تترجمَ بشعْرِها ما عراهَا منَ الأسىٰ ، وتذكِّرَ الأميرَ عبد الرحمن بأبيه الذي حماها ورعاها حيناً منَ الدَّهْر ، كما أنَّها استطاعتْ أنْ تثيرَ حميّته بشعرِها المؤثّر ، فقد كانَ شاعراً لماحاً يتأثَّرُ

برقيقِ الكلام ، وجميلِ المعنىٰ ، اسمعْ إليها حيثُ تقولُ:

إلى ذي النَّدىٰ والمجدِ سَارتْ ركَائبي — علىٰ شَحَطٍ تَصلىٰ بنارِ الهَواجرِ[1]

ليجبرَ صَدْعي إنَّه خيرُ جَابرٍ — ويمنعُني منْ ذي الظَّلامةِ جَابرِ[2]

فإنّي وأيتامي بقبضةِ كفِّه — كذي ريشٍ أضْحى في مخالبِ كاسرِ[3]

جَديرٌ لمثلي أنْ يُقَالَ مروءةً — لموتِ أبي العاصي الذي كانَ ناصري[4]

سَقَاهُ الحيَا لو كانَ حيّاً لما اعتدىٰ — عليَّ زمَانٌ باطشٌ بطشَ قَادرِ[5]

أيمحو الذي خطَّتْه يمناهُ جابر — لقد سَامَ بالأمْلاك إحدىٰ الكبائرِ

* ولما فرغتْ حسَّانةُ منْ إنشادِها وشعرِها ، أخرجتْ كتاب أبيهِ الحكَم ، ثمَّ دفعَتْهُ إليهِ ، فعرفَ خطَّه ، وأفضتْ إليهِ بعجَرِها وبجرها فرقَّ لها ، وأخذ خطَّ أبيه فقبَّله ووضعه علىٰ عينيه ، وغضب لها وقال: تعدّىٰ

---

(١) «شحط»: الشحط: البعد.

(٢) «يجبر صدعي»: أي ينصفُ ظلامتي. «جابر»: الثانية: اسم عامِل إلبيرة ، و«جابر»: الأولى: من جَبْرِ العثَرات. وهذا جناسٌ لطيفٌ وصنعةٌ بديعية مبكّرةٌ جادَتْ بها قريحةُ حسَّانة.

(٣) هذا البيتُ لوحةٌ فنيّةٌ جميلةٌ ، تمثّلُ فيه حسَّانة الضّعافَ بقبضةِ كفٍّ ظالمةٍ باطشةٍ لا ترحمُ ، كذي ريشٍ لا حَوْلَ له أصبحَ تحت رحمةِ كاسرٍ مفترسٍ متوحّشٍ. تأمّل البيتَ تجدْهُ صورةً ناطقةً للتفجّع والحزنِ والمرارةِ أطلقتْهُ حسّانةُ المكلومةُ المجروحةُ ، فهو يعبّرُ عنِ الواقعِ الصّارخِ للصّغار الذين ليس لهم مَنْ يحميهم مِنْ صولةِ الدّهر وعدوان المعتدين إلّا هذه المرأة التي ترعاهم وتمنحهم منْ عطفها شيئاً كثيراً. ولكنْ ماذا تفعلُ المرأةُ وهي نفسُها في أمسِّ الحاجةِ إلى مَنْ يقيها ظلمَ الظالمين وأرزاء الدهر ، لذلك بحثتْ عن النّاصر فلم تجدْ. . ثم بحثتْ حتى عثرتْ على شِعْرها الذي اتّخذته سلاحاً مدافعاً ، سكبت فيه خطراتها المحملة بالبوح الشّجي ، فكان شفيعاً عند الأمير ، لأنّ الكلمة الصّادقة تأثيرٌ وسحر في النفوس.

(٤) «يقال»: منْ أقالَ العثرة ، يعني ساعَدَ ومدَّ يدَ العون ، وقد جاءتْ بصيغة المبني للمجهول.

(٥) «الحيا»: المطر الذي يحيي موات الزرع.

ابنُ لبيد طورَه ، حتى رامَ نَقْضَ رأي الحكَم ، وحسبنا أنْ نسلكَ سبيلَه بعده ، ونحفظ بعد موتهِ عَهده ، انصرفي يا حسَّانة فقد عزلْتُه لك ، ووقّعَ لها بمثلِ توقيعِ أبيه الحكَم ، وأمرَ لها بجائزة(١) .

* وهكذا أنصفَ أبو المطّرف الأمير عبد الرحمن بن الحكم حسانةَ التَّميميَّةَ وعرفَ حقَّها ، وتعرّفَ فَضْلَ أبيهِ منذ أنْ وُلدَ في سنةِ (١٧٦ هـ) ، وكان أبوه الحكَم قد عُنِي بتعليمهِ وتخرُّجه في العلومِ القديمةِ والحديثةِ ، فنَشَأَ نشأةً كريمةً ، وجبرَ عثراتِ الكرام ، واستجابَ لشكوىٰ حسَّانة ونَجْواها وأنقذها منَ الظُّلْمِ ، واستجابَ لطلبِها .

---

(١) انظر : نفح الطيب (٥/ ٣٠١ و٣٠٢) بتصرف يسير . وانظر : معجم الأديبات الشواعر (ص ١٨٤ و١٨٥) ، والدر المنثور (ص ١٦٤ و١٦٥) ، وغيرها من مصادر كثيرة .
ومنَ الجدير بالذّكر أنَّ المؤرخين قد أثنوا علىٰ الأمير عبد الرحمن الأوسَط ابن الحكم بن هشَام ، وأجمعوا بأنَّه كان من أهلِ التّلاوة للقُرآن العظيم ، والاستظهار للحديثِ الشّريف .
وعبدُ الرحمن هو أوّلُ مَنْ فخّم السَّلطنَة بالأندلسِ من انتقاءِ الرّجال ، والمباني وهو الذي بنى جامعَ أشبيلية وسُورَها ، وتولّع جواريه ببناء المساجدِ وفعل الخير ، وكان يُقال لأيّامهِ أيّام العروس ، واستفتح دولته بهدمِ فندق الخمر ، وإظهار البرّ . وكان مُكرِماً لأصنافِ العلماء ، مُحسناً لهم ، وكانَ يخلو كثيراً بكبيرِ الفقهاء يحيىٰ بن يحيىٰ ويشاوره .
قال المقّري : كانَ عالماً بعلوم الشّريعةِ والفلسفة ، وكانت أيّامه أيّامَ هدوء وسُكون ، وكثرت الأموال عنده ، وبُنيت في أيّامه الجوامع بِكُوَرِ الأندلس ، وبنىٰ بالأندلسِ جوامعَ كثيرة ؛ وكان نَقْشُ خاتمه : عابد الرحمن بقضاء الله راض ، وفي ذلك قيل :

خَاتَمٌ للملكِ أضحىٰ ... حكْمُهُ في النَّاس ماضي
عابدُ الرحمنِ فيه ... بقضاءِ الله راضي

وهو أوّلُ مَنْ أحدثَ هذا النَّقش ، وبقي وراثة لمن بعده من ولده . توفي الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة (٢٣٨ هـ) رحمه الله . (المغرب ١/ ٤٥ ـ ٥١) و(نفح الطيب ١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٥) مع الجمع والاختصار .

* ويبدو لي أنَّ حسَّانَة التَّميميّة قد فتحتْ هذا البابَ الجميلَ في قُصورِ الأُمراءِ الأندلسيين ، فجاءتْ نساءٌ بعدها ، وألقينَ شكواهن أمامَ الأمراءِ ، كالشَّاعرة التي أتتْ من مدينة شِلْب[1] غربي الأندلس في القَرن السَّادس والسَّابع الهجري وهي الشَّاعرةُ الشِّلبيّة[2] المشهورةِ بنسبتها إلى

---

(١) «شِلْب»: بكسر أوّله وسكون ثانيه وآخره ، مدينةٌ بغربي الأندلس ، بينها وبين باجّة ثلاثة أيام وهي غربي قرطبة. (معجم البلدان ٣/ ٣٥٧).
وقالَ صاحبُ كتابِ صفة جزيرة الأندلس (ص ١٠٦): شِلْب قاعدةُ كورة أشكونية ، وهي مدينةٌ بقبلي مدينة باجَّة ، ولها بسائطُ فسيحة ، وبطائحُ عريضة ، ولها جَبَلٌ عظيمٌ منيفٌ ، كثير المسَارحِ والمياهِ ، وأكثر ما ينبتُ فيه شجرُ التُّفاحِ العجيبِ ، وعليها سورٌ حصين ، ولها غلاّتٌ وجنّات.
وهي الآن بلدةٌ برتغاليةٌ صغيرةٌ يقعُ في نهايةِ ولايةِ الغَرب الأندلسيّة في جنوبي البُرتغال علىٰ مقربةِ من المحيط ، وإليها يُنْسبُ الشّاعر الكبيرُ أبو بكر بن عمّار وزير المعتمد بن عبّاد ، وقد كانتْ شلْب أيّام بني عبّاد قاعدةَ منطقةِ الغرب القصوىٰ ، وما زالتْ بها بعضُ أطلالِ قَصْر الشَّراجيب الشّهير. وتسمى شلب بالبرتغالية: Silves ونقلَ المقّري في شلْب أبياتاً للفاضِلِ الكاتب أبي عمرو بن مالك بن سَبْدَمير حيثُ يقول:

أَشجـاكَ النّسيـمُ حيـن يهـبُّ ... أمْ سَنَـا البـرقِ إذ يخـبُّ ويخبـو
أمْ هتـوفٌ علـىٰ الأراكـةِ تشـدو ... أمْ هتـونٌ مـنَ الغمـامـةِ سكْـبُ
كـلُّ هـذاك للصَّبـابـةِ داعٍ ... أيّ صـبٍّ دمـوعُـه لا تصـبُّ
أنـا لـولا النّسيـمُ والبـرقُ والـوُرْ ... قُ وصـوبُ الغمـام مـا كنـتُ أصبـو
ذكـرتنـي شلْبـاً وهيهـات منّـي ... بعـدمـا استحكـمَ التّبـاعـد شِلْـبُ

(نفح الطّيب ١/ ١٧٥).

(٢) «الشِّلْبيّة»: قالَ ابنُ الأبّار: لم أقفْ علىٰ اسمِها ، وكتَبَتْ إلىٰ السُّلْطان يعقوب المنصور تتظلّم من ولاةِ بلدها وصاحبِ خراجها: ـ كما سيمر معك بسيرتها موسعة في ثنايا هذا الكتاب ـ:

قَـدْ آنَ أنْ تبكـي العيـونُ الآبيـة ... ولقـد أرىٰ أنَّ الحجـارةَ بـاكيـه
يـا قـاصدَ المصر الـذي يُـرجىٰ بـه ... إنْ قَـدَّرَ الـرحمـنُ رفْـعَ كـراهيـه
نـادِ الأميـرَ إذا وقَفْـتَ ببـابـهِ ... يـا راعيـاً إنَّ الـرعيّـةَ فـانيـه=

شِلْب ، والتي بثَّتْ شكْواها إلى يعقوب المنصور الموحديّ[1] ، واستطاعت أنْ تسمعَه شكْواها في شعرٍ يحملُ اللحنَ الباكي والشَّجْوَ الحزين ، وهو يفصحُ عن ظلم والي بلدها شِلْب.

حَسَّانَةُ وهمسةُ شُكْر:

* عادتْ حسَّانةُ ابنةُ أبي المخشيّ إلىٰ إلبيرة وقد جبرَ الأميرُ عبدُ الرحمن كَسْرَها ، وأنقذَها وأيتامَها من ربقَةِ الظُّلم ، وعزلَ الوالي منْ عَملِه لتعدّيْهِ وظُلْمه ، ونعمَتْ حسَّانَةُ في أملاكها ومواردِ رزقها ، وشعَرتْ بالطُّمأنينة والأمْن.

* وفي إلبيرة جادتْ قريحةُ حسَّانة الشِّعرية ، فبعثَتْ إلى عبدِ الرحمن تقولُ وهي شاكرةٌ فَضْله ، ذاكرةٌ كرمَه ، متحدّثةٌ عن أصْلِهِ الكريمِ اليانعِ الحسيب:

ابنُ الهشَامَيْن خَيرُ النَّاسِ مأثرةً ... وخيرُ منتجعٍ يوماً لرُوَّاد
إنْ هزَّ يومَ الوغىٰ أثناءَ صعدتِهِ ... روّىٰ أنابيبها منْ صرفِ فِرْصَادِ
قُلْ للإمامِ أيا خيرَ الورىٰ نَسَباً ... مقابَلاً بينَ آباءٍ وأَجْداد
جوَّدتَ طبعي ولم ترضَ الظُّلامةَ لي ... فهاكَ فَضْلَ ثناءٍ رائحٍ غادِ
فإنْ أقمتُ ففي نعماكَ عاطفةٌ ... وإنْ رحلتُ فقد زوَّدتني زادي[2]

= أرسلْتَها هَمَلاً ولا مرعى لها ... وتركتها نَهْبَ السِّباع العاديه
شلْبٌ كلا شِلْبٍ وكانت جنّةً ... فأعادَها الطَّاغون ناراً حاميه
خافُوا وما خافوا عقوبةَ ربّهم ... واللهُ لا تخفىٰ عليه خَافِيه

ويُقال: إنّها أُلقيتْ يومَ الجُمعة علىٰ مصلّى المَنْصُور ، فلما قَضىٰ الصَّلاة ، وتصفَّحها ، بحثَ عن القضيةِ فوقفَ على حقيقتها ، وأمرَ للمرأةِ بصِلَة. (نفح الطيب ٦/ ٧٣ و٧٤).

(١) حكمَ السُّلْطان يعقوب المنصور الموحّدي (١٤ سنة) من سنة (٥٩٥ إلى ٦٠٩ هـ). (أعمال الأعلام ص ٢٦٩ و٢٧٠).

(٢) انظر: نفح الطيب (٥/ ٣٠٢) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ١٨٥) والدّرّ =

* وظلتْ حسَّانَة التَّميميّةُ تعيشُ في نعيمِ العدل مدَّة حياتِها وهي مغمورةٌ بخيراتها ، ومشهورةٌ بالجودِ والكرم ، والأدَبِ والحِكم.

* ولا نَعْلَمُ بالتَّحديدِ متىٰ كانت وفاةُ حسَّانة ، إلا أنَّ الدلائلَ تشيرُ إلىٰ أنَّها عاشَتْ في ظلِّ عدلِ الأميرِ عبد الرحمن الأوسط حتى الثُّلث الأوَّل منَ القرنِ الثَّالث الهجريّ.

* وبهذا نكونُ قد أبرزْنَا صورةَ امرأةٍ منْ نساءِ الأندلس صدحتْ أكثر منْ نصفِ قرن من الزَّمان ، وكان صوتُها مسموعاً بينَ الأمراء ، وتركتْ ذِكْراً حَميداً ، وأثَراً طيّباً يشيرُ إلى سَعةِ ثقافتِها ، وجزالةِ شعرِها؛ كما أنَّها تركَتْ أشعاراً متموّجةً بين المديحِ والتَّفجُّعِ والمرارةِ والحزنِ ، وتوصَّلَت إلىٰ قصورِ الأمراءِ بكلماتها القويّة التي تدخلُ القُلوب ، وتشيرُ إلى شاعريتها وعبقريتها في فنّ الشّكْوىٰ.

* ولعلَّ حسَّانةَ منْ أكثرِ شواعر عَصْرِها في الأندلس مقدرة علىٰ صياغةِ الشِّعر ، وفنّ الكَلمةِ ، ولو أُتيح لنا أنْ تَصِلَ معظم أشعارِها وآثارِها ، لكان ذلك مُسَاعداً لنا على رسم صورتها بشكلٍ أكثر وضوحاً ، إلا أنَّ ما احتفظتْ به المصادرُ وحفِظَه تاريخها لا يروي الغُلَّة ولكنَّه يساعدُ علىٰ العبورِ إلىٰ البلادِ الأندلسيّة الجميلة ، ورسم بعض ملامح النِّساء اللواتي ساهَمْنَ في إثراءِ حدائقِ الأدب والشِّعْر بما قدمَتْه منْ زهرِ الآداب وثمرِ الألباب.

* * *

= المنثور (ص ١٦٥) وأعلام النّساء (١/ ٢٥٧). و«ابنُ الهشَامين»: إشارةٌ إلىٰ جَدَّيهِ: هشام بن عبد الرحمن الداخل ، وهشام بن عبد الملك بن مروان ، وهي لفتَةٌ ذكيةٌ منْ حسَّانة التّميمية التي عرفتْ وحفظتْ نسبَ الأمير عبد الرحمن. و«الفِرصاد»: الحمرة. (لسان العرب ٣/ ٣٣٣).

حفصة بنت الحاج الركونية

* أديبة ، شاعرة ، جميلة ، مشهورة بالحسب والمال .
* لها باع طويل في الأدب والبلاغة وسرعة البديهة ، والخلق النبيل .
* من أشراف غرناطة ، رخيمة الشعر ، رقيقة النظم والنثر .

حفصة بنت الحاج الركونية

الأَديبَةُ النَّبيلَةُ:

* لَئِن ازدانَ تاريخُ الرِّجالِ بكثيرٍ مَن النَّوابغِ في الأندلس ، لقد ازدانَ تاريخُ الأندلسِ بكثيرٍ منَ النَّابغاتِ النَّابهاتِ ، وستتعرفُ اليومَ على إحدىٰ النِّساء الأندلُسيّات اللواتي يزدانُ بهنَّ التَّاريخُ النَّسويُّ الأندلسيُّ والمشرقيُّ.

* وامرأةُ اليومِ إحدىٰ الشَّهيراتِ في عالَم النِّساءِ ، كانتْ لطيفةً ، حلوةَ الحديثِ ، نديّةَ النَّفحات ، ثرَّةَ النَّغمات ، عطريّةَ الهمَساتِ والنَّسماتِ؛ وكانت أديبةً شاعرةً جميلةً مشهورةً بالحسبِ والمالِ[١]. وهي منْ بُشُرَّات[٢] غرناطةَ ، وبلدتُها قريةٌ تُدعىٰ راكونة[٣] قربَ غرناطةَ ، تلك المدينة التي نَبَهَ ونَبَغَ فيها منَ الشَّواعر والأديبات ما ملأنَ الدُّنيا وشَغَلْنَ النَّاس ، من مثل: نَزهُون القلاعية[٣] ، وزينب بنت زياد أخت حَمدة[٤] وغيرهما.

* ونلتقي اليومَ امرأةً جمعَتْ من كلّ فنٍّ بطَرف ، نشأَتْ في عروسِ

---

(١) الوافي بالوفيات (١٣/ ١٠٧).

(٢) «البُشُرّات»: منطقةٌ جبليّة في إقليمَي غَرناطة والمرية؛ وقد ضَبطها ابنُ سُعيد في «المُغرب»: البُشَرات ، بضمّ الباء وفتح الشين.

(٣) المغرب (٢/ ١٣٨).

(٤) اقرأ سيرتيهما في هذا الكتاب.

الأندلسِ غرناطَة في أواسط القَرن الهجريّ السَّادس ، كانت رخيمةَ الشِّعْر ، رقيقةَ النَّظْمِ والنَّثْرِ ، أديبةً في زمانِها ، وأبلغَ شاعراتِ أوانِها ، شعرها جيّدٌ ذا رونقٍ فائِقٍ ، وديباجتها حسنةٌ نديّةُ الرَّقائق ، لها يَدٌ طولىٰ في سَبْكِ المعاني واستعمال الألفَاظ الشَّائِقة ، جمعتْ إلىٰ كمالِ الحَسبِ ، جمالَ التَّفنُّن في لُغَةِ العرب من ظَرفٍ وأدبٍ . وناهيكَ بالظَّرف والأدبِ سلاحاً للمرأةِ ذات الملاحَة السَّاحرة والنَّسب والحسَبِ الأَصيل .

* ولما تعرَّضَ واستعرضَ المقّري بعضَ أخبارِ أعْلام الأندلسِ ، ذكر جملةً منَ النِّساءِ الأندلسيّاتِ اللائي لهنَّ اليدُ الطُّولىٰ في الأدَبِ والبلاغَةِ ، كي يُعْلَمَ أنَّ البراعةَ في أَهْل الأَنْدلُس كالغريزةِ لهم ، حتّى في نسائهم وصبيانهم؛ وممن ذكرَ منَ النِّساء المشهوراتِ بالأندلسِ ممن كان لهنّ صوتٌ شِعْري في أنحائِها حفصةُ بنتُ الحاج الرّكونية[1] الشَّاعرة الأديبةُ المشهورةُ بالجمالِ ، والحسَب والمالِ .

* قال لِسَانُ الدِّين بنُ الخطيب عنها : فريدةُ الزَّمانِ في الحُسْنِ والظَّرفِ والأدبِ واللوذعيّةِ ، كانت أديبةً نبيلةً ، جيّدةَ البديهةِ ، سريعةَ الشِّعْر[2] .

---

(١) نفح الطيب (٥/ ٣٠٤) ، ورايات المبرزين (ص ١٦١ ـ ١٦٣) ، والمطرب (ص١١) ، ومعجم الأدباء (١٠/ ٢١٩ ـ ٢٢٧) ، والمغرب (٢/ ١٣٨ و١٦٤ و١٦٦) ، والدر المنثور (ص ١٦٥ ـ ١٦٩) ، ونزهة الجلساء (ص ٣٢ ـ ٣٥) ، وتحفة العروس ومتعة النفوس للتجاني (ص ٤٥٦) ، وأعلام النساء (١/ ٢٦٧ ـ ٢٧١) ، وشاعرات العرب (ص ٧٢ ـ ٨٢) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ١٨٧ ـ ١٩٣) والإحاطة في أخبار غرناطة (١/ ٢١٧ و٢٢٠ و٤٨٥ و٤٩١ و٤٩٣) ، والوافي بالوفيات (١٣/ ١٠٧ و١٠٨) وغيرها كثير .

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة (١/ ٤٩١) .

المَرْأَةُ الأَنْدَلُسِيّةُ والثَّقَافَةُ:

* منَ الجديرِ بالذّكرِ ـ ونحنُ في سيرةِ حفصةَ الرّكونية ـ أنْ نشيرَ إلىٰ أنّه كانَ للمرأةِ في الأندلس مكانةٌ عظمى في مجالِ الثَّقافَةِ والمعرفَة، والآثارِ الأدبيّةِ الأندلسيّة التي بينَ أيدينا، تظهرُ لنا المكانةَ العظيمَة والكبيرةَ للمرأة في النُّفوس؛ وقد ألَّفَ فيها الأندلسيّون كُتباً أشهرُها: «طوقُ الحمامةِ في الأُلْفَةِ والألاف» لابنِ حزم الأندلسيّ، وفيه يحلّلُ طبيعةَ المرأةِ، ويبوّب عواطفَ المحبّين تبويباً منظماً متماسكاً.

* وابنُ حزمٍ هذا الذي يُعَدُّ مثلاً رائعاً في سَعَةِ المعارف، وتنوّعِ الثَّقافة، لم يجالسِ الرِّجالَ في نشأتِه، وإنَّما أشرفتِ النِّساءُ على تربيته، وهنَّ اللائي علمْنَه القُرآن، وروّينه كثيراً منَ الأَشْعار، ودربْنَه في الخطّ[1].

* يدلُّنا هذا الخبرُ الجميلُ علىٰ أنَّ المرأةَ الأندلسيّة، قد نالَتْ حظّاً وافراً منَ العِلْمِ والتَّعليم، وقد نَبَغ كثيراتٌ منهنَّ في العُلوم والفنونِ والمعارفِ والآداب، وساجَلْنَ الرِّجال في ميادينِ العِلْمِ والشِّعْر والثَّقافَة والأدب.

* ولم تكنِ المرأةُ الحرّةُ هي وحدها في رياضِ المعَارفِ تقطفُ أزاهِره، وتستنشقُ عبيره، وتُنَزِّهُ الطَّرفَ في جَمَالِهِ، وإنّما ظهرَ كثيرٌ منَ الجواري النَّابهات في ذلك العَصْر، وملأْنَ البيوتَ، وزادت العنايةُ بهنَّ وبتهذيبهنَّ وثقافتهنَّ، فكُنَّ يدرسْنَ معظمَ ألوانِ المعارِفِ، وفي مقدمتها علومُ اللغة، والطِّبُّ، وعلْمُ التَّشريح، وعلْمُ الطّبيعَة[2].

---

(١) انظر: ابن حزم؛ حياته وعصره، آراؤه وفقهه، لمحمد أبو زهرة (ص ٧) مطبعة أحمد علي مخيمر ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٥٤م.
(٢) انظر: ابن حمديس الصّقلي، عصره وحياته وشعره (ص ١٦٠).

* وتـذكـرُ المصـادرُ والأخبـارُ الأنـدلسيّـةُ أنَّ «إشْـرَاق» مـولاة عبد الرحمن بن غلبون[1] قد تعلَّمتْ منْ سيِّدها النَّحو واللغة ، ثمَّ فاقته وبرعَتْ في العروضِ ، وحفظتِ «الكاملَ» للمبرد «والنَّوادر» للقالي.

* وحرصتِ النّسوةُ الحرائرُ الأندلسيّات علىٰ التّزوّدِ من الثَّقافة ، كيلا ينقصْنَ عن الجواري ثقافةً وظَرْفاً.

* وفي «نَفْح الطِّيب» ينفحُنا المقّري بِشَذَا الأحاديثِ العِذابِ عن بعضهنَّ ، ويسهبُ في سِيَرِ بعضهنَّ ، فيذكرُ ضيفةَ حلقتنا حفصةَ بنت الحاج الرّكونية ، وأمَّ الكَرم بنت المعتصم بنِ صُمادح ، وحفصةَ بنت حمدون الحِجاريّة ، وغاية المُنى الشَّاعرة ، ومهجةَ القرطبيّة ، وأسماءَ العامريّة الإشبيليّة ، وبثينةَ بنت المعتمد ، كما يذكرُ طُونةَ بنت عبد العزيز بن موسى العَالِمة التي أخذتْ عن أبي عمر بنِ عبد البر ، وكَتَبَتْ تصانيفَه ، كما تحدَّثَ عن ولّادة بنتِ المستكفي وغيرِها وغيرِها وغيرِها.

* ويحدِّثنا التَّاريخُ الأندلسيُّ النَّسويُّ عن تدخُّلِ بعضِ الحرائرِ في شؤونِ الدَّولةِ ، وكان نفوذُ نساءِ القَصْر في عَهْد الحَكم المنتصر (٣٦٠هـ) علىٰ رجالِ الحكومةِ كبيراً ، وكانت صُبْح أمّ الخليفةِ هشام (٤٠٦هـ) أعظمهـنَّ سُلطـانـاً ونُفـوذاً ، وهـي التـي مهَّـدتِ السَّبيـلَ للمنصـورِ بـنِ أبي عامر.

* ولعلَّ اعتماداً الرُّميكية[2] ذاتُ الشَّأْنِ العظيم في تاريخ زوجها المعتمِد بن عبّاد ، قد أرادتِ التَّشبُّه بهؤلاء النّسوة اللواتي سبقْنَها في

---

(١) توفي ابن غلبون سنة (٤٤٣هـ) ، وماتت إشراق بعده.

(٢) اقرأ سيرتَها في هذا السِّفْر الجميلِ الذي يُسْفِر عن صورتها وأخبارها ، تجِدْ ما يسرُّك بإذن الله تعالى.

الشُّهرةِ والزَّمنِ والسُّلطة والتَّسلُّط ، فقد مَلَكها المعتمدُ بنُ عبَّاد ، وتملَّكَتْ هي زمامَ هَواه ، وأصْبَحتْ سُعْدَاه وَلَيْلاه ولُبْناه[١] ، وكانتْ أديبةً ظريفةً كاتبةً شاعرةً ذاكرةً لكثيرٍ منَ اللغة ، معدودةً منْ عُلماء إشبيلية[٢] ، فأفرطَ في الميلِ إليها ، وغلبَتْ عليه ، واختارَ لنفسهِ لقباً يناسبُ اسْمَها ، وهي التي أغرتْهُ بقَتْل أبي بكر بن عمّار الشَّاعر الشَّهير[٣] ، وأنجبتْ للمعتمدِ أولاداً شاركوا أباهم في امتلاكِ الأندلس ، فسُمّيت: أمَّ الملوك؛ والسَّيِّدة الكبرى ، وقاسَمتْه أيّامَ نعيمهِ وفرحهِ ، وأيامَ بؤْسِهِ وترحِهِ ، واعْتُقِلَتْ معه ، وسيقتْ إلى بلدة «أَغْمات» بالمغرب ، وكانت وفاتُها قَبْلَه بأيّام ، فلم ترقأْ له عَبْرةٌ حتى قَضَىٰ نَحْبَه أسَفاً وحزناً.

* ويذكرُ الكتّاب الغربيون أنَّه كان لانتشارِ الفُروسية بالأندلس أثر عظيم في تكريمِ المرأةِ وتبجيلها ، وكانتِ السَّيِّداتُ المسلماتُ يؤلّفْنَ عنصراً بارزاً بين المشاهدينَ في الميادينِ التي كانت تُقام بالعاصمة ، وكان حضورهنَّ في تلك الاحتفالاتِ العامّة يكسبُ المنظرَ هيبةً ووقَاراً[٤]. ويذكر الأستاذ عمر الدّسوقي أنَّ سكّان أوروبة قد استفادوا منَ العَربِ احترامَ المرأةِ مع قوانين الفروسيّة ، فكان ذلك أثراً منْ آثارِ العَرب والإسلام[٥].

---

(١) أي: سعدىٰ ، وليلىٰ ، ولُبنى ، وهنَّ ممن تغزّل شعراء المشارقة بهنّ كثيراً ، واشتهرن بهذا المجال.

(٢) من محاضرات الأدب الغربي (ص ٣٦).

(٣) وفيات الأعيان (٤/ ٥٦) طبعة عام ١٩٤٥م.

(٤) انظر مثلاً: مختصر تاريخ العرب والتّمدن الإسلامي لسيد أمير علي (ص ٤٤١) ترجمة: رياض رأفت.

(٥) انظر: الفتوة عند العرب (ص ٢٧٢).

فَـرِيْـدَةُ الـزَّمَـانِ وأُسْتَـاذَةُ وقْـتِهَـا:

* تُعْتبَـرُ حفصـةُ بنـتُ الحـاج الـرّكـونيّـة[1] إحـدىٰ شـواعـرِ النِّسـاءِ الأندلسيّاتِ الشَّهيراتِ في القرنِ السَّادسِ الهجريِّ ، بل هي شاعرةُ غَرناطةَ ـ في وقْتِها ـ علىٰ الإطلاقِ حَبَاهَا اللهُ مَالاً وجَمالاً وشَرفاً ومكانةً؛ قالَ ابنُ دحْيةَ: حفصةُ منْ أشرافِ غَرناطةَ، رخيمةُ الشِّعْرِ ، رقيقةُ النَّظمِ والنَّثر[2].

* ووصفَها صاحبُ «الإحاطةِ» بأنَّها فريدةُ زمانِها في الملاحَةِ والظَّرفِ والأدبِ ، وحضورِ البديهةِ ، ونُبْلِ الأَخْلاق.

* وأثنىٰ ياقوتٌ الحمويّ في «معجمه» علىٰ حفصةَ فقال عنها بأنَّها شاعرةٌ وأديبةٌ ، مشهورةٌ بالحَسَبِ والأدبِ ، والجمالِ والمالِ ، جيدةُ البديهةِ ، رقيقةُ الشِّعْر[3].

* وأمَّا في «الأعلام» فقد أشارَ «الزَّركليُّ» ـ رحمه الله ـ إلىٰ شهرةِ حفْصَةَ فقال: شاعرةٌ انفردتْ في عَصْرِها بالتَّفوُّقِ في الأدبِ ، والظَّرفِ ، والحسنِ ، وسرعـةِ الخاطرِ بالشِّعر ، نعتَها ابـنُ بشكوال بأستاذَةِ وقْتِها[4].

* وتدلُّ أخبارُ حفصةَ الرّكونيةِ علىٰ أنَّ نشأَتها الثَّقافيةَ كانتْ في غَرناطة ، فقد تثقَّفَتْ فيها ، ونَبَهُ أمْرُهَا ، وعلاَ صيتُها ، ونبغَتْ بشاعريتها التي طبَّقَتِ الآفاقَ ، حيثُ لم يكن شِعْرُهَا مع جَودَتِه مقصُوراً علىٰ أسلوبٍ واحدٍ ، بل كانتْ تتفنَّنُ فيهِ ، وتدخلُ في أساليبَ مختلفةٍ ،

---

(١) «الركونية»: نسبة إلى ركانة ، وهي بلدة أندلسية قديمة ، تقع غربي ثغر بلنسية.

(٢) المطرب (ص ١٠) ، وانظر: نفح الطيب (٥/ ٣١٠).

(٣) معجم الأدباء (١٠/ ٢١٩ و٢٢٠).

(٤) الأعلام (١/ ٢٦٥) ، وانظر: شاعرات العرب (ص ٧٢).

وكانتْ غزيرةَ المادَّةِ منَ الأدبِ ، مطّلعةً على شِعْر العربِ الخُلَّصِ وغيرِهم ، ومع هذا كُلِّه كانتْ حَسَنَـةَ الخطِّ كاتبةً تكتبُ الخطَّ الجيِّد ، وهيَ منْ أذكياءِ نساءِ الأندلسِ المشهودِ لهنَّ بالتَّفوُّقِ والبَراعة.

* قرأتْ حفصةُ كثيراً في مبدأ أمرِها ، وحفظتْ كثيراً من جواهرِ الأدب ، ومن روائعِ أدَبيّاتِ العَربِ ، فَعَلا صيتُها ، وأصبحتْ ذات حظوةٍ لدىٰ علْيةِ القومِ حتى غَدتْ أستاذةَ النِّساء ، إذ وُلِّيتْ تعليمهنَّ في دارِ المنصورِ عبدِ المؤمنِ بنِ عليّ[1].

* ويظهرُ أنَّ النّساء قد لعبْنَ دوراً مهمّاً في تربيةِ الأمراءِ والنُّبلاء والخاصَّة في الأندلسِ ، وخصوصاً في المراحلِ الأولىٰ من حياةِ هؤلاء.

* ومنَ الطَّبيعي أنْ تتولّىٰ النِّساءُ ذلك بحكمِ قيامهنَّ بالأعمالِ المنزليةِ الخاصَّة بالحضَانَةِ والرِّعايةِ لأطفالِ الخُلفاء ، وكبارِ رجالِ الدَّوْلَة ، ولذا كانتِ النِّساءُ اللاتي كُنَّ يعشْنَ في هذِه الأماكنِ ممّنْ يتمتعن بالسُّمْعَةِ الطَّيِّبة والأخلاقِ الحميدةِ ، والعِلْمِ والثَّقافَةِ الواسعتَيْن.

* ومنَ النُّصوصِ التي تدلُّ علىٰ قيامِ النِّساءِ بمهمّةِ التَّعليم لأبناءِ الخاصَّة خلال مراحلِ أعمارِهم الأولىٰ ما ذكره ابنُ حـزْمٍ حيثُ قال: ولقد شَاهَدْتُ النِّساءَ ، وعَلِمْتُ منْ أسرارهنَّ ما لا يكادُ يعلمُه غيري ، لأنّي ربّيتُ في حجورهنَّ ، ونشأتُ في أيديهنَّ ، ولم أعرفْ غيرهُنَّ ، ولا جالستُ الرِّجالَ ، إلاّ وأنا في حدِّ الشَّباب ، وحينَ تبقَّلَ وجْهي ، وهُنَّ علمنَنِي الـقُرآن ، وروّينَنِـي كثيـراً منَ الأشعار ، ودربنَنِي في الخَطِّ.

* وقد خصَّصَ المقّري وغيرَه منَ المصنّفين فُصُولاً كاملةً للحديثِ عن نساءِ الأندلسِ ، ومنَ الأمثلةِ على ثقافةِ أولئك النّسوة ما يُقال عن

---

(١) معجم الأدباء (١٠/ ٢٢٠).

«لُبْنَىٰ» كاتبةِ الخليفةِ الحكَم المستنصر بالله ، حيث وصفَها ابنُ بشكوال ثمّ الصَّفدي بأنَّها كانتْ نحويةً ، كاتبةً ، شاعرةً ، بصيرةً بالحسابِ والعروضِ ، حاذقةً بالكتابةِ ، توفيتْ سنةَ (٣٧٤هـ)[١] .

* وفي موضعٍ آخرَ قالَ الصَّفديُّ : إنَّها كانتْ تكتبُ الخَطَّ الجيّدَ ، نحويةٌ ، شاعرةٌ ، عروضيّةٌ ، بصيرةٌ بالحسابِ ، مشاركةٌ في العِلْم ، ولم يكنْ في القَصْرِ أنْبَلَ منها ، خطّاطة جدّاً .

* وبلغَ تعليمُ المرأةِ في الأندلس حدّاً واسعاً منَ الانتشار يمكنُ أنْ نستنتجَه ممّا ذكره ابنُ فيّاض في تاريخه «أخبارُ قرطبة» فقد قال : كانَ بالرَّبضِ الشَّرقيّ من قرطبةَ مئةٌ وسبعونَ امرأة كلّهنَّ يكتبنَ المصَاحِفَ بالخطّ الكوفيّ ، هذا في ناحيةٍ منْ نواحيها فكيفَ بجميعِ جِهاتها ؟!

* وكانت «مُزْنَةُ» كاتبةُ الخليفةِ النَّاصر لدينِ اللهِ حاذقةً ، منْ أَخَطّ النِّساء ، توفيتْ سنة (٣٥٨هـ)[٢] .

* أمّا حفصةُ ابنةُ الحاج فلم تكنْ أستاذةَ النّساء فحسب ، وإنّما كانت أستاذةَ الشَّواعرِ في عَصْرها ، حيث لم تكنْ هناك شاعرةٌ تَصْدحُ في أيْكها ، أو تزاحمُها في مكانتها الشِّعْرية ، فقد أقرَّ الأُدَبَاءُ رجالاً ونساءً بتقدّمها في فَنِّ الشِّعْر والملكةِ الأدبيّةِ ، فهي تمتلكُ ثروةً لا يُسْتَهانُ بها منَ الأدبِ الذي ذُلِّلتْ قطوفُه لها تذليلاً .

* ولم تكنْ حفصةُ ابنةُ الحاج الرّكونية متفرِّدةً في عَصْرِها بمجالِ التّعليم وتأديبِ النِّساء ، وإنّما كانتْ هناكَ نساءٌ أندلسيّاتٌ سبقْنَها في الزَّمنِ بهذهِ المهمّة ، ومنهنَّ مريمُ بنتُ أبي يعقوب الأَنصَاري[٣] .

---

(١) الصلة (٢/ ٦٩٢) ترجمة رقم (١٥٢٩) .
(٢) الصلة (٢/ ٦٩٢) ترجمة رقم (١٥٣٠) .
(٣) مريمُ بنتُ أبي يعقوبَ الفَيْصولي الشِّلْبي الحاجَّة ، سَكَنَتْ إشبيليةَ ، وأصلُها =

الـذَّكِـيَّةُ الـنَّـابِـهَـةُ:

* في أكنافِ غَرناطةَ الجميلةِ التي أنجبتِ الشُّعراءَ والشَّواعرَ، والفُضلاءَ والأماثلَ، نشأتْ حفصةُ بينَ الفَضْلِ والأدبِ والعِلْمِ والمالِ والحَسَبِ، فاختيرتْ مؤدبةً لنساءِ عبدِ المؤمن بنِ عليّ بن علويّ الكوميّ.

* وكان عبدُ المؤمن هذا مُؤثراً لأهلِ العِلْم، محبّاً لهم، مُحسناً إليهم، يستدعيهم منَ البلادِ ليكونُوا عنده وفي جواره[1]، وكانَ شعارُه: «الحمدُ للهِ وحْدَه»؛ وكانَ عبدُ المؤمن جهوريَّ الصَّوتِ، فصيحَ الأَلْفاظِ، جزلَ المنطقِ، وكانَ محبّباً إلىٰ النُّفوسِ، لا يراهُ أحدٌ إلاّ أحبَّه، وكانَ ابنُ تومرت ينشِدُ كلما رآه:

= مِنْ شِلْب. كانتْ أديبةً وشاعرةً جزلةً مشهورةً، وكانت تقومُ بتدريس الأدبِ للنِّساءِ، وتحتشمُ لدينِها وفَضلِها، وعُمِّرت عمراً طويلاً، وارتحلتْ للحجّ، وسكنتْ إشبيلية وشُهِرتْ بها بعد الأربعمئة.

ومن شعرِها وقد كبُرت وعُمِّرت وبلغتْ (٧٧ عاماً) قولها:

وما يُرتَجىٰ منْ بنْتِ سبعينَ حجّةً ... وسبعٍ كنسجِ العنكبوتِ المُهَلْهَلِ
تدبُّ دبيبَ الطِّفْلِ تسعىٰ إلى العَصَا ... وتمشي بها مَشيَ الأسيرِ المكبّلِ

قال الحُميدي: وأخبرني أنَّ ابنَ المهندِ بعثَ إليها بدنانير وكتب إليها:

مالي بشُكر الذي أوليتِ منْ قبلِ ... لو أنّني حُزْتُ نطقَ الأنسِ والخَبَلِ
يا فردةَ الظَّرفِ في هذا الزّمانِ ويا ... وحيدةَ العَصْر في الإخلاصِ والعَمَلِ
أشبهتِ مريماً العذراءَ في ورعٍ ... وفُقْتِ خَنْساءَ في الأشعارِ والمَثَلِ

فكتبتْ إليه أبياتاً منها:

مَنْ ذا يجاريكَ في قولٍ وفي عَملٍ ... وقد بَدرْتَ إلى فَضْل ولم تُسَلِ
حلّيتني بحلىً أصبحتُ زاهيةً ... بها على كلّ أنثى منْ حُلىً عُطُلِ
مَنْ كان والده العَضْبُ المهنّد لم ... يَلدْ منَ النّسل غير البِيْض والأَسَلِ

(جذوة المقتبس ص ٤١٢ و٤١٣) ترجمة رقم (٩٨٦)، و(بغية الملتمس ص ٤٤٣و٤٤٤) ترجمة رقم (١٥٨٧) مع الجمع بينهما، واقرأ سيرتها بشيء من التفصيل في هذا الكتاب.

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص ٢٦٩).

تكَامَلَتْ فيكَ أَخْلاقٌ خُصصْتَ بِهَا فكلُّنَــا بِــكَ مَسْــرورٌ ومغْتَبِــطُ
فالسِّنُّ ضَاحِكةٌ والكفُّ مانِحةٌ والصَّدْرُ مُنْشَرِحٌ والوجْهُ منْبَسِطُ[1]

* وكانت حفصةُ الرّكونيةُ أستاذةَ وقتها ذكيةً نابهةً لا تعيقُها المواقفُ ، ولا تتهيَّبُ إذا وقَفَتْ أمامَ الكبراءِ والأمراءِ ، بل ينطلقُ لسانُها ببيانٍ يبهَرُ العقول ، فقد صادفَ أنْ لقيتْ عبدَ المؤمنِ في قَصْره ـ وهو مَلِكُ الموحّدينَ ـ فأنشدت ارتجالاً بينَ يديه ـ وكانتْ تُعَلِّمُ النِّساء في داره ـ حيث سألَها أنْ تنشدَه فقالت:

يَــا سيِّــدَ النَّــاس يــا مَــنْ يُــؤَمِّــلُ النَّــاسُ رِفْــدَه
امْنُــــنْ عَلَــــيَّ بِطِـــرسٍ يكُـــونُ للـــدَّهْـــرِ عُـــدَّه
تَخُــــطُّ يُمْنَــــاكَ فِيـــهِ «الحمـــــدُ للهِ وحْـــــدَه»

* وأشارتْ بذلك إلىٰ العلامةِ السُّلطانيةِ عند الموحّدين ، فقد كانتْ علامتهم أنْ يكتبَ السُّلطان بيده بخطّ غليظٍ بأعلىٰ المنشور: الحمدُ لله وحْدَه[2]؛ فَمَنَّ عليها وحرَّر لها ما كان لها مِنْ مُلْك[3].

* ومما لا ريب فيه أنَّها بلغتْ بهذهِ الأبيات السُّهَا ، ودلَّت علىٰ نباهتها ، وذكائها ، وحضور بديهتها ، وحسنِ محاضرتها ، وجمالِ خاطرها في ذلك الموقف[4].

---

(١) المصدر السابق نفسه (ص ٢٦٦).
(٢) نفح الطيب (٥/ ٣٠٤) ، ورايات المبرزين وغايات المميزين ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ١٨٧).
(٣) الإحاطة (١/ ٤٩٣).
(٤) ولله دَرُّ إبراهيمَ بنِ العبَّاس حيث يقولُ في هذا المجال:
إذا مــا الفِكْــرُ وَلَّــدَ حُسْــنَ لفْــظٍ وأسْلَمــه الــوجــودُ إلــىٰ العيــانِ
ووشَّــــاه فنمنمـــــهُ جَـــــوَادٌ فصيــحٌ فــي المقــالِ بــلا لِســانِ
تــرىٰ حُلــلَ البيــانِ منشّــرات تجلّــىٰ بينهــا صُــوَرُ المعَــانــي
(شرح مقامات الحريري للشّريشي ١/ ٢٤٦).

* وسارتْ هـذهِ الأبياتُ مسيرةَ الشَّمْس في بلادِ الأندلسِ ، بل ظلَّ الجيلُ يحفظُها تلوَ الجيل ، حتّى إنَّ أبا عبد الله بن مَرْج الكحل الشّاعر المشهور ، امتدحَ النَّاصر حفيدَ عبد المؤمن لما قَفَل منْ إفريقية بعد فَتْح المهديّة سنة (٦٠٣هـ) ، فاجتمعَ ابنُ مَرْجِ الكحْلِ بالشُّعراء والكتّاب ، فتذكّروا الـفَـتْح وعظمه ، فأنشدهم ابنُ مَرْج الكُحل في الوقْتِ نَـفْسهِ ، معاني سابقتِـهِ حفصـةَ بنت الحاج الرّكونيـة ، لما امتدحت جدَّه ، فقال:

وَلَمّا تَوالىٰ الفَتْحُ منْ كلِّ وجْهَةٍ ... ولم تَبْلُغِ الأوهَامُ في الوصْف حدّهُ
تـركْنَـا أميـرَ المـؤمنيـنَ لشُكْـرِه ... بمـا أوْدَعَ السِّـرُّ الإلهـي عنـده
فَـلا نعْمَـةٌ إلاّ تُـؤدَّىٰ حُقـوقُهـا ... عَـلامتُـه بـالحمـدِ لله وحْـدَه

فاستحسنَ الكتّاب والشُّعراء له ذلك ، ووقعَ أحْسَن موقع(١).

* لكنّنا نلمسُ أنَّ رقّةَ ألفاظِ حفصةَ وليونةَ معانيها ، أكثرُ تأثيراً في النَّفسِ منْ ألفاظِ وأبياتِ ابنِ مرج الكُحْلِ علىٰ الرّغم مِنْ أنَّ حفصةَ قد ارتجلتْها ارتجالاً.

ومِـنَ الـحُـبِّ مَـا قَـتَـل:

* لعلَّك ـ عزيزي القارىء ـ تقرأُ في سيرةِ المرأةِ الأندلسيّةِ أحْدَاثاً متشابهـةً نوعاً ما ، وقَصَصاً تتَّـفِقُ في مَغْـزَاها ، وتختلفُ فـي مَبْناهَا ، فممّا لـفَتَ نَـظَرنا ـ ونحنُ نتحدَّثُ عن حفصـةَ الرّكونيـةِ ـ أنَّ هناكَ تشابُهاً غَيْر يَسيرٍ في أخبارِها وأخبارِ ولاّدة بنتِ المُسْتكفي(٢).

* فكَما وضَعَ الرُّواةُ والقصّاصُون لولادةَ حديثاً شائقاً ، وطَويلاً عَريضاً؛ ومُشَرِّقاً ومغرِّباً مع الوزيرِ أبي الوليد ابنِ زيدونَ شاعرِ عَصْرِها ،

---

(١) نفح الطيب (٥/ ٣٠٤ و٣٠٥).
(٢) اقرأ سيرةَ ولاّدة في هذا الكتاب حيثُ أشرنا إلىٰ كثيرٍ منَ الأخبار الموضوعةِ والمزيفةِ.

وأميرِ شُعَراءِ مصْرِها ، الذي زعموا: أنَّه اكتوىٰ بنارِ حبِّها ، ونَظَمَ أغْزالَه في استمالةِ قَلْبِها؛ كانَ لحفصةَ قصّةٌ معَ الوزيرِ الشَّاعر الكاتبِ النَّاثرِ أبي جعفر أحمد بنِ سُعيد[1] وزيرِ أبي سعيد عثمانَ بن عبد المؤمن مَلِك غَرناطة ، إذْ أحبَّها هذا الوزيرُ ، واستولَتْ على لُبِّهِ وقَلْبِه. وتقولُ الأخبارُ: إنّها بادلتْهُ الحبَّ نَفْسَه ، وتغزَّلَتْ فيه ، بل كانت أكثرُ جرأةً منْ سابقتِها ولاّدة في الإبحارِ في معاني العشْقِ والغيرة والهيامِ ، فَساجلَتْه[2] وساجَلَها ، وبثَّتْه حبَّها وبثَّها حُبَّه.

* ومنْ لطائفِ الظَّرائفِ في سيرةِ حَفْصَة ، والتي تشبهُ أو قُلْ: تَتَشَابَه مع سيرة ولادة ابنةِ المستكفي ، أنَّ صاحِبَها الوزيرَ ابنَ سُعيد قد صادفَ هو الآخرُ منافِساً في حُبِّه وهيامِه وغرامِه وشَغَفِه بحفصةَ ، ولم يكنِ المحِبُّ المنافسُ هذه المرَّة وزيراً مثله ، ولا كاتباً ولا ناثِراً ولا شاعراً ، بل المصيبةُ أدْهَى وأنكىٰ وأمرّ؛ لقد كانَ المنافِسُ هذه المرّة هو مَلِكُ غرناطةَ نَفْسُه أبو سَعيد عثمان بنُ عبد المؤمن بن عليّ مَلِك الموحّدين الذي كان يلقَّبُ بأميرِ المؤمنين.

* بينما كان منافسُ الوزيرِ ابنِ زيدون وزيراً مثلُه وهو أبو عامر ابنُ عبدوس ، فالأمْرُ أهْوَنُ علىٰ ابنِ زيدون ، حيث نُفي عن قرطبةَ مَسْقطِ رأسه ، ولكنَّه لم يُقتَلْ؛ بينما كانَ الخطبُ عَسْيراً وشديداً علىٰ الوزيرِ ابن سعيد ، إذْ أحبَّ مَلِيْكُهُ ورئيسُه محبوبتَه ، وأدَّتْ هذه العلاقَةُ إلى بَتْرِ هذا الحبّ إلىٰ الأبدِ حيثُ تلاشىٰ تماماً ، فقد قَتَلَ الملكُ وزيرَه ابنَ سُعيد ، وجَعَلَه كأَمْسِ الدَّابر . . .

* تُرىٰ هل قَتَلَ الملكُ عثمانُ وزيرَه ابنَ سُعيد منْ أَجْلِ عَيْنَي حفصةَ

---

(١) اقرأ ترجمة الوزير أحمد بن سعيد في المغرب (٢/ ١٦٤ ـ ١٦٨).
(٢) «ساجلته»: أي بارته. يتساجلان: يتباريان.

وقوامها السَّاحر؟! هذا ما سنعرفُه في غضونِ سيرتها وأخبارِها ـ إنْ شاء الله ـ.

حَـفْـصَـةُ والـوَزِيْـرُ ابـنُ سُعَيـد:

* كانَ أبو جعفر ـ أحمد بنُ سعيد العنسيّ ـ أشعرَ بني سُعيد، بل في بلدِه، كما قال قريبُهُ صاحب كتاب «المُغْرب»[1]، وكانَ قد عَشِقَ حفصةَ بنتَ الحاج شاعرة الأندلس، وكانَا يتجاوبَان تجاوبَ الحمامِ، لكنْ تولَّعَ بها أيضاً أبو سعيد عثمانُ بنُ عبد المؤمن ملك غرناطة، وتغيّر بسببِها علىٰ أبي جعفر بن سُعيد، حتى أدّى تغيُّره عليه أنْ قَـتَـلَه.

* فقد كانَ أبو سُعيد بنُ عبد المؤمن قد تولّى غَرناطة، وكان من نُبهاءِ أولادِ عبد المؤمن بنِ عليّ ومن نجبائِهم، ومن ذوي الصّرامة منهم، وكان محبّاً في الآدابِ، مؤثراً لأهلها، يهتزُّ للشِّعرِ، ويثيبُ عليه، اجتمعَ له منْ وجوهِ الشُّعراء وأعيان الكتّاب عصابةٌ ما اجتمعتْ لملكِ منْ آلِ عبد المؤمن[2].

---

(١) إنَّ علاقةَ حفْصَةَ بنتِ الحاج الرّكونية لم تكنْ علاقةَ حبٍّ متبادلةٍ مع مليكِ غَرناطة، والذي يظهرُ منْ أشعارِها أنّها كانتْ علائق مجاملاتٍ ومناسباتٍ ولم تكنْ تحملُ في طيّاتها المودَّة والوداد، أو العاطفةَ الممزوجةَ بسويداءِ الفُؤاد، ولعلَّ خيرَ دليلٍ على ذلك منْ قولها في أبي سعيد مَلِك غرناطة ما كتبتْ إليه في تهنئةٍ له بيوم عيد فقالت:

يـــــاذَا العُـــــلا وابـــــنَ الخليـ ... ـفـــــةِ والإمـــــام المُـــــرتَضَـــــىٰ
يهنيـــــكَ عيـــــدٌ قـــــد جَـــــرَىٰ ... فيـــــهِ بمـــــا تهـــــوىٰ القَضَـــــا
وأتـــــاكَ مَـــــنْ تهـــــواهُ فـــــي ... قَيْـــــدِ الإنـــــابـــــةِ والـــــرّضَـــــا
ليعيـــــد مـــــنْ لـــــذّاتِـــــه ... مـــــا قَـــــدْ تصـــــرَّمَ وانقَضَـــــىٰ

(شاعرات العرب ص ٧٥ و٧٦) و(معجم الأديبات الشواعر ص ١٩٠ و١٩١) وهذه الأبياتُ تدلُّ على نفسيّة حفصةَ التي رَصَفَتْ هذه الأبيات رصْفاً دونَ أنْ تدخلَ فيها العاطفةُ والهمساتُ الدّافئات التي تضفي عليها حلاوةً وطلاوة.

(٢) انظر: المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص ٢٩٣) بتصرف يسير جداً.

* وقد طلبَ أبو سعيد رجُلاً فاضِلاً كاتباً يتّخذه وزيراً ، فوُصِفَ له فَضْلُ أبي جعفر بنِ سَعيد وحسبُه وأدَبُه ، فاتَّخذَهُ وزيراً بعد تمنُّع من أبي جعفر ، ولكنَّ نفس أبي جعفر تأبىٰ أنْ تكونَ حبيسَ الوَزارة ، أو حبيساً لأَحَدٍ ، وقد أنشدَ ذات يومِ سرورٍ بين أصحابِه قصيدةً قالَ في آخرِها:

فَقُـلْ لحـريْـصٍ أنْ يَـرانـي مُقيّـداً بخدمَتِهِ لا يُجْعَلُ البَازُ في القَفَص
وَمَا كُنْتُ إلاّ طَوْعَ نَفْسي فَهَلْ أرى مُطيْعاً لِمَنْ عَنْ شَأْوِ فخري قد نَقَص

فكانَ منْ أصحابِه مَنْ حَفِظَ هذيْنِ البيتَيْن ، ووشَىٰ بهما لابنِ عبدِ المؤمن ، فعزَله أسوأَ عَزْلٍ ، ثمَّ إنَّه بلغَه أنَّه قالَ لحفصةَ الشّاعرة: ما تحبّينَ في ذلك الأسودِ ، وأنا أَقْدِرُ أنْ أشتريَ لكِ منْ سُوقِ العبيد عشرةً خيراً منه[1] ، وكان لونُه مائلاً إلى السَّواد ، فأسرَّها ابنُ عبد المؤمن في نَفْسِه ، ثمَّ إنَّ أخَا ابنِ سُعيد عبدَ الرحمن بنَ عبد الملك بنِ سُعيد قد فرَّ إلىٰ مَلِكِ شرقِ الأَنْدلسِ محمّد بنِ مَرْدَنيش ، فَوَجَدَ ابنَ عبد المؤمن بذلكَ سَبباً إلىٰ الإيقاعِ بأبي جعفرَ فَضَرب عنقه[2].

* ويبدو أنَّ عثمانَ بنَ عبد المؤمن كانَ قد حَبَس ابن سُعيد قَبْلَ قَتْلهِ ، وفي سجْنِه الكئيبِ أَرسَلَ قصيدةً أَحْسنَ فيها ما شَاءَ أنْ يُحْسِنَ ، يستعطفُ بها ابنَ عبدِ المؤمن ، ويؤكِّدُ لَهُ أنَّه لم يغدرْ بهِ فقال:

تركْـتُـكُـمْ لاَ كَـارِهـاً في جَنَـابِكـمْ وَلكنْ أبىٰ رَدّي إلىٰ بَابِكمْ دهْري

---

(١) وفي رواية أنَّ ابن سعيد قال في المغرب: ما تحبينَ في ذلك الأسود ، وأنا أقدُر أنْ أشتريَ لك منَ السُّوق بعشرين ديناراً خيراً منه.
(المغرب ٢/ ١٦٤) و(الإحاطة ١/ ٢١٧).

(٢) انظر: نفح الطيب (٥/ ٣١٢ ـ ٣١٤)، والمغرب (٢/ ١٦٤) مع الجمع والتصرف.
قال حاتمُ بنُ سُعيد عن أبي بكر بن سعيد: وكان قَدْ أجرىٰ اللهُ على لِسَانِه ، إذا حرّكتِ الكأسُ بها غرامه ، أنْ يقولَ: واللهِ لا يقتلُني أحدٌ سواكِ ، وكانَ يعني بالحُبّ، والدرُّ موكلٌ بالمنطق، قد فرغَ من قتلهِ بغيرِهِ من أجلها (الإحاطة ١/ ٢٢٠).

وَمَـا بـاخْتيـارٍ فَـارقَ الخُلْـدَ آدمٌ   وَمَا عَنْ مُرادٍ لاذَ أيّوبُ بالصَّبْرِ
وَلكنَّهَـا الأيَّـامُ ليْسَـتْ مقيمـةً   علىٰ ما اشْتَهاهُ مُشْتَهٍ أمَدَ العُمْرِ
وإنّـكَ إنْ فكَّـرْتَ فيمـا أَتَيْتُـه   تيقَّنْتَ أنَّ التَّركَ لمْ يكُ عَنْ غَدْرِ
ولكنْ لجاجٌ في النُّفوس إذا انقضَىٰ   رجَعْتُ كمَا قَدْ عَادَ طَيرٌ إلىٰ وكْرِ[1]

* ولكنَّ المنيةَ كانتْ بانتظارِ أبي جعفرَ ، فقُتِلَ ولم تُقْبلْ منه تلكَ الاعتذاراتُ اللطيفةُ؛ والقَصَائدُ المنيفةُ.

الـغَـزِلَـةُ الـغَيْـرَىٰ:

* يُعَدُّ شِعْرُ حفْصَةَ الرّكونية من أرقِّ أشْعارِ النِّساء الأندلسيّاتِ في عَصْرها ، وخصوصاً ما قالَتْه منْ أَغزالٍ في الوزيرِ أبي جعفر بن سُعيد كما دلَّتْ على ذلك أخبارُها المنثورةُ في ثنايا المصادرِ المتنوِّعَةِ.

* ومما يزيدُ في حُسْنِ أَغْزالِ حفْصَة أنَّها كانتْ تخطُّها بأجودِ خَطّ ، ومنْ ثمَّ تُرسِلها إلىٰ الوزيرِ الأنيقِ أبي جعفر بنِ سُعيد؛ وعلىٰ الرَّغم منْ أخبارِ حَفْصَة التي تدلُّ علىٰ أنّها كانتْ ذات جمالٍ بارعٍ تَبْهَرُ بهِ العُقول ، وأنَّه هَوِيَها جملةٌ منْ أجلّاءِ عَصْرها ، وأدباءِ زمانِها ، إلاّ أنَّها لم تلتفتْ لأحدٍ منهم سوىٰ أبي جعفر بنِ سُعيد ، وكانتْ معه علىٰ عفّةٍ زائدةٍ[2] ، وصيَانةٍ مَشْهُودٍ بها!!!!

* وقَدْ طَرِبَ لأغزالِ حفْصَةَ ابنُ دِحْيَةَ في «المُطْربِ» ، ولم يذكرْ لها سوىٰ هَذَيْن البيتَيْن حيثُ قال: أَنْشَدني لَها غيرُ واحد منْ أَهْلِ غَرناطة:

---

(١) نفح الطيب (٥/٣١٨) لو تأمَّلَ الدّارسُ في تاريخِ الأدبِ العربي لألفىٰ مجموعةً لا بأسَ بها منَ الأشعارِ التي قيلَتْ في السُّجون ، ولَعلَّ مردَّ ذلك تلكم الدَّواعي النَّفسية التي تنتابُ الأديبَ وهو يعاني الوحشةَ والمحنةَ ، وهذا يهزّه هزّاً عنيفاً ليهتفَ بالشّعر ، كأنَّ نفوسَ الشُّعراء لا ترضىٰ الصَّمتَ ، وإنّما تسعىٰ إلى سماعِ صوتها وإسماعه العَالم.

(٢) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص١٦٥ و١٦٦).

ثَنَـائي عَلَىٰ تِلْكَ الثَّنَايا لأَنَّني أَقُولُ علَى علْمٍ وأنطقُ عَنْ خُبْرِ
وَأُنْصِفُهـا لاَ أكْـذبُ اللهَ أَنَّنـي رشَفْتُ بِها ريقاً ألَذَّ منَ الخمْرِ[1]

* وأنتَ ترىٰ أنَّها لم تُخْرِجْ في غَزلها نمطاً جديداً من تغزّلِ المرأةِ بالرَّجل ، وهذا الغزلُ يتأرجحُ بينَ الاعتدالِ والشَّططِ ، فما عَهِدْنا امرأةً تتغزَّلُ بثنايا رجُلٍ أو ريقِه ، ولكنَّ حفصةَ ترسمُ بريشتِها السَّاحرةِ كلماتٍ حُلوةً علىٰ الأوراقِ ، لتسكنَ تلكم الكلماتُ بينَ حنايا القلوبِ ، وتستقرَّ في خَبايا النُّفوس .

* إنَّ حفصةَ الركونيةَ تغارُ في غَزلها على ابنِ سُعيد ، ولا عجبَ في هذا ، إذِ الغيرةُ صِفَةٌ متأصِّلَةٌ بالمرأةِ ، وهي جِبِلَّةٌ جَبَلَ اللهُ عليها بني آدم عموماً ، ولكنَّها تبدو أكثرَ وضُوحاً في النِّساء ، وإن كانَ الرِّجالُ أكثرَ غيْرَةً .

* قالَ محمد بنُ أحمد التّجاني : وأمَّا غيرةُ المرأةِ علىٰ الرَّجلِ فلا تبلغُ ـ وإنْ أفرطتْ ـ مبلغَ غيرة الرَّجلِ علىٰ المرأةِ ، ولذلك أحلَّ اللهُ للرجلِ وطءَ أربعةٍ منَ النّساء ، ووطء ما شاءَ اللهُ منَ السَّراري ، لما سبقَ في علمهِ أنَّ صَبْرَ المرأةِ مُحتمل ، ولم يجعلْ للمرأةِ أنْ تنظرَ إلى غيرِ زوجها لما سبقَ في علْمِه أنَّ صبْرهُ لا يحتملُ ذلك مع حِكَمٍ أخرى في ذلك[2] .

* إنَّ المرأةَ التي تغارُ تكونُ مضطربةَ العواطفِ غيرَ متزنةٍ ، فقد أوردَ ابنُ عبد البرّ حديثاً عنِ النَّبي ﷺ أنَّه قال : «ما تدري الغَيراءُ أعْلىٰ الوادي من أَسْفلهِ»[3] .

---

(١) المطرب (ص١٠) ، وشاعرات العرب (ص٧٤) .
(٢) انظر : تحفة العروس ومتعة النفوس للتجاني (ص ٤٠٣) .
(٣) بهجة المجالس (٢/ ٣٩) .

* وذكرَ الطَّبريُّ في بعضِ كلامه: الغيرةُ منَ النِّساءِ مسموحٌ لهنَّ فيها، ولا تُـنْـكَرُ منْ أخلاقهنَّ، ولا يعاقبنَ عليها، لأنهنَّ فُطِرْنَ عليها، ولا يملكنَ أنفسهنَّ عندها(١).

* ولكنْ كيفَ كانت غيرةُ ضيفتنا حفصَة الرّكونية؟! هذا ما تنمُّ عنه أشعارُها، وما وصلَنا منْ أغزالها التي تحملُ بين ثناياها روحَ حفْصَة الشَّاعرة الغيرىٰ، حيث تقولُ عندما تعصفُ بها الغيرةُ وتعبثُ بجوانحها وجوانبها:

أَغَـارُ عَلَيْـكَ مِـنْ عَيْـنَـي رقيْبِـي ... وَمِنْـكَ ومِـنْ زَمـانِـكَ والمَكَـانِ
وَلَـو أنّـي جَعَلْتُـكَ فـي عُيُـونـي ... إلـىٰ يَـومِ القِيـامَـةِ مَـا كَفَـانـي(٢)

* وقد حامَ بعضُ الشُّعراء حولَ معاني حفصةَ فقال:

وَلَـو أَمْسـىٰ عَلـىٰ تَلفِـي مُصِـرّاً ... لَقُلْـتُ مُعـذِّبـي بـاللهِ زِدْنـي
وَلاَ تَسْمـح بـوصْلِـكَ لـي فَـإِنّـي ... أَغَارُ عليكَ منْكَ فكيفَ منّي(٣)

---

(١) تحفة العروس ومتعة النفوس (ص ٤٠٤).

(٢) نفح الطيب (٥/ ٣٠٩) ومعجم الأدباء (١٠/ ٢٢٧)، ولعل أم الكرم بنت المعتصم قد سبقت حفصة بهذه المعاني فقالت:

ألا ليتَ شعري هل سبيلٌ لخلوةٍ ... ينـزَّهُ عنها سَمْعُ كلّ مراقِب
ويا عجباً أشتاقُ خلوةَ من غدا ... ومثواه ما بين الحشَا والتّرائب

(المغرب ٢/ ٢٠٣).

(٣) في الحقيقةِ هذان بيتَان جميلان، وقد أُغْرِمَ بهما جمالُ الدّين السَّمَّان الحمويّ الحُسَيني، وخمَّسَهُما فقالَ:

عَذَابُ معذّبي جَهْراً وسِرّا
غَدا عَذْباً لَديَّ وكانَ مُرّا
فلو في حُبِّه ذُقْتُ الأمرّا
ولـو أَمْسىٰ عَلىٰ تَلفي مُصِرّا ... لقالتُ معذّبي باللهِ زدْني
وأَكْثِرْ منْ دلالِكَ والتثني
وأَقْلِلْ منْ رضاكَ وصدَّ عنّي
=

* ولكنَّ بعضَ العشَّاق أبدعَ أكثر في غيرتهِ ، وكانَ أكثر براعةً من حفصةَ الرّكونيةِ حينما قال:

أَغَارُ عَلَيْكِ مِنْ إدْرَاكِ طَرفي   وأشْفِقُ أَنْ يذيبَكِ لَمْسُ كَفِّي
فأمْتَنِعُ اللّقاءَ حَذَارَ هذا   وأَعْتمِدُ التَّلاقي حينَ أغْفِي

* إنَّ حبَّ حفصةَ الركونيةِ لأبي جعفر بنِ سُعيد لا يتوقَّفُ عند حدٍّ مُعيّن ، وإنّما ينطلقُ معه حيثما سار ، فقد تغزَّلَتْ في ابنِ سُعيد وهو بعيدٌ عن عينيها حيثُ رقَشَتْ له رسالةً موشّاةً بالاحتشامِ ، إلا أنَّ عواطفَها قد فاحَ أريجُها من خلالِ شَذْوِها وسلامها ، فمنْ رقيقِ شِعرها له قولُها:

سَلامٌ يُفَتِّحُ عَنْ زَهْرِه الـ   كِمامُ وينطقُ وُرْقَ الغُصُون
علىٰ نَازحٍ قد ثَوىٰ في الحشَا   وإنْ كانَ تُحرمُ منْهُ الجُفُون
فَلا تَحْسَبُوا البُعْدَ يُنْسيكُمُ   فَذَلكَ واللهِ ما لا يكُون[1]

* ولما تولّى أبو جعفر الوزارةَ لعثمانَ بنِ عبد المؤمن ، ابتهجتْ حفصةُ ، وتفتَّحتْ أساريرُ قريحتها عن شعرٍ عذْبٍ مندَّىٰ برحيقِ دفءِ حنانِها ، وتظهرُ فيه عاطفتها الصَّادقة نحوه ، على الرّغمِ منْ أنَّ حسَّاده قد تحدّثُوا عن مكانتِه التي بلغَها ، ولكنَّ هذا ليس غريباً أو عجيباً ، فأبو جعفر سيِّدٌ ، وسَادَ أهْل زمانِه لكونِه طموحاً إلىٰ المعالي ، مجتنباً الدَّنايا ، ولذلك كَتَبَتْ إليه مهنِّئةً:

رَأَسْتَ فمَا زَالَ العُدَاةُ بِظُلْمِهم   وعِلْمِهم النَّامي يقولُونَ لِمْ رأَسْ
وهَلْ مُنْكَرٌ أَنْ سَادَ أهْلَ زَمانِهِ   جَموحٌ إِلىٰ العَلْيَا نَقيٌّ منَ الدَّنَسْ[2]

= وعاملْنِي بهجركَ والتّجنّي
ولا تَسْمَحْ بوصْلِكَ لي فإنّي   أغارُ عليكَ منْكَ فكيفَ منّي
(معجم الأديبات الشواعر ص ١٩٠).

(١) انظر: المغرب (١/ ١٣٩) ونفح الطيب (٥/ ٣٠٩) ، وشاعرات العرب (ص٧٣).
(٢) معجم الأدباء (١٠/ ٢٢١)، ونفح الطيب (٥/ ٣٠٩) وشاعرات العرب (ص ٧٥).

ظَرْفُهَا وَلُطْفُهَا:

* أخبارُ حفصةَ ابنةِ الحاج الركونيّةِ تشيرُ إلى آثارٍ حسَانٍ في شخصيّتها؛ منها خفّةُ الرُّوحِ ، وحضورُ البديهةِ ، وحسنُ المحاضرةِ ، وصفاءُ النَّفس ، ولطفُ المزاج؛ بل إنَّ نَفْسَها المرحةَ الممراحَ جعلتْ كثيراً منَ النَّاس يطلبونَ منها أنْ تهديهم شيئاً منْ جمالِ خطِّها ، وهَمَساتِ شِعْرها علىٰ بطاقاتٍ يحملونَها معهم ، ويبدو أنَّ حفْصَة كانت منْ نجومِ الأندلسِ الزَّواهرِ اللوامع ، لذلك تولَّعَ بأدبها ، وهامَ بشِعْرها كلُّ مَنْ هام بأفانين وفنّ الكلمةِ الحلوةِ الرّقيقةِ الرائقةِ الرقراقةِ ، حتى إنَّ علْيةَ النِّساء منْ غرناطةَ كُنَّ يطلبنَ منْ حفصةَ أنْ تهديهنَّ شيئاً منْ عبقاتِ زَهْر كلامِها، ليكونَ عندهنَّ ذكرى وتذكاراً.

* نقل المقّريُّ عن الملاحي في تاريخه أنَّه قَدْ سَألَتْها امرأةٌ[١] منْ أعيانِ أهْلِ غِرناطةَ أنْ تكتبَ لها شيئاً بخطِّها ، فكتبتْ إليها:

يَا ربَّةَ الحُسْنِ بَلْ يَا ربَّةَ الكَرمِ ... غُضّي جُفُونَكِ عمّا خَطَّه قَلَمي
تصفَّحيــهِ بلحــظِ الــوُدِّ منْعِمَــةً ... لا تَحفَلِي برديءِ الخطِّ والكَلِمِ[٢]

---

(١) في الإحاطة: قال الوزيرُ أبو بكر بنُ يحيى بنِ محمد بنِ عمر الهمدانيّ: رغبتْ أختي إلى حفصةَ أنْ تكتبَ شيئاً بخطها ، فكتبتْ البيتَيْن؛ وفي روايتهما اختلافٌ يَسير. (الإحَاطَة ١/ ٤٩١).

(٢) دعَا أبو جَعفر بنُ سعيد مرّةً أصدقاءَه إلىٰ حديقتِهِ وقبَّتِهِ الكُمامةِ فقال:

فقُوموا علىٰ اسْمِ اللهِ نحو حديقةٍ ... مقلَّــدةِ الأجْيَــادِ مَــوْشِيــةِ البــردِ
بها قُبَّةٌ تُدعىٰ الكمامَة فاطلعُوا ... بهـا زهـراً أذكَـىٰ نسيمـاً مـنَ النّـدِ

وفي الشّعْرِ الأندلسيّ وقفَاتٌ تلفتُ الأنظارَ في وصْفِ الحَدائق ، ومن بدائِع وصْفِ الحدائق قول ابن عمار في حديقة:

لله حســن حـديقـة بَسَطـت لنـا ... منهـا النُّفـوس سَوالـفٌ ومَعـاطِـفُ
تختـال فـي حُلَـلِ الـرَّبيعِ وحَلْيـه ... ومــن الـربيـع قـلائــدٌ ومطـارفُ

(نفح الطيب ٢/ ١٧٦).

* وتروي المصادرُ الأندلسيّةُ وغيرها أشياءَ كثيرةً عنْ ظرفِ حفصةَ الركونيةِ ، وعن لقاءاتِها مع الوزيرِ أبي جعفر بنِ سُعيد ، وقد كانت تلكم اللقاءات تنمُّ عمَّا دارَ بينهما منْ لذيذِ الكلام ، ورقيقِ المعاني ، وجميلِ القَصَص العذريّة البُثَينيّة التي ينجلي عنها اللِّقاءُ ، وكانت تلك الأحداثُ لا تخلو من نكتةٍ أو خفّةِ روحٍ منْ حفصةَ ، ومن ذلك أنَّ أبا جعفر بنَ سُعيد قد طلبَ منها الاجتماع مرّةً في حديقةٍ جميلةٍ بها بقُبّةٍ تسمّى «الكمامة» ، حيثُ اشتاقَ إلىٰ أحاديثها العِذاب ، وكلماتِها التي تشبه الرّضاب ، إلاّ أنَّ حفصةَ زادتْ دَلالاً ، ولجأتْ إلىٰ التَّسويفِ ومَطَلَتْه قَدْر شَهْرَيْن ، هنالك تحركتْ لواعجُ الشِّعْر لديه ، وكتبَ لها يبثُّها وجْدَه وهيامَه ونَوحَه وغَرامَه ، ويذكرُ أنّها تَتيهُ عليه تيهاً، ويكادُ يثنيهِ اليأْسُ، وبعثَ أبياته مع رسولٍ لطيفٍ :

يَــامَــنْ أُجـانِــبُ ذِكْــر اسْـ ـمِــهِ وحُبِّــي عَــلاَمَــه
مَــا إنْ أَرىٰ الــوعْــدَ يُقْضَــىٰ والعُمْــرَ أخْشَــى انْصِــرامَــه
اليــــومَ أَرجُــــوك لا أَنْ تكــونَ لــي فــي القِيــامَــه
لــو قَــدْ بَصُــرْتُ بحــالــي والليــلُ أَرخَــىٰ ظَــلامَــهُ
أنــوح شَــوقــاً وَوَجْــداً إذْ تَسْتَــريــحُ الحمَــامَــه
صَــبٌّ أطــالَ هَــواهُ علــىٰ الحبيــبِ غَــرَامَــه
لِمَــنْ يَتيْــهُ عَليــهِ وَلا يَــردُّ سَــلامَــه
إنْ لــم تُنيلــي أَريْحــي فــاليــأْسُ يَثْنــي زِمَــامَــه

فردَّتْ حفصةُ عليهِ في ظَرفٍ ولطفٍ وخفّةِ روحٍ ، واعتمدتْ بذلك على نَـقْده ، ثمّ وَعْدِه في حديقتِهِ بأسلوبٍ رشيقٍ خفيفٍ وأجابته على نَفْسِ البحرِ والرّوي :

يَــا مــدَّعــي فــي هــوىٰ الحسـ ـنِ والغَــرامِ وإمَــامَــه
أتــىٰ قــريضُــك لَكِــنْ لــم أَرْضَ منْــه نِظَــامَــه

أمُـــدَّعـــي الحُـــبَّ يَثْنـــي يـــأْس الحبيـــبِ زِمَـــامَـــه
ضَلَلْـــتَ كُـــلَّ ضَـــلالٍ وَلَـــمْ تفـــدْكَ الـــزَّعـــامَـــه
مَـــا زِلْـــتَ تَصْحَـــبُ مُـــذْ كُـــنْـــتَ فـــي السِّبَـــاقِ السَّـــلامَـــه
حتّـــى عَثَـــرْتَ وأَخْجَـلْـــتَ بـــافْتِضَـــاحِ السَّـــآمَـــه
بـــاللهِ فـــي كُـــلِّ وقْـــتٍ يُبْـــدي السَّحَـــاب انْسِجَـــامَـــه
والـــزَّهْـــرُ فـــي كُـــلِّ حيـــنٍ يشـــقُّ عنْـــه كِمَـــامَـــه
لـــو كُنْـــتَ تَعْـــرِفُ عُـــذْري كَفَفْـــتَ غَـــرْبَ المَـــلامَـــه

* ثمَّ إنَّ حفصَة أرسلتْ هذه الأبيات العِذاب مع مُوصلِ أبياتِ أبي جعفر، بعدما لعنَتْه وسبَّتْه وشتمتْه، وقالتْ له: لَعَنَ اللهُ المُرسِلَ والمُرسَلَ! فما في جميعكما خيرٌ، ولا لي برؤيتكما حاجة.

* وانصرفَ رسولُ أبي جعفر وقد جلَّله الخزيُ والإحراجُ مما سمعَ منْ حفصةَ، وكادَ يغيبُ عن صوابِه، ولم يَعُدْ يبصرُ أمامَه حتى أطلَّ علىٰ أبي جعفر وهو في قلقٍ لانتظاره وقال له: ما وراءَكِ يا عِصَام[1]؟! فقالَ

(١) «ما وراءك يا عصام»؟ هذا مَثلٌ شهيرٌ منْ أمثالِ العربِ في الجاهليةِ، قاله الحارثُ ابنُ عمرو مَلك كندة الذي بلَغَه جمال أمِّ إياس ابنة عوف بن محلّم الشّيباني، وكمالَها وقوةَ عقلِها، فدعَا امرأةَ من كندةَ يُقال لها عِصَام، ذات عقْل ولسانٍ وأدبٍ وبيان وقال لها: اذهبي حتّى تعلمي لي عِلْم ابنةِ عوف، فمضَتْ حتى انتهتْ إلى أمّها وهي أمامةُ ابنةُ الحارثِ، فأعلمتْها بما قدمتْ له، فأرسلتْ أمامةُ إلى ابنتها وقالت لها: أي بُنية، هذه خالتُك أتتكِ لتنظرَ إليكَ، فلا تستري عنها شيئاً إنْ أرادتِ النَّظرَ منْ وَجْه أو خلق، وناطقيها إنْ استنطقتكِ، فدخلتْ عصامُ إليها فنظرتْ إلى ما لم تَرَ قطّ مثلَه، فخرجتْ منْ عندها وهي تقولُ: تركَ الخداع مَنْ كشفَ القِناع. فأرسلتْها مَثَلاً؛ ثم انطلقتْ إلى الحارثِ فلما رآها مقبلةً قال لها: ما وراءك يا عصام؟ فقالت: صرَّحَ المخضُ عن الزّبد، ثم وصَفَتْ له جَمال ابنةِ عوف، وما آتاها الله منْ جَمال وكَمَال وعقل، وذلك في وصف طويلٍ وجميل، ذكرَهُ الميدانيّ والعسكريّ وغيرهما، ثم أرسلَ الملك فخطبَها، فأوصتْها أمُّها أمامةُ بوصايا عَشْر منْ أجملِ الوصَايا في دنيا الوصايا. =

وعلاماتُ القَلَقِ باديةٌ عليه: أيّها الوزيرُ الخطيرُ، وما يكونُ وراءَ مَنْ وجهْتَه إلىٰ امرأةٍ لم تتركْ شتماً ولا سبّاً إلاّ ذكرتْه، ولم تتركْ فُحشاً إلاّ وصَمَتْكَ ووصمتِني فيه، واقرأ الأبيات التي كتبتَها لك، تعلم علْمَ اليقين حقيقة هذه البذيئة.

* وتسلَّمَ أبو جعفر الأبيات التي طرَّزَتْها حفصةُ كأبدع ما يكونُ من خطّ، فلما قرأَ الأبيات، عَلَتْ وجهَه ابتسامةٌ لطيفةٌ، وقالَ للرسولِ وقد تبيَّن له جَهْله: ما أسخفَ عقلك يا هذا وأجهلك!! إنَّ حفْصَة قد وعدتْني في القُبّةِ التي في جنَّتي المعروفةِ بالكمامةِ وأنَّها قادمةٌ إلى هناك، ثمَّ قال له: قُمْ فَسِرْ بنا إلى حديقةِ[1] البستان، فبادرا إلىٰ الكمامة، وما كانَ إلا القليلُ منَ الوقتِ، وإذ بحفصةَ قد وصلتِ الكمامةَ تتهادىٰ في مَشْيها، فأرادَ أبو جعفر أنْ يعاتبها، فأنشدتْ بنغمةٍ رقيقةٍ في تدللٍ وهَمْس وظرفٍ وخفّة ظلّ وروح:

دَعِـي عَـدَّ الـذُّنـوبِ إذَا التقَيْنَـا   تَعـالَـيْ لا نَعُـدُّ وَلاَ تَعُـدّي

* ثم إنّهما جَلَسا علىٰ أَحْسنِ حالةٍ، وقد تخلَّلتْ كلماتُ حبّهما أنسامَ ذلك المساء فزادتِ الجوَّ جَمالاً، وبهاءً وسناءً، وصار كلٌّ واحدٍ منهما يرنو إلىٰ الآخرِ بعينِ الهيامِ، ويزْجيهِ أجملَ العبارات، وأعذبَ الكلام.

= (مجمع الأمثال ٢/٣٠٩ ـ ٣١١) و(جمهرة الأمثال ١/٤٦٨ ـ ٤٧١).
وللمزيد من أخبارِ أمامةَ بنتِ الحارث وابنتها أمّ إياس، راجعْ كتابنا «نسَاء من التَّاريخ» (من ٧٣ ـ ٩٥) حيث توسّعنا بسيرة أمامة بنت الحارث وهناك تجد ما يسّرك إن شاء الله.

(١) ما أجمل قول أبي القاسم بن العطار الإشبيلي في وصف حديقة:

للهِ حُسْـنُ حـديْقَـةٍ بسَطـتْ لنـا   منْهـا النُّفـوسَ سَـوالـفٌ ومَعـاطـفُ
تختـالُ فـي حُلـل الـرّبيـع وَحَليـه   ومِـنَ الـرَّبيـع قَـلائـدٌ ومطـارفُ

* وبينما هُما علىٰ ذلك الودِّ الهامسِ ، والأنفاسِ التي تردَّدُ مع عبقاتِ الوردِ والزَّهر ، إذا برقعةٍ منَ الشّاعر الكُتُنْدي[1] إلىٰ الوزيرِ أبي جعفر بنِ سُعيد وقد كَتَب فيها:

أَبا جَعْفرٍ يا بنَ الكِرَامِ الأَمَاجِدِ خَلَوْتَ بمَنْ تَهْواهُ رغماً لحاسِدِ

فهلْ لَكَ في خِلٍّ قَنُوعٍ مهذَّبٍ كتومٍ عَليمٍ باخْتفاءِ المَراصِدِ

يبيتُ إذا يَخْلُو المحبُّ بحبِّه ممتَّعَ لذّاتٍ بخمسٍ وَلائِدِ

* وقرأَ أبو جعفر أبياتِ الكُتُندي علىٰ جليسَتِه حفصةَ ، فقالت في حدّةٍ تكتنفُها خفّة الظِّل: لعنَه الله ، قَدْ سَمِعْنا بالوَارش[2] علىٰ الطَّعَام ، والوَاغِل علىٰ الشَّراب ، ولم نسمعْ اسماً لمن يعلمْ باجتماعِ محبَّيْن ، فيرومُ الدَّخول عليهما ، وفضّ اجتماعهما وإفساده.

فقال لها أبو جعفر وهو يبتسمُ لما سمع منها: باللهِ سَمّيه اسماً لنكتبَ له بذلك.

---

(١) «الكتندي»: أبو بكر محمّد بنُ عبد الرحمن الكُتندي ، من نبهاءِ شعراء عَصْرِه ، سكنَ غرناطة ، وانتفعَ به مَنْ قرأَ عليه منْ أهلها ، ولازمَها حتى حُسِبَ منْ شُعرائها ، لأنَّ أَصْلَه من قريةٍ كتندة من قرى مرسية ، وهو ممن صَحِبَ أبا جعفر ابنَ سعيد ، وأبا عبد الله الرّصافي شاعرَ عبدِ المؤمن ، وكان أهلُ غرناطةَ يستحسنون له قولَه في مطلعِ قصيدة رثىٰ بها عثمان بن عبد المؤمن ملكها:

يذهبُ الملكُ ويبقىٰ الأثرُ هذهِ الهالةُ أينَ القمرُ

وله أشعارٌ جميلةٌ. توفي سنة (٥٨٣هـ) (المغرب ٢/ ٢٦٤ و٢٦٥).

(٢) «الوارش»: قالَ الرَّازي في «مختار الصّحاح»: الوارشُ: الدَّاخلُ على القومِ وهم يأكلونَ ولم يُدْعَ مثل الواغل في الشّراب. (مختار الصَّحاح) مادة ورش.

وقال الفيروز أبادي في «القاموس المحيط»: ورش الطّعام يَرِشُه وروشاً ، تناولَه وأكلَ شديداً حريصاً ، والوَغِل: الدَّاخلُ علىٰ القوم في طعَامِهم وشَرابِهم ، كالواغِل ، وذلك الشَّراب وَغْلٌ أيضاً ، ووغل في الشّيء يَغِلُ وغولاً: دخل وتوارى أو: بَعُدَ وذَهَب. (القاموسُ المُحيط) مادتي: ورش ووغل.

فقالت حفصةُ والدُّعابةُ تملأُ فاهَا: أسميه الحائِلَ، لأنَّه يحولُ بيني وبينَك، وإنْ وقعتْ عيني عليهِ لأسمعنَّه ما لم يسمعْ.

* ثم إنَّ أبا جعفرَ أخذَ قلماً وكتَبَ له في ظَهْرِ رقعته ثمانيةَ أبيات ذكر فيها سماجَتَه وثقله، وقال:

يَا مَنْ إذَا مَا أَتَانِي ... جَعَلْتُهُ نُصْبَ عَيْنِي
تَراكَ تَرضَى جُلوساً ... بينَ الحبيبِ وبَيْنِي
إنْ كانَ ذَاك فمَاذَا ... تَبْغِي سوىٰ قُربِ حَيْنِي[1]
والآنَ قد حَصَلَتْ لي ... بَعَد المَطالِ بِدَيْني
فإنْ أَتَيْتَ فَدفْعاً ... منْها بكلتا اليَديْن
أو ليسَ تبغي وحاشَا ... لَكَ أنْ تُرىٰ طيْرَ بَيْنِ[2]
وفي مبيتك بالخمـ ... ـسِ كلّ قبحٍ وشَيْن
فليسَ حقّك إلاّ الخلوّ بالقَمريْن

* وبعدها كتبَ أبو جعفر للكُتندي تحتَ تلكم الأبيات ما كان من حفصةَ من كلام، وكيف لقَّبَتْه بالحائِل، وذَيَّلَ ذلك بقوله:

سَمَّاكَ مَنْ أهْوَاهُ حَائِل ... إنْ كنْتَ بَعْدَ العُتْبِ وَاصِل
مع أنَّ لونَكَ مزْعجٌ ... لو كنْتَ تُحبَسُ بالسَّلاسِل

* وعادَ رسولُ الكتنديّ يحملُ الرَّدَّ منَ الحبيبَيْن، فإذا به يجدُه قد وقَعَ في مطمورةِ نجاسة، وقد صيَّرتْه تلك الحفرة النّجسة هتكةً وسخريةً، إذ أمسىٰ منظرهُ مدعاةً للضّحك والتّندُّر، فقد افتضحَ منْ تلك الوقعةِ المشينةِ، فلما قرأَ الأبيات والتّذييل عليها، قالَ للرّسول: يا هذا، ارجعْ إليهما، وأعْلمْهُما بحالي ومآلي؛ فرجعَ الرَّسولُ إلى

---

(١) «الحَيْن»: الهلاك.
(٢) «بين»: البين: البعاد.

أبي جعفرَ وحفْصَة ، وأخبرهما بحالِ الكُتندي ومنظرِه وسوءِ مخبره ، فكادَ أنْ يُغْشَىٰ عليهما من شدّة الضَّحك .

* ولكنَّ القصَّة لم تَنْتَهِ ، وظرفَ حفصةَ الركونية ما يزالُ موصولاً بالقصّة ، فقد اقترحتْ أنْ يداعِبا الكُتندي الشّاعرِ ، ويتندَّرا عليه ، فكتَبَا إليهِ ارتجالاً ، كلُّ واحدٍ منهما بيتاً ، فابتدأ أبو جعفر بن سُعيد يذكر ما حَصَل لهذا الشَّاعر الحائل المتطفّل فقال :

قُـــلْ للـــذي خلَّصَنـــا ... منْـه الـوقُـوعُ فـي الخَـرَا

فقالت حفصة :

ارجـعْ كَمـا شَـاء الخَـرا ... يـا بـنَ الخَـرا إلـىٰ وَرَا

وقال أبو جعفر :

وإنْ تَعُـدْ يـومـاً إلـىٰ ... وصـالِنـا سـوفَ تَـرىٰ

وقالت حفصة :

يـا أسْقـطَ النَّـاس ويـا ... أنْـذَلهـم بـلا مِـرَا

وقال أبو جعفر :

هـذا مـدىٰ الـدّهـر تـلا ... قـي لـو أتيـتَ فـي الكَـرا

فقالت حفصة :

يـا لحيـةً تشغـفُ فـي الخـرءِ ... وتشْنـا العَنْبـرا[1]

فقال أبو جعفر :

لا قـرَّبَ اللهُ اجتمـاعـاً ... بـكَ حتّـى تُقْبَـرا[2]

فلمّا وصلَته الرَّقْعةُ ، عَلِم أنَّه ليسَ مقبولاً لديهما ، لا سيما أنَّه قد

---

(١) «تَشْنَا» : تكرهُ وتبغضُ ، وأصلُه تَشْنأ بالهمز ، فَسهّلتِ الهمزةُ بقلبها ألفاً لضرورة الشعر .

(٢) عن نفح الطيب (٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٩) بتصرف؛ وانظر : الدر المنثور (ص ١٦٦ ـ ١٦٨).=

أصبحَ في تلك الحالةِ المُزرية المخزية ، فانصرفَ من حيث أتى ، وبقيَ أبو جعفر وحفصةُ ليلتهما يتعاطيان المسَرَّات دون ريبةٍ منْ أحدهما.

* وتابعَ أبو جعفر وحفصةُ تلك الجلْسَةَ النَّديةَ إلى أنْ هجمَ الصُّبح عليهما وتنفَّس ، يذكِّرهما بذهابِ الليل الذي عَسْعَس ، وطلوع النّهار ، وأنَّه قد آن أوانُ الانصرافِ ، فانصرفا وكلٌّ واحدٍ منهما له نحو صاحبه انعطاف ، فودعها أبو جعفر وكأنَّ لسانَ حاله يقول:

سَارَتْ كَبَدْرٍ وَلَيْلُ الحذرِ يسْتُرها وَلَو بَدا وجهُها جَاءتْك بالفَلَق

بُثَيْنَةُ الأَنْدَلُسِ:

* إذا كانَ القُدماء قد أطلقُوا لَقَبَ خَنْساء الأندلس علىٰ نزهون الغَرناطيّة ، أفلا يحقُّ لنا أنْ نطلقَ على حفصةَ الركونيةِ بثينةَ الأندلس لجمالها وظرفها ورقّتها وعفّتها وحبّها للطَّبيعة الجميلة الآسرة؟!

* لقد كانتْ حفْصَةُ مولعةً بجمالِ كلِّ شَيء ، وخصوصاً جمال الطَّبيعة السَّاحرة في غرناطَة[١] بلد الجمال والدَّلال ، كما كانت مولعةً بلقاءِ أبي جعفر[٢] ، وكانت تكثرُ معه اللقاء في البساتينِ التي تزدانُ بها

---

(١) قال ابن سُعيد في «المغرب»: غَرنَاطةُ ، وما أدراك ما غرناطةُ ، حيثُ أدارت الجوزاءُ وشاحَها وعلَّقَ النّجمُ أقراطَه ، عقابُ الجزيرةِ ، وغرّةُ وجهِها المنيرة ، ونهرُها الكبيرُ يَقال له شنِّيل وفيه أقول:

كـأنّما النّهـرُ صفحـةٌ كُتبَـتْ أسطـرُهـا والنّسيـمُ مُنشِئُهـا
لمـا أبـانَـتْ عـن حُسْـنِ منظـرِه مَـالَـتْ عليـه الغُصـونُ تقـرؤُهـا

وفيه أقول:

انظـرْ لشنّيـل يقـابـلُ وجْهَـه وَجْـهَ الهـلالِ كقـارئٍ أسطـارَهُ
لمّـا رآهُ مِعْصمـاً قَـدْ زَانَـه وشـيُ الصَّبـا ألقـىٰ عليـه سِـوارَهُ

(المغرب ٢/ ١٠٢ ، ١٠٣) باختصار.

(٢) لقد كان شعار أبي جعفر حيث يقول: =

غَرناطة ، ومن أشهرِ تلك البساتينِ والمتنزَّهات : «نجد[1]» ، و«حور مؤمل» ، وهمّا متنزَّهَان منْ أشرفِ وأظرفِ متنزَّهات غرناطةَ ، حيثُ الجداولُ تعانقُ أشجارَ الدَّوْحِ ، والنَّسماتُ تهزُّ أغصانَ الشَّجرِ ، والطّيور تغرِّد فتزيدُ من جمالِ الطَّبيعة جمالاً وسَنَاءً وسحراً.

* واتَّفق أنْ باتَ أبو جعفرٍ مرّةً مع بُثَيناه حفصةَ الركونية في بستانٍ بحور مُؤمِّل[2] ، علىٰ ما يبيتُ به الرُّوض والنَّسيم ، من طيبِ النَّفحة ، ونضارةِ النَّعيم ، فلمّا حان الانفصالُ والتفرّقُ ، قال أبو جعفر :

= لا تُعيّـــنْ لنَـــا مكـــانـــاً ولكـــنْ حيثُمـــا مَـــالـــتِ اللـــواحـــظُ مِلْنَـــا
(المغرب ٢/١٦٨).

(١) «نَجْد» : هو أحدُ متنزَّهات غَرناطة ، وليس المقصودُ بهذا المتنزه نَجْد الجزيرة العربية ، قال صاحبُ المغرب : ونجدٌ مكانٌ مطلٌّ على بَسيطها ـ أي غَرناطة ـ منْ أشرفِ متنزّهاتها ، وفيه يقولُ عالمها أبو الحسن ابن سَهْل بن مالك :

كـلُّ وجْـدٍ سمعتـم دونَ وَجْـدي لأصيـلٍ يفـوتُ طَـرفـي بنَجْـدِ
حيـثُ جـرَّرْتُ ذيـلَ كـلِّ مجـونٍ بيـنَ حُـور تميـسُ فيـه وَرَنْـدِ
وسـواق كـأنهـنَّ سيـوفٌ جُـرِّدَتْ في الـرِّياضِ مِنْ كل غمدِ

(المغرب ٢/ ١٠٥).

(٢) «حور مؤمل» ، ويقال : حَوز مؤمِّل؛ وفي غرناطةَ متنزَّهاتٌ مشهورةٌ منها : حور مؤمِّل ، واللشتة ، والزّاوية ، والمشايخ ، وقد ذكرَ أبو جعفر بنُ سعيد حورَ مؤمِّل في عددٍ من أشْعاره ، ومن بدائع أشعارهِ موشحةٌ بديعةٌ مطْلعُها :

ذَهَّبَـــتْ شمـــسُ الأصيـــلِ فضّـــــــــة النّهـــــــــر

ثم يذكرُ حَور مؤمِّل بقوله :

حبـــذَا بـــالحَـــوْر مغْنَـــى
هـــي لفـــظٌ وهـــو معنـــىً
مـــذهـــبُ الأشجـــانِ عنّـــا
كَـــمْ درينـــا كَيـــفَ سِـــرْنـــا
ثـــمّ فـــي وقْـــتِ الأَصيـــل
لـــم نكـــنْ نـــدري

(المغرب في حلى المغرب ٢/ ١٠٤).

رَعَىٰ اللهُ لَيْلاً لم يُرَعْ بمُذَمم عَشيةَ وارانا بحورِ مُؤَمِّلِ
وقَدْ خَفَقَتْ منْ نحوِ نجدٍ أريجُهُ إذا نَفَحتْ هبَّت بريّا القرنْفُلِ
وغرَّد قمْريٌّ علىٰ الدّوح وانثنىٰ قضيبٌ منَ الرّيحانِ من فَوقِ جَدْولِ
يرىٰ الرّوضَ مَسْروراً بما قَدْ بَدا لَهُ عنَاقٌ وضمٌّ وارتشافُ مُقَبّلِ

* ثمَّ إنَّه أودعَ همساتِه هذه قرطاساً ، وأرسلَ أبياته الرقيقةَ إلى حفصةَ كيما تجيبُه علىٰ عادتها في مثلِ ذلك ، فكتبتْ إليه أبياتاً تظهر فيها غيرتها عليه منْ كلِّ شيء :

لَعَمْركَ ما سُرَّ الرّياض بوصْلنا ولكنّه أبدىٰ لنَا الغِلَّ والحَسَدْ
ولاَ صَفَّقَ النَّهْر ارتياحاً لقُربنا ولا غرَّدَ القُمريُّ إلاّ لما وَجَدْ
فلا تحسنِ الظَّنَّ الذي أنتَ أهْلُه فما هو في كلِّ المواطن بالرَّشَدْ
فما خلتُ هذا الأفقَ أبدىٰ نُجومَه لأمرٍ سوىٰ كيما تكونَ لنا رَصَدْ[1]

* ولعلَّ في حبّ حفصةَ لأبي جعفر أشياء تظهرُ من عواطف هذه المرأةِ التي اعتبرها «شوقي ضيف»[2] من خليفاتِ ولاّدةَ بنتِ المستكفي ، فهي تعبِّرُ بكُلِّ صراحةٍ عن ميلها إليه ، ولا تخفي صبابتَها به ، بل تذكرُ أنَّ ثَغْرَها مَعينٌ عَذْبٌ ، وذوائبها ظلٌّ وارفٌ له ، فهي

---

(١) معجم الأدباء (١٠/ ٢٢٢) ، ونفح الطيب (٤/ ٢٠٨) و(٥/ ٣١٠ و٣١١) ، والدر المنثور (ص ١٦٨ و١٦٩) وشاعرات العرب (ص ٧٦).

(٢) قال الدّكتور شوقي ضَيف ما نصّه: ووراءَ ولاّدة كثيراتٌ نَسَجْنَ قَصَصاً وأشعاراً كثيرةً في علاقتهنَّ وعشقهنَّ لبعضِ الرِّجال ممن فَتَنَّ قلوبهنَّ ، منهنّ حَفْصَة الركونية ، وكان لها ندوة في غرناطةَ ، كندوةِ ولاّدة في قرطبةَ ، وممن كانَ يختلفُ إلى ندوتها أبو جعفر بنُ سعيد أحد مواطنيها منَ الشّعراء ، وقد أحبّته حبّاً جامحاً ، لا يعرفُ قصداً ، ولا اعتدالاً ، وبادلها حبّاً بحبٍّ ، ومن قولها تدعوه إلى زيارتها ملحة ممعنة في الإلحاح:
أزورُك أم تزورُ فإنَّ قلبي إلىٰ ما ملتمُ أبداً يميلُ ....إلخ
(فصول في الشعر ونقده ص ١٥٠) وكلام شوقي ضيف يحتاج إلى دليل مقنع!!

عاشقةٌ ، والعاشقُ في سننِ العشَّاق معذور ، فهي تجعلُ منْ نفسِها «بثينة» ، ومن أبي جعفر «جميل» ليتمَّ العِقْدُ الفريدُ بجمالِ شِعرها ، وجمال تلميحها وتوريتها لأبي جعفر بالجمالِ ، فقد كَتَبَتْ إليه:

أَزورُكَ أمْ تَــزور فــإنَّ قَلبــي ... إلــىٰ مــا مِلْتــمُ أبــداً يَميــلُ
وقـد أُمِّنْـتَ أنْ تظمـىٰ وتضحـىٰ ... إذا وافــىٰ إلــيَّ بــكَ القبــولُ
فـثَـغْــري مــوردٌ عــذبٌ زلالٌ ... وفــرعُ ذوائبــي ظِــلٌّ ظليــلُ
فعجِّــلْ بــالجــوابِ فمــا جَميــلٌ ... أنــاتُــك عــنْ بثينــةَ يــا جميــلُ[1]

* ووصلتِ الأبياتُ اللطيفةُ إلىٰ الوزيرِ الشَّاعر الرّقيق ، فقرأها فازدادَ بحفصةَ كَلفاً ، كما أحسنتْ هي له وصفاً ، فهو معشوقٌ لها ، لكنَّ روحَه اللطيفةَ ونَفْسَه الهادئةَ ، وشاعريته الفذة توحي إليه أنْ يحسنَ الرَّدَّ ، فإذا به يقولُ في جوابها بحبٍّ ووقار ودلال:

---

(١) انظر: المغرب (٢/١٦٦) ، ونفح الطيب (٥/٣١١) ، ورايات المبرزين (ص ١٦٢ و١٦٣) ، والإحاطة (١/٤٩١ و٤٩٢) ، وشاعرات العرب (ص ٧٢) ، والوافي بالوفيات (١٣/١٠٧ و١٠٨) وتحفة العروس ومتعة النفوس ص ٤٥٦)
وقال أبو عبدِ اللهِ محمدُ بنُ أحمدَ التّجانيّ المغربيّ المتوفىٰ بعد سنة (٧٠٩هـ) في كتابه «تُحفة العروس»:
تشبهُ هذه الأبيات ـ أبيات حفصة ـ الأبيات التي أنشدَها ابنُ الحصين في تاريخه لسلمىٰ بنتِ القراطيسيّ من أهلِ بغداد ، وكانت مشهورةً بالجمالِ والأدب:

عُيــونُ مَهــا الصَّريــم فــداءُ عينــي ... وأجْيَــادُ الظِّبــاء فــداءُ جيْــدي
أُزَيَّــنُ بــالعقــودِ وإنَّ نَحــري ... لأزْيَــنُ للعقــود مــنَ العقــودِ
ولا أشكــو مــنَ الأوصــافِ ثقــلاً ... وتشكــو قــامتــي ثقــلَ النُّهــود
ولــو جــاوزتُ فــي بلــدٍ ثمــوداً ... لمــا نــزلَ العــذابُ علــىٰ ثمــودِ

قال ابنُ الحصين: وبلغتْ هذه الأبيات المقتفي فقال: اسألوا عنْها هل تصدقُ صفتها قولها؟ فقالوا: ما يكونُ أجمل منها ، فقال: اسألوا عن عفافها؟ فقيل: هي أعفتّ النّاس ، فأرسل إليها مالاً جزيلاً وقال: تستعينُ به على صيانةِ وجمالِ ورونقِ أدبها. (تحفة العروس ص ٤٥٧) وانظر: (الوافي بالوفيات ١٥/٣٠٧).

أجِلّكـــمْ مَــا دَامَ بـــي نَهْضَـــةٌ عنْ أنْ تَزُوروا إن وجَدْتُ السَّبيلْ
مَــا الـــرَّوضُ زوَّاراً ولكنّمـــا يَـــزُوره هـــبُّ النَّسيـــمِ العَليـــلْ

* ترى هل اكتفىٰ الوزيرُ الأنيقُ في ردّهِ بذينك[1] البيتَيْن علىٰ أبياتِ حفصةَ[2] التي تداعبُ القلوبَ الهائمةَ في الحبِّ والصَّفاء ، وتتناغمُ مع هَمساتِ النَّسيم ونبضِ القُلُوب؟!

* لا شكَّ في أنَّ الوزيرَ الأديبَ لم يكْتَفِ بذلك ، وإنَّما أرسلَ لها قطعةً أخرىْ من قَلْبِه ولُبّهِ وإحساسِه ، وأرسلَ لها بيتَيْن آخَريْن يتسلّلان إلىٰ القلوبِ بعذوبةٍ ورقّة ، فهو أنسامٌ لطيفةٌ تزورُ زَهْر الرِّياض ، وهو عاشقٌ قد أثَّر فيه النُّحول ، بيد أنَّ هوى حفصَة هو الدَّواءُ ، ترىٰ ماذا أرسلَ لها ثانيةً؟! اسمعْ قولَه الآسر الطَّريف:

زَارَهـا مَـنْ غَـدا سَقيـم هَـوَاهَـا وَبَــرَاهُ شَــوقــاً إليهــا النُّحــولُ
وكَـذَا الـرَّوضُ لا يـزورُ ويـأْتـي أبــداً نَحْــوه النَّسيـــمُ العَليْـــلُ[3]

* مـا أرقَّ ومـا أعـذبَ هـذه الإجـابـة الـرّائعـة!! ومـا أجمـلَ هـذه المطارحات التي زيَّنَت جِيْدَ شعْر الغَزَل بقلائدَ منْ جُمان! ودلَّت على

---

(١) «ذَان»: مثنّى اسم الإشارة «ذا» ، يُبْنىٰ على الألفِ في حالةِ الرّفْع مثل: نجحَ ذانِ الطالبان ، ويُبنىٰ على الياء في حالتي النّصب والجرّ مثل: كأفاتُ ذيْنِ الطّالبين.

(٢) يعتقدُ عبدُ الله عفيفي أنَّ خصوبةَ خيالَ الشُّعراء ينبثقُ عن المرأةِ فيقولُ: وإذا كانتِ المرأةُ العربيّةُ قد استمدَّتْ وحيَ البلاغةِ وسحْرَ البيان من صبيبِ قلبِها وخطرات سَرائرها ، فإنَّ الرجلَ لم يستمدَّ ذلك كلّه إلا منَ المرأةِ نفسها ، وهل رأيتَ شاعراً ممن طارَ شعرهم كلَّ مطار ، وسار ذكرهُ كلَّ مَسار ، يستمدُّ خواطر شعرِهِ ، أو يصطفي الحرّ السَّني منْ معناه ، وخياله إلا من المرأةِ ، وكم قصيدة من تلك التي قيلتْ في العظائم ، وقدمت إلىٰ العظماء لم تكن المرأة مطلع أمرها ، ومنبلج فجرها!! (المرأة العربية ٢/ ١٨٢).

(٣) المغرب (٢/١٦٦) بتصرف ، وانظر: معجم الأدباء (١٠/ ٢٢٥) ونفح الطيب (٥/ ٣١١).

شاعريةِ هذيْن العاشقَيْن الظَّريفين ، أو هذيْن الطَّائرين المغردَيْن في دوحِ الشِّعر ورياضِ أدبه!!

الحُـبُّ والـجَمَـالُ عنْـدَ حَـفْصَـة :

* إنَّ الحديثَ عن الحبِّ[١] موردٌ عذبٌ ، لا سيما إذا كانَ الحبُّ ظريفاً عفيفاً ينتجُ عنه أدبٌ لطيفٌ يصقُل غلظَةَ القلوب وأدرانَ النُّفوس.

* إنَّ حبَّ حَفْصَةَ للوزيرِ أبي جعفر بنِ سُعيد حبٌّ منْ نوعٍ مثير ، فهي تعرِضُ محاسنَها بأسلوبٍ أنيقٍ عندما تودُّ الدُّخول عليه ، والوزيرُ نفسه كانَ يقدِّرُ هذه الإنْسَانَة والمرأةَ التي تغرفُ من بحارِ الحبّ أعذبَ الكلماتِ المندَّاةِ بعبير الودِّ والوداد.

* وهذا الوزيرُ أبو جعفر يحكي لنا واحدةً منْ زياراتِ حفصة له في إحدىٰ ليالي أُنْسِه فيقول:

* أقسمُ ما رأيتُ ولا سمعتُ بمثلِ حفْصَة ، ومن بعْضِ ما أجعلُه دليلاً علىٰ تصديقِ عزمي ، وبرّ قسمي ، أنّي كنْتُ على راحةٍ سَمَحَتْ بها غَفَلاتُ الأيّامِ ، فلم نشعرْ إلاّ بالبابِ يُضْربُ ، فخرجتْ جاريةٌ تنظرُ مَنِ الضَّارب ، فوجدتِ امرأةً ، فقالتْ لها: ما تُريدين؟!

فقالت: ادفعي لسيّدِك هذه الرّقعة ، فجاءتْ برقعةٍ فيها:

زَائـرٌ قَـدْ أتـىٰ بِجيْـدِ الغَـزَالِ ... مُطْلِـعٌ تَحْـتَ جُنْحِـهِ للهِـلاَلِ
بِلحاظٍ منْ سِحْرِ بابلَ صيْغَتْ ... ورضَـاب يَفُـوقُ بنْـتَ الـدَّوالـي
يَفْضَحُ الوَرْدَ ما حَوىٰ منْه خَدٌّ ... وَكَـذا الثَّغْـرُ فَـاضِـحٌ لـلآلـي
مـا تـرىٰ فـي دخُـولـهِ بَعْـدَ إذْنٍ ... أو تَـراهُ لِعَـارضٍ فـي انْفِصَـالِ[٢]

---

(١) اقرأ كتابنا «الحبّ» في سلسلة مفاهيم إسلامية.

(٢) روىٰ لسانُ الدّين بنُ الخطيب هذه القصّة والأبياتَ علىٰ النحو الآتي حيثُ قال: وبلغَنَا أنّه خَلا مع حاتم وغيرِه منْ أقاربهم ، لهم طربٌ ولهو ، فمرّتْ علىٰ البابِ =

قال: فعلمتُ أنّها حفْصَةُ ، وقمتُ مبادراً للباب ، وقابلتُها بما يقابَلُ به مَنْ يَشْفَع له حُسْنُه وآدابُه والغرامُ به ، وتفضُّلُه بالزّيارةِ دونَ طلب في وقتِ الرَّغْبة في الأُنْس به[1].

* إنَّ أبا جعفر في حُبِّه الشَّديد لحفصةَ يظلُّ متّزناً في سلوكهِ وفي أقوالِهِ ، ويبدو أنَّ حفصةَ كانت تعاتبُه ، فكان ينشد:

لَا تُكْثِـــرَنَّ عِتَـــابِــي   إِنْ طَـــالَ عَنْـــكَ فِــرَاقِـــي
فَمَـــا يَضُـــرُّ بعَـــادٌ   يَطُـــولُ وَالْـــودُّ بَـــاقِـــي

* ولعلَّ منْ أجملِ أغزالِهِ وهو منْ آياتِهِ:

إنّـي لأَحْمَـدُ طيفَهـا وألـومُهـا   والفـرقُ بينهمـا لَـدَيَّ كبيـرُ
هِيَ إنْ بَدَتْ لي شيبة في جَفْوةٍ   والطَّيْفُ في حيْن المشيبِ يزورُ
وإذا تـولّـى صَـدَّهَـا أو بَيْنَهـا   وافـىٰ علـىٰ أنَّ المـزارَ عسيـرُ

* ومن شِعْره البديعِ فيها:

= مُستترةً ، وأعطتِ البوّابَ بطاقةً فيها مكتوب:

زائــرٌ قَــدْ أتــىٰ بجيْــدِ الغَــزَال   طَــامِــعٌ مــنْ محبِّـه بــالــوصَــالِ
أتــراكــمْ بــإذنكــم مُسعفيــهِ   أمْ لكــم شــاغــلٌ مــنَ الأشغــالِ

فلما وصلتِ الرقعةُ إليه ، قال: وربّ الكعبة ، ما صاحبُ هذه الرّقعة إلا الرّقيعة حفَصْةُ ، ثمّ طُلِبَتْ فلم توجدْ ، فكَتَبَ إليها راغباً في الوصَال والأنسِ:

أيّ شُغْــلٍ عــن الحبيــبِ يعــوقُ   يــا صــاحبــاً قــد آنَ منْـه الشُّــروقُ
صِـلْ وواصـلِ فـأنـتَ أشهـىٰ إلينـا   مــنْ جميــع المنـى فكـم ذا تَشُـوق
بحيــاةِ الــرِّضــا يطيــبُ صبــوحٌ   عــرْفــاً إنَّ جَفَــوْتَنَــا أو غُبــوقُ
لا وذلِّ الهــوىٰ وعــزّ التّــلاقــي   واجتمــاعٍ إليــه عَــزَّ الطّــريــقُ

(الإحاطة ١/ ٤٩٣).

(١) نفح الطّيب (٥/ ٣١١ و٣١٢) ، وقد أوردَ ياقوتُ الحمويُّ هذه القصَّة وفيها إضافاتٌ مع تغييرٍ في البيتِ الأخير ، ثم يوردُ بعد ذلك الأبيات نفسَها التي وردتْ في الإحاطة (معجم الأدباء ١٠/ ٢٢٦ و٢٢٧).

يـــا هَـــذِهِ لا تَـــرومـــي ... خِـــداعَ مَـــنْ ضَـــاقَ ذَرعُـــه
تَبْكـــي وقَـــدْ تقتلينـــي ... كـــالسَّيـــف يقطـــرُ دمعُـــه[1]

* وقالَ أيضاً في حفصةَ بُثَينَتِهِ:

لقدْ صَدَعَتْ قَلبي حَمامةُ أيكَةٍ ... أثـارتْ غَـراماً مَـا أجَـلَّ وأكْـرمَـا
ورقَّ نسيمُ الرِّيحِ منْ نحوِ أرضكم ... وَلُطِّـفَ حتّـى كَـادَ أنْ يتكلَّمـا[2]

* ومنْ شعرِه وقَدْ أبدعَ أيّما إبداع، وحلَّق في فَضَاءِ الجمَال فقال:

فـي الـرَّوْضِ منْـكِ مَشَـابِـهٌ ... يَهْفُـو لهـا طَـرفـي وقَلْبـي المغـرمُ
الغُصْـنُ قَـدٌّ والأزاهِـرُ حلْيَـةٌ ... والـوردُ خَـدٌّ والأقَـاحـي مَبْسمُ[3]

* والشَّاعرةُ العاشقةُ حفصةُ لا تستطيعُ البعادَ عن أبي جعفر، فإنْ غابَ شخصُها عن شخصِهِ، فشِعْرها ينوبُ عنها، فها هي تكتبُ له في رقَّةٍ وأناقةٍ ودلالٍ وإعجاب:

سَـارَ شِعْـري لـكَ عنّـي زَائـراً ... فـأَعِـر سَمْـع المعَـالـي شَنْفَـه[4]
وكـذاكَ الـرَّوضُ إذْ لـم يستطـعْ ... زَوْرَةً أرسـلَ عنْـه عَـرْفَـه

فكتبَ إليها الوزيرُ بكلامٍ شاعري رقيق لطيف:

قَـدْ أَتـانَـا منْـكِ شِعْـرٌ مثْلَمـا ... أَطْلَـعَ الأُفْـقُ لنَـا أنْجُمَـهُ
وفَـمٌ فَـاه بـهِ قَـدْ أَقْسَمَـتْ ... شَفَتـي بـاللهِ أنْ تَلْثُمَـهُ[5]

---

(١) الإحاطة (٣/٢١٦).
(٢) الإحاطة (٣/٢١٧).
(٣) المغرب (٢/١٦٧).
(٤) «شنْفه»: الشّنْفُ: القُرط الأعلى؛ والجمع شُنُوف. (مختار الصحاح) مادة شنف.
(٥) المغرب (٢/١٦٦) وذكر لسانُ الدِّين بنُ الخطيب أنَّ حاتمَ بنَ سُعيد بن خَلف المتوفىٰ بغرناطةَ سنة (٥٩٢هـ) قد ذكرَ حفصةَ الركونية، وخاطبَها عندما فرَّ إلى مرسية وتركها بغرناطة فقال:

أحـنُّ إلـى ديـارك يـا حيَـاتـي ... وأَبْصَـرَ ذو هـدىً سَيْـل الظُّبَـاتِ
وأهـوىٰ أنْ أعـودَ إليـك لكـنْ ... خفـوقُ القلـب عـاقَ عـن التفـاتِ =

عَـتْـبٌ وسُـخْـرِيَـةٌ:

* ذكرتُ لكَ في ثنايا ترجمةِ ضيفتنا حفصةَ ابنةِ الحاج الركونية ، بأنَّ بعضَ أخبارها تشْبِهُ أخبارَ ولّادة بنة المُستكفي ، فإذا كانت ولّادة قد ظَهَر لها منَ الوزيرِ ابنِ زيدون مَيْلٌ إلى جاريتها السَّوداء ، ومن ثَمَّ عيَّرتْ ابنَ زيدون بذلك في أبياتٍ كتبتها له ، فإنَّ حفْصَةَ بنتَ الحاج الركونية قد بلغَها أنَّ الوزيرَ أبا جعفر بن سُعيد قد عَلِقَ بجاريةٍ سوداء ، وأنَّه قد أقامَ معها أياماً بظاهرِ غَرناطةَ ، وربّما في بستانِ حور مؤمِّل أو في قبّةِ الكمامة ، هنالك كَتَبَتْ له تعتبُ عليه ، وتسخرُ به وبهذهِ المعشوقةِ الدَّخيلة ، وكانت كلماتُها ترشحُ بالغيرةِ والسُّخرية:

يَـا أَظْـرفَ النَّـاسِ قَبْـل حَـالٍ ... أَوْقَعَـــهُ نَحـــوه القَـــدَرْ
عَشِقْــتَ ســوداءَ مثْــلَ ليــلٍ ... بـدائِـعَ الحُسْـن عنهـا قَـدْ سَتَـرْ
لا يظهــرُ البِشْــر فــي دُجَـاهـا ... كــلّا ولا يبصــرُ الخَفَــرْ
بــاللهِ قُــلْ لــي وأنــتَ أدرىٰ ... بكــلِّ مَــنْ هَــامَ فــي الصُّــورْ
مَــنْ الــذي هــامَ فــي جنَــان ... لا نَــوْرَ فيهــا ولا زَهَــرْ[(١)]

* وتصلُ أبياتها الوزير ، فيكتبُ إليها بأظرفِ اعتذارِ ، ويخبرها بأنَّ مكانَها ومكانتَها ما تزالُ هيَ هيَ أو قريبةٌ منْ هي:

لَا حُكْــمَ إلّا لآمِــرٍ نَــاهٍ ... لَــهُ مــنْ ذَنْبِــهِ يُعْتَــذَرْ
لَــه مُحيَّــا بِــهِ حَيَــاتــي ... أعيــذُ مَجْــلاَه بــالسُّــوَرْ

= وكيـفَ إلـىٰ جنـابِـكِ مـنْ سبيـلٍ ... وليــس يحلّــه إلا عُــداتــي
(الإحاطة ١/ ٤٨٥) بتصرف يسير.

(١) الإحاطة (١/ ٤٩٢) ، ونقلَ لسانُ الدّين بنُ الخطيب عن أبي الحَسَن بن سُعيد أنّه قالَ: وباللهِ ما أبدعَ ما كتبتْ به إليه وقد بلغَها أنّه علِقَ بجاريةٍ سَوداءَ أُرسلتْ له منْ بعضِ القصور ، فاعتكفَ معها أياماً ولياليَ بظاهرِ غرناطة ، في ظلّ ممدود ، وطيبِ هوىً مقصور وممدود. (الإحاطة ١/ ٤٩٢).

كضَحْـوَةِ العِيْـدِ فـي ابتِهـاجٍ   وطَلْعَـةِ الشَّمْـسِ والقَمَـرْ
بسَعْـدِه لـم أَمِـلْ إليـهِ   إلاّ طـريفـاً لَـهُ خَبَـرْ
عَدِمْتُ صبْحي فاسودَّ عشْقي   وانعَكَـسَ الفِكْـرُ والنَّظَـرْ
إنْ لـم تَلُـحْ يـا نعـمُ رُوحـي   فكيـفَ لا تَفْسُـدُ الفِكَـرْ[1]

* وغفرتْ حفصةُ للوزيرِ أبي جعفر هذه الزّلّة ، وعادت إلى ما كانا عليه منْ مطارحاتٍ فاتنةٍ ، وأشعارٍ راقصةٍ في ميدانِ الغَزَل والظَّرف .

ذِكْـرَيَـاتٌ أَلِـيْمَـةٌ :

* في الصَّفَحاتِ السَّابقات عشْنَا ساعاتٍ مع حفصةَ الرّكونيةِ في مرحِها وظرفِها ، وأدبِها وخفّةِ روحِها ، عشْنا معَها ومعَ الوزيرِ الأنيقِ أبي جعفر بن سُعيد في حياتهما المندّاة برحيقِ الحبِّ ، والموشّاة بعبيرِ الأدبِ .

* وكما ألمحتُ لك في قصَّة حياةِ أبي جعفر بأنَّه قُتِل ، وكان الذي قَتَله عثمانُ بنُ عبد المؤمن مَلك غَرناطة ، وكان أبو جعفر قد احتلَّ حنايا قَلْب حفصةَ وتمكَّن من عَرشِ قلبها ، إذ وجدَ المكانَ خالياً فتمكَّنَ منه .

* وأضحىٰ قلبُ حفصةَ فارغاً بعد مَقْتلِ الوزيرِ أبي جعفر ، ولكنَّ مكانتَه لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يرقىٰ إليها ، وإن كان ملكُ غرناطةَ الذي ظَنَّ أنَّه يستطيعُ أنْ يتربَّع علىٰ عرش قلبِ حفْصَة ، ولكنْ أنىٰ له ذلك وللقلُوب شَواهد؟!

* لقد تحوَّلَتْ بسماتُ حفصةَ وأغاريدُها إلى ذكرياتٍ مؤلمةٍ حالكةٍ ، وأطيافٌ تسبحُ في ظنونِها التي أخذتْ تتلاشىٰ ، ولكنَّها لا تستطيعُ أنْ تبوحَ بما عَرَاهَا ، وهي عندما تتذكّرُ ما كانَ منْ مسرّاتٍ مع أبي جعفر فإنَّها تنتفضُ كالعصفُور بلَّلَهُ القَطْرُ.

---

(١) الإحاطة (١/ ٤٩٢ و٤٩٣).

* إنَّ عاطفتَها ولا شكَّ متأججةٌ بنارِ الحزنِ علىٰ الوزيرِ المقتولِ ، وإنَّ لسانها لا يستطيعُ أنْ يبوحَ برثائِه ، فالملوكُ لا تُعَانَدُ ، والرِّجالُ أضعفُ عنْ مواجهتهم فَضْلاً عنِ النِّساء اللواتي لم يألفْنَ إلاّ الخدور.

* ولكنْ لا بدَّ للمصدورِ والمحزونِ منْ نَفَثاتٍ يرسلُها ، لعلَّها تخفِّفُ ما بهِ ، فالعينُ تفيضُ عند امتلائِها.

* ولما عُدْنَا إلىٰ المصادر نجوسُ خلالَها أخبارَ حفصةَ الركونيةِ ، لعلَّنا نقعُ علىٰ شيءٍ من مراثيها في أبي جعفر ، أو ذكرياتها المريرة ، لم نجدْ إلا لمحات قد باحَتْ بها حفصة. فقد أوردَ ابنُ سُعيد والمقّري بيتَيْن يُظَنُّ أنَّهما في رثاءِ الوزير أبي جعفر ، وأنَّ حفصةَ قد قالتهما في رثائه:

ولَوْ لَمْ يكُنْ نَجْماً لما كان نَاظِري ... وقَدْ غِبْتَ عَنْه مظلماً بَعْد نُورِه
سَلامٌ علىٰ تِلكَ المحَاسِنِ منْ شَجٍ ... تَنَاءَتْ بنُعْمَاهُ وطيْبِ سرورِهِ[1]

* وفي نغماتٍ أخرىٰ حزينة ، وفي ذكرياتٍ أليمة ، تودُّ حفصةُ أنْ يسألَ النَّاسُ البارقَ الخَفَّاقَ في هدوءِ الليل ما حلَّ بالحبيبِ الرَّاحلِ الذي خَلَّفَ بقلبها الخفقانَ ، وبعينيها الدُّموعَ الغزيرةَ فتقول:

سَلُوا البارقَ[2] الخفَّاقَ والليلُ سَاكِنٌ ... أظلُّ بأَحْبَابِي يذكّرُوني وَهْنَا
لَعمري لَقد أهدىٰ لقَلْبِي خفقةً ... وأمطرني مُنْهَلٌّ عارضِه الجَفْنَا[3]

* وقد ظلت حفصةُ بنتُ الحاج الركونيّة محافظةً علىٰ وداد أبي جعفر بعد مقتلهِ ، ويبدو لي أنَّها قد رثَتْه بمراثٍ كثيرةٍ لم يرَ مثلها ، ويبدو أنَّ منْ بعضِ أسبابِ قَتْل أبي سُعيد كان منْ أجلِها ، لذلك لم تتمكّنْ من نَشْرِها ، لئلا يصلَ خبرُها إلىٰ الملكِ القاتلِ ، وظلَّتْ هي مدّة طويلة وهي

---

(١) المغرب (٢/ ١٣٩) ونفح الطيب (٥/ ٣٠٩) وشاعرات العرب (ص ٧٥).
(٢) «البارقُ»: سَحَاب ذو بَرق والسَّحابة بارقة. (مختار الصّحاح) مادة برق.
(٣) انظر: المغرب (٢/ ١٣٩) ، ونفح الطيب (٥/ ٣٠٩) وشاعرات العرب (ص ٧٥) ، ومعجم الأدباء (١٠/ ٢٢١).

حزينةٌ ، لا تلتفتُ إلىٰ المسرّاتِ ، ولا تألفُ الاجتماعاتِ حتى عيل صبرُها ، ونفثتْ عن أبياتٍ تدعو الله منْ خلالها أنْ يرحمَ أبا جعفر ، كما ترجو الله أن يرحمَ كلَّ مَنْ يبكيه فتقول:

هَدَّدُوني منْ أجْلِ لبْسَ الحِدَاد لحبيبٍ أَرْدَوْه لي بالحِدَادِ
رحمَ اللهُ مَنْ يجودُ بِدَمْعٍ أو ينوحُ علىٰ قتيلِ الأعادي
وسَقَتْه بمثلِ جُودِ يَديه حيثُ أَضْحىٰ منَ البلادِ الغَوادي[1]

* وفي مراكشَ كان لقاءُ حفصةَ مع الموتِ ، ففي سنة (٥٨٦هـ)[2] دعا حفصةُ داعي المنون ، فلبَّتْ وهي ذات شجون ، بعد أنْ تركَتْ كلمات خفّاقة في دنيا الأشواقِ ، ودنيا العشّاق ، وتركت أثراً لطيفاً في أدب المرأة العربيّة والأندلسيّة ، فرحمها الله وأحسنَ نُزُلَها.

* * *

(١) الإحاطة (١/ ٢٢٠) قال لسان الدين بن الخطيب: ولما بلغ حفصة قتله ، لبست الحداد ، وجهرت بالحزن ، فتوعدت بالقتل ، فقالت في ذلك: هددوني من أجل الأبيات ولم ينتفع بعد بها ، ثم لحقت به بعد قليل. (الإحاطة ١/ ٢٢٠).
ولله در من رثاه فقال:
إذا قبُحَ البكاءُ على قتيلٍ رأيتُ بكاءَك الحسنَ الجميلا
(المغرب ٢/ ١١٢).

(٢) قال صاحب الإحاطة: توفيت بحضرة مراكش في آخر سنة ثمانين أو إحدى وثمانين وخمسمئة (الإحاطة ١/ ٤٩٤).

حفصة بنت حمدون

* شاعرة ، فاضلة ، مكثرة من أفانين الشعر وألوانه .
* أديبة ، عالمة ، لها مكانة أثيرة في فن الكلمة ، وأدائها الساحر .
* من أوائل النسوة الأندلسيات اللاتي قلن الغزل ، وأبدعن في نظمه .

حفصة بنت حمدون

فَخْرُ بَلَدِهَا:

* امرأة أديبةٌ شاعرةٌ منْ نسوةِ القرنِ الرَّابع الهجريّ ، عاشَتْ في الأندلسِ ، وافتخرَ بها بلدُها ، إذ كانتْ شاعرةً ذات ملكةٍ خصْبَةٍ ، وفنٍّ رفيعٍ في النَّظْم ، ناهيك بأدبها المرموق.

* ففي كِتابه «المُغْرب في حُلَى المَغْرِب» ذكرَ ابنُ سعيد المغربيّ أنَّ بلدها يفخرُ بها(١).

* ولا غرابةَ أنْ تفخرَ مدينةٌ بامرأةٍ أديبةٍ تعتبرُ إحدى نوابغِ النِّساء في عَصْرِها.

* أمّا البلدُ الذي تنتسبُ إليه هذه المرأةُ ، فهو وادٍ خصيبٌ جميلٌ منْ بلدانِ الأندلس ، يُدعىٰ وادي الحِجارة(٢) ، وهو بَلدٌ لمعَ فيه عددٌ منَ الأماثِلِ والأفاضل والأعيان، وهم ينسبونَ إلى هذا الوادي فيقال: حِجاريّ.

* ووادي الحجارة منْ أقربِ المدن إلى طُلَيْطلة(٣) ، وما أدراك ما طُلَيطلة؟!

---

(١) انظر: المُغرب في حُلىٰ المغرب لابن سعيد (٢/ ٣٧).

(٢) «وادي الحِجَارة»: وادي الحِجارة هي مدينةٌ منْ مُدنِ الأَنْدلس القديمةِ ، ما تزالُ قائمةً حتّى اليوم ، وهي تقعُ شِمال غربي مدريد علىٰ مقربةٍ منها.

(٣) «طُلَيْطُلَة»: بضمّ الطّاءين وفتح اللامين؛ مدينةٌ كبيرةٌ ذاتُ خصائصَ محمودةٍ بالأندلسِ ، يتَّصل عملُها بعملِ وادي الحجارة منْ أعمالِ الأندلس.

(معجم البلدان ٤/ ٣٩).=

* ويبدو لنا أنَّ أديبتَنا اليوم قد تأثَّرتْ بجمال طُليطلة ، ووادِيها الجميل ، إذْ إنَّ طُليطلةَ منْ أعظم كُوَرِ الأندلس ، وهي منْ متوسّطِ الأندلس ؛ ومعنىْ كلمة طُليطلة بلغةِ الرُّوم «أنتَ فارحٌ»، وتسمّى طليلطلة : مدينةَ الأملاك أو الملوك ، لأنَّها فيما يُقال مَلَكَها اثنان وسبعونَ إنساناً ، ودخَلها سُليمان بن داود ـ عليهما السَّلام ـ ، وعيسى ابن مريم ، وذو القرنين ؛ وفيها وَجَدَ طارقُ بنُ زياد مائدةَ سُليمان ـ عليه السَّلام ـ ووجدَ بها ذخائرَ عظيمة(١) .

* وفي طُليطلة بساتينُ محدقةٌ ، وأنهارٌ مخترقةٌ ، ورياضٌ وجِنَانٌ وفواكهُ حِسَان ، مختلفةُ الطُّعومِ والألوان.

* وطليطلةُ منْ أجَلِّ مُدنِ الأندلسِ قَدْراً ، وأكثرها خيراً ، ومن طيْبِ تربتها ، ولطافةِ هوائها تبقىٰ الغلّات في مطَاميرِها سبعين سنة لا تتغيّر(٢)!!

---

(١) قالَ القزوينيُّ : وكانَ بطُليطلة بيتُ الملوكِ ، كلّ مَنْ ماتَ منْ ملوكها تركَ تَاجَه في ذلكَ البيتِ ، وكُتِبَ عليه عُمْر صاحبهِ ومدة ولايته.
وكان بها بيتُ آخرِ مَنْ مَلَك مِنْ ملوكها قفل عليه قفْلاً ، ووصّىٰ لمن يكون بَعْده ألاّ يفتحَ ذلك البيت ، حتى انتهىٰ المُلك إلى رجلٍ اسمه «لذريق» دخلَ البيتَ الأوّل، فوجدَ فيه أربعةً وعشرين تاجاً على عددِ ملوكها ووجدَ على بابِ البيت الآخرِ أربعةً وعشرين قفْلاً، ظنَّ أنَّ فيه مالاً، فأرادَ فتحه، فاجتمعتِ الأساقفةُ والشّمامِسَةُ وعظَّمُوا ذلك ، وسألُوه أنْ يسلكَ مَسْلكَ المَلوكِ الذين كانوا قَبْله ، فأبىٰ إلا فتحه ، فلما فتحه إذا في البيتِ صُوَرُ العربِ على خيولهم بعمائمهم ونعالهم ، وإذا فيه مكتوبٌ : الملكُ فينا ما دامَ هذا البيت مقْفَلاً ، فإذا فُتِحَ فقد ذهَبَ المُلْك! فندمَ لَذْريق علىٰ فَتْح الباب ، فدخلتِ العربُ بلدهم في السَّنةِ التي فُتِحَ فيها البابُ في أيّام الوليد بن عبد الملك. (آثار العباد وأخبار العباد ص ٥٤٦ و٥٤٧).
(٢) آثار البلاد وأخبار العباد (ص ٥٤٥ و٥٤٦) ، هذا وما زالتْ طليطلة بيدِ المسلمين إلى أن استولىٰ عليها الفرنج في شهور سنة (٤٧٧هـ).

* وقال ابنُ بصَّال صاحبِ كتاب «الفلاحة»: ورأيتُ فيها الشَّجرةَ تكونُ فيها أنواع منَ الثَّمر؛ وذكرَ الحِجاريُّ أنَّ فيها صِنْفاً من التِّينِ: النّصفُ أخضر، والنّصفُ أبيض في نهايةِ الحلاوة[1].

* وقال ابنُ وكيل في طُليطلة:

زَادَتْ طُلَيطلةٌ علىٰ ما حدَّثُوا بَلَدٌ عليهِ نَضْرةٌ ونَعيمُ
اللهُ زيَّنَهُ فوشَّح خَصْرَه نَهْرُ المجرّةِ والغُصُون نُجومُ[2]

* إذاً فَمَن هذهِ المرأةُ الأندلسيّة التي شُغِفَتْ بطبيعةِ بلدها وبطُليطلة؟!

* في مفتتح ترجمتها لها، تقولُ زينب يُوسُف فواز العَامليّة: كانت فاضلة روضُ فَضْلِها أريج، وحدائقُ معلوماتِها وأدبها بهيج، وشاعرةٌ رقَّتْ وكَثُرَ اختراعها للمعاني وإبداعها، تسترقُّ القلوب بألفاظِها الزَّاهرة، وتسْكرُ العقول بمعانيها السَّاحرة، تنظمُ فتأتي بكلِّ عجيبة، وتشنِّفُ الأسماع بكلِّ غريبة، وتنثرُ فتفتضُّ أبكارَ الدَّقائق بنظرِها الثَّاقب، وتجلي غياهب المُشْكلات بفكْرِها الصَّائب، هي من وادي الحجارة بالأندلس[3].

* وهذه المرأةُ الشَّاعرةُ الفاضلةُ هي حفْصَةُ بنتُ حمدون الحِجاريةُ الأندلسيَّة[4]، إحدىٰ فواتنِ الشَّاعرات كلمةً ومعنى وبناءً ونظماً، وإحدىٰ الشَّاعراتِ اللواتي فُتِنَّ بجمالِ الأندلس وسحْر طبيعتها وجمالِ

---

(١) المغرب في حلى المغرب (٢/ ٩).
(٢) المصدر السابق نفسه.
(٣) الدُّرُّ المنثور في طبقات ربّات الخدور (ص ١٦٥).
(٤) المُغرب في حلى المغرب (٢/ ٣٧ و٣٨)، ونفح الطيب (٦/ ٦٥ و٦٦) ونزهة الجلساء (ص٣٦)، ومعجم الأديبات الشّواعر (ص ١٨٦)، والدّرّ المنثور (ص ١٦٥)، وأعلام النّساء (١/ ٢٧٢).

خصائصها[١]، ولطافَتها، لذا كانت ابنةُ حمدون[٢] ممن استرعتِ الأنظارَ في عَصْرها ومصْرِها.

حفْصَةُ وَسِحْرُ الكَلِمَات:

* تروي المصادرُ التي تحدَّثَتْ عن حفصةَ بنتِ حمدون بأنَّها شاعرةٌ مكثرةٌ من أفانين الشِّعر وألوانِه، ولهذا كانت فخرَ النِّساء في بلدها، بل إنَّ بلدها يفخرُ بها لمكانتها في سدّة الأدبِ. ولا ريبَ في أنَّ هذا الفخر نابعٌ عن مقدرةِ حفصةَ الأدبيّةِ، ومنزلتها في ذِرْوة الشِّعر.

* ولكنّنا نُفاجأُ ـ بعد هذا المديح كلّه ـ بأنَّ المصادر لم تحتفظْ في ذاكرتها إلاّ بشذراتٍ متفرّقةٍ من سِحْر كلمات حفْصَة وعبير نفحاتها، علىٰ أنّنا نلمحُ في شعرِها ومضاتٍ لطيفاتٍ تشيرُ إلىٰ مقدرتها علىٰ إنشاءِ الغَزل في قوالبَ سحريةٍ فاتنةٍ جميلةٍ، وعلىٰ الرغمِ منْ أنَّ المصادرَ لم تذكرْ من غزلها سوىٰ بيتَيْن، إلاّ أنّهما يدلان علىٰ شخصيّتها التي تبدو كامرأةٍ تبدي الدّلَّ والدَّلال والتّيهَ والجمالَ علىٰ مَنْ يدلُّ عليها أو يتيه؛ بل تذكرُ

---

(١) يقولُ لِسانُ الدِّين بنُ الخطيب في خَصَائِص الأندلس: خصَّ اللهُ تعالىٰ بلادَ الأندلس منَ الرّبيع، وغدقِ السّقيا، ولذاذةِ الأقوات، وفراهةِ الحيوان، وكثرةِ السّلاح، وصحةِ الهواء، وابيضاضِ ألوان الإنسان، ونُبلِ الأذْهان، وفنونِ الصَّنائع، وشهامةِ الطّباع، ونفوذِ الإدراك، وإحكامِ التّمدّن والاعتمارِ، بما حُرِمَه الكثيرُ منَ الأقطار ممّا سواها.

(٢) كانَ منْ شيوعِ اللّغة الرُّومانسية في الأندلس سببٌ مباشرٌ في تأثُّر أسماءِ الرجالِ بها، فليستِ الواو والنّون التي تنتهي بها بعضُ أسماءِ الرّجال إلاّ مقطعاً لاتينياً يفيدُ التّكبير، مثل: زَيدون، عَبدون، وهبون، خيرون، حمدون، حزمُون، بل إنَّ هذه الصّيغة الإسبانية لم تكنْ وقْفاً علىٰ أسماءِ الرّجال دونَ النِّساء، فقد وُجِدَ بين النّساء من اسمها «نَزْهُون» مثل نزهون القلاعية الشّاعرة، بل إنَّ الاسمَ بصيغتِه الإسبانية قد أنّثَ بإضافةِ تاء التّأنيث، فقيل حمدونَة، مثل حمدونة بنت زياد الشّاعرة التي كانت تُعرف باسم حمدة حيناً وحمدونة حيناً آخر. واقرأ سيرة حمدة ونزهون في هذا الكتاب.

بفخرِ المرأة الجميلة أنّها متفرّدة في عالم الجمالِ والجميلات ، وفي هذا تقولُ حفصة :

لـي حبيـبٌ لا ينْثَنـي بعتـابٍ   وَإذا مـا تـركْتُـه زادَ تِيْهـا
قالَ لي هل رأيتِ لي من شبيه   قُلتُ أيضاً وهل ترىٰ لي شبيها[1]

* وعلىٰ الرغمِ منْ أنَّ حفصَة كانتْ معاصرةً لعائشةَ بنتِ أحمد القُرطبيّة[2] الشَّهيرة في عالَم النِّساء الأندلسيّاتِ الشّاعرات الأديباتِ ، إلاّ

---

(١) انظر : المغرب في حلى المغرب (٢/٣٨) ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (٦/ ٦٥) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ١٨٦) .

(٢) عائِشَةُ بنتُ أحمد القرطبيّة منْ نساءِ المئة الرَّابعة ، ذكرَ ابنُ حيَّان في «المقتبس» قال : لم يكنْ في جَزَائر الأندلسِ في زمَانِها مَنْ يَعْدلها فَهماً وعلْماً وأدباً وشِعراً وفصاحةً وعفّةً وجزالةً وحصافةً ، تمدحُ ملوكَ الأندلسِ ، وتخاطبُهم بما يعرضُ لها منْ حاجةٍ ، فتبلغُ ببيانِها حيثُ لا يبلغُه كثيرٌ منَ أدباءِ وقْتِها ، ولا تردُّ شفاعتها ، وكانت حسنةَ الخَطِّ تكتبُ المصاحِفَ ، وماتَتْ سَنَة (٤٤٠هـ) ولم تتزوجْ .

وقال في «المُغرب» : إنّها مِنْ عجائبِ زمَانِها ، وغرائبِ أوانها ، دخلتْ علىٰ المظفّر بنِ المنصورِ بنِ أبي عامر ، وبين يديه ولَدٌ له ، فارتجلتْ سبعةَ أبياتٍ أوّلُها :

أَرَاكَ اللهُ فيـهِ مـا تـريـدُ   ولا بـرحـتْ معـاليـهِ تـزيـدُ
فقـد دلّـتْ مخـايلـه علـىٰ مـا   تـؤمّلـه وطـالُعـه السَّعيـد

* وخطبَها بعضُ الشُّعراء ممنْ لم ترضَه فكتبتْ إليه :

أَنَـا لبـوةٌ لكنّنـي لا أَرتضـي   نفسي مُنَاخاً طول دهري منْ أَحد
ولـو أننـي أختـارُ ذلـك لـم أجـبْ   كلبـاً وكـم غلَّقْـتُ سمعـي عـنْ أَسَـد

* قال ابنُ بشكوال في «الصِّلة» : كانتْ حسنةَ الخط ، تكتبُ المصاحف والدّفاترَ ، وتجمعُ الكتبَ وتعتني بالعِلْم ، ولها خزانةُ علْم كبيرةٌ حسنَة ، ولها غنىً وثروة تعينُها علىٰ المروءةِ ، وماتتْ عذراء لم تُنْكح قطّ ، ورأيتُ لها شعراً إلىٰ بعضِ الرُّؤساء أوّلُه :

لـولا الـدُّمـوعُ لمـا خَشيـتُ عَـذُولا   فهـي التـي جَعَلَـتْ إليـك سبيـلا

وتصرّفَتْ فيه أحْسَنَ تصرُّف ، ومحاسنُها كثيرة . =

أنَّه قد شَهِدَ لحفصةَ عددٌ منَ الأماثلِ بمقدرتها الشّعرية وبعلمِها وأدبها ، ومنهم ابنُ الأَبّارِ الذي وَصَفها فقال عنها: إنَّها كانت أديبةً عالمةً شاعِرة[1].

* إنَّ شهادةَ ابنِ الأبّار بحفصَة شهادةٌ لها مكانتها في عالَم الأديباتِ الأندلسيّات ، ويشهدُ لها بشاعريّتها أيضاً ، ذلك الشِّعْرُ اللطيفُ الخفيفُ الذي قالَتْه في الوحْشَة ، وأيّ وحشة؟ إنّها وحشتُها المتمادية لأحبابِها وأحبّتها ، وكذلك تلك الليلة التي كان الوداعُ لهم فيها ، فأصبحتْ كسيرةَ الفؤادِ من فراقِ الأحبابِ ، وتلك سِحْر الكلمات عند حفصة إذ تقول:

يـــا وحْشَتـــي لأحبَّتـــي ... يـــا وحشـــةً مُتَمـــادِيَـــه
يـــا لَيْلَـــةً ودَّعْتُهـــم ... يـــا ليلـــةً هـــيَ مـــا هِيَـــه[2]

* وسحرُ الكلماتِ عند حفصة ابنةِ حمدون لم ينحصرْ في الغَزَلِ أو فراقِ الأحباب ، وإنّما كانتْ تعرفُ كيفَ تصيدُ الأَلفاظَ وتنظمُها في عِقْدٍ شعري جميل ، فها هي تذمُّ عبيدَها متضجّرةً من جَهْلِ بعضِهم ، وشاكيةً من سلوكِ بعضهم الآخر وكيدهم وخبثِهم ، وفي هذا تنشدُ مظهرةً مقدرتها البديعيّة في الطِّباق وما شابَه ذلك:

يـا ربِّ إنّـي مـنْ عَبيـدي عَلـىٰ ... جَمْرِ الغَضا ما فيهم منْ نَجيب

= وعائشةُ هذه هي ابنةُ أخي الشّاعر الطَّبيب محمّد بن أحمد بن قادم ، وكانت متعدّدةَ المعارف خِطاطة. قال ابنُ حيَّان: وتوفيت سنة أربعمئة.
(الصّلة ٢/ ٦٩٢ و٦٩٣) ترجمة رقم (١٥٣١) و(نفح الطيب ٦/ ٧٠) مع الجمع والتصرف.

(١) نفح الطيب (٦/ ٦٦).
(٢) المصدر السابق.

إمّـــا جهـــولٌ أَبْلَـــهٌ متْعَـــبٌ   أو فَطِـنٌ مـنْ كيـدهِ لا يُجيـب[(١)]

* وهذان البيتان يدلّان على أنَّ حفصةَ ابنة حمدون كانت من ذواتِ الثَّراءِ والثّروةِ ، وذلك لامتلاكها العبيد على اختلافِ ألوانِهم وأشكالهم وطبعائهم.

حَفْصَـةُ وابـنُ جـميـل:

* لعلَّ أكثر ما يستوقفُنا في حياةِ حفصةَ بنتِ حمدون تلك الحياة الأدبيّة المطرَّزة بالغزلِ الرّقيق ، والموشّاة بالكلامِ اللطيف الذي يعتبرُ بحقّ من ذُرا غَزل النِّساء الأندلسيّات في عَصرها؛ ولعلَّ في أغزالِها أيضاً - والتي لم يصلْنَا منها سوىٰ النّزر القليل - ما يوحي إلىٰ مكانتها الأدبيّة والاجتماعيّة في بلدها ، ناهيك بتمكّنها من ناصيةِ البلاغةِ والبيان.

* ففي إحدىٰ مدائحها لأحدِ الأماثلِ ويُدعى «ابنُ جميل» ، يظهرُ إبداعها في نَظْم الشِّعر ، واختراعها للمعاني الأنيقة الرّشيقة ، فمن خلالِ مدحها تنبثقُ عاطفتها تجاهَ ابن جميل ، فقد أضفْت علىٰ غزلها مسحةً لطيفةً من تلميحاتها اللطيفةِ التي تختفي ميولها منْ ورائها نحو هذا الرَّجل؛ ولعلَّ الأبيات التَّالية تشهدُ لها بِسحْرِ البراعةِ ، وبراعةِ السِّحرِ ، وذكاءِ التّلميح حيثُ تقول:

رأىٰ ابنُ جميلٍ أنْ يرىٰ الدَّهْر مُجْملاً   فكُلُّ الورىٰ قد عمَّهم سَيْبُ نِعْمَتِهِ
له خُلُقٌ كالخَمْرِ بَعد امتزاجِها   وحُسْنٌ فما أحلاه منْ حينِ خِلْقَتِهِ
بوجهٍ كمثلِ الشَّمْس يدعو ببشرِه   عُيـونـاً ويُعْشيْهـا بـإفـراطِ هَيْبَتِـه[(٢)]

* ولعلّنـا مـنْ خـلالِ هـذه الأبيـات نلمـحُ أنَّ حفصـةَ ابنـةَ حمـدون

---

(١) المغرب (٢/ ٣٨) ، ونفح الطيب (٦/ ٦٦) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص١٨٦).

(٢) نفح الطيب (٦/ ٦٥) ومعجم الأديبات الشواعر (ص١٨٦) ، وأعلام النساء (١/ ٢٧٢).

الحِجاريّة ، هي منْ أوائلِ النّسوةِ الأندلسيّات اللاتي قُلْنَ الغَزَلَ ، وأبدعْنَ في نظمِه ، وانتقينَ ألفاظَه الحِسَان ، ونضدنَ قوافيه الزَّاهية ، ومعانيه العِذَاب؛ ولعلَّ حفصةَ الحِجاريةَ هي منْ أوائلِ الأندلسيّات اللواتي فتحنَ بابَ الغَزل ، فدلفتِ النّسوةُ الأندلسيّاتُ منْ بعدها كيما يَصُلْنَ ويَجُلْن في هذا الميدانِ الأنيقِ الفَيْنان.

* لقد امتدتْ عظمةُ المرأةِ الأندلسيّة حتى جاوزتْ أعتابَ القرنِ الرّابع الهجري عَصْر حفصةَ بنتِ حمدون ، وفي خلالِ ذلك الأمدِ الطَّويل ، كانت المرأةُ مضربَ المثلِ في جلالِ الخُلقِ ، وقوّة النَّفس ، ووفرةِ العِلْم ، والبعدِ عن هناتِ الاجتماع ، وعلىٰ الرغمِ من مسايرتها للرَّجل في طَلَبِ العِلْم والبلوغِ في تحصيلِهِ ، لا تجدُ فيها زهواً ولا غروراً ، ولا اندفاعاً فيمَا ليس من حقّها منْ شؤونِ الحياة[1] .

* إنَّ حفصةَ بنتَ حمدون الحِجاريّة بارعةٌ في صوغِ شعْرِها ، عذبةُ الإيقاع في كلماتها ، رقيقةُ اللفظِ ، وهي وإنْ لم تحظَ بشهرةٍ واسعةٍ لقلّةِ ما وصَل إلينا منْ شِعْرها ، إلا أنَّ صدىٰ أشعارِها وأغْزالِها في عَصْرهَا ما تزالُ تحملُ مكانتَها في عالمَ النِّساء الأندلسيّات ، وفي عالَم المرأةِ الأندلسيّةِ الأديبةِ الخالدةِ في كُلّ العُصُور.

* * *

(١) المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها (٣/ ١٢٩) بتصرف يسير جداً.

حَمْدة بنت زياد

* شاعرة ، أديبة ، صادحة في سماء الأدب والبلاغة .
* لُقّبت بخنساء المغرب لإجادتها فن الرثاء .
* عفيفة ، ذات جمال ومال مع العفاف والصون .

حَمْــدة بنت زيــاد

مِــنْ عَــرُوسِ مُــدُنِ الأَنْــدَلُــسِ:

* نعيشُ اليومَ معَ امرأةٍ شاعرةٍ أديبةٍ بارعةٍ منْ عروسِ مُدُنِ الأندلسِ ، نستمعُ ونستمتعُ بعرائسِ أشعارِها ، وعرائسِ أخبارِها ، ونجعلُها عرائسَ المَجالِسِ ، وأُنْسَ المُجَالِس ، وعيونَ الأخبارِ ، وأخبارَ العُيون ، وعِقْداً فَريداً جميلاً بينَ نساءِ الأَنْدلسِ في هذهِ الموسوعةِ الجميلةِ.

* وكما نعلمُ أنَّ عروسَ بلادِ الأندلس هي غَرناطةُ[1] ، وما أدراكَ ما غَرناطة؟! فحيثُ أدارتِ الجوزاءُ وشاحَها ، وعلَّقَ النَّجمُ أقراطَه ، عُقابُ الجزيرةِ ، وغرّةُ وجهها المنيرة ، وفيها يقولُ المقّري:

غَــرَنــاطَــةُ مَــا لَهــا نَظِيْــر   مَــا مِصْــرُ مَــا الشَّــامُ مــا العِـرَاق
مَــاهــيَ إِلّا العَــروسُ تُجْلَــىٰ   وَتِلْــكَ مــنْ جُمْلَــةِ الصَّــدَاق[2]

* فيها غزارةُ الأَنْهارِ ، وكثرةُ الأشجارِ ، وجمالُ غناءِ الأطْيارِ ، ونداوةُ نسيم الأسحارِ؛ ولله دَرُّ القَائل:

لَيــالِيْـكِ أَسْحَــارٌ وأَرضُــك جنَّــةٌ   وتُربكِ في استنْشَاقِها عَنْبَرٌ وَرْدُ

* ولما ألمَّ الرَّحَالُة ابنُ بطوطةَ في رحلتِهِ بدخولهِ بلادَ الأندلسِ قال: فوصلتُ إلى بلادِ الأندلسِ ـ حَرسَها اللهُ تعالى ـ حيثُ الأَجْرُ موفورٌ للسَّاكنِ،

---

(١) «غرناطة»: نَـقَل ياقوتُ أنَّ معنى غَرناطة: رمّانة بلسان عجم الأندلس ، سُمّي البلدُ لحسنهِ بذلك ، قال الأنصاريّ: وهي أقدمُ مدنِ كورة إلبيرة منْ أعمالِ الأندلس وأعظمِها وأحصنِها (معجم البلدان ٤/ ١٩٥).

(٢) نفح الطيب (١/ ١٤٥).

والثَّواب مذخورٌ للمقيم والظَّاعِنِ ، . . . . . إلى أنْ قال عند ذِكْره غَرناطةَ ما نصُّه: قاعدةُ بلادِ الأندلسِ ، وعروسُ مدنها؛ وخَارجُها لا نظيرَ له في الدُّنيا ، وهو مسيرةُ أربعينَ ميلاً يخترقُه نَهْر شِنِّيل[1] المشهور ، وسواهُ منَ الأَنْهارِ الكثيرةِ ، والبساتينِ الجليلةِ ، والجنَّاتِ والرّياضِ والقصورِ، والكروم محدقةٌ بها منْ كلِّ جهةٍ، ومن عجيبِ مواضعها عين الدَّمع، وهو جَبَلٌ فيه الرِّياضُ والبَساتينُ لا مثل له بسواها[2].

* وغَرناطةُ منْ أَحْسنِ بلادِ الأندلس ، وتسمّى بدمشق[3] الأندلسِ

---

(١) لهذا النّهر مسَاحةٌ واسعةٌ في أشعارِ الأندلسيّين ، وفيه يقولُ ابنُ سُعَيد مؤلّف كتاب «المغرب»:

كـأنَّمـا النَّهـرُ صَفْحـةٌ كُتِبَـتْ ... أسطـرُهَـا والنَّسيـمُ منْشِئُهـا
لمـا أبـانـتْ عـن حُسْـنِ منظـرِه ... مـالَـتْ عليـهِ الغُصـونُ تَقْـرؤهَـا

وقال فيه أيضاً:

انظـرْ لشِنّيـلٍ يُقَـابِـلُ وجهـه ... وَجْـهَ الهـلالِ كَقَـارىءٍ أَسْطَـارَهُ
لمّـا رآهُ معْصَمـاً قـد زَانَـه ... وشـيُ الصِّبـا ألقـىٰ عليـهِ سـوارَهُ

ولابنِ زَمْرك موشحةٌ لطيفةٌ في غَرناطةَ ونهرِ شنّيل مطلعُها:

نسيـمُ غَـرنـاطـةَ عَليـلْ ... لكنّـه يبـرىءُ العليـلْ
وروضُهـا زهْـرُهُ بليـل ... ورشفُـه ينقَـعُ الغَليـلْ

ومنها يذكرُ نَهْر شنّيل:

للـزّهْـر فـي عِطفْهـا رُقـوم ... تلـوحُ للعيـنِ كـالنّجـوم
وللنّـدىٰ بينهـا رسُـوم ... عقْـد النّـدى فـوقَـه نظيـم
وكـلّ وادٍ بهـا يهيـمْ ... ولـم يـزلْ حـولهَـا يحـوم
شنّيلهـا مُـدَّ منـه نِيْـل ... والشّيـن لـفّ لمستنيـل
وعيـنُ وادٍ بهـا تسيـل ... مـنْ فـوق خـدّ لـه أسيـل

(الموشحات الأندلسية ٢/ ٥٠٣ ـ ٥٠٥).

(٢) رحلة ابن بطوطة (٢/ ٧٦٨) ، بتحقيق د. علي المنتصر الكتاني ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط ٢ ١٩٧٩ م.

(٣) «دمشقُ»: دمشقُ الشَّام بَلَدٌ محاسِنُها فاتنةٌ للألباب ، أرضُها مشْرقةٌ ، ورياضُها مُورقةٌ ، ونسيمُها عَليل ، وزهرُهَا بَليل ، فهيَ: =

لأنَّها أشْبَه شيءٍ بها ، ويشقُّها نَهْرُ حَدْرة ، ويطلُّ عليها الجبَلُ المسمّى «شُلَير» الذي لا يزولُ الثّلج[1] عنْه شتاءً وصيفاً ، ويجمدُ عليه حتّى يصيرَ كالحجرِ الصَّلْد ، وفي أعلاهُ الأزاهِرُ الكثيرةُ ، وأجناسُ الأفاويه الرَّفيعة ، ونزلَ بها أهلُ دمشقَ لما جاؤُوا الأندلسَ ، لأَجْلِ الشَّبَهِ المذكورِ ، ولله دَرُّ

= مدينةٌ ليسَ يُضاهيْ حُسْنُها ... في سَائِرِ الدُّنيا ولا آفاقُها

وقد وصفَها المغاربةُ والأندلسيّون بما لذَّ وطابَ ، ورقَّ وراقَ ، ولا سيما الغوطةُ المنوطةُ بالحسنِ ، تسْحَر الألباب ، لا سيما إذا حياها النّسيم وابتكر:

أحبُّ الحمىٰ منْ أجلِ مَنْ سكنَ الحمىٰ ... حديثٌ حديثٌ في الهوَىٰ وقَديمُ

ودمشقُ لعبتْ بألبابِ الخلائِق ، ومنها بديعُ الحُسْنِ فائق ، فالغوطةُ الغَنّاء فيها تحيّي زائرها بالوردِ والشّقائق ، ومنْ بدائع ما قيل فيها هذا النّظم الرّائق:

وإذا وصفْتَ محاسنَ الدُّنيا فلا ... تبدأْ بغيرِ دمشقَ فيها أَوّلا
بلدٌ إذا أرسلتَ طرفَكَ نحوَه ... لم تلقَ إلا جنّة أو جَدْوَلا
ذا وصْفُ بعضِ صفاتِها وهي التي ... يعيا البليغُ وإنْ أجادَ وطولا

وغوطةُ دمشق شَرَكُ العقولِ ، وقيدُ الخواطرِ ، وعقَالُ النُّفوسِ ، ونزهةُ النَّواظرِ ، خَلْخَلَتِ الأَنْهارُ أَسْؤُقَ أشجارِها ، وجَاستِ المياهُ خلالَ ديارها ، وصَافحتْ أيدي النّسيم أكفَّ غدرانها ، ومُثّلتْ في باطنِها موائسُ أغصانها ، يخالُ سالكها أنَّ الشمسَ قد نَثَرتْ على أثوابهِ دنانيرَ لا يستطيعُ أنْ يقبضَها بِبَنَان ، ويتوهّم المتأمّلُ لثمراتها أنَّها أشربةٌ قد وقفتْ بغير أوانِ في كلّ أوان ، فيا لها منْ رياضٍ لم يَطُفْ بزهرِها منْ قَبل أنْ يرحلَ فقد قصَّر ، ومن غياضٍ مَنْ لم يشاهدْها في إبّانها فقد فاته منْ عمره الأكثر. ولله درُّ عائشة الباعونية التي قالتْ تصفُ دمشق:

نَزّهِ الطَّرفَ في دمشقَ ففيها ... كلّما تشتهي ومَا تختارُ
هي في الأرضِ جنّة فتأملْ ... كيف تجري من تحتها الأنهارُ

وقد أجادَ أحمد الصّافي النّجفيّ في وصفِ دمشق الشّام فقال:

الشَّامُ لؤلؤةُ البلاد ... وماسَةُ العِقْد الفَريد
نُظِمَ الوجودُ قصيدةً ... ودمشقُ ذي بيت القَصيد

(ديوان: أشعة ملونة ص ٧٢).

(١) قال القزوينيّ: وبغرناطةَ جبل الثَّلج مطلٌّ عليها ، على ذِرْوته تُوجَدُ أيّامَ الصَّيفِ صنوفُ الرَّياحين ، والرّياضُ المونقة ، وأجناسُ الأفاويه ، وضروبُ العقاقير. (آثار البلاد ص ٥٤٧).

أبي بكر محمّد بنِ شبرين السّبتيّ نزيل غَرناطةَ حيثُ يقولُ فيها:

رعَىٰ اللهُ مِنْ غَرنَاطة مُتَبوّأً يَسُرُّ حزيناً أو يجيرُ طَريْدا
تبرَّمَ منها صَاحِبي عندما رأىٰ مسارِحَها بالثَّلج عُدْنَ جَليْدا
هيَ الثَّغْرُ صَانَ اللهُ مَنْ أَهَلَتْ به وما خيرُ ثغرٍ لا يكونُ بُرودا

* وفي إحدىٰ أعمالِ غَرناطة نلتقي امرأةً صدحَتْ في سماءِ الأدبِ حيناً منَ الدَّهْر، ونَهَلَتْ منْ معينِ البلاغةِ رحيقَ الزَّهْر، هذه الأديبةُ الشَّاعرةُ الوصَّافَةُ تُدعى حَمدةُ بنتُ زياد[1] وربما تُدعى حمدونة، وربما كانتْ تُدعىٰ حَمْدة تدليلاً لأنَّها من أهلِ اللطفِ والجمالِ والأناقةِ.

* وحمدةُ بنتُ زياد بنِ تقيّ العَوفي المكُتِّب أَو المؤدِّب إِحدىٰ نساءِ الأندلسِ، وشاعراتِ العربِ اللواتي عطرنَ التَّاريخ النَّسويَّ الأندلسيَّ بل والمشرقي بشذا وَرْد الشِّعْر، وشعْرِ الوردِ والزَّهْر.

* وحمدةُ هذه منْ ساكني «وادي الحمّة» بقريةِ «بادي» من وادي آش[2]

---

(١) المطرب من أشعار أهل المغرب (ص ١١)، ونفح الطيب (٦/ ٦٧ ـ ٦٩)، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي (١٠/ ٢٧٤ ـ ٢٧٨)، والإحاطة في أخبار غرناطة (١/ ٤٨٩ و٤٩٠)، والوافي بالوفيات (١٣/ ١٦٣ ـ ١٦٥)، وبغية الملتمس (ص٥٤٥ و٥٤٦) ترجمة رقم (١٥٩٠)، ومعجم الأديبات الشواعر (ص١٩٤ ـ ١٩٦)، وأعلام النساء (١/ ٢٩٢ و٢٩٣)، وشاعرات العرب (ص ٢١٥ و٢١٦)، والدُّرُّ المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ١٧٠ و١٧١)، ونزهة الجلساء في أشعار النساء (ص ٣٧ ـ ٤٠)، والمغرب في حلى المغرب (٢/ ١٤٥ و١٤٦)، ورايات المبرزين وغايات المميزين لأبي الحسن علي بن موسى الأندلسي (ص ١٦٧ و١٦٨)، وفوات الوفيات (١/ ٢٨٩ و٢٩٠)، وغيرها كثير.

(٢) «وادي آش»: أو «وادياش»: مدينةٌ في جنوبي الأندلس [إسبانية اليوم] إلى الشرقِ من مدينة غَرناطة، وقد سقطتْ بيدِ الإسبان في سنةِ (٨٩٥ هـ)، والنّسبة إليها: وادي آشي، وقد خرجَ منها مشاهيرُ معروفون في التّاريخ.
ووادياش هي وادي آش، كانتْ في التّقسيم الإداريّ الأندلسيّ تابعةً لكورةِ =

، وهي قريةٌ بديعةٌ منْ أعمالِ غَرناطة ، وتُعرفُ هذه القرية أو الضّاحية أيضاً بـ «وادي الأشَات».

* نشأتْ حمدةُ أو حمدونة نشأةً أدبيةً ، فقد كانَ لأبيها زيادُ بنتان هما: حمدةُ وزينبُ ، وكانتَا منْ مشهوراتِ نساء الأندلسِ؛ وكان زيادٌ هذا يُعرفُ بزيادٍ المؤدِّب أو المُكتِّب ، وقد ربّىٰ ابنتَيْه: حمدة وزينب علىٰ مائدةِ العِلْم والأدبِ والعفّة ، وسقاهُما منْ رحيقِ المعرفةِ ، فكانتا منْ شهيراتِ شَواعر الأندلس ، ولكنَّ زينبُ لم تشتهرْ بينَ نساءِ الأندلس كشهرةِ أختها حمدةَ ، إلّا أنَّ اسمَها دائماً يُقْرنُ باسمِ حَمْدة ، فيقال: زينبُ أختُ حمدةَ الشَّاعرتان[1].

* ولعلَّ بيئةَ حمدةَ قد أثَّرتْ في طباعِها ، فأثْرَتِ الأدبَ بالثَّراء الشِّعريّ اللطيف الذي ينمُّ عن مشاعرِ النّسوةِ الأندلسيّات ، وينبىءُ عنْ

= إلبيرة ، [وهي غرناطة] ، وتقعُ علىٰ السَّفْح الشّمالي لجبلِ الثّلج ، الذي يُسمّىٰ أيضاً جبل شُلَير ، وكانت أيام القُوطِ مركزاً لأسقفيّةٍ تسمّى «كرسي أكْشي» ، وتقعُ على نُهير كان يُسمّى باسمها أيّامَ العرب ، وعلى مقربةٍ منها موضعُ عينِ ماءٍ معدنية يسمّيه العرب «جِلْيَانة» وقد اشتُهرت بتفاحِها حتى كانت تسمّى: جليانة التّفّاح. (معجم البلدان ٣/ ١٣٠).

وكلّ سفح الجبلِ الذي تقومُ عليه وادي آش كان يسمّى: «سَنَد» ، وعندما قامَ محمدُ بنُ نَصْر الأحمر بإنشاءِ دولته ضمَّها إليها في سنة (٦٣٠ هـ) ، وقد سقطتْ وادي آش في يَدِ فرناندو وإيزابيلا سنة (٨٩٥ هـ) الموافق (١٤٨٩ م) وكانت وادي آش منَ المدنِ الزّاهرة بمملكةِ غَرناطة الإسلاميّة؛ وهي اليوم مركزٌ إداري في مدينةِ غَرناطة على بُعْد (٥٣ كيلًا) شمالي شرقها. ووادي آش هي Guadix الحديثة.

(١) نقل لسانُ الدّين بنُ الخطيب عن أبي الحسنِ بنِ سُعيد في حَمدةَ وأختها زينبَ قوله: حمدةُ وأختها زينبُ: شاعرتان أديبتان منْ أهلِ الجمَالِ والمالِ والمعارفِ والصَّون ، إلا أنَّ حبَّ الأدب كان يحملهما علىٰ مخالطة أهلهِ مع صيانةٍ مشهورة ، ونزَاهةٍ موثوقٍ بها. (الإحاطة ١/ ٤٩٠).

لطفِ أدبهنَّ ، وحسنِ مخبرهنّ وأخبارهنَّ.

* إنَّ مدينةَ وادي آش التي تُسمّى وادي الأشات ، مدينة تَسْحَرُ الألباب بجمالِها وأناقةِ بساتينها ، ورياحينها ونضرتها. قال عنها المقّري: وهي مدينةٌ جليلةٌ ـ من أعمالِ غرناطة ـ قد أحدقتْ بها البساتينُ والأنْهار ، وقد خصَّ اللهُ أهلَها بالأدب وحبِّ الشِّعْر ، وفيها يقولُ: أبو الحسن بن نزار:

وَادي الأَشَاتِ يهيجُ وجْدي كُلَّما أَذْكَـرتُ مـا أَفْضَـتْ بـكَ النَّعْمـاءُ
للهِ ظلّــكَ والهجيــرُ مُسَلَّــطٌ قــد بــرَّدَتْ لفحــاتِــه الأنــداءُ
والشَّمسُ ترغبُ أنْ تفوزَ بلحظةٍ منــه فتطـرفُ طـرفَهـا الأَفْيـاءُ
والنَّهـر يبسـمُ بـالحُبَـابِ كـأَنَّـه سلْــخٌ نَضَتْــه حَيَّــةٌ رقْشَــاءُ
فَلـذاكَ تَحْـذرُهُ الغُصُـون فَميْلُهـا أَبــداً علــىٰ جَنبـاتِـهِ إِيْمـاءُ(١)

* وفي الأدبِ الأندلسيّ مقطّعاتٌ شعريةٌ راقصةٌ تكادُ منْ جمالِها تحرّكُ كوامنَ النّفوس ، وتحرّكُ أوتار القُلوب ، ومن هاتيكم المقطّعات في جمالِ الطَّبيعةِ السَّاحرةِ ، هذه الأبياتُ السَّاحرات لابن سَهْل الإشبيليّ حيث يقول:

الأرضُ قَـدْ لِبسَـتْ رداءً أَخْضَـرا والطَّـلُ ينْثُـرُ فـي رُبَـاهـا جَـوهَـرا
هاجَتْ فَخلْتُ الزَّهرَ كَافوراً بها وحسبْتُ فيها التُّربَ مسْكاً أَذْفَرا
وكـأنَّ سـوسنَهـا يصـافحُ وَرْدَهَـا ثَغْـرٌ يقبّـلُ منــه خَــدّاً أَحْمَــرا

---

(١) نفح الطّيب (١/ ١٤٥ و١٤٦). و«الهجير»: شدّة الحرّ. و«لفحاته»: لفحة النار: شدّة حرها. و«الأفياء»: جمع فيء: وهو ما كانَ شمساً فَنسخَه الظِّلُّ. والمعنى في «فتطرف طرفها الأفياء»: أنَّ الظّلَّ يردُّ عين الشَّمْس عن التّفتّح في موضعهِ ، فكأنّها طرفَتْ فأغمضت. و«الحباب»: معظم الماء. والمرادُ هنا ظهره. و«السَّلخ»: بالفتحِ: اسم ما نُزِعَ عن الشَّاة من جلدها. و«نضتْه»: نضا الثَّوب: خلعه. و«الرّقْشَاء»: الحيَّةُ المنقّطة بسواد.

وَالنَّهرُ ما بينَ الرِّياضِ تَخَالهُ سَيْفاً تعلَّق في نجادٍ أَخْضَرا
وَجَرَتْ بصفْحَتِها الرُّبا فحسبْتَها كفّاً ينمّقُ في الصَّحيفةِ أَسْطُرا
وَالطَّيرُ قد قامتْ بهِ خطباؤهُ لم تتخذْ إلاّ الأراكةَ منْبَرَا

خَنْسَاءُ المغْرِبِ وَشَاعِرَةُ الأَنْدلُسِ:

* لعلَّ لقبَ حمدةَ ابنة زياد الأندلسيّة بخنساءِ المغرب، يقودُنا إلىٰ أنَّ حمدة قد بَرَعتْ في فنِّ الرّثاء، كالخَنْساء[1] السُّلميَّة التي عُرفت بهذا الفنِّ بينَ شواعرِ العرب. إلاّ أنَّ الأَشْعارَ التي وصلتْ إلينا عن حمدةَ لم نَجدْ بينها ما يشيرُ إلى ذلك، ولعلَّ هذا اللقب يعودُ إلىٰ إجادتها فَنَّ الشِّعر، وإلىٰ رصانةِ ألفاظِها، ودقائقِ معانيها، ومقدرتها الفنيةِ علىٰ نظَمْ الشِّعر، ناهيكَ بأخلاقها الرفيعةِ التي تشبه أخلاقَ الخَنْساء تماضر بنت عمرو، أو لأنَّها تشبهُ الخَنْساء[2] حقيقةً.

* وقد امتدحَ أعلامُ الكُتَّاب وأعلياءُ المؤرّخين أخلاقَ حمدةَ بنت زياد، وشهدوا بعفافِها وأدبِ سيرتها، ومن هؤلاء ياقوتٌ الحمويّ في كتابه الشَّهير المعروف باسم «معجم الأدباء» حيثُ افتتحَ ترجمته لحمدةَ بالثَّناء عليها فقال: حمدةُ، ويقال: حمدونة بنتُ زياد بنت تقيّ، من قريةِ بادي، منْ أعمال وادي آش، كانَ أبوها زياد مؤدِّباً، وكانَتْ أديبةً نبيلةَ شاعرةً ذات جمالٍ ومالٍ مع العَفَاف والصَّونِ، إلا أنَّ حبَّ الأدبِ كان يحملُها علىٰ مخالطةِ أهلهِ مع نزاهةٍ موثوقٍ بها، وكانتْ تلقَّبُ بخنساءِ المغرب وشاعرةِ الأندلس[3].

---

(١) اقرأ سيرة الخنساء بنت عمرو السلمية بتوسع في كتابنا«نساء من المشرق العربي».
(٢) «الخنساء»: البقرة الوحشية. وخنساء بنت خذام، وخنساء بنت عمرو بن الشريد صحابيتان، وخنساء اسم امرأة. (لسان العرب) و(القاموس المحيط) مادة: خنس.
(٣) معجم الأدباء (١٠/ ٢٧٤ و٢٧٥)، ويمكنني أن أقولَ: إنَّ حمدةَ شاعرةُ وادي آش، أمّا شاعرُ وادي آش فاسمهُ: ناهض بن إدريس.

* وفي «مُغربه» يقولُ ابنُ سُعيد المغربي عن حمدةَ كلاماً جامِعاً، حيثُ يجعلها شاعرةَ الأندلس: حمدةُ بنتُ زياد المؤدّب، قال والدي: هي شاعرةُ جميع الأَنْدلس[1].

* وأمّا المقّري فيقول: حمدةُ بنتُ زياد المؤدّب منْ وادي آش وهي خَنْساءُ[2] المغربِ وشاعرةُ الأندلس[3].

* وقال لسانُ الدِّين بنُ الخطيب في الإحاطةِ: حمدةُ، نبيلةٌ، شاعرةٌ كاتبة[4].

* ونقلَ المقّري في «نَفْحه» عن ابنِ سُعيد قولاً في امتداحِ نساءِ

---

(١) المغرب في حلى المغرب (٢/ ١٤٥).

(٢) «خَنْساءُ المغرب»: تجلّىٰ إعجابُ الأندلسيّين واضحاً جَليّاً بالمشَارقةِ، فعندما كانوا يريدون أنْ يصفُوا أديباً أو شخصاً مرموقاً مثقّفاً بحثوا في ذاكرتِهم عن رجلٍ مشرقي يمكن أنْ يُقْرنَ به، فهم يشبّهون المعتضد الأندلسيّ بأبي جعفر المنصور، والمعتمد الأندلسي بالواثق العبّاسي، وذلك لذكائِه ومعارفِهِ الأدبيةِ، ومروان الطّليق من سلالة عبد الرحمن النّاصر كابنِ المعتز ملاحةَ شعْرٍ وحسنَ تشبيهٍ، كما أنّهم شبّهوا ابنَ السَّقاط بأبي تمام.
وكان الأندلسيّون يقصدون بالأصمعيّ الأندلسيّ محمد بنَ سعيد الزَّجّالي، وخَنْساء المغرب حَمدة، وابن زيدون بحتري المغرب، وابن خفاجة صنوبري الأندلس، وأبو عبد الله الرّصافي يُنادىٰ بابن الرومي، وأبو بكر المخزوميّ الأعمىٰ المعرّي الثّاني، وأبو مروان مؤمنُ بنُ سعيد بن إبراهيم القرطبي كان يلـقَّب دِعْبل الأندلس لأنه هاجىٰ (١٨ شاعراً) وأمّا الذين أُطلقَ عليهم لقب المتنبيّ فكانوا كثيرين. هذا ولم ينْسَ الأندلسيون الشّعراء الفُرسان، فسمّوا أبا الخطار حسام بن ضرار ـ وهو منْ عليةِ القحطانيين بالأندلس وكان شاعراً فارساً ـ لُقّب عنترة الأندلس. حتى إنَّ المدنَ الأندلسية تشبّه بمدنِ المشرق، قال الحجاري في المسهب: الأندلسُ عراقُ المغرب عزّة أنساب، ورقّة آداب، واشتغالاً بفنون العلوم، وافتتاناً في المنظوم والمنثور.

(٣) انظر: نفح الطيب (٦/ ٦٧).

(٤) الإحاطة (١/ ٤٩٠).

غَرناطة ، ووصفهنَّ بالفَصَاحةِ فقال: يُقالُ للنساءِ المشهوراتِ بالحسبِ والجلالةِ «العربيّات» لمحافظتهنَّ علىٰ المعاني العربيّة ، ومنْ أشهرهنَّ: زينبُ بنتُ زياد الوادي آش ، وأختُها حمدة[1].

* وأمّا صلاح الدِّين خليلُ بنُ أيبك الصَّفديُّ ، فقد خَلَعَ عليها حُللاً فواضِلُها العفافُ والنُّبلُ والأخلاقُ الكريمةُ القويمةُ ، ففي مطلع ترجمته لها في كتابه الشَّهير «الوافي بالوفيَات» يقولُ: حمدةُ ، ويقال حمدونةُ بنتُ زياد بن تقيّ العوفي ـ بالفاء ـ المؤدب ، منْ أهلِ وادي آش؛ قال ابنُ الأبار في «تحفةِ القادم»: هي إحدىٰ المتأدّبات المتصرّفات المتغزّلات المتعفّفات[2].

* وافتتحتْ زينبُ بنتُ يوسُف فواز العامليّة ترجمةَ حمدة بقولها ، هي خنساءُ المغربِ وشاعرةُ الأندلسِ ، أديبةُ زمانِها ، وغريبةُ أوانها ، كان الأدبُ نقطةً من حوضها ، وزهرةً من روضها ، لها المنطقُ الذي يقومُ شاهداً بفضْلِ لسانِ العَرب ، ويفتحُ علىٰ البُلغاء أبوابَ العجز ، ويسدُّ عليهم صدورَ الخُطب ، فإنْ أوجزتْ أعجزَتْ بالمقالِ ، وإنْ أطالَتْ كاثرتِ الغيثَ الهطّال ، مع مطارحةٍ تذهبُ في الاستفادَةِ مذهبَ الحكم ، وأخلاقٌ تحدّثُ عن لطفِ الزَّهْر غبّ الدّيم ، مرمىٰ التَّرنم بذكرها المتعطر ينشرُ حمدها وشكرها ، والنَّسيم نمَّ بمرآها علىٰ الحدائقِ والصُّبح يشرقُ بنور الشَّمس الشَّارق ، روت عنِ العُلماء الأفاضل ، ورووا عنها ، ومنهم العالم العلاّمة البحرُ الحبْرُ الفهّامة أبو القاسم بنُ البراق[3].

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٦٩).

(٢) الوافي بالوفيات (١٣/ ١٦٣) ، وانظر كذلك للمؤلف نفسه: فوات الوفيات (١/ ٢٨٩).

(٣) الدر المنثور (ص ١٧٠ و١٧١).

* وقال عمرُ رضا كحالة عنها: شاعرةٌ منْ شواعرِ وادي آش بالأندلسِ، قد تحلّت بالأدبِ الجمّ، وتغزَّلَتْ مع عفّةٍ وصيانةِ أخلاق، وعلمتِ النّساء في دار المنصور، وذاعَ صيتُها، وعظمت منزلتُها، فلقبوها بخنساءِ المغرب(١).

* وعن حمدةَ قال عبد الله عفيفي: أستاذةُ شواعرِ الأندلس التي أوردتهنَّ منَ الشعر العذب الرّقيق منهلَ النَّفحات، صفي النَّسمات، هي حمدةُ ـ أو حمدونة ـ بنت زياد، وأصلُها من وادي آش أحد أعمالِ الأندلس، وهي أسبقُ منْ ولادة عهداً(٢)، وأبعدُ منها مدى، وفي شعرِها أنوثةٌ كاملة، وسهولةٌ نادرة، وخيالٌ بعيد(٣).

مِـنْ هَـمَسَـاتِ فُـؤَادِهَـا:

* لحمدةَ الأندلسيّةِ مجالٌ نفيسٌ في مَيدانِ الشِّعْر، فقَدْ كانتْ كما قال صاحبُ الإحاطةِ: نَبيلة شَاعِرة كَاتبة(٤)، وهي إحدىٰ النِّساء العفيفاتِ اللواتي كانتْ قلوبهنَّ تخفقُ لما يعتادهنَّ منَ الأحاسيسِ المتموّجَةِ النَّاعمةِ في أشعارهنَّ، لذا فإنَّ حمدةَ قد أدلتْ دلْوَها واغترفتْ من عَذْبِ الغَزَلِ، فكانَ له نصيبٌ في شِعْرها وإحساسِها وقلبِها، وإذا ما نظمتْ بعضَ الأبياتِ الغزليّةِ أتَتْ ببدائعِ الكَلامِ الرّقيق، وعجائبِ المعاني اللطيفةِ، وهذا ليس بغريبٍ علىٰ امرأةٍ منْ مثلِ حمدةَ ابنةِ زياد التي نهلَتْ من شتّى ألوانِ المعارفِ والثّقافاتِ الموجودةِ في عصرِها، وتخلَّقَتْ كذلك بمكارمِ الأخلاق.

---

(١) أعلام النساء (١/ ٢٩٢).
(٢) ولادة بنتُ المستكفي ـ المزعومة ـ توفيت ـ كما زعموا ـ سنة (٤٨٠ هـ) أو (٤٨٤ هـ)، وحمدة هذه توفيت سنة (٦٠٠ هـ) فكيف يصح ذلك؟!
(٣) المرأة العربيّة في جاهليتها وإسلامها (٣/ ١٣١ و١٣٢).
(٤) الإحاطة (١/ ٤٩٠).

* ومن شعرِها البديعِ الجميلِ ثلاثةُ أبياتٍ تصوِّرُ فيها لوعةَ الفراقِ الذي سبَّبه الواشُون الذينَ ما برحُوا يشنُّون الغَاراتِ علىٰ الأسماع دونَ سَبَبٍ أو ثَأْر ، فَقَلَّ أنْصَارُهَا ، لأنَّ محبوبَها قَدْ غزَاهم بوسائلِ الإغراءِ الخاصَّةِ بهِ ، ترىٰ كيفَ كانَ ذلك؟ إذاً اسمعْ إلى حمدةَ حيثُ تقولُ:

وَلَّمـا أبىٰ الـواشُـون إلاّ فـراقَنَـا وَمـا لَهـم عنْـدي وعنْـدَك مـنْ ثَـارِ
وشنُّوا علىٰ أسماعِنا كلَّ غارةٍ وقلَّ حُماتي عند ذاكَ وأنْصَاري
غَـزوتَهـمْ مـنْ مُقْلتَيْـكَ وَأدمُعـي وَمنْ نَفَسي بالسَّيفِ والسَّيْلِ والنَّارِ[1]

* والحقيقةُ ، فهذه أبياتٌ جميلةٌ مطربةٌ ، قال عنها ابنُ سُعيد في «المغرب»: وأحسنُ شعرِها قولُها: ولما أبى الواشُون[2] . . . وقال المقّري: ومن عجيبِ شعرها قولُها: ولما أبى الواشون[3] . . . .

---

(١) انظر: المغرب (٢/ ١٤٦) ، والإحاطة (١/ ٤٩٠) ، والوافي بالوفَيات (١٣/ ١٦٤) ، ونفح الطيب (٦/ ٦٧) ، وفوات الوفيات (١/ ٢٨٩ ، ٢٩٠) ، وشاعرات العرب (ص ٢١٥) ، ومعجمِ الأدباء (١٠/ ٢٧٧ و٢٧٨) وغيرها.
وتُنْسَبُ هذه الأبيات إلىٰ أختها زينب بنت زياد ، وإلى مُهجةَ بنتِ عبدِ الرزاق الغرناطيّة. قال صلاحُ الدِّين الصَّفَدي: وحدَّثني بعضُ قرابةِ الأمير أبي عبد الله بن سعد أنَّ هذهِ الأبيات لمهجةَ بنتِ عبد الرزاق الغرناطيّة؛ وعاصرتْ حمدةُ هذه نزهونَ بنت القُليعي الغرناطيّة. (الوافي بالوفيات ١٣/ ١٦٥).
قال المقّري: وبَعْضٌ يَزعمُ أنَّ هذه الأبيات لمهجةَ بنتِ عبد الرَّزَّاق الغرناطيّة ، وكونُها لحمدةَ أَشْهَر ، واللهُ تعالىٰ أعْلَم.
والبيتان الأولان منْ أَحْسَنِ ما قيل في اللفّ والنَّشرِ ـ كما قال عُلماء البَلاغَةِ ـ. ومن أجمل ما نُظمِ في هذا الفَنّ قول ابن الرومي:
آراؤُكُـم ووجـوهكُـم وسيُـوفُكـم فـي الحَـادثـات إذا رَجْـوَن نُجـومُ
فيهـا معـالـمُ للهـدىٰ ومصـابـحٌ تجلـو الـدُّجـىٰ والأُخْـريَـات رجُـومُ
اللفُّ في البيتِ الأوّلِ ، والنَّشْرُ في البيتِ الثَّاني. ومَنْ أرادَ الاستزادةَ في هذا الفنِّ فليرجع إلى كُتُبِ البلاغَةِ.
(٢) المغرب (٢/ ١٤٦).
(٣) نفح الطّيب (٦/ ٦٧) ، وانظر: رايات المبرزين (ص ١٦٨).

* إنَّ المتأمّلَ في معاني أبياتِ حمدةَ السَّابقةِ ، يلاحظُ مدىٰ جَمالِها لما تحملُه منْ دفءِ التَّعبير ، وهمساتِ قَلْبها ، وقَلْب هَمسَاتِها ، وخفَقَان فؤادِها المفعمِ بالصِّدقِ والودّ ، وكراهية الوشاة[1] .

* هذا ولم يُؤْثَرْ عن حمدةَ أيّ سقطةٍ أو انحرافٍ ، إذ كانتْ عفيفةً نظيفةً في غَزَلِها ، وعلىٰ الرّغمِ من تغزّلها وأغزالها فقد كانتْ طاهرةَ الأثوابِ وإنْ ساهمتْ في فَنّ التَّشبيب .

* وفي اعتقادنا أنَّ هذا اللونَ منَ الغزلِ ، إنَّما هو نوعٌ منَ التَّفنُّنِ في الشِّعر ، وإظهارِ المقدرةِ البيانيةِ والبديعيةِ أيضاً ، إذ استطاعتْ أنْ تُوغل في الصَّنعةِ البديعيّة بِسَبْكٍ رشيقٍ ، ولفظٍ أنيق ، والأبياتُ تشهدُ لها لا عليها .

حَـمْـدَةُ وَسِحْـرُ الـطَّبِيْعَـةِ :

* إذا كانَ الصَّنوبريُّ[2] قد رسَم الطَّبيعةَ بسِحْرِ أشعارِه ، وأبدعَ في

---

(١) منْ روائعِ ما قيل في الوشَاة قول صَدْر الدِّين ابن الوكيل :

أخفيتُ حبَّكَ عن جميعِ جوارحي ... فوشَتْ عيوني والوشاةُ عُيونُ
ووَدِدْتُ أنَّ جوانِحي وجَوارِحي ... مُقَلٌ تراكَ وما لهنَّ عُيونُ
يا ليتَ قَيْساً في زمانِ صَبابَتي ... حتّى أريهِ العِشْقَ كيفَ يكونُ

وقال بعضُ ظرفاءِ العُشَّاق ، وقد قيل له : ما الذي تشتهيه؟ فقال : أعينُ الرُّقَباء ، وألسنُ الوُشاة ، وأكباد الحُسَّاد . وقال أحدهم :

لي عندكم يومَ التَّواصلِ دعوةٌ ... يا معشرَ الجُلساء والنُّدماءِ
أشوي قلوبَ الحاسدينَ بها وألْـ ... ـسِنَةَ الوشاةِ وأعينَ الرُّقبَاءِ

وقال آخر :

فاغْصِ الوُشَاةَ فإنَّما ... قولُ الوُشَاة هو الفتَن
إنَّ الوشاةَ إذا أتو ... كَ تنصَّحوا ونهوكَ عَنْ

(٢) «الصنوبري» : أبو بكر أحمد بن محمد بن الحسين الضبي الحلبي ، شعره في الذروة العليا ، وخصوصاً في وصف الطبيعة . توفي سنة (٣٣٤ هـ) وله ديوان شعر مشهور .

وصْفِ الرِّياضِ وذكرَها حتى عُدَّ صاحبَ «الرّوضياتِ» الشَّهيرة في عالَم الأدبِ والشّعرِ في تراثِنا الشِّعري ، فإنَّ حمدةَ بنتَ زياد ـ ولا شكَّ ـ تستحقُّ لقبَ «صنوبريّة الأَنْدلس» مع لَقبِها خَنْساء المغرِب وشاعرة الأندلس.

* ولا نقولُ هذا الكلام منْ قبيلِ المبالغةِ ، لأنَّنا إذا ما وقْفَنا عند وصْفِها البديعِ الرَّائع لوادي آش عرفْنا كيف كانتْ حمدةُ ، وتكونُ صنوبرية غَرنَاطَةَ بل الأَندلس.

* إنَّ الوادي ـ وادي آش الجميل ـ الذي وصفَه أبو الحسن بنُ نزار ـ كما مرَّ معنا في مَطْلع التَّرجمة ـ هو الوادي نفسه الذي وصَفَتْه حمدةُ بنتُ زياد ، وخلعتْ عليه من روحِ شاعريتها المندّاة بالنَّضارة ما جعلَه نَضراً خالداً بين أوديةِ العالَم في المشرقِ والمغربِ ، كما جَعَلَتْه أهزوجةً رقيقةً علىٰ كلّ لِسان يحبُّ إنشاد الشِّعر وحفْظِه.

* ولئن شَدا المتنبي ووصفَ شِعْبَ بوّان[1] ، وخلَّدَه في دُنْيا الشِّعر ،

---

(١) «شِعْبُ بوّان»: بأرضِ فارس بين أرَّجَانَ والنوبندجان ، وهو أحدُ متنزَّهَات الدنيا ، وأحدُ جِنَان الدّنيا الأَربع. (معجم البلدان ١/ ٥٠٣).
قالَ الواحديُّ في شَرحِهِ ديوانَ المتنبي: شعبُ بوّان موضعٌ كثيرُ الشَّجرِ والمياهِ ، يُعَدُّ منْ جِنانِ الدُّنيا ، كنهرِ الأبلّة ، وصُغْدِ سمرقند ، وغوطةِ دمشق. (شرح ديوان المتنبي للواحدي ص ٧١٦).
وقد وصفَ المتنبي هذا الشِّعْب عندما كانَ في طريقهِ إلى شيراز كيما يمدحَ عضدَ الدَّولة ، ومطلع قصيدته قوله:

مَغَاني الشِّعْبِ طيْباً في المغَاني ... بمنزلةِ الرَّبيعِ منَ الزَّمانِ
ولكنَّ الفتىٰ العربيَّ فيها ... غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
ملاعبُ جنَّةٍ لو سارَ فيها ... سليمانٌ لسَارَ بترجُمانِ

ومنها:

غدونا تنفضُ الأغصانُ فيها ... علىٰ أعرافِها مثلُ الجُمانِ =

وجعلَ وصْفَه لهذا الشِّعب [كأنَّه عَلَمٌ في رأْسِه نَار] وأصبحتْ قصيدتُه تُنْشَدُ علىٰ كلّ لِسان ، وفي كلّ وقْتٍ وزمان ، فإنَّ حمدةَ الأندلسيةَ كذلك قد خلَّدت وصْفَ وادي آش بأبدعِ وَصْفٍ في دنيا الوَصْفِ ، ولا أكونُ مُبالغاً لو قلتُ: إنَّ أبياتِ حمدةَ بنتِ زياد في وصْفِ واديها الجميلِ من أجملِ عَشْر مقطوعاتٍ في دُنيا وصْف الطَّبيعةِ في عالَم الشِّعر النَّسوي ،

= فسرتُ وقد حجبْنَ الشّمس عنّي ... وجئنَ منَ الضّياء بما كفَاني
وألقىٰ الشرقُ منها في ثيابي ... دنانيراً تفرُّ منَ البَنَانِ

ومنها:

وأمواهٌ تصلُّ بها حَصَاها ... صليل الحلي في أيدي الغواني

ومنها:

إذا غنّىٰ الحمَامُ الورقُ فيها ... أجابَتْه أغاني القيانِ

ومنها:

يقولُ بشعْبِ بوّانٍ حصَاني ... أَعنْ هذا يُسار إلى الطِّعانِ
أبوكم آدمٌ سَنَّ المعَاصي ... وعلّمَكم مفارقَة الجنَانِ

انظر القصيدة كاملة في (ديوان المتنبي ٤/ ٢٥١ ـ ٢٦٢).

وفي شعب بوّان يقولُ أَحدُ الشُّعراء أيضاً:

إذا أشرفَ المكروبُ منْ رأسِ تلعةٍ ... على شِعب بَوّانٍ أفاقَ منَ الكَربِ
وألهاهُ بطنٌ كالحريرةِ مسَّه ... ومطردٌ يجري منَ البارقِ العَذْبِ
فباللهِ يا ريحَ الجنوبِ تحمَّلي ... إلىٰ شعْبِ بوّان سلام فتىً صبِّ

(ثمار القلوب ص ٥٢٦ و٥٢٧).

وأجادَ السَّلامي حيث قالَ في وصْفِ الشِّعْب من قصيدةٍ طويلةٍ منها:

اشربْ علىٰ الشِّعبِ واحللْ روضةً أُنُفا ... قد زادَ في حسنهِ فازددْ به شَغَفا
إذ ألبسَ الهيفَ من أغصانِه حللاً ... ولقّنَ العُجمَ منْ أطيارِه نتفَا

ومنها قوله يصف جمال الأغصان المثمرة والشمس وهاتيك الألطاف:

والشّمسُ تخرقُ من أشجارها طرفاً ... بنورها فترينا تحتها طُرَفا
ظلّتْ تَزفُّ إلىٰ الدّنيا محاسِنها ... وتستعيدُ لها الألطاف والتّحفا

(نهاية الأرب ١١/ ٢٥٩).

حيثُ تَنْسابُ معانيها فتستولي علىٰ القُلوب ، وتسبي النُّفوس ، وتعطِّرُ الأَسْماع .

* وإنّك ـ عزيزي القارىء ـ عندما تسمعُ أبيات حَمدةَ في وصْفِ الوادي ، تجعلُك معها كأنَّك تَراه ، وكأنَّك تنعم بظلالِه وجمالِه وعذْب مائِه .

* ولعلَّ حمدةَ قد اطّلعت علىٰ شِعْر الصَّنوبري والمتنبّي ، ومن قبلهِما؛ وقرأَتْ شِعْرَ أبي تمّام وتلميذِه البُحتريّ وغيرَ هؤلاءِ ممن أَبْحرَ في وصْفِ الطَّبيعة ، فرسَمَتْ لواديها لوحاتٍ خالدةً ، في معانٍ بديعةٍ من أرقِّ ما تفتَّقَ عنه ذهنُ امرأةٍ في الوصْف ، فهذا الوادي الجميلِ الذي جَادَه الغيثُ عندما همىٰ ، فَغَدا الثَّرىٰ في حَلْيِهِ يتكسَّر ، وإذا الأَرضُ عروسٌ تبسمُ عمّا حَباها اللهُ منْ جمالٍ وملاحةٍ ، وإذا بالوادي يتمايلُ ويتيهُ بجماله ، فثغورُ الزَّهر فيه تبتسمُ ، وعيونُ النَّرجس تؤثِّرُ في النَّاظرين ، وإذا الماءُ يتناجىٰ مع الحَصَى أرقَّ مناجاةٍ ، وإذا أذيالُ الغصونِ تتبخْتَرُ في حُلَىٰ الأوراقِ ، لتعبِّر عن صنعةِ الخلاّق ، ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

* والآن ، لنعيشَ حياةَ السَّعادة التي عاشَتْها حمدةُ ، وهي تستشعر حنَان الوادي ، وتلتذّ بمائِه ، وتنتشي بظلالِه ، وتنعمُ بنسائِم أجوائِهِ العَطرة ، ومنظر حَصَاه الذي يبدو كعقودٍ انفرطتْ منْ نحورِ العَذارىٰ ، وافترشَ أرضَه؛ تقولُ حمدةُ في وصف الوادي الجميل؛ وادي آش ، ـ وكمْ أَلْهَم هذا الوادي منْ شعراء وشاعرات! ـ:

وَقَـانَـا لَفْحَـةَ الـرَّمْضَـاءِ وَادٍ سَقَـاهُ مضَـاعـفُ الغَيـثِ العَمِيـمِ
حَلَلْنَـا دَوْحَـهُ فَحَنَـا علينـا حُنـوَّ المـرضعـاتِ علـىٰ الفَطيـمِ
وأرشَفَنَـا علـىٰ ظمـأٍ زُلالاً أَلَـذّ مـنَ المُـدامَـةِ للنَّـديـمِ
يَصُـدُّ الشَّمْـسَ أنَّـىٰ واجَهَتْنَـا فَيَحْجِبُهَـا ويـأذَنُ للنَّسيـمِ

يـروعُ حَصَـاهُ حَـاليـةَ العَـذَارىٰ فتلمـسُ جَـانِـبَ العِقْـدِ النَّظيـمِ[1]

* حقاً إنَّ أبياتِ حمدةَ تعبقُ بحنانٍ جميلٍ ، يلفُّه حبٌّ عارمٌ للطَّبيعةِ التي وهَبَتِ الأنفاسَ الشّعريةَ النَّديةَ لها .

* ولكَ أنْ تقرأَ الأبيات أكثرَ منْ مرّةٍ لتشعُرَ بالمتعةِ ، وتلمسَ جَمالَ المعاني ، وصُوَرَ الوادي المتعدّدة وخصوصاً في البيتِ الأخير ، حيثُ رسَمَتِ الوادي بحصَاهُ الوضيئةِ البرّاقةِ التي تشبه حبّاتِ اللؤلؤ ، ويبهرُ العذارىٰ اللابسات العقود النَّفيسة المنيفة ، ويروعهنّ فإذا بهنَّ يضَعْنَ أيديهنَّ علىٰ لبّاتِهنَّ يتحسَّسنَ عقودهنَّ مخافةَ أنْ تكونَ قد انفرطَتْ وتبعثرَتْ أمامهنَّ ، وهنالك يجدنَ أنَّ حليهنَّ مكانَها لم تفارقْ أعناقهنَّ ، وأنَّ حَصَى الوادي قد سرقَ جمالَه من جمالِ عقودهنّ وحليتهنَّ .

* إنَّ الأبياتِ الميميةَ الجميلةَ التي قرأناها لحمدةَ بنةِ زياد الأندلسيّة ، ـ والتي تنبضُ بروحِ الحياةِ ، وتعبِّرُ عن روحها الشَّفَّافة وإحساسِها المرهف ، وعواطفها اللطيفةَ ـ هي أبياتٌ مُخْتَلَفٌ في نسبتِها إلى شاعرةِ الأندلسِ حمدةَ بنتِ زياد ، فقد أجمعَ أهلُ المشرق ـ كما قال ياقوتُ

---

(١) معجم الأدباء (١٠/٢٧٦ و٢٧٧) ، ونفح الطيب (٦/٦٨) ، ونزهة الجلساء (ص ٣٨) ، وشاعرات العرب(ص ٢١٥) ، ومعجم النساء الشواعر (ص ١٩٥) ، ومعاهد التنصيص (١/٢٤٨)؛ وقد قَلَبَ الشّيخ بدر الدِّين بن الصَّاحب غالب هذه الأبيات هجواً في حمام فقال :

وَحَمـــامٍ قَليـــلِ المـــاءِ دَاجٍ وفيـــهِ أَلْـــفُ شَيطـــانٍ رجيـــمِ
ولا غيـرَ المـزاحـمِ مـن رفيـقٍ ولا غيـر المـدافـعِ مـن حميـمِ
طلبْنَـا مـاءَه فَحنَـا علينـا حنـوَّ المـرضعـاتِ علـى الفطيـمِ
ونقّطَنـا بـرشـحٍ بَعْـدَ رشـحٍ كمـصٍّ مـنْ أبـاريـقِ النَّـديـمِ
يصـدُّ الحـرَّ عنـا فـي شِتـاءٍ فيحجبُـه ويـأذنُ للنّسيـمِ
يـروعُ لهـولـهِ مَـنْ حـلَّ فيـهِ فيحسـبُ أنّـه هـولُ الجحيـمِ
(معاهد التّنصيص ١/٢٤٨) .

الحمويّ في معجم الأُدباء ـ على نسبةِ هذه الأبيات للمنازي وهو أحمدُ بنُ يوسُف المنازي[1]، المتوفىٰ سنة سبع وثلاثين وأربعمئة، وأنَّه عرضَها علىٰ أبي العلاء المعرّي، فجعلَ المنازي كلّما أنْشَده المِصْراعَ الأوَّلَ منْ كلِّ بيت، سَبَقَه أبو العَلاء إلىٰ المصراعِ الثَّاني كما نَظَمه المنازي، ونَسبَها أدباءُ الأندلسِ ومؤرخوها إلى حَمدةَ، وجزَمَ بذلك طائفة منهم[2].

* لكنَّ الأندلسيّين لم يرضَوا بهذهِ النِّسبة إلىٰ أبي نَصْر المنازي، ورأوا أنَّ حمدةَ هي صَانِعَةُ الأبياتِ وناظمتُها، وأنَّ أنفاسَها وشاعريّتها تجري في عُروقِ ومَفَاصِل قصيدتها، وممن جزمَ بنسبتها لحمدةَ أبو جعفر الأندلسيّ الغَرناطيّ الرعينيّ[3] الذي قال: إنَّ مؤرخي بلاد

(١) «المنازي»: أبو نَصر أحمدُ بنُ يُوسُف السُّليكي المنازيّ الكاتب، كانَ منْ أعيانِ الفُضَلاء، وأماثلِ الشّعراء، وكانَ فاضلاً شَاعراً كافياً، جمعَ كُتباً كثيرةً، ثمَّ وقَّفَها على جامع ميافارقين، وجامع آمد، ومعروفة بكتُب المنازي، وكان قَد اجتمعَ بالمعريّ، فَشَكا له المعريُّ حالَه، وأنَّ النَّاسَ يؤذونه.
فقال له المنازي: ما لهم ولكَ، وقد تركتَ لهم الدُّنيا والآخرة؟!
فقال أبو العلاء: والآخرة أيضاً؟!
وجعل يكرِّرُها ويتألم لذلك، وأطرقَ ولم يكلمْه إلىٰ أنْ قامَ.
وكان المنازيُّ قد اجتازَ بوادي بزاعا ـ وهي قرية كبيرةٌ ما بين حلب ومنبج في نصف الطّريق ـ فأعجبَه حُسْنَه، فعملَ هذه الأبيات الخمسَة وأوّلها:
وقانا لفحةَ الرّمضاء وادٍ ... سقاهُ مضاعف الغيثِ العميم
وأوردَ ابنُ العماد أنَّ المنازي عَرضَ هذه القصيدة في جماعةٍ منَ الشُّعراء على أبي العلاء المعريّ فقال له: أنتَ أشعرَ مَنْ بالشَّام.
وتوفيَ المنازيُّ في سَنةِ (٤٣٧ هـ) رحمه الله تعالى.
(وفياتُ الأعيْانِ ١/ ١٤٣ و١٤٤) و(شذراتُ الذَّهب ٥/ ١٧٣ و١٧٤).
(٢) معجم الأدباء (١٠/ ٢٧٧).
(٣) «الرُّعيني»: أحمدُ بنُ يُوسُف بنِ مالك الرُّعينيّ الأندلسيّ الغَرناطيّ، يُكنى بأبي جعفر الإلبيري، ويُعرفُ بشهابِ الدِّين الغرنَاطيّ، ذكره السُّيوطي فقال: =

الأندلس نَسبوها لحمدةَ منْ قبلِ أنْ يُوجدَ المنازي الذي ينسبُها له أهلُ المشرق[1].

= أديبٌ ماهِرٌ وُلد بعد السَّبعمئة ، ومات قبلَ رفيقهِ ابنِ جابر بسنةٍ في منتصف رمضان سنة تسع وسبعين وسبعمئة. (بغية الوعاة ص ١٧٦).
وكانَ مقتدراً علىٰ النّظم والنثرِ ، عارفاً بالبديع وفنونِهِ ، ديّناً حَسَنَ الخُلق ، حُلوَ المحاضرة ، اشتُهِرَ مع رفيقهِ ابنِ جابر باسم: الأعمىٰ والبصَير. وقال عنهما لسانُ الدّين بنُ الخطيب في «الإحاطة»: ورحَلا إلىٰ المشرقِ ، وصارا روحَيْنِ في جَسَدٍ ، ووقَع الشّعرَ منهما بين لحيي أسد ، وشمّرا للعلْم وطلبه ، فكانَ وظيفةُ الكفيف ـ ابن جابر ـ النّظم ، ووظيفةُ البصير ـ الرعيني ـ الكُتُب. ومن شعرهِ في الاقتباس من القرآن الكريم:

إذا شئـــتَ رِزْقــاً بـــلا حسْبَـــةٍ ... فَلُـــذْ بـــالتُّقـــىٰ واتّبـــعْ سُبُلَـــه
وتصـــديـــقُ ذلـــك فـــي قـــولِـــهِ ... ﴿ومـــن يتـــقِ الله يجعـــلْ لـــه﴾

ومنْ شعرهِ في الاقتباس منَ الحديثِ النّبوي الشّريف:

عَمَـــلٌ إنْ لـــم يـــوافـــقْ نيـــة ... فهـــو غـــرسٌ لا يُـــرىٰ فيـــه ثَمـــرْ
«إنّمـــا الأعمـــالُ بـــالنيّـــات» قـــد ... نصَّـــه عـــنْ سيّـــدِ الخَلْـــق عُمـــرْ

وشعرهُ كثير ، أورد المقري طائفة حلوة منه في نفح الطيب.

(١) انظر: نفح الطيب (٦/٦٨). ومنَ المفيد ذِكْره هنا أنَّ الوزيرَ أبا عُبيد البكريّ الأندلسيّ له رأيٌ آخر يختلفُ عن الرّعيني ، فهو أندلسيّ ، لكنّه ينسِبُ هذه الأبيات إلىٰ المنازي ، وأنَّ المنازي قد نظم أبياته ، واستفادَ من معانيه منْ أبياتٍ لأبي الطّيّب المتنبي ، فلنقرأ ما كتَبه البكري في «سِمْط اللآلي» قال: قال أبو الطّيب:

وليـــلاً تـــوسَّـــدْنَـــا الثَّـــويـــةَ تَحْتَـــه ... كـــأنَّ ثَـــراهـــا عنـــبٌ فـــي المـــرافِـــقِ
بـــلادٌ إذا زَار الحِسَـــان بغيـــرِهـــا ... حَصَـــىٰ تـــربهـــا ثقّبْنَـــه للمخَـــانِـــقِ

فقد صارَ الثَّرىٰ عنده عنبراً ، والحصىٰ جوهراً ، والملمسُ الخشنُ ليناً ، والمشمُّ التَّفِلُ طيباً. وما أحسنَ ما نظمَ بعضُ المحدثين معنى بيت أبي الطّيب ، فقالَ في صفةِ روضة وهو المنازي كاتبُ أبي مروان صاحب ميافارقين:

وقَـــانَـــا وقـــدةَ الـــرَّمْضـــاءِ روضٌ ... وقَـــاهُ مضـــاعـــفُ الظّـــل العميـــمِ
قَصـــدنـــا نحـــوهَ فحنَـــا علينـــا ... حنـــوَّ الـــوالـــداتِ علـــىٰ اليتيـــم
يـــراعـــي الشمـــس أنـــى قـــابلتنـــا ... فيحجبهـــا ويـــأذن للنسيـــم =

* ونقل المقَّريُّ ما قاله أبو جعفر الرعينيّ عن حمدةَ فقال: كانتْ من ذوي الألبابِ ، وفحولِ أهلِ الآدابِ ، حتى إنَّ بعض المنتحلينَ تعلَّقَ بهذه الأَهْداب ، وادّعى نَظْم هذَيْن البيتَيْن ـ يعني: ولما أبى الواشون[1] . . . ـ إلى آخرهِ ، لما فيهما منَ المعاني والألفاظِ العِذابِ ، وما غرَّه في ذلك إلاّ بُعْدُ دارِها ، وخلوّ هذه البلاد المشرقيّة منْ أخبارِها ، وقد تلبَّس بعضُهم أيضاً بشعارِها ، وادّعى غير هذا منْ أشعارِها ، وهو قولُها: «وقَانا لفحةَ الرَّمضاء وادٍ. . .» إلىٰ آخره؛ وإنَّ هذهِ الأبيات نَسبَها أهلُ البلادِ للمنازيّ منْ شعرائِهم ، وركبوا التّعصُّب في جادَّةِ ادعائِهم ، وهي أبياتٌ لم يَخْلِبْها غيرُ لسانها ، ولا رقَمَ بردَيْها غيرُ إحسانِها ، ولقد رأيتُ المؤرّخينَ منْ أهلِ بلادنا ، وهي الأندلس أثبتوها لها قَبل أنْ يخرجَ المنازي منَ العدمِ إلى الوجودِ ، ويتَّصفَ بلفظهِ الموجود.

* وأودُّ التَّعليقَ علىٰ قول الرُّعيني: قبل أنْ يخرجَ المنازيُّ منَ العدم إلىٰ الوجودِ. . . . حيثُ إنَّ حقائقَ التَّاريخِ تخالفُ قولَ الرُّعيني ، إذْ إنّ المنازي أسبق وجُوداً منْ حمدةَ ، حيث كانَتْ وفاتُه سنة (٤٣٧ هـ) ـ كما

= وسقانا علىٰ ظمأ زلالاً ألذَّ من المدام مع الكريمِ
تروعُ حَصَاه حاليةَ العذارىٰ فتلمس جانبَ العِقْدِ النّظيم
فهذه أبرعُ عبارة ، وأبزغُ إشارة. (سمط اللآلي ١/ ٢٢٧).

(١) انظر: نفح الطيب (٦/ ٦٨ و٦٩) ، وانظر كتاب: طراز الحلّة وشفاء الغلة للرّعيني ، تحقيق الدكتورة رجاء السيِّد الجوهري.
هذا ، وقد وقعت المحقّقة الدكتورة رجاء في غَلَطٍ واضحٍ فقد ذكرتْ كلمة (المغَازي) بدلاً من المنازي ، وقارنتْ بنسخةٍ أخرى وقالَت: يُوجد بنسخةِ (ب) ، (المغازيّ) ، فزادتِ الطّين بلّة ، ولم تشفِ الغلة ، وشوّهت طراز الحلة ، ولم تصححْ لفظَ وتحريفَ المغازي إلىٰ المنازي! لذلك أحببتُ التّنويه.
واللهُ المستعان على مثل هذا التّحقيق!!!

مرَّ معنا ـ أمّا حمدةُ ، فقد روىٰ عنها أبو القاسِم ابنِ البراق المتوفىٰ سنة (٥٩٦ هـ) ، ومعنى ذلك أنَّ حمدةَ معاصِرته ، وهي بَعْد المنازي حتماً. على أنّني أشتمُّ منْ رائحةِ الأبيات معاني الذّكُورة كقوله:

وأَرْشَفَنَــا علــىٰ ظَمــأٍ زُلالاً ألــذّ مِــنَ المُــدامــةِ للنَّــديــمِ

إذِ الرّجالُ هم الذين اشتهروا بوصفِ المُدامِ ، وهناك قَرائنُ ودلائل أخرىٰ لا تخفىٰ على متذوّقِ الأدبِ والشّعر ، وقد أحببتُ أنْ ألفتَ نظرَ المطّلع والقارىءِ إلى هذه المفارقاتِ العجيبةِ ، والانتصارِ غير المنطقي لحمدة أو للمنازي.

* ونتابعُ الآن رحلتنا مع المقّري الذي ينقلُ عنِ المصادر التي سبقَتْه ، كيما يثبتَ أنَّ تلكم الأبياتِ الميميةَ النَّاعمةَ لحمدةَ فيقول: وحكىٰ ابنُ العديم في تاريخِ حَلَب ما نصّه: وبلغني أنَّ المنازي عملَ هذه الأبيات ليعرضَها علىٰ أبي العلاء المعريّ ، فلما وصلَ إليه ، أنشدَ الأبيات ، فجعلَ المنازي كلما أنشدَ المِصْراع الأوَّل منْ كلِّ بيتٍ سَبقَه أبو العَلاء إلى المصراعِ الثَّاني الذي هو تمامُ البيتِ كما نَظَمه ، ولما أنْشَده قوله:

نـَزَلنا دَوْحَه فَحنَا علينا

قال أبو العلاء: حنوَّ الوالداتِ علىٰ الفَطيم.

فقال المنازي: إنّما قلت: علىٰ اليتيم.

فقال أبو العَلاء: الفَطيم أَحْسن[١].

* هذا ـ وإكمالاً للفائدةِ ـ فقد تبدّى لنا ونحنُ نمخرُ عبابَ الشّعر ، ونقطعُ المسافات بِينَ الشَّرق والغربِ ، نطالعُ دواوينَ الشُّعراء ، ومحاضراتِ الأدباء ، ومحاوراتِ الشُّعراء والبُلغاء ، ونقطعُ الليالي

---

(١) انظر: نفح الطيب (٦/ ٦٩). وعلَّقَ المقري بقوله: وهذا يدلُّ على أنَّ الرّواية عنده: «حنو الوالدات» ، وقد تقدّم: المرضعات. واللهُ تعالى أعْلم.

ذواتِ العدد في المطالعةِ والقِراءةِ والتَّحليلِ؛ أقولُ: تبدّى لنا بأنَّ حَمْدة ، أو المنازي قد اقْتَبسا القصيدةَ الميميّةَ منْ قصيدةٍ لعمرَ بنِ أبي ربيعة شاعرِ الغَزَل ، حيثُ أخَذا كثيراً منَ المعانِي المماثلةِ من إحدىٰ قصائدِ أَغْزاله الجميلةِ في إحدىٰ النّسوة اللواتي لم يصرحْ باسْمِها ، ولم يذكرْ هُويتها ، وإنَّما وصَفَ وَجْده ، ثم أخذَ يصفُ محاسنَ التي يتغزَّلُ بها ، فيقولُ:

أقـولُ لِصَـاحبـيَّ وَمثْـلُ مَـا بـي شَكـاهُ المَرءُ ذُو الـوَجْـدِ الأَلْيْـمِ
إلـىٰ الأَخـوَيْـن مثْلُهمـا إذَا مَـا تـأَوَّبَـه مـؤرِّقَـةُ الهُمـومِ
لِحَيْنـي وَالبـلاءُ لقيْـتُ ظُهـراً بـأَعْلـىٰ النَّقْـعِ أختَ بنـي تَميـمِ
فَلمـا أَنْ بَـدا للعَيـنِ منْهـا أَسِيْـلُ الخـدِّ فـي خَلْـقٍ عَميـمِ
وعَينـا جُـؤْذَرٍ خَـرِقٍ وثَغْـرٌ كَمِثْـلِ الأُقْحُـوانِ وَجيْـدُ ريـمِ
حَنَـا أَتْـرابُهـا دُونـي عَليهَـا حُنـوَّ العَـائِـداتِ علـىٰ سَقيـمِ
عَقَـائِـلُ لَـم يَعِشْـنَ بعَيْشِ بُـؤْسٍ وَلكـنْ بَـالغَضَـارةِ وَالنَّعيـمِ(١)

* والآن ، لعلَّه منَ الممتعِ والطّريفِ أنْ نقولَ: لعلَّ حمدةَ ، أو المنازي قد اقتبسَا الشِّعر المشهور: «وقانا لفحةَ الرّمضاء واد. . . .» من عمرَ بن أبي ربيعة ، ومن ثم حظيتْ هذه القصيدةِ بالشُّهرةِ والشَّعْبية ، ونسيَ النَّاس قصيدةَ عمرَ بنِ أبي ربيعة ، ومَنْ يدري ، فلعلَّ عمر قد اقتبسَ هو الآخر معانيه وجمالَ مغانيه من أحدِ سَابقيه؟!!

حَمْـدَةُ عَلـىٰ لِسَـانِ الـشُّعَـرَاءِ:

* تشيرُ الأخبارُ التي وَصَلَتْ إلينا عنَ حمدةَ بنةِ زياد أنَّها كانتْ أديبةً نبيلةً، ذات جمالٍ ومالٍ ، ناهيكَ بأَدَبِها الذي كانَ يحملُها علىٰ مخالطةِ

(١) انظر: شرح ديوان عمر بن أبي ربيعة المخزومي (ص ٢٢٣ و٢٢٤) ، رقم القطعة (٨٨).

أهْله مع نَزَاهَةٍ موثوقٍ بها ، فقد كانَ أدبُها رسُولاً إلى قلوبِ عُشَّاق الأَدبِ والفَنِّ والجمالِ ، ممّا جعلَ أحدَ شعراءِ عَصْرِها يذكُرُهَا ويذكرُ أختَها زينبَ ، ويشيرُ إلىٰ العَفَافِ الذي يتحلّى به هو، وتتحلّى به حمدة وزينبُ، وحولَ هذه المعاني يقولُ أبو بكر محمّد بن سُعيد بن خَلَف في حمدة وزينب بنْتَي زياد المؤدّب:

مَا بَيْنَ زَينَبَ عُمْري | أحثُّ كأْسي وحَمْدَه
وكلَّ نَظْمٍ ونَثْرٍ | وحكْمَةً مُسْتَجدّه
وليْسَ إلاّ عَفَافٌ | يُبلِّغُ المرءُ قَصْدَه[1]

* ووصلتْ هذه الأبياتَ وأشباهُها إلىٰ الشاعرِ المخزوميّ الأعمىٰ ، فسعَىٰ بأبي بكر بن سُعيد إلىٰ علي بن يُوسف ، فكَان ذلك سبب عَزْله ومن ثمّ نكبته[2] ، وكان مضمونُ سِعاية الأعمىٰ المخزوميّ هذه الأبيات:

إليكَ أَميرَ المؤْمنينَ فَضْيحة | يجوزُ بَها البحرُ المجعجعُ شَاعِرُ
بغَرناطة وليّتَ في النَّاس عامِلاً | ولكنْ بما تحويهِ منْه المآزِرُ
وأنتَ وما تخفىٰ عليكَ خفيَّةٌ | فَسَلْ أَهْلَها فالأمْر للنّاسِ ظَاهرُ
ومَا لإلهِ العَرشِ تَفْنيه حَمْدةٌ | وزينبُ والكأْسُ الذي هو دَايرُ[3]

حَمْدَةُ وَأَسْرَارُ الحُسْنِ:

* كانتِ الطبيعةُ الأندلسيّة بِسِحْرها وجمالِها تشكّلُ جُزءاً كبيراً منْ حياةِ الأندلسيّين[4] ، كما كانتْ تشكِّلُ جَانباً كبيراً من شِعْر حَمْدة التي

---

(١) الإحاطة (٣/٢١٦).
(٢) اقرأ نكبة أبي بكر بن سعيد في سيرة حفصة بنت الحاج الركونية من هذا الكتاب.
(٣) الإحاطة (٣/٢١٦).
(٤) كانت الأندلسُ وما تَزالُ منْ أَجملِ بقاعِ الأَرضِ وأنْضَرها ، ممّا يأخذُ بالألباب ، ويسْبحُ في روعتِهِ الخيال ، ويبعثُ علىٰ تذوّق الجمالِ ومجاراةِ الطّبيعة في بهائِها ونضرتها ، وقد امتازتْ هذه البلادُ بين الأَقْطار التي فَتَحها العربُ بجمالِ طبيعتِها =

أسَرَتْها محاسنُ وادي آش ، ومنطقةُ الرملةِ منْ نواحي ذلك الوادي السَّاحر.

* ويبدو أنَّ حمدة كانت تخرجُ بينَ الفينةِ والأُخرى ، لتمتعَ ناظريها بمشاهد ومحاسنِ الطَّبيعة المتسربلةِ بالجمالِ والسِّحْر والزَّهْر والنَّهر ، ومع هذا فإنَّه يزدانُ بالحِسَان من بناتِ غَرناطة.

* ففي ذاتِ مرَّةٍ خرجَتْ حمدةُ متنزِّهَةً بالرَّمْلَةِ منْ نواحي وادي آش ، وكانَ معها بضعُ صديقات جَوَارٍ ، ثمّ سَبَحتْ معهنّ ، ورأَتْ ذاتَ وجه وسيمٍ أعجبَها ، فتأثّرت بذلك مع الجمالِ المحدقِ بها منْ كل جانب ، جمالُ النّهر المُنْساب بين أحْضَان الطَّبيعة يصافحُ كلَّ مكانَ يمرُّ فيه ، وقد حَمل معه زَهْر الشَّجَر المُتَساقِط ، وموسيقا أمواهِهِ العذبة تندي الآذان ، ومع جَمالِ النَّهر كانتِ الطَّبيعةُ باسمةً بأشجارِها وظلالها ، حتى الفتيات اللاتي كنَّ مَعَها يَسْحَرنَ الأَلْباب ، وقد خَلَبَتْ إحداهُنَّ لُبَّ حمدة[1] ، وملكَتْ مشاعرها ، حيث إنَّ لها لحظاً يجرحُ القُلوب ، وكأنَّ القائل عناها بقوله:

وَلَيْلـىٰ مـا كَفـاهَـا الهجْـرُ حتَّـى ... أَرتْنـــي جُـــرْحَ قَلْبـــي بـــالعُيُــونِ

= منْ أَشْجارٍ باسِقَةٍ ، وثمارٍ يانعَةٍ ، وأنْهارٍ جَاريةٍ ، وجبالٍ خضْرٍ ، وطيور مغرّدة ، وأبنيةٍ شاهِقة ، وقصورٍ جميلة ، ووجوهٍ نضرة ، ونسيمٍ عليلٍ ، فملكَ كلُّ ذلك منْ نفسِ العربي ، ورقّق منْ شُعوره ، وهذَّب منْ خياله ، وصقَل منْ ذوقِه ، وزادَ في جمالِ شعرِهِ ، وفنونِ الكتابةِ لديه ، وميّزَه بذلك عن أهل المشرق ، وجعل للأندلسيين صبغةً خاصةً في الأدب العربي ، وفتح أمامهم باباً واسعاً من الخيال.

(١) يظهرُ أنَّ قلبَ حمدةَ بنة زياد قد وسِعَ حبّ صديقاتِها ، وتغنَّتْ بهنَّ في شذراتٍ من شِعْرها ـ وهي ظاهرةٌ لم تنتشرْ في المشرقِ ، إذ نعرفُ حبَّ الرّجلِ للمرأةِ ، وحبَّ المرأةِ للرّجُل ، أما حبُّ المرأةِ للمرأة فظاهرةٌ انتشرتْ أكثر في الأندلس ـ. ولعلَّ طبيعةَ الحياة الأندلسيّة ، وطبيعةَ حياةِ حمدة بالذات قد ساعدتْ على إظهار هذا اللون منَ الغَزل الذي هو أقربُ إلى الرُّومانسيّة الممزوجِ بالرمزية ـ كما سنرى.

* وهذه الفتاةُ الحسناءُ المليحةُ قد مَاسَتْ بروضِ جمالِها ، وروعةِ ذوائبها وشعرها النَّاعم الأسودِ البرّاق ، وجهها الجميل الذي ينيرُ كالبدرِ في الليالي السُّود بعد أنْ تُسْدِلَ ذوائبها.

* هنالك شَدَتْ حمدةُ بأروعِ وأجملِ نَغَمات وصْفِ الطَّبيعة المتلألئةِ، ورسَمتْ لوحةً بل لوحاتٍ لطيفةٍ تدفَّقت بها عواطفُها ومشاعرها ، فقالتْ وقد استخدمتْ جمَال الكَلمة وروعتها في فنَّي البيَان والبديع :

أَبَاحَ الدَّمْعُ أَسْراري بِوَادي ... له في الحُسْنِ آثَارٌ بَوادي[1]
فمنْ نَهْرٍ يَطوفُ بكُلِّ روضٍ ... ومنْ روضٍ يرفُّ بكلِّ وَادي
ومنْ بين الظِّبَاء مَهَاةُ حُسْنٍ ... سَبَتْ لُبِّي وقَدْ مَلكَتْ فُؤادي
لها لحظٌ ترقِّدهُ لأَمْرٍ ... وذاك الأَمْر يمنعُني رقَادي[2]
إذا سَدَلَتْ ذوائبها عَليها ... رأيتَ البَدْرَ في أفقِ السَّواد[3]

---

(١) كلمة بِوادي الأولى: واد آش ، والباء حرف جر. والثانية: آثار بوادي: أي ظاهرة. وهذه صنعة رائعة.

(٢) وما أجمل قول ابن حمديس في هذا المعنى:

هلاّ نَظَرْتَ إلىٰ تَفْتيرِ مقْلتِها ... إنّي لأعْجَبُ منه كيفَ ما سَحَرَك

(ديوان ابن حمديس ص ٢١٢).

(٣) تنْسَبُ لأبي نُواس أبياتٌ تتوافَقُ مع معاني هذا البيتِ ، وهي جميلةٌ رائعةٌ ، حيث يقول:

نَضَتْ عنها القميصَ لصبّ ماءٍ ... فورَّدَ وجْهَهَا فَرْطُ الحياءِ
وقابلتِ الهواءَ وقد تعرَّتْ ... بمعتدلٍ أرقَّ منَ الهَواءِ
ومدَّتْ راحةً كالماءِ منها ... إلىٰ ماءٍ مُعَدّ في إناءِ
فلما أنْ قَضَتْ وطراً وهمّتْ ... على عجلٍ إلىٰ أخْذ الرِّداءِ
رأتْ شخصَ الرّقيب على التّداني ... فأسبلتِ الظَّلامَ على الضّياء
وغابَ الصُّبح منها تحتَ ليلٍ ... وظلَّ الماءُ يقطرُ فوقَ ماءِ
فسبحانَ الإلهُ وقد بَراها ... كأحسنِ ما يكون منَ النّساء

(ديوان أبي نواس ص ٢٧) ، و(إعلام الناس ص ١٥١) طبعة دار صادر.

كــأنَّ الصُّبْــحَ مــاتَ لــه شَقيــقٌ فمــنْ حُـزْنٍ تَسَــربْــلَ بــالسَّــوَادِ[1]

* هـذه هـي حمـدةُ بنـةُ زيـاد الأنـدلسيّـة التـي زيّنـتْ شِعْـر النسـوةِ الأندلسيّات بجمالِ شِعرها ، وأضفتْ إلىٰ تاريخِ المرأةِ الأندلسيّة رصيداً طيّباً لا تزالُ آثارُه بَوَادي إلىٰ الآن.

* هذا وقد كانتْ وفاةُ حمدةَ الأندلسيّة في نهايةِ القرنِ السَّادس الهجري في حدودِ سنة (٦٠٠ هـ) حيثُ أشَار «الزّركلي» إلى ذلك في «الأعلام» عند ترجمتهِ لها. فرحَم الله حمدةَ ، وأنعمَ عليها حَمْده.

* * *

(١) انظر: نفح الطيب (٦/ ٦٧ و٦٨) ، والمغرب (٢/ ١٤٦) ، والمطرب (ص ١١) مع خلاف يسير في بعض المفردات. وانظر: معجم الأدباء (١٠/ ٢٧٥ و٢٧٦) ، ونزهة الجلساء (ص ٣٩) والدر المنثور (ص ١٧١) ، وأعلام النساء (٦/ ٢٩٣) ، ورايات المبرزين (ص ١٦٨) ، وفوات الوفيات (١/ ٢٨٩) ، والوافي بالوفيات (١٣/ ١٦٤) ، وبغية الملتمس (ص ٥٤٦) ، والإحاطة (١/ ٤٩٠) ، وشاعرات العرب (ص ٢١٥).

الشِّلْبيَّة

* شاعرة ، وجهت شعرها الشاكي إلى سلطان الموحّدين .
* لها جملة قصائد ومقطعات احتفظت بها ذاكرةُ التاريخ .
* فاضلة ، ناثرة ، أديبة ، مُناظِرة للشعراء .

الشِّلْبيّة

* هناكَ نساءٌ منَ الأندلسِ غابَ عنِ التَّاريخ ذِكْرُ أسمائِهنَّ ، بل إنَّ ذَاكِرتَه القويّة ضَعُفَتْ عَن الاحتفاظِ بأسماءِ كثيراتٍ ممن كان لَهُن نصيبٌ في أدَبِ المرأةِ في هاتيكَ البلادِ ، ولكنَّه كانَ يعطفُ علينا في بعضِ الأحايين فيذكرُ لنا نساءً يُنْسَبْنَ إلىٰ بلدةٍ منَ البلادِ الأندلسيّة فيقولُ: القُرطبيّةُ ، والحِجاريّةُ ، والرّكونيّةُ ، ويذكرُ أحياناً أسماءَهُنَّ أو كِنَاهُنَّ.

* ومنَ النِّساءِ اللواتي اقتعدنَ مكانةً مرموقةً بين النِّساءِ الأندلسيّاتِ الشِّلْبيّة[1] التي ذكرَها المقَّري وغيرُه هكذا دون أنْ يفْصِحَ عن اسمِها ، وإنَّما نَسبَها إلىٰ بلدِها «شِلْب» وما أدراكَ ما مدينةُ شِلْب ؟!

* يحدّثُنا الأميرُ شكيبُ أرسلان في «حُلَلِه» عن مدينةِ شِلْب ما مُفَاده فيقولُ: ومدينةُ شِلْبٍ حَسَنَةٌ ، في بَسيطٍ منَ الأرضِ ، وعليها سُورٌ حصينٌ ، ولهَا غلاّتٌ وجَنَّات ، وشُرْبُ أهلِها منْ واديها الجاري بجنوبها ، وعليه أَرجاءُ البلدِ ، والبحرُ منها غَرباً علىٰ ثلاثةِ أميال؛ . . . . والعُودُ بجبالِها كثيرٌ ، يُحْمَلُ منها إلىٰ كلِّ الجهاتِ. والمدينةُ في ذاتِها حَسَنَةُ الهيئةِ ، بديعةُ المبَاني ، مرتَّبةُ الأَسْواقِ ، وأهلُها وسُكَّانُ قُراها عَرَبٌ منَ اليَمنِ وغيرها ، وهم يتكلَّمون بالكَلامِ العربيّ الصَّريح ، ويقولُون الشِّعْر ، وهم فصحاءُ نُبلاء ، خاصتهم وعامَّتهم ، وأهْل بَوَادي

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٧٣ و٧٤) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٢٥٦). وأعلام النساء (٢/ ٣٠٣).

هذا البلدِ في غَايةٍ منَ الكَرمِ ، لا يجاريهم فيه أحَدٌ. ومَدينةُ شِلْب علىٰ إقليمِ «الشّنْشين» Chinchin ، وهو إقليمٌ بهِ غلاّتُ التّين الذي يُحْمَلُ إلىٰ أقطارِ الغَربِ كلّها ، وهو تينٌ طيِّبٌ عَلِكٌ لذيذٌ شَهيّ[1] .

* وفي شِلْبٍ يقولُ الكاتِبُ الفَاضِل أبو عمرو بنُ مالك:

أَشَجَاكَ النَّسيمُ حيْنَ يَهُبُّ ... أَمْ سَنَا البَرْق إذْ يخُبُّ ويَخْبُو
أَمْ هَتوفٌ علىٰ الأَرَاكَةِ تَشْدُو ... أَمْ هَتُونٌ منَ الغَمَامَةِ سَكْبُ
كُلُّ هذَاكَ للصَّبَابَةِ دَاعٍ ... أَيُّ صَبٍّ دُمُوعُهُ لا تَصُبُّ
أَنَا لَولاَ النَّسيمُ والبَرقُ والوُرْ ... قُ وصَوْبُ الغمام ما كُنْتُ أَصْبُو
ذَكَّرتَنِي شِلْباً وهيهاتَ مِنّي ... بَعْدَمَا اسْتَحكَمَ التَّباعُد شِلْبُ[2]

* وعن شِلْب يقول «ياقوتُ الحمويُّ» واصِفاً أهلَها وشاعريتهم وأعلامَهم: وسمعتُ ممّنْ لا أُحْصِي أنَّه قَلَّ أنْ تَرىٰ مِنْ أهلِها مَنْ لا يقولُ شِعْراً، ولا يُعاني الأَدَبَ، ولو مررْتَ بالفلاّحِ خَلْفَ فَدَّانِهِ، وسألْتَه عنِ الشِّعْرِ، قَرَضَ من ساعَتِهِ ما اقترحت عليه ، وأيّ معنىً طَلَبْتَ مِنْه[3] .

* وتفتخرُ شِلْب بكونِ ذي الوزَارتَيْن أبي بكْر بنِ عمَّار منْها ، ومنها القائدُ أبو مروانَ عبدُ الملك بنُ بَدران ، وربّما قيل ابنُ بدرون ، الأديبُ المشهورُ شارِحُ قصيدةِ ابنِ عبدون التي أوّلُها:

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ العَيْنِ بالأَثَرِ ... فَما البُكَاءُ عَلى الأَشْبَاحِ والصُّوَرِ[4]

* وفي مدينةِ شِلْب مدينةِ السِّحْر والشّعْر والجمالِ والحبِّ نَشَأَتْ الشِّلْبِيّةُ؛ وكأَهْلِ شِلْبٍ كانَتْ هذه المرأةُ تنظمُ الشِّعْر بالسَّليقةِ ، وكانت كما وصفتْها زينبُ بنتُ يوسُف فوّاز في «درّها»: كانَتْ أديبةً ، فاضلةً ،

---

(١) الحلل السندسية (١/ ٨٦ و٧٧) بتصرف يسير.
(٢) المرجع السابق (١/ ٢٢١).
(٣) معجم البلدان مادة (شلب).
(٤) الحلل السندسية (١/ ٢٢٢).

شاعرةً ، ناثرةً ، واشتهرَ صيتُها بالأندلسِ ونواحيها ، حتّى إنّها كانَتْ تجالسُ الملوكَ ، وتناظرُ الشُّعراء ، ولها جملةُ قصائدَ ومقطعاتٍ ، ولم يُجمعْ شِعْرها بديوانٍ حتى يظهرَ للعَيان(١) .

* والشِّلْبيّةُ هذهِ امرأةٌ وصَلَ صوتُها المتمثّل في شِعْرِها إلى قُصورِ السَّلاطينِ والأُمَراء وذلـك فيمـا بيـنَ الـقَـرنَـيْـنِ السَّـادسِ والسَّـابـعِ الهِجْريَّيْن ، فـقد نَـفَـثَـتْ شكْوَاها الحزينةَ التي رسمتْها شِعْراً ، حيث كانَتْ تُعاني منْ ظُلْم وجُورِ والي بلدِها الذي أحَالَ مدينـةَ شِلْب إلىٰ نارٍ حاميـةٍ بعد أنْ كانت جنَّـةً جميلةً بهيةَ المنظرِ والمخبرِ ، ولم يخَفْ ذاكَ الوالي الظَّالم من عقوبةِ اللهِ عزَّ وجلَّ؛ وعندها وجَّهَتْ شِعْرها الباكي والذي بكَتْ معه الحجارةُ إلىٰ السُّلطان يعقوب المنصور أحدِ ملوكِ الموحّدين الذي حَكَم منْ سَنة (٥٩٥ ـ ٦٠٩ هـ) ولنستمعْ إلىٰ لَحنِ الشِّلْبيّةِ الحزينِ الشَّجيّ حيثُ تقولُ:

قَـدْ آنَ أنْ تَبْكـي العُيُـونُ الآبيـه ... وَلَقَـدْ أَرَىٰ أَنَّ الحِجَـارَةَ بَـاكِيَـه
يَا قَاصِدَ المِصْرَ الذي يُرجَىٰ بِهِ ... إنْ قَـدَّرَ الـرّحْمَـنُ رَفْـعُ كَـرَاهِيَـه
نَـادِ الأَميْـرَ إِذَا وقَفْـتَ بِبَـابِـهِ ... يَـا رَاعيـاً إنَّ الـرَّعيَـةَ فَـانِيَـه
أَرسَلْتَهـا هَمَـلاً وَلاَ مَـرْعَـىٰ لَهـا ... وتَـركْتَهَـا نَهْـبَ السِّبَـاعِ العَـادِيَـه
شِلْـبٌ كـلا شِلْـبٍ وَكَـانَـتْ جنَّـةً ... فَـأَعَـادَهَـا الطَّـاغُـونَ نَـارَاً حَـامِيَـه
حَافُوا وَمَا خَافُوا عُقُوبَةَ ربِّهِمْ ... واللهُ لا تَخْفَـىٰ عَلَيْـهِ خَـافِيَـه

فَيُقال: إنَّ هذهِ القصيدةَ قد أُلْقِيَتْ علىٰ مصلّى المنصورِ يوم الجمعةِ ، فلما قَضَىٰ الصَّلاةَ ، وتصفَّحَها ، بحثَ عنِ القضيةِ ، فوقفَ علىٰ حقيقتِها ، وأمرَ لها بِصِلَةٍ ، وكَشَفَ ظُلامتَها بِعَزْلِ ذلكَ الوالي(٢) .

---

(١) الدر المنثور (ص ٢٥٦).
(٢) انظر: نفح الطيب (٦/ ٧٤) ، والدر المنثور (ص ٢٥٦) مع الجمع والتصرف.

* تُرى هل كانَ صوتُ الشّاعرةِ الشِّلْبيةِ الصَّوتَ النَّسويَ المسموعَ في قُصورِ الأُمراء والسَّلاطين؟!

* إنَّ التَّاريخَ النَّسويَّ لِنِسَاءِ الأندلس يروي لنَا أنَّ أصواتاً نسائيةً عانقَتْ أسماعَ الأمراءِ، ومنهنّ: حَسَّانَةُ التّميميّة(١)، وأسماءُ العَامِريّة(٢)، والغَسَّانيّةُ البجّانية(٣)، وعائشةُ بنتُ أحمدَ بنِ محمّد بنِ

---

(١) حسَّانَةُ التّميميّة بنتُ أبي المخشي الشّاعر، تأدّبتْ وتعلّمتِ الشّعر، فلما ماتَ أبوها كتَبَتْ إلىٰ الحكم، وهي إذ ذاك بكْرٌ لم تتزوّج، أبياتاً منها:

إنّي إليكَ أبا العَاصي موجعةٌ ... أبا المخشّي سَقَتْه الواكفُ الديمُ
قد كنتُ أرتعُ في نعماهُ عاكفةً ... فاليوم آوي إلىٰ نعماك يا حكمُ

ثم حدثَ أنْ ظلمَها عاملُ إلبيرةَ، فأوصلتْ صوتَها إلى عبد الرحمن بن الحكم بقصيدة أوّلها:

إلىٰ ذي النّدى والمجدِ سارتْ ركائبي ... علىٰ شَحَطٍ تَصلىٰ بنارِ الهوَاجر

فاستجابَ لها، وعزَل عاملَ إلبيرة فمدحتْه بقصيدةٍ دالية أيضاً، واقرأْ سيرتَها بتوسُّع في هذا الكتابِ حيث أتينا علىٰ معظم أخبارها.

(٢) أسماءُ العَامريّةُ، من أهلِ إشبيلية، كانتَ فصيحةً أديبةً ظريفةً لطيفةً عذبةَ المنطقِ، سلسةَ الألفاظِ، لها أشعارٌ رائقةٌ، ومعانيها شائقةٌ، وقصائدُ مطوّلة، تمدحُ فيها الخلفاء في زمانِها ونثرٌ منسجمٌ، لطيفُ العبارةِ، فمن ذلك الرّسالة التي أرسلتْها إلى عبدِ المؤمنِ بنِ عليّ التي نَمتْ إليهِ بنسبها العامريّ، وتسألُه رفْع الضَّريبة عن دارِها، والاعتقال عن مالِها، وفي آخرها قصيدةٌ، قالت في أوّلها:

عَرفْنَا النَّصْرَ والفَتْحَ المبينا ... لسيّدنا أميرِ المُؤمنينا
إذا كانَ الحديثُ عن المعَالي ... رأيتُ حديثكم فينا شجونا

ومنها:

رويتمُ عِلْمَه فعلمتموهُ ... وصُنْتُم عَهْده فغدا مصَونا

فلّما اطّلعَ علىٰ قصيدتِها ومقالها أجابَ طلبَها في جميعِ ما سألته عنه. (نفح الطيب ٦/ ٧٢)، و(الدر المنثور ص ٤٠) مع الجمع والتصرف.

(٣) الغسّانية البجّانية، أديبةٌ شاعرةٌ من أهلِ بجّانة في القرنِ الرابعِ والخامسِ الهجريّ، كانت تمدحُ الملوكَ، وقالت منْ أبياتٍ لها:

عَهدتُهمُ العيشُ في ظلّ وصْلِهم ... أنيقٌ وروضُ الوصْلِ أخضرُ فينانُ =

قادم القُرطبيّة[1] وغيرهنّ كثيراتٌ لا يُحْصَون.

❊ وتبقىٰ الشِّلبيّةُ امرأةً منْ نساءِ الأندلس اللاتي ننظمُهنَّ في سِمْطِ لآلىءِ هذا الكتاب، ليكونَ لها نصيبٌ فيمن لهنَّ نصيبٌ منْ نساءِ الأَندلُس.

❊ ❊ ❊

= واقرأ سيرتها بتوسع في هذا الكتاب.

(١) اقرأ سيرتها في هذه الموسوعة.

صفيّة بنت عبد الله الرّيّي

* شاعرة ، تجيد كتابة الخط الجميل ، أديبة موصوفة .
* جميلة ، بهية الطلعة ، مليحة القسمات .
* ماتت وهي في ميعة الصبا ، وشرخ الشباب .

صفيّة بنت عبد الله الرّيّي

* إذا كانَ الرِّجالُ قد تسابقُوا في إظْهَارِ براعتِهم في فَنِّ الخَطّ ، فإنَّ النِّساءَ قد جاذَبْنَ الرِّجالَ هذا الفنّ وبرعْنَ فيه ، وأظهرنَ الإجادةَ التي لا مزيدَ عَلَيْها.

* وضيفةُ اليوم ، شاعرةٌ رقيقةٌ كأَنْفَاسِ الصّبا ، حبَاها اللهُ جَمالَ الخَطّ وحُسْنَه ، حيثُ أتقنتِ الخطَّ إتقاناً لَفَتَ إليها الأنْظار ، وجَعَلَه أحدَ مَعَالمِ شخصيتها البارزةِ ، حتى قال عنْها ابنُ بشكوال: أديبةٌ شاعرةٌ موصوفةٌ بحسنِ الخطّ[1].

* وهذهِ المرأةُ الخطَّاطَةُ الأديبةُ هي صفيّةُ بنتُ عبد الله الرّيي[2] إحدىٰ نساءِ الأندلسِ اللواتي لم نَعْثُر علىٰ أخبارهنَّ سوى النّزْرِ اليسيرِ الذي لا يروي الغُلَّة.

* وَضَيفتُنا هذه لا نَعْلمُ لَها مَوطناً ، إلاّ أنّنا نعرفُ أَنَّها من نساءِ القَرنِ الرَّابع الهِجريّ وأوائلِ القَرن الخامسِ ، أمّا كيفَ كانتْ حياتُها وثقافتُها فذلك ما سكَتَتْ عَنْه المصادرُ التي ترجَمَتْ لها.

* علىٰ أَنّ التّاريخَ النّسويَّ الأندلسيَّ يشيرُ إلى نسوةٍ عُرفْنَ بجودةِ الخطِّ وجمالِه ، وقد أوردَ ابنُ بشْكوال طائفةً منهنَّ ، وأشارَ إلىٰ

---

(١) الصلة (٢/ ٦٥٤).

(٢) بغية الملتمس (ص ٥٢٧) ترجمة رقم (١٥٨٣) ، والصلة (٢/ ٦٥٤ و٦٥٥).

اهتمامهنَّ بفنّ الخطِّ ، فذكرَ «لبْنىٰ» كاتبةَ الخليفة الحكَم بن عبد الرحمن وقال: كانَتْ حاذقةً بالكتابةِ ، نحويةً شاعرةً ، بصيرةً بالحسابِ ، مشاركةً في العِلْمِ ، لم يكنْ في قَصْرِهم أَنْبلُ منها ، وكانَتْ عروضيةً ، خطّاطةً جدّاً ، وتوفيتْ سَنة (٣٧٤ هـ).

* وكذلك «مُزْنَـةُ» كاتبةُ الخليفةِ النَّاصر لدينِ الله ، كانت حاذقةً بالكتابةِ من أخطّ النِّساء ، توفيتْ سنة (٣٥٨ هـ).

* ومنَ الخطَّاطات الأندلسيّات فاطمةُ بنتُ زكرياء بنِ عبد الله الكاتب المعروف بالشَّبلاري مَولىٰ بني أميّة. كانت كاتبةً جزلةً متخلصةً ، عمَّرت عُمراً كثيراً ، واستكملَتْ أربعاً وتسعينَ سنَة تكتبُ علىٰ ذلك الكُتُبَ الطّوال ، وتجيدُ الخطَّ وتحسنُ القَول ، توفيتْ سنة (٤٢٧ هـ).

* وذكر ابنُ بشكوال أيضاً الخطّاطة طونةَ بنتَ عبد العزير بنِ موسى بنِ طاهر بن منّاع ، وتكنىٰ بحبيبةَ ، وهي زوجُ أبي القاسم بن مديرِ الخطيب المقرىء. كانتْ حسنةَ الخطِّ فاضلةً ديّنَةً ، ولدتْ سنة (٤٣٧ هـ) ، وتوفيتْ سنَة (٥٠٦ هـ).

* ومنَ النِّساءِ الأندلسيّات الخطَّاطاتِ «ريحانةُ» جارية الطّبيبِ أبي عبد الله الكنَاني ، اشتراهَا هُذيل بنُ خَلف بنِ لبّ بن رُزَين البربريّ بثلاثة ألاف دينار[١].

* قال ابنُ حيّان في تاريخهِ وقد ذَكَرَ جَوْدَة خطِّها ، ودلَّ على ثقافِتها وأشارَ إلى معارفها المتنوّعة النَّادرة: لم يُرَ في زمانِها أخفُّ منها روحاً ، ولا أسرعُ حركةً ، ولا ألينُ أَعْطافاً ، ولا أطيبُ صوتاً ، ولا أحسنُ غناءً ، ولا أجودُ كتابةً ، ولا خَطاً ، ولا أبدعُ أدباً ، ولا أَحْضَرُ شَاهِداً ، مع السَّلامةِ منَ اللحنِ في كُتُبها وغنائِها ، لمعرفتها بالنَّحو واللغَةِ

---

(١) الحلل السندسية (٢/ ١٠١).

والعَروض ، إلى المعرفةِ بالطّبِّ ، وعلْمِ الطَّبائِع ، ومعرفةِ التَّشريح ، وغيرِ ذلك مما يقصِّرُ عنه علماءُ الزَّمان ، وكانت محسنةً في صناعةِ الثِّقاف ، والمجاولةِ بالتّراسِ ، واللعبِ بالرّماح والسُّيوف والخَناجرِ المرهَفةِ ، لم يسمعْ لها في ذلك بنظيرٍ ولا عَديل[١] .

* على أنَّ هناكَ بعضُ النِّساءِ الشّاعراتِ الأديباتِ قد عُرفنَ بكراهيتهنَّ للخطّ ، واعتبرنـه تزييناً للأوراقِ ليس غير ، كما اعتبرنَه صفراً علىٰ الشِّمال لا فائدةَ له ، فاسمعْ إلىٰ أمِّ الحسن الطَّنجاليّةِ تقولُ في ذلك:

الخَطُّ لَيْسَ لَهُ في العِلْمِ فَائِدَةٌ   وَإِنَّمـا هُـوَ تَـزْيِيـنٌ لِقِـرطَـاسِ

* ولكنَّ الخطاطةَ البارعةَ صفيةَ ابنةَ عبد الله الرّيّيّ ، تدلُّ علىٰ جمالِ خطِّها بشِعْرِها ، وتشيرُ إلىٰ جودَةِ الخطِّ الذي تجودُ به يدُها علىٰ الأوراقِ .

* ففي ردٍّ منطقيٍّ لطيفٍ وآسِرٍ ، تقولُ صفيّةُ لامرأةٍ حاسدةٍ قد عابَتْ خطَّها ، وزعَمتْ أنَّه رديء :

وَعَائِبَةٍ خَطّي فَقُلْتُ لَها اقْصِرِي   فَسَوفَ أُرِيْكِ الدُّرَّ في نَظْمِ أَسْطُرِي
وَنَادَيْتُ كَفِّي كي تَجُودَ بِخَطِّهَا   وَقَرَّبْتُ أَقْلامي وَرِقّي وَمَحْبَري
فَخَطَّـتْ بـأَبْيَـاتٍ ثَـلاثٍ نَظَمْتُهـا   لِيَبْدُو بِهَا خَطّي وقُلْتُ لَها انْظرُي[١]

* ويظهر لنا أنَّ صفيةَ هذه كانَتْ تعتزُّ بجمالِها وبهاءِ طلعتها بالإضافةِ إلىٰ جمال خطِّها ، وعنَدما نظَمتْ هذهِ الأبياتِ كانت في ميعةِ الصِّبا والشَّباب .

* ومنَ الجديرِ بالذّكر أنَّ الأُدباءَ تباروا في وصْف الجواري والنِّساء اللواتي جَمعْنَ حُسْنَ الوجْهِ وحُسْنَ الخطّ ، فقد وصفَ أحمدُ بنُ صالح جاريةً كاتبةً فقال: كأَنَّ خطَّها أَشْكَالُ صُورتها ، وكأَنَّ مدادَهَا سوادُ

---

(١) الصلة (٢/ ٦٥٥).

شَعْرِها ، وكأَنَّ قرطاسَها أديمُ وجهِها ، وكأنَّ قلمَها بعضُ أنامِلها ، وكأنَّ بيانها سِحْرُ مقلتِها ، وكأن سكينَها سيف لحاظِها ، وكأنَّ مقطَّها قلبُ عاشقها[1].

* وما دمنَا في رحابِ الخَطّ ، فلا بأْسَ أنْ نذكرَ بعضَ محاسنِه ، فقد سُئِل بعضُ الكتّاب عنِ الخَطّ : متى يستحقُّ الخطُّ أنْ يُوصَفَ بالجودَةِ؟! فقال : إذا اعتدلتْ أقسامهُ ، وطالتْ ألِفُه ولامُه ، واستقامَتْ سطورُه ، وضاهىٰ صعودُه حدورهُ ، وتفتَّحَتْ عيونُه ، ولم تُشْبَه رَاءَه نُونُه ، وأشرقَ قرطاسُه ، وأظلمتْ أنقاسُه ، ولم تختلفْ أجناسُه ، وأسرعَ إلى العيونِ تصوّره ، وإلى العقولِ ثَمره ، وقدّرت فصولُه ، واندمجت وصولُه ، وتناسبَ رقيقُه وجليلُه ، وخرجَ عن نمطِ الورّاقين ، وبَعُدَ عن تصنُّع المحدرين ، وقامَ لكاتبهِ مقام النّسبةِ والحليةِ ، كان حينئذٍ كما قلتُ في وَصَفْ خطّ :

إذَا مَـا تَحلَّـلَ قِـرطَـاسُـهُ ... وسَـاوَمَـه القَلَـمُ الأَرْقَـشُ
تَضَمَّـنَ مِـنْ خطّـه حُلَّـةً ... كَنَقْـشِ الـدَّنـانيـر بـل أَنْقَـشُ
حـروفٌ تعيـدُ لِعَيْـنِ الكَلِيْـلِ ... نَشَـاطـاً ويَقْـرؤهَـا الأَخْفَـشُ[2]

* ونعودُ إلى الخطّاطـةِ البارعـةِ صفيـةَ الرّيـي التي جَعَلتنـا نسبـحُ في

---

(١) انظر : أدب الكتاب للصولي (ص ٣٩ و٤٠) طبعة بيروت.
(٢) أدبُ الكتّاب (ص ٤١ و٤٢).
ولا زالَ الحديثُ موصولاً عن الخطّ ، فقد حُكيَ أنَّ مَلِكَ الرُّومِ قالَ : ما حَسدْتُ العربَ علىٰ شيءٍ كالحسَدِ على أشكالِ خطوطهم.
وقيل : الخطّ لسانُ اليدِ. وقيل : الخطُ هندسةٌ روحانيّةٌ ظهرتْ بآلةٍ جسمانيّة.
وقيل : العِلمُ شجَرٌ والخطّ ثمَرٌ. وفضّل بعضُهم الخطَّ على اللفظِ فقال : الخطُّ للقريبِ والبعيدِ ، واللفظُ للقريبِ فقط.
وقيل : كلُّ صناعةٍ تحتاجُ إلى ذكاءٍ إلا الكتابة ، فإنَّها تحتاجُ إلىٰ ذكاءَين : جَمْعُ المعَاني بالقَلْب ، والحروفُ بالقلم.
وقال الجاحظُ : إنّما عَذُبَ شعْرُ النَّابغة لأنَّه كان كاتباً ، وكذلك زُهير.

عالَمِ الإبـداعِ معها ، فقد كانتْ هذهِ الشَّاعرةُ المِفَـنَّـةُ الخطَّاطة[1] منْ نابهاتِ عَصْرِهـا ، وعلى الرغمِ من أنَّ حياتَها كانت قصيرةً ، إلاّ أنّها أبدعَتْ في الخطّ ، وقد ماتتْ صفيّـةُ سنةَ (٤١٧ هـ) وهي في تألُّقِ الشَّباب لم تتجـاوزِ الثّلاثينَ ، بَـيْـد أنَّ رحلةَ فَـنِّها وجـمالَ خَطِّها قد تجاوزَ بلدَهَا وأَنْدلُسِهَا ، لتقتديَ به النّساءُ المشرقيَّاتُ ويُبدعْنَ فيهِ ، ويُعْـرَفْـنَ بهـذا الفَـنّ فيُقـال: الخطَّـاطَـةُ ، ومنهـنَّ: الخطَّـاطَـةُ حـافِظَـةُ خَـاتُـون[2] ، وفـاطمـةُ بنـتُ الحسـنِ الأقْـرع[3] ، وشُهَـدةُ بنْـتُ أحمـد

---

(١) ذمَّ بعضُ القَدماء الكتابةَ إذا تولاّها النّساء ، ونسبُوا إلى عمرَ رضي الله عنه قولُه: جنّبوهنَّ بهنَّ الكتابةَ. وبالطَّبع فهذا غيرُ معقول.
وقال دقنسُ الفيلسوف وقد رأىٰ جاريةً تتعلّم الكِتابةَ: تُسقي سَهْمَها سُمّاً لترميكَ به يوماً.
وقال السَّامي:

مـــا للنِّســـاءِ والكتـــا ... بـــةِ والعمـــالـــةِ والخَطـــابـــه
هـــذا لنـــا ولهـــنّ منـــا ... أنْ يبتـــنَ علـــى جنَـــابـــه

(محاضرات الأدباء ١/ ٩٦ ـ ٩٩) بتصرف.

(٢) «الخطّاطَةُ حَافِظَةُ خَاتُون»: هيَ الخطّاطةُ البارعةُ حافظةُ بنتُ محمّد سعيد أفندي ، درسَتِ الحديثَ الشّريفَ علىٰ أبيها قاضي الحلّة في العِراق. وكانَتْ تروي سلسلةَ الحديثِ عنه ، وأخذتْ فنونَ الخطّ العربيّ عن الخطّاط الشّهير: سُفيان الوهْبيّ البغداديّ ، ونالتِ الإجازةَ منه ، وكان لها ذوقٌ وتفنّنٌ وإبداعٌ في خَطَّيْ الثّلُث والنّسخ ، وكانت امرأةً صالحةً تقيّةً ، توفيتْ ببغدادَ بالطّاعون الكبير سنَةَ (١٢٤٦ هـ) ، ودُفنَتْ في مقبرةِ الخيزُران بالأعظميّة. (البغداديّون أخبارُهم ومَجالِسُهم ص ٢٥٨).

(٣) فاطمةُ بنتُ الحسنِ بن عليّ بنِ عبد الله العطّار الأقرع ، أمُّ الفَضْل: فاضلةٌ ، اشتهرتْ بجودةِ الخطِ علىٰ طريقةِ ابنِ البوّاب ، وكانَ خطّها ممّا يجوّدُ عليه.
قال الذَّهبيّ ـ رحمه الله ـ: وبكتابتِها يُضْرَبُ المثل ، وهي التي نُدِبَتْ لكتابةِ كتاب الهُدنة إلى طاغيةِ الرُّوم من جهةِ الخلافَة ، وكانت تقولُ: كتبْتُ ورقةً لعميدِ المُلْكِ الكندري فأعطاني ألفَ دينار. وكان أبوها عطّاراً منْ أهلِ بغدادِ ، وتوفيت بها في شَهْر المحرم سنة (٤٨٠ هـ). (سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٨٠). واقرأْ سيرتَها=

الإبريّ[1] ، حتّى وجَدْنَا بَعْضَ مَلِكَاتِ الإسْلام يُجِدْنَ الخطَّ ويكْتُبْنَه ، منْ مثلِ شجرةِ الدُّرّ الصَّالحية ، وهي منَ الشَّهيرات في تاريخِ الإسلامِ ، وفي تاريخ نساءِ مصْرَ خَاصّة ، فقد كانَتْ ذاتُ إدارةٍ وحَزْمٍ وعقْلٍ ، وهيَ زوجةُ المَلِكِ الصَّالح بمصْرَ ، كانتْ تكتُبُ وتخطُّ الخَطَّ ، وتصْدِرُ المراسيمُ وعليها توقيعُ شَجَرةِ الدُّرّ باسم: أُمِّ خَليل ، وقد ماتَتْ شجرةُ الدُّرّ مقتولةً سنَة (٦٥٥ هـ)[2] .

* ومنَ الخطَّاطات منْ نساءِ القُصور ، فاطمةُ حاضِنَةُ المعزّ بنِ باديس الصَّنهاجيّ ، وهي منْ ربّات البِرّ والإحسانِ والعَقْلِ والرّأْي والفِكْر وسَعَةِ الإدْرَاك وعلوّ الهِمّة ، وكانت محلَّ احترام المعزّ بنِ باديس ، حيثُ عزَّ جانبُها واندمَجَتْ في صفِّ الأميراتِ الصَّنهاجيّاتِ ، اشتهرتْ بنسخِ الكُتُبِ وزخْرفَتِها مع جَدَّةِ المعزّ (أمّ ملال) ، وزوجِهِ (زليخا) ، وأختهِ (أمّ العلوّ) ، إضافة إلىٰ المصاحفِ المحبسةِ التي تُعَدُّ آيةً في جمالِ الخَطّ ، ورونقِ التَّذْهيب والزَّركشَة ، ونموذجِ خطّها في مُصحفٍ تاريخُ حَبْسَتِه سنة (٤١٠ هـ) ، وقد نُشِرَتْ صفحةٌ منْهُ في مجلّة مَعْهدِ المخطوطاتِ العربيّة سَنَة (١٩٥٥ هـ) ، وقد اشتهِرتْ بالفضيلةِ والورع وعمل البرّ ، ويكفيها فخراً وقْفُها علىٰ جامعِ عقبة بالقيروان الكُتُبَ

= بتوسّع في كتابنا الشّهير؛ وموسوعتنا المتنوّعة «نساء منَ المشْرقِ العربيّ» ففيهِ فوائدُ جليلة إنْ شاءَ الله تعالى.

(١) شُهدةُ بنتُ أحمد الإبريّ ، فخرُ النّساء ، الدِّينوريّة البغداديّة الكاتبةُ المجيدةُ ، والمحدِّثَةُ المسندةُ العالمةُ ، كانت ذاتُ دِيْنٍ وعبادةٍ وصلاح وبرٍّ وإحسان ، وكانت منْ أبرزِ علماء الحديث وسمعَ عليها كثيرون مثل: ابن عسَاكر ، وابن الجوزيّ ، والموفّق وغيرهم ، عمرّت حتى ألحقتِ الصّغار بالكبار ، وكانت تكتبُ خطّاً جيّداً لذلك سُميَتْ بشهدةَ الكاتبة. وأخبارُها كثيرةٌ استوفيناها في كتابنا «نساء من المشرق العربي» وماتَتْ سنة (٥٧٤ هـ) ببغداد.

(٢) اقرأ سيرة شجرة الدر في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» تجد الفائدة بإذن الله.

النّفيسَةَ والمؤلّفاتِ النَّادرةَ التي ما زالَ بعضُها يُشَاهَدُ ليومنَا هذا ، ومَنْ يَـزُرِ الخزَانَـةَ العتيقةَ بجامعِ عُقْبَةَ يَـرَ بها رفوفاً مسطَّرةً منَ المصَاحِفِ المخطوطةِ بالذَّهَبِ المُذابِ المكتوبة بالخطّ الكُوفيّ العجيب ، وتوفيت فاطمةُ في حدودِ سنة (٤٢٠ هـ)[١].

* ومن خطَّاطاتِ نساءِ القُصور أَيْضاً في المغربِ العربيّ: درّة الكاتبة ، حيثُ عملتْ في البلاطِ الصَّنهاجيّ واشتركَتْ مع عليٍّ بنِ أحمد الورَّاق في رسْمِ وتذهيبِ وتجليدِ مُصْحف الحاضِنَة العديمِ النَّظْيرِ الذي يَحْمِلُ تاريخُ تحبيسِه في رمضانَ سنة ٤١٠ هـ.

* كما ظهرتْ خطَّاطات بَرزْنَ في هذا الفَنّ في المشرقِ وفي غيرِها من البلدان ، فهناك خطَّاطة تركيّةٌ تدعىٰ: أسماءِ عبرتْ بنت أحمد آغا ، خطّاطةٌ منَ خطَّاطاتِ القُسطنطينيّة ، اشتهرِتْ بخطِّها الجميل[٢].

* وفي العراقِ خطّاطة مُعاصرةٌ اسمُها: جنَّة ابنةُ المهندس عدنان أحمد عزّتْ الصُّغرى ، اكتشفَ وَالدُها موهبتَها في الخطّ ، ثمَّ قدَّمَها إلىٰ أصدقائِه منَ الخطَّاطينَ ، ثمَّ سافَرتْ برفْقَةِ والدِها وأختِها الكبرىٰ «فَرح» والتقتِ الخَطَّاط الشَّهير «حامداً الآمدي» شيخ الخَطَّاطين الأَتْراك في عَصْرِنا ، وتكرَّرتِ الزِّيارة ، كما التقتِ الخطَّاط المصريَّ الشّهير «سَيِّد إبراهيم» ، وحَصَلَتْ علىٰ أوّليّةٍ في الخَطّ منْ هذَيْن العلمَيْن الكبيرَيْن.

* هذا وتاريخُ الخطَّاطات حافلٌ بكثيرٍ منَ البَدائع ، وكلُّهنَّ واصلْنَ مسيرةَ سابقتهنَّ صفيةَ بنتِ عبد الله الرّيي ، وأحيَيْنَ فنَّها الذي بلغَتْ فيهِ الذِّروة.

* فرحمَ اللهُ صفيَّةَ ، وأدخلَها جنَّةً عليّة.

---

(١) اقرأ سيرتها بتوسع في كتابنا «نساء من مصر والمغرب العربي».
(٢) انظر: أعلام النساء (١/ ٥٧).

صُبْحُ أُمّ المؤيَّد

* من سيدات النفوذ والسلطان والسياسة والإدارة.
* قرينة الحكم الأموي خليفة المسلمين في الأندلس.
* جميلة، مُدبِّرة، لها أيام حافلة بالأحداث.

صُبْحُ أُمّ المؤيّد

* هذهِ واحدةٌ منْ نِساءِ القرنِ الرَّابعِ الهِجريّ اللواتي كُنَّ منْ ربَّاتِ النُّفوذِ والسُّلطانِ والإدارةِ ، بل والسِّياسَةِ ، وكانَتْ تديرُ شؤونَ البلادِ الأندلسيّة بحريّةٍ مُطْلقةٍ ، ولم تكنْ هذه المرأةُ منَ السَّيِّدات الحرائِر ، أو ذواتِ المكانَةِ في عالَم الحسيْبَاتِ الأندلسيّات ، وإنَّما كانتْ جاريةً ، وحظيةَ خليفة ، ثمّ ما لبثَتْ أنْ أصبحَتْ أمّ خليفة ، وغَدتْ سيّدةً مطلقةَ الرَّأيِ ، تولي وتَعزِل ، وتدني وتُبْعد ، وتديرُ شؤونَ السَّلامِ والحرب ، حتى أمستْ منْ شهيراتِ نساءِ الأندلس في عَصْرِها .

* وهذهِ المحظيةُ المحظوظةُ هي صُبْح[1] أو صَبيحةُ ملكةُ قرطبة ، قرينةُ الحكَمِ المستَنْصر باللهِ الأمويّ خليفةِ الأندلس ، وأمُّ ولده هشام المؤيّد بالله .

* ويحكي لنا التَّاريخُ الأندلسيَّ قَصَص نساءٍ أجنبيّاتٍ منَ الرَّقيق ، أو الجواري ، أو الأسيرات اللواتي سَطَعْنَ في قُصورِ الأُمَراءِ والسَّلاطين ، وكُنَّ ذواتَ نُفوذٍ وسُلْطان ، ومنهنَّ صُبْحُ المرأةُ الإفرنجيّةُ الحَسْنَاءُ التي ظلَّت قرابةَ عشرين عاماً تسيطُرُ بِسِحْرِها ونفوذِها على خلافَةِ قرطبةَ وخصوصاً بعد أنْ ولَدت ابنَها هشاماً سَنَة (٣٥٤ هـ) .

---

(١) ديوان ابن دراج القسطلي (ص ٩٨ ـ ١٠٢) ، والمغرب (١/ ١٩٩ ـ ٢٠١) ، ونفح الطيب (١/ ٣٨٣) ، و(٢/ ١٣٤) و(٤/ ٨٧ و٨٨ و٩٢ و٩٣) وأعلام النساء (٢/ ٣٢٣) ، والبيان المغرب (٢/ ٢٦٨ و٢٦٩) ، ، والمعجب (ص ١٤) .

* وغدتْ صبْحُ تقومُ بتدبيرِ الدَّولَةِ مع أعظمِ رجالاتِ الأندلس في عَصْرِها ، وأمْسَت كلمتُها هي السَّهم النّافِذ الذي يصيبُ الهدفَ.

* ولم تكنْ صبحٌ متفرِّدَةً بهذا الشَّأْنِ وهذه المكانةِ بينَ نساءِ الأندلس ، وإنَّما سَبَقَها كثيراتٌ ، وخَلفَها كثيراتٌ أيضاً ، وممنَ سَبقَها إلىٰ هذا «إيلونا» القوطيّة أرملة «لذريق» مَلِك القُوط عند فَتْحِ الأندلس ، والتي يسمّيها العربُ أمَّ عَاصم ، فقد تزوجَّها عبدُ العزيز بنُ موسى بنِ نُصير ، الذي وَثَبَ عليه الجنْدُ وقَتلوه سنةَ (٩٥ هـ) في خلافةِ سُليمانَ بنِ عبد الملك الذي أوقعَ بأبيهِ موسىٰ؛ وكانتْ أمُّ عاصم زوجةَ لذريق قد صالحَتْ علىٰ نَفْسِها وأموالِها وقْتَ الفَتْح ، واعترفتْ بالجزيةِ وأدَّتْها. وأقامَتْ علىٰ دِينها النَّصراني في ظلِّ نعمتها إلى أنْ نكَحَها الأميرُ عبدُ العزيز بنُ موسى ، فحظيتْ عنده ، ويُقَال: إنَّه سَكَنَ بها في كنيسةٍ بإشبيلية ، وإنّها قالَتْ له: لِمَ لا يسجدُ لكَ أَهْلُ مملكتِك كما كانَ يسجدُ لِلَذْريق ـ زوجها الأوّل ـ أهلُ مملكتهِ؟

فقالَ لها: إنَّ هذا حرامٌ في دِيننا. فلمْ تقنَعْ منه بذلك ، وفَهِمَ لكثرة شَغَفِه بها أنَّ عدمَ ذلك ممّا يُزْري بِقَدْرِه عندها ويُعيبُه ويحطُّ منْ مكانَتهِ ، فاتَّخذَ باباً صغيراً قُبالةَ مجلسهِ يدخلُ عليه النَّاس منه ، فينحنونَ ، وأَفْهمَها أنَّ ذلك الفعلَ منهم تحيّةً له ، فرضيتْ بذلك ، فنُميَ الخبرُ إلىٰ الجنْدِ ، مع ما انضمَّ إلىٰ ذلك منْ دسيسةِ سُليمان لهم في قَتْله ، فقتلُوه ، سامَحه الله تعالىٰ(١).

* ومنهنَّ «مارية» الإسبانيّة النَّصرانية زوج الأمير محمد بن محمّد ووالدة عبد الرحمن النَّاصر أعظم خُلفاء الإسلام في الأندلس ، ويسميها العرب «مُزْنة».

---

(١) انظر: نفح الطيب (١/ ٢٦٨) بتصرف يسير جداً.

* ومنهنّ «ثُريا» النَّصرانية زوج السُّلطان أبي الحسن النَّصْري مَلِك غرَناطة ، وهي فتاةٌ إسبانية وابنة قائد شَهير ، أُخِذَتْ أسيرةً في بعضِ المعارِكِ التي وقعتْ بينَ المُسلمين والنَّصارىٰ ، وكانَ لنفوذِها ودسائِسها أثرٌ كبيرٌ في إِضْرام الحَربِ الأهليّة في غَرناطةَ ، وفي دسائِسها كذلك ضدّ ضرّتها عائشة الحرّة[1] ، وفي سَيْرِ الحوادثِ التي أدَّتْ ـ بعد مدّة وجيزةٍ منَ الزَّمن ـ إلىٰ ذَهابِ دولةِ الإسلام في الأندلس ، ولعلَّ هذا ما كانت تصبو إليه ثُريا[2] .

* وسِيَـرُ هؤلاء النِّساء تَمْلأُ الصَّفحات ، حيثُ لم يكن لمعظمهنّ أثرٌ محمودٌ علىٰ دولةِ الإسلامِ في الأندلس؛ وكُنَّ سَبَباً في كثيرٍ منَ الأحداثِ التي عَصَفَتْ بحياةِ كثيرٍ من الأُمراءِ والملوكِ فحسب ، بل كُنَّ يُغَيّرنَ مجرىٰ حياةٍ في عَصْر منَ العُصور .

* وأمّا صُبْح هذه فلا نَعْرِفُ شيئاً عن بدايةِ حياتِها ، ولا عن نَشْأتِها ، إلّا أنَّنا نستخلصُ منَ المصَادِر التي بين أَيدينا أنها كانَتْ جاريةً بَشْكَنْسيّة ، أي نافاريّة ، وأنَّها ظهرَتْ في قرطبةَ في منتَصَفِ القَرنِ الرَّابعِ الهِجريّ في أوائِل عَهْدِ الحكم المُستَنْصِر بالله (٣٥٠ ـ ٣٦٦ هـ) .

---

(١) اقرأ سيرةَ عائشةَ الحرّة في هذا الكتاب؛ وهي عائشةُ بنتُ أبي عبد الله الأَيْسر حيثُ سيرتها منَ السِّيرِ العظيمةِ لامرأةٍ جليلةِ القَدْرِ لها دورٌ في إثْراءِ الدَّولة الإسلاميّة في الأندلسِ في أيّام غرناطةَ الأخيرة .

(٢) تُعْرَفُ ثُريا هذه في الرّواياتِ الإسبانية باسم «إيزابيلا» أو «زريدة» ، وهي ابنةُ القائدِ الإسْبانيّ «سانشو كمنيس دي سوليس» .
إنَّ الزواج منَ الأجنبيّات يُسْمَحُ فيه إذا كانتِ الدّولةُ الإسلاميةُ في قوّتها ، ولا يُخْشَىٰ علىٰ الأولادِ من أنْ يترعرعوا علىٰ غيرِ ما تريده لهم أمّتُهم ، ولذا فإنّه لا يُسْمَح لمسلم في ظروفِ ضعْفٍ أنْ يقترنَ بأجنبية ، لأنَّ ذلكَ يفْقدُ الأصالةَ في الأمّة ، ويُوجدُ التّراخي فيها ، ويفقدها وجودَ جيل يعانقُ الأرض بمعانقة أمّه التي خُلِقَت من الأرض .

* وكانَتْ صبحُ هذه جاريةً ، ولا تذكُرُ المصادرُ إنْ كانَتْ قد استُرِقَّتْ بالأَسر ، أمْ كانت رقيقاً تُباع وتُشْتَرى ، وتصِفُها المصادر بالحطيّة أحياناً.

* وصُبْحُ أو صبيحةُ ، إحدىٰ جميلات نِساءِ عَصْرِها ، فقد كانت فتاةً رائعةَ الحُسْنِ ، ولذا فقد شُغِفَ بها الحكَم المستنصرُ ومنَحها قَلْبَه ، وغَلَّفَها بعطفِه وأطلقَ عليها اسمَ جعفر[1].

* وعلمتْ صبحُ أنَّها احتلَّتْ قَلْبَ مولاها ، واستأثرتْ بهِ ، وعلمت منْ أينَ تُؤكلُ الكتف ، فلم تلبثْ أنْ حظيتْ عِنْده بكلِّ رأْي وكلّ نفوذٍ ، وكانت كلماتُها العِذَاب تقعُ منه موقعاً لطيفاً ، فلا يكادُ يرفُض لها أمراً من الأمورِ مهما كان ، خصوصاً بعد أنْ حققَّت صبحٌ هذه حُلْمهُ العظيمَ.

* فقد كانَ الحكمُ المستنصرُ بالله قد بلغَ السَّابعة والأربعينَ من عمرِهِ حينما تولّى المُلْكَ بعد موتِ أبيه عبد الرّحمن النَّاصر ، ولم يكنِ الحكمُ قد رُزِقَ وَلداً بَعْدُ ، وكان ـ كَغيرِهِ منَ الملوكِ ـ يتوقُ إلىٰ ولدٍ يرثُه ويرثُ المُلْكَ منْ بَعْدِهِ ، فتحقَّقَتْ أمنيته الغالية هذه علىٰ يَدِ حظيْته صُبْح ، فقد رُزِقَ منها بولدٍ سمّاه «عبدَ الرحمن» وذلك في بدايةِ حُكْمه في سنَة (٣٥٢ هـ) ، وفرحَ بمولدِه فَرحاً عظيماً ، وسَمَتْ صبحٌ لديه واقتعدَتْ مكاناً عليّاً من قَصرِه وقَلْبه ونفسِه ، ثمَّ ولدتْ له بعد ذلك وَلَداً آخرَ في سنةِ (٣٥٤ هـ) سمّاه هِشَاماً ، فازدادتْ مكانةُ صبْحٍ علىٰ مكانَتِها ، وعظمت لديه.

* ولكنَّ الأيامَ منْ طبِعها التَّغيير ، والتَّبديل من حالٍ إلىٰ حال ، وأصابتِ المنايا ابنَ الحكم ، فقد ماتَ ابنه عبد الرّحمن وهو صغيرٌ ،

---

(١) انظر : البيان المغرب (٢/ ٢٥١ و٢٥٣).

فاشتدَّ حُزْنُه عليه ، ومن ثم عَقَد جميعَ آماله علىٰ ابنهِ الأصغر هشَام ، فولّاه العَهْدَ وهو غلام[1].

* واشتدَّ ساعدُ صُبْح بذلك ، وراحَتْ تستأثرُ في أمورِ الحكومةِ والدَّولةِ بكلّ نفوذٍ وسُلطان ، حيثُ إنّها أمُّ ولي العَهد ، ومحظيّة الحَكَم . ثمّ هي صاحبةُ الجَمالِ والمَلاحَةِ التي أَسَرت بهما قَلْبَ الحكَم .

* ويظهرُ منْ أخبارِ صُبْحٍ أنَّها كانتِ امرأةً حازمةً بارعةً في تدبيرِ شُؤون الدَّوْلةِ ، وافرة الذَّكاء ، شديدةَ الإخلاصِ لسيِّدها الذي أحلَّها مكَاناً عليّاً من قَلْبهِ وقَصْرِه ، فكانت تساعدُه في تدبيرِ مهام الحُكْمِ وأَعمالِ الدَّولة بشيءٍ من الذّكاءِ والبصيرةِ وحسنِ التَّصرُّفِ ، وتَسْهَرُ مَعَه علىٰ سلامةِ الدَّولةِ والعرشِ ، فذلك ما سيصيرُ إلىٰ ابنها هشام بن الحكم .

* يقولُ محمدُ عبد الله عنَان عن صُبح في تلكم الأيّام : ولَمْ تكُ صبحُ يومئذٍ جاريةً أو حظيةً فَقط ، بل كانَتْ ملكةً حقيقيّةً ؛ ولا تشيرُ الرِّوايةُ الإسلاميّة إلىٰ أنَّها غَدتْ زوجةً حرّةً للحكَم المُستَنْصِر بعد أنْ كانَتْ جاريةً وحظيةً ، ولكن هنالك ما يدلُّ علىٰ أنَّ صُبْحاً كانَتْ تتمتَّعُ في البَلاطِ والحكومةِ بمركزِ الملكةِ الشَّرعيّةِ ، فالرِّوايةُ الإسلاميةُ تَنْعَتُها بالسَّيِّدة صبح أمّ المؤيد[2] ، وتصفُها التَّواريخ الإفرنجيّة «بالسُّلطانة صُبح» ، بَيْدَ أنَّ هناكَ ما يقطعُ مع ذلك بأنَّها بقيتْ من الوجهةِ الشّرعيةِ جاريةً وأمَّ ولدٍ فقط ، وتصفُها الرِّواية الإسلامية بعد موتِ الحكَمِ بأنَّها أمُّ ولد[3] ، وهو

---

(١) انظر : المغرب (١/ ١٩٩) .
(٢) انظر : نفح الطيب (١/ ٣٨٣) .
(٣) البيان المغرب (٢/ ٢٦٩) ، والمعجب (ص ١٤) .

في الشَّريعةِ وصفُ الجاريةِ التي حَملَتْ من سيِّدها ، وأصبحتْ أُمّاً لِوَلَدِه[1] .

* وهكذا أصبحتْ أمُّ هشام المؤيّد السَّيِّدةُ الأولىٰ في بَلاطِ الحكَم المستنْصِر ، وغدتْ تحتلُّ مكانَ الملكةِ الشَّرعيّةِ ، وتتمتّعُ في الدَّولةِ بنفوذٍ كبيرٍ ليس له حدودٌ ، وكانَ يقوّي هذا النُّفوذ أنَّ الحكَمَ نَفْسه كان يثِقُ بإخلاصِها له وحَزْمها في ضَبْطِ الأمور ، ويستمعُ لرأْيها في سائِرِ الشُّؤونِ ، حتى إنَّ مرسومَها في تعيين الوزراء هو الذي يُمْضيه الحكَم ، وكان كبيرُ الوزراءِ الحاجب جَعْفر بن عُثمان المُصحفي يجتهدُ في إرضائِها وخدمتها ، ويستأثِر لديها ولدىٰ الحكَم بنفوذٍ كبير ، إذْ كانَ الوزيرُ المقرَّب لدىٰ الحكَم .

* بيد أنَّ نفوذَ جعفر المُصحفي قد انحَسَر حينما بزغَ نجمُ محمدَ بنِ عبد الله بن أبي عامر المعافريّ ، فقد وَردَ شابّاً إلىٰ قرطبةَ ، وأصْلُه من الجزيرةِ الخضراء وله بها قَدْرٌ وأبوّة ، وفي قرطبةَ طلبَ العِلْم والأدب ، وتمهَّرَ ، وكانت له همّة لم تَزَلْ ترتقي منْ شيء إلىٰ شيء ، إلى أن اعتنتْ به صُبْح أمّ هشام المؤيّد ، فصارَتْ له الحِجابة[2] .

* كانَ المعافريُّ عندما بدأَ نجمُه يلمعُ في نحوِ السَّابِعة والعشرينَ من عُمره ، وذلك حينما رشَّحه المُصحفيّ ليتولّىٰ إدارةَ أملاكِ عبد الرّحمن بنِ الحكم ، فأُعجِبَتْ صبحٌ بذكائِه ، وظرفِ شمائله ، وجَعَلَت له مرتباً قَدْره خمسة عشَر ديناراً ، وكانَ ذلك في سنة (٣٥٦ هـ) .

* ولما توفي عبدُ الرحمن بنُ الحكم عُيِّن مُشْرِفاً لأمْلاكِ أخيهِ هِشام ،

---

(١) تراجم إسلامية (ص ٢٠١).
(٢) انظر: المغرب (١/ ١٩٩).

ثم إنَّه تقدَّم بسرعةٍ في وظائفِ الدَّولة ، وأُضيفَ إليهِ النَّظرُ علىٰ الخِزانةِ العامّة ، وبَعْدَ عدّةِ وظائف عَيَّنه الحكَمُ مُديراً للشَّرطة ، وفي أواخرِ أيّام الحكم عيَّنه ناظراً علىٰ الحَشَم ، فَعَلَتْ حَالُه ، وهمّتُه ترتمي أبْعَدَ مرمىٰ.

* ولعلَّ الفَضْل والرّقي في تقدُّم محمد بنِ أبي عامر يعودُ إلى السَّيِّدة صُبْح التي عطَفَتْ عليه ورعَتْه وأحلَّتْه مكانةً لائقةً في القَصْر الحكَمي المُستنصري ، بالإضافةِ إلى ذكاءِ ودهاءِ محمد بن أبي عامر وكفايتهِ الباهِرة ، ومعرفتِه استجلابَ القلوب والنُّفوس بنفائِس الهدايا والتُّحف ، ومعلومٌ أنَّ قلوبَ النِّساء تنجذبُ بالهدايا والكلامِ المعسول ، وخُصوصاً إذا كُنَّ من مثل صُبح هذه ، فقد كانت امرأةً حسناءَ ملاّحةً تسيلُ مياهُ الشَّبابِ في عُروقها ، وسيّدها الحكَم قد هَدَّمَه المرضُ في عمرهِ الذي يقتربُ منَ السّتين ، وكانَ ابنُ أبي عامر فتىً وسيم المحيّا ، سَاحِر الخلال ، يتفنَّنُ في إرضاء السَّيدة صُبح وخدمتها واستمالة قلبِها بنفيسِ الذَّخائر والتُّحف.

* قال المقّري: إنَّه صَنَع قَصْراً منْ فِضَّةٍ لِصُبْح أمّ هشام ، وحَملَه علىٰ رؤُوس الرِّجال ، فجلبَ حبَّها بذلك ، وقامَتْ بأمرِه عند سيّدها الحكَم ، وحدَّثَ الحكمُ خواصَّه بذلك وقالَ: إنَّ هذا الفتَى قد جَلَبَ عقولَ حُرَمِنا بما يتحفهُم به[1].

* وتوفيَ الحكمُ المستنصرُ باللهِ في سنة (٣٦٦ هـ) ، بعد أنْ أخذَ البيعةَ لابنه هشام الذي كانَ في نحوِ الثَّانية عشرة من عمرهِ ، ومنحتِ السَّيّدةُ صبح الوصايةَ على ولدها ، وكانَ طبيعيّاً أنْ تحرصَ صبح ـ من قبل ـ علىٰ توليةِ ولدها لتحكمَ باسْمِه ، وكان من البدهي أنْ يؤازرَ

(١) نفح الطيب (٤/ ٨٨).

محمد بن أبي عامر صُبحاً التي أحسنَتْ إليه ، ورفعته مكاناً عليّاً في دولةِ الحكَم.

* وكانتِ العلائقُ بين صُبْحِ وابن أبي عامر تزدادُ يوماً بعد يوم ، وتتوثَّقُ وتقوىٰ ، حيث إنَّ ابنَ أبي عامر كان يرىٰ في صُبْح هذه ملاذَ حمايته ورعايته لدى سيّدها الحكَم.

* ولكنَّ أطماعَ ابن أبي عامر ليس لها حُدود ، فعندما توفي الحكمُ ، وصارتِ السُّلْطة مجتمعةً بِيَدِ السَّيِّدة صبح بوصايتها على ابنها هشام ، راحَ ابنُ أبي عامر يستخدمُ عَقْلَه ويعملُ لخُطَّةٍ كان يرسُمها في ذِهْنه ، فقد كانت صبح تغدقُ كلَّ عطفِها عليه ، ولذلك صارَ يَراها أداةً ليّنةً في يدِه ، يخضعهُا لإرادَتهِ ويسخرّها لمعاونَتهِ ، في حين أنَّ صُبحاً كانت ترىٰ فيه الأملَ الكبيرَ لحمايةِ العرش الذي يشغله ابنُها الصَّغير.

* وبهذا أصبحَ ابنُ عامر صاحبَ الكلمةِ المطلقةِ ، حيث كانت صبحٌ تفوِّضُ إليه كلَّ سُلطة وكلَّ أمْر ، فكانَ يديرُ الشُّؤون بمهارةٍ وقدرةٍ عجيبة.

* واستطاعَ ابنُ أبي عامر بدهائِه أنْ يحجبَ هشَام ابن صبح فقد حَجر عليه ، ولم يسمحْ لأحدٍ برؤيته أو مخاطبته ، وكانَ يحملُ صُبحاً بدهائِه وقوّةِ عَزْمه على أنْ تخلقَ الأَعْذار لحَجْبِ ولدها ، حتى غدا هشامٌ لا يَعْلَمُ عن العَالَم الخارجيّ شيئاً ، وفي ذلك يقول المقرّي: حجرَ المنصورُ بنُ أبي عامر علىٰ هِشَام المؤيد بحيث لم يَرَهُ أحدٌ منذ ولي الحِجابة ، وربّما أركَبَه بعضَ سنين وجعلَ عليه برنساً فلا يُعرف ، وإذا سَافر وكّلَ مَنْ يفعلُ به ذلك[1].

* واستطاعَ محمد بنُ أبي عامر أنْ يتخطّى جميعَ العقَبات التي كانت

---

(١) انظر: تراجم إسلامية (ص ٢٠٥) بتصرف يسير.

تعترضه ، وأنْ يردّعَ كلَّ منافسٍ له وذلك بأنَّه كان يُخْرِج للناس أمراً منْ هشام بذلك ، وقد تحدَّث ابنُ خلدون في تاريخِه عن ذلك فقال: ثمّ تجرَّد ـ ابن أبي عامر ـ لرؤوساء الدَّولة ممن عانَده وزاحَمه ، فمالَ عليهم ، وحطَّهم عن مراتِبهم ، وقَتَلَ بعضهم ببعضٍ ، كلُّ ذلك عنْ أَمْرِ هشام وخَطّه وتوقيعه ، حتى استأْصَل شأفتَهم ومزَّق جموعَهم[1].

* واستطاعَ ابنُ أبي عامِر بدهائِه ومساعدةِ صُبْح له أنْ يسحقَ جعفَر المصحفيّ ويعتقلَه ويلقيه في غياهبِ السِّجن حتى ماتَ ، ودمَّر كلّ مَنْ يصلحُ للرّئاسة لكيلا ينافسه أحدٌ ، وفي ذلك يقول أحدُ الشَّعراء:

أَبَنـي أُميّـةَ أَيْـنَ أَقْمـارُ الـدُّجَـى   منكُـم وأيـنَ نجومُهـا والكوكَـبُ
غـابَـتْ أُسـودٌ منكـم عـن غـابِهـا   فَلـذاك حـازَ المُلْـك هـذا الثَّعلَـبُ

* ثمَّ إنَّ ابنَ أبي عامر نظَّم الجيشَ منْ جديد ، وبنىٰ مدينةً في ضاحيةِ قـرطبـة سمّـاهـا «الـزَّاهـرة» ، ونَقَـل إليهـا خـزائـنَ الأمـوالِ والأسلحـةِ والدَّواوينِ ، وتَسمَّى بالحاجِب المنصور ، وأمرَ بالدُّعاء له علىٰ المنابر ، ولم يبقَ منَ الخلافَةِ الأمويّة في الأندلسِ سوىٰ الاسمِ.

* وأدركَتْ صبحُ خَطَر هذا الجاثِم علىٰ العرشِ ، والذي وصل بفضِلها إليه ، وثارتْ لما تبيَّنَتْ سوء نيّاتِ المنصور وغايته ، وأصبحتْ تبغضُ ذلك الرَّجل الذي سَلَبها ولدَها كلَّ سُلْطة ، وراحتْ تدبِّرُ لتدميرِه لكنَّها فَشِلَتْ في جميعِ محاولاتها ، بل أسْفَر صراعُها وتدبيرُها عن توطيدِ سُلطان ابن أبي عامر ، يقول ابنُ سُعيد: ثمَّ حصَلَتْ وحْشَةٌ بين صُبْح أمِّ الخليفة وبينَ المنصور ، آل الأمْرُ فيها إلىٰ أنْ كانتِ الغلبةُ له ، وأخذَ الأموالَ التي كانت في القَصْر مختزنةً ، ونقلَها إلى دارِه ، ووكَّلَ بالقَصْر

---

(١) تاريخ ابن خلدون (٤/ ١٤٧).

مَنّ أرادَ ، وصارتِ الدَّولةُ بَاطِناً وظاهِراً علىٰ حُكْمِه[1] .

* وذكرَ المقَّري ذلكَ بأوسعَ مما ذكره ابنُ سُعيد فقال ما ملخصُه : ولما وقعتِ الوحشةُ بينَ ابنِ أبي عامرِ والمؤيّد ، وكانَ سببُها تَضْريبُ الحُسَّاد فيما بينهما ، وعَلِم أنَّه ما دُهيَ إلاّ من جانبِ حاشية القَصْر ، ففرَّقَهم ومزَّقَهم ، ثمّ ذُكِرَ له أنَّ الحرمَ قد انْبَسَطَتْ أيديهنّ في الأموالِ المختزنَة بالقَصْر ، وما كانتِ السَّيِّدة صُبْح تَفْعلُه منْ إخراجِ الأَمْوال عندما حدثَ منْ تغيّرِها على ابنِ أبي عامر ، وأنَّها أَخرجتْ في بعضِ الأيّام مئةَ كُوزٍ مختومةٍ علىٰ أعناقِ الخدم فيها الذَّهب والفضّة ، وكان مبلغُ ما حملت فيها منَ الذَّهب ثمانينَ ألف دينار ، فأحضرَ ابنُ أبي عامر جماعةً ، وأعلمهم أنَّ الخليفةَ مشغولٌ عن حفْظِ الأموالِ بانهماكهِ في العِبادةِ ، وأنَّ في إضاعتِها آفةً على المسلمين ، وأشارَ بنقلها إلىٰ حيث يُؤمن عليها فيه ، فحملَ منها خمسة آلاف دينار عن قيمة وَرِق ، وسبعمئة ألف دينار ، وكانتْ صبحُ قد دافعَت عمّا في القَصْرِ منَ الأموال ، ولم تُمَكَّنْ من إخراجها[2] .

* وهكذا خَبا نجمُ صُبح بَعْد أنْ حلَّق قرابةَ عشرين عاماً ، ويسكتُ التَّاريخ النَّسوي عن أخبارِها بعد أن سطعَ نجمُ ابنِ أبي عامر ، ويظهرُ أنَّها ركَنَتْ إلىٰ الهدوءِ وعدمِ المقاومةِ ، ولم نَعُدْ نَسْمَعُ عنها شيئاً ، ويظهرُ أنَّ وفاتَها كانت في أثناءِ حياةِ المنصور ، حيثُ ماتَتْ في سَنَة (٣٨٩ هـ) وكانَتْ وفاتُها متعالمةً بين أَهْلِ قُرطبةَ ، حيث نَجدُ الشَّاعرَ الأندلسيَّ محمدَ بنَ درّاج القَسْطليّ يرثيها بقصيدةٍ طويلة بلغَتْ (٥٤ بيتاً) نقتطفُ منها :

---

(١) المغرب (١/ ٢٠١).

(٢) انظر : نفح الطيب (٤/ ٩٢ و٩٣) باختصار وتصرف .

بَقَـاءُ الخَـلائـقِ رَهْـنُ الفَنَـاءِ وقَصْـرُ التَّـداني وشيكُ التَّنَـائـي
هُو الموتُ يَصْدَعُ شَمْلَ الجميع ويكْسُـو الـرُّبـوعَ ثيـابَ العَفَـاءِ
أَلَـمْ تَـرَ كيْـفَ استبـاحَـتْ يَـداهُ حَـريـمَ الملـوكِ وعلْـقَ النِّسـاء
وَوَافَـــىٰ بسَيِّـــدةِ السَّيِّـــدا تِ مـأْوَىٰ البلـىٰ وَمُنَـاخ الفَنَـاءِ
أَنَجماً هوىٰ في سَماءِ المعَالي لِتَبْـكِ عَليـك نجـومُ السَّمَـاءِ
فحـاشَـىٰ لـرُزْئِـكِ أنْ يَقْتَضيـه عـويـلُ الـرِّجـالِ وَلَـدْمُ النِّسـاءِ
لِبيْضِ أَيادِيْكِ في الصَّالحاتِ تَمَسَّكَ وَجْـه الضُّحـى بـالضّيـاءِ
وقَـــلَّ لِفَقْـــدِكِ أَنْ يَحْتَبِـــي عليـهِ الصَّبَـاحُ بِثَـوبِ المَسَـاءِ
فيا أَسَفَ المُلْك منْ ذاتِ عزّ تعـــوَّضَ منْهـــا بعـــزٍّ العَـــزَاءِ
وَلـو قَبِـلَ المـوتُ منْهـا الفـداءَ لضَـاقَ الأنـامُ لهـا عَـن فِـداءِ
لَئنْ حُجِبَتْ تحتَ رَدْمِ اللُّحُود وَمِـنْ قَبْـلُ فـي شُـرفَـاتِ العَـلاءِ
فتلـكَ مـآثِـرُهَـا فـي التُّقـىٰ وبـذْلِ اللُّهـى مـا لَهـا مـنْ خَفَـاءِ
جَـزَاكِ بـأَعْمـالِـكِ الـزَّاكيـا تِ خَيْرُ المُجازينَ خَيْرَ الجَزَاءِ
ولُقِّيْتِ في ضَنْكِ ذَاكَ الضَّريحِ نَسيـم النَّعيـم وَطيْـب الثَّـواءِ(١)

* وهكذا كانت صبحُ ملكةَ قرطبة إحدىٰ نساءِ الأندلس الخالدات ، واستطاعَتْ أنْ تكونَ واحدةً من كواكبِ النّساء في هذا التَّاريخ .

* * *

(١) انظر : ديوان ابن دراج القسطلي (٩٨ ـ ١٠٠) بتصرف ، وانظر القصيدة كاملة في الديوان (ص ٩٨ ـ ١٠٢) طبعة المكتب الإسلامي .

طروب جارية عبد الرحمن الأوسط

* محظية الأمير عبد الرحمن الأوسط الأندلسي.
* لها مكانة مرموقة في عالم السياسة وتدبير الأمور.
* جميلة ، ذات قسط وافر من الملاحة.

طروب جارية عبد الرحمن الأوسط

* تَـفَجرَّتِ الحياةُ الأندلسيّةُ بالحركَةِ والنَّشَاط ، نتيجةَ كَثْرةِ الجواري اللواتي كُنَّ أُنْسَ القُصُورِ ، ورُوحَ القلوبِ ، وريحانَ النُّفوسِ ، وأنْفَاسَ العاشِقين ، وروضةَ المحبّين ، ونُـزْهَـةَ المُشْتَاقين.

* وكانَ للأندلسيّين اتّصَالٌ بالمشَارقَةِ ، فكان أمراءُ الأَندلسِ يستقدمونَ الجواري اللواتي اشتهرنَ بالظَّرفِ والأَدَب ، أو كانُوا يحرِصُون علىٰ اقتناءِ الجواري المتميّزاتِ بالجمالِ والكمالِ والذّكَاء وحسنِ الأُحدوثَة.

* وراحَتْ بعضُ الجواري الذّكيّات يدخُلْنَ في قُلوبِ الأمراءِ ، منْ خلالِ ما حَبَاهُنَّ اللهُ منْ دلالٍ وجَمالٍ ، حتى غدونَ ذواتَ مكانةٍ وحَلّ ورَبْـطٍ ، وعَقْـد وحَـزْمٍ ، بـل إنَّ بعضَهُـنَّ قـد أصْبحْـنَ أمَّهـاتِ أولاد ، وأصبحتْ بعضُ مقاليدِ الأمورِ تُدارُ بأيديهنَّ منْ شفاعاتٍ ووسَاطات وما شَابَه ذلك.

* ونحنُ الآن معَ امرأةٍ منْ نِساءِ الأَنْدلُس ، كان لها شَأْنٌ عظيمٌ عند الأميرِ عبدِ الرحمنِ الأَوسَطِ ، وكانَتْ منْ أَعْظَمِ حظاياهُ عنْده ، وأرفَعهنّ

مكانةً لديه وفي قَلْبِه ونَفْسِه ، حتّى إنّها كانَتْ أمّ ولده. هذه المرأةُ الجاريةُ تدعىٰ «طَرُوب»[1].

* كانَ عبدُ الرحمن بنُ الحكَم ، يُعرفُ بالأميرِ عبدِ الرحمن الأوسَط ، لأنَّ الأوّلَ عبد الرحمن الدَّاخل ـ صَقْر قريش ـ؛ والثَّالِثَ عبد الرحمن النَّاصر.

* ولعبدِ الرحمن الأوسط أخبارٌ مشرقَةٌ في الغَزْوِ ، وفَتْحِ البلاد وكثيرٍ من حُصُون النَّصَارى ، وفَكّ أَسْرىٰ المسلمين. وله كثيرٌ منَ المقاماتِ المحمودةِ في دَحْرِ الفرنجة ، ودحْرِ كثير من الأعداءِ الذين كانَتْ تُسَوِّلُ لهم أنفسُهم العَبَثَ بأمْنِ الأندلسِ وحضَارتها[2].

* وكان عبدُ الرحمن ـ هذا ـ مَشْهوراً في الشِّعر والحكْمةِ ، وكانَ عالماً بعلومِ الشَّريعةِ والفَلْسَفة ، وكانت أيّامُه أيّام هدوءٍ وسكونٍ ، وكثرتِ الأَمْوالُ عنْده ، وبُنِيَتْ في أيّامه الجوامعُ بِكُوَر الأندلس ، وزادَ في جَامعِ قرطبة رواقَيْن ، وماتَ قبلَ أنْ يستتمَّه ، فأَتَمّه ابنُه محمّد بعده ، وبنىٰ في الأندلسِ جوامعَ كثيرة ، ورتّبَ نُظُمَ المملكةِ ، واحتجبَ عنِ العامَّةِ.

* وكانَ له مئةٌ وخمسونَ وَلَداً منَ الذّكُور ، وخمسون منَ الإناثِ ، ونَقْش خاتمه: «عابدُ الرّحمن بقضاءِ الله راض» وفي ذلك قيل:

خَاتَمٌ لِلْمُلْكِ أَضْحَىٰ ... حُكمُهُ في النَّاسِ مَاضِي
عَابِدُ الرّحْمَنِ فِيْهِ ... بقَضَاءِ اللهِ رَاضِي

---

(١) انظر: المغرب (١/ ٤٦ و٤٧ و٥١) ، ونفح الطيب (١/ ٣٣٣) و(٥/ ١٤٨) ، وأعلام النساء (٢/ ٣٦٦ و٣٦٧).

(٢) ولد عبد الرحمن هذا سنة (١٧٦ هـ) ومات سنة (٢٣٨ هـ) ، وللمزيد من أخباره ، راجع نفح الطيب (١/ ٣٢٩ ـ ٣٣٥) ، وغيره من مصادر وتواريخ عن الأندلس.

* ومن شعرِه المشُوب بالحكمةِ قوله:

وَلَقَـدْ تَعَـارَضُ أَوْجُـهٌ لأوَامِـرٍ فَيَقُـودُهَـا التَّـوفيْـقُ نَحْـوَ صَـوَابِهـا
وَالشَّيْخُ إِنْ يَحْوِ النُّهَىٰ بتَجَارِبٍ فَشِبَابُ رأْيِ القَومِ عند شَبَابِها[1]

* وذكر المقّري أنَّ عبدَ الرحمن الأوسط كانَ كثيرَ الميلِ إلىٰ النِّساءِ، وله وَلَعٌ عجيبٌ، وطَرَبٌ غريبٌ بجاريتِهِ طَروب، وكان قد كَلِفَ بها كَلَفاً شَديداً، وهامَ بها هيَاماً عجيباً، وطروبُ هي التي بَنَىٰ عليها بابَ حجرتها بِبِدَرِ المالِ ونفائِس الجواهرِ حينَ تجنَّتْ عليهِ، وأعطاها حليّاً قيمتُه مئة ألف دينار؛ فقيل له: إنَّ مثْلَ هذا لا ينبغي أنْ يخرجَ منْ خزانَةِ المَلِك!..!.

فقالَ عبدُ الرحمن: إنَّ لابسَهُ أَنْفَسُ منْه خَطراً، وأرفعُ قدراً، وأكرمُ جوهراً، وأشرفُ عُنْصَراً[2].

* وهكذا كانَتْ طروبٌ مهجةَ نَفْسِ الأميرِ عبد الرّحمن، وحياةَ روحِهِ، وشمسَ نَهارِه، وقَمر ليلِهِ، وماءَ شَبابِه، ولعلَّها قد أسَرتْهُ بِسِحْر لواحظِها، وهو ابنُ الميامين يشبُّ الحروبَ ويطفىءُ الحروبَ متَى أرادَ، ولكنّه كان يعتلُّ إشْفَاقاً عندما تشقُّ عن اللبّاتِ أطواقَها، وعندما يطلعُ الحسنُ منْ وجهِها عليهِ، وترنُو بطرفها الأحورِ، فإنَّ سِهامَ لحاظِها تصيبُ قَلْبَه وتصيدُ لُبَّه، وكأَنَّ أبا الحسنِ عليَّ بنَ جابر الدّباج قد عنىٰ أمثال طروب بقولهِ:

لمّا تَبدَّتْ وشَمْسُ الأُفْقِ بَادِيةٌ أَبْصَرْتُ شَمْسَيْنِ منْ قُربٍ ومنْ بُعدِ
منْ عَادةِ الشَّمْسِ تُعْشِي عَيْنَ نَاظِرِهَا وَهـذِه نُـورُهَـا يَشْفِـي مـنَ الـرَّمَـدِ

---

(١) انظر: نفح الطيب (١/ ٣٣٣). و«شِباب رأي القوم» بكسر الشين: قوته وشبوبه.
(٢) انظر: نفح الطيب (١/ ٣٣٣) بتصرف يسير.

* ولعبدِ الرحمن بن الحكم أشعارٌ كثيرةٌ في طروب ، ومما قالَه فيها :

إِذَا مَا بَدَتْ لِيَ شَمْسُ النَّهَا ... رِ طَالِعَةً ذَكَّرتْنِي طَرُوبا[1]
أَنَا ابْنُ الميَامِيْنِ مِنْ غَالِبٍ ... أَشُبُّ حُرُوباً وَأَطْفِي حُروبا
عَدَانِيَ عَنْكِ مَزَارُ العِدَا ... وَقَوْدِي إِلَيْهِم لُهَامَاً مَهِيْبا[2]
أُلاَقِي بِوَجْهِي سَمُومَ الهَجِيرِ ... إِذَا كَادَ مِنْه الحَصَىٰ أَنْ يَذُوبا

* ومنَ المُطربِ في أخبارِ طروب هذه ، أنَّ خيالَها كان لا يفارقُ خيالَ عبدِ الرحمنِ الأوسط ، فإذا ما غَزا بالجيشِ حلَّقَ فوقَه عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبٍ لتأكلَ منْ غنائِمه ، وحلَّق خيالُ طروبٍ في خَياله ، فلا يُفارِقُه خيالُها في سِلْمٍ ولا حَرْب؛ بل إنَّ طيفَها كان يزورُه ويؤْنسُه ويشحذُ ذِهْنَه ، ومن ثمَّ يتفتَّقُ لِسَانُه عنْ أنداءِ الكَلِماتِ الرَّاقِصَةِ المطربةِ كحظيّته طروب.

* تروي المصادرُ ما محصّله أنَّ الأميرَ عبدَ الرّحمن ـ هذا ـ قد خَرجَ في بعضِ أسفاره ، أو مغازيه ، فطرقَه خيالُ جاريته طروب أمّ ولده عبد الله ، وكانَتْ أعظمَ حظاياه عنده ، وأرفعهنّ لديه ، لا يزالُ كَلِفاً بها ، هائِماً بحبّها ، وكانَ قافلاً من رحلتِه تلك أو غَزْوتهِ وقد دَنا منْ وادي الحِجارة ، فقامَ إلىٰ الغُسْلِ ، وَفِكْرُهُ موقوفٌ علىٰ الخَيالِ الذي طرقَه ، فاستدعىٰ عبدَ الله بنِ الشِّمْر القُرطبيّ نديَمه ـ وكانَ ابنُ الشِّمْر هذا

---

(١) أعتقد أن الأمير عبد الرحمن قد استعارَ معنى بيتهِ هذا منْ بيتٍ للخنْساء في سينيّتها الشّهيرة:
يـذكّرني طلوعُ الشّمسِ صَخْراً ... وأبكيهِ لكلّ غروبِ شمْسِ
وللمزيد من أخبار الخنْسَاء ، اقرأ سيرتها في كتابنا: «نساء من المشْرقِ العربي» ففيه جليل الفوائد.
(٢) «اللهام»: الجيشُ العظيم.

نسيجَ وحْدِه مجموعاً له منَ الخِصَال النَّبيلة ما لا يُوجد بغيرِه ، وكان لطيفاً حُلواً يغلبُ على قَلْب مَنْ شَاهده ، وكان صاحب الأمير عبد الرحمن ونديمه ـ ، وقال له : أَجِزْ يا عبد الله :

شَاقَكَ مِنْ قُرطُبَةَ السَّارِي فِي الليلِ لَمْ يَدْرِ بِهِ الدَّاري

فقال عبدُ اللهِ بنُ الشِّمْر بديهةٍ ـ وكان الأمير قد أيقظه من نومه ـ :

زَارَ فَحيّا فِيْ ظَلامِ الدُّجَىٰ أَهْلاً بِهِ مِنْ زَائِرٍ ساري

فهاجَ اشتياقُه لصاحبةِ الخَيال طروب التي أطربَتْه وولّهته ، ثم استخلفَ علىٰ الجيش مَنْ يثقُ به ، وأسرعَ إلى قرطبةَ ، فدخلها حتّى وصَل طروباً التي زارته بخيالِها فالتقاها حقيقةً ، وكملتْ سعادتُه بتحقيقِ حلْمه(١) .

* ولم يتوقفْ غرامُ الأميرِ عبد الرحمن بجاريته طروب عنْد هذا الحدّ فَحسَب ، بل كان يُلاقي الضَّنَىٰ والقَسوة إذا ما غَابَ عنها ، أو خرج غازياً يقودُ الجحافلَ لقتالِ الفِرنجة والصَّليبيين الذين أكْثروا في الأرضِ الفَساد ، ومع كلّ هذهِ المشَاغل كان يذكرُ الحبيبَة طروباً ، فقد خرجَ ذات مرّة غازياً إلىٰ «جِلِّيْقيةَ» فطالَتْ غيبتُه هناك وهو يجالدُ الصِّليبيين لإحياءِ دينِ الهُدىٰ ، وعندها كَتَب إليها :

عَدَانِيَ عَنْكِ مَزَارُ العِدَا وَقَوْدِي إِلَيْهِم سِهَاماً مُصِيْبَا
فكَمْ قَد تَخَطَّيْتُ مِن سَبْسَبٍ وَلاَقَيْتُ بَعْدَ دُرُوبٍ دُرُوبَا
أُلاَقِي بِوَجْهِي سُمُومَ الهَجِيْر إِذَا كَادَ مِنْهُ الحَصَىٰ أَنْ يَذُوْبَا

---

(١) انظر : المغرب (١/٤٧) ، ونفح الطيب (٥/١٤٨) مع الجمع والتصرف . وقال ابنُ سُعيد عن الأميرِ عبد الرحمن الأوسط : وكانَ مولعاً بالنّساء ، ولا يتّخذ منهنّ ثيباً أَلبتةَ ، وكملُت لذّته بقدومِ زرياب غلام إسْحاق المَوصلي .
أقول : وقد حَدثَ للمعتمد بنِ عباد كما حدَث لعبد الرحمن الأوسط ، من زيارةِ طيفِ محظيتهِ اعتماد الرّميكية في المنام . واقرأ سيرة الرميكية في هذا الكتاب .

تــدارَكَ بــي اللهُ دِيْــنَ الهُــدىٰ فَــأَحْيَيْتُــهُ وَأَمَــتُّ الصَّلِيْبَــا
وَسِرْتُ إلىٰ الشِّرْكِ في جَحْفَلٍ مَـلأْتُ الحُـزونَ بـهِ والسُّهـوبَـا[1]

* ووصلتْ هذه الطَّاقَةُ الشِّعْريةُ التي تحملُ أنْفَاسَ الأميرِ الغازي ، وعلمتْ طروبٌ أنَّ مكانتَها منْ قَلْبِ أميرِها ما تزال هيَ هيَ أو قريبةً من هي ، فَلْتَزِدْ منْ دلّها ودلالِها عليه ، ما دامَ عاشقاً لها ، وَلِهاً بها ، مُدلّهاً بحبِّها ، لا يفترُ قلبُه عن الخَفَقان إذا ما ذكرَهَا ، ترىٰ هل ينطبقُ علىٰ هذا الأميرِ العاشقِ الولهان هذا التّخميسُ اللطيفُ لبائيةِ أبي فراس؟!

رَمَتْني بِسَهْمِ الحُبِّ عَيْنٌ قَريْرة يَدِيْ عَنْ مَآتِيْهَا الحِسَانِ قَصِيْرة
وَقَدْ قيْلَ لي إنَّ الغَرَام سَرِيْرَة [فَلَيْتَـكَ تَحْلُـو وَالحَيَـاةُ مَـريْـرَة
وَلَيْتَكَ تَرْضَىٰ وَالأَنَامُ غِضَابُ]
وَأَنْـتَ بِحَبَّـاتِ القُلُـوبِ مُقَـامِـرُ وَمَا أَنْتَ بِالوجْدِ المُبرِّحِ شَاعِرُ
فَلَيتَكَ تَدْري مَا تُكنُّ الضَّمَائِرُ [وَلَيْتَ الّذي بَيْنِي وبينَك عَامِرُ
وَبَيْنِي وَبَيْنَ العَالَمِيْنَ خَرَابُ]

* وكانتْ طروبٌ تتدلَّلُ علىٰ الأميرِ عبدِ الرحمن دَلالاً عجيباً ، وقد سَاقَ المقّرِي قصَّةً منْ قَصَصِ دلّها ودلالها فقال ما مفادُه: إنَّ الأميرَ عبد الرحمن الأوسط أغْضَبها يوماً منَ الأيّام لأمْرٍ جرىٰ بينهما ، فصارمَتْه وهجرتْه ، وصدَّتْ عنه ، وأبَتْ أنْ تكلّمه ، ورفضت أنْ تأتيه ، ولزمَتْ مقصورتَها ، فاشتدَّ قلقُه لهجرِها وصدّها ، وَضَاقَ ذَرعُه منْ شوقِها وحبّها ، وجهدَ أنْ يترضَّاها بكلّ وَجْهٍ من وجوهِ التَّرغيب فأبَتْ هي وأعياهُ هو ذلك ، حتّى عيلَ صَبْره ، وكَلَّ مَتْنُه[2] ، فأرسلَ منْ خصيانِه من

---

(١) انظر: نفح الطيب (١/ ٣٣٤).
(٢) وكأنّ قولَ الشّاعر ينطبقُ علىٰ حاله:
سَـألْـتُ وصَـالَهـا فـأَبَـتْ وِصَـالـي وَآلَــتْ أنّهــا لاَ كَلَّمتْنِــي
لَقَـدْ صَـدقَـتْ وبـرّتْ غَيْـرَ أنّـي رَأَيْـتُ لحـاظَهـا قَـدْ كَلَّمتْنِـي =

يكرهُها علىٰ الوصولِ إليه ، والمثولِ بين يَديه ، وعندها أغلقَتْ بابَ مجلسِها في وجوههم ، وآلَتْ ألاّ تخرجَ إليهم طائعةً مهما كلَّفَ الأمْر ، ولو انتهىٰ ذلك بِها إلىٰ القَتْل.

* وانصرفَ الخدمُ والخصيانُ إلىٰ الأميرِ العاشقِ ، وأعلموه بما قالَتْه طروبٌ ، وما فعلتْه من إغلاقِ البابِ في وجوههم ، واستأذنوه في كَسْرِ البابِ عليها ، وإحضارِها بالقوّة إلى مجلسِه.

* ولكنَّ الأميرَ الوامقَ نهاهم عمّا جَالَ في خاطرِهم ، ثمَّ أمرهم بسَدِّ البابِ عليها منْ خَارجِه بِبِدَر الدَّراهم والمال ، ففعلوا ذلك ، وبنوا عليها بالِبدَر ، ثمّ إنَّ الأمير عبدَ الرّحمنِ أقبلَ حتى وقفَ بالبابِ ، ثمّ كلّمها مسترضياً راغباً في المراجَعةِ على أنَّ لها جميعَ مَا سدَّ به البَاب.

* وعند ذلك لانَ قلْبُ العروبِ طروب ، وأجابتِ الأميرَ إلىٰ طلبهِ ، وفتحتِ البابَ ، فانهالتِ البِدَرُ والأموالُ في بيتها ، وحينئذٍ أكبَّتْ علىٰ رجْلهِ تقبِّلُها ، وتسألُه الصَّفح عما بَدَرَ منها ، وحازتِ المالَ جميعَه ، كما حازت قلبَ الأمير وحنَاياه[1].

* وهكذا كانَتْ طروبٌ منَ الجواري الجميلاتِ اللواتي استأثرنَ قلبَ الأميرِ عبدِ الرحمنِ الأوسط ، وأخذنَ مساحةً كبيرةً من حياتِه وقصورِه.

* ذكر المقّريُّ أنَّ هناك بعضَ الجواري اللواتي أحبَّهُنَّ الأميرُ عبد الرحمن ، وتزوجهنَّ فقال: وأحبَّ أُخْرى اسمُها «مدثرة» فأعتَقَها وتزوَّجَها. وأخرى كذلك اسمها «الشّفاء» وأمّا جاريُته «قلَم»[2]؛ فكانَتْ

= فَقُلْتُ لها دَعي صدّي وهَجْري فَعَنْ حَمْل التّجافي كَلَّ متْنِي

(١) انظر: نفح الطيب (١/ ٣٣٤) بتصرف يسير.

(٢) اقرأ سيرة «قلم» هذه في موسوعتنا اللطيفة هذه؛ حيث تكتمل حبات عقد كتابنا بها وبغيرها.

أديبةً ، حَسنَة الخَطّ ، راويةً للشِّعرِ ، حافظةً للأَخْبارِ ، عالمةً بضروبِ الأَدبِ ، وكانَ مُولعاً بالسَّماع ، مُؤثراً له علىٰ جميعِ لذَّاته ، وله أخبارٌ كثيرة رحمه الله[1] .

* وكان موتُ الأميرِ عبد الرحمن سنَة (٢٣٨ هـ) ، أمّا طروبُ محظيته وأمّ ولده عبد الله ، فلا نَعْلَمُ علىٰ وجْه التّحديد متى كانت وفاتُها ، وكلنّا نعرفُ أنّها كانت حيّةً في سَنَةِ (٢٣٦ هـ) حيث كانَتْ تبرمُ الأمورَ مع نَصْر الخصيّ مولىٰ زوجِها عبد الرحمن الذي كان لا يردُّ شيئاً مما تبرمه معه.

* قال المقريّ: وكانتْ طروبٌ تبرمُ الأمورَ مع نَصْر الخصيّ[2] ، فلا يردُّ شيئاً ممّا تبرمه.

* وكانَ نَصْرٌ الخصيّ هذا يخدمُ طَروباً محظيَّة الأميرِ عبدِ الرحمن ، وكان يعضدُ ابنَها عبد الله الذي كان أبوه عبد الرحمن قد رشَّحه للولاية بعده ، لكنَّ عبد الله هذا كان مُستهتراً ، منهمكاً في اللذات ، فكان أُولو العَقْل والنّهى يميلونَ إلىٰ أخيهِ محمّد الذي ولّوه بدلاً عنه ليلة وفاةِ الأمير عبد الرحمن.

* أمّا طروبٌ فلا تُشِيرُ المصادرُ إلىٰ شيءٍ منْ أخبارِها بعد وفاةِ

---

(١) انظر: نفح الطيب (١/ ٣٣٤ و٢٣٥).

(٢) منَ الجدير بالذكر أنَّ نصرَ الخصيّ كادَ مولاه عبد الرحمن بشربةٍ فيها سمّ ، نُبِّهَ الأميرُ عليها ، فقال له: اشربْها أنتَ ، فشربِها وخرجَ ، فأشارَ عليه طبيبُه بلبنِ المعز ، فلم يوجدْ حتى هلكَ سنة (٢٣٦ هـ) وكانَ الشّاعر ابنُ الشّمرِ يقلُّ منْ زيارةِ الأمير عبد الرحمن أيّام تمكّن نَصْر الخصيّ ، فلما هلك نَصْر قال:

لئنْ غابَ وجهي عنك إنَّ مودتي ... لشاهدةٌ في كلّ يومٍ تسلّمُ
وما عاقني إلاّ عدوٌّ مسلّطٌ ... يذلُ ويشجي مَنْ يشاءُ ويرغمُ
فنحمدُ رباً سرّنا بهلاكِهِ ... فما زالَ بالإحسانِ والطَّول ينعمُ

مولاها ، ويبدو أنَّ أخبارها قَد تلاشَتْ وانقطعت بانقطاعِ حياةِ زوجها .

* وتبقىٰ طروبٌ من نساءِ الأندلسِ في القَرنِ الثَّالث الهجري ، ويبقىٰ صدى جمالها وأنداء ملاحتها يملأنَ قَلْبَ الأميرِ عبد الرحمن الأوسط ، وأخبارها تملأُ دنيا النّساء الأندلسيّات في كلّ العُصور .

* * *

عائشة بنت أحمد القرطبية

* غزيرة العلم ، دقيقة الفهم ؛ أدباً وشعراً ، وفصاحة ، وجزالة .
* جمعت الكتب النفيسة ، حتى صار عندها خزانة كبيرة .
* شاعرة ، خطّاطة ، غنية ، ذات ثروة .

عائشة بنت أحمد القرطبية

* لو أردْنَا أنْ نُجْمِلَ القَولَ في هذهِ المرأةِ ، لما استطعنا أنْ نخرجَ عنِ الدَّائرةِ التي وصفَها فيها أبو حيَّان في «المقتبس» حيثُ قال: عائشةُ بنتُ أحمدَ بنِ محمّد بنِ قادم القرطبيّة ، لم يكنْ في جَزَائرِ ـ أو حرائرِ ـ الأندلسِ في زمانِها مَنْ يعدِلُها فَهْماً وعلْماً ، وأدَباً وشِعْراً ، وفصاحةً وعفّةً ، وجزالةً وحصافةً[(1)].

* إذاً فهذهِ المرأةُ ممن جَمَعْنَ منْ كلّ علمٍ بطرفٍ؛ ولا غرابةَ في هذا ، فهيَ مدنيَّةٌ منْ مدينةِ قرطبةَ أُمِّ بلادِ الأندلس ، ودرّتِها النَّفيسة ، ومعْقِل علومها وآدابِها.

* وقد لفتَتْ عائشةُ القرطبيّةُ إليها أنظارَ معاصريها لصفاتِها النَّادرة التي قلّما تجتمعُ في امرأةٍ ، فبالإضافةِ إلى ما ذكَره ابنُ حيّانَ عنْ مواهِبها ، نجدُ أنّها ذات مواهبَ أخرىٰ ، فقد كانت خطَّاطةً مجيدةً لفنونِ الخطّ ، حيثُ شَهِدَ لها مَنْ عرفها بحسنِ الخطّ وجَوْدَتِه ، فقالوا: كانَتْ حَسَنَةَ الخّطِ تكتبُ المصَاحِفَ والدَّفاتر[(2)].

* ويظهرُ لنا منَ الأَخبارِ القليلةِ والمحدودةِ التي وصلتْنَا عن عائشةَ القُرطبيّة هذه أنّها كانَتْ شديدةَ الشَّغَفِ بالعِلْمِ ، شديدةَ الحبّ لجمعِ

---

(1) الصلة لابن بشكوال (٢/ ٦٥٤) ترجمة رقم (١٥٣١) طبعة مكتبة الخانجي بمصر ، ونفح الطيب (٦/ ٧٠) ونزهة الجلساء (ص ٥٤ و٥٥) ، والدر المنثور (ص ٢٩٢) ، والوافي بالوفيات (١٦/ ٦٠٧) ، وأعلام النساء (٣/ ٦).

(2) انظر: الصلة (٢/ ٦٥٤) ترجمة رقم (١٥٣١).

الكُتُبِ النَّفيسة ، تحرصُ حرصاً بالغاً علىٰ ذلك ، حتى تكوَّنَ لديها مكْتَبَةٌ منَ الكُتُبِ النَّادرةِ ، وحتى غَدَتْ منَ النّساء اللواتي يُشَار إليهنَّ بالبنَانِ ، بالإضافةِ إلىٰ هذا كُلِّهِ اهتمامُها البالغُ بكتبها ، حيث إنَّ النساء ـ بعامّة ـ يكرهْنَ الكُتُبَ وأهْلَ الكتُبِ ، وكم رأينا وسمْعنَا وقرأْنا معاناةَ كثيرٍ منَ العُلماء ممن حولَهم منَ النّساء وخصوصاً الزَّوجات اللواتي كُنَّ يكرهْنَ الكتُبَ ويعتبرنْها أشدَّ منَ الضَّرائر ، حتى إنَّ بعضهنَّ قالَتْ لزوجها العالِم الكبيرِ : إنَّ كُتُبَكَ هذه أشدُّ عليَّ منْ ضرتَيْن .

* لكنَّ ضيفتنا العالمة الشَّاعرة الخطَّاطة ، ذات النَّفَسِ العِلْميّ والأدبيّ كانَتْ خلافَ جماعةِ بنات جنْسِها ، تحبُّ الكتبَ وتحترمُ العلْمَ وأهلَه ، بل إنّها قد نَذَرَتْ ـ على ما يبدو ـ حياتَها للعِلْم والكُتب ، فظلَّتْ عازبةً عذراءَ لم تتزوّجْ ، وكانتْ تقضي جُلَّ وقْتِها بينَ خزانةِ كتُبِها تنعمُ بها ، وتؤنِسُ وحدتَها ، وقد حبَاها اللهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ المالَ والغِنَىٰ كيما تكتملَ سعادتُها وكيما يعينها المالُ علىٰ عملِ المبرّات .

* وقد شَهِدَ لها العلماءُ بالعِلْمِ وحُبِّه فقالوا : كانَتْ تُعْنَىٰ بالعِلْم ، ولها خزانَةُ علْمٍ كبيرة حَسَنة ، ولها غنىً وثروة تعينُها علىٰ المروءة[1] .

* وكانتْ عائشة بنتُ أحمد هذه واحدةً من نساءِ الأندلسِ الشاعراتِ ، اللواتي ضربْنَ بِسَهْمٍ وافرٍ في هذا الفنِّ ، وبلغْنَ السُّها في جمالِ الألْفَاظِ ، وبهاءِ المعاني ، وحسنِ التَّصُّرفِ .

* قال ابنُ حيَّان : ورأيتُ لها شِعراً إلىٰ بعضِ الرُّؤسَاءِ أوّلُه :

لَولاَ الدُّمُوعُ لما خَشيْتُ عَذُولا فهِيَ التي جَعَلَتْ إليكَ سَبيْلا

وتصرَّفَتْ فيه أحسنَ تصرّف . ومحاسنُها كثيرة[1] .

* ومنَ الأخبارِ اللطيفةِ التي نزيّنُ بها هذا الكتاب ، أنَّ هذهِ المرأة

---

(١) الصلة (٢/ ٦٥٤) .

كانتْ عازفةً عنِ الزَّواجِ ، وهي علىٰ الرّغمِ منْ أنوثتِها ورقّتها ووفرةِ ذاتِ يدها ، إلاّ أنها جَموحٌ لا ترغبُ في الزَّواجِ ، وكلُّ مَنْ ترجمَ لها ذَكَرَ هذه الخلَّة منْ سيرتها وقال: ماتَتْ عذراء لم تنْكَحْ سَنة أربعمئة(١) .

* وتدلُّ الأخبارُ علىٰ أنَّ بعضَ الشُّعراءِ قد خَطَبها ، وأُعجبَ بها إعجاباً شَديداً ، وألحَّ في خطبتِها والتّوددِ إليها ، إلاَّ أنَّ عائشَةَ ذات النَّفْسِ الأبيّة ، رفَضَتْ هذا الشَّاعر ، وعلىٰ ما يبدو كان ثقيلَ الدَّم ذا أصلٍ مَهْزُوزٍ ومكانةٍ مهترئةٍ ، فلم ترَ أنَّه مِنَ الأكْفَاء لذواتِ الخدورِ أمثالِها ، فهي لبوةٌ ، فكيف تختارُ كَلْباً؟! تعالوا نَسْمع إلىٰ ذلك مما جادَتْ به قريحتُها المعطاء ونفسُها الممزوجةِ بالكبرياء:

أَنَــا لَبْــوَةٌ لكنّنــي لا أَرْتَضِــي ... نَفْسي مُنَاخاً طولَ دهْري منْ أَحَد
وَلَو أنّني أَخْتارُ ذَلك لم أُجِبْ ... كَلْباً وكمْ غلّقتُ سَمعي عَنْ أَسَد(٢)

* وبالطَّبْع فهذا الرّأي يخصُّ عائشةَ القُرطبيّة وحْدَها ، وإنْ كان في ذلك مخالفةٌ للسُّنَن الفِطريّة للمرأةِ والرَّجل.

* وكانت عائشةُ بنتُ أحمدَ القرطبيّة ذاتَ مكانةٍ اجتماعيةٍ مرموقةٍ ، فكانَتْ أبوابُ الملوكِ تُفْتَحُ أمامَ قريحتها الخصبةِ ، ولعلّ كلمتَها كانَتْ نافذةً لا تُرَدُّ.

* ذكرَ هذه الصِّفَة ابنُ حيّان فقال: وكانتْ تمدحُ الملوكَ وتخاطبُهم فيما يعرضُ لها منْ حاجتِها ، فتبلغُ ببيانها حيثُ لا يبلغُه كثيرٌ منْ أدباءِ وقْتِها ، ولا تُرَدُّ شفاعتُها(٣) .

* ونقلَ المقّري عن «المُغْري» أنَّه قال: إنَّها منْ عجائبِ زمانِها ،

---

(١) انظر مثلاً: الوافي بالوفيات (١٦/ ٦٠٧) ، ونفح الطيب (٦/ ٧٠) ، والصِّلة (٢/ ٦٥٤) ، وغيرها.
(٢) نزهة الجلساء (ص ٥٥) ، ونفح الطيب (٦/ ٧٠) ، والدر المنثور (ص ٢٩٢).
(٣) الصلة (٢/ ٦٥٤).

وغرائبِ أوانِها ، وأبو عبد الله الطَّبيب عمُّها ، ولو قيل: إنَّها أشعر منه لجاز[1].

* وتذكرُ المصادرُ بأنَّ عائشةَ هذه كانَتْ ذات بديهةٍ حاضرةٍ ، وكانت ذات مقدرةٍ عجيبةٍ علىٰ ارتجالِ الشِّعْر ، وعندها من بديعِ البديهةِ ما يعجزُ عنه كبراءُ الشُّعراء.

* ويروىٰ عن بديهةِ عائشةَ بنتِ أحمد هذه أحاديثُ في هذا المجالِ ، وأنَّ لها ارتجالاً عَذْباً في حَضْرةِ الملُوك والرّؤساء ، ولقد أُعْجِبَ الملوكُ بفطنتِها ، فقد دخلتْ مرَّةً على المظفّر بنِ المنصور بن أبي عامرٍ وبين يدَيْه ابنٌ له ، فارتجلَتْ في الحال:

أَرَاكَ اللهُ فِيْـــهِ مَــا تُــرِيْــدُ ... وَلَا بَــرِحَــتْ مَعــالِيْــهِ تَــزِيْــدُ
فَقَــدْ دلَّــتْ مَخَــايِلُــهُ عَلــىٰ مَــا ... تُــؤمِّلُــهُ وطَــالِعُــهُ السَّعيْــدُ
تَشَوَّقَتِ الجِيَادُ لَهُ وَهَزُّ الحُسَـ ... ـامِ هَــوىً وأَشْــرقَــتِ البُنُــودُ
وَكَيْــفَ يَخِيْــبُ شِبْــلٌ قَــدْ نَمَتْــهُ ... إلــىٰ العَلْيَــا ضَــرَاغِمَــةٌ أُسُــودُ
فَسَــوْفَ تَــراهُ بَــدْراً فــي سَمَــاءٍ ... مِــنَ العَلْيَــا كَــوَاكِبُــهُ الجنُــودُ
فــأَنْتُــمْ آلُ عَــامِــرٍ خَيْــرُ آلٍ ... زَكَــا الأَبْنَــاءُ منْكُــم وَالجُــدودُ
وَليْــدُكُــمُ لَــدىٰ رَأْيٍ كشَيــخٍ ... وشَيْخُكُــمُ لَــدَىٰ حَــرْبٍ وَليــدُ[2]

* وهـذهِ الأبيـاتُ الجميلـةُ تنبـىءُ عـنْ شـاعـريـةِ عـائشـةَ ، وحسنِ تصرّفها ، وحُسنِ التَّشبيهِ وخُصوصاً في البيتِ الخامس الذي يشبه قول النَّابغة ـ إلى حدّ ما ـ:

فَإنَّكَ شَمْسٌ والملُوكُ كَواكِبٌ ... إِذَا طَلَعَتْ لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوكَبُ

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٧٠).
(٢) نفح الطيب (٦/ ٧٠) ، والدر المنثور (ص ٢٩٢) ، ونزهة الجلساء (ص ٥٤) ، وأعلام النساء (٣/ ٦).

* وفي البيتِ الأخيرِ تَسْتَقي معناهُ من معلّقةِ عمرو بنِ كُلثوم ، حيث زَعمت بأنَّ الوليدَ الصَّغيرَ من بني آلِ عامر ، عند الرّأي والمشورةِ كأنّه شيخٌ محنَّكٌ ، والشَّيخ عندهم وفيهم عند الحربِ يصولُ ويجولُ كأنَّه فتىٰ الفتيان :

إذا بَلَــغَ الفِطَــام لنــا صَبــيٌّ　　تخــرُّ لــهُ الجبــابِــرُ سَــاجـدِيْنــا

* تلكم هي عائشةُ بنتُ أحمدَ القرطبيّةُ الأديبةُ العالِمةُ ، تلك التي عُرِفَتْ بجودةِ الفَهْمِ وحُسْنِ المحاضرةِ ، والعفّة والطُّهْرِ والنَّقاء. لذلك لم نسمعْ منْ همساتِها أغزالاً كغيرِها من النّساء ممن عِشْنَ في ذلك المِصْرِ ، ولعلَّ عدمَ زواجِها هو من أكبرِ الأسبابِ التي جعلَها تعزفُ عن قول الغَزَل.

* أمّا عن وفاةِ عائشةَ القُرطبيّة ، فقد أشارتِ المصادرُ إلى أنَّها توفيتْ سنةَ (٤٠٠هـ)[١]. وبذلك لم نَعُدْ نسمعُ همساتِ فؤادها ونفثاتِ صدرها ، إلاّ ما كانَتْ حفظَتْهُ أذُنُ التَّاريخ النَّسوي الأندلسيّ مما مرَّ معنا. فرحمَ اللهُ عائشة القرطبيّة ، وأحْسَن نُزلها ومثْواهَا.

* * *

(١) الصلة (٢/ ٦٥٤) ، ونزهة الجلساء (ص ٥٤) ، ونفح الطيب (٦/ ٧٠) وغيرها.

عائشة بنت أبي عبد الله الأيسر

* أمُّ أبي عبد الله الصغير آخر ملوك غرناطة.
* ذات عقل وافر، ورأي صائب.
* ذات غيرة شديدة على أعراض المسلمين وأملاكهم.

عائشة بنت أبي عبد الله الأيسر

* مَنْ سَمِعَ بهذهِ المرأةِ قَبْلَ الآن؟! ومَنْ يعرفُ شيئاً عنْها؟! أو من سَمعَ بامرأةٍ أندلسيّةٍ لها كلمةٌ سائرة؟!

* أعتقدُ أنَّ كثيراً منَ النَّاس لم يسمعُوا بها قبل الآنَ ، لكنَّهم سَمِعُوا كلمتَها الشَّهيرة تخاطبُ ابنها بها:

اِبْكِ مِثْلَ النِّسَاءِ مُلْكاً مُضَاعاً　　لَمْ تُحَافِظْ عَلَيْهِ مِثْلَ الرِّجَالِ

* هذهِ المرأةُ هي عَائِشَةُ بنْتُ أبي عَبْدِ الله الأَيْسَر[1] الأميرةُ الأندلسيّة أُمُّ أبي عَبْد الله الصَّغير آخرِ مُلوكِ غَرناطَةَ ، في الفِردوس المفقود ، وعلىٰ يَدِ هذا الصَّغيرِ قُدِّمَتِ الأَنْدلُس إلىٰ النَّصارى دونَ عَناءٍ أو جُهْد.

* كانتِ الأميرةُ عائِشَةُ واحدةً من النِّساءِ الخَالِدَاتِ اللواتي آتاهُنَّ اللهُ ـ عزَّ وجَلَّ ـ عَقْلاً وافياً ، فكانَتْ منْ ربَّاتِ الرَّأي الصَّائِبِ والعَقْل النَّيِّرِ ، ورَباطَةِ الجأْشِ ، ناهيكَ بالغيرة الشَّديدةِ والحميّةِ علىٰ أعراضِ المسلمين وأَمْلاكِهم ، وكانَتْ شُجَاعَةً ، سديدةَ الرَّأْي ، صالحةً ، عَالِمةً بالتَّربيةِ.

* ويحدِّثُنا التَّاريخُ النَّسويُّ الأندلسيُّ عَنْ عَدَدٍ منَ النساءِ العَالمات ، واللواتي حقَّقْنَ كَثيراً منَ الأمور الشَّرعية ، وعُرِفْنَ بِسَعَةِ المعرفةِ وحُسْنِ القَضاء ، ومنهنَّ زوجةُ قاضي مدينة لُوشَة[2] ، وغيرُها كثيرات ، منْ

---

(١) انظر: أعلام النساء (٣/ ١٥٦).

(٢) قالَ المقَّري: حُكيَ أنَّ بعضَ قُضَاة لوشةَ كانَتْ له زوجةٌ فاقَتِ العُلماءَ في معرفةِ =

مثل: خديجةُ بنتُ جعفرَ بنِ نُصير بن التَّمار التَّميميّ[١]، وأَمَةُ الرّحمنِ بنتُ أحمدَ بنِ عبد الرحمن العَبْسيّ[٢]، وخديجةُ بنتُ أبي محمّد بن سَعيد الشَّنْتَجيالي[٣]، وخديجةُ بنتُ أبي عليّ الصَّدفيّ[٤]، وفاطمةُ بنتُ

= الأَحْكام، والنَّوازلِ، وكانَ قبْل أنْ يتزوَّجها ذُكِرَ له وصْفُها فتزوَّجها، وكانَ في مجلسِ قضائِهِ تنزلُ بهِ النّوازِل، فيقومُ إليها فتشيرُ عليه بما يحكمُ به، فكتبَ إليهِ بعضُ أصحابِه مُداعباً بقوله:

بِلُـوشَـةَ قـاضٍ لـه زوجـةٌ ... وأحكـامُهـا فـي الـورىٰ مـاضِيـة
فيـا ليتَـه لـم يكُـنْ قـاضيـاً ... ويـا ليتَهـا كـانـتِ القَـاضيـة

فأطلعَ زوجتَه عليه حين قرأه فقالت: ناولني القلم، فناولها، فكتبت بديهة:

هـو شيـخٌ سـوءٍ مُـزْدَرى ... لـه شبـوبُ عـاصِيـة
﴿كـلاّ لئـنْ لـم ينْتـهِ ... لنَسفعـاً بـالنّـاصيـة﴾

[العلق: ١٥] (نفح الطيب ٦/ ٧٤).

(١) خديجةُ بنتُ جعفر التّميمي، عَالِمةٌ كانَتْ زوجة عبد الله بن أسد الفقيه، حدَّثَتْ عن زوجها بموطأ القَعْنَبي، قرأهُ عليها بلفظنا في أصْلِه كما يقولُ ابنُ بشكوال، ويضيفُ ابنُ بشكوال قائلاً: وقيّدتُ فيه سماعَها بخطّها في سنةِ (٣٩٤هـ). سَمعتُ شيخنا أبا الحسن بنَ مغيث ـ رحمه الله ـ يذكرُ ذلك، وذكر لي أنَّ الكتابَ عنده، ثمّ رأيتُه بعد ذلك على حَسَبِ ما ذكره ـ رحمه الله ـ، ورأيتُ من تحبيسها كُتباً كثيرةً على ابنتها ابنةِ أبي محمد بن أسد الفقيهِ (الصلّة ٢/ ٦٥٤).

(٢) أمَةُ الرحمن بنتُ أحمدَ بنِ عبد الرحمن بنِ عبد القاهرِ العَبْسيّ الزّاهدة، ذكَرها أبو محمد بنُ خزرج وقال: سمعتُ عليها مع أخيها محمدِ بنِ عبد الملك بعضَ ما روته عن أبيها، وكانتْ صوّامة قوّامة، وتوفيت بكْراً لم تنكَحْ قطّ سنة (٤٤٠هـ) في شعبانَ وسنّها نيفٌ وثمانون سنة. (الصلة ٢/ ٦٥٥).

(٣) خديجةُ بنتُ أبي محمّد عبدُ الله بنُ سَعيد الشّنتجيالي، سمعتْ مع أبيها منَ الشَّيخ أبي ذَرّ عبدِ بنِ أحمدَ الهرويّ صحيحَ البخاري وغيرَه، وشاركتْ لأبيها هنالك في السَّماع منْ شيوخه بمكةَ حرسَها الله، ورأيتُ سماعَها في أصول أبيها بخطّه، وقدمتْ معه الأندلسَ وماتتْ بها ـ رحمها الله ـ (الصّلة ٢/ ٦٥٧) أقول: هي من نساء القرن الخامس لأنَّ أباها توفي سنة (٤٣٦)هـ.

(٤) خديجةُ بنتُ أبي عليّ الصَّدفي، نشأَتْ نشأةً صالحةً، وحفظتِ القرآنَ الكريم، وشيئاً منَ الأحاديثِ النّبويةِ، وأولعتْ بالمطالعةِ والاطلاعِ، تزوّجها صاحِبُ =

أبي القاسم القُرطبيّ[١] ، وأمُّ العزّ بنتُ محمّد العبدريّ[٢] ، وزينبُ بنتُ محمّد الزُّهري[٣] ، وأمّ العزّ بنْتُ أحمدَ بنِ عليّ بن هُذيل[٤] ، وسيّدةُ بنتُ عبد الغَني العبدرية[٥] ، وأمُّ الحسنَ بنت أبي جَعْفر الطَّنجالي[٦] ، وغيرهنّ ممن لا يحصين.

= الصَّلاة بمرسية عبدُ الله بنُ موسى بن بِرطلة ، فأنجبتْ له أبا بكر عبد الرحمن ، عمرت طويلاً إلىٰ أنْ جاوزتِ الثّمانين ، وتوفيت بعد انصرامِ سنة (٥٩٠هـ) ـ رحمها الله ـ.

(١) فاطمةُ بنتُ أبي القَاسم عبدِ الرحمن بنِ محمّد بن غالب القرطبيّ الشَّراط أمّ الفتح ، أخذَتْ عن أبيها قراءةَ نافع ، واستظهرتْ عليه الشّهاب للقضاعيّ ، ومختصر الطّليطلي ، واشتغلتْ معه في مقابلةِ السّيرة لابنِ إسحاق ، وصحيحِ مسلم ، وقرأتِ القُرآنَ على أبي عبد اللهِ الأندوجري الزّاهد ، وأبي عبد الله بنِ المفضل الضّرير ، حدّثَ عنها ابنُها أبو القاسم بنُ الطّيلسانِ وقرأ عليها بقراءةِ وَرْش ، وماتتْ سنة (٦١٣هـ) ـ رحمها الله ـ.

(٢) أمُّ العزّ بنتُ محمّد العبدريّ ، أبوها هو محمدُ بنُ عليّ بن أبي غالب العبدريّ الدّاني ، روتْ عن أبيها ، وأبي الطّيب بنِ برنجال ، وكذلك عن زوجِها أبي الحسنِ بنِ الزُّبير ، وأبي عبد الله بن نوح ، وكانت تتقنُ القراءاتِ السَّبع ، وماتَتْ سنة (٦١٦هـ) ـ رحمها الله تعالى ـ.

(٣) زينبُ بنت محمد الزّهري ، أبوها هو محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الزهري البلنسي ، وتُعرفُ بعزيزة بنت أبي محرز ، كانت تقيةً صالحةً ، سمعتْ جدّها لأمّها أبا الحسنِ بنَ هُذيل وأخذتْ عنه «التّقصّي» لابنِ عبد البر ، وانتقلتْ إلى جوارِ ربّها سنة (٦٣٥هـ) بعد أنْ بلغتِ الثَّمانين ـ رحمها الله تعالى ـ.

(٤) أمُّ العزّ بنتُ أحمدَ بنِ عليّ بن هُذيل ، عُرِفَتْ أمُّ العزّ هذه باستظهارِها للأشعارِ ، وتفوقها في حفْظها ، أخذتْ قراءةَ نافعٍ عن أمّ جعفر زوجةِ الأميرِ محمّد بنِ سَعد ، وتوفيْت بمدينة شاطبةَ سنة (٦٣٦هـ) ـ رحمها الله ـ.

(٥) سيّدةُ بنتُ عبد الغَني العبدريّة ، وهي أمُّ العُلا الغَرناطيّة ، حَفِظَتِ القرآن الكريم ، وتعلّمتْ فصارتْ أستاذةً في قصورِ الملوكِ ، وانتقلتْ إلى تونسَ وعلّمت بها ، ومنْ أعمالِها أنّها نَسَخَتْ «إحياء علوم الدِّين» للغزاليّ ، وعُرِفَتْ سيّدةُ العبدرية بالمواظبةِ على العبادةِ ، وتوفيتْ سنة (٦٤٧هـ) ـ رحمها الله ـ.

(٦) أمُّ الحسن بنتُ أبي جَعْفر الطّنجالي ، شاعرةٌ ، وطبيبةٌ تجوِّدُ القُرآن ، مشاركةٌ في =

* كانتِ الأميرةُ عائشةُ ابنةُ السُّلطان أبي عبد اللهِ الأَيْسر واحدةً منْ سَرواتِ النِّساء ، وكانت متزوجةً من ابنِ عمِّها السُّلطان أبي الحسن النَّصري ، وتُعْرفُ باسمِ «عائشة الحرّة» وأكرمْ بهِ من اسْم!! وأعظمْ به من صفةٍ حقيقيّة لامرأةٍ حرّة حسيبة نبيلة!!.

* واسم عائشة عَلَمٌ ينضحُ بالبطُولَة والرِّفْعة والعزّةِ والسَّناء ، مع الأسىٰ والشَّجن في تلكم المأساة الأندلسيّة التي تفتّتُ الأكباد.

* فقد كانتْ هذه المرأةُ النَّادِرةُ ذاتَ شخصيّة متفرّدةٍ بالفَضْل في عالَم نساءِ غَرناطة ، فقد تحلَّت برفيعِ المُثُل والقِيم مع سموٍّ في الرُّوح ، وقَلبٍ قوي يُجابِه المِحن المتنوّعة ، ومجدٍ يشعُّ حيناً ويخبو أحياناً فهيَ ملكةُ غَرناطة الحَازِمة ، لكنَّها كانت في ظلِّ مَلِكٍ وَهَنَ العظمُ منه ، والقَلبُ والنَّفْسُ ، وكانت قد ولَدت لأبي الحسن ولَديْن هما: أبو عبد الله محمّد الصَّغير المشهور ، وأبو الحجاج يُوسف.

* وكانت عائشة ـ رحمها الله ـ واسعةَ الأفقِ ، عاقلةً ، سديدةَ الرّأي ، ترىٰ أنَّه منَ الطَّبيعي أنْ تصيرَ مملكةُ غرناطةَ وحكمُها إلىٰ ابنها محمّدٍ أبي عبد الله ، بَـيْـدَ أنَّ زَوْجَها قد تركَ الجِهاد ، وتقاعسَ عن الغزوِ ، وركَنَ إلىٰ حياةِ الخفْضِ والدَّعَةِ والرِّقَّةِ ، وغَزَتْ قَلْبَه جاريةٌ من بناتِ الرُّوم النَّصارى تُدعى «ثريّا» ، أو «كوكب الصُّبح» ، وكانت ثُريا هذه ابنةً لأَحدِ القادة الإِسْبان وهو «سانْشُو كمنيس دي سُوليْس» ، وتُعرف ثريّا في الرِّوايات الإسبانيّة باسم «إيزابيلا» أو «ثريدة».

* ولما تزوّج أبو الحسن النَّصري ثُريا هذه ، عُرِفَتْ عائشةُ حينئذ باسم «عائشة الحرّة» تمييّزاً لها عن هذه الجاريةِ الرُّوميّةِ ثريّا ، ولعلَّها سمّيت عائشة بالحرّة لطهرِها وعفافها وصيانتِها.

= كثيرٍ منَ الفنونِ ، وقد توسَّعْنا في سيرتها في هذا الكتابِ الجميلِ.

* وراحت ثريّا الرُّومية تلعبُ بأبي الحسن ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال ، فقد كان أبو الحسن قد بَلغَ سِنّاً مرتفعةً ، وغدا ألعوبةً لطيفةً في يَدِ الزَّوجَةِ الحَسناءِ الرُّومية ثُريّا ، وكانت ثُريا تجمعُ إلىٰ جمالِها وملاحتها دهاءً ومَكْراً؛ وكانَتْ تتطلَّعُ إلى معالي الأمور وخُصوصاً بعد أنْ ولدت لأبي الحسَن ولداً ، وعندها صارتْ تتطلَّع لأنْ يكونَ وليّاً للعهد ، ومن الطَّبيعي أنْ يكونَ أبو عبد الله الصَّغير ابنُ عائشة هو وليُّ العَهْدِ وهو المؤهّل لهذا المنصِب. ولكنَّ ثُريّا هذه قد تمكَّنَت منَ التَّلاعبِ بعقْل زوجِها أبي الحسَن وإقناعِه بإبعاد عائشة الحرّة وولديها ، وما زالت وراءَه تَفْتِلُ لـه الحبْـل والغَـارب حتـى أقنعتْـه بحبِسهـم واعتقـالِهـم جميعـاً ، واستجابَ أبو الحسن لرغبةِ غَادَتِه اللعوبِ ، فزجَّ عائشةَ الحرّة مع ولديها في برجِ «قمارش» وشدَّدَ الحجْرَ عليهم ، وضاعفَ الحراسةَ ، وعُوملَ هؤلاء الثَّلاثة بشدّةٍ وقسوةٍ وعنفٍ.

* بيد أنَّ شَطْراً من أهْلِ غَرناطة كان يؤيّدُ الأميرةَ الشَّرعيةَ عائشةَ الحرّة بنتَ أبي عبد الله الأيْسر ، ويؤيّدُ معها ولديها ، ولذا فإنَّ عائشةَ استطاعت بحزمِها وعَقْلها أن تتّصِلَ سِرّاً بأنصارِها ومؤيّديها ، وفي مقدمتهم بنو سراج ، ثم إنّها تمكَّنَتْ منَ الإفلاتِ والهربِ منَ السَّجْن في جمـادىٰ الثَّـانيـة سنـة (٨٨٧هـ) ، وذلـك بمسـاعـدةِ بعـضِ أنصـارِهـا المخلصين ، وقد استطاعَتْ عائشةُ أنْ تفرَّ من البرجِ الذي سُجِنَتْ فيه بطريقةٍ تدلُّ على جرأتها وعلىٰ شجاعتها وإقدامِها ، حيث استعانَتْ بأغطيةِ الفُرُشِ والسُّرُرِ ورَبَطَتْها مع بعضِها ، ومن ثمّ تدلَّتْ من نوافذِ البرجِ العالي ، وكانتْ قد أَدْلَت ولديها قَبْلَها ، وقد أثارتْ قصّةُ فرارِها هذه العطفَ والإعجابَ لدىٰ أنصارِها وأنصارِ ولدها. وقد ظهرتْ عائشةُ بعد فرارِها في وادي آش حيثُ هنالك أنصارُ ابنها ومؤيّدوه.

* وتمضي الأيّامُ فإذا بالحربِ الأهليّة تضطرمُ في غرناطةَ ، ونشبتْ

ثورةٌ في داخلِ غَرناطة تعاطفاً مع الملكة الشَّرعيةِ عائشةَ بنتِ أبي عبد الله الأَيْسر ، ومع ولديْها ، وعند ذلك اضْطُرّ مَلكُ غرناطةَ أبو الحسن أنْ يفرَّ إلى مدينةِ مالقة ، حيث كان فيها أخوه الأمير أبو عبد الله محمّد بن سَعْد المعروف «بالزَّغل» ، وكان يدفعُ عن مالقةَ جَيْشاً جرّاراً بعثَه مَلِكُ قشتالة لافتتاحِها ، فهزَمهم الزَّغل بموقعةٍ تُعْرفُ باسم «الشَّرقية».

* وبعد خلوّ عرش غرناطة منْ أبي الحسن جَلَس أبو عبد الله الصَّغير ابنُ عائشةَ الحرّةِ مكانَ أبيه ، وكان ذلك في أواخر سنة (٨٨٧هـ) ، وعمره حوالي (٢٥ عاماً).

* وتذكرُ المصادرُ أنَّ أبا عبد الله الصَّغير أرادَ أنْ يحذوَ حذو عمّه الزَّغل في الغزوِ وجهادِ النَّصارى والرُّوم ، فخرج في جيشهِ ، فاجتاحَ عدّة حصونٍ وقلاعٍ في شَهْر ربيعِ الأوّل سنة (٨٨٨هـ) واستطاعَ أنْ يهزمَ النَّصارى في عدّة معارك.

* ولما عاد أبو عبد الله الصَّغير محمّلاً بالغنائِم ، عَلِم النَّصارى الإسبانُ من خلالِ جواسيسهم بذلكَ ، فداهموه في ظاهِر قَلْعة «اللّسانة» ، وكان يزمعُ حصارَها ، وخَسِرَ المعركة ، ومن ثمّ أُسِرَ علىٰ أَثرها(١).

* وعادَ الجيشُ المسلمُ إلى غرناطةَ دون قائِده ومَلكهِ فارتاعتِ العاصمةُ لذلك، واضطربَتْ، بيد أنَّ عائشةَ الحرَّة ابنة أبي عبد الله الأيسر ظلّتْ تحتفظُ بهدوئِها وسكينتِها وعقلِها، وقالت لامرأةِ ابنها لما رأتها تذرفُ الدّموعَ عليه.

* وكانتِ امرأةُ ابنها الصَّغير ابنةَ الأمير عليّ العطّار المجاهد ـ: إنَّ الدُّموعَ لا تليقُ بابنةِ مُجاهدٍ ، ولا بزوْجِ مَلِكٍ ، وإنَّ الخطرَ لأشدّ علىٰ

(١) انظر: مصرع غرناطة (ص ٧٠) بتصرف.

مَلِك يمتنعُ بِقَصْرِه منْه حينَ يأوي إلى خيمَتِهِ ، وإنَّه لواجبٌ علىٰ زوجِك أنْ يشتريَ سلامَ عرشِه بمخاطر الميدان(١) .

* والحقيقةُ فهذه كلمةٌ تدلُّ علىٰ قَلْبٍ عظيم ، وفؤادٍ جريء وعقْلٍ واسعٍ يدركُ معالي الأمور ، ولا يرضىٰ الدَّنايا ، وهكذا كانت عائشةُ ـ رحمها الله ـ التي تُشْبِه في كلمتِها هذه كلمات نساء صَدْر الإسلام ، كأَسْماء بنت أبي بكر الصّديق ـ رضي الله عنهما ـ وغيرِها من بنات الصَّحابة والصَّحابيات[١] .

* وعند غيابِ أبي عبد الله الصَّغير في أَسْرِ الإسبان ، حاولَتْ غرناطةُ أنْ تعيدَ أباه أبا الحسنِ إلى العرشِ مكانَ ابنهِ الأسير ، لكنَّ المرضَ لم يسمحُ له بذلك ، وفَتَكَ بجسمه الهَرِم ، فتنازل عن العرشِ لأخيهِ محمّد أبي عبد الله الزَّغل حاكم مالقة .

* وكان «فرناندو» مَلك قَشْتالة قد استغلَّ خبرةَ أبي عبد الله الصَّغير ، وعدمَ تجرِبته ، وضعفَ إرادته ، فأقْنَعه أنَّ الصُّلح مع قَشتالة هو الصَّواب؛ وفي ظروفٍ حَرجةٍ أطلقَ فرديناند سراحَ أبي عبد الله الصَّغير ، بعد أنْ وقَّعه علىٰ معاهدةٍ أعلنَ بها خضوعَه وطاعَته لملكِ قشتالة ومدّتها عامان. وتحققَّ للخبيثِ فرناندو ما أرادَه ، وتمزَّقَتْ دولةُ الإسلام بالأندلس ، وقُضي على المجدِ السَّني هناك.

* وكانَتِ الأميرةُ عائشةُ مِنْ فَواضِلِ النِّساء الأندلسيّات اللواتي سَاهَمْنَ في المواقِفِ المشرِّفَةِ بتاريخِ الأندلسِ ، وإثْراءِ التَّاريخِ النَّسويّ بجلائِلِ الأَعْمالِ.

* وللأميرةِ عائشةُ دَوْرٌ مُشْرِقٌ ونضَاليٌّ في تربيةِ ابنِها أبي عبد اللهِ

(١) للمزيد من أخبار بنات ونساء الصحابة ومجدهن ، اقرأ كتابنا «بنات الصحابة» الصادر عن دار اليمامة بدمشق .

الصَّغير ، حيثُ إنَّ كثيراً منَ النِّساءِ كُنَّ مَحاضِنَ عظيمةً خالدةً وصالحةً لتربيةِ أَجْيالِ الأُمَّةِ ، ونستطيعُ أنْ نقولَ: إنَّ في مقدّمَةِ هؤلاءِ الأندلسيّات السَّيِّدةُ الأميرةُ عائِشَةُ بنْتُ أبي عَبْدِ الله الأَيْسرِ ، التي أَحْسَنَتْ تربيةَ ابنِها أبي عبد الله الصَّغيرِ ، ولكنَّها ابتُلِيَتْ بأنَّ ابنَها قد ذَهَبَ إلى رحلةِ ابتعَاثٍ قَسْريّ في سِنّ لَمْ تكُنْ فيه شخصيّتُه قَد اكتمَلَتْ ونضَجَتْ ، إذ وقَعَ في الأَسْر عنْدَ النَّصارى ، وقد استطاعَ النَّصارىٰ تلويثَ تَصَوُّرِ هذا الفَتَىٰ ، فعادَ منْ أَسْرِهِ والصُّورةُ صورتُه ، ولكنَّ قَلْبَه ليسَ ذلك القَلْبَ الذي نَشَأَ علىٰ يَدِ أُمّه الأميرةِ عائشةَ ، وغدا كلُّه دميةً في أَيدي النَّصارىٰ.

* ويُعْتَبَرُ أبو عبد الله الصَّغيـر محمّد سُلطان غرناطـةَ آخر ملوكِ غرناطةَ ، حيث جَلسَ علىٰ العَرشِ مكانَ أبيهِ في أواخِرِ سنة (٨٨٧هـ) ، وأطاعَتْه غرناطةُ بعد فِرارِ أبيهِ إلىٰ مالقةَ ، وكانَ للأميرةِ عائشةَ والدتُه دَوْرٌ رائعٌ في تَـثْبيْتِ ابنها علىٰ العَرشِ بعد سِلْسِلَة منَ الخلافاتِ المثيرةِ علىٰ عرش غرناطةَ ، أدّى إلىٰ فرارِ زوجِها السُّلْطان أبو الحسن والدِ ابنِها أبي عبد الله الصَّغير آخرِ مُلُوكِ الأندلس ـ كما مرَّ مَعنا آنفاً ـ.

* وقد حدَثَتْ في عَهْدِهِ سلسلةٌ منَ الفِتَنِ[1] والمعارِكِ والحروبِ ،

(١) كانَ أبو عبد اللهِ الصَّغير علىٰ ما يبدو صَغيراً اسْماً وحقيقةً ، وهذا دليلٌ على الحقيقةِ ولما أصابَ أبو عبد الله الزَّغل ـ عم الصّغير ـ النَّصارى في إحدىٰ المعاركِ ، وأثخنَ فيهم ، فإذا بابنِ أخيه أبي عبد الله الصَّغير مَلكِ غرناطةَ يبعثُ برسالةٍ إلىٰ مَلِكِ الإسبانِ يعتذرُ فيها عمّا فعلَه عمّه بهم ، وبما أظهرَه الله عليهم ، وبما نصره وأكرمه.
ـ وعندما سقطتْ مالقة ، وحُوِّل مَسجدُها الأعظم إلى كنيسةٍ ، أرسلَ أبو عبد الله الصَّغير إلى ملكِ النَّصارىٰ يهنّئه في ذلك ، وسببُ فَرحه بسقوطها أنّها كانتْ معقلاً لمنافسه عمّه الزّغَل ، وهذا منَ الحسَدِ؛ نعوذُ بالله منَ شرّ الحَسَد والحاسدِ والحاسدين.
ـ وعلى يدِ أبي عبد الله الصّغير قدّمت الأندلـسُ للنَّصارى لقمـةً سائغـةً ، ولكن =

انتهتْ بسقوطِ غَرناطةَ آخر معقلٍ للعربِ في الفردَوْسِ المفْقُود.

* فلقد أخذتِ الممالكُ الأندلسيّة تَنْهَارُ وتَتَساقَطُ الواحدة تلوَ الأخرى ، وأخذَ الزَّحْفُ يقتربُ من غرناطةَ ، التي كانَتْ تموجُ يومئذٍ بالوافدين إليها منْ مختلفِ القَواعدِ الإسلاميّةِ ، وتضمُّ بين أَسْوارِها قرابَة نصف مليون نَسَمة.

* وبدأَ حصارُ غرناطةَ ، وثَبَتَتْ وقْتاً طَويلاً ، حتّى انفلتَ الأمْرُ من يَدِ حاكمها ، وحارَ النَّاس ، و. . . .

يا صَاحِ إنَّ مُلُوكَها قَدْ أَصْبَحُوا ... لاَ حُكْـمَ فـي يَـدِهـم وَلاَ سُلْطَانَـا
غَلَبَـتْ عَلَيْهِـم عُصْبَـةٌ تَتَـرِيَّـةٌ ... لَـمْ تُبْـقِ للصِّيْـدِ المُلُـوكِ كيَـانَـا

* وأعيـا النّـاسَ الحِصَـارُ ، وعَظُـمَ النّكيـرُ ، وسكَنَـتْ كثيـرٌ مـنَ الأنْفاسِ ، وعلا مَنْ سَفُلَ ، وسَفُلَ مَنْ عَلا ، واضطربتِ الأمورُ ، وصار العزُّ إلىٰ المهانَةِ ، وكانَ النَّاس عِظاماً أَجلَّةً بررةً ، فصاروا عِظاماً هشَّةً نَخِرةً ، و:

وَكُنَّـا عِظَـامـاً فَصِـرْنَـا عِظَـامـاً ... وَكُنَّـا نَقُـوتُ فَهـا نَحْـنُ قُـوت[١]
وَكُنَّـا شُمُـوسَ سَمـاءِ العُـلا ... غَـرَبْـنَ فَنَـاحَـتْ عَلينـا البُيُـوت
وأَنْفَـاسُنَـا سَكَنَـتْ دَفْعَـةً ... كَجهْـرِ الصَّـلاةِ تـلاهُ القُنُـوت

* وبعدَ رحلةِ تسليمِ غرناطةَ ، فالسَّوادُ الأَعْظَمُ منَ الشَّعْبِ لم يَعُدْ قَادِراً علىٰ هذا الأَمْر الفَادِح ، والخَطْب الجَلل الذي تطيشُ عنْده أحْلامُ

= هل شكرَ النّصارى لهذا المتخاذلِ عمله؟! لا ، لقد طردُوه إلىٰ المغرب ، يقولُ المقّري : «ثمّ ارتحلَ السُّلطان أبو عبد الله إلى مدينـة فاس ـ حرسَها الله ـ وما زالَ أعقابُه بها إلى الآن منْ جملةِ الضّعفاء والسّؤال ، بعدَ المُلْك الطّويلِ العريضِ ، فسبحانَ المعزّ المذلّ ، المانح المانع لا إله إلا هو».

(١) الشعر من نظم لسان الدين بن الخطيب ـ رحمه الله ـ. و«عظاماً» : الأولى جمع عظيم ، و«عظاماً» : الثانية : جمع عظم.

ذَوي الحِلْم ، واسْتَسْلَمتْ غرناطةُ بعد هُدنَةٍ ، وبعد اتفاقيّة ومعاهدةٍ للتَّسليم ، ظَلَّتْ هُنَاكَ نُفوسٌ أَبيَّـةٌ لا ترضى الذّلّ للنَّصارىٰ ، ولا للملِكِ «فرناندو» الذي حاربَ الأندلسيّين.

* ولعلَّ الأميرةَ عائشةَ كانَ يُؤْلمُها ما يجري منْ حولها من أَحْداثٍ ، وتنعىٰ علىٰ ابنها طريقتَه غيرِ المُثْلىٰ ، وانهيارِه أمامَ رغَباتِ «فرناندو» و«إيسابيلا» ؛ وظهرتْ مع رغبةِ الأميرةِ رغباتٌ منْ ذوي الإيمانِ وذوي العَزْم والحزْمِ ، وهذهِ الرَّغبات يجدرُ أَنْ تُسَجَّلَ لما فِيْها منْ مواعِظَ وعبرٍ ، ومواقَفَ محمودةٍ في هذهِ الأُمَّةِ المحمديّة الخيّرة.

* ومنْ هاتيكمُ المواقف العظيمةُ موقفُ بَطَلٍ مُجاهدٍ شُجَاع كميٍّ أَبِيٍّ اسمُه: موسى بنُ أبي غَسَّان ، فقد وَرَدَ أنّه لمّا أرادَ أبو عبد ٱللهِ الصَّغير مَلكُ غرناطةَ أنْ يُسَلِّم غرناطةَ للنَّصارى ، وزيّنَ له بعضُ أصحابِه وحاشيتِه وبطانَتِه أنَّه لَنْ يقوىٰ على مقاومةِ النَّصارى ، جاءهُ أحدُ أصحابِه منْ أهلِ التَّقىٰ والورع يُقال له: موسىٰ بنُ أبي غَسَّان وقال لهم: لا تُسلِّمُوا غرناطةَ ، ودعونا نجاهدُ في سبيلِ الله؛ ـ ولكنْ لَقْد أسمعْتَ لو ناديتَ حيّاً ـ!! فالنّفوسُ قد ماتَتْ.

وقال رجالُ أبي عبد الله الصَّغير الجُنَباء المخذِّليْنَ: يا موسىٰ ، إنَّ النَّصارى قد عرضُوا علينا معاهدةً فيها حِفْظٌ لكيانِ المسلمين ، ولن يُؤْتَىٰ المسلمون بأذىً أو شرٍّ ، فإنّنا إنْ سلَّمْنا غرناطةَ حافَظْنَا علىٰ ما بقيَ لنا بالعُهودِ والمواثيقِ.

* ولكنَّ موسى بنُ أبي غسَّان حذَّرهم أنْ يركَنُوا إلىٰ النَّصارى ، أو أنْ يثقُوا بهم ، ولما أَعْيَتْه الحِيْلَةُ معهم ، ووجدَ قلوبَهم غُلْفاً ، وآذانَهم صُمّاً ، وعيونَهم عُمياً عمّا يُرادُ بهم ، قال لهم: لا تَخْدعُوا أنْفُسَكم ، ولا تظنُّوا أنَّ النّصارى سيوفُون بعهدِهم ، ولا تركنُوا إلىٰ شهامةِ مَلِكِهم ، إنَّ الموتَ أقلُّ ما نَخْشَىٰ ، فأَمَامُنَا نَهْبُ مُدنِنا وتدميرِها ، وتدنيسِ

مساجدِنا ، وتخريبِ بيوتِنا ، وهَتْكِ نسائِنا وبناتِنا ، وأَمامنا الجورُ الفاحشُ ، والتَّعصُّبُ الوحشيُّ ، والسِّياطُ والأغلالُ ، وأمامُنا السُّجونُ والأَنْطاق والمحارقُ ، هذا ما سوف نُعاني ، أَمَّا أنا فو اللهِ لنْ أَرَاهُ.

* ثم إنَّ موسىٰ بنَ أبي غسَّان ، خَرجَ وجاهدَ حتّى حَظِيَ بالشَّهادة ـ رحمه الله ـ.

* وما أجملَ ما شَدا بهِ شَاعِرُ الشَّام «عدنان مَردَمْ بك» وما صاغَه علىٰ لِسانِ الفارسِ التَّقيّ الأبيّ موسى بنِ أبي غسَّانَ فقالَ من قصيدةٍ داليةٍ:

أَنَـــا لَــــنْ أُقــــرَّ وثيقَـــةً ... فُـــرِضَـــتْ وَأَخْضَـــعَ للعِـــدَا
مَـــا كَـــانَ عُـــذْري إنْ جبنْـ ... ـــتُ وخِفْـــتُ أَسْبـــابَ الـــرَّدىٰ
وَالمَـــوتُ حَـــقٌّ فـــي الـــرِّقـــابِ ... أَطَـــالَ أَمْ قَصُـــرَ المَـــدىٰ
إنَّـــي رسَمْـــتُ نِهَـــايَتـــي ... بِيَـــدي وَلَـــنْ أَتَـــردَّدَا
كُنْـــتُ الحُسَـــامَ لأُمَّتـــي ... واليَـــومَ للـــوطَـــنِ الفِـــدَىٰ
أَنَـــا لَـــنْ أَعيْـــشَ العُمْـ ... ـــرَ عَبْـداً بَـلْ سَـأَقْضِـي سَيِّـدا

* ووقَعَتْ معاهدةُ التَّسليمِ في (١ محرّم سنة ٨٩٧هـ) ، وما كادتْ أنباءُ الموافَقةِ على عَهْد التَّسليمِ تُذاع وتُنْشَرُ بين النَّاسِ ، حتى عمَّ الحزْنُ في ربوعِ غرناطةَ ، واستمرَّ الشَّعْبُ في وجومِه وتوجُّسهِ ويأْسهِ ، ولم تهدأ الخواطرُ المضطرمةُ ، والهواجسُ الحرّىٰ.

* وكانَ قد اتُّفِقَ بينَ أبي عبد الله الصَّغير والملكِ فرناندو أنْ تُطْلَقَ منَ الحمراءِ ثلاثةُ مَدافعَ إيذَاناً بالاستعدادِ للتَّسليمِ ، وكانَ المعسكَرُ النَّصرانيُّ يموجُ بالضَّجيجِ والابتهاجِ ، ووصلَ الجنودُ ، وكانتْ أبوابُ الحمراءِ قد فُتحَتْ ، وأخليَتْ أبهاؤُها استعداداً للسَّاعةِ الحاسمةِ.

* وفـي فَجْـرِ اليـومِ الثَّـانـي مـنْ شَهـرِ كـانُـون الثَّـانـي ، أي يـوم (٢/ ١/ ١٤٩٢م) وهو اليومُ الذي حُدِّدَ لتسليمِ الحمراءِ ، كانَ رنينُ البُكاء يتردَّدُ في غُرَفِ قَصْرِ الحمراءِ وأبْهَائِهِ ، وكانتِ الحاشيةُ الملكيّةُ منهمكةً

في حَزْمِ أمتعةِ المَلِكِ المخلوعِ ، وحزمِ أمتعةِ آلهِ ونسائِهِ ، وقد سَادَ الوجومُ كلَّ مُحيّا ، واحتبستِ الزَّفرات في الصدور. . وغادَرَ الرّكْبُ القَصْرَ.

* وكانتِ الأميرةُ عائشةُ أمُّ أبي عبد اللهِ الصَّغير تمتطيْ صهوةَ جوادِها ، والحزنُ يشعُّ منْ محيّاها الوقُور ، وكانَتْ باقي السَّيِّداتِ والنِّساء من آلِه يُرسِلْنَ الزَّفَراتِ العميقةِ والدُّموعُ السَّخيّةُ السَّاخنةُ ، واخترقَ الرّكْبُ غرناطةَ ، وحين بلغَ البابَ الذي سيغادرُ منه المدينةَ إلى الأبدِ ، ضجَّ الحرّاسُ بالبكاءِ لرؤيةِ ذلك المنظرِ المؤلمِ المُثير.

* وخرجَ أبو عبد اللهِ الصَّغير من بابِ مدينةِ الحمراءِ المسمّى «باب الطّباق السَّبْع» في طريقهِ إلىٰ لقاءِ عدوّه الظَّافِرِ في نفرٍ منَ الخاصَّةِ ، ووقفَ على جسْر نَهْر شنيّل ، فاستقبلَه فرناندو بترحَابٍ وحفَاوةٍ ، ثم تقدَّم منَ المَلِكِ وقبّلَ ذِرَاعَه اليمنىٰ ، فسلَّم وزيرُه يوسفُ بن كماشَة الإسبانَ مفاتيحَ الحمراء ، والحصونَ الأخرىٰ[1].

* وتوقَّفَ أبو عبد اللهِ الصَّغير عند جَبلِ الرَّيحان ليلقيَ علىٰ غرناطةَ آخِرَ نَظْرةٍ ، وردَّد عبارةَ: اللهُ أكبرُ. . . الله أكبرُ.

* ويسمّي الإسبانُ المكانَ الآن: «آخر زَفَراتِ العرب». وتذكرُ

---

(١) تَصِفُ لنَا الرِّوايَةُ القَشْتَاليّة صِفَةَ تَسْليم مفاتيح الصَّغير مدينةَ غَرناطةَ فتقولُ: إنَّ أبا عبدِ اللهِ الصَّغير حينَ لَمَح فرناندو ، هَمّ بتَرْكِ جَوادِه ، ولكنَّ فرناندو بادرَ بمنْعِهِ ، وعانَقَهِ بعطفٍ ومودّة ، فقبّل أبو عبد الله ذراعَه اليُمنى إيماءةً بالخضوع ، ثم قدّمَ له مفتاحي البابَيْن الرئيسيَّيْن للحمراءِ قائلاً: «إنّهما مفْتَاحا هذهِ الجنّة وهما الأثرُ الأخير لدولةِ المُسلمين في إسْبَانيا ، وقد أصبحتَ أيّها المَلِكُ سيّد تراثِنا وديارِنا وأشخاصِنا ، وهكذا قضىٰ اللهُ ، فكُنْ في ظفَرِك رحيماً عادلاً». فردَّ عليه فرناندو بعد أنْ تناولَ المفتاحَيْنِ قائلاً: لا تَشُكّ في وُعودِنا ولا تعوزكَ الثّقةُ خلالَ المحنةِ ، وسوفَ تعوّضُ لكَ صداقَتُنا ما سلَبَه القَدَرُ منْك.

الرِّواياتُ أنَّ أُمَّهَ الأميرةَ عائشةَ بنتَ أبي عبد اللهِ الأيسر قد سَبَقَتْه ، ثمّ توقَّفَتْ وسألَتْ عنه؛ فقيلَ لها: إنَّه يبكي ، فقالَتْ قولتَها المشهورةَ:

اِبْكِ مثْلَ النِّساءِ مُلْكاً مُضَاعاً لَمْ تُحَافِظْ عَلَيْهِ مثْلَ الرِّجَالِ

* وهناكَ روايةٌ أخرىٰ قريبةٌ من هذهِ تقول: إنَّ أبا عبد الله الصَّغير أشرفَ أثناء مسيرِه في شعْبِ تل البذول (بادول) علىٰ منظرِ غرناطةَ ، فوقفَ يُسَرِّحُ بَصَرَه لآخرِ مرّة في هاتيكَ الربوع الجميلةِ والعزيزةِ التي ترعْرَعَ فيها ، وشهِدَتْ مواطنَ عزّهِ وسلطانِه ومُلْكِه ، فانهمرَ في الحالِ دمْعُه مِدْرَاراً ، وأجهشَ بالبُكاء ، فصاحَتْ به أمُّه الأميرةُ عائشَةُ: «أجَلْ فلتبكِ كالنِّساءِ مُلْكاً لم تَسْتَطعْ أنْ تدافعَ عنْه كالرِّجالِ».

* وصكَّتْ هذهِ الكَلمةُ الحقَّةُ سَمْعَ أبي عبد اللهِ الصَّغير: أَجلْ فلتَبْكِ كالنِّسَاءِ أَجَل فلتبْكِ كالنِّسَاء.

* لقد بذلَتِ الأميرةُ عائِشَةُ ما بوسعِها كي تحافِظَ علىٰ غرناطةَ ، ولكن ضيَّعَها ابنُها بِحَسَدِه وعَدم حُسْنِ تدبيرِه. . . يقولُ محمّدُ عبد الله عنَان عنْ شخصيّةِ الأميرةِ عائِشَةَ: وتَحتَلُّ شخصيّةُ عائشةَ الحرّةِ في حوادثِ سُقوطِ غرناطةَ مكانةً بارزةً ، وليس ثمَّة في تاريخ تلْكَ الفترةِ شخصيةٌ تثيرُ منَ الإعجابِ والاحترام ، ومنَ الأسىٰ والشَّجَن قَدْرَ ما يثيرُ ذِكْرُ هذه الأَميرةِ النَّبيلةِ منْ شجاعةٍ وإقدامٍ وتضحيةٍ(١).

* لقد كانَتْ كلمتُها كلمةَ حقّ ، ولم تُفِدِ ابنها العَبَرات ، ولقد صدقَتْ هذه العاقِلةُ الحازمةُ ، فما ضَاعَ مُلْكٌ حَافَظَ عليه أهلُهِ بِسياجٍ منَ العَدْلِ ، وأحاطوهُ بنورٍ منَ الشُّورىٰ ، وأنْبَتُوا فيه شَرْعَ اللهِ ، ولم يركَنُوا إلىٰ الذينَ ظَلموا واتّبعُوا شهواتِهم.

---

(١) انظر: نهاية الأندلس (ص ١٩٧) بشيء من التصرف.

* وقد صوَّرَ بعضُ الشُّعراء علىٰ لِسانِ الأميرةِ النَّبيلةِ عائشةَ بنتِ أبي عبد الله الأَيْسَر قولها:

تَذْكُرُ اللهَ بَاكِياً هَلْ يَرُدُّ الدَّمْـ ـعُ مَجْـداً ثَـوَىٰ وَعَـاراً أَقَـامَـا
هَـدَّنـي فَـوْقَ خَطْبِنَـا أَنَّـك ابْنِـي يـا لأُمٍّ تُسْقَـىٰ العَـذَاب تُـؤَامَـا
لَمْ تَصُنْ كَالرِّجَالِ مُلْكاً فَأَمْسىٰ رُكْنُـه انـدَّكَ فَـابْكِـهِ كَـالأَيَـامـىٰ

* نعم لمثلِ قولِ الأميرة عائشة فلتَصْغِ الآذانُ، ولمثلِ مواقفها العَطرة فلتفعلِ النِّساء.

* إنَّ الأميرةَ عائشةَ هذه تَصْلُح شِعاراً ومَناراً وقدوةً لنساءِ عَصْرنا الحاضِر، فهل تستفيدُ الأُمّهات منْ تجربتها؟ وهل هناك أمهاتٌ واعياتٌ يَزْرعْنَ الشَّجاعة والأَمَل في نفوسِ أبنائِهنَّ وبناتهنَّ مثلَ عائشةَ الحرّة هذه؟!

* أمّا ابنُها أبو عبد اللهِ الذي أُخِذَتْ على يدِه غَرناطة، وانقرضَتْ بدولتِه مملكةُ الإسلامِ بالأندلس، والذي يعودُ أصْلُه إلى نَصْر بنِ قيس الأنصاريّ الخزرجيّ، فقد انتهىٰ بعد نزولهِ بمليلةَ إلىٰ مدينةِ فاس بأَهْلهِ وأولادِه معتذراً عمّا أسْلفه، متلهّفاً علىٰ ما خلَّفَه، وبنىٰ بِفَاسٍ بعضَ قصورٍ علىٰ طريقِ بنيانِ الأندلس. وتوفي بفاسٍ عام (٩٤٠هـ) وخلَّفَ ولدَيْن اسمُ أحدهما يُوسُف، والآخرُ أحمد، وعَقِبُ هـذا السُّلطان بـفاسٍ إلى الآن(١).

* قال المقرّي: وعهدي بذريّته بفاس إلىٰ الآنِ سَنة (١٠٣٧هـ) يأخذونَ منْ أوقافِ الفُقراء والمسَاكين، ويُعَدُّون من جُملةِ الشَّحاذين، ولا حولَ ولا قوَّةَ إلاّ بالله العليّ العظيم(١).

* وهكذا تفعلُ الأيّامُ ما تشاءُ، فليطبِ المؤمنُ نَفْساً إذا حكمَ

---

(١) انظر: نفح الطيب (١/ ٣٢٧ و٣٢٨) بتصرف يسير جداً.

القضاءُ ، ولقد خَلَتْ منازلُ غرناطةَ وقصورِهم من أهلِها وماتوا بحسرتها إذ لمْ يعودوا إليها ، و. . .

يَا سَائِلَ الدَّارِ عَنْ أُنَاسٍ ... لَيْسَ لَهُمْ نَحْوَهَا مَعَادُ
مَرَّتْ كَما مَرَّت لَيَالٍ ... أَيْنَ جَدِيْسٌ وَأَيْن عَادُ

* نعم لم تكنْ دموعُ أبي عبد الله الصَّغير على أبوابِ غرناطةَ لتردَّ له الفردوسَ الجميل؛ وما كانَتْ تلك الزَّفَراتُ إلا حرقةً وأسىً ، ورسولاً للدّموعِ المدرارةِ التي تذرفُها عيناه ، و. . .

أتبْكِي عَلىٰ لَيْلَىٰ وَأَنْتَ تَركْتَها ... فَكُنْتَ كَآتٍ غَيَّه وَهوَ طَائِعُ
وَمَا كلُّ ما مَنَّتْكَ نَفْسُك مخْلياً ... تُلاقي وَلا كُلٌّ لَهُ أَنْتَ تَابِعُ
فَلا تَبكيَنْ في إثْرِ شيءٍ نَدَامةً ... إذا نَزَعَتْه مِنْ يَديْكَ النَّوازعُ

* لقد تركَ أبو عبد الله الصَّغير قَصْرَ الحمراءِ العظيمِ ، والذي يعتبرُ إلىٰ الآن من عيونِ الآثارِ الإسلاميّة الأندلسيّةِ الباقيةِ بمدينةِ غرناطةَ عاصمةِ دولةِ بني الأَحْمر ، وغادرَ ساحةَ الرَّياحين ، وجنَّة العَريفِ ، وما أدراك ما جنَّةُ العَريفِ؟!!

* ولكنَّ غرناطةَ تظلُّ تشهدُ محيَا الأميرةِ عائشةَ الحرّة بنتِ أبي عبد الله الأَيْسَر ، وكلمتَها المشهورةَ ، وتظلُّ غرناطةُ والأندلس أهزوجةً نشوىٰ على شَفَةِ الزَّمنِ ، وشِفَاهِ الشُّعراء ، ولعلَّه منَ الجميلِ أنْ نشيرَ إلىٰ أهزوجةٍ نَشْوىٰ راقصةٍ شَدا بها الشَّاعر السُّوريُّ الدّمشقيّ «نزار قبّاني» عندما زارَ الحمراء ، وتمثّل التّاريخَ أمامَه مجموعاً من طارق بنِ زياد إلى وقْتِه الحالي ، واحتشدتِ الذّكرياتُ في مخيّلتِهِ ، ورأىٰ الحمراءَ التي سُطِّرتْ علىٰ جدرانها أمجادُ أجدادِه ، بدايةً من طارقِ بنِ زياد ، وانتهاءً بالأميرةِ النَّبيلةِ عائشة الحرّة بنت أبي عبد الله الأيسر ، ترىٰ ماذا قالَ نزار لنا في غرناطةَ؟! :

فيْ مَدْخَلِ الحَمْراءِ كَانَ لِقَاؤُنَا ... مَا أَطْيَبَ اللقْيَا بِلاَ مِيْعَادِ

عَيْنَانِ سَوْدَاوَانِ فَي حَجَرِيْهِمَا تَتَوالَدُ الأَبْعَادُ مِنْ أَبْعَادِ
هَلِ أَنْتِ إِسْبانيّةٌ سَاءَلْتُها قَالَتْ وفي غَرنَاطَة مِيْلَادي
غَرنَاطَةٌ وصَحَتْ قُرونٌ سَبْعَةٌ فِيْ تَيْنَكِ العَيْنَيْنِ بَعْدَ رُقَادِ
وَأُميَّةٌ رَايَاتُها مَرفُوعَةٌ وَجِيَادُهَا مَوصُولَةٌ بِجِيَادِ
مَا أَغْرَبَ التَّاريخَ كَيْفَ أَعادَني لحفِيْدَةٍ سَمْراءَ مِنْ أَحْفَادِي
وَجْهٌ دِمَشْقيٌّ رأَيْتُ خِلاَلَه أَجْفَانَ بلْقَيْسٍ وجيْدَ سُعَادِ
وَرَأَيْتُ منْزِلَنَا القَديمَ وحُجْرةً كَانَتْ بِها أُمّي تَمدُّ وسَادِي
وَاليَاسَمِيْنَةُ رصِّعَتْ بِنُجومها والبِرْكَةَ الذَّهبيَّةَ الإنْشَادِ
وَدِمَشْقُ أَيْنَ تكُونُ قُلْتُ تَريْنَها في شَعْرِكِ المُنْسَابِ نَهْرَ سَوَادِ
في وَجْهِكِ العربيّ في الثَّغْرِ الذي مَا زَالَ مُختَزِناً شُموسَ بِلادي
في طيْبِ جنَّاتِ العَرِيْفِ ومائِها في الفُلِّ في الرَّيحَانِ في الكَبَّادِ
سَارَتْ مَعِي والشَّعْر يَلْهَثُ خَلْفَها كَسَنَابِلٍ تُركَتْ بِغَيْرِ حَصَادِ
يَتَألَّقُ القُرْط الطَّويلُ بجيْدِهَا مِثْلَ الشُّموعِ بلَيْلَةِ المِيْلَادِ
ومشيْتُ مثْلَ الطِّفْلِ خَلْفَ دليلَتي وَوَرائِيَ التّاريخُ كَومُ رَمَادِ
الزُّخرُفَاتُ أَكَاد أَسْمَعُ نَبْضَهَا والزَّرْكَشَاتُ علىٰ الرُّفوفِ تُنَادي
قالَتْ هُنَا الحَمْراءُ زَهْوُ جُدُودِنا فَاقْرأْ علىٰ جُدْرَانِهَا أَمْجادي
أمْجادُهَا وَمَسَحْتُ جُرْحاً نَازِفاً ومَسَحْتُ جُرحاً ثَانياً بِفُؤَادِي
يا لَيْتَ وَارِثَتي الجَمِيْلَةَ أدْرَكَتْ أنَّ الذيْنَ عَنَتْهُمُ أَجْدَادِي
عَانَقْتُ فِيْها عنْدَمَا وَدَّعْتُها رَجُلاً يُسَمَّىٰ طَارِقَ بنَ زِيَادِ[1]

* ولغرناطةَ مكانةٌ واسعةٌ في شِعْرِ نزار ، ففي قصيدتِه «أحْزان في الأندلُس» يتحدَّثُ ويتساءَلُ عنِ الأندلسِ وعن غرناطةَ ، وعن رحيلِ

---

(١) انظر : الأعمال الشعرية الكاملة ، لنزار قباني (١/ ٥٦٦ ـ ٥٦٨).

أبي عبد الله الصَّغير عن غرناطةَ ، وها أنَا أقتطفُ لكَ فقْراتٍ من قصيدته :

أحزان في الأندلس :

كَتبْتِ ليْ يا غَالِيَهْ
كَتبْتِ تَسْأَلِيْنَ عَنْ إِسْبَانِيَهْ
عَنْ طَارِقٍ ، يَفْتَحُ باسْمِ اللهِ دُنْيا ثَانِيَهْ
عَنْ عُقْبَةَ بنِ نَافِعٍ
يَزْرَعُ شَتْلَ نَخْلَةٍ
فيْ قَلْبِ كُلّ رَابِيَهْ
سَأَلْتِ عَنْ أميرِها مُعَاوِيَهْ
عَنِ السَّرَايا الزَّاهِيَهْ
تحملُ منْ دِمَشْقَ في رِكَابِها
حضارةً وَعَافيَهْ
لَمْ يَبْقَ منْ غَرنَاطَةٍ
ومنْ بَنِي الأَحْمرَ إلاَّ مَا يقُولُ الرَّاوِيَهْ
وَغَيْرُ لَا غَالِبَ إلاّ اللهُ
تَلْقَاكَ بِكُلّ زَاوِيَهْ
لم يَبْقَ إلاّ قَصْرُهُم
كامْرَأَةٍ منَ الرُّخَام عَارِيَهْ
تَعيْشُ ـ لا زَالَتْ ـ علىٰ
قصّةِ حبٍّ ما ضِيَهْ . . .
مَضَتْ قُرونٌ خَمْسَةٌ
مَذْ رَحَل «الخليفةُ الصَّغير» عَنْ إِسْبانِيَهْ
وَلَمْ تَـزَلْ أَحْقَادُنَا الصَّغيرهْ
كَما هِيَـهْ . . .

مَضَتْ قُرونٌ خَمْسَةٌ يَا غالِيهْ
كَأَنَّنا نَخْرجُ هَذا اليومَ منْ إسْبَانِيهْ[1]

* ومعذرةً من القارىءِ الكريم فقد جَمَحَ بنا القلمُ ، لكنَّنا نعودُ لنقول: إنَّ الأميرة عائشة امرأةٌ نادرةُ المثال ، حُرّةٌ كاسْمِها ، لو وَجَدَتْ من يعضُدها في أمْرِها منَ الرِّجال ، وكانَتْ بحقّ غرّة النّساءِ الأندلسيّات النَّبيلات اللواتي رسَمْنَ الخلودَ في دنيا الخلود. فرحمَ اللهُ عائشةَ التي ما تزالُ في ضمائِرنا عائِشَة.

* * *

---

(١) انظر: الأعمال الشعرية الكاملة (١/ ٥٦٣ ـ ٥٦٥) باختصار وانتقاء.

العَجْفاء الجارية

* من النساء الوافدات من المشرق العربي إلى بلاد الأندلس.
* شاعرة، مغنية، عازفة، تتقن أداء الألحان.
* صاحبة صوت أعجوبة في العذوبة والجمال.

العَجفاء الجارية

* كانَتْ هذهِ المرأَةُ مشْرِقاً منْ مشَارِقِ الجمَال الفنّي في المشرِق ، ثمّ في الأَنْدلُس ، ولم تكنْ جميلةً كغيرِها منَ المليحاتِ اللاتي يُجْلَبْنَ للدَّعابَةِ والخلابَة والتَّسري ، حيثُ كانتِ السَّراري[1] منتشراتٍ مبثوثاتٍ في القُصورِ وبُيوتِ ذوي اليَسَار. ولكنَّها كانت تتْقِنُ فَنَّ الغِنَاء إتْقَاناً عجيباً يمتعُ الأَسْماعَ ، ويحرِّك كوامِنَ النُّفوسِ.

* وكان كثيرٌ منَ المغنّيات يُجْلَبْنَ إلى قصورِ الكبراءِ لجمالِ أصواتِهنَّ ، لا لأَشكالِهنَّ ، فقد كُنَّ ما بينَ سوداءَ وحَمْشَاء وعَجْفَاءَ ورسْحاء ، وكانَ هؤلاء الإماءُ والجواري قد بَرعْنَ في الغِناء ، وقطعْنَ فيه أَشْواطاً بعيدةً ، ومن أشهرهنَّ: العَجفاء[2] التي سَجّلَت أَثَراً وأثارةً نسوية بين نساءِ الأندلسِ في القَرن الثّاني الهجريّ.

---

(١) «السّراري»: جمع سُرّية ، وهي الأمَةُ المتّخذة للوطءِ ، واشترطَ الفقهاءُ في صدقِ هذه التّسميةِ حصول الوطء ولو مرّة ، وتظهرُ فائدةُ هذا الاشتراط فيمن جَعَل بِيَدِ زوجهِ عتقَ السّرّية التي يتّخذها عليها ، فإنْ لم يطأها لم يكنْ لها عتْقُها. وهي منسوبةٌ إلى السّر وهو النّكاح ، وإنّما ضُمَّتْ سينُها جَرْياً علىٰ المُعتاد في التّغيير للنَّسبِ كما قالوا في النّسبةِ إلىٰ الدّهر: دُهْري؛ وإلى السّهل: سُهْلي.
وكان الأصمعي يقولُ: إنّها مشتقّة من السُّرور؛ ويقال: قد سررتُ سُرّية وتسريت ـ بالياء ـ ، فالأُولى على الأَصْل ، والثّانية على الإبدال ، كما يقال: تطيبْتُ.

(٢) انظر: نفح الطيب (٤/١٣٨ ـ ١٤٠) ، والدر المنثور (ص ٣٣٠ و٣٣١) ، وأعلام النساء (٣/ ٢٥٥ ـ ٢٥٧) ، والأغاني (٢٤/ ١١٢ ـ ١١٤) طبعة دار الكتب العلمية ببيروت ، والجليس الصالح الكافي (٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٥).

* وأجدنُي هنا أتحوّلُ قَليلاً عنِ الحديث عن المغنياتِ من الجواري والقيانِ ، لأتحدثَ قَليلاً عن نساءٍ برعْنَ في العُلوم ، واشتهرنَ في المعارفِ المتنوّعة ، فقد اشتهرتْ كثيراتٌ منهنّ في الطِّبِّ ، حتى غَدتْ بَعْضُ نساءِ الخُلَفَاءِ لا يشعُرنَ بحاجةٍ إلىٰ الأطبّاء ، ما دامتْ هناكَ طبيباتٌ مشهوراتٌ مجلياتٌ في ميدانِ الطّبِّ ، ومنْ أشهر طبيباتِ نساءِ الأندلس: أختُ الحفيدِ ابن زُهْر ، وكذلك ابنتُها؛ وكانت هاتان الطَّبيبَتَان مشهورَتين بعلمِهما ، ولهما خِبْرةٌ جيّدة في مداواةِ النِّساء وعلاجِهنَّ ومعرفةِ أمراضِهِنَّ.

* كما أنَّنا نَجدُ بعضَ نساءِ الأُمراء والخلفاءِ في غيرِ حاجةٍ إلى معلمينَ ـ أحياناً ـ ما دامتْ هناك معلماتٌ يملأْنَ الدُّنيا ، وأستاذاتٌ يُعَلِّمْنَ النِّساء ما يحتجْنَ من أنواعِ العُلوم ، ومن مشاهيرِ نساءِ الأندلسِ اللواتي عُرِفْنَ بمهنةِ التَّعليم: مريمُ بنتُ أبي يعقوب الأنصاريّ[1] ، التي أَثْرَتْ نساءَ عَصْرِها بمعرفةِ ألوانِ العُلوم ، وكذلك نجدُ أنَّ الشَّاعرةَ العروضيَّةَ مولاة أبي المطرف بن غَلبون قد تَلْمَذ لها أبو داود سُليمانُ بنُ نَجاح ، ودرسَ عليها «الكامل» لأبي العبّاس المبرّد ، و«النّوادر» لأبي عليّ القالي.

* والعجفاءُ هذه ، إحدىٰ النِّساءِ الوافداتِ منَ المشرقِ العربيّ إلىٰ بلادِ الأندلس ، لا نَعْرِفُ ما اسْمها ، ولا موطنها ، ولا مبتدأها ، ولا نشأتها ، ولعلَّ العجفاءَ لَقَبٌ لها لأنَّها كانَتْ نحيفةً هزيلةً ، بل إنّها جاريةٌ لرجلٍ مغمورٍ يُدعَىٰ مسلم بنُ يحيى ، وهو بدورِه مولىٰ لبني زُهْرة.

* وكانتِ العجفاءُ إحدىٰ شواعر النِّساء ، تنظمُ الشِّعر وتقولُه ، بل وتغنيه ، وتعزفُ العودَ ، وتتقنُ أداءَ الألحانِ ، واشتهر أَمْرُها حتّى غَدتْ

---

(١) اقرأ سيرتها في هذا الكتاب ، وما وصل إلينا من آثارها الأدبية.

من نساء الأندلس الشَّاعرات والمغنيات اللواتي صَدَحْنَ في القُصور ، وملأْنَ ساحةَ الأدبِ بأثارةٍ منَ الشِّعر الغِنائي الوجداني .

* والحقيقةُ فقد ازدانتِ البيئةُ الأندلسية بعددٍ غيرِ قليلٍ منَ النِّساءِ الشَّاعرات اللائي أَسْهَمْنَ في إثراءِ الأدبِ النَّسويّ الأندلسيّ خاصّة ، والأدب الأندلسيّ بعامّة ، بألوان لطيفةٍ وطريفةٍ من موضوعاتِ الشّعر ، ومقطوعاتٍ جذّابة في فنِّ القصيدِ ، وفنّ المُطَارحات ، فكان نتاجهنَّ واضحَ الأَثَرِ في موكبِ الأدبِ الأندلسيّ ، وكُنَّ فيه كأزهارِ الرُّبىٰ بألوانِها الجميلةِ الجذّابة التي توشّي وجْه الأرضِ في فَصْل الربيع .

* ولعلَّ أوّلَ النِّساء الشَّاعرات اللواتي ظَهرنَ علىٰ ساحةِ المَسْرحِ النَّسوي في الأرضِ الأندلسية هي العَجْفَاء التي كانت منَ الجواري الوافداتِ علىٰ الأندلسِ منَ المشرقِ العربي ، وكانت مغنيةً منْ أحسنِ النَّاس غناءً ، على الرّغم من أنَّها كانت هزيلةً ، ضعيفةً ، نحيفةً ، نحيلةً ، وكانت عجوزاً قد عَلَتْ وجهَهَا حمرة كَدِرَةُ اللون ، وشَعْرُهَا كأنَّه شَعْرُ مَيتٍ ، ولباسُها قديمٌ لا يساوي شيئاً. بَيْدَ أنَّ هذا كلَّه يَنْسَاهُ السَّامعِ عندما تدخلُ إلىٰ أذنيه نغماتُها التي تجعلُه يحلِّقُ عالياً في أجواءِ الطَّرب والوَجْدِ .

* ولعلَّ العجفاءَ هذه كانت في زَمَنِ صِباها ممن يُشَار إليها بالبَنَانِ ، وكانَ صوتُها أعجوبةً في العذوبةِ والجمالِ ، ولمّا تحدثَتْ عنها الأديبةُ زينبُ بنتُ يوسُف فواز العامليّة ، قالت عنها في مفتَتح ترجمتِها : العجفاءُ المغنيةُ كانَتْ ذات صوتٍ غَرِد ولا تغريد البلابل ، حنَّتْ إليها الأسماعُ ، ومالَتْ إليها القُلُوب ، وتحدَّث بحسنِ صناعتها الرّكْبَان في كُلِّ مكان ، وبلغَتْ في زَمنِ وزَمان صِبَاها ما لم يَنله غيرُها من القِيان ، وفي آخر مدّتها رمَاها الزَّمان بكلكِلهِ ، وافتقرتْ وأقامَتْ تعلّم جواري الأُمراءِ صَنْعَة الغِناء ، وأخيراً انقطعت في دار مُسلم بنِ يحيىٰ مولى بني زُهرة ، وبقيتْ

عنْده إلىٰ أن اشْتَراها الأميرُ عبدُ الرحمن بنُ معاوية الأمويُّ فبقيتْ عنده إلى أنْ ماتَت[1].

* لقد كانتِ العجفاءُ جاريةً شاعرةً تغنّي الشِّعر غناءً شجيّاً يأسرُ النُّفوس، ويهزُّ المشَاعِرَ، ويسْحَرُ الألباب، فقد كانت هذهِ الجاريةُ العجفاء النَّحيلةُ الدميمةُ، ساحرةَ الغناء، نديَّة الأداء، تنظمُ الشّعر وتغنّيه، فينسى السَّامعون شكْلَها، وترسخُ في نفوسهم لذّة صوتها.

* وتروي المصادرُ قصّةً عن جمالِ صوتِها الذي جَعل أحدهم يعبثُ عبثاً شديداً بمنزلِ سيّدها الذي كانَ أَلْـثَـغَ لا يحسنُ نطقَ الحروفِ، كما كانَ فقيراً لا يملكُ منْ حُطامِ الدنيا شيئاً يُذكر إلا صوتُ العَجْفَاء، تقولُ المصادر ما مُفاده:

* قال غريرُ بنُ طلحةَ الأرقميُّ: قال لي أبو السَّائب المخزوميُّ ـ وكانَ منْ أهلِ الفَضْل والنُّسْكِ ـ: يا أرقميُّ، هل لَك في أحْسَن النَّاس غناءً؟

قلتُ: نَعم يا أبا السَّائب، إنّي أشْتهي ذلك.

قال: فاصْحَبْني.

* فخرجْنَا حتّى جئْنا إلىٰ الجبّانَةِ إلى دارِ مسلم بنِ يحيى الأرتّ، مولى بني زُهرة، فاستأذنا، فأذِنَ لنا، فدخلْنَا بيتاً طولُه اثنا عشر ذراعاً في مثلها، وسُمْكُه في السَّماء ستةَ عشرَ ذراعاً، ما فيهِ إلا نُمْرُقتان[2] قد ذَهَبَتْ منهما اللُّحمة وبقي السّدى، وفراشٌ محشوٌّ ليفاً، وكرسيان من

---

(١) الدر المنثور (ص ٣٣٠).

(٢) «النمرقة»: الوسادةُ الصغيرةُ يُتكأ عليها، وفي التّنزيل: ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾ [الغاشية: ١٥].

خَشَب قد تشقّقا وتفكّكا وذهَبَ عنهما الصَّبغُ منْ قِدَمهما ، وبينهما مِرْفقَتان محشوّتان بالليفِ .

* قال الأرقمي : فجلَسْنَا وأنّا متأفِّفٌ مما رأيتُ ، ثم طلعت علينا عجوزٌ كَلْفاء[1] عجفاء ، كأنَّ شعْرَها شَعْرُ ميّتٍ ، عليها قميصٌ بلا كُمين هَرَويٌّ أصْفَرُ غَسيل ، كأنَّ وركيها في خيطٍ من رسْحها[2] حتى جلَستْ ، فقلتُ لأبي السَّائب :

بأبي أنتَ وأمّي ما هذهِ المرأة؟!

قال لي أبو السَّائب في هدوء : اسْكُتْ يا أرقميُّ . .

* فسكتُّ علىٰ مَضَضٍ ، ثم إنَّ العَجْفَاء تناولَتْ عُوداً ، فجسَّته ، ثم ضَرَبَتْ عليهِ ، وانبعثتْ تغنّي بأبياتٍ ميميّةٍ لأبي صخْرٍ الهذليّ وتقول :

بيـدِ الّـذي شَغَـفَ الفُـؤاد بِكُـم ... فَـرَجُ الـذي أَلْقَـىٰ مِـنَ الهَـمِّ
هَـمٌّ مـنْ أَجلِـكِ لَيْـسَ يكْشِفُـه ... إلاّ مَليْـكٌ جَـائِـرُ الحُكْـمِ
فـاسْتَيقِنـي أَنْ قَـدْ كَلِفْـتُ بكُـمْ ... ثـمّ افْعَلِـي مـا شِئْـتِ عَـنْ عِلْـمِ
قَـدْ كَـانَ صَـرْمٌ فـي المماتِ لنَـا ... فَعَجِلْـتِ قَبْـلَ المَـوْتِ بـالصَّـرْمِ

* قال غريرُ الأرقمي : فَحَسُنَتْ ـ واللهِ ـ في عيني لِمَا سمعْتُ من طيْبِ أدائِها وحُسْنِ صوتِها ، وجاءَ نقاءً وصفاءً وأذهبَ الكلفَ منْ وجهها ، وزحفَ أبو السَّائب ، وزحفْتُ معه ، ثم إنَّ العجفاء غَنَّت بشعر سعيدِ بن عبد الرحمن بنِ حسَّان :

برِحَ الخَفَاءُ فَأَيّ مَا بِك تَكْتُم ... وَلَسَـوفَ يَظْهَـرُ مَـا تُسِـرُّ فَيُعْلَـمُ
مَمّـا تَضَمَّـنَ مِـنْ عَـزِيـز قَلْبُـهُ ... يـا قَلْـبُ إنَّـكَ بـالحِسَـان لمغْـرَمُ

---

(١) «كلفاء» : الكلفُ حمرة كدرة تعلو الوجْه ، والنّمش يعلو الوجْه كالسُّمسم .

(٢) «رسحاء» : قليلة لحم العجز والفخذين .

يا لَيْتَ أَنَّكَ يَا حُسَامُ بِأَرْضِنَا تُلقِي المَراسِيَ دَائِماً وَتُخَيِّمُ
فتَذُوق لَذَّةَ عَيْشِنا وَنَعيْمَهُ ونَكُونَ إخْواناً فمَاذَا تَنْقِمُ

* وطربَ أبو السَّائِب طَرَباً شَديداً ، وكادَ يفْقِدُ صوابَه ، وقال: إنْ نَقِمَ هذا فليفعلْ ما يَشَاءُ ، وزَحَفَ وزَحَفْتُ معه حتى فَارقْنَا النَّمرقتَيْن ، وربَتِ العَجْفَاءُ في عيني كما يربُو السُّويق شِيْبَ بماءِ قِرْبَةٍ. ثم إنَّ العَجْفَاء أخَذتِ العُودَ وغَنَّتْ:

يَا طولَ لَيْلي أُعَالِجُ السَّقَما إذْ حَلَّ كلُّ الأَحبَّةِ الحَرَما
ما كُنْتُ أَخْشى فِراقَكم أَبداً فاليوم أمْسىٰ فراقُكم غرمَا

* قالَ غريرُ الأرقميُّ: فألقيتُ طَيْلَسَاني ، وتناولتُ شَاذكونةً[١] ، فوضعتُها علىٰ رأْسي وصِحْتُ كما يُصَاحُ علىٰ اللُّوبيا بالمدينةِ. وقامَ أبو السَّائِب أيضاً وتناولَ رَبْعَةً[٢] فيها قواريرٌ ودهنٌ كانتْ في البيت ، فوضَعها علىٰ رأْسِه وصاحَ مسلم بن يحيىٰ بن الأرتّ صاحب الجارية ـ وكان أَلْثَغَ ـ: قوانيْني قوانِيْني ، يعني: قَواريْري قَواريْري ، أَسْأَلُك باللهِ يا أبا السَّائب ، فلم يلتفتْ أبو السَّائب إلىٰ ابنِ الأرتّ ، وحرَّكَ رأْسَه مَرَحاً فاضطربتِ القواريرُ واصْطكَّتْ فتكسَّرَتْ ، وسالَ الدُّهْنُ علىٰ رأْسِ أبي السَّائب وعلى صَدْره وظَهْره ، ثم إنَّه وضَع الرَّبعةَ منْ على رأْسِهِ ، والتفتَ إلى العَجْفَاءِ وقال لها: لقد هِجْتِ لي داءً قَديماً.

قال الأرقميُّ: ومكَثْنَا نَخْتِلَفُ إلىٰ العَجْفَاء سنينَ ، في كلّ جُمُعَةٍ يومَيْن.

* وطارَ صيتُ العَجْفاءِ مُشَرِّقاً ومغرباً ، حتى وصلتْ أنداءُ صوتِها

---

(١) «الشاذكونة»: المضربة الكبيرة يعملها النجاد ، أو المخدة أو الوسادة وهي فارسية.
(٢) «الربعة»: جونة العطار.

وعذوبتُه وجمالُه أسماعَ مَلكِ الأَندلس وأميرها عبد الرحمن بن معاوية بن هشام ، فاشتُرِيَتْ له العجفاءُ وحُملتْ إليه[1] .

* وبرحيلِ العجفاء إلىٰ أرضِ الأندلس حُرِمَ المشرقُ من فَنِّها ، ولا شكَّ في أنها عطَّرَتْ أجواءَ الأندلس بعاطرِ الألحان ، إذ كانَتْ ساحرةَ البيانِ ، عذبةَ الصَّوت ، ماهرةَ العزف ، تعرفُ كيف تحرِّك كوامنَ النُّفوس .

* وفي كَنَفِ عبد الرحمن الداخل الذي توفيَ عام (١٧٢هـ) عاشتِ العجفاءُ إلى أنْ ماتَتْ في الأندلسِ ، وعُدَّت من نسائِها اللواتي ينتظمنَ في هذا السِّفْر الجميل .

* * *

---

(١) انظر : الأغاني (٢٤/١١٢ ـ ١١٤) ، ونفح الطيب (٤/١٣٨ ـ ١٤٠) ، والدر المنثور (ص٣٣١) مع الجمع والتصرف . وانظر : أعلام النساء (٤/ ٣٥٥ ـ ٣٥٧) والأنيس الصالح الكافي (٣/ ٣٩٣ ـ ٣٩٥) .

غَـايَة المُـنى

* من الجواري النابهات للمعتصم بن صمادح ملك المرية.
* متأدبة، تُحْسِن الغناء، ولها صوت حسن، وصنعة جيدة بالأصوات.
* نبيلة، لبيبة، حسنة المحاضرة، عذبة الحديث.

غـَـايَة المُـــنى

* هذهِ امرأةٌ منْ نساءِ الأَندلُس تُدعى بهذا الاسمِ: «غَايَة المُنىٰ» ، ولم تكنْ هذهِ المرأةُ سوى جاريةٍ منَ الجواري اللاتي لا يُؤْبَهُ لَهنَّ ، ولكنَّ دخولَها إلى قَصْرِ المشاهيرِ جَعلها من المشَاهير.

* ولعلَّ غايةَ المنُى اسْمٌ أطْلَقَه النَّخَّاسُون على جواريهم تنسجمُ وحالتَهُنَّ ، ويبدو أنَّ غايةَ المُنى قد نالَتْ حظّاً وافِراً منَ الأَدبِ ، وحظّاً منَ المعرفةِ ، وشيئاً منَ الجمالِ ، فجعلهَا منْ محظيّات وجواري المعتصمِ بنِ صُمادح مَلكِ المرَية.

* ومنَ الجدير بالذّكْر أنَّه كَان في ذلك العَصْر اختلافٌ كبيرٌ بينَ المرأةِ الحرّةِ ، وبينَ الجاريةِ التي يملكُها الإِنْسانُ ، فهذهِ الجاريةُ أو الأَمَةُ كانَتْ ملْكاً لرّجل يتزوّجها إذا شَاء أو يبيعُها أَو يهبُها ، أَو يعتقُها.

* ويظهرُ لنا أنَّ هذَا العددَ الكبيرَ منهنَّ من جميعِ الجنسيّات من رُوميات ، وفارسيّات ، وإسبانيّات ، وغيرِ ذلك كانَ داعياً لتفكُّكِ الأَخلاقِ لبعضِ النَّاس ، وأنْ يغدو بعضُ الأثرياء والمترفين يعتمدون علىٰ الجواري في جُلِّ شؤونهم ، لذا فإنَّ الجواريَ كُنَّ سَبباً في انتشار شيءٍ منَ الفَساد.

* فقد كانتِ النَّخاسةُ أمراً شائِعاً ، وكانَ تجّار الرّقيق لا يهمهم سوىٰ المالِ ، فكانوا يدرّبون الجواري ويعلمونَهنَّ جُلَّ ألوانِ المعرفةِ والأَدبِ ، وينقلونَهُنَّ من بلدٍ إلى بلدٍ ، ومنْ قطْرٍ إلىٰ قُطْر ، فابتعدنَ عن بلدهنَّ

وأهلهنَّ وذويهنَّ ، فكانت بذلك صدمةً عنيفةً لهنّ ، تفكَّكَتْ إِثْرَها عُرا حياتهنَّ الاجتماعيةِ ، ولم يَعُدْ عند معظمهنّ من رادعٍ ، أو وازعٍ ، أو زاجرٍ أخلاقي يمنعها منَ العبثِ ، ولكثرتهنّ فَشَا التَّرفُ واللهو ، بلْ ظهرَ في بعضِ الأَوسَاطِ فسادٌ أخذَ يذيعُ بينَ بعض النَّاس.

* وكانَ لبعضِ هؤلاء الجواري سُلطانٌ عظيمٌ على بعضِ الكُبراءِ كالعباديّةِ[1] جارية المعتضد التي ملكَتْ عليهِ سُبلَه ، وكذلك غاية المُنى[2] هذه التي أخذتْ مساحةً واسعةً من قلبِ وقَصْرِ المعتَصم بنِ صمادح.

* وقد ازدادَ ولَعُ الكُبَراءِ بالجواري ، حتّى ازدادتْ أثمانُ الجميلاتِ منهنَّ ، رغمَ كثرتهنَّ ، ومنهنَّ غايةُ المنىٰ هذه ، فقد كانت جاريةً متأدّبةً متخرّجةً في فُنونِ الغناءِ ولها صوت حسنٌ وصنعةٌ جيّدةٌ بالأَصْوات[3].

* تقولُ زينبُ يوسُف فوّاز عن غايةِ المُنى: إنَّ سببَ وصولها إلى

---

(١) «العبَّادية»: جاريةُ المعتضد عبَّاد والد المعتمدِ بنِ عبّاد الأندلسيّ ، أهْدَاها إليهِ مجاهد العَامري من مدينةِ «دانية» ، وكانتْ أديبةً ظَريفةً كاتبةً شاعرةً ، ذاكرةً لكثيرٍ منَ اللّغة.
وكانَ المعتضدُ يميلُ إليها كثيراً ، ويقدّمُها علىٰ مَنْ في قَصْرِهِ ، حتّى ملكتْ عليهِ مشاعره وحسّه ، وقلبه ولبّه.
* ذكروا أنَّ المعتضدَ سَهِرَ ذاتَ ليلةٍ لأَمْرٍ حَزَبَه وهي نائمةٌ ، فقال:
تَنَامُ ومُدنَفُها يَسْهَرُ … وتَصْبِرُ عَنْه ولا يَصْبِرُ
فأجابتْه بديهةً بقولها:
لئنْ دَامَ هذا وَهَذَا لَه … سَيَهْلِكُ وَجْداً ولا يَشْعُرُ
قال المقّري: ويكفيكَ هذا شَاهِداً على فَضْلها رحمها الله تعالى وسَامحها.
(نفح الطيب ٦٣ و٦٤) بتصرف يسير.
(٢) انظر ترجمتها في: نفح الطيب (٦/ ٦٦ و٦٧) ، والدر المنثور (ص ٣٥٦) ، وأعلام النساء (٤/ ٥).
(٣) انظر: الدر المنثور (ص ٣٥٦).

المعتصمِ بنِ صُمادح هو أنَّها لمّا اكتَمَل أدبُها ، وخرَّجَها سيّدُها قدِم بها إلى المعتصمِ ، فأرادَ اختبارَها ، فقالَ لها :

ما اسمُك؟ !

قالتْ : غايةُ المُنى .

فقال لَها : أجيزي :

اسْـــأَلُـــوا غَـــايَـــةَ المُنَـــىٰ ... مَـــنْ كَسَـــا جِسْمـــيَ الضَّنَـــىٰ

فقالَتْ :

وَأَرَانـــــــي مُـــــوَلَّهـــــاً ... سَيَقـــــولُ الهَـــــوىٰ أَنَـــــا

فاشْتَرَاها بمئةِ ألف درهَم ، وكانت محظيةً عنده إلى أنْ ماتَتْ[1] .

وتروىٰ هذه الحكاية بروايةٍ أُخرى ، نقلَها المقّريُّ عن ابنِ الأبّارِ قال : سيقتْ لابنِ صُمادح جاريةٌ نبيلةٌ لبيبةٌ تقولُ الشِّعر وتحسنُ المحاضرةَ ، فقال : تُحْملُ إلى الأستاذِ ابنِ الفرّاء الخَطيب ليختبرها ، وكان كَفيفاً ، فلمّا وصلَتْه قالَ لها :

ما اسمُك؟

فقالت : غايةُ المنى .

فقال : أَجيزي :

سَـــلْ هَـــوَىٰ غَـــايَـــةَ المُنَـــى ... مَـــنْ كَسَـــا جِسْمَـــيَ الضَّنَـــىٰ

فقالتْ تجيزُه :

وَأَرانـــــــي مُتَيَّمـــــــاً ... سَيَقُـــــولُ الهـــــوىٰ أَنَـــــا

فحكىٰ ذلك لابنِ صُمادح فاشْتَراها[1] .

---

(١) الدر المنثور (ص٣٥٦) وانظر : نفح الطيب (٦/ ٦٦ و٦٧) .

* وهكذا فإنَّ غايةَ المُنى جاريةٌ منْ نساءِ الأَندلُس ، اتّصل ذِكْرُها بذكْرِ المعتصمِ بنِ صُمادح ، وكانتْ منْ نساءِ الأندلسِ وجواريها اللاتي يَسْحَرنَ الأَسماعَ والأبصارَ بما يقدمْنَه من آدابٍ وأشعارٍ ترطّبُ القلوبَ والنُّفوس ، وبما كُنَّ من دلٍّ ودلالٍ ، وما يبهرْنَ بهِ الأَسْماعَ منْ مُطارَحاتٍ ومعارضَات.

* ولعلَّ غايةَ المُنى لم تكنْ وحْدَها في هذا الميدانِ ، بل إنَّ هناك جوارٍ يتقنَّ الأدبَ والإجازَةَ ومنهنَّ «هنْد»[1] وجارية أبي محمّد عبد الله بن مسلمةَ الشّاطبيّ ، والعبّاديةُ جاريةُ المعتضد ، وغيرهما منَ الجواري الأديبات.

وتبقى غايةُ المنى منْ نساءِ الأندلس في هذا العِقْد اللطيفِ وهذا الغُصْنِ الرّطيب.

* * *

---

(١) هندٌ: جاريةُ أبي محمّد عبد الله بن مسلمةَ الشَّاطبيّ ، كانَتْ أديبةً شاعرةً ، كتبَ إليها أبو عامر بنُ ينَّقَ يدعوها للحضورِ عنده بعُودِها:

يـا هنْـدُ هَـلْ لَـكِ فـي زِيَـارةِ فتيـةٍ ... نَبـذُوا المحـارمَ غيـر شُـربِ السَّلسَـلِ
سمعُوا البلابلَ قد شدُوا فتذاكروا ... نغمـاتِ عـودِك فـي الثَّقيـلِ الأوّلِ

فكتبَتْ إليهِ في ظَهْرِ رقْعَتِهِ:

يَـاسَيّـداً حـازَ العُـلا عَـنْ سَـادَةٍ ... شـمّ الأُنُـوفِ مـنَ الطِّـرازِ الأَوّلِ
حَسْبـي مـنَ الإسـراعِ نحـوكِ أنّنـي ... كنْـتُ الجـوابَ معَ الـرَّسـولِ المُقْبِـلِ

ومن الجدير بالذكر أنَّ هنْداً هذه منْ نساءِ القَرن الهجريّ السَّادس لأنَّها عاصَرَتِ الوزيرَ الأديبَ أبا عامر محمدَ بنَ ينّق المتوفى سنة (٥٤٧ هـ).

الغسَّانيَّة البَجّانيّة

* ذات ظرف وأدب وجمال ولطف وكمال.
* عالمة بالعروض والشعر والأدب.
* عارضت ابنَ دراج القسطلي في قصيدةٍ نونية.

الغسّانية البَجّانيّة

* لمّا تَعرّضَ ابنُ الأبّارِ والمقّريُّ وابنُ سُعيد لتراجمِ النِّساءِ الأندلسيّات، ذكروا امرأةً لها أثارةٌ طيّبةٌ في تاريخِ النِّسْوةِ الأديباتِ الشّاعِرات في الأندلس، وقالوا: إنَّ اسْمَها: الغَسّانيّة البجّانية[1]، كانَتْ تَمدَحُ الملوكَ، وهي مشهورةٌ.

* والبجّانيّة نِسْبةٌ إلى بجّانَة؛ وبجّانةُ هي كُورةٌ عظيمةٌ، وتشتهرُ بإقليمِ المَريّة؛ وتحدَّث شَكيب أرسلان عن بجّانة فقال: ومدينةُ بجّانة كانَتِ المدينة المشهورة قَبْلَ مدينةِ المريةِ، فانْتَقَلَ أهلُها إلى المريّةِ، فعمرتْ، وخربتْ بجّانَة، فلم يبقَ منها - الآن - إلاَّ آثارُ بنيانِها، ومسجدُ جامِعها قائمٌ بذاتِه، وحول بجّانَةَ جنّاتٌ وبساتينُ، ومتنزَّهَات وكروم، وأموالٌ كثيرةٌ لأهْلِ المريةِ، وعلى يمين بجّانة، وعلى ستةِ أميالِ منها حصْنُ الحمّة؛ والحمةُ في رأسِ جبلٍ، ويذكر المتجوّلُون في أقطار الأرض أنَّ ما مثْلَ هذه الحمّة في المعمورِ منَ الأرضِ، وأتْقَنَ منها بناءً، ولا أَسْخَنَ منها ماءً، والمرضىٰ والمُعلّون يقصدونَ إليها منْ جميعِ

---

(١) المغرب (٢/ ١٩٢)، ونفح الطيب (٥/ ٣٠٣ و٣٠٤)، والصلة (٢/ ٦٥٧)، والدر المنثور (ص ٣٥٦)، ونزهة الجلساء في أشعار النساء (ص ٨٣)، وبغية الملتمس (ص ٥٤٤ و٥٤٥)، وجذوة المقتبس (ص ٤١٣)، وأعلام النساء (٤/ ١٠).

الجِهَات ، فيلزمُون المقام بها إلى أنْ تستقلَّ عِلَلُهم ، ويشْفوا منْ أمراضِهم[1].

* وبينَ أحْضَانِ الطَّبيعةِ الجميلةِ نَشَأَت الغَسَّانيّة[2] البجّانيّة ، فقد كانت بجّانةُ منْ جنَانِ الأندلس ـ كما مرَّ معنا ـ ولله درُّ مَنْ قال:

لله أَنْـدلُـسٌ وَمَـا جَمَعَـتْ بِهَـا ... مِـنْ كُـلّ مَـا ضَمَّـتْ لَهـا الأَهْـوَاءُ
فَكَـأنَّمـا تِلْـكَ الـدِّيـارُ كَـوَاكِـبٌ ... وكـأَنَّمـا تِلْـكَ البِقَـاعُ سَمَـاءُ
وَبكُـلِّ قُطْـرٍ جَـدْولٌ فـي جَنَّـةٍ ... وَلعَـتْ بِـهِ الأَفْيـاءُ والأَنْـدَاءُ

وَقَال آخَرُ:

حَبَّـذَا أَنْـدلـسٌ مِـنْ بَلَـدٍ ... لَـم تَـزَلْ تُنْتِجُ لـي كُـلَّ سُـرور
طَـائِـرٌ شَـادٍ وَظِـلٌّ وَارِفٌ ... وَميـاهٌ سَـابِحـاتٌ فـي قُصُـور

وقالَ آخَرُ:

يَا حُسْنَ أَنْدلُسٍ وَمَا جَمَعَتْ لنَا ... فيْهَـا مِـنَ الأَوْطَـارِ وَالأَوْطَـانِ
تِلْكَ الجزيْرة لَسْتُ أَنْسى حُسْنَها ... بتَعَـاقُـبِ الأَحْيَـانِ والأَزْمَـانِ
نَسَجَ الرَّبيعُ نَباتَها مِنْ سُندسٍ ... مُـوشيـةٍ بِبَـدَائِـعِ الأَلْـوَانِ
وَغَـدا النَّسيـمُ بهـا عَليـلاً هـائِماً ... بِـربُـوعهَـا وتَـلاطُـمِ البَحْـرانِ
يـا حُسْنَهـا والطَّـلُّ ينْثُرُ فـوقَهـا ... دُرَراً خِـلال الـوَرْدِ والـرَّيْحَـانِ

---

(١) انظر: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية (١/ ١٢٤).

(٢) «الغَسَّانية»: غُسْن والغُسنة: الخصْلَةُ منَ الشَّعر. والغَيْسَنَة: النّعمة والنّضارة ورجُلٌ غَسَّاني: جميلٌ جداً. والغَيْسَان: حدّةُ الشَّباب. ويُقال: لَسْتَ منْ غسَّانهِ ولا غَيْسَانه أي من ضَرْبه. ويُقال: كانَ ذلك في غَيْسَانِ شَبابه: أي في نعمةِ شَبَابه وطراوَتِه.
ويُقال: امرأةٌ غَيْسَة ورجلٌ غَيْسٌ أي: حَسَنٌ ، ويُقَال: هو في غَيْسَان شَبابِه ، أي: في حُسْنهِ ، ومَن جعلَه من الغُسْنَة ، وهي الخُصْلَة منَ الشّعر ، لأنّه في نعمة شبابه واسترخائه كالغسنة. والغيسانة: الناعمة. والغيسان: الناعم.
(لسان العرب ١٣/ ٣١٢ و٣١٣) بتصرف مادة (غسن).

وَسَواعِدُ الأنْهارِ قَد مُدَّتْ إلىٰ ... نُـدمَـائِهـا بِشَقَـائِـقِ النُّعْمَـانِ
وَتَجاوَبَتْ فيْهَا شَوادي طَيْرِهَا ... والتفَّـتِ الأَغْصَـانُ بـالأَغْصَـانِ
مَـا زُرْتُهـا إلاَّ وحيَّـانـي بِهَـا ... حَـدَقُ البهَـارِ وأَنْمُـلُ السُّـوسَـانِ
مِـنْ بَعْـدِهَـا مَـا أَعْجبَتْنِـي بَلْـدَةٌ ... مَـع مَـا حَلَلْـتُ بـهِ مـنَ البُلْـدَانِ

* وفي هذهِ البيئةِ الطَّلْقَةِ المُختالَةِ بِحُلَلِ الجمالِ عاشَتِ الغسَّانيَّةُ في مدينتها بجَّانة ، ويبدو أنَّها قد عاشَتْ في أواخرِ القرنِ الرابعِ وشَطراً منَ القرنِ الخامسِ الهجريّ ، لأنَّها قد امتدحتْ خَيْرانَ العامريَّ ، وهو من موالي العامريّين ، حكَم المريَّة ومرسيةَ من سَنة (٤٠٥ ـ ٤١٩ هـ).

* وتقولُ زينبُ يوسُف فواز عن الغسَّانية هذه: كانت ذاتُ ظرف ، وأدبٍ ، وجمـالٍ ، ولطـفٍ ، وبهـاءٍ ، وكمـالٍ ، عـالمـة بـالعَـروضِ وضُروبه ، والشِّعْر ورِوَايته[(١)].

* وللغسَّانيةِ قصيدةٌ نونيةٌ جميلةٌ تتموَّجُ فيها أنْغَامُ الغزَلِ والشّكْوىٰ والفِراق ، وتتّشِحُ بالحكْمَةِ ، ولكنْ لم يصلْنا منها سوىٰ بضعةِ أبياتٍ سَمَحَتْ بِها المصَادِر ، وهي عبارةٌ عن مقدمةٍ للمدح في خيرانَ العامريّ.

* والمتأمِّلُ في قصيدةِ الغَسَّانية البجّانية ـ يَجِدُ أنَّها قَدْ عارضَتْ بها الأديبَ الشَّهيرَ أبا عمر أحمدَ بنَ دراج القَسطليّ الذي وصفَه ابنُ بسَّام بقولهِ: كانَ أبو عمر القَسطليّ في وقْتِه لسانَ الجزيرةِ شَاعراً وأوّلاً حينَ عدَّ معاصريهِ منْ شعرائِها المشهورةِ ، وآخر حاملي لوائها ، وبهجةَ أرضِها وسمائِها ، وأسوةَ كُتَّابِها وشعرائها[(٢)].

* ونقلَ ابنُ بسَّام عن ابنِ حيَّان الذي كانَ مُعجباً منْ أخبارِه ، مُعرباً عن جلالةِ مقْدارِه فقال: وأبو عمر القَسْطليّ سبَّاق حلبةِ الشُّعراء

---

(١) الدر المنثور (ص ٣٥٦).
(٢) انظر: الذخيرة (١/ ٣٤ و٣٥) طبعة بيروت.

العامريّين ، وخاتمةُ محسني أهلِ الأندلس أجمعين[١] .

* وكان أبو عمر القَسطلي قد أنْشَأ نونيةً سنة (٤٠٧ هـ) بمدحِ خيرانَ العامِريّ ، واشتُهرتْ هذه القصيدة في أَصْقَاع الأندلسِ وحفظَها النَّاس وعارضُوها ، وممَّن عارضَها من شاعراتِ الأَندلسِ : الغسَّانية البجانية حيثُ قَالت :

أَتجزعُ إنْ قَالُوا سَتَظْعَنُ أَظْعَانُ ... وَكَيفَ تُطيقُ الصَّبْرَ ويْحَك إنْ بَانُوا
وَمَا هُوَ إلاَّ الموتُ عنْدَ رحيْلِهم ... وإلاَّ فَعيْـشٌ تُجْتَنَـىٰ منْـه أَحْـزَانُ
عهدتُهم والعَيْشُ في ظلِّ وصْلِهم ... أَنِيـقٌ ورَوضُ الـدَّهْـرِ أَزْهَـرُ رَيَّـانُ
لياليَ سَعْدٍ لا يُخَافُ علىٰ الهَوىٰ ... عتَابٌ ولا يُخْشَىٰ على الوصْل هجرانُ
وَيَسْطُـوا بنـا لَهْـوٌ فَنَعْتَنِـقُ المُنَـىٰ ... كما اعتَنَقَتْ في سَطْوةِ الريح أَفْنَانُ
أَلا لَيْتَ شعْري والفِراقُ يكونُ هَلْ ... تكُونُونَ لي بَعْد الفِراقِ كَما كَانُوا[٢]

* وأمّا قصيدةُ ابن درَّاج القَسطلي ونونيتهُ التي امتدحَ بها خَيْرانَ العامريّ[٣] والتي طارتْ شهرتُها في المشرقِ والمغربِ ، فهي القصيدةُ الطَّويلةُ التي أوّلها :

---

(١) انظر : الذخيرة (١/ ٣٤ و٣٥) طبعة بيروت .

(٢) انظر : المغرب (٢/ ١٩٢) ، ونزهة الجلساء (ص/ ٨٣) ، ونفح الطيب (٥/ ٣٠٤) والدر المنثور (ص ٣٥٦) .

(٣) خيرانُ العامريّ الصَّقْلبي كانَ من جلَّة فتيانِ المنصور بن أبي عامر ، فلما نشبَتِ الفتنةُ كانَ مِنْ بين مَنْ أيّدوا محمّد بنَ هشَام المهديّ . وله أخبارٌ كثيرةٌ ، وكانَ خيرانُ قد استقلَّ بالمريةِ في سنَة (٤٠٥ هـ) ، واستولىٰ كذلك على أريولة ومرسية ، وبقيَ على المريةِ حتى توفيَ سنة (٤١٩ هـ) .
ومن الجدير بالذكر أنّ ابنَ دراج القسطليّ لم يمدحْ خيرانَ العامريّ إلا بقصيدةٍ نونيةٍ واحدة بلغَتْ (٨٠) بيتاً وهي مِنْ أجملِ أشعارهِ ، وقد صوَّر خلالها ما جرَّتْه الفتنةُ علىٰ الأندلسِ من ويلاتٍ وكوارثَ . راجعْ هذه القصيدة العصماء في ديوان ابن دراج القسطلي (ص ٧٣ ـ ٧٩) تجد مصداق ما قلناه ، وأنشده ابن دراج نونيته هذه سنة (٤٠٧ هـ) .

لَكَ الخَيْرُ قَدْ أَوْفَى بِعَهْدِكِ خَيْرَانُ   وَبُشْـرَاكَ قَـدْ آوَاكَ عِـزٌّ وسُلْطَـانُ

وهذه القصيدةُ في الواقع منْ أجمل مَا نَظَم ابنُ درَّاج وأصدقِهِ ، وتبلغُ ثمانينَ بيتاً ، ومنَ العَجيبِ أَنَّ خيرانَ الصَّقلبيَّ هذا لم يكنْ على حظٍّ كبيرٍ منْ تقديرِ الشِّعْر أو العناية به ، ولم يُكافِئْ ابنَ درّاج على مَدْحِهِ إيَّاه إلا بقدْرِ ما سَمَحَتْ بهِ جلافَة الصّقلبيّ وبُعْدِهِ عن تذوّق الأدب إذ يَذكر الحميديّ في «جَذْوَتهِ» أنَّه بَخَسَ ابنَ درّاج حظَّه في الجائِزَةِ ، فبلغَ الخبرُ ابنَ جَوَاد الطَّبيب ، فقَصَدَ الشَّاعر بخمسةَ عشَرَ مثْقَالاً دفَعَها إليهِ وقال له: اعذر أخَاكَ فإنَّه في دارِ غُربة[1] .

* وقد سارتْ فعلةُ خيرانَ هذه حتى ضُرِبَ بها المَثَلُ ، وبقيَ صدَاها يتردَّدُ في الأَندلسِ ، ويتنّدرُ بهِ أدباؤُها حتى آخر عَهْدِ الإسلام بهذه البلاد ، حتى إنَّنا نرىٰ أنَّ الشَّاعر الغَرناطي الفقيه عمر الزَّجّال يقولُ لأحدِ ممدوحيه:

ولاَ خَيْرَ إِنْ تَجْعَل كَفَاء قَصيْدتي   كَفاءَ ابنِ درَّاج علىٰ مَدْح خَيران[2]

* ومن أبيات ابن درّاج في مَدح خَيْران العامريّ قوله:

وَلاَ قَنَطٌ واليُسْـر للْعُسْر غَـالِـبٌ   وَفي العَرشِ رَبٌّ بالخَلائِقِ رَحْمَنُ
وَلاَ يأْسَ منْ رَوْحٍ وفي اللهِ مطْمَعٌ   وَلا بُعْدَ منْ خَيْرٍ وفي الأرضِ خَيْرانُ

ومنْها:

فَتَى سَيْفُه للدِّينِ أَمْنٌ وإيْمانُ   وعَيْنَـاهُ لـلآمَـالِ رَوْحٌ وَرَيْحَـانُ
تَقَلَّـدَ سَيْـفَ اللهِ فيْنَـا بِحَقّـهِ   فَبَـرَّتْ عهـودٌ بـالـوفـاءِ وَأَيْمـانُ

* وَخَتَمها بقولِهِ:

---

(١) جذوة المقتبس (ص ٣٧٠) ترجمة رقم (٩٢٩).
(٢) أزهار الرياض (١/ ١٢٠).

فَما قَصَّرَتْ بي مِنْ عُلاَكَ شَفَاعَةٌ وَلاَ بِكَ عَنْ مِثْلي جَزَاءٌ وَإِحْسَانُ[1]

* ونعودُ إلىٰ الغسانيّة البجّانيّةِ لنعرفَ مدى ثقافَتِها وحفْظِها القصائِدَ لأَعْلام الشُّعراء الأندلسيّين ومن ثمَّ معارضتها؛ إلاَّ أنَّ قصيدتَها لم تصلْنا كاملةً وضاعَتْ مع ما ضَاعَ منَ الأدبِ النَّسويِّ الأندلسيِّ ، ومع ما ضَاع منْ أخبارِ الغسَّانيّة التي لم نحصلْ على أخبارها إلاَّ ما قرأْنَاه.

* * *

(١) انظر القصيدة كاملة في ديوان ابن دراج (ص ٧٣ ـ ٧٩)؛ وانظر بعضها في الذخيرة (١/ ٥٧ ـ ٥٩) ويتيمة الدهر (٢/ ١٠٦ و١٠٧) وغيرها من المصادر.
ومنَ الجدير بالذْكر أنَّ ابنَ دراج مدحَ المستعينَ باللهِ سُليمان بن الحكم بقصيدةٍ نونيةٍ جميلةٍ أيضاً ومن نفسِ البحرِ وهو بحرُ الطّويل فقال في مطلعها:
هنيئاً لهـذا الـدّهـر رَوْحٌ ورَيحـانُ وَلِلـدِّيـن والـدّنيـا أمَـانٌ وإيْمـانُ
وتبلغ هذه القصيدة (٥٣ بيتاً) وهي من عيون قصائده. انظر: (ديوان ابن دراج ص ٤٦ ـ ٥٠).

قسمونة بنت إسماعيل

* مليحة ، جميلة ، شاعرة .
* نشأت في بيت أدب وشعر ولغة .
* لها أشعار جميلة تأسر الألباب .

قسمونة بنت إسماعيل

* في تاريخِ نساءِ الأندلُسِ شواعرُ تركْنَ أثَراً بارِزاً في سِجلِّ المرأةِ الأندلسيّةِ ، ما يزالُ مفتوحاً على مرِّ الأيَّام.

* ومنَ النِّساء اللواتي أحيا ذكْرهُنَّ «المقَّري» في «نفحه» ، امرأةٌ شاعرةٌ يهوديةٌ تُدعىٰ: قَسمونَةُ بنْتُ إسماعيلَ بنِ بَغْدالةَ[1] ومنَ العجيبِ أنَّنا لَمْ نجدْ في المصَادرِ الأندلُسيّةِ الأخرى ترجمةً لهذه المرأةِ ، أو صدىً نستطيعُ أنْ نحكُم من خلاله على عَصْرها ومصْرها. ولكن المقَّري كعادتِه يتحفنا بين الفينة والأُخرىٰ بواحدةٍ من أزاهِرِه الجميلةِ.

* ويظهرُ منْ خلالِ الأخبارِ القَصيرةِ الموجَزَةِ التي وصلتْ إلينَا عن قسمونةَ هذهِ بأنَّها نَشَأَتْ في رحابِ أبيها إسماعيلَ الذي عُني بتربيتها على مائدةِ الأدب والشِّعْرِ واللّغةِ ، بل حبَّبَ إليها صُنْعَ الموشَّحات حتى كانَتْ وشّاحةً كما كانَتْ أمُّ الكرم بنتُ المعتصم بنِ صُمادح مَلِك المَريّة ، التي قرأنا سيرتَها آنفاً في هذا الكتاب.

* ويذكرُ المقَّريُّ بأنَّ أباها كانَ منَ الشُّعراءِ الذين ينظمونَ الشِّعْرَ والموشّحَ ، لذا يقولُ عنه: «وكان أبوها شَاعِراً ، واعتنى بتأديْبِها ، وربّما صنَعَ منَ الموشَّحة قسماً فأتَمتْها هي بقسمٍ آخر»[2].

---

(١) نفح الطيب (٥/ ٧٤ و٧٥) ، وأعلام النساء (٤/ ٢٠٧ و٢٠٨) ، ونزهة الجلساء (ص ٦٥ و٦٦).

(٢) انظر: نفح الطيب (٥/ ٧٤) بشيء من التصرف ، وانظر: نزهة الجلساء (ص ٦٥).

* إذاً لقد فَتَحَتْ قسمونةُ عينَيْها علىٰ الأدبِ والشِّعْر ، وغذِّيَتْ بلبانِ الفَصَاحَة منذ أنْ كانَتْ زهرةً في عمرْ الزَّهْرِ ، ولما اشتدَّ عودُها ، وبانَ صِبَاهَا ، كانت قد تمكَّنَتْ منْ بحورِ الشِّعْر ، فراحت تنظمُ وتعارِضُ وتكمِلُ الأبيات .

* روىٰ المقّري أنَّ أباها إسماعيل اليهودي نَظَر إليها ذاتَ يوم ، وأحبَّ أنْ يمتحنَها وينظرَ إلى سرعةِ بديهتها ، فقال لها : يا قسمونَةُ : أجيزي :

لِيْ صَاحِبٌ ذو بَهْجَةٍ قَدْ قَابَلَتْ   نُعمىٰ بِظُلْمٍ وَاسْتَحَلَّتْ جُرْمها

* وفكَّرتْ قسمونَةُ غيرَ كثير ، وأجابَتْه متمّةً للمعنى الذي قاله على نَفْسِ النَّفَسِ والرَّوي :

كَالشَّمسِ مِنْها البدرُ يقْبِسُ نُورَهُ   أبداً ويكْسِفُ بَعْدَ ذَلك جُرمها

وعندما سمعَ أبوها إجازتَها أخَذَتْه هزَّةُ الطَّرب ونشوةُ الكلمة ، وقامَ كالمخْتَبَلِ ، وضمَّها إليهِ ، وجَعَل يقبِّل رأْسَها ، حيثُ أجازتْ ما بِنَفْسِهِ ، ومن شدّة فَرحه بها أخَذَ يقولُ لها ويقسمُ بأنَّها بلغتِ الغايَة في الشِّعْر : أنْتِ والعَشْر كَلمات أَشْعَر منّي[1] .

* ويظهرُ بأنَّ قسمونةَ هذه قد أُوتيتْ حظّاً منَ الجمالِ ، إلاَّ أنَّ الحظَّ لم يحالفْها بزوجٍ يهصُر هذا الجَمالَ المتفتِّحَ ، ولم يقتطفْ منَ الرِّياضِ هذه الزَّهْرة المندَّاة برحيقِ الشَّذَا .

* في ذاتِ يومٍ وقَفَتْ قسمونةُ أمامَ المِرآةِ تنظرُ إليها ، فرأَتْ جمالَها الزَّاهِرَ ، وقوامَها السَّاحِرَ ، وقد شَبَّتْ عنِ الطَّوقِ وبلَغَتْ سنَّ التَّزويجِ ، وراعَها ألاَّ يتقدَّم أحدٌ كي يخطبَها وهي المليحةُ المُلاَّحةُ الجميلةُ ،

---

(١) انظر : نفح الطيب (٥/ ٧٤) بتصرف ، وانظر : نزهة الجلساء (ص ٦٥) .

وعندها هاجَتْ بلابلُ الشِّعْرِ عندها ، وأخذتْ تعبِّرُ عمّا يجولُ في خاطِرِها ، وتأسفُ على جمالِها وشبابِها النَّضِر ، وبقائِها في بيتِ أبيها الذي يبدو أنَّه وقَفَ في طريقها ، أو ربّما لمْ يكُنْ يفكِّر بما تُفكِّرُ فيه قسمونةُ الفتاةُ الجميلةُ ، فقالَتْ:

أرَىٰ رَوضَةً قَدْ حَانَ مِنْها قِطَافُها ... وَلَسْتُ أَرَىٰ جَانٍ يَمُدُّ لَهَا يَدَا
فَوَا أَسَفاً يَمْضِي الشَّبَابُ مُضَيّعاً ... وَيَبْقىٰ الذي مَا إنْ أُسَمّيهِ مُفْرَدَا

* وسمعَ أبوها نَفَثَاتِها هذه الحرّىٰ ، وآلَمه شكْواهَا المبثوثَةَ في ثنايا أشعارِها ، فَنظَر عنْد ذلك في أمْرِها ، وعملَ على تَزويجها[1].

* ولقسمونةَ هذه أشْعَارٌ جميلةٌ علىٰ ما يبدو منْ كلامِ المقّري ، ولكنّنا لم نَحْظَ منها إلاَّ بالنَّزْر اليَسير.

* ومن بدائع نَظْمِها ما قالَتْه في ظبيةٍ عنْدها وقَد شبَّهَتْ نَفْسَها بنفسِ جمالِها وحَوَرِها وتَوحُّشِهَا:

يـا ظَبْيَـةً تـرعَـىٰ بِـرَوْضٍ دَائِمـاً ... إنّي حكَيتُكِ في التَّوحُّشِ وَالحَوَر
أَمسىٰ كِلانَا مُفْرداً عَن صَاحِبٍ ... فَلْنَصْطَبِر أَبداً عَلى حُكْمِ القَدر[1]

* ويكتفي المقّري بهذا القَدْرِ عن آثارِ قَسمونةَ هذه التي لا نعلمُ لها مَولداً ولا مَوطناً ، ولكنّا عرفْنَا بعضَ مشاعِرها من خلالِ ما قرأناه عنْها لتكونَ منْ نساء الأندلسِ في العَصْر الغابر.

* * *

(١) نفح الطّيب (٥/ ٧٤) بتصرف ، وانظر: أعلام النّساء (٤/ ٢٠٨) ، ونزهة الجلساء (ص ٦٥ و٦٦).

قَلم الجارية

* مغنية ، راوية للأشعار ، تُحْسِن الكتابة ، وألوان المعارف والفنون ، حَسَنة الخط ، حافظة للأخبار.
* جميلة الشكل ، شقراء ، واسعة الثقافة والكياسة والأدب.
* من محظيات الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأوسط.

قلم الجارية

* هذهِ جَاريةٌ أندلسيّة الأصْلِ ، رُوميّة منْ سَبي البَشْكنْس ، حُمِلَتْ صبيّةً إلى المشرقِ ، فتَمَشْرَقَتْ ثمّ عادَتْ إلىٰ الأندلسِ جاريةً ذات حظوةٍ كبيرةٍ عند أميرِها عبدِ الرّحمنِ بنِ الحكم.

* وهذهِ الجاريةُ جَمَعَتْ ألوانَ الفُنون ، وأنواعَ المَعارِفِ ، فكانتْ تجيدُ الغِنَاءَ وتُحسْنَه ، وكانتْ بارعةً كذلك في روايةِ الأشْعَارِ والحِكَمِ والآدابِ ، بالإضافةِ إلى الكِتابة الجيّدةِ ، والمعرفةِ التَّامَّةِ للمذاكرةِ والأخبارِ ، لذلك قَدَّرها الأميرُ عبدُ الرحمن ، وأنْزلَها مكانةً رحيبةً في نَفْسه وقصره.

* هذهِ الجاريةُ تدعىٰ قَلَم[1] ، ويبدو أنَّها كانَتْ جميلةَ الشَّكْل ، تميلُ إلى اللونِ الأشْقَر الذي حافَظَتْ عليهِ بَعْدَ مقامِها الطَّويل في المَشْرِق ، بَيْدَ أنَّ لسانَها كانَ عربياً ، وكانتْ تحسنُ الغِناء ، ولذلك فضَّلَها الأميرُ عبدُ الرحمن على سائِرِ قِيانِهِ مع جاريتَيْن أخريَيْن هما: فَضْل المدنيّة ، وعَلَم المدينَّة أيضاً.

* ذَكَروا أنَّ فَضْلَ المدنيّةِ كانَتْ حاذقةً بِالغِنَاءِ ، كاملةَ الخِصَال ، وأصلُها لإحدى بناتِ هارون الرَّشيد ، ونَشَأَتْ وتعلَّمَتْ ببغداد ، ودرجَتْ من هناك إلى المدينةِ المشرّفَةِ علىٰ صَاحِبِها أَفْضَل الصّلاة

(١) نفح الطّيب (١/ ٣٣٤) و(٤/ ١٣٧) ، وأعلام النّساء (٤/ ٢١٩).

والسّلام ، فازدادتْ ثَمَّ طَبَقَتُها في الغِنَاء ، واشتُرِيَتْ هنالِكَ للأميرِ عبدِ الرحمنِ صَاحِبِ الأندلس معَ صَاحِبَتِها عَلَم المدنيّة ، وصواحبَ غيرِها؛ وإليهنَّ تُنْسَبُ دارُ المدنيّات بالقَصْر ، وكانَ يُؤْثرهنَّ لجودَةِ غنائهنَّ ، ونَصَاعةِ ظرفهنّ ، ورقّةِ أدبهنَّ؛ وتُضَافُ إليهنَّ «قَلم» ، وهي ثالِثةُ «فَضْل» و«عَلَم» في الحظوةِ عند الأميرِ المذكور عبد الرحمن الأوسط[1].

* إذاً لقد اشتهرَتْ قَلَمُ الأندلسيّة هذه بفنِّ الغناءِ الذي تعلَّمَتْه في المَشْرِق وحذقَتْه؛ ترى أَلَمْ يشتَهِرْ غيرُها منَ النِّساءِ بهذا الفَنّ في الأندلُس؟!

* في الحقيقةِ هناك عددٌ منَ الجواري اشتهرنَ بهذا الفَنِّ ، وشُغِفْنَ بهِ ، وزادهُنَّ بهاءً ودَلالاً طبيعةُ الأندلسِ الجميلةِ ، وحياةُ أهلِها التَّرِفَةِ الزَّاهية؛ فمنَ الجواري اللاتي اشتُهرن هنالك «قَمرٌ» جاريةُ إبراهيم بن حجّاجِ اللَّخميّ صاحبِ إشبيلية التي قَرأْنَا سيرتَها في هذِهِ الموسوعة ، والتي اطّلَعْنا على أدبها وشيءٍ منْ شِعْرِها وأخبارِها مع سيّدها وحنينِها إلى مَسْقَطِ رأسِها ومهوىٰ فؤادها[2]. وكذلك كانتْ هناك جاريةٌ تُعْرَفُ بالعَجْفَاء[3] البغداديّة كانت تأْسِرُ القلوب بحسنِ أدائها ، وعذوبةِ صوتها.

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ فَنَّ الغِنَاءِ قد نَهَضَ في بلادِ الأندلسِ نهضةً حَسَنَةً ، وانتشرَ انتشَاراً عظيماً بعد قدومِ «زِرْيَاب»[4] غلام «إسحاق

---

(١) انظر: نفح الطيب (٤/ ١٣٧).
(٢) اقرأ سيرة قمر البغدادية في هذه الموسوعة اللطيفة.
(٣) اقرأ أخبار العجفاء ورحلة انتقالها من المشرق إلى المغرب في هذه الموسوعة.
(٤) «زِرْياب»: رئيسُ المغنّين ، أبو الحسن عليُّ بنُ نافع الملقّب بزرياب ، مولى أمير المؤمنين المهديّ العبّاسي. قالَ في المقتبس: زِرياب لقبٌ غَلَب عليه ببلادِه منْ أجلِ سوادِ لونهِ، وفصاحةِ لسانه، وحلاوةِ شمائِلهِ ، شُبِّهَ بطائرٍ غَرِدٍ أسود عندهم =

الموصلي» من بغدادَ إليها ومن ثمَّ اتصالُه بعبدِ الرحمنِ بن الحكم، وتقديمُ عبدِ الرحمن إيّاه على سائِر المغنّين.

* وقد أَخَذتْ عن زريَابَ كثيراتٌ منَ الجواري، منهنَّ ابنتاه: حمدونةُ وعُليّةُ بنتا زِرياب، وجاريتُه مُتْعة[1]، وجاريةٌ تدعىٰ مَصَابيح[2].

= وكانَ شَاعراً مطبوعاً، نُسِيَ بالمشرقِ خبرُه، واشتهر بالأندلسِ أمْرُه، وأحسنَ الأميرُ عبدُ الرحمن الأوسط مثواهُ ووفادته، وأجرىٰ له راتباً، وأحبَّه حبّاً شديداً، وقدَّمه على جميع المغنّين، ووجدَه عارفاً أحوالَ الملوكِ وسيرَ الخلفاء ونوادِرَ العلماء، فازدادَ به إعجاباً، وقرَّبه، وفتحَ له باباً خاصّاً يستدعيه منه متى أراده. ولزريابَ أخبارٌ كثيرة جدّاً مبثوثَةٌ في كُتُبِ المشارقةِ وكتُبِ الأندلسيين، وهو الذي زادَ في أوتارِ عوده وتَراً خامِساً اختراعاً منه. وكانَ عالِماً بالنُّجوم، يحفظُ عشرةَ آلاف مقطوعة منَ الأغاني بألحانِها، وكانَ قد جمعَ كثيراً منْ ضروبِ الظَّرف، وفنونِ الأدب، ولطف المعاشرة، وحوىٰ من آدابِ المُجالسة، وطيبِ المحادثة، ومهارةِ الخدمة الملوكيّة ما لم يُجِدْهُ أحد من أهل صناعته. وأخباره لا تحصى، انظرها في نفح الطيب (٤/ ١١٨ ـ ١٣٠).

(١) كانَتْ لزريابَ جاريةٌ اسمُها «مُتْعة» أو «مَنْفَعة» أدَّبَها وعلَّمها أَحْسنَ أغانيهِ حتّى شَبَّتْ، وكانت رائعةَ الجمالِ، وتصرَّفَتْ بينَ يدي الأميرِ عبد الرّحمن تغنّيه مرّةً، وتسقيهِ أخرىٰ، فلما فطنَتْ لإعجابِهِ بها، أبدتْ لهُ دلائل الرَّغبة، فأبىٰ إلا التَّستُّر، فغنَّتْه بهذِه الأبيات:

يَا مَنْ يُغَطّي هَوَاه ... مَنْ ذَا يُغطِّي النَّهَارا
قد كنْتُ أمْلِكُ قلبي ... حتّى علقْتُ فَطَارا
يا ويلَتَا أَتُراهُ ... لي كانَ أو مُسْتَعارا
يَا بأَبي قُرَشِيٌّ ... خَلعْتُ فيه العِذَارا

فلما انكشفَ لزريابَ أمرُهَا أهداهَا إليهِ فحظِيَتْ عنْده. (نفح الطيب ٤/ ١٢٨).

(٢) «مَصَابيح»: هذه جاريةٌ كانَتْ للكاتبِ أبي حَفْص عمرَ بنِ قلهيل، أخذتِ الغناء عن زِريابَ، وكانتْ غايةً في الإحسانِ والنّبْلِ وطيْبِ الصَّوت، وفيها يقولُ ابنُ عبد ربه صاحب «العِقْد الفَريد»، وكتَبَ إلى مولاها:

يَا مَنْ يَضَنَّ بِصَوْتِ الطائِرِ الغرد ... مَا كُنتُ أَحْسَبُ هذَا الضَّنَّ منْ أَحَدِ=

* قال المقَّريُّ: وكانَتْ حمدونةُ بنتُ زِرياب متقدِّمةً في أهْلِ بيتها، محسنةً لصناعتِها، متقدمةً علىٰ أختها عُليةَ، وهي زوجةُ الوزيرِ هشامِ بنِ عبد العزيز؛ وطالَ عُمْرُ عُليةَ بعد أختِها حمدونةَ، ولم يَبْقَ منْ أهلِ بيتها غيرها[1]، فافتقَر النَّاس إليها، وحملُوا عَنْها.

* ولعلَّ قَلَماً هذه قد أخَذَتْ شَيئاً منَ الغِناءِ والأدبِ عن زِريابَ، بالإضافةِ إلى أنَّها قد تَلقَّتْ أصولَ الغِناءِ في المدينةِ؛ ولكنَّها كانت تمتازُ عن غيرِها منَ القِيان بثقافةٍ واسعةٍ وكياسةٍ وأدبٍ، بل إنَّها كانَتْ حافظةً لكثيرٍ من الأخبارِ، وراويةً للأَشْعار، وعالمةً بصنوفِ الآدابِ، وقد وصَفَها المقّري بقولِهِ: حُمِلَتْ صبيةً إلى المشْرِق، فوقَعَتْ بمدينةِ النَّبيّ ﷺ، وتعلَّمَتْ هنالك الغناءَ فحذَقَتْهُ، وكانَتْ أديبةً، ذاكرةً، حَسَنَةَ الخَطّ، راويةً للشّعر، حافظةً للأخبارِ، عالمةً بضروبِ الآداب[2].

* وفي موضعٍ آخر يصفُها المقّري بقولِهِ عندما تحدَّثَ عنِ الأميرِ عبدِ الرحمن بنِ الحكم: وأما جاريتهُ قَلم، فكانَتْ أديبةً، حسنَةَ الخطّ، راويةً للشّعر، حافظةً للأخبار، عالمةً بضروب الآداب[3].

* هذه بعضُ أخبارِ قَلم جارية عبد الرحمن الأوسط، ونعتقدُ أنَّها من

= لَوْ أنَّ أسْمَاعَ أهَلِ الأَرْضِ قاطبةً أَصَغَتْ إلى الصَّوْتِ لم يَنْقُصْ ولمْ يَزِدِ
فخرجَ مولاها حافياً لَمَّا وقفَ على ذلك، وأَدْخَلَه مجْلِسَه، وتمتَّع من سِمَاعها.

(١) كانَ لزريابَ منَ ذكورِ الوَلَد ثمانيةٌ: عبدُ الرحمن، عُبيدُ الله، يحيى، جعفرُ، محمدُ، قاسمُ، أحمد، وحَسَنُ. ومنَ الإناث ثنتان: عليّةُ، وحمدونَة، وكلُّهم غنّى ومارسَ الغِناء وهذه الصِّناعة، واختلفت بينهم الطبقةُ، فكانَ أعلاهم عُبيد الله ويتلوه عبدُ الرحمن. (نفح الطيب ٤/ ١٢٦).

(٢) نفح الطيب (٤/ ١٣٧ و١٣٨).

(٣) المصدر السابق (١/ ٣٣٤).

نساءِ القَرنِ الثَّالث الهجريّ ، لأنَّ الأميرَ عبدَ الرحمن الأوسط قد تُوفي في سنةِ (٢٣٨ هـ) ، ولكنَّ الأخبارَ الأندلسيّة لم تَعُدْ تحدّثنا عن أخبارِ قَلم شيئاً ، كما أنَّها لمْ تذكُرْ شيئاً منْ آثارِها الأدبيّة أو الشِّعرية ، وإنّما اكتفتْ بذكْرِ عَدَدِ معارفها وآدابها؛ على حين نَجدُ أنَّها قد ذكَرتْ أخبارَ جَوارٍ أخريات قَادِماتٍ منَ المَشْرِقِ علىٰ الأندلسِ ، وذكرتْ بَعْضَ أخبارهنَّ واتجاهاتهنّ ، كما ذكرت بعضَ المُحدِّثاتِ منْ مثل «عابدة المدنية»[1] وغيرِها.

* وتبقى قَلمُ جارية عبد الرحمن الأوسط منْ نساءِ الأندلس اللواتي نقرأُ سيرهنّ في أخبارِ النِّساء اللواتي وعَتْهُنَّ أُذن التَّاريخ وذاكرة الأيّام.

* * *

(١) عابدةُ المدنيّة! عِنْدما ذكِرَ المقّريُّ النِّساءَ القادِماتِ منَ المشرقِ علىٰ الأندلسِ قالَ: منَ النِّساءِ الدَّاخِلاتِ الأَنْدلسَ منَ المشرقِ عابدةُ المدنيةُ ، أمّ ولدِ حبيبِ بنِ الوليد المروانيّ ، المعروف بدحون.
كانت جاريةً سوداءَ ، من رقيقِ المدينةِ ، حالكةَ اللونِ ، غيرَ أنّها تروي عنْ مالكِ بنِ أنسٍ إمامِ دارِ الهجرة وغيرِهِ من علماءِ المدينةِ ، حتّى قال بعضُ الحفاظ: إنّها تروي عشرةَ آلافِ حديث.
وقال ابنُ الأبّار: إنّها تسندُ حديثاً كثيراً ، وهي أمُّ ولد بشْر بن حبيب ، والذي وهبَها لدحونَ في رحلتهِ إلى الحجِّ هو محمدُ بنُ يزيد بنِ مسلمةَ بن عبد الملك بنِ مروانَ ، فقدمَ بها الأندلسَ ، وقد أعْجِبَ بعلمِها وفهمِها ، واتَّخذها لفراشِه. رحم اللهُ تعالى الجميع. (نفح الطّيب ٤/ ١٣٧).

قَمَر البغدادية

* جارية إبراهيم بن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية .
* أديبة ، شاعرة ، عالمة بضروب الأخبار والآداب .
* جميلة ، مليحة ، لطيفة الحديث ، حسنة المخبر .

قمر البغدادية

* امْرأةٌ جَمَعَتْ فنَّ الذَّوقِ المشرقيّ إلى جمالِ الهمْسِ الأندلسيّ ، ولم تكنْ من حرائرِ النِّساء اللواتي سجَّلْنَ أثراً في صفحاتِ الأدبِ ، وإنّما كانتْ جاريةً وافدةً على الأندلسِ منْ بغدادَ ، بيدَ أنَّها قَضَتْ شَطْرَ حياتِها في الأندلسِ الخضراء تنعمُ بظلالِها الوارفةِ، وأنهارِها الجارية، وجمالها الخلاَّبِ.

* وتظهرُ هذهِ الجاريةُ على ساحَةِ شهيرات النّساء الأندلسيّاتِ ، بما خلَّفَتْه منْ رسمٍ لعواطِفها وكلماتِها في قوالبَ شعريةٍ تأخذُ بمجامعِ النُّفوسِ ، إذ كانتْ تخاطبُ بها الوجدان والمشَاعر.

* وهذهِ الجاريةُ التي ننظمُها في هذهِ الموسوعة للنِّساءِ الأندلسيات تُدعى: قَمر البغداديّة[1] ، ولكنّنا لا نعرفُ من أينَ أَتَتْ إلىٰ هذا المكانِ الشَّهير في إشبيليةَ بالأندلس ، وكلُّ ما نعلمهُ أنَّها كانت جاريةً لإبراهيمَ بنِ حجَّاج اللخمي صاحب إشبيليةَ[2] ، والمتوفىٰ سنة (٢٨٨ هـ).

* ومنَ الجديرِ بالذّكرِ أنَّ الفتوحاتِ الإسلاميةَ قد حملَتْ من مغانِمها إلى المسلمين كَثيراً منَ السَّبايا على اختلافِ ألوانهنَّ وأجناسهنَّ وأسناهنَّ

---

(١) نفح الطيب (١٣٨/٤) ، والدر المنثور (ص ٤٥٢ و٤٥٣) ، وأعلام النساء (٢٢٠/٤).

(٢) انظر: نفح الطيب (١٣٨/٤).

وطبقاتهنَّ الاجتماعية ، فكانَ أمراءُ الجندِ يتخيّرونَ أفضلهنَّ ويرسلونهنَّ إلى الأميرِ ، أو الخليفةِ ، حتى غصَّتْ بذلك دورُ الخلفاءِ والأمراءِ والأغنياءِ بهنَّ ، وكثرنَ كثرةً بالغةً حتى غدتْ تجارةُ الرَّقيقِ منْ أكثرِ الأعمالِ ربحاً ، وفُتِحَتْ للنَّخاسةِ أسواقٌ خاصَّة بها ، وأخذَ النَّخَّاسون يأْتُون بالجواري ، ومن ثمَّ يبعْنَهُم في تلكم الأسواق.

* وكان منَ الطَّبيعي أنْ يغالي تجَّار الجواري بالجاريةِ التي رُزِقَتْ جَمالاً وأدَباً وصَوتاً جَميلاً ومعرفةً بألوانِ الأدبِ والغناءِ ومنْ هذا المنطلقِ انبثقَتْ في النَّاسِ مهنةً جديدةً ، هي مهنةُ التّقيين ، فكانَ المقيّنون[1] يشترونَ الجواري الحِسَان ، ومن ثمَّ يعملونَ علىٰ تثقيفهنَّ وتأديبهنَّ وتعليمهنَّ أشعارَ العربِ وأخبارِهم ، ويزيدون على ذلك بأنّهم قامُوا بتعليمِ الجواري الغِناء وصياغَةَ الألحان ، فإذا ما أتقنتِ الجاريةُ كلّ تلكم الألوان والآداب باعُوها بأغلى الأثمان ، وأعلى الأسْعار.

* ونتجَ عن ذلك أنَّ الكبراءَ وأصحابَ المكانةِ المرموقةِ كانُوا يتهادون الجواري ويتباهونَ بذلك ، حتى غدتِ الجواري واسطةَ عِقْدِ المجالسِ الأدبيّة ، وزهر المنتديات الشّعرية، ولمعت أسماء كثيرات في سَماءِ الشُّهرة في المشرقِ والمغربِ.

* وممن لمعَ نجمُها قمر البغداديّة هذه ، التي نَهَلَتْ منَ الآدابِ والمعارفِ ما جعلها منَ الشَّهيراتِ الأثيراتِ عند سيّدها. فقد كانت أديبةً ، حافظةً للشِّعْر ، ناظمةً له ، عالمةً بضُروب الأخبارِ والآدابِ.

* ذكر المقّريُّ في «نَفْحه» أنَّ ملوكَ الأندلسِ وأمراءَهم قد استقدمُوا منَ المشرقِ بعضَ القيناتِ الشَّاعراتِ ، ليملأْنَ الأجواءَ الأندلسيّة بما يصدحْنَ من طيبِ الأصواتِ والأشعارِ ، وذكر قمر هذه فقال ما مفادُه:

---

(١) «المقينون»: الواحد مقين: الذي يربي القيان أي المغنيات ويعلمهن ويؤدبهن.

ومنَ النّساءِ الدَّاخلات إلى الأندلسِ منَ المشرقِ ومنْ بغدادَ قَمَرٌ جارية إبراهيمَ بنِ حجاج اللخمي صاحب مدينة إشبيليةَ وهاتيك النّواحي. فقد كانتْ هذه الجاريةُ قمر منْ أهلِ الفَصاحةِ والبَيان، والمعرفةِ بصوغِ الألحان، وقد وصَلَتْ شهرتُها إلى الأندلسِ، فطَلَبَها، فَجُلِبَتْ إليهِ من بغدادَ دارِ السَّلامِ، وكانت قمرٌ قد جمعَتْ أدباً وظَرفاً، وروايةً وحفْظاً، مع فَهْمٍ بارعٍ، وجمالٍ رائعٍ، وملاحةٍ زائدةٍ، ومعرفةٍ تُحسَدُ عليها، وكانتْ تقولُ الشِّعر بفَضْلِ أدبِها[1].

* وفي الأندلسِ اقتعَدتْ قَمرُ المكانةَ العُليا بينَ جواري قَصْرِ سيّدها إبراهيم بن حجّاج، فنالَتْ عنده حظوةً وقَدْراً حيث كانت جميلةَ الصُّورةِ، لطيفةَ الحديثِ، حسنةَ المخبرِ، تنقادُ الكلماتُ الجميلةُ إليها انقيادَ الطِّفْلِ الوحيدِ البريءِ الجميلِ إلىٰ أُمّه، فَغَدَتْ قمرٌ زهرةَ جواري إشبيليةَ، ممّا جَعَلَ النّساءَ العربياتِ هنالك يَحْسُدْنَها؛ (وقديماً كانَ في النَّاس الحَسَد)، ولم يكتفينَ بالحَسدِ ومرارتهِ وقسوته، بل ازدَرَيْنَها لأنهنَّ لم يألفْنَ جاريةً ذات مكانة، ولم يألفنْ جاريةً تستولي على لُبِّ سيّدها كصاحبِ إشبيليةَ، ورُحْنَ يتهامَسْنَ فيما بينهنَّ كلّما مرَّت بهنَّ قمر، ويتغامزْنَ إذا غنَّتْ، ويضحكْنَ ضحكات صُفْر، تحملُ الاحتقارَ المفتعلَ والاستصغار لقمرِ الجارية البغداديَّة الغريبة، ولكنّ قمرَ هذه أحبَّتْ أنْ تلقِّنَ هؤلاء النِّسوةِ السَّاخِرات دَرْساً في الأَخْلاقِ الاجتماعيّة، وأفهمتهنَّ أنَّ العِلْم هو الجنَّةُ الحقيقيَّةُ، وأنَّ الحياةَ في النَّارِ خيرٌ منَ الحياةِ مع الجاهِلةِ، فلنستمعْ إلىٰ همساتِها إلىٰ صويحباتِها في هذه الرّائيةِ الجميلةِ:

قالُوا أَتَتْ قَمَرٌ في زِيِّ أَطْمَارِ   مِنْ بَعْدِ مَا هَتكَتْ قَلْباً بأَشْفَارِ

---

(١) انظر: نفح الطيب (٤/١٣٨) بتصرف يسير.

تَمشِي عَلَىٰ وَجَلٍ تَغْدو عَلَىٰ سُبُلٍ ... تَشُـقُّ أَمْصَـارَ أَرضٍ بَعْـدَ أَمْصَـارِ
لا حُرَّةٌ هيَ منْ أحْرَارِ مَوْضِعِهَا ... وَلاَ لَهَـا غَيْـرَ تَـرسِيْـلٍ وأَشْعَـارِ
لَـوْ يَعقِلُونَ لَما عابُوا غَرِيْـبَتَهم ... للهِ مـنْ أَمَـةٍ تُـزْري بـأَحْـرار
مَـا لابْـنِ آدمَ فَخْـرٌ غَيْـرَ هِمَّتِـهِ ... بَعْدَ الدِّيَانَةِ والإخْلاصِ للْبَاري
دَعَني منَ الجَهْلِ لا أَرضىٰ بِصَاحِبِه ... لَا يخْلُصُ الجَهْلُ مِنْ سَبٍّ ومنْ عَارِ
لـو لَـمْ تكُـنْ جنَّـةٌ إلَّا لجَـاهِلَـةٍ ... رَضِيْتُ منْ حكْمِ ربّ النَّاسِ بالنَّارِ

* ويبدو أنَّ مولاها إبراهيمَ كانَ يجلُّها ويحترمُها ، لذا فإنَّها رأَتْ فيهِ الجودَ والكرمَ وحُسْنَ الأحدوثَةِ ، علىٰ خلافِ ما رأَتْ منَ الحاسداتِ الغرثىٰ اللواتي يأكُلْنَ لحومَ الجميلاتِ حَسَداً وبَغْياً ، ولما رأت قمرٌ رقّةَ معاملةِ مولاها إيّاها ، راحتْ تنظرُ إليهِ نظرةَ إكْبارٍ واحترام ، فكلُّ منازِلِ المغاربِ ذميمةٌ عنْدها خَلا منزل مولاها إبراهيم الذي كانَ حليفَ الجودِ والنَّدى ، وقد عبَّرت عَنْ هذا بقولها :

مَا في المَغَارِبِ منْ كَرِيمٍ يُرتَجَىٰ ... إلَّا حَليْـفُ الجُـوْدِ إبْـراهِيْـمُ
إنِّـي حَلَلْـتُ لَـديْـهِ مَنْـزِل نِعْمَـةٍ ... كُـلُّ المَنَـازِلِ مَـا عَـدَاهُ ذَميْـمُ(١)

* ونلاحظُ منْ هذين البيتَيْن ظاهرةَ عرفانِ الجميلِ ، لمولاها الذي أوْلَاها الجميلَ ، ويظهرُ لنا أنَّ مولاهَا إبراهيمَ كان يكرِمُها ويحْتَفِي بها ، ويمسحُ عَنْها آلامَ غربتها ووحدتِها وحنينِها إلى بغدادَ التي وعتْها ولم تفارقْ وعْيَها ووجدانَها .

* إنَّ الغربةَ أو الاغترابَ تولّدُ في النَّفس مرارةً عجيبةً ، ولا يحسُّ بهذهِ المرارةِ إلَّا المغتربون ، حيثُ إنَّ حبَّ الوَطَنِ ومألفَ الشَّباب ومرتعَ الطُّفولة غريزةٌ راسخةٌ في الإنسان ، وهو أغنيةٌ نَشْوىٰ تردّدها أنفاسُ الإنسان في لذّةٍ روحيّةٍ لا يُدْرَكُ قَعْرُها ، إذْ يشعرُ المغتربُ بانجذابٍ

---

(١) انظر : نفح الطيب (٤/ ١٣٨).

وحنانٍ إلى مدارجِ الصِّبا التي قَضَاها الإنسانُ في وقت الصِّبا ، ويشعرُ بحبٍّ جارفٍ إلى مسارحِ الطُّفُولةِ حيث تفتَّحتِ الأكمامُ لقطراتِ النَّدىٰ في تلكم المرحلةِ منَ الحياةِ والتي عاشَها الإنسانُ بكلِّ البراءةِ والصَّفاء .

* وقمرٌ قبلَ أنْ تكونَ شاعرةً ، كانَتْ إنسانةً مرهفةَ الحسِّ ، ثمّ جاءَتْ موهبةُ الأَدب فصقلَتْ هذا الإحساسَ العجيبَ بالشَّوق إلىٰ أرضِ بغدادَ ، وكلِّ ما في بغدادَ منْ أشياءَ ، فقد كانتْ مشاعرُ الشَّوقِ متدفّقةً عند قمر ، وهي تعيشُ في إشبيليةَ بالأندلس ، وعلى الرّغمِ منْ جمالِ البيئةِ في إشبيليةَ ، وسحرِ الطبيعة ، إلاّ أنَّ هذا لم يشغَلْ قمراً عن حبِّها وحنينها لبغدادَ ، فقد راحتْ تنقلُ لنا أنفاسَ حناياها ، ونبضاتِ مشاعرها ، وخفقاتِ فؤادِها ، ووصفتْ لنا تلكم الفتياتِ الجميلاتِ العراقياتِ اللواتي يحاكينَ الظِّباء سِحْراً ودلالاً وجَمالاً ، وهؤلاء الفتيات كُنَّ متبختراتٍ في رغَدِ العيشِ الهني النَّقي ، ثم تنفثُ قمرٌ ما يعتملُ بصدرِها من حنينٍ لتفديَ تلك المحاسن البغداديّةِ التي لا تبرحُ مخيّلتها ، وفي هذا كانَتْ تترنمُ وتقولُ :

آهاً عَلىٰ بغْدادِها وَعراقِها ... وظبَائِها والسّحْرُ في أحْداقِها
ومَجَالِيها عنْدَ الفُراتِ بأَوْجُهٍ ... تَبْدُو أَهلَّتُها عَلى أطْواقِها
مُتَبخْتِرَاتٍ في النَّعيمِ كأنَّما ... خُلِقَ الهَوىٰ العُذْرِيُّ منْ أخْلاقِها
نَفْسي الفِداءُ لهَا فأَيّ مَحاسِنٍ ... في الدَّهْر تشْرقُ منْ سَنا إشْراقِها[1]

* إنَّ أنفاسَ الحنينِ من المشارقةِ في الأندلسِ ، لم تكنْ منبعثةً أوّلَ مرَّةٍ علىٰ لسانِ قمر هذه ، بل نجدُ أنغاماً جميلةً سبقَتْها بأكثرَ من قرنَيْنِ صاغَها «صقْرُ قريش» وما أدراكَ ما صقر قريش ، ذلكم عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ الأموي الذي كانَ ذا رأي سديدٍ وعزمٍ شديد ، وطَّدَ الخلافةَ

(١) انظر : نفح الطيب (١٣٨/٤).

بالأندلسِ ، وافتتحَ الثُّغور ، وقَتَلَ المارقين ، وأذلَّ الجبابرة الثَّائرين.

* هذا الرّجل البحرُ الشَّديد ، كان يتشوَّق إلىٰ ربوعِ الشَّام ، ومراتعِ صباه ، فاسمعْ إليه وإلىٰ رقّته المؤثّرة التي تداعبُ حناياَ القلوبِ وتحرّكُ أضالعَه ، ولا تملكُ إلاَّ الإعجاب بهمساتِهِ الحائراتِ الحرّىٰ الجميلة حيث جسمُه بالأندلسِ وقلبُه بالشَّام:

أيُّهـا الـرّكْـبُ المُيمِّـمُ أَرضـي ... أَقْـرِ مـنْ بَعْضـي السَّـلاَم لبعْضِـي
إنَّ جسْمِـي كمـا عَلِمْـتَ بـأَرضٍ ... وفُـؤَادي ومَـالِكيْـهِ بـأَرضِ
قَـدَّرَ البَيْـنُ بَيْنَنَـا فـافْتَـرَقْنـا ... وطَوىٰ البَيْنُ عَنْ جُفوني غمْضِي
قَـدْ قضَـىٰ اللهُ بـالفِـراقِ عَلَيْنَـا ... فَعَسَـىٰ بـاجتِمـاعِنَـا سَـوفَ يقْضِـي

* ما أجملَ هذه النَّفحاتِ المندّاةِ بالحبِّ للوطنِ منْ صَقْرِ قريش ، صقْر الشِّعْر والحنينِ والعاطفَةِ الدَّافئةِ!! والحقيقةُ إنها لأبياتٌ تحركُ كوامنَ القُلوب وتؤثّرُ في النُّفوسِ ، وهذه الأبياتُ منَ المقطّعات التي تروقُ لي ، وتعجبُني كثيراً ، وأجدُني أقرؤها مِراراً كلّما خَطَرت ببالي.

* علىٰ أنَّ لصقْرِ قريش أبياتاً لاميَّةَ تقطرُ حَناناً ورقَّة ، لما تحمله في أردانِها من رحيقِ الحنينِ الحقيقي إلىٰ الشَّام ، إلى الفيحاءِ إلى البلدِ الذي استولىٰ على الأفئدةِ ، فقد رأى صَقْرُ قريش بروضِ الرُّصافةِ بالأندلس ـ وهي الضَّاحيةُ الملوكيّةُ الجديدةُ التي أنْشَأَها ـ نخلةً منفردةً ، فأثارَ منظرُهَا في نَفْسِهِ الذّكْرياتِ والشَّجَن والحبِّ للوطَنِ ، فأنشأَ يقولُ هذه الهمسات الدَّافئات الدَّافقات:

تَـبَدَّتْ لَـنَا وسْطَ الرُّصَافَةِ نَخْلَةٌ ... تَـنَاءَتْ بأَرضِ الغَربِ عَنْ بَلَدِ النَّخْلِ
فَقُلْتُ شَبيهي في التَّغرُّبِ والنَّوىٰ ... وطُولِ التَّنَائي عَنْ بنيّ وعَنْ أَهْلِي
نَشَأْتِ بأَرضٍ أَنتِ فيْهَا غَريْبَةٌ ... فَمثْلُكِ في الإِقْصَاءِ والمنْتَأَىٰ مثْلِي
سَقَتْك غَوادِي المُزْنِ منْ صَوبها الذي ... يَسحُّ ويستمري السماكين بالوبْلِ

* وليعذرنا القارىءُ الكريمُ إنْ جمحَ بنا القَلمُ ، إذْ لم نملكْ عنانَهُ إلاَّ

بعد أنْ عشْنَا نفحاتٍ عطريةً مع هذا اللونِ الجميلِ من أنفاسِ الشَّوقِ والحنينِ.

* أمَّا قمرٌ فلا نعرفُ عنها شيئاً إلاّ ما ذكرناه ، ولكنَّنا قد وجدنا زينَبَ يُوسُف فوّازَ تقولُ في خِتامِ ترجمتها: ومن حُسْنِ صوتها وجمالِها وتهذيبها حظيتْ عنْدَ مولاها ، وبقيتْ عنْدَه في عزٍّ وإقبال ، إلى أن ماتَتْ ، فأسفَ عليها أسَفاً شَديداً[1].

* * *

(١) الدُّرُّ المنثور (ص ٤٥٣).

مريم بنت أبي يعقوب

* شاعرة ، أديبة ، مُعلِّمة ، محتشمة لدينها وفضلها .
* ورعة ، مجتهدة في العبادة ، شُبِّهت بمريم العذراء في التبتل .
* من المعمَّرات ، حيث تجاوزت السبعين بسبع سنين .

مريم بنت أبي يعقوب

ابنَـةُ الأَدَبِ وَالـطَّبيعَـةِ:

* الشِّعْرُ ملَكَةٌ طبيعيّةٌ لا تتأتّىٰ بالمُحاكاةِ ، وموهبةٌ منَ المواهبِ التي لا يختصُّ اللهُ بها جيْلاً دونَ جيلٍ ، فحيثُ جَرَتْ مع الدَّمِ في جسمِ صاحبِها ، ونَبَضَ بها حِسُّه ، وتفتَّحَتْ لها نَفْسُه ، انطلَقَ كالطَّائِرِ المغرّدِ ، يصدرُ عنْه الشِّعْرُ دونَ تكلُّفٍ ، فلابُدَّ لابنِ الدَّوْح أن يترنَّمَ.

* وامرأةُ اليوم مِنْ دوحٍ أنيقٍ جميلٍ ، وهي عربيةٌ جرىٰ الشِّعْرُ في دَمها ، وسَرَىٰ الأَدبُ في عروقها ، وعاشَتْ في جزيرةِ الأَنْدلُس ، فغردَّت فيها ، وأيّةُ بيئةٍ أَصْلَحُ للتَّغريد منَ الأَنْدلُسِ؟! وأيُّ روضٍ يَبْعَثُ على الشِّعْر أجملُ منْ رياضِ الأَنْدلُس؟!.

* لقد كانتْ آفاقُ الأندلُس العَطِرةُ ، ومغانيها الزَّاهرةُ ، وحضاراتُها السَّاحرةُ ، جمالاً يهزُّ المشَاعِرَ ، ويوقظُ العواطفَ ، ويُنَبِّهُ غافيَ الحِسِّ ، ويحرِّكُ خَواطِرَ النَّفْسِ.

* الحقيقةُ؛ إنَّ الشِّعْرَ منْ حيثُ هو شعورُ النَّفْسِ ، وأغنيةُ الحِسِّ ، موهبةٌ طليقةٌ لا يحدُّها زمانٌ ولا مكانٌ ، ومَنْ أولىٰ منَ الأندلسيّين والأندلسيّات به؟ وبيئَتُهم هي في نفسِها مغاني الشِّعر ويَنْبوعه ، ومعاني الأدبِ وفروعه؟!

* وامرأةُ هذه الصَّفَحات ابنةُ مدينةٍ عُرِفَ أهلُها بقولِ الشِّعر ونَظْمِه ، ومعاطاةِ الأدبِ ورسمه ، وقلَّما يكونُ هنالك إنسانٌ لا يقرضُ الشِّعْرَ ، إنَّها مدينةُ «شِلْب»[1] ، وهي مدينةٌ بغربيِّ الأندلس ، وهي أيضاً غربيّ قرطبةَ ، وليس بالأندلسِ بَعْدَ إشبيلية مثلُها ، يقولُ عنها ياقوت الحموي: وسمعتُ ممن لا أُحصي أنَّه قال: قَلَّ أنْ ترى منْ أهلها مَنْ لا يقولُ شِعْراً ، ولا يعاني الأدب ، ولو مَرَرْتَ بالفلاح خَلْفَ فدانِه ، وسألْتَه عنِ الشِّعْر قرضَ منْ ساعتِه ما اقترحْتَ عليه ، وأيَّ معنىً طلبتَ منه[2] .

* ويقولُ ستَانْلِي بُول: ويظهرُ أنَّ العالَم الإسلاميَّ اتَّجهَ بروحانيتِه إلى آلهةِ الفُنون ، فمن الخليفةِ في عرشِهِ إلى النُّوتي في سفينتهِ كُنْتَ تسمعُ النَّظْمَ الفَائِقَ في مشاهدِ الأندلسِ ، وجمالِ مدنها ، ثمّ في روعَةِ خريرِ الأنهارِ ، وسحْرِ الليل السَّاجي ، وقد هدأتْ فيه النُّجوم ، ثمّ في نَشْوة الحبِّ والخمرِ ، ومجتمع الأُنْس ، وقد اختلسَ المحبُّ ساعةَ لقاءٍ بفاتنته التي ترمي بقوسِ حاجِبِها القلوبَ[3] .

---

(١) «شِلْب» بكَسْرِ أوّله ، وسكونِ ثانيه ، وآخره باء ، قال ياقوتٌ ما مفاده: مدينةٌ بغربي الأندلس ، يُنْسَبُ إليها جماعةٌ منهم: محمّدُ بنُ إبراهيم بنِ غالب العامريّ الشِّلْبي ، كان واسعَ الأدبِ مشهوراً بمعرفتهِ ، مولدُه سنة (٤٤٦ هـ) ، ووفاتُه في الخامسِ منْ جمادىٰ الأولى سنةَ (٥٣٢ هـ) ، وأمر أنْ يُكْتَبَ علىٰ قبره:

لَئِـنْ نَفَـذَ القَـدَرُ السَّـابِـقُ ... بمـوتـي كمَـا حَكَـمَ الخَـالِـقُ
فَقَـدْ مَـاتَ وَالِـدُنـا آدَمُ ... ومَـاتَ مُحمـدٌ الصَّـادِقُ
وَمَـاتَ الملُـوكُ وأَشْيـاعُهـم ... وَلَـمْ يَبْـقَ مِـنْ جمعِهـم نـاطِـقُ
فقُـل للـذي سَـرَّه مَصْـرعـي ... تَـأَهَّـبْ فـإنَّـك بـي لاحـقُ

(معجم البلدان ٣/ ٣٥٧ و٣٥٨).

(٢) معجم البلدان (٣/ ٣٥٧ و٣٥٨).

(٣) عن «قصّةِ العربِ في إسبانية» ، ترجمة الجارم.

* إذاً ، فأديبةُ حلقتنا وشاعرتنا منْ شِلْب[1] مدينةِ السِّحْرِ والَجمالِ والشِّعْـر وحسـنِ المقَـال وهـي: مـريـمُ بنـتُ أبـي يعقـوب الفصُـولـيّ الشِّلْبي[2] ، إحدىٰ النِّساء اللواتي اشتهرنَ بُعَيْدَ القرنِ الرَّابع الهجريّ.

دِيْـنُـهَـا وَفَـضْـلُـهَـا:

* كُلُّ الذينَ تعرَّضُوا لترجمةِ مريمَ بنتِ أبي يعقوب الفَصُولي ، أشاروا إلىٰ أخلاقِها وحشمتِها وفَضْلِها ودِيْنِها ، ومعظمُهمُ ردَّدَ قولَ الحميْدي فيها: كانتْ تُعلِّمُ النِّساءَ الأدبَ ، وتحتشمُ لدينها وفَضْلِها[3].

* ويبدو منْ حياةِ مريمَ ابنةِ أبي يعقوب هذه أنَّها كانَتْ واحدةً منْ أستاذاتِ عَصْرِها في الأدبِ والدِّين والشِّعْر ، فقد كانتْ تغدو علىٰ بيوتِ

---

(١) تحدَّثَ الحميريُّ عن شِلْب فقال: شِلْبُ منْ بلادِ الأندلس ، ولها بسائطُ فسيحةٌ ، وبطائحُ عريضةٌ ، ولها جَبَلٌ عظيمٌ منيفٌ كثيرُ المسارحِ والمياهِ ، وأكثرَ ما ينبتُ فيه شجرُ التّفّاح العجيبِ ، يتضوعُ منه روائحُ العودِ إذا أرسلتَ فيه النَّار. وهي في بسيطٍ منَ الأرضِ عليها سورٌ حصينٌ ، ولها جنَّاتٌ وغلاّت.
والمدينةُ في ذاتها حَسَنَةُ الهيئةِ ، بديعةُ البناء ، مرتَّبةُ الأَسْواق ، وأهلُها وسكّان قُراها عربٌ من اليمنِ وغيرِها ، وكلامُهم بالعربيّة الصريحة ، وهم فُصَحاء يقولون الشّعر ، وهم نبلاء خاصّتُهم وعامّتُهم ، وأهلُ بوادي هذا البلدِ في غايةٍ من الكرمِ لا يجاريهم فيه أَحدٌ.
(الروض المعطار ص ٣٤٢) باختصار.

(٢) جذوةُ المقتبس في ذكْرِ وُلاةِ الأنْدلُس (ص ٤١٢ و٤١٣) ترجمة رقم (٩٨٦) ، وبغيةُ الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس (ص ٥٤٣ و٥٤٤) ترجمة رقم (١٥٨٧) ، والصِّلةُ (٢/ ٦٩٤ و٦٩٥) ترجمة رقم (١٥٣٧) ، ونزهةُ الجُلساء في أشعار النّساء (ص ٧٣ ـ ٧٥) ، وشاعرات العرب (ص ٣٩٣) ، والدُّرُّ المنثور (ص ٥١٠) ، ومعجـم الأديبـات الشّـواعـر (ص ٤٤٤ و٤٤٥) ، وأعـلام النسـاء (٥/ ٤٧ و٤٨).

(٣) جذوة المقتبس (ص ٤١٢) ، وبغية الملتمس (ص ٥٤٤) ، والصِّلة (٢/ ٦٩٤ و٦٩٥) وغيرها.

إشبيلية ، فَتُعَلِّمُ نساءَها الآدابَ منْ شِعْرٍ ونَثْرٍ وحكْمةٍ ، وكانَ لها بينهنَّ منزلةٌ محمودةٌ لأدبِها السَّامي[1] ، وحشمتِها وعفّتها.

* وتدلُّ أخبارُ مريمَ علىٰ أنَّها اتَّخذَتْ إشبيليّة سَكَناً لها ، وكانَ عظماءُ البلدِ وكبراءُ عَصْرِها يجلُّونها ، ويُدْنُونَها لعراقَةِ أَثرِها ونُبْلِ أخلاقِها ، وحُسْنِ بديهتها ، إذ هيَ واحدةٌ من شاعراتِ الأندلس اللواتي طارَ صيتُهنَّ في البلاد ، وحلَّ أدبهنَّ في كلِّ وادٍ ، وسُمِعَ شعرهُنَّ في كُلِّ نَاد.

* وربما كان منَ الأدلَّة على رواجِ سُوقِ الأَدَبِ والشِّعْر بالأندلسِ ، وازدهارِ عَهْدِهِ ، وكثرةِ قائليه ، أنَّه قد عُرِفَ إلىٰ جانبِ الشُّعراءِ الفحولِ المجيدين، شاعراتٌ يُجِدْنَ القولَ، ويُحْذِقْنَ النَّظْمَ، ويُحْسِنَّ الاسترسالَ ويُبْدِعْنَ فيه.

* وقد كانَ الظَّنُّ في المرأةِ ألّا تكونَ صاحبةَ قدرةٍ علىٰ الإبداع إلىٰ هذا الحدِّ الذي يلفتُ النَّظَر ، ويسترعي الانتباه ، ويثيرُ الإعجاب ، إذْ إنَّ الصُّورَ والمَعَاني التي تضمَّنَها شِعْرُ المرأةِ الأندلسيّةِ تدلُّ على أنَّها مخلوقٌ فيه منَ الكفايةِ والقدرةِ والتَّذوُّقِ والإدراكِ، بما لا يحولُ بينَها وبين ذلك حاجزٌ، أو يجعلها متخلّفَةً عن غيرِها في ميدانٍ من ميادين العِلْمِ والأدبِ والثَّقافةِ والتَّهذيب.

* وفي تاريخِ الأدبِ الأندلسيّ يبرزُ الأدبُ النِّسائيُّ واضحاً ظاهِراً في أديباتٍ كثيراتٍ ، وشاعراتٍ يملأْنَ صفحاتِه ، ويُشْعِنَ فيه الازدهارَ

(١) يبدو أنَّ هؤلاءِ المؤدباتِ منَ النّساءِ الأندلسيّات كُنّ منَ الأَعْلام ، وممن يُشَارُ إليهنَّ بالبَنان ، لذلك كُنَّ يتميزْنَ بالعلمِ الغزيرِ ، ومعرفةِ الأخبارِ وصنوفِ الآداب؛ وتروي المصادر الأندلسية أخباراً جميلةً حول تراجم هؤلاء المؤدبات وتصفهنّ بالنّضج والعِلْم وقَرضِ الشِّعْر ، وبعضِ المعَارفِ الأُخرىٰ ، كما تذكرُ أنَّ عددَ المؤدّباتِ قد بلغْنَ مئاتٍ في بعضِ المدنِ الأندلسيّة.

والانتعاشَ ، والتَّـقدُّم والـرُّقي ، إذ كانت مجالسُهنَّ يتناثر فيها جيِّـدُه ، ويرتفعُ فيها الصَّوتُ بأعذبه ، ويمتلىءُ جوُّها بعبيرهِ وطيبه ، وينصرفُ كثيرٌ منَ النَّاسِ عن هذه المجالسِ ، وقد زُوِّدُوا بالزَّادِ النَّافع من لبابِ الأدبِ الخالصِ ، والرَّحيقِ الصُّراح ، والتَّوجيهِ الصَّالح ، والنَّقدِ البنَّاء ، والحكمةِ الجميلةِ .

مَـرْيَـمُ فَـي رِحَـابِ الـكُبَـرَاءِ :

* ممّا لا شكَّ فيهِ أنَّ المجالسَ العلميَّةَ ، أو المناظراتِ الأدبية التي كانت تتمخَّضُ عنها العقولُ في الأندلس تُعْتَبَرُ من أكبرِ مسارحِ الأَفْكَار ، وأفخمِ مظاهرِ الجَمال ، وأظهرِ مظاهرِ الحياةِ العقليّة الاجتماعيّة ، وكانت تلكم المناظرات والمجالس تحفلُ بأنواع الأدبِ ، وأفانين السَّمَر ، ولعلَّ الشِّعْرَ فيها كان نشوةَ الشَّارب ، بل أَدَبَ النُّفوس ، ولغَةَ الضَّمائر والقُلوب .

* وكـان الملـوكُ والأمـراءُ والكبـراءُ فـي الأنـدلـس أدبـاءَ شعـراءَ ، يتذوَّقُون الأدبَ ، ويقرضونَ الشِّعْر ، والأديبُ أعرفُ بقيمةِ الأديبِ ، والشَّاعرُ آنَسُ بالشَّاعرِ ، وفي هذا الاهتمامِ من جانبِ الملوكِ والأمراءِ مافيه منْ إيقاظ الهممِ ، واستنهاضِ القرائحِ ، والنُّهوض بالشِّعْرِ والأدب .

* وتأثَّـرَ الأندلسيّون كذلك في أدبهم بنعومةِ العيشِ في بلادِهم ، حيثُ طبعهَم ذلك على الرِّقةِ ، واللينِ في ألفاظهم وأشعارهم ونثرهم ، وعوَّدَهم ذلكَ العيشُ الرّخيُّ علىٰ تناولِ المعاني الجميلة من قريبٍ دون تعمُّقٍ أو غوصٍ ، لما في ذلكَ منْ مشقَّةٍ وعناءٍ تعجزُ عنهما الأعصابُ المترفَةُ النَّاعمة .

* ومريم بنتُ أبي يعقوبَ إحدىٰ النِّساء اللواتي تأثَّرْنَ بالطَّبيعةِ الفاتنةِ السَّاحرة ، وللجمالِ الطَّبيعي مزاياهُ التي تنبِّهُ الخواطرَ وتوقظها ، وتهذِّبُ الخيالَ وتنمّيه ، يُضَافُ إلى ذلك كلِّه أنَّ الله عزَّ وجَلَّ قد حَبَاها بديهةً

حاضرةً ، وعقْلاً لمّاحاً ، تعرفُ كيف تَنْظِمُ منْ خلالِ ذلك عبارات شعْرها ، حيث كانت تفيض رقة وقوة بآن واحد ، وسلاسة وإشراقاً ، وخيالها يُحلِّقُ في أفقٍ جميلٍ مندًّى بأريجِ الأنْسامِ العَطِرات بزَهْرِ رياضِ الأنْدلُس.

* وقد ذكرَ الحُميديُّ ـ رحمه الله ـ جودةَ شاعريةِ مريمَ هذه ، وجوابَها الجميلَ لابنِ المهنَّدِ الذي اعتبرهَا وحيدةَ عَصْرِها في الإخلاصِ وفي العَمَل ، فهي ورعةٌ مجتهدةٌ في العبادةِ ، وقد شبَّهها بمريمَ العذراءِ في التَّبَتُّلِ ، أمَّا في الأدَبِ ، وجودةِ القريحةِ فهي خَنْساءُ عَصْرِها ، بل فاقَتِ الخَنْساء السُّلميّة الشَّاعرة المشهورة.

* قالَ الحُميديُّ: أخبرني ابنُ المُهَنَّدِ[1] أنَّه بعثَ إليها بدنانير وكَتَبَ إليها:

مَالي بشُكْرِ الذي أَوْلَيْت مِنْ قِبَلي ... لو أَنَّني حُزْتُ نُطْقَ الإنْسِ والخَبَلِ
يا فَرْدَةَ الظَّرفِ في هذَا الزَّمَانِ ويَا ... وحيدةَ العَصْرِ في الإخلاصِ والعَمَلِ
أَشْبَهتِ مريماً العَذْراءَ في وَرَعٍ ... وفُقْتِ خَنْساءَ في الأَشْعار والمَثَلِ

فكتبَتْ إليه علىٰ البحرِ نَفْسه ، والرّوي نَفْسِه بجوابٍ على أبياتِهِ فقالت:

مَنْ ذا يجاريكَ في قَولٍ وفي عَمَلِ ... وقَدْ بَدَرْتَ إلى فَضْلٍ ولَم تَسَلِ

(١) «ابنُ المهنّد»: شاعرٌ مشهورٌ كانَ بعدَ الأربعمئة ، ووالده المهنّد هو طاهرُ بنُ محمّد المعروفُ بالمهنّدِ البغداديّ ، كان المهندُ أديباً شَاعِراً متقدّماً ، ومنْ شُعَراء الدَّولةِ العامريّة ، وفَدَ علىٰ المنصورِ أبي عامر محمّد بنِ أبي عامر ، وحظيَ بالأدب عِنده ، ومنْ شِعرهِ يستأذن في الوصول إليه:

أتيتُ أكحّلُ طَرفي ... في نُورِ وجهِكَ لَحْظَة
ولا أزيدك بَعْد ... التّسليمِ والشّكر لَفْظَة

(جذوة المقتبس ص ٤٠٦ و٤٠٧).

مالي بشُكْرِ الذي نَظّمتَ في عُنقي ... منَ اللآلىء وَمَا أوليتَ في قِبَلي
حَلَّيتَنِي بِحُلىً أَصْبَحْتُ زَاهيةً ... بِهَا علىٰ كلِّ أُنْثىٰ منْ حلىً عُطُلِ
للهِ أَخْلاقُك الغُرُّ التي سُقِيَتْ ... مَاءَ الفُراتِ فَرقَّتْ رقَّةِ الغَزَلِ
أشبهْتَ في الشِّعرِ مَنْ غَارَتْ بَدائِعُه ... وأنجدَتْ وغَدَتْ منْ أَحْسَنِ المَثَلِ
مَنْ كَانَ وَالدُه العَضْبُ المهنَّدُ لَمْ ... يَلِدْ منَ النَّسْلِ غير البيضِ والأسلِ[1]

* ويستطيعُ القارىءُ ـ إذا ما قرأَ كلَّ بيتٍ على حِدَة ـ أنْ يكوِّنَ فكرةً عن مقدرةِ مريمَ بنتِ أبي يعقوب في فَنّ الشِّعْرِ، إذ تجعلُ منْه شَكْلاً منْ سِحْرِ التَّصويرِ، وقوّة الألْفَاظِ، وتناسقِ المعاني، حيثُ استطاعَتْ أنْ تَرُدَّ علىٰ رسالةِ ابن المهنَّد رداً مناسباً لائِقاً ظهرتْ فيه ثقافتُها اللغوية والأدبيةُ الواسعة مع السَّلاسَةِ والسُّهولَة والتَّدفُّق والرَّزَانةِ والعَقْل، وقلَّما يتوفَّر ذلك لشاعراتٍ ممن عاصرنَها.

الأَديبَةُ المُعَمَّرَةُ:

* مَن الأخبارِ التي عَثَرْنَا عليها في أخبارِ مريمَ بنتِ أبي يعقوب الفصُولي أنَّها إحدىٰ المعمَّرات اللواتي بلغْنَ منَ الِكبَرِ عتيّاً، ويظهرُ منْ أخبارِها أيضاً أنَّها أَدَّتْ فريضةَ الحجّ إذ كان يُطْلَقُ عليها لقب «الحاجّة»، فقد ذكرَها الحُميديُّ بقوله: مريمُ بنتُ أبي يعقوب الفصولي الشِّلْبيّ الحاجَّة أديبةٌ شاعرة[2] . . . وعن تقدُّمِها في السِّنِّ يقولُ: وعُمِّرت عمراً طويلاً.

* ومنْ خلالِ أشعارِها نستشفُّ أنَّها تجاوزتِ السَّبعين سنة بسبعِ سنين، ورُدّت إلى أرذَلِ العُمر، وأضحتْ كالطَّفْلِ في أوّلِ مَشْيِه، أو

(١) جذوةُ المقتبس (ص ٤١٢ و٤١٣)، والصِّلَة (٢/ ٦٩٥)، وبغيةُ الملتمس (ص ٥٤٤)، ونزهةُ الجلساء (ص ٧٣ و٧٤)، ومعجمُ الأديبات الشواعر (ص ٤٤٤ و٤٤٥).
(٢) جذوة المقتبس (ص ٤١٢).

كالأسيرِ المُثْقَل بالقيودِ ، يقولُ الحميدي : أنشدني لها أصبغُ بنُ سَيِّد الإشبيليّ :

وَمَا تَرتَجي منْ بنْتِ سبعينَ حجّةٍ وسبعٍ كَنَسْجِ العنكبوتِ المُهَلْهَلِ
تدبُّ دبيبَ الطِّفْلِ تسعىٰ إِلى العَصَا وتمشِي بها مَشْيِ الأَسيرِ المُكَبَّلِ[1]

* وإلى هنا يَسْكُتُ التَّاريخُ النَّسويُّ عن مريمَ بنتِ أبي يعقوب ، فلا يحدّثُنا متىٰ توفيتْ ، إلاّ أنَّ إشارةَ الحميدي تدلُّ على أنَّها ممن اشتُهر بعدَ الأربعمئة ، فالذي يبدو أنَّها عاشَتْ إلى أوائلِ القرنِ الخامس الهجريّ ، ولكنَّ صوتَها ما يزالُ مسموعاً إلى وقتنا الحاضِر .

* * *

---

(١) جذوة المقتبس (ص ٤١٢) ، والصلة (٢/ ٦٩٥) ، وبغية الملتمس (ص ٥٤٤) وغيرها .

مُهجة بنت التيّاني

* صاحبة جمال ساحر ، وظل خفيف ، وكلمة معبرة .
* شاعرة ، صاحبة ولادة بنت المستكفي ، أديبة .
* قوالة للشعر ، معروفة به .

مُهجة بنت التّياني

* استمدَّتْ هذهِ المرأةُ شهرتَها منَ الأَضواءِ الكثيرةِ التي سُلِّطَتْ علىٰ سيرةِ ولاّدةَ بنتِ المُستكفي التي أَطَلْنَا معها الوقوفَ في هذهِ الموسوعةِ اللطيفةِ عن النِّساءِ الأندلسيّاتِ.

* وفي قرطبةَ الجميلةِ مدينة السِّحرِ وَالجَمالِ، لَمعَ نَجْمُ هذه المرأة ذات الجمال السَّاحِر، والظِّلّ الخفيفِ الآسر، والكلمة المعبّرة، فقد كانَتْ قرطبةُ عروسَ المدائنِ الأندلسيّة، وأمّ قُراها، وواسطةُ عقْدها، يَـفِدُ إليها شُداة العِلْم، ومحبُّو المَعْرِفَةِ مِنْ أطْرافِ البِلاد، لَعَلَّهم يأْتون منْها بقبسٍ منْ زَهْر آدابِها، أو يجدون عَلىٰ النَّار هدىً منْ ثَمرِ ألبانِها.

* فقرطبةُ هي المدينةُ الحَسْنَاءُ الفاتِنَةُ، وهي أمُّ العُلماءِ، ومجمعُ البُلغَاءِ، تزدانُ بمعاهِدِ العِلْمِ الزَّاخِرةِ بالطُّلاب، وبالجملةِ ففيها منْ كلِّ جمال شَطْرٌ.

* وفي تلكم المدينةُ السَّاحرة الآسِرةُ برزَتْ مهجةُ بنتُ التّياني القُرطبيّة[1] التي ملأتِ الدُّنيا مع ولاّدةَ ومَنْ ثمَّ شَغَلَتَا النَّاس بأَخْبارِهما.

---

(١) المغرب (١/ ١٤٣)، ونفح الطيب (٥/ ٧٢ و٧٣)، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٥١٣)، وأعلام النساء (٥/ ١١٩)، ونزهة الجلساء (ص ٧١ و٧٢).

* ولعلَّ مهجةَ هذهِ لم تكُنْ ذاتَ شَأْنٍ لو لَمْ تَربطْها صِلَةُ المودَّةِ بولادةَ معشوقةِ ابنِ زيدونَ ، ولعلَّها كانَتْ نَسياً منْسيّاً.

* فقد ذكرتِ المصادرُ أنَّ أبَاها كانَ يبيعُ التِّيْنَ ، ولم تفصحْ عن اسمِه ، بل كانَتْ مهجةُ تُنْسَبُ إليهِ فيقال: بنْتُ التَّياني[1] ، وهذا النَّسب على غيرِ قياس.

* وماذا ننتظرُ من ابنةِ بائعِ تين؟! لقد رفَعها الأدبُ والشِّعرُ إلىٰ مصافِّ شهيراتِ نساءِ الأندلسِ ، كيما تحلِّقَ في سماء الشُّهرة بينهنَّ ، وتُروىٰ كلماتُها على مسمعِ الزَّمنِ.

* وعندما تعرَّضَ المقَّري لذكْرِ نساءِ الأندلسِ ، ذكر مهجةَ وولّادةَ فقال: ومنهنَّ: مهجةُ القُرطبيّةُ صاحبةُ ولّادة رحمهما الله تعالى[2].

* ومنَ المُطربِ في أخبار مهجةَ أنَّها كانَتْ قسيمةُ ولَّادة محبوبةِ ابنِ زيدون في الملاحة والجمال ، ولكنَّها لم تكُنْ قسيمتُها في المكانَةِ الاجتماعيةِ ـ كَما ذكرتِ المصَادرُ ذلك ـ.

* ونستطيع أنْ نستخلصَ منَ الأخبارِ الأدبيّةِ التي تحدَّثَتْ عن مهجةَ بأنَّها كانتْ شاعرةً جميلةَ الخلْقَةِ ، تَلْفِتُ الأَنْظارَ بما حبَاها اللهُ منْ ملاحةٍ ، قال ابنُ سُعَيد: كانتْ منْ أجملِ نساءِ زمانِها ، وأخفّهِنَّ رُوحاً[3].

* وكانَ جمالُها وخفَّةُ ظلِّها منْ أقوىٰ الأسبابِ التي جعَلَتْ ولّادة تهواها وتَعْلَقُ بها ، ومن ثمَّ تعلِّمُها منَ الأدبِ ما استطاعَتْ إلىٰ ذلك سَبيلاً حتى غَدَتْ شاعرة يُشَارُ إليها بالبنَان ، قال ابن سُعيد والمقَّري

---

(١) المغرب (١/ ١٤٣) ، ونزهة الجلساء (ص ٧١).
(٢) نفح الطيب (٦/ ٧٢).
(٣) المطرب (١/ ١٤٣).

ما ملخّصُه: فعِلقَتْ بها ولادةُ، ولزمتْ تأديبها إلىٰ أنْ صارتَ شَاعِرة، وكانَتْ من أخفّ الناسِ رُوحاً[1].

* وهكذا ربطَ الأدَبُ وحبُّ الشِّعْرِ بين قلبيَ هاتَيْنِ الغادتَيْن، فقد أُعجبَتْ ولاّدةُ بظرفِ مهجةَ، وخفّةِ روحِها، ورقّةِ شِعْرِها، وجمالِ محيّاها، وكذلكَ بادلَتْها ولاّدةُ هذا الحبّ بحبٍّ يماثلُه، فقد كانَتْ هي الأخرىٰ شديدةُ الإعجابِ بأدبِ ولاّدة، شدّة الحبّ لها، ولعلَّ منْ جميلِ شعرِها في ولاّدة قولُها:

لَئِنْ حَلأتْ عَنْ ثَغْرِها كلَّ حَائِمٍ فَما زَالَ يَحْمِي عَنْ مَطَالِبِهِ الثَّغْرُ
فَذَلِكَ تَحْمِيْهُ القَوَاضِبُ والقَنَا وَهَذَا حِمَاهُ منْ لَوَاحِظِها السِّحْرُ[2]

* وقد أعُجبَ ابنُ سُعيد أيّما إعجاب بهذَيْن البيتَيْن فقالَ عنهما قَبْل أنْ يذكرَهُما: وممَّا تَقَدَّمَتْ بهِ فحولَ الذُّكْران قولُها[1]...

ثمّ يروي البيتَيْن...

* ومنَ الملاحظِ أنَّه تُوجَدُ في هذَيْن البيتَيْن صنعةٌ جميلةٌ خفيفةُ الظِّلِّ مثل خفّة قائلتِهما، فقد عَمدَتْ مهجةُ إلىٰ شيءٍ من الجِناسِ والتّوريةِ من فُنون البديعِ مما جعلَ ابنُ سعيد وغيرُه يظهرون إعْجابَهم بها ويقرّون لها بالتَّقدُّم.

* وتمضي الأيّامُ والهناءُ يغلِّفُ حياةَ مهجةَ وولاَّدة، بيد أنَّ شيئاً ـ لا نعرفُه ولم تفْصِحُ عنْه المصادِر ـ قد وقَعَ بين هاتَيْن المرأَتَيْن، فانقلبتِ الصَّدَاقَةُ عداوةً مضْرمةً، وغَدَتِ المحبَّةُ ناراً مشتعلةً، وهنا كَشَفَتْ مهجةُ اللثام، وأبانَتْ عن حبِّها للهجاءِ والسَّبِّ والشَّتْمِ، وراحتْ

---

(١) المطرب (١/ ١٤٣)، ونفح الطيب (٦/ ٧٢ و٧٣) مع الجمع والتصرف.
(٢) انظر المطرب (١/ ١٤٣)، و«حلأت»: منعت وطردت.

تقذِفُ صاحبتَها الحبيبةَ ، وأليفتَها المليحةَ ولاّدة ، بل تنكَّرتْ لأستاذيّتها وفَضْلِها وأخذتْ تقولُ فيها :

وَلاَّدَةُ قَـــدْ صِـــرْتِ ولاَّدَةً مـنْ غَيْـرِ بَعْـلٍ فُضِـحَ الكَـاتِـمُ
حَكَــتْ لنَــا مَــرْيَــمَ لكنَّــه نَخْلَــةُ هَــذي . . . . قــائِــم[1]

* إنَّ هذَيْن البيتَيْن علىٰ الرّغمِ مما فيهما منَ الفُحْشِ والقَذْفِ والإسفافِ بحقِّ صاحبتها ، إلاّ أنَّهما يُشيران إلىٰ قدرةِ مهجةَ في فنِّ الهجاءِ ، مع مقدرةٍ وملَكَةٍ نادرةٍ في فنِّ السُّخريةِ تشبه فَـنَّ ابن الرُّومي الذي فاقَ الشُّعراء طرّاً في هذا المجالِ ، وكان منَ المجلّين فيهِ ، حتى قال بعضُ الأكابر منَ الأدباءِ عن هجاءِ مُهجَة : لو سَمِعَ ابنُ الرُّومي هذا الهِجاء منْ مُهجةَ لأقرَّ لها بالأَمْرِ[2] .

* وهذا القولُ من قبيل العمومِ ، وإلاّ فابنُ الرُّومي لا يُلْحَقُ شَأْوه في الهجاءِ ، ولا في غيرِه ، فقد كان ابنُ الرّومي يُشْبِه رسَّامِي «الكاريكاتير» في أيّامنا هذه ، فَيُعْطي لِصُورةِ المهجو أبعاداً تأخذُ بروعةِ القارىءِ ، وتجتذبُ نفسه لمتابعةِ القراءة ، وكأنَّ ابنَ الرُّومي يقودُه إلىٰ مرسمِه الجميل .

* ويظهرُ منْ أخبارِ مهجةَ هذه أنَّها كانَتْ تجيدُ فَنَّ الهِجاءِ ، ومنَ العجيبِ أنَّ المرأةَ أكثرُ حياءً منَ الرَّجُل ، وأرقُّ طبعاً ، لكنّنا نَجدُ أنَّ فُحشَ اللّسان يجري عند مهجةَ بطلاقةٍ ، فهي تستعملُ الأَلْفاظ المكشوفَةَ دون توريةٍ أو حياء .

* ذكر المقَّري أنَّ مهجةَ كان يهيمُ بها رجلٌ ، فأهدىٰ إليها خوخاً

---

(١) المغرب (١/ ١٤٣) ، وانظر : نفح الطيب (٦/ ٧٣)؛ وهناك كلمة تعففنا عن إيرادها .

(٢) انظر : نفح الطيب (٦/ ٧٣) ، وقال ابن سعيد : وهجت ولادة وزعمت أنها ولدت وليس لها بعل ، فقالت ما نقص عنه ابن الرومي . . . ثم أنشد البيتين .

جميلَ المَنْظَر ، طيِّب الطَّعْمِ ، وظنَّ أنَّه أَحْسَنَ صُنْعاً ، وأنَّها تلقَّتْ هدَّيته بالقَبول ، لكنَّها قالَتْ في ذلك بيتَيْن كانت رقيقةً في الأوَّل ، وفاحشةً بذيئةً في الثَّاني :

يَا مُتْحفاً بالخوخِ أَحْبابَه أَهْلاً بهِ منْ مثْلجٍ للصُّدُور

حَكَى ثُديَّ الغِيْدِ تَفْليْكُه لكنَّه أخْزى . . . . .[1]

* وهكذا عرفْنا امرأةً أخرىٰ منْ نساءِ الأندلُس ، غرَّدَتْ على غُصْنِه الرَّطيب ، ولئن كانَتْ أخبارُها شحيحةً في المصادرِ ، لقد كانَتْ مَعْلَماً منْ معَالِم الحضارةِ النَّسويةِ في الأندلسِ ، وظلَّ صوتُها ـ وإنْ كان مَحدُوداً ـ يصدَحُ في أيكِ قرطبةَ لتكونَ منْ نساء الأندلسِ النَّجيبات .

* * *

(١) نفح الطيب (٦/ ٧٣) وقد تعففنا عن رواية بقية البيت لفحشه .

نَزْهون بنت القلاعي

* من شواعر الأندلس الصادحات ، ومن أعذبهن أدباً وطبعاً ، وأروحهن نفساً. ولها منزلة عالية .
* خفيفة الروح والظل ، أديبة متفوقة ، كثيرة النوادر .
* جمالها فائق ، وحسنها رائق ، سريعة الجواب ، صاحبة فكاهة ودعابة .

نَزْهون بنت القلاعي

مِـنْ دِمَـشْـقَ الأَنْـدَلُـس :

* في هذهِ الصَّفحاتِ نعيشُ معَ امرأةٍ منْ مدينةِ غَرناطةَ بالأندلسِ ، هذه المدينةُ التي ملأَتِ الدُّنيا بجمالِ أدبائِها ، وشَغَلَتِ النَّاس بِبَيَانِ شعرائِها ، وأشغلتِ المؤرِّخينَ بفتْنَةِ حضارتِها ومناظرِها .

* ففي رحلتِه الشَّهيرةِ ، ذكرها ابنُ بطوطة ، وذكرَ افتتانِه بها ، وكَلَفِه بجمالِ طبيعتِها ، وسِحْرِ أَزَاهِرِهَا ، ووصفَها بأنَّها : قاعدةُ بلادِ الأَنْدلس ، وعروسَ مدنِها ، وخارجُها لا نظيرَ له في الدُّنيا[1] .

* وغَرناطَةُ هذه سَمَّاهَا عُلماءِ الأَمْصَار : دمشقَ الأندلسِ ، لأنَّها أَشْبَه شيءٍ بدمشقَ الشَّام ، ودمشقُ ـ كما نَعْلَمُ ـ جنَّةٌ من جنَّاتِ الدُّنيا ، بل جنَّةُ الدُّنيا ، ولؤلؤةُ البلاد ، وواسطةُ عِقْدها الفريد ، ولقد أصابَ أحمد شوقي وأجادَ عندما قال فيها :

لَولاَ دِمشْقُ لما كَانَتْ طُلَيطلَة ... وَلاَ زهَتْ بِبَني العبَّاسِ بَغْدانُ
آمَنْتُ باللهِ واسْتَثْنَيْتُ جنَّتَهُ ... دِمَشْقُ روْحٌ وجنَّاتٌ وريْحَانُ
قَالَ الرِّفَاقُ وقَدْ هَبَّتْ خَمَائِلُها ... الأَرضُ دَارٌ لَهَا الفَيْحاءُ بُسْتَانُ
جَرَىٰ وَصَفَّقَ يَلْقَانَا بِهَا بردَىٰ ... كَما تَلقَّاكَ دُوْنَ الخُلْدِ رضْوَانُ
دَخَلْتُها وحَواشِيْها زُمرّدَةٌ ... والشَّمْسُ فوقَ لُجَيَنِ الماءِ عقْيانُ

---

(١) رحلة ابن بطوطة (٢/ ٧٦٨) تحقيق. د. علي المنتصر الكتاني.

والطَّيرُ تصْدَحُ مِنْ خَلْفِ العُيون بها وللعُيونِ كما للطَّيْرِ أَلْحانُ
يا فتيةَ الشَّام شكْراً لا انقضاءَ لهُ لو أنَّ إحْسَانكم يجْزِيهِ شُكْرانُ
مَا فَوقَ راحاتِكم يومَ السَّمَاح يَدٌ ولا كأَوطانِكم في البِشْرِ إِنْسَانُ
خَمِيْلَـةُ اللهِ وشَّتْها يَـدَاهُ لكُمْ فَهَـلْ لَهـا قَيِّمٌ مِنْكُمْ وَجنَّانُ[١]

* وقد أغرِمَ الأندلسيّونَ ببلادِ المشرقِ ، وبلادِ الشَّام خُصوصاً ، فطفِقُوا يسمُّون مدنَهم بأسمائِها ، ويشبِّهُونَ شعراءَهم بشعرائِها ، فكان منهم : بشَّارُ الأندلسِ ، وبحتريُّ الأندلسِ ، ومتنبيُّ الأندلسِ ، ومعريُّ الأندلسِ ، وصَنَوبريُّ الأندلس ، وغيرهم كثيرٌ كثير . . .

* لقد حظيتْ غَرناطَةُ بمساحةٍ كبيرةٍ من كُتُبِ الأندلسيّين وغيرِهم ، فقد حظيتْ بمكانةٍ لائقةٍ منْ كتاب «الإحاطةِ» ، وكذلك في «نفح الطِّيب» إذ نَقْرأُ هَمَسَاتِ «المقّري» الذي وَصَفَها بقولِهِ الجميلِ اللّطيفِ فَقَالَ :

* وأمّا غَرنَاطَةُ ، فَإِنّها دمشقُ بلادِ الأندلسِ ، ومسرحُ الأبصارِ ، ومطمعُ الأَنْفُس ، لها القصَبَةُ المنيعةُ ، ذاتُ الأسوارِ الشَّامخة والمباني الرَّفيعة ، وقد اختصَّتْ بكونِ النَّهر يتوزَّعُ علىٰ ديارِها وأسواقِها وحماماتِها ، وأرحَاها الدَّاخلةِ والخَارجةِ وبساتينها ، وزانَها اللهُ تعالىٰ بأَنْ جَعلَها مرتبةً علىٰ بسيْطها الممتدّ الذي تفرَّعَتْ فيه سبائكُ الأَنْهارِ بين زبرجدِ الأَشْجارِ ، ولنسيمِ نَجْدِها ، وبهجةِ مَنْظَرِ حُورِها في القُلوبِ والأبصارِ استلطافٌ يروقُ الطِّباع ، ويحدث فيها ما شاءهَ الإحسانُ منَ الاختراع والابتداع[٢] .

* هذه غرناطةُ ذات الطَّبيعةِ السَّاحرة الخلاّبةِ ، والمناظرِ الجميلةِ الجذّابةِ ، والأنهارِ والأزاهيرِ والرِّياض والمتنزَّهَات والغُدران ، ومن

---

(١) انظر : الشوقيات (٢/ ٩٩ ـ ١٠٢) باختيار واختصار من القصيدة .
(٢) انظر : نفح الطيب (٤/ ٢٠٧) .

هاتيكَ المدينةِ الآسِرة بجمالها ، نعيشُ مع امرأةٍ آسرةٍ للأَلْباب ، فقد كانت جوهرةً لم يَسْمَحِ الدّهْرُ بمثلها ، وفريدةً فاقَتْ على نساءِ العَصْر ، وما الآدابُ إلا نقطةٌ مِنْ بحرِها الرَّائقِ ، وما الجمالُ إلا من نورِ وجهها الشَّارق ، إنّها نزهونُ بنتُ القُلاعي الغَرناطيّة[1] .

* إذاً فضيفَةُ هذه الصَّفحات منْ غَرناطة[2] ، بلدِ العلماءِ والشُّعراء

---

(١) الدُّرُّ المنثور (ص ٥١٩ و٥٢٠) ، والمغرب (١/ ٢٢٨) و(٢/ ١٢١) ، ونفح الطّيب (٦/ ٧٥ ـ ٧٨) ، ورايات المبرزين وغايات المميزين (ص ١٥٩ ـ ١٦١) ، وبغية الملتمس (ص ٥٤٦) ترجمة رقم (١٥٩١) ، ونزهة الجلساء (ص ٧٥ ـ ٧٧) ، والإحاطة في أخبار غرناطة (٢/ ٥٠٤ و(٣/ ٣٤٤ و٣٤٥) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٤٥٧ ـ ٤٦٠) ، وشاعرات العرب (ص ٤٤٨ ـ ٤٥١) ، وأعلام النساء (٥/ ١٦٧ ـ ١٧٠) ، وغيرها كثير جداً.

(٢) «غرنَاطة»: هي مولِدُ الأديبِ الوزيرِ لسانِ الدّينِ بنِ الخطيب ، وفي غرناطةَ يقول الشاعر:

غَــرنَــاطَــةُ مَــا لَهــا نَظيــر ... مــا مِصْــرُ مـا الشّــامُ مـا العِـراق
مــا هــيَ إلا العــروسُ تُجْلــىٰ ... وتلــكَ مــنْ جملــةِ الصَّــدَاقِ

وتُسمّى كورة إلبيرة ، التي منها غرَناطة دمشقٍ ،لأنَّ جنْدَ دمشْقَ نزلوها عنْدَ الفتح؛ وقيل: إنّما سُمّيت بذلك لشبهها بدمشقَ في غَزارةِ الأَنْهار ، وكثرةِ الأَشْجار؛ وكانتْ غَرناطةُ قاعدةَ بني الأَحْمر [٦٢٩ ـ ٨٩٧ هـ] ، وبها قَصْر الحمراءِ المَشْهور ، وفي هذا القَصْر يقولُ نِزَارُ قبّاني الدمشقي من قصيدة:

فـي مَـدْخـلِ الحمـراء كـانَ لِقـاؤُنـا ... مــا أطيــبَ اللّقَيــا بــلا ميعــادِ
عينَــانِ سَــودَاوَانَ فــي حَجـريهمــا ... تَتَــوالــدُ الأبْعــادُ مــنْ أبعــادِ
هَــلْ أَنْــتِ إسْبَــانيــةٌ سَــاءلتُهــا ... قَــالْـت وفــي غَـرنَـاطـة ميـلادي
غَـرنَـاطـةُ وصَحَـتْ قـرونٌ سَبْعَـةٌ ... فــي تَيْنــكِ العَينَيْــن بَعْــدَ رُقــادِ

ـ وإنَّ أشهرَ ما اشتُهرتْ به غَرناطة: قَصْرُ الحمراء الذي طالما تَغنّى بهِ وبجمالهِ الشُّعراء ، ووصفَ محاسِنَه الأدباء ، فوصفُوا روعتَه وبهاءَه ، وتختلفُ غرناطةُ عن بقيّةِ مدنِ إسبانية الكبيرةِ بأنَّ المسلمينَ بنوها ، لا الإسبانيين ، وأسْمَىٰ العربُ مدينتهم غرناطةَ ، وهو اسمٌ مأخوذٌ منَ الرُّمّانِ باللغةِ الرُّومانيةِ.

ـ وقد تمَّ بناءُ مدينةِ غرناطةَ في سَنةِ (١٢٣٥ م) ، واستمرَّتْ بأيدي العرَب إلىٰ سنةِ=

والأماثلِ والنَّوابغ والأُدَباء ، ومنْ حَسَناتِها نزهون أميرةُ شاعراتِها ، ونابغةُ شواعِرِها وشاعرةُ نابغاتِها ، ولقد أحسنَ المقّري إذ وصَفَ قَدْر نزهونَ في معرضِ حديثه عن غَرناطةَ فقال: ولم تَخْلُ غَرناطةُ منَ أشرافٍ أماثل ، وعلماءَ أكابر ، وشعراءَ أفاضل ، ولو لم يكنْ لها إلا ما خَصَّها اللهُ تعالىٰ بهِ من كونها قد نَبَغَ فيها منَ الشَّواعر مثل: نزهونَ القلاعية ، وزينبَ بنتِ زياد ، وحفصةَ بنتِ الحاجِ لكفَاها[1].

* عاشتْ نزهونُ الغرناطيّةُ في أوجِ الحضارةِ الأندلسيّةِ المدنيَّة ، وذلك في غُضُون القَرنِ الخامِسِ الهجريّ ، وخلَّفَتْ وراءَها أدباً غضّاً شهيَ المَذاقِ ، رقيقَ النَّغَمات ، نديَ النَّفحاتِ ، لطيفَ الهَمَسات ، ومع أشارةٍ من أَدبها الفَيْنانِ نقتطفُ منه ما نُحلّي به جِيْدَ الأَسْفَار ، ونزيّن به نوادرَ الأخْبار ، ليكونَ كالعِقْدِ النَّفيس علىٰ لبّاتِ النَّواهد الأبْكار . . .

* لقد كانتْ نزهونُ منْ شواعرِ الأَنْدلُس الصَّادِحَات ، ومن أعْذَبهنَّ أدبَاً وطَبعاً ، وأروحهنَّ نَفَساً ، وأرفقهنَّ بالشِّعر ، وأضربهنّ للأمْثَالِ ، وكان لها في مجالسِ الوزرَاءِ منزلةٌ عاليةٌ لأدبِها ومعرفتها وثقافِتها الواسعةِ ، وكانت فوقَ ما عُرفتْ به من رقَّةِ الطَّبْعِ ، وسماحةِ الذَّوقِ منْ أَحْسَنِ النَّاس بديهةً ، وأحضرِهم جواباً ، وأذكاهم قريحةً .

= (١٤٩٢ م) ، فكانتْ آخرَ معقلٍ سَقَط بيدِ الإسبان.

ـ وكانتْ غرناطةُ قد عُرِفَتْ خلال تَاريخها العربي باليسرِ والرَّخاءِ ، وما أَحْسَنَ وأَجْملَ قولَ ابنِ خَفاجة في الأندلسِ ومُدنها:

إنَّ للجنَّةِ بالأندلسِ ... مُجتلىٰ حُسْنٍ وريّا نَفَسِ
فَسَنا صبحتها منْ شَنَبٍ ... وَدُجَا ليلتها منْ لَعَسِ
وإذا ما هبّتِ الريحُ صَبَا ... صحتُ واشوقي إلىٰ الأندلسِ

(١) نفح الطيب (٤/ ٢٠٧) بتصرف يسير جداً.

صِفَاتُهَا وَظَرْفُهَا:

* كانَتْ نزهونُ بنتُ القلاعي شاعرةً مَرِحَةَ الرُّوحِ، أديبةً حلوةَ الحديثِ، عطرةَ المحاضرةِ، جيّدةَ المُذَاكَرةِ، ذات طباعٍ مندّاةٍ برقيقِ الأَنْفاسِ والأحاسيسِ، وكانتْ ذاتُ نَفْسٍ أليفةٍ، وروحٍ خفيفةٍ، تَأْلفُ الظَّرفَ، وخفَّةَ الرُّوحِ والظِّلِ، نَهلَتْ منَ الآدابِ حتّى انتعشَتْ روحُها، وحتى سُمّيت شاعرةَ غَرناطَة، وطاولتْ شهرتُها الثُّريا والمُشْتري والجوزاء.

* وعندما عُدْنا إلىٰ المصادرِ التي بين أيدينا، والتي تحدَّثَتْ عن نزهون الغرناطيّةِ، ألفينا تناقُضاً في وصْفِها وصفَتِها، فقد نعتها ابنُ سُعيد في «المُغرب» بقوله: نزهونُ بنتُ القلاعي شاعرةٌ ماجِنَةٌ كثيرةُ النَّوادر[1].

* بينما نَقَل المقّري عن الحِجاريّ في «المُسْهب» خلافَ ذلك، ووصفها بخفّةِ الرُّوح، والانطباعِ الزَّائد، والحلاوةِ، وحفْظِ الشِّعر، والمعرفةِ بضربِ الأمثالِ، مَع جمالٍ فائِقٍ، وحسنٍ رائق[2].

أمّا لسانُ الدِّين بنِ الخطيب فيقول عنها: كانتْ أديبةً شاعرةً، سريعةَ الجوابِ، صاحبةَ فكاهةٍ ودعَابةٍ[3].

* وفي «بُـغْتيهِ» قال الضّبيُّ عنها: نزهونُ منْ أهلِ غَرنَاطةَ، أديبةٌ، وكانتْ سريعةَ البديهةِ، حاضرةَ الجوابِ[4].

* والحقيقةُ، فقد كانت نزهون منْ نساءِ عَصْرها البارزاتِ في

---

(١) المغرب في حلى المغرب (٢/ ١٢١).
(٢) انظر: نفح الطيب (٦/ ٧٥).
(٣) الإحاطة (٣/ ٣٤٤).
(٤) بغية الملتمس للضبي (ص ٥٤٦) ترجمة رقم (١٥٩١).

الأَدَبِ ، وكانت حافظةً لأشعارِ العَرب وأمثالِها ، ولم يكنْ بغرناطَة إذ ذاك أحدٌ منْ أمثالها[1] .

* ولقد ازدهرتِ الحياةُ الأدبيَّةُ والعلميَّة في بلادِ الأَندلسِ ، وظهرتْ منْ خلالِها بعضُ الأَصواتِ النَّسويّة التي صَدَحَتْ في سمواتِ الأدبِ ، وحلَّقَت في فَضاء الشِّعْر ، وتفتَّحتْ أزاهرُ أدبهنَّ غضَّةً ، وتضوَّعَ وَرْدُ عبيرهنَّ نديّاً رقيقاً هامِساً دافئاً ، فكان رائعَ المعاني ، نديَّ النَّغمات ، دَفِقَ الهمسَات ، لطيفَ الخيال ، جميلَ الصُّورة.

* ومَلأَتِ الثَّقافَةُ النَّسويَّةُ شبْه الجزيرةِ الأندلسيّةِ ، ثمّ ما لبثت أنداءُ تلكم الثَّقافة أنْ فاحَتْ بعبيرِها لتملأَ دُنْيا المشرقِ ، حيثُ وصلتْ أطرافُ أخبارهنَّ إلى أصقاع الأرضِ ، واخترقَتْ كلَّ الحواجز والعوائقِ ، وأضحتِ المرأةُ الأندلَسيَّةُ تُسَاهِمُ في بناءِ صَرْحِ الأَدَبِ والعِلْمِ والمعرفةِ والفِقْـه وما شابَـهَ ذلكَ من نَثْرٍ وشعْرٍ ، وعلْمٍ ومناظرات وخطٍّ وغير ذلك.

* ومنْ الأشياءِ التي تدعو إلى العَجب والتّأمُّل ، ما رُويَ أنَّه وُجدَ في الأَندلس وحْدهَا ستون أَلفاً منَ الشَّاعرات!! ، ومنَ الطَّريف أنَّ أغلبهنَّ كُنّ في غَرنَاطةَ ، وكُنَّ يُعْرَفْنَ «بالعربيّات»؛ بدلاً من الغَرناطيّاتِ ، لأنّهنَّ نهجْنَ نَهْجَ العرَبِ في القريض[2] .

* إنَّ الأدبَ النَّسويَّ في الأندلسِ ذو صبْغَةٍ جميلةٍ ، وهو ثرٌّ غنيٌّ رائعٌ وحافِلٌ بالجديدِ ، بيد أنَّه لم يصلْ إلينَا منْه إلاّ ما تسرَّبَ إلىٰ المشرقِ من بعضِ المصادِرِ الباقيةِ؛ لأنَّ التَّاريخَ عنِ الآثارِ الأندلسيّة الباقيةِ في إسبانية

---

(١) الدر المنثور (ص ٥١٩) بتصرف يسير.
(٢) المرأة في حضارة العرب (ص ٢٣٩). ويبدو أن هذا العدد مبالغ فيه ، لكنَّه يشيرُ إلى كثرةِ الأديباتِ والشّاعرات والعالِمات في هاتيك البلاد.

يحدِّثنا بأنَّ المسيحيِّين بَعْدَ أنْ احتلُّوا غَرناطَة ، واستولوا عليها ، أَمرَ «الكَارديِنَال خُمْينس» بأَنْ تُبَادَ عصارةُ الفِكْرِ الأندلسيّ العربيّ والإسلاميّ في جميع البلادِ الأندلسيّة ، فأحرقَ جنودَه بساحةِ غَرناطةَ وحدها عدداً لا يُحصىٰ منَ الكُتُبِ النَّفيسةِ[1].

* ومنَ المحتملِ أنْ يكونَ ضمْنَ التُّراثِ المندثِرِ الذي أتلـفَـتْـهُ أيدي الظَّالمين الحاقدين مصادرُ مهمّة ، تحدِّثنا عن أدبٍ نسويٍ ، ونهضَةٍ علميّةٍ نسويّةٍ نَمَتْ وترعرعَتْ في الأندلسِ ، ومَنْ يدري فربَّما كان هناك عددٌ من مشاهيرِ النِّساءِ العالماتِ البارعاتِ قد اندثرتْ أخبارهنَّ وعفيتْ آثارهنَّ مع ما دُرِسَ منَ الآثار الأندلسيّة ، والمحاسنِ العربيّة ، ومظاهرِ الحضارةِ المتألّقَةِ في تلكم العُصُور الزَّاهرة بالنَّبضِ العربيّ.

* ولعلَّنا ندركُ منْ خلالِ نظراتٍ دقيقةٍ إلى تراثِ المرأةِ في الحاضرةِ الأندلسيّةِ ، بأنَّه نَشطَ ونَما علىٰ أيادي النّسوةِ الحرائرِ ، ذواتِ الأحْسَاب والأصولِ الثَّابتة ، والفروعِ المتطاولةِ في سماءِ الشَّرف ، أمّا الإماءُ والجواري فقد برعْنَ في فنِّ الغِناءِ والموسيقا ، ولم يبرعْنَ في الشِّعْرِ إلا ما نَدر منهنَّ وندَّ منْ بعضِهِنَّ.

* ونستطيع أنْ نضربَ علىٰ ذلك مثَلاً منهنّ ، حيث إنَّ من أبرزِ النِّساء الجواري الشَّواعر ، جاريةٌ تُدعىٰ «قَمر البغدادية» وكانتْ منَ الدَّاخلات منَ المشرقِ إلى بلاد الأندلس ، وهي جاريةُ إبراهيمَ بنِ حجّاج اللخمي صاحب إشبيلية.

* وقد وصفَ المقّري هذه الجاريةَ بقوله: وكانتْ منْ أهلِ الفَصَاحَةِ والبيَان ، والمعرفةِ بصَوْغِ الألحان ، وجُلِبَتْ إليه منْ بغدادَ ، وجمَعَتْ

---

(١) انظر: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال (ص ٤٣٠) وما بعدها بشيء من التَّصرُّف.

أدباً وظَرفاً ، وروايةً وحفظاً ، مع فَهْمٍ بارعٍ ، وجمالٍ رائعٍ ، وكانت تقولُ الشِّعْر بفضْلِ أدبها[1] .

* وتروي بعضُ الأخبار بأنَّه لما قَدمَتْ قمرُ الأندلسَ جاريةً لإبراهيمَ ابن الحجّاج[2] اللخمي ، ازدرَاها بعضُ نساءِ العرَبِ هناك ، لأنهنَّ لم يألَفْنَ جاريةً ذات مكانةٍ ، وطفقْنَ يتهامسْنَ إذا مرَّتْ بهنَّ قمرُ ، ويتغامزْنَ إذا غَنَّتْ ، فقالت تعرضُ بِهنَّ :

قَالَوا أَتَتْ قَمرٌ في زِيِّ أَطْمارِ ... مِنْ بَعْدِ ما هَتَكَتْ قَلْباً بأَشْفَارِ
تَمْشي علىٰ وَجَلٍ تَغْدو على سُبُلٍ ... تَشُقُّ أمْصَارَ أرضٍ بَعْدَ أَمْصَارِ
لا حرَّةٌ هيَ منْ أحرارِ موضِعها ... ولاَ لَهَا غَيْرَ ترسيلٍ وأَشْعَارِ
لو يَعقلون لما عابُوا غريبتَهم ... لله منْ أمَّةٍ تُزْرِي بأَحْرارِ
ما لابنِ آدمَ فَخْرٌ غيرَ همّته ... بعد الدِّيانةِ والإخلاصِ للبَاري
دعني منَ الجهلِ لا أرضىٰ بصاحبهِ ... لا يخْلُصُ الجَهْلُ منْ سَبٍّ ومنْ عارِ
لو لمْ تكنْ جنَّةٌ إلا لجاهلةٍ ... رضيتُ منْ حكْمِ ربِّ النّاسِ بالنَّار

* ومن شعر قَمر تمدحُ مولاها إبراهيمَ بنَ حجّاج :

مافي المغَاربِ مِنْ كَريمٍ يُرتَجىٰ ... إلا حَليْفُ الجُودِ إبراهيمُ
إنّي حَلَلْتُ لَديْهِ منزِلَ نِعْمةٍ ... كُلُّ المنازلِ مَا عَداهُ ذَميمُ[3]

* ولعلَّ منْ أجملِ شِعْر الجَواري مَا شَدَتْ به قَمرٌ هذه في الحنينِ إلىٰ وطنِها بغدادَ ، حيثُ صاغَتْ حنينَها في شِعْرٍ رقيقٍ رفيقٍ يمسُّ شغافَ

---

(١) انظر : نفح الطيب (٤/ ١٣٨).

(٢) كانَ إبراهيمُ بنُ الحجّاج اللخميّ هذا مُسْتَقلاًّ بإشبيليةَ في عَهْدِ إمارةِ عبدِ الله بنِ محمد بنِ عبد الرحمن الأوسط . وتوفيَ إبراهيمُ سنة (٢٨٨ هـ) .
ومنَ الجدير بالذكر أنَّ قمراً هذه قد عاصرتْ أحمد بن عبد ربّه الشّاعر والأديب الأندلسي المشهور ، صاحب الكتاب الجميل «العِقْد الفريد» .

(٣) نفح الطيب (٤/ ١٣٨).

القُلوب لِصِدْقِهِ وعُمْقِهِ ، فقد خلَّفت قمرٌ في بغدادَ قَلْبَها وعواطِفَها ، وإن كانتْ بجسِمها في الأندلسِ ، ولكنَّ نفسَها تحنُّ إلىٰ روضةِ حداثتِها ومراتع صِباهَا ببغدادَ ، حتى لتحنّ إلى ظبائِها وإلى الفراتِ وكلِّ شيء ، فما قالَته تتشوّقُ إلىٰ بغدادَ:

اهَـاً علـىٰ بَغْـدادِهـا وَعِـراقِهـا ... وظبـائِهـا والسِّحُـر فـي أحـداقِهـا
ومجـالِهـا عنـدَ الفُـراتِ بـأوجُـهٍ ... تبـدو أهلَّتُهـا علـىٰ أطْـوَاقِهـا
متبختـراتٍ فـي النَّعيـمِ كـأنَّمـا ... خُلِقَ الهوىٰ العذريُّ منْ أخلاقِها
نفسي الفِداءُ لها فأيُّ محاسنٍ ... في الدَّهر تشرقُ من سنَا إشراقِها[1]

* هذا بعضُ ما أُثِرَ عنِ الجوَاري والإماءِ ومنهنَّ «العَجْفَاءُ»[1] ، أمّا الحرائِرُ ومنهنَّ نزهُون ، فلهنَّ نصيبٌ في التَّاريخِ الأندلسي النَّسويّ ، فلنأخذْ بنصيبٍ منَ الحديثِ عن نزهون.

أَدَبُـهَـا مَـعَ الـوزَرَاءِ:

* كانتْ نزهونُ صاحبةَ أدبٍ ومعرفةٍ وفَهْمٍ ، وكانَ لها مواقفُ وجلساتٌ مع أعيانِ عَصْرِها ، ومعَ بعضِ شُعَراء الأندلس وأدبائِها ، منْ مثلِ الوزيرِ أبي بكر بن سُعيد ، وبشَّار الأَندلُس أبي بكر محمّد الأعمىٰ المخزوميّ ، وابن قزْمَان الشَّاعر الوشَّاح وغيرهم.

* وقد جَرَتْ بعضُ المُسَاجلاتِ اللطيفةِ بينها وبين الوزيرِ الحسيب أبي بكر بن سُعيد ، الذي كانَ أولعَ النَّاسِ بمحاضرتِها ومُذاكرتِها ومُراسلتِها ، فقد كان أبو بكر هذا أديباً ظَريفاً مُعْجَباً بنزهونَ ابنةِ القلاعيّ ، مُغْرماً بأفانين معانيها ، وجودةِ ألفاظِها ومغانِيها ، بالإضافةِ إلى نارِ الغيْرَةِ التي تتأججُ في أضالعِه منْ كَثْرةِ المعجبينَ بنزهونَ ، فقد

---

(١) العجفاء: جارية بعث عبد الرحمن بن معاوية صاحب الأندلس ، فابتيعت له وحُملت إليه (الأغاني). واقرأ خبرها في هذا الكتاب.

كَلِفَ بها كثيرون ، وشُغِفُوا بمحاسِنِها ومراسلتها ، هنالك انبرىٰ أبو بكر بن سُعيد ، وقَادَهُ غَرامُه ذات مرّة لأنْ يكتبَ لها :

يَـــامَـــنْ لَـــهُ أَلْـــفُ خِـــلٍّ   مِـــنْ عَـــاشِـــقٍ وصَـــديـــقِ
أراكَ خلَّيْـــــــتَ للنَّـــــــا   سِ مَنْـــزِلاً فـــي الطَّـــريـــقِ

فأجابتْه نزهون بأرقّ خِطاب ، وأذكىٰ جَواب ، وأعلمتْه بأنَّهُ الحبيبُ الذي تمكَّن منْ عرشِ قلبِها ، وأنَّه الذي يحتلُّ ذِرْوَةَ مشاعرِها وودِّها ، وأنَّ مكانَـتَه لا ينبغي أنْ تعلوها مكانةٌ ، فَهَلْ له غيرُ صدرِها وقلبِها ، اسمعْ إليها تقولُ وتناجيه :

حَلَلْـتَ أبـا بكْـرٍ مَحـلاًّ مَنَعْتـهُ   سِواكَ وهل غيرُ الحبيبِ له صَدْري
وإنْ كانَ لي كَمْ منْ حبيبٍ فإنَّما   يقدّمُ أهلُ الحقِّ حبَّ أبي بكْرِ(١)

* قالَ لسانُ الدِّين بنُ الخَطيب ـ رحمهُ الله ـ: وهذه غايةٌ في الحُسْنِ بعيدة؛ ومحاسِنُها شَهيرةٌ ، وكانت منْ غُرَرِ المفاخرِ الغَرناطيّة .

* هذا وقد كان لنزهون جلسَاتٌ أخرى ومواقفُ طريفةٌ مع الوزيرِ أبي بكر بن سُعيد ، وسنقفُ على بعضِها في الفِقْرةِ التَّالية إنْ شاء الله .

---

(١) انظر: شاعرات العرب (ص ٤٤٩) ، ومعجم الأديبات الشَّواعر (ص ٤٥٨) ، وررايات المبرزين (ص ١٦٠ و١٦١) والإحاطة (٣/ ٣٤٥) ، ونفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب (٦/ ٧٥) .
وقد علَّقَ المقّري ـ رحمه الله ـ على قولها: «وإنْ كانَ لي كمْ منْ حبيبٍ . . . .» فقال: لو قالتْ: وإنْ كان خلاّني كثيراً فإنّما . . . لكانَ أجْوَد .
ـ ومنَ التّعليقات النّفيسة والمفيدة على الشَّطر الأخيرِ في البيتِ الثَّاني قولها: «يقدّم أهلَ الحقَّ حُبَّ أبي بكر» ، فإنَّ ما أتتْ به نزهون يدلُّ على ذكاءٍ عجيبٍ نادر ، وذلك في توريتها بلفظ «أبي بكر» إذْ ينصرفُ الذّهن إلىٰ الصِّدِّيق الأكبر أبي بكر الصِّدِّيق ، صِدِّيقِ رسول الله ﷺ ، كما ينصرفُ الذّهنُ إلى أبي بكر بن سُعيد ، وهذا في غايةِ الطَّرافة ، ولله دَرُّ مَنْ قال في حق أبي بكر الصّديق رضي الله عنه :

لا تُفَضِّـلْ علـىٰ العتيـق صـديقـاً   فهـو صـدِّيـقُ أحمـدَ المختـار
وإن ارتبـتَ فـي الأحـاديث فـاقـرأْ   ثـانـي اثنيـن إذ همـا فـي الغـار

نَـزْهُـونُ وَبَـدِيْـهَـتُـهَـا مَـعَ بَـشَّـارِ الأَنْـدَلُـس:

* كانَ لنزهون الغرناطيّة ظرفٌ وحضورُ قَلْبٍ في مجالسِ الكُبراء، فقد أُثِرَ عنها سرعةُ البديهةِ، وقوةُ العارضةِ، وحسنُ الرَّدِّ في أضيقِ وأحرجِ الأوقاتِ، مع كبارِ الشُّعراء المعروفين في عَصْرها.

* فهذا أبو بكر محمّد الأعمىٰ المخزوميّ الذي ذكره ابنُ سُعيد في «المغرب» فقال: بشَّار الأندلس[1] انطباعاً ولسناً وأذاةً.

(١) كان ولعُ الأندلسّيين بكلّ ماهو شرقيّ عجيباً، فقد وُجِدَ مَنْ يُنْسَبُ إلىٰ الأندلس: متنبّيها، وبحتريها، ومعريها، وصنوبريها، وذلك بشكلٍ يدعو للتوقّفِ والنّظر، فإنَّ الأسماءَ كثيرةٌ، وعملية المقارنةِ استمرت زماناً، وانتحلها كتّاب كثيرون، وانتقلتِ العدوىٰ إلى المشرقِ، فوُجِدَ فيهم مَنْ يَسْلُكُ السَّبيل نَفْسَه كالثّعالبي.
فابنُ اللبّانة هو سموءلُ الشُّعراء (المغرب ٢/ ٤١١)؛ وحمدةُ بنتُ زياد هي خَنْساء المغرب (٢/ ١٤٥)، وأبو الأَجْرب جعونة الكلابي عنترةُ الأندلس (المغرب ١/ ١٣١)؛ وكانوا يقولون عن الرّمادي: فُتِحَ الشّعرُ بكندةَ وخُتم بكندة (الجذوة ص ٣٤٦)؛ والبغية ص ٣٧٨)؛ وأبو الرّبيع سليمان بن علي الشّهير بكثَيِّر (الرّايات ص ٢٩)؛ والزَّبيدي: ابنُ دريد (النّفح ٥/ ٢٤)، والكاتب محمّد بنُ سَعيد الزّجالي يلقّب بالأصمعيّ (النّفح ٥/ ٨٢)، ومؤمنُ بنُ سعيد: دعْبِل الأندلس (المغرب ١/ ١٣٢)، وأبو بكر محمّد الأعمى المخزوميّ: بشّار الأندلس وقد أحيا سيرةَ الحطيئة، المغرب (١/ ٣٢٣)، وشبّهوا سيرةَ المعتمدِ بنِ عبّاد مع شاعره ونديمه أبي بكْر بنِ عمّار بسيرةِ هارون الرّشيد مع وزيرِه جعفرَ بنِ يحيى البرمكيّ (المغرب ١/ ٣٨٩)، وشبّهوا أحمدَ بن محمّد الجيَّاني المعروف بتيس الجنّ بأنه يجري في وصفْ الخمر مجرىٰ أبي علي الحسن بن هانئ (الجذوة ص ١٠٧)، وسمّاه في المغرب ديكَ تيسِ الجنّ (٢/ ٥٨)، والرّصَافي ابنُ رومي المغرب.
وقد يجدون للرّجل أكثرَ منْ شبيه لديهم؛ فابنُ زيدون: بحتريُّ الأندلس (الذّخيرة ١/ ١/ ٣٢٦)، وأبو عبد الله بن مجبر: بحتريّ الأندلس أيضاً (الرّايات ص ٧٨)، وأبو العبّاس أحمدُ بن عبد الله التّطيلي الأعمىٰ: معريّ الأندلس (الرّايات ص ٨٩)، وابن درّاج القَسْطلي: متنبي المغرب (الرّايات ص ٧٣)، وكذلك ابنُ هانئ عندهم: متنبي الأندلس، وأبو الحَسن عليّ بنُ إسماعيل القرشيّ الأشبوني، =

وهو الذي أحيَا سيرةَ الحُطيئة بالأندلسِ فَمُقِتَ ، وكانَ لا يَسْلَمُ منْ هجوِهِ أحَدٌ ، ولا يزالُ يخبطُ الآفاقَ بعصاه ، ويقعُ فيمن أطاعَهُ وعَصَاهُ ، وأَصْلُه منَ المُدَوَّرِ ، وقرأَ بقرطبةَ ، ثمَّ جالَ علىٰ البُلدانِ ، وأكثَرَ الإقامةَ في غَرناطةَ ، وتعرَّضَ لشاعرتها نزهون[1] .

* إذاً فالمخزوميُّ هذا من هجّائي الأَنْدلُس المشهورين بذلك؛ قال ابنُ سعيد: قال والدي: هَجَّاؤو الأندلس: المخزوميّ ، واليَكِّي[2] ، والأَبْيَض[3] .

= كانوا يشبهونه بأبي العتَاهية في زمانِه، وابن خَفَاجَة: صنوبريُّ الأندلس (النفح ٥/ ٣٥).
وذكر ابنُ سعيد في هذه الأسماء والألقاب أنّهم: كانوا يلقبونَ شعراءهم ويقاربون بينهم وبين شعراء المشرقِ لأسبابٍ تتعلق بشعرهم ونمطِ إجادتهم.
ولعلَّ هذا هو الغالبُ وإنْ لم يكن دائماً مطابقاً للمشابهةِ والمضاهاة.

(١) المغرب (١/ ٢٢٨).

(٢) «اليَكّي»: أبو بكر يحيىٰ بنُ سَهْل اليَكِّي هجّاءُ المغرب، قال في المغرب: هذا الرّجل هو ابنُ رومي عَصرِنا ، وحُطَيئةُ دهرنا ، لا تجيدُ قريحته إلاّ في الهجاءِ ، ولا تنشطُ به في غير ذلك مِنَ الأنْحاء ، وقسْ على قولِه في الهجاء ما أوردتُ:

أَعِدِ الوضوءَ إذا نَطقْتَ بِهِ ... متذكِّراً مِنْ قبلِ أَنْ تَنْسَىٰ
واحفظْ ثيابَك إنْ مَرَرْتَ بِهِ ... فالظِّلُّ منْه يُنَجِّسُ الشَّمْسَا

وقوله في ابن الملجوم أحد أعيان فاس:

ومَا سُمِّيَ الملجومُ إلا لِعلَّةٍ ... وهل تُلْجَمُ الأَفْراسُ إلاّ لتُركَبا

وقوله:

فِي كلِّ مَنْ رَبَطَ اللِّثَام دناءةٌ ... ولو أنَّه يعلُو علىٰ كِيوَانِ
ما الفخرُ عندهمُ سوىٰ أنْ يُنْقَلوا ... مِنْ بطنِ زانيةٍ لِظَهرِ حَصَانِ
المنتمونَ لِحميَرٍ لكنّهم ... وضَعوا القرُونَ مواضعَ التّيجانِ
لا تطلبنَّ مُرابطاً ذا عفّةٍ ... واطلبْ شعاعَ النّار في الغدرانِ

(المغرب ٢/ ٢٦٦ ـ ٢٧٠) بتصرف.

(٣) «الأبيضُ»: أبو بكر محمّدُ بن أحمد الأنصاريّ المشهور بالأبيض ، أصلُه من قريةِ همدان ، وتأدَّبَ بإشبيليةَ وقرطبةَ ، وهو شاعرٌ مشهور وشّاح ، حَسنُ التّصرّف =

* لقد كانَ أبو بكْر المخزوميّ هجّاءً مَشْهوراً في هذا الفَنِّ ، فقد هجا قومَه ، وابنَه ، وأهلَ عَصْرِهِ ، ومَنْ أَحْسَنَ إليهِ ، وخصُوصاً بني سُعيد الذين أسْكَنُوه في جوارِهم ، وأكرموهُ ، وأحسنوا إليهِ ، فإنَّهم لمْ يَسْلمُوا منْ لسانِـهِ ، حتّى في غَزلِـهِ كان يهجو مَنْ يتغـزّل بها ، وأحيانـاً يهجو نـفسه[1] .

* قالَ فيهِ لسَانُ الدِّين بنُ الخطيب في «الإحَاطَةِ» : إنَّه كانَ أعمى ، شديدَ القِحَة والشَّرِّ ، مَعْروفاً بالهِجَاء ، مُسَلَّطاً على الأعراضِ ، سريعَ الجوابِ ، ذكيَّ الذِّهْن ، فَطِناً للمعاريض ، سَابقاً في ديوانِ الهجاء ، فإذا مَدحَ ضَعُفَ شعْره[2] .

* قال أبو الحسنُ بنُ سُعيد ، في كتابه المسمّى بـ«بالطَّالع السَّعيد» : قدمَ المخزومي الأعمىٰ علىٰ غَرناطَة أيّامَ ولايةِ أبي بكر بن سُعيد ، ونزلَ قريباً منه ، وكان يَسْمعُ به؛ فقال : صاعقةٌ يُرسِلُها الله عزَّ وجلَّ علىٰ مَنْ

= هجّاء ، وولعَ بهجاءِ الزُّبير الملثّم صاحبِ قرطبةَ ، فمن ذلك قوله :

عكَفَ الزّبيرُ علىٰ الضّلالةِ جاهداً ... ووزيــرُه المشهــورُ كَلْــبُ النَّــارِ
مـا زالَ يـأخـذُ سجـدةً فـي سَجـدةٍ ... بيــنَ الكــؤوس ونغمــةِ الأوتــارِ
فـإذا اعتـراهُ السَّهـو سبَّـح خلفـه ... صــوتُ القيــان ورنّــةُ المــزمــارِ

(المغرب ٢/ ١٢٧ و١٢٨) .

(١) انظر ذلك في المغرب (١/ ٢٢٨ ـ ٢٣١) ، ومنْ ذلك ما ذكَرهُ ابنُ سعيد قال : وجَدتُ بخطِّ والدي محمّد : ومنْ نسيبِ المخزومي على قِلّته قوله :

ربّ حَسْنــاءَ كــالغَــزالــةِ جِيْـداً ... والتفــاتــاً تُــزري بحــورِ الخُلُــودِ
كلّمتْنــي فطــارَ قَلبــي إليهــا ... وتــرجَّيْــتُ للظّمــاء ورودي
فتجـافَـتْ عـنْ منظـري ثـمَّ قـالَـتْ ... أَتُــرىٰ الحــورَ واصــلاتِ القُــرودِ
لَـم أَلُمْهَـا علـىٰ الصُّـدودِ لأنّـي ... كنــتُ أهــلاً مــنْ مثلِهـا للصُّـدودِ

قال : ولم يَخْلُ في هذا منَ الهجاءِ ، ولكنْ لنفسِهِ .

(المغرب ١/ ٢٣١) .

(٢) انظر : الإحاطة في أخبار غرناطة (١/ ٤٢٤) .

يشاءُ منْ عبادِه؛ ثمَّ رأىٰ أنْ يبدأَه بالتّأنيسِ والإحسانِ ، فاستدعاهُ بأبياتٍ منها:

يَـا ثَـانيـاً للمعَـرِّي فـي حُسْـنِ نَظْـم ونَثْـرِ
وفَـرْطِ ظَـرفٍ ونُبْـلٍ وغَـوْصِ فَهْـم وفِكْـرِ
صِـلْ ثـمَّ واصِـلْ حفيّـاً بِكُـلِّ شُكْـرٍ وبَـرِّ
وَلَيْـسَ إلاّ حـديـثٌ كَمـا زَهَـا عقْـد دُرِّ
وَشَـادنٌ قـد تُغَنّـي علـى ربـابٍ وزَمْـر

ووجَّه لهُ الوزيرُ أبو بكر بنُ سُعيد عَبْداً صَغيراً قَادَه ، فلما استقرَّ بهِ المجلسُ ، وأفعمته روائحُ النّدِ والعودِ والأزهارِ ، وهزَّتْ عِطْفَه الأوتَار ، جادَتْ قريحتُه، فأنْشَأَ أبياتاً في ذلكَ المكانِ الأنيقِ المعنبَرِ المعطَّر فقالَ:

دارُ السُّعيديّ ذي أمْ دارُ رِضْوان مَا تَشْتَهي النَّفْس فيْها حَاضِرٌ دانِ
سَقَتْ أبارقُها للندّ سُحْبَ ندىً تَحـدو بـرعـدٍ لأَوتـارٍ وألحـانِ
وَالبرقُ منْ كُلِّ دَنٍّ سَاكبٌ مَطراً يَحيَـا بـهِ مَيْـتُ أفكـارٍ وَأَشْجـانِ
هَـذا النَّعيـمُ الـذي كُنّـا نُحَـدَّثَه ولا سَبيـلَ لَـهُ إلاّ بِـآذَانِ

فقالَ له أبو بكر بنُ سعيد: وإلىٰ الآن «ولا سبيلَ لَهُ إلا بآذانِ» يعرِّضُ بالمخزوميّ لكونهِ أعمىٰ.

فقالَ المخزوميُّ في غضبٍ وحدّةٍ ودون خَجلٍ منَ الوزيرِ: حتَّى يبعثَ اللهُ وَلَدَ زِنى كلّما أنشدت هذهِ الأبياتُ؛ قال: وإنَّ قائلها أعمىٰ ، فقالَ الوزير: أمّا أنا فلا أنطقُ بحرفٍ في ذلك.

فقالَ المخزوميّ: مَنْ صَمَت نَجا.

* وكانتْ نزهونُ بنتُ القُلاعي حاضرةً في ذاكَ المجلسِ الأنيقِ ، وسمعتْ ما دارَ بينَ الوزيرِ ابنِ سُعيد وبين الأعمىٰ المخزوميّ ، فتوجَّهتْ إلىٰ المخزوميّ وقالتْ له في تعريضٍ واضحٍ: ونراكَ يا أستاذُ قديمَ النَّغْمةِ

بمجمر ندّ ، وغناءٍ ، وطيّب شَراب ، تتعجّب منْ تأتيهِ ، وتشبّهه بنعيمِ الجنّة ، وتقولُ ما كان يُعْلَم إلا بالسَّماع ، ولا يُبلغُ إليه إلا بالعيان؛ لكن مَنْ يجيء من حِصْن المدوّر[1] ، وينشأُ بين تيوسٍ وبَقَر ، منْ أينَ له معرفة بمجالسِ النَّغم والنَّعيم؟!

* فلما استوفتْ نزهونُ كلامَها ، أطرقَ الأعمىٰ المخزوميّ ، فقد سَمِعَ صوتَ أنثى لم يسمعْه قَبْلَ الآن؛ ثمّ إنّه تَنْحَنح ، فقالت له نزهون في سخريةٍ: ذَبْحَة ، وأشارَ الوزير إليها فقالت: دَعْه.

فقال المخزوميُّ في تساؤلٍ: مَنْ هذه الفَاعلة التي غَشِيَتْ هذا المجلسَ الأنيقَ؟!!

فقالت نزهونُ في سخريةٍ فيها تعريضٌ بالمخزوميّ وأمّه: عجوزٌ مقامَ أُمِّك.

* ولكنَّ الأعمىٰ المخزوميَّ ما كانَ لتفوتَه نبرةُ نزهون التي تشيرُ إلى صِبَاها ، فقال لها في بذاءةٍ: كَذَبتِ ، ما هذا صوتُ عجوزٍ ، إنّما هذه نَغْمة. . . . . . عاهرة محترفة تُشَمُّ روائحُ الزّنى منها على فَرسخ.

* فقالَ لهُ أبو بكر بنُ سُعيد وقد أحبَّ أنْ يقطعَ دابِرَ هذه المُلاحَاةِ والمهاترةِ والبذاءةِ منْ مجلسهِ: يا أستاذُ هذه نزهونُ بنتُ القلاعي الشَّاعرةُ الأديبةُ ابنةُ غَرناطةَ وأديبتها.

* فقالَ المخزوميُّ في غَضَبٍ شديدٍ وكلامٍ بذيءٍ: سمعتُ بها ، لا أسمعَها اللهُ خيراً ، ولا أَراها إلاَّ. . .[2]

---

(١) «حصنُ المدور»: بلد الشّاعر المخزوميّ ، والنسبةُ إليها مدوري ، والمدوّرُ بلدة أندلسيّة تقع شمال شرقي قرطبة على مقربة من المدينة الملكيةِ Ciubadreal الحديثة.

(٢) ذكر الأعمى المخزومي هنا كلمةً بذيئةً توافقُ سَجْعَةَ الجملةِ السَّابقةِ، ورأينا حَذْفَها.

* هنالك قالتْ نزهونُ للمخزوميّ: يا شيخَ سوءٍ تناقَضْتَ، وأيّ خيرٍ أفضلُ للمرأةِ مثلَ ما ذكرتَ.

* ثمّ إنَّ المخزوميَّ هدأَ قليلاً، وفكَّر ساعةً، فَهداهُ تفكيرهُ إلى هجاءِ نزهونَ، وأعْمَلَ ذاكرتَه حيثُ جابَتْ أشعارَ المشارقة، فَمرَّ بذي الرّمّة، ثمّ المتنبّي، فإذا به يَسْطُو على شعرِهما، ومن ثمَّ يستوحي منه ما يبلّ به صَدى نفسهِ الظَّمأَىٰ إلىٰ الهجاءِ والقَذْفِ، ومن ثمَّ أَنْشَأَ يقولُ:

عَلى وَجْهِ نَزْهُونٍ مِنَ الحُسْنِ مسحَةٌ ... وَإِنْ كانَ قَدْ أَمْسىٰ مِنَ الضَّوءِ عَارِيا[1]
قَـواصِـدُ نَـزْهـونٍ تَـوارِكُ غَيـرِهـا ... وَمَنْ قَصَدَ البَحْرُ اسْتَقَلَّ السَّواقيا[2]

* وتتصدّىٰ نزهون للأعمىٰ المخزوميّ، فهي قادرةٌ علىٰ مضارعةِ

---

(١) أخذَ الأعمىٰ المخزومي معنىٰ هذا البيت منْ قصيدةٍ لذي الرّمّة وهو:
علىٰ وجْهِ ميٍّ مِسْحَةٌ منْ مَلاحَةٍ ... وتحتَ الثّيابِ العَارُ لو كانَ باديا
وبعده:
أَلَـمْ تـرَ أنَّ المَـاء يخبـثُ طَعْمُـه ... وإنْ كـانَ لـونُ المـاءِ أبيـضَ صَـافِيـا
فَوَاضَيْعَةَ الشِّعْر الذي لجَّ فانتضىٰ ... بمـيٍّ ولـمْ أملـكْ ضـلالَ فـؤادِيـا
(٢) وهذا البيتُ استوحاه الأعمى المخزومي من بيتٍ لأبي الطّيِّب المتنبّي من قصيدةٍ شهيرةٍ يمدحُ بها كافوراً الإخشيديّ ومطلعُها:
كفىٰ بكَ داءً أنْ ترىٰ الموتَ شَافيا ... وَحْسـبُ المنَـايـا أنْ يكُـنَّ أَمَـانيـا
وفيها هذا البيت:
قـواصـدَ كـافـورٍ تـوارِكَ غيـرِه ... ومَـنْ قَصَـدَ البحـرَ استقـلَّ السَّـواقيا
وبعده:
فجـاءَتْ بنـا إنسـانَ عيـن زمـانِـه ... وخلّـت بيـاضـاً خَلْفَهـا ومـآقيـا
ومنها:
إذا كسبَ النّاسُ المعاليَ بـالنّدى ... فـإنّـك تُعطـي فـي نـداكَ المعـاليـا
وغيـرُ كثيـرٍ أنْ يـزورَك راجـلٌ ... فيـرجـعَ ملكـاً للعـراقيـن وَاليـا
أنشدها كافوراً أول اتصاله به. انظر ديوان المتنبي طبعة عزام (ص ٤٣٩) والواحدي (ص ٦٢٣) والعكبري (٤/ ٢٨١).

شعرهِ بشعرٍ أكثر بذاءة ـ وإنْ كانَ المجلسُ فيهِ مَنْ فيهِ منَ الكبراءِ والأعيانِ والشُّرفَاءِ ـ وتستطيعُ أنْ تثأرَ لكرامتِها الجريحةِ التي دبَّجها هذا الأعمى ولفَّقَها من بيتَي شاعرين ، وظنَّ أنَّه قَدْ أصَابَ منْ نزهون مَقْتلاً ، لكنَّها أعملتْ فِكْرها ثمّ أنشدتْ أبياتاً منْ نَظْمِها برهنَتْ من خلالِها علىٰ مقدرتها الشِّعريةِ في كل فنٍّ منَ الفُنون ، حتى الهجاء فقالت:

قُلْ للوَضيْعِ مَقَالاً يُتْلىٰ إلىٰ حين يُحْشَر
مِنْ المدوَّر أُنْشِئْـ ـتَ والخَرَا مِنْهُ أَعْطَر
حَيثُ البَداوةُ أَمْسَتْ في أَهْلِها تَتَبخْتَر
لِذَاكَ أمْسَيتَ صبّاً بكُلِّ شَيءٍ مُدَوَّر
خُلِقْتَ أَعْمىٰ وَلَكِنْ تَهيمُ في كُلِّ أَعْوَر
جَازَيتُ شِعراً بِشعْرٍ فَقُلْ لي لعمري مَن أَشْعَر
إنْ كنْتُ في الخَلْقِ أُنْثى فَإنَّ شِعْري مُذَكَّر

ويظهرُ أنَّ الأعمىٰ المخزوميَّ لم يرعَوِ عن غيِّهِ وفجورِه وبذاءةِ لِسَانِه، وإنَّما صَبَّ في أسْمَاعِ نزهون وأسماعِ الحاضرين بيتَيْن أَفْحشَ بهما ومزَّقَ عرضَهَا ، وأنشدَ يهجوها مُستوحياً من قصيدةٍ لأبي العتاهية وقال: اسمعي يا نزهون:

أَلا قُلْ لنزهونَةَ مَالَها تجُرُّ مِنَ التّيْهِ أَذْيالَها
وَلَوْ أَبصَرتْ فيْشَةً شمَّرتْ كَما عوَّدَتْني سِرْبَالَها

* لكنَّ نزهونَ امرأةٌ صَقَلَتْها المواهبُ الأدبيّةُ ، وهذَّبَتْها مجالسُ الكُبراء ، فلم تقذعْ في الرَّدِّ عليه مع مقدرتها عليه ، وإنّما أنشدتْ فيهِ أبياتاً فيها روائحُ الهِجاء ، بيد أنَّها ليستْ ساقطةَ المعنىٰ ، رديئةَ اللفظِ ، وَرَدَّتْ عليه تقول:

إنْ كَانَ مَا قُلْتَ حَقّاً مِنْ بعضِ عَهْدٍ كَريمِ
فَصَارَ ذكْري ذميماً يُعْزىٰ إلىٰ كلّ لومِ

وَصِــــرْتُ أَقْبَــــحَ شَــــيءٍ مِــــنْ صُــــورَةِ المخـــزُومـــي

* ورأىٰ أبو بكر بنُ سعيد أنَّ هذهِ الملاحاة والمهاجاة والمهاترة لا تنتهي ، فلا الأعمىٰ المخزوميّ يقلعُ عن غَيّهِ ، ولا نزهونُ تتركُ له ميدانَ الهجاءِ يصولُ فيه وحدَه ويجولُ ويطلبُ الطَّعْنَ وحْدَه والنّزال؛ هنالك أَقْسَم بألّا يزيدَ أحدهما على الآخر في هجوه كلمة ، أو لفظة تخدشُ المشاعرَ في مجلسِه.

* فقال المخزوميّ: أيّها الأميرُ ، أكونُ هجّاءَ الأندلسِ وأكفُّ عنها دون شيءٍ؟! هذا لا يكونُ أبداً.

فقال أبو بكر بنُ سُعيد: أنَا أشْتَري منْكَ عِرضَ نزهون فَهلْ أنتَ فاعل؟

قالَ المخزوميُّ: نعم أيّها الأميرُ.

قال: فاطْلُبْ ما تريد.

فقال المخزوميُّ: بالعبدِ الذي أرسلتَه إليَّ فقادَني إلىٰ منزلك ، فإنّه ليّنُ القَدِّ ، رقيقُ الملمسِ.

فقال أبو بكر بنُ سُعيد: لولا أنَّه صغيرٌ كنْتُ أبلغكَ بهِ مُرادَك وأهَبَه لكَ.

فقال المخزوميّ وقد فَطِنَ لقصدِه: أصبْرُ عليه حتى يكبُـرَ ، ولو كانَ كبيراً ما آثرتني به علىٰ نَفْسِك.

فضحكَ أبو بكر بنُ سُعيد وقال للمخزوميّ وقد فَطِنَ لخبثهِ: قد هجوتَ نثراً وإنْ لم تهجُ شعراً.

فقال المخزوميُّ: أيّها الوزيرُ ، ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾ [الرُّوم: ٣٠].

* ثم إنَّ الوزيرَ أبا بكر بن سعيد وهَبَ المخزوميَّ العبد الصَّغير ،

فانفصلَ به المخزومي ، وخرجَ فَرحاً مَسْروراً بعد أنْ أَصْلَح ما بينه وبين نزهون شاعرة غَرناطة وأديبتها[1] .

* وإنْ صحَّتْ هذه المُسَاجَلاتِ بين نزهونَ والأعمى المخزوميّ ، فإنَّ هذا منْ أجملِ المناظراتِ والمحاوراتِ في أدبِ الأندلسيّات .

صُـوَرٌ وشَـذَرَاتٌ مِـنْ طَـرَائِـفِهَـا :

* حفلتْ بعضُ المصادرِ بذكْرِ نوادرِ نزهونَ التي تدلُّ على رشَاقَةِ معانيها ، وخفَّةِ روحها ، وجمالِ ذكائِها ، ومنْ تلكم النَّوادر اللطيفة ، ما حَدثَ أمامَ الأعمىٰ المخزوميّ ، حيثُ إنَّ الوزيرَ أبا بكر بنَ سعيد قد أصلحَ ما أفْسَده الهجاءُ بين نزهونَ والمخزوميّ ، وأضحتِ العلاقاتُ ودّية لا تخرجُ عن حدِّ الآدابِ العامّة ، بل إنّها تتلمذَتْ عليهِ وقرأتْ بين يديه .

* فقـد رُوي أنَّ نزهـونَ بينما كانت تقـرأُ علىٰ الأعمىٰ المخزوميّ ، إذ دخَــلَ عليهمـا أبـو بكـر الكُـتَـنْـدي[2] الشَّـاعـر ، فقـال يخـاطـبُ

---

(١) انظر: الإحاطة (١/ ٤٢٤ ـ ٤٢٧) ، ونفح الطّيب (١/ ١٨٠ ـ ١٨٣) و(٦/ ٧٥ و٧٦) ، والمغرب (١/ ٢٢٨) مع الجمع والتصرّف. ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنّنا قَدْ آلفنا بينَ الأخبارِ وجَمعْنا بينَ القَصصِ حتى أصبحت القصّة بالشّكلِ الذي قرأْناه.

(٢) «الكُتَنْدي»: أبو بكر محمّد بنُ عبد الرحمن الكُتنديّ. قال ابنُ سعيد: قال والدي: هو من نبهاءِ شعراءِ عَصْره ، سكَنَ غَرناطة ، وانتفعَ به مَنْ قَرأَ عليه مِنْ أهلها ، ولازَمَها حتى حُسِبَ من شُعرائِها؛ وكان أهلُ غَرناطة يستحسنونَ قولَه في مَطْلَع قِصيدةٍ رثىٰ بها عثمان بنَ عبد المؤمن ملكها:

يَــذْهَــبُ المُلْــكُ ويبقــىٰ الأَثَــر ... هــذِهِ الهــالَــةُ أيــنَ القَمــر

ومن مُسْتَعْذَب شِعْرِه قولُه:

هـذا لسـانُ الـدَّمـع يُملـي الغَـرام ... فــي صفحــةٍ أثَّــر فيهــا السَّقَــامْ
فهـل يُمـاري فـي الهـوىٰ مُنكـرٌ ... والبــدرُ لا يُنكَــرُ حيــنَ التَّمــامْ
عَهْـدٌ لهنـدٍ لـم يكـنْ بـالـذي ... تَقْــدحُ فيــه نَفَثــاتُ المــلامْ
لله يــومٌ منــه لــم أَنْسَــه ... وذكــرُ مــا أولاهُ أَوْلَــى ذِمــامْ
إذ هنـدُ غُصْـنٌ بيـن أغصـانِها ... كــالـدَّوحِ يَثْنِيــه هــديــلُ الحمــامْ=

المخزوميّ: أَجِزْ: لو كُنْتَ تُبْصِر مَنْ تُكَلِّمُه.

فأفحمَ الأعمىٰ ولم يُحِرْ جَواباً، وأطالَ يفكِّرُ، بَيْدَ أنَّ فِكْرَهُ لم يسعفْهُ بشيءٍ، فقالتْ نزهونُ علىٰ الفور:

لغَدوتَ أخرسَ مِنْ خَلاخِلِه

البدرُ يَطْلعُ مِنْ أزرّتِهِ والغصنُ يَمْرحُ مِنْ غلائِلِه[1]

وبهذِه الرِّقَةِ والدِّقَّةِ كانتْ نزهونُ ذاتَ بديهةٍ سريعةٍ، ولطفٍ في إتمام المعنى، وبزَّتْ أستاذَها بهذِه الإحاطة الشِّعرية المُشْرقة، حيث وصفَتْ نفسها بالبدرِ، ووشَّتْ شَكْلَها علىٰ الجَمال والسِّحْر والأنوثةِ اللطيفةِ.

* ومنْ أنباءِ نوادرِ نزهون مع شعراءِ عَصْرها، ما حَدثَ بينها وبين الشَّاعر الزَّجَّال المُفْلِق ابن قزمان[2] الذي كادَ يضربُها ويبطشُ بها لولا أنْ تصدَّىٰ له الحاضرون ودفعُوه في بركَةِ ماء.

* فقد ذكَرَ المقّري ـ رحمه الله ـ في «نفحِه» قصَّة ذلك، ومفادها

= يا هندُ يا هندُ ألا عطفَةً أمَا لهذا الصَّرم حينَ انصرامْ

(المغرب ٢/ ٢٦٤ و٢٦٥) بتصرف.

(١) انظر: المغرب (٢/ ١٢١)، ونفح الطِّيب (٦/ ٧٧)، وشاعرات العَرب (ص٤٤٨) مع الجمع والتصرّف. وانظر: الإحَاطة (٣/ ٣٤٤ و٣٤٥)، ورايات المبرزين (ص ١٥٩ و١٦٠).

(٢) «ابنُ قزمان»: أبو بكر محمّد بنُ عيسى بن عبد الملك بن قزمان الأَصْغر، إمامُ الزَّجّالين بالأندلس. كان في أوّلِ شأْنِهِ مُشْتَغِلاً بالنَّظم المُعْرَب، فرأىٰ نَفْسَه تَقْصُر عنْ أفرادِ عَصْرِهِ كابن خفَاجَة وغيره، فعمدَ إلىٰ طريقةٍ لا يمازجُه فيها أحدٌ منهم، فصارَ إمامَ أهلِ الزَّجَل المنظومِ بكلام عامّة الأندلس.

ومن شعره على طريقة المُعْرَبِ قولُه وقد رقَصَ في مجلسِ شربٍ، فأطفأَ السِّراج بأكمامه:

يا أهلَ ذا المجلسِ السَّامي سَرَارتُه ما مِلْتُ لكنّني مالتْ بيَ الرَّاحُ

فإن أكُنْ مُطفِئاً مصباحَ بيتكمُ فكلُّ مَنْ قَدْ حواهُ البيتِ مصباحُ

(المغرب ١/ ١٠٠).

أنَّ ابنَ قزمان قد التقىٰ نزهونَ القُلاعيـة الأديبة وهو ينشدُ ارتجالاً إحدىٰ بدائِعه ، أو موشحاتـه أمامَ الوزيـرِ أبي بكر بنِ سُعيد ، وكان إذ ذاك يلبسُ غفارةً صفراءَ ـ على زيّ فقهاء الأندلس عَصْر ذاك ـ ، وكان قبيحَ المنظرِ ، وأعجبَ الحاضرونَ بإنشـادِهِ البديعِ ، بينما انبعثَتْ نزهونُ ترسمُه في صورةٍ ساخرةٍ ساحرةٍ ، فقالتْ له في نغمةٍ مشحونةٍ بالدّعابةِ والظَّرفِ: أحسنتَ يا بقرةَ بنـي إسرائيل ، إلاّ أنَّك لا تَسُرُّ النَّاظرين[١] .

* وانفجرَ بالضَّحك مَنْ كانَ حاضِراً ، ولكنَّ ابنَ قزمان شعَر بالإحباطِ ، فتصدّى لها وقال يخاطبها في غَضَبٍ شديد: إنْ لم أسرَّ النَّاظرين ، فأنا أسرُّ السَّامعين ، وإنما يُطْلَبُ سرورُ النَّاظرين منك يا فاعلة يا صانعة . . . .

* وتمكَّنَ الشَّرَابُ منْ ابنِ قزمان ، وكادَ يبطشُ بنزهونَ ، فآلَ الأمْرُ إلىٰ أنْ تدافعُوا معه حتّى رَمَوْه في البِرْكَةِ ، فما خرجَ إلا وهو قد شَرِبَ كثيراً مِنَ الماء ، وثيابه تَهْطُل ممّا عراهُ مِنَ البَللِ؛ فقال: اسمعْ يا وزير ، ثمَّ أنْشَد ثلاثة أبيات عرَّضَ فيها بنزهون ونَالَ منْ عرضها فقال:

إيـهٍ أَبـا بكْـرٍ ولا حَـوْلَ لـي   بِـدَفْـعِ أَعيـانٍ وأَنْـذَالِ
وذاتِ فَـرْجٍ وَاسـعٍ دَفـقٍ   بـالمـاءِ يحكـي حَـالَ أَذيـالـي
غـرّقْتَنِـي فـي المَـاءِ يَـا سيّـدي   كَفِّـرْه بـالتَّغـريـقِ فـي المَـالِ

* وأمرَ الوزيرُ بتجريدِ ثيابه، ثم خَلَع عليهِ ثياباً أخرىٰ تليقُ بهِ، ومنْ ثمَّ حَمَى أبو بكرٍ عِرضَ نزهون منْ ابنِ قُزمان الذي لم ينتقلْ من غَرناطَة إلاّ

---

(١) اقتبست نزهونَ هذا المعنى منَ القرآن الكريم حيثُ تشيرُ إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٦].

منْ بَعْدِ ما أجزلَ له الإحسان ، وبذلك دفع ضرَّ لسانه عن نزهونَ بكثرةِ العَطَاء والمالِ[1].

مِـنْ نَـوادِرِهَـا مَـعَ الـثُّـقَـلاءِ:

* الثّقلاءُ مذمومون في كلِّ عَصْرٍ ومصْرٍ ، لا تحتملهُم الأرواحُ والنُّفوسُ ، وقد جاءَ ذمُّهم في كُتُب الأدب قديمها وحديثها ، حتى إنّ كثيراً منَ المصنّفين ألَّف كُتُباً في ذمّهم ، وذمِّ مجالستهم ، وذكروا في ذلك قَصَصاً طريفةً مُسَليةً.

* وقد كان لنزهون بعضُ النَّوادِرِ الطَّريفة مع الثُّقلاء ، ذكروا أنَّه رآها أحدُ الثَّقلاء ، فراقَتْ في عينيه ، ورقَّتْ ألوانُ العذَابِ أمام ناظريه ، فقد فتنتْه بحديثِها لمّا رفعَ الطَّرفَ إليها ، وأبصرَ جمالَها ، فقال لها: ما علىٰ منْ أكلَ معكِ خمسمئة سَوط؟! ـ يعني أنَّه يتحمَّل ألوانَ العذابِ ما دام بقُربها ـ إلاّ أنّها كَرهَتْ منه هذه السَّماجَة ، وذاك المنطق الثَّقيل ، فوصفَتْه بالشَّقاء ، وأجابته بما أفحمَه وجَعله يخجلُ ، وعبَّرتْ عن مشاعرِها الأنثوية فقالت:

وَذِي شِقْـوةٍ لمّـا رآنـي رَأىٰ لَـه ... تَمنّيه أنْ يَصْلىٰ معي جَاحِم الضَّربِ
فَقُلْـتُ لـه كُلْهَـا هَنيئـاً فَـإنَّمـا ... خلِقْت إلى لبْس المطارفِ والشُّربِ[2]

* ومن نوادرِ نزهون النَّادرة ـ وكانت سريعةَ البديهةِ حاضرةَ الجوابِ ـ ما وردَ منْ أنَّه خطبَها رجلٌ ، وكان بَشِعاً دميمَ المنظر ، قبيحَ الصُّورة ، وقد ذكر أنَّ حبَّه لنزهونَ هو الذي قادَه إلى خطبتها ، ولكنَّ نزهونَ الغرناطيةَ تمسخُ هذا الخاطب ، وتسخرُ منه ، وتظهِرُ معايبه ، وتنعىٰ

---

(١) انظر: نفح الطيب (٦/ ٧٦) ، والمغرب (٢/ ١٢١) ، والإحاطة (٢/ ٥٠٤ و٥٠٥) مع الجمع والتصرف اليسير.

(٢) انظر: نفح الطَّيب من غصن الأندلس الرَّطيب (٦/ ٧٦) بشيء من التَّصرُّف. وانظر: نزهة الجلساء (صٌ٧٦) ، وشاعرات العرب (ص ٤٤٩).

عليه آماله ، وتتمنّى أنْ يتخذَ البُرقع كيلا يؤذيَ الآخرين بسوءِ طلعتهِ ، ووحشَةِ منظرِه فتقولُ:

عـذَيْـري مـنْ عـاشـقٍ أَنْـوَكٍ سَفيـهِ الإِشَـارَةِ وَالمنْـزَعِ
يَـرُومُ الـوصَـالَ بمـا لـو أتـىٰ يـرومُ بـهِ الصَّفْـعَ لـم يُصْفَـعِ
بِـرأسٍ فَقيـرٍ إلـىٰ صَفْعَـةٍ وَوَجْـهٍ فقيـرٍ إلـىٰ بـرقُـعِ[1]

شَـاعِـرَةُ المُوشَّحَـاتِ:

* منذُ أواخرِ القرنِ الثَّالثِ الهجريّ ، وحتى نهايةِ العَصْر الغَرناطيّ ، وعلى مدىٰ ستّةِ قُرون تقريباً ، شهدتِ الأندلسُ أكبرَ حركةٍ منْ حركاتِ التَّجديد في تاريخِها الأدبيّ ، حيث استوحىٰ الشُّعراءُ والأدباءُ منَ المسمّطات الشَّرقية فنّاً جديداً منْ فنونِ الشِّعْر الدَّوري هو فنُّ الموشّح ، ومضتِ القريحةُ الأندلسيّةُ ترعىٰ هذا الفَنَّ الناشىءَ وتعملُ على توطيدِ أركانهِ ، حتى استوىٰ على سُوقه ، وجعلتْ منْه فنّاً مستقلاً له قواعدُه وأصولُه ، وبالتّالي انتشرَ فنُّ الموشّحات في أنحاءِ الأندلسِ والمغربِ.

* وعلىٰ الرغمِ من إعجابِ الخواصِّ وكذلك العامّة بالموشّحات ، وعلى الرغمِ من شيوعها وذيوعها في مجالسِ الأدبِ ، فإنَّ علماءَ الأندلسِ وأدباءَها لم يعنوا بتسجيلها منذ نشأتها ، بل اكتفىٰ المعجبونَ بها بالإشارةِ إلى كِبار الوشَّاحين ، والتَّباهي بأنّها اختراعٌ أندلسيّ.

* وهذا الإعجابُ قد أدّى إلى ضَياع كثيرٍ منَ الموشّحات الأندلسيّة في عَصْر نشأتِها ، ولعلَّه لم يبقَ منها إلاّ ما حفظتْه الرِّواية الشَّفوية ، وكان نصيبُ النِّساء قليلاً في فنّ الموشّحات ، وقد عثَرنا على موشحةٍ جميلةٍ لنزهونَ ربما توضّح صورتَها الفنيّة والأدبية أكثر من ذي قبل.

---

(١) انظر: بغية الملتمس (ص ٥٤٦) ، وشاعرات العرب (ص ٤٤٩) ، ومعجم الأديبات الشواعر. ومعنى «الأنوك»: الأحمق. و«المنزع»: النزوع إلى غاية. و«يروم»: يريد.

* وهذه الموشحةُ النّزهونية ذاتُ قالبٍ غزلي طريف ، فيه ما فيه من رقّةِ المعنى ولطافَةِ الأسلوب ، والتموّج بين عاطفة الحبّ والجوىٰ ووصفِ المحبوب والدُّعاء له ، ولنْ أذهبَ بجمالِ الموشّحة ، فلنستمعْ إلى نزهونَ وهي تشدو موشحتها :

بأَبي مَن هَدَّ مِنْ جسْمِي القُوَى	طَـــرفُـــه الأَحْـــوَرْ
مَـرَّ بـي فـي ربـربٍ مـنْ سِـرْبِـهِ	يَقْطِـــفُ الـــزَّهْـــرَا
وَهْـوَ يَتْلـوُ آيـةً مـنْ حِـزْبِـه	يَبْتَغـــي الأَجْـــرا
بَعْـدمـا ذكَّـرنـي مـنْ حُبِّـه	آيـــةً أُخْـــرىٰ
والّـذيْ لَـو شَـاءَ مـا ذكَّـرنـي	بَعْـــدَ نِسْيَـــانـــي
قلَّبَ القَلْبَ علىٰ جَمْر الغَضَا	فَهْـــوَ فـــي شَـــانِ
حَفِـظَ اللهُ حَبِيْبـاً نَـزَحـا	خَشْيـــةَ الهَجْـــرِ
جَـاءَتِ البُشْـرىٰ بـه فـانْشَـرحَـا	عنْـــدهَـــا صَـــدْري
واسْتَطـارَ القَلْـبُ منّـي فَـرِحـا	ثـــمَّ لا أَدْري
أَمِـنَ الإنْـسِ الـذي بشَّـرَنـي	أمْ مـــنَ الجَـــانِ
غَيْـرَ أنَّـي شِمْـتُ بـرقـاً أَوْمَضـا	حيـــنَ حيَّـــانـــي
لـم تَـزَلْ تُظْهِـرُ فِيـهِ الكَلَفَـا	عِنْـــدَمـــا غَنَّـــتْ
غَـادَةٌ لـو رَامَ منْهـا النَّصفَـا	غيـــرُهُ ضَنَّـــتْ
فَهْـوَ يَهْـواهـا ويُبْـدي الصَّلَفَـا	فَلِـــذَا غَنَّـــتْ
يَتمنَّـانـي هـوَ إذا لـم يَـرَنـي	يَتَمنَّـــانـــي
فَـإِذَا رَآنـي تـولّـىٰ مُعْـرِضـا	كَـــنٌّ مَـــا رانـــي[1]

كَلِمَةُ وَدَاع :

* قبلَ أنْ نودِّع نزهون الغَرناطية ، ونلتقي امرأةً أندلسيةً أخرى ، نودُّ

---

(١) انظر : ديوان الموشحات الأندلسية (١/ ٥٥١ و٥٥٢).

أنْ نَعرِضَ صورةً رقيقةً لغزلها الذي يستولي على المشاعرِ ، فقد كان غزلُها تسجيلاً حيّاً لوقائع لقائها مع مَنْ تحبّ ، ويبدو أنَّ هذا الغَزلَ منْ نوع خاصّ ، إذ أحبَّتْ أنْ تدلي دلوَها فيه ، لتظهرَ موهبتها الخصبة التي تصلُحُ لكلّ فنونِ الشّعر ، فهاهي تسجِّلُ لقاءً طريفاً تستخدمُ فيه أسلوبَ التَّصغير للتّحبيب، وإبرازِ الجمالِ بكلِ ألوانِه وأشكالِه، إنّها تصفُ ليلةً منْ ليالي الأحد، حيث غفلتْ عينُ الرّقيب وسَهَتْ، فلم تنظرْ إلى المحبين:

للهِ درُّ الليــالــي مــا أُحَيْسَنَهــا ... ومــا أُحْيسَــنَ منهــا ليلــةَ الأحــدِ
لو كُنتَ حاضِرَنا فيها وقد غَفَلَتْ ... عَينُ الرَّقيبِ فلمْ تنظرْ إلى أَحَدِ
أَبْصَرتَ شَمْس الضُّحى في ساعِدَي قَمَرٍ ... بل ريمَ خازمةٍ في سَاعديْ أَسَدِ[1]

* وبعد ، فتلكم هي نزهونُ بنت القلاعي الغَرناطيّة شاعرة غرناطة دونَ منازع ، ومنْ نساءِ المئة الخامِسَة اللواتي اشتهرن وعلا صيتُهنَّ ، قال عنها لسانُ الدِّين بنُ الخطيب[2]:

ومحاسنُها شهيرةٌ ، وكانتْ مِنْ غُررِ المفاخرِ الغَرناطية.

* هذا ولا نعرفُ بالتَّحديد متى ودَّعت نزهون الدُّنيا ، لأنَّنا لا نملك الأدلّة في ذلك ، كلّ ما نملكه أنَّها شَغَلَتِ النَّاس وملأتِ الدنيا ، وتركتْ أثراً وضيئاً في تاريخِ نساءِ المئة الخامسةِ في الأندلس ، وتركت أنداءً عطرةً من آدابها ما تزالُ آثاره تندّي أدب المرأةِ الأندلسيةِ على مرّ العُصور.

* * *

(١) نفح الطيب (٦/ ٧٨) ، وشاعرات العرب (ص ٤٤٨) ، و«الريم»: الظبي الخالص البياض.
(٢) الإحاطة (٣/ ٣٤٥).

ولّادة بنت المستكفي

* على الرغم مما قيل حولها ، فإنها شخصية مزعومة ، لا وجود لها !!!

* سيرة ولادة بنت المستكفي ضرب من الخيال ، وهي أقرب إلى الأسطورة منها إلى الواقع .

ولّادة بنت المستكفي

كَـوْكَـبُ الـسَّحَـر :

* هيَ كَوكبُ السَّحَر ، وضَوءُ القَمر؛ ارتبطَ جَمَالُ شِعْرِ النِّساءِ باسْمِها ، وفَتَنَتْ بذكائِها أدباءَ زمانِها ، وسَحَرتْ بحصافتِها وخفَّةِ ظلِّها شُعراءَ عَصْرِها ، وَرَدَّدَ النَّاسُ أشْعارَها ، وسَارعُوا إلى مُحاضَراتها ومسامراتِها ، وافْـتَـتَـنُوا في بديْهتِها وأدبِها ، وأعجِبُوا بِشِعْرها وتنوُّعِ ثـقَافتها .

* وهذه المرأةُ ـ كما زعموا ـ لم تكُنْ نكرةً بينَ النِّساءِ العربيّاتِ الأندلسيّات ، بل لم تكنْ مغمورةً عنْد النِّساء العربيّات المشرقيات ، فهيَ أميرةٌ حَسْناء ، جَمَعَتْ فتْنَة سِحْرِ القولِ ، إلى فتنةِ سِحْرِ الجمَال ، إذ كانت فاتنةً ساحرةً ، مليحةً جذَّابةً مَرِحَةً ممراح القلب ، خفيفةَ الظِّلِّ ، حلوة الرُّوحِ ، حصيفةً ذكيةً ، ناقدةً شاعرةً ، أديبةً ذُلّلْت لها قطوفُ البلاغةِ تذليلاً ، بصيرةً بالأساليب الشِّعرية ، متمكنةً منْ أسرارِ اللغةِ العربيّةِ ، حفظَ التَّاريخُ الأدبيُّ مقَامَها، واحتفظَ في خزائن ذَاكرتهِ كلامَها ، فهي منَ المُجلّينَ في حَلَبَةِ الأدبِ ، ومن المحلِّقينَ في سَماء الشِّعر .

* حظيتْ هذهِ المرأةُ بشُهْرةٍ واسعةٍ في مختلفِ العُصُورِ ، ممّا جَعَل ملوكَ الكلام ، وأمراءَ البيانِ في الأندلُس وغيرِها ، يتسابقونَ إلى تَسْجِيل أَخْبارِها ، تَلكمُ المرأةُ الشَّهيرةُ هي ولاَّدَةُ بنْتُ المْستكفي باللهِ محمّد بنُ

عبد الرّحمن بنِ عُبيد الله بن النَّاصر عبد الرحمن بنِ محمّد المروانيّ ، من بني أميّة بالأندلس(١) .

* وبأسلوبٍ رائقٍ ، ونظمٍ فَائِق ، تناولَ القُدماء سيرةَ ولاَّدة بالإعجابِ والافتتان ، والتَّقدير لآدابِها الحِسَان ، ففي كتابه «الصِّلَة» قال عنها أبو القاسم بنُ بشكوال: ولاَّدةُ بنتُ المستكفي بالله. . . أديبةٌ شاعرةٌ ، جَزْلةُ القولِ ، حَسَنَةُ الشِّعْر ، وكانت تمالِطُ الشُّعراء ، وتَساجِلُ الأُدباء ، وتفوقُ البُرعَاء(٢) .

ثمَّ يتابعُ ابنُ بشكوال حديثه عن ولادةَ فيقولُ: سمعتُ شَيْخَنا أبا عبد الله بنَ مكيّ(٣) ـ رحمه الله ـ يَصِفُ نباهتَها وفصاحتَها ، وحرارةَ

(١) المصادر والمراجع التي تحدثت عن ولادة كثيرة جداً ومنها: المطرب من أشعار أهل المغرب (ص ٧ ـ ١٠) ، ونفح الطيب (٥/ ٣٣٧ ـ ٣٤٣) ، والمغرب في حلى المغرب (١/ ٦٥ و٦٦ و١٤٣ و١٨٠) ، وقلائد العقيان (ص ٢٢٥ و٢٢٦ و٢٢٩ و٢٣٣ و٢٣٧ و٢٤١ و٢٤٥) ، والمعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص ١٠٨ و١٦٢ و١٦٣ و١٦٨) ، والذخيرة (١/ ٣٧٦) طبعة لجنة التأليف ، والذخيرة أيضاً (١/ ٤٢٩ ـ ٤٣٣) القسم الأول بتحقيق د. إحسان عباس ، وكذلك الذخيرة (١/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠) طبعة بيروت ، وبغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس (ص ٥٤٧) الترجمة الأخيرة رقم (١٥٩٨) ، والصلة (٢/ ٦٩٦) ترجمة رقم (١٥٤٠) ، والدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٥٤٥ ـ ٥٤٩) ، وسرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون الهزلية لابن نباتة المصري (ص ٢٢ ـ ٢٤) ، وتمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون الجدية لخليل بن أيبك الصفدي (ص ١١ ـ ١٥) ، وشاعرات العرب (ص ٤٧٨ ـ ٤٨٠) ، ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٤٨٦ ـ ٤٨٩) ، وتحفة العروس للتجاني (ص ٤٥٣ ـ ٤٥٥) ، وديوان ابن زيدون ، تحقيق علي عبد العظيم ، وطبعات أخرى كثيرة. وغير ذلك من المصادر والمراجع التي لا تحصى.

(٢) انظر: الصِّلة لابن بشكوال (٢/ ٦٩٦) ترجمة رقم (١٥٤٠).

(٣) جعفر بنُ محمّدِ بنِ مَكيّ بنِ أبي طالب بنِ محمد بنِ مُختار القيسيّ اللغويّ ، مِنْ أهل قُرطبةَ ، يكنىٰ أبا عبد الله . =

بادِرتها ، وجزالةَ منطقِها ، وقال لي : لم يكنْ لها تَصَاوُنٌ يطابِقُ شَرفَها . وذكَر لي أنَّها أَتَتْهُ معزِّيةً في أبيهِ إذ توفي ـ رحمه الله ـ سنّة أربعٍ وسبعينَ وأربعمئة ، وتُوفيت بعد سنةِ ثمانينَ وأربعمئة رحمها الله[(١)] .

* ونقلَ ابنُ دِحْيَةَ في «المُطرب» عنِ «الذَّخيرة» لابنِ بسَّام ما نصُّه : كانتِ الحسيبةُ ولاّدةُ في زمانِها واحدةَ أوانها حُسْنَ منظرٍ ومَخْبر ، وحلاوةَ مَوْرِدٍ ومَصْدر ، وكان مَجْلِسُها بقرطبةَ منتدىً لأحرارِ المِصْر ، وفناؤُها مَلعباً لجيادِ النَّظْمِ والنَّثْر ، يعشو أهلُ الأدبِ إلى ضوءِ غرّتها[(٢)] ، ويتهالكُ أفرادُ الشُّعَراءِ والكتّاب علىٰ حلاوةِ عِشْرتها ، إلى سهولةِ حجابِها ، وكثرةِ مُنْتَابِها ، تَخْلِطُ ذلكَ بعلوِّ نصَاب ، وسموِّ أَحْسَاب ، وطهارةِ أَثْواب[(٣)] .

= روىٰ عنْ أبيه محمَّدِ بنِ مكيّ ، ولَزِمَ أبا مروانَ عبدَ الملك بن سراجٍ الحافظ ، واختصَّ به وانتفعَ بصحبته . وقال لي : صَحِبْتهُ مدّةً منْ خمسةَ عشرَ عاماً أو نحوها ، وأخذتُ عنه معظمَ ما عنده ، وأجازَ له أبو علي الغسَّاني ما رواه.
وكان عالماً بالآدابِ واللغاتِ ذاكراً لهما، متفنّناً لما قيَّده منهما ، ضابطاً لجميعها ، عنيَ بذلك العنايةَ التّامّة ، وجمعَ منْ ذلك كُتباً كثيرةً ، وهو منْ بيئةِ علْمٍ ونباهةٍ وفَضْلٍ وجلالةٍ. وُلد بعد (٤٥٠ هـ) ، وتوفيَ في شَهْر محرّم سنة (٥٣٥ هـ) رحمه الله. (الصلة ٢/ ١٢٩) ترجمة رقم (٢٩٧) ، طبعة مكتبة الخانجي بالقاهرة.
(١) انظر : الصِّلة (٢/ ٦٩٦) ترجمة رقم (١٥٤٠) طبعة الدّار المصرية عام ١٩٦٦ م .
(٢) استمدَّ ابنُ بسَّام مَضْمُونَ هذه العِبَارة مِنْ قولِ الحُطيئة في مدحِ بغيض بنِ عامر :
متَى تأْتِهِ تعشُو إلى ضَوءِ نَاره ... تجدْ خيرَ نارٍ عنْدَها خيرُ موقدِ
وهي قصيدةٌ طويلةٌ جميلةٌ أوّلها :
أَثرتُ إدْلاَجي علىٰ لَيلِ حرّةٍ ... هضيمِ الحَشَا حُسَّانَةِ المتجرّدِ
ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ عبدَ الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ سمعَ رجلاً ينشدُ بيتَ الحطيئة :
متى تأْتِهِ تَعشو إلى ضوءِ نَارِه ... تَجدْ خيرَ نارٍ عندها خيرُ موقدِ
فقال : ذاكَ رسولُ اللهِ ﷺ! إعجاباً بالبيتِ ، يعني أنَّ مثل هذا المدح لا يستحقّه إلاَّ رسولُ اللهِ ﷺ.
(٣) المُطرب من أشعار أهل المغرب (ص ٨) نقلاً عن الذَّخيرة (١/ ٣٧٦).

* ونقلَ المقّريُّ في «نَفْحِهِ» عن ابن سُعيد في «المُغْرب» بَعْدَ ذِكْرِهِ ولاّدة فقال: إنّها بالغَربِ كعُلَيّةَ[1] بالشَّرقِ، إلاَّ أنَّ هذه ـ أي ولاّدة ـ تزيدُ بمزيةِ الحُسْنِ الفَائِق، وأمّا الأدبُ والشِّعرُ والنَّادرةُ وخفَّةُ الرَّوح فلم تكنْ تَقْصرُ عنها، وكان لها صنعةٌ في الغناءِ، وكان لها مجلسٌ يغْشَاهُ أدباءُ قرطبةَ وظرفاؤُها، فيمرُّ فيه منَ النَّادِر، وإنشادِ الشِّعر كثيرٌ لما اقتضاهُ عَصْرُها منْ مِثْل ذلك[2].

شَـذَرَاتٌ مِـنْ أَخْـبـارِ وَلاَّدَة:

* زَعَموا أنَّ ولادةَ ابنةَ المستكفي قد نَشَأَتْ في قرطبةَ؛ وقرطبةُ يومئذ مدينةٌ متألِّقَة[3] في كُلّ شيءٍ، فهيَ عاصمةُ الأندلسِ الأولى، وهي سيِّدةُ

---

(١) عُليّةُ بنتُ المهديّ أختُ الرشيد، اقرأْ سيرتَها في كتابِنا «نساء في قصور الأمراء» وما جَنَاهُ عليها المفترون.

(٢) نفح الطيب (٥/ ١٧٩)، ومن الجدير بالذكر أنَّ عَصْرَها عَصْرَ قلاقِلَ ومحن وثَورات.

(٣) كانتِ الدَّولةُ الأمويّةُ قبّةَ الإسْلام، ومَلاَذَ أعْلام الأنام، بها استقرَّ سريرُ الخلافةِ المروانيّة، وفيها تمخَّضَتْ خلاصةُ القبائلِ المعديّة واليمانية، وإليها كانت الرحلةُ في الرِّوايةِ، إذ كانتْ مركزَ الكرماء، ومعدنَ العُلماء، وهي منَ الأندلس بمنزلةِ الرّأْس منَ الجسد.
قالوا: وجَرَتْ مناظرةٌ بين يدي مَلِك المَغْربِ المنصورِ يعقوب، وبينَ أبي الوليدِ بنِ رشد، والرئيس أبي بكر بن زُهر، في المفاضلةِ بينَ قرطبةَ وإشبيليةَ، فقال ابنُ رشْد لابن زِهْر في تفضيلِ قرطبةَ: ما أدري ما تقولُ، غيرَ أنَّه إذا ماتَ عالمٌ بإشبيليةَ، فأريدَ بيعَ كتبهِ، حُمِلَتْ إلى قرطبةَ حتى تُبَاعَ فيها، وإذا ماتَ مطربٌ بقرطبةَ، فأريدَ بيعَ آلاتهِ، حُمِلَتْ إلى إشبيليةَ، وكانت قرطبةُ أكثرَ بلاد اللهِ كُتُباً. وكان بها مسجدُ الدَّاخل ـ الذي أصبحَ كتدرائية طولُها (٢٠٧ أمتار) وعرضُهَا (١٤٧ متراً)، وبها (٨٥٠ أسطوانة) منَ المرمرِ، ولها عشرونَ باباً، وست عشرة قبةً وبها الجسرُ الأكبرُ علىٰ النهر الأعظمِ الذي قيل إنّه بُني بأمْرِ الخليفة عمر بن عبد العزيز رحمه الله.
ويُقال: إنَّه لم تبلغ مدينةٌ منَ الإسلام من العزِّ والحضارةِ ما بلغَتْه قرطبة عدا بَغداد. ولم تزلْ عاصمة البلادِ خلال حكم الأمويّين (١٣٨ هـ ـ ٤٢٧ هـ).

مدنها تاريخاً وقَدْراً ، إذ تألّقت بجنَباتِها أعظمُ خلافةٍ في الغَرب ، وفي قرطبةَ نشأَ ونَما مُلْكُ بني أميّةَ مرّةً أخرىٰ ، وفي قرطبةَ الزَّهراء ، والزَّاهِرة؛ وقيل عنهما: الزَّهراءُ والزَّاهرةُ قُرطَا قُرطبةَ ، وناهيك بهذا التَّشبيهِ الرَّائِع الجميلِ لعروسِ مُدنِ الأندلُسِ.

* وفي قرطبةَ جمالُ الطَّبيعةِ الآسِر ، وروعةُ عمرانها السَّاحر ، وفيها ازدهرتِ المعارفُ والعلومُ ، وتألّق بين ثَنايَاه الآدابُ والفُنونُ ، حتى قال عنها أبو محمّد بنُ عَطيّةٍ:

بـأَربَـعٍ فَـاقَـتِ الأَمْصَـارُ قُـرطُبَـة   وَهُـنَّ قنْطَـرةُ الـوَادي وَجَـامِعُـهَـا
هَـاتَـانِ ثِنْتَـانِ وَالـزَّهـراء ثَـالِثَـةٌ   وَالعِلْمُ أكبرُ شَيءٍ وهو رابِعُها[1]

* ونتيجةٌ لذلك كُلِّه ، انتعشتِ الحياةُ الأدبيّةُ وانتشت ، فأثمرَتْ فيها المواهبُ المتفتِّحةُ ، وتندَّتِ الأذهانُ بلطفِ المعرفَةِ ، وصَقَلَت العقولَ ، وحلَّق خيالُ الأدباءِ في فَضَاءِ السِّحرِ والجمَال ، لينظموا بدائعَ الشِّعْر في تلكم الطَّبيعة السَّاحرة.

* في هذهِ البيئةِ اللطيفةِ رُسِمَتْ حياةُ ولادةَ ابنةَ المستكفي عند الأدباء ومؤرّخي الأدبِ ومَنْ يتعاطَون الشِّعْرَ وفنونَه ، وقالوا: إنَّ ربيعَ حياتِها قد بَدأ عند غروبِ شَمْس مَجْدِ آبائِها وأجدادِها ، إذ تولّى أبوها محمّد بن عبد الرّحمن النَّاصري الملقّب بالمستكفي الخلافةَ في عام (٤١٤ هـ) ، ولم يدمْ متربّعاً على عرشِها سوىٰ سنةٍ ونصف تقريباً[2] ، حيثُ ماتَ مقْتُولاً أو مسموماً سنة (٤١٦ هـ) التي توافق عام (١٠٢٥ م).

* إنَّ ولادةَ أميرةٌ منْ أميراتِ نساءِ الأندلس ، وجدُّها الثَّاني عبدُ الرّحمن النَّاصر ، لكنَّ أباهَا يختلفُ عن آبائهِ وأجدادِه ، فما ذَكَرَ له

---

(١) انظر: نفح الطيب (٢/ ١٤٧).
(٢) انظر: جمهرة أنساب العرب (ص ١٠٠).

مؤرِّخٌ فضيلةً ، بل ذكَره معظَمُ المؤرّخين بالشَّرِّ ، فقد كان مجبولاً على الجَهالة ، عاطلاً من كل خلَّةٍ تدلُّ علىٰ فضيلة .

* ففي كتابه «المُعجب» وصفَهُ عبدَّ الواحدِ المراكشيّ بقولهِ: كانَ في غايةِ السُّخْف ، وركَاكَةِ العَقْل ، وسُوءِ التَّدبير ، وَزَرَ له رجُلٌ حائِكٌ يُعرفُ بأحمدَ بنِ خالد ، هو كان المدّبرُ لأَمْره ، والمدبرُ لدولته ، فَقُلْ في دولة يديرها حائك(١) .

* تلكم هي حقيقةُ المستكفي(٢) ، وقد جَعَل الرُّواة مفارقةً شديدةً بينَ ولاّدة وأبيها ، فقالوا: إنَّها ذكيةٌ لَبِقَةٌ متعلِّمَةٌ مثقَّفَةٌ ، أديبةٌ شَاعِرةٌ ، بينما كانَ أبوها بإجْماعِ المؤرّخين وقولهم: لم يجلسْ في الإمارة مدّةَ الفتنةِ أَسْقَطَ منه ولا أَنْقَصَ ، إذ لم يزلْ مشتهراً بالشُّربِ والبَطَالَة ، سقيمَ السِّرِّ والعلانية ، أسيرَ الشَّهوة ، عاهِرَ الخَلْوة(٣) .

* ويصفهُ أبو حيّان مؤرِّخُ الأندلس بأنَّـه: كانَ مَجبُولاً علىٰ الجهالةِ ، عَاطِلاً من كُلِّ خُلَّة تدلُّ علىٰ فضيلةٍ ، معروفاً بالتَّخلُّفِ والرّكاكة . . .

---

(١) المعجبُ في تلخيص أخبار المغرب (ص ١٠٧) ، ومنَ الجدير بالذِّكْر أنَّه كانَ بينَ العبّاسيين في المشرقِ مَنْ تلقَّبَ بالمستكفي ، وتشاءُ المقاديرُ أيضاً أنْ يتماثَلا في كلِّ شيء ، فكلُّ واحدٍ منهما عاشَ ثنتين وخمسين سنة ، وكلّ منهما مَلَك نحو سنة ونصْف ، وكل منهما كان لاهياً عابثاً سيىء الخُلُق ، عاطل السّيرة ، وكلٌّ منهما ماتَ أبوه صغيراً.
(المغرب ١/ ٥٤ و ٥٥) و(البيان المغرب ٣/ ١٤٠ و١٤١) مع الجمع والتصرف .

(٢) نظم لسان الدين بن الخطيب خلافة المستكفي في كتابه: «رقم الحلل» فقال:
وبَـايَعُـوا مـنْ بَعْـدُ للمُسْتكفـي ... خـلافـةً قَـد قَنعَـتْ بخلْـفِ
ثمَّ شرحَ نظمهُ هذا فَقَالَ: وبُويع المستكفي وهو محمّد بنُ عبد الرَّحمن النَّاصري، فلمْ يضطَلع بالأمْرِ، وأخْلَدَ إلىٰ الرّاحةِ ، فضعفَ أمرُه ، واتَّفقَ الملأُ علىٰ خَلْعِهِ ، فخرجَ علىٰ وجههِ منتشراً، فهلك بحصْنِ إقليش ، وكانت دولتُه سبعةَ عشرَ شَهْراً.
(رقم الحلل في نظم الدول ص ١٥٥ و١٦٤).

(٣) الذخيرة (١/ ١/ ٣٨٠) طبعة مصر.

* قال ابنُ حَزْم: وكان محمّد بنُ عبدِ الرّحمن هذا المُستكفي ، في نهايةِ الضَّعَةِ والسُّقُوط والضَّعْف والتّأخُّر[1].

* وزعمَ رواةُ الأدبِ ومؤرِّخُوه ـ وصانِعُوه وناسِجُوه ـ أنَّ ولادَةَ لم تلعبْ بهمَّتِها الأحداثُ ، ولم تَعْصِفْ بنباهَتِها العواصفُ ، وإنَّما أخذتْ تَنْهَلُ منْ مواردِ الأَدَبِ ، وتستقي من مناهلِ العِلْمِ والمعرفةِ ، حتى غَدت في تاريخِ نساءِ الأندلسِ عَرفاً نديّاً ، وهمساً يمتعُ الأَسماع ، ولحناً يصافحُ أَوتارَ قلوبِ الأدباء ، بل غَدَتْ أخبارُها تلامسُ وجْدان عشَّاقِ الآداب في عَصْرِها ومصرِها ، ثمَّ ما تلاهُ منْ عصورٍ أدبيّة[2].

* هذه ولاَّدة الأندلسيّةُ الأمويّة ، وتلكَ شَذَرَاتٌ منْ نشأتِها المنسوجةِ ، ولا شكَّ في أنَّ هذه النَّشْأَة المتموّجة بينَ أعطافِ الأحداثِ ، وتموّجات الطَّبائع ، وموجاتِ الأهواءِ ، ومحاسنِ الطَّبيعةِ الأندلسيّة ، تجعلُ الإنْسانَ يتلهَّفُ لمعرفةِ أخبارِ ولادةَ معرفةً صحيحةً ، إذْ إن سيرتَها الموشّاةَ بألوانِ المغُامراتِ المتناقضَة تستهوي القلوبَ ، وكيفَ لا وقد زعموا أنَّها سَبَتْ بِظَرفها وأدَبِها العقول؟!

* فلهذِهِ الأميرةُ ولاَّدة مكانةٌ عاليةٌ عند شعراءِ الأندلس وكبرائِها ، وعند شاعراتِها ، وبينَ أَهْلِ الأدَبِ منَ الرِّجالِ والنِّساء ، فهي ذاتُ شخصيةٍ فذّةٍ متميّزة ـ كما زعموا ـ وقد جَمَعتْ بينَ عراقَةِ النَّسب الأمويّ ـ كما يقولُون ـ وبين الذّكاءِ العربيّ المُفْرط ، والجمالِ السَّاحرِ الآسر ،

---

(١) انظر: جمهرة أنساب العرب (ص ١٠١) باختصار.

(٢) يزعمُ بعضُهم أنَّ المستكفي أبَا ولاَدة ـ على الرغم من سقوطِ همَّته ـ قد عُني بابنتهِ ولادةَ ، فأحضرَ لها المعلمينَ والمثقّفين ، ولم تلبثْ مواهبُها أنِ استيقظتْ وتفتّحتْ أزاهرُ أدبِها ، وفاحَ منها أريجُ الشّعر والفنّ والأدبِ ، ثمّ ما لبثَ أنْ ماتَ أبوها سنةَ (٤١٦ هـ) ، فغدَتْ فيما بعد إحدى شهيرات نساءِ الأندلس ، كما أرادَ ذلك مؤرخو الأدب الأندلسي.

ناهيكَ بلباقَةِ الكلامِ ، وظرفِ الحديثِ ، وسَعةِ الاطلاع على الثَّقافَات المتنوّعة ، مع حلاوةٍ في البيانِ واللسانِ ، كلّ هذا في جَوِّ القصورِ البهيج ، وبينَ الحشَم والخَدم ، وأهلِ العِلْم والكَرم.

* ولكي يزيدوا الطِّينَ بلَّة قالوا: إنَّ ولاّدة هذه تُلَقَّبُ بعليةَ المَغْرب ، تشبيهاً بعليةَ بنتِ المهديّ[1] التي نَبغَتْ قَبْلها ببضعةِ قُرون في المشرقِ ، وكانتْ منْ أميراتِ القَصْرِ العبّاسي في بغدادَ ، وأميرة منْ أميراتِ البيَان في المشرقِ العربيّ.

هلْ صَحْيحٌ مَا يُنْسبُ لِوَلاَّدَةَ؟

* وقفاتٌ طويلةٌ؛ وقفتُها مع سيرةِ ولاّدة ، وعند أخبارِها المبثوثةِ في ثنايا المصادِرِ التي وصلتْ إلينَا عن طريقِ كُتُبِ الأدبِ، وألسنةِ المتبحّرين في فنونِ الشِّعر والأدبِ؛ لذا فقد كانَ منْ كلامِ بعضِهم عنّها ما هو أشدُّ سِحْراً منَ العيونِ النُّجلِ، حيثُ نَجِدُ العباراتِ الرَّاقصةَ، والكلماتِ السَّاحرةَ، والمعاني الآسرةَ، والجملَ الرَّنانة، والتَّعابير الطَّنانة التي تَصْرِفُ السَّمْعَ عنِ التَّفكير في حقيقةِ ولاّدة، وحقيقةِ أخبارِها وقَصَصِ غَرامها وعبثِها ومبَاذِلها، وكلّ هذا غدا عند كثيرينَ منَ الأشياءِ والمعلوماتِ الثَّابتةِ المُسَلَّم بها ، ولذلك لطلاوتها وحلاوتها وحسنِ نظمِها بأسلوبٍ رائقٍ شائِق.

* بيد أنَّ في هذه الأخبارِ المنسوجةِ التي وصلتْ إلينَا ـ هكذا ـ وقفاتٌ تحتاجُ إلى التَّأمُّلِ وإلى التّفكير ثمَّ إلى التَّصحيحِ[2].

---

(١) اقرأ سيرةَ عليّة بنةَ المهدي في موسوعتنا «نساء في قُصور الأمراء» ففي سيرتها فوائدُ كثيرةٌ ، ومعارفُ متنوّعة ووقْفَاتٌ طيّبةٌ تجلو كثيراً منَ الأحداثِ الغَامِضَة ، ولعلَّ الذي شبّه ولاَّدة بعليةَ بنتِ المهدي في نَفْسِه شيءٌ، وأراد أنْ يضربَ عصفوريْن بحجرٍ واحدٍ ، ناهيكَ بأنَّ أخبار ولادةَ بنتَ المستكفي غيرُ ثابتة كما سنرى إن شاء الله.

(٢) سنشيرُ إلى هذا المجالِ في فقْرةٍ تاليةٍ بإذنِ الله ، ونتحدَّث عنْ أحْوالِ المُسْتكفي وأنَّه لم يكنْ له ابنة بهذا الاسم حسب ما أسفَر عنه تحليلنا ودراستنا.

* لقد تفاوتتْ أقلامُ الأدباءِ والكتّاب وصنّاع الكَلام في وصْف ولاّدة، ووصف سيرة حياتها الذّاتية وأحوالها وحالِها، فقد وصفَها بعضُهم بالعَفَاف والطُّهْرِ وكَرمِ الحسَب والنَّسب بينما زعمَ آخرون أنَّها خِلافَ ذلك، وزعموا أنَّها امرأةٌ لا تُبالي بمَنْ حولَها، وشكَّكَ آخرون فيما نُقِلَ إليهم عنها.

* وقبل أنْ ندليَ دلْونَا في هذا المضمارِ، نسوقُ بعضَ أقوالِ الأدباءِ فيها، فابنُ بسَّام الشَّنتريني يصفُها بالعفَاف، لكنّنا نَلْحظُ في عباراتِهِ الاضطرابَ والتَّردُّدَ بذلك، فيقول: وأمّا ولاّدةُ ـ التي ذكرها أبو الوليد بنُ زيدون في شعْرِه فإنّها بنتُ محمّد بن عبد الرّحمن النّاصريّ ـ وكانتْ في نساءِ أهلِ زمانِها، واحدة أقرانها، حضورَ شَاهِد، وحرارةَ أَوَابد، وحُسْنَ مَنْظَر ومَخْبر، وحلاوةَ موردٍ ومَصْدر، وكانَ مجلسُها بقرطبةَ منتدى لأحرارِ المِصْر، وفناؤها ملعباً لجيادِ النَّظم والنَّثْر، يعشو أهلُ الأدبِ إلى ضوءِ غرتها، ويتهالكُ أفرادُ الشُّعراء والكُتَّاب على حلاوةِ عشْرتها، وإلى سُهولةِ حجّابها، وكثرةِ منتابها، تخلطُ ذلكَ بعلوِّ نِصاب، وكَرَمِ أَنْساب وطهارةِ أثواب[1].

ثمَّ يتابعُ ابنُ بسّام رحلةَ وصْفِهِ لولادةَ فيقولُ: على أنَّها ـ سمحَ اللهُ لها، وتغمَّد زلَلَها ـ اطّرحتِ التَّحْصيلَ، وأوجدت إلى القولِ فيها السَّبيل، بقلّةِ مبالاتِها، ومجاهرتها بلذّاتها[2].

* ولم يقطع ابنُ بسَّام هذا الخبر، أو يجعله يقينياً، أو يقرّ مباذلَها ومجونَها، وإنَّما كانَ ناقِلاً ومتحفظاً، ويظهرُ أنَّه لم يقتنعْ بما قيلَ عنْ ولاَّدة، لذلك نَراهُ يقولُ: هكذا وجدتُ الخبرَ، وأبرأُ إلى اللهِ منْ عهْدةِ ناقليهِ، وإلىٰ الأدبِ من غَلَطِ النَّقْل إن كانَ وقَع فيه[2].

---

(١) الذخيرة (١/ ٧٣٦) طبعة مصر و(١/ ٢٨٦) طبعة بيروت، ولاحظ كلمة «تخلط».
(٢) المصدر السابق عينه.

* وبهذا الخبرِ المضطربِ أوقَعَنَا ابنُ بسَّام في حيرةٍ ، كما أوقعَ مَنْ بَعْدَه ممَّنْ نقلُوا عنْه أخبارَ ولاَّدة.

* فالمقّريُ مثلاً يَصِفُها بِشَذَا العَفَاف ، إذ يقولُ في مطْلَع ترجمتِهِ لها متأثّراً بابنِ بسّام: ومن أشهرهنَّ بالأندلسِ ، ولاّدة بنتُ المستكفي ، كانتْ واحدةَ زمانِها ، المُشَار إليها في أوانِها ، حسنةَ المحاضرة ، مشكورةَ المُذاكرة. . . وكانت مشهورةً بالصِّيانَةِ والعفَاف[1].

* وأمّا جمال الدِّين السَّمَّان الحمويّ في العَصْر الحديثِ فيقولُ في ترجمتها معتمداً على ما سبقَ من مصادر: ولادةُ بنتُ المستكفي. . . كانتْ وحيدةَ زمانِها، مشهورةً بالعفّةِ ، والصِّيانةِ والأدبِ وسمو المكانةِ ، عُمِّرَتْ طويلاً ، ولم تتزوَّجْ قطّ ، وكانت تجادِلُ الأُدباء ، وتحاوِرُ الشُّعراء ، وكانت ولاّدة معجبةً بنفسِها مع خفّة روحِها ، ورقّة حسّها ، مفتخرةً على بناتِ جنْسها[2].

* ومنَ المثيرِ حقّاً أنْ نَجِدَ المصادرَ علىٰ اختلافها ، تنقل قصّة ذيْنَكِ البيتَيْن اللذين زعموا أنَّ ولادةَ كتبتْهُما بالذَّهبِ على عاتِقَيْ ثوبها ، وفيهما ما فيهما منَ المُجَاهَرةِ باللذاتِ والمغامراتِ والنَّزَوات ، بل والخروجِ عن أدبِ العفيفاتِ ، وهذان البيتان مشهورانِ شهرةَ الفرقَدين عند أهلِ الأدب ، والأسْودَيْن عند أهلِ الحديث ، والجديدَيْن عند النَّاس بعامّة.

* وقد حفلتِ المصادرُ الأدبيةُ ، وكُتُبُ المسامراتِ والمُسايَرات بروايةِ قَصَصِ استهتارِ ولاّدة ـ المنسوجة في مصانِع الخيَال ـ وكأنّها إحدىٰ الجواري اللواتي لا يهمُهنَّ أنْ تُخْدَشَ كرامتُهنّ أو سمعتُهن ، إذْ لا يُعْرَفْنَ فيؤذَينَ أو يُعَيرنَ ، وبالتّالي تسقطُ مكانتهنَّ الاجتماعية ، ولكنَّ

---

(١) نفح الطيب (٥/ ٣٣٧).
(٢) معجم الأديبات الشّواعر (ص ٤٨٦) باختصار.

هذا كلَّه لم يكنْ ، بل جعلُوا منْ ولادةَ أميرةً نَسيبةً حسيبةً ، لكنّها مستهترةٌ متبذلةٌ لا تَحْفَلُ بأحدٍ، أو تلتفتُ لِقِيم وعاداتِ عَصْرها ومصْرِها.

* هذا وقد روىٰ عددٌ منَ الأدباءِ وغيرِهم ممن أرّخَ لها، بأنَّها قد كَتَبَتْ بالذَّهَبِ على الطِّرازِ الأَيمنِ، أو على عاتِقها الأيمن أو كمِّها ـ وقيل تاجها ـ:

أَنَــا وَاللهِ أَصْلُــحُ لِلْمَعَــالِــي وَأَمْشِــي مشْيَتِــي وَأَتيــهُ تيْهــا

وكـتَـبَـتْ علىٰ الطِّرازِ الأَيْسَر ـ أو العاتِقِ الأَيْسَر ـ:

وَأُمْكِنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدّي وأُعْطِــي قُبْلَتِــي مَــنْ يَشْتَهِيْهــا[١]

* إنَّ المتأمِّلَ في هذَيْنِ البيتَيْن اليَتيمَيْن يجدُ فيهما شيئاً منَ المُغَالاة ، بل يحسُّ بأنَّهما موضوعانِ مَصْنُوعان مصُوغان على لسانِ ولاّدة ـ الموضوعةِ المصنوعةِ المصوغة ـ ، وإنْ شئْتَ فقُل: موضوعانِ علىٰ لسانِ إحدىٰ الجواري ، وربما لولادة أخرى قد تكونُ جاريةً منْ جواري الأَنْدلس.

* وقد تنبَّـه ابنُ بسَّام إلى هذهِ النَّـاحيةِ قَبْل روايته للبيتَـيْن السَّابقَين حيثُ قال: كَتَبَتْ ـ زعمُوا ـ على عاتِقَـي ثوبها[٢] ، ثمَّ ذكرَ البيتَيْن. ومنَ

---

(١) أوردتْ كثير منَ المصادرِ هذَيْن البَيْتين ومنها: الذَّخيرة (١/ ٣٧٦) طبعة مصر ، ونفح الطّيب (٥/ ٣٣٧) ، ومن المراجع: مُعجم الأديبات الشَّواعر (ص ٤٨٦) ، والدرُّ المنثور (ص ٤٦٥). وانظر: تحفة العروس للتّجاني (ص ٤٥٤) وغيرها.
ولو أنَّنا سَلَّمْنا بحقيقةِ ولاّدةَ بنتِ المستكفي الأميرةِ الحسيبةِ النَّسيبةِ ، وسلّمنا بوجودِها ، فهل يصحُّ أنْ تكتبَ ما كتَبَتْ على طرازِ ثوبها؟! بل هل تقبلُ واحدة منْ نساء العَصْر الحالي أو غيره أنْ تكتبَ على ثوبِها كما كتَبَتْ ولاّدة ، حتى ولو كانت منَ النِّساء اللواتي لا يُؤْبَه لهنَّ أو منَ السَّاقطات؟!!
إنَّ امرأة ذات مكانةٍ عاليةٍ ، وحسيبةً أديبةً أريبةً عاقلةً لا يمكنُ أنْ تُقْدِمَ علىٰ هذا الصَّنيع ، فكيفَ بامرأةٍ جعلوها في مستوىٰ ولادة ـ المزعومة ـ وهي تعي مكانتَها وحَسَبها ونسبَها الرَّفيع. إنّنا نعتقدُ أنَّ الأمْرَ يحتاجُ إلى دراسةٍ أخرى لاستجلاءِ الحقائقِ وإبرازِها في صورةٍ واضحةٍ لا يشوبُها مَسْخ أو تشويه ، ثم إنَّ البيتَين تفوحُ منهما رائحةُ الذكورة، فالذي صنعهما منَ الذّكور، والخبير بفنّ الشّعر يدركُ ذلك.
(٢) الذخيرة (١/ ٣٧٦) ، وانظر: المطرب نقلاً عن الذخيرة (ص ٨).

الملاحَظِ أنَّ كلمة «زعموا» فيها شكٌّ مثيرٌ يدعو المرءَ لأنْ يضَعَ مثْلَ هذه الأخبار في ميزانِ البحثِ والدِّراسةِ. وقد رأينا ـ قبل قليل ـ كيفَ ينقلُ ابنُ بسَّامَ الخبرَ ، والباقي على عُهْدةِ ناقليهِ ، أو إلى الأدبِ من غَلَطِ النَّقْلِ إنْ كان وَقَع فيه. ولَعَمْري فهذا عذْرٌ أقْبَحُ منْ ذَنْب ، لأنَّ فيهِ بناءَ صروحٍ منَ الأوهامِ لا حقيقةَ لها ولا وجودَ لخيالها أَصْلاً.

* إنَّ شخصيةَ ولادةَ بنة المستكفي ـ فيما نعتقدُ ـ منَ الشَّخصيَّاتِ النَّسويةِ المزعومةِ ، ومن ثمَّ جاءَ مَنْ طَبَّلَ وزَمَّرَ ، وصنَعَ منَ الحبَّةِ قبَّةً ، حتّى ملأَ الدُّنيا بأخبارِها ، وشَغَلَ النَّاس حيناً منَ الدَّهر. ولذلك نُسِجَتْ حولَ ولّادة ـ المنسوجة ـ قَصصٌ هي أقربُ إلى الأسطورةِ منها إلى الحقيقة.

* وثمّة ناحيةٌ أخرى يجبُ أنْ نعرفَها ، وهي أنَّه لم يبقَ للمستكفي الأمويّ ميراثٌ منَ الخلافةِ أو المالِ يتركُه لابنتهِ ـ المُلصَقة به ـ ، ومنَ المحتملِ أنْ يشيعَ بعضُ أصحابِ الأهواءِ قَصَصاً كثيرةً خياليّة ، ويزعُموا بأنَّ للمستكفي ابنةً ومن ثمَّ يُسَاءُ إلىٰ سيرتِها ، ولا نملكُ سَنَداً وثيقاً في ذلك ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّها اختُلِقَتْ لِيُنسَجَ حولَها ما ينسجُ من قَصَصِ الغَرام وما شابَه ذلك ، كيما يُساءَ إلى المرأةِ العربيّةِ ، كما أساءَ بعضُهم إلى سِيَرِ الحرائِرِ في تاريخ المرأةِ العربيّةِ في المشْرِق أو الأندلس(١).

---

(١) لقد كانَ لِنِسَاءِ الأشرافِ في الأَنْدلُسِ منزلةٌ خاصةٌ لا تَـتَطاول إليها عيونُ المتغزّلين ، أو ألسنةُ المتقوّلين ، وقد كانَ الخلفاءُ في الأندلسِ يقيمون حُدوداً صارمةً لمن يحاولُ أنْ ينالَ من نسائِهم؛ فقد ذكر ابنُ حزم ـ رحمه الله ـ خبراً قال فيه: لقد قالَ بعضُ الشّعراء بقرطبةَ شِعراً تغزّل فيه بصُبْح أمّ المؤيد ـ رحمه الله ـ فغنَّت به جاريةٌ أُدْخِلَتْ على المنصور محمّد بن أبي عامر ليبتاعها ، فأمرَ بقتلها ، وعلى مثلِ هذا قُتِلَ أحمدُ بنُ مغيث ، واستئصال آل مغيث والتّسجيل عليهم ألا يستخدمَ بواحدٍ منهم أبداً ، حتى كانَ سبباً لهلاكهم وانقراضِ بيتهم ، فلم يبقَ منهم إلا الشّريد الضَّال ، وكان سببُ ذلك تغزّله بإحدى بناتِ الخلفاء.

(طوق الحمامة ص ٣٨) بتحقيق حسن كامل الصيرفي مصر ١٩٥٠ م.

* ولعلَّه منْ نافلةِ القَولِ أنْ نشيرَ إلى الإغراءِ بالفَسَاد الذي أحاطَ بالمرأةِ عَصْر ذَاك ، سواء أكانَ في الأندلسِ ، أمْ في المشرقِ العربيّ ، فقد كانَ كلُّ ما حَوْلَ المرأةِ العربيّةِ يدفعُ إلىٰ الإثمِ ، ويغري بالفَسَاد ، فَعَنْ يمينها الرِّجَالُ يستحدثونَ في كلِّ يومٍ أُسْلُوباً منَ اللهو ، ويستجدّون أنواعاً منَ الشَّهوات، وعن يسارِها الجواري يجرِّرونَ أذيال اللهوِ والفَسَادِ ، ويتصديْنَ للرِّجال بما يستخفُّ ألبابَهم من خائنةِ الأَعْيُن ، أو مما تخفي الصُّدور ، فيصْطَدنهم.

* وممّا زادَ الطِّينَ بلَّـةً ، والأَمْرَ سُوءاً ، أنَّ الشُّعراءَ ، ومَنْ يتبعُهم منَ الغاوينَ ـ وهم ألسنةُ القَوم وعنوانُ أدبهم ـ قد أخذوا يُغْرونَ الرِّجال بالحرائِر والمخدَّراتِ ، ويزرعون الشَّكَّ في أنفسِهم فيما عسى أنْ تُبديه الحرائر منْ عفّة، وما يتجملْنَ به منْ إباء ، ومنْ هؤلاء الغُواة الفجّار بشَّار بنُ برد الشَّاعر المشهور، فهو أوّلُ مَنِ اتَّهم الحرَّة في صيانتِها وأمانتِها ، وأطمعَ الرِّجال في إسلاسِ قيادِها بعد إفراطِ عنادها ، وتشدّدها في شرفِها ، وفي ذلكَ يقول:

لَا يُـــؤْيِسَنَّـــكَ مِـــنْ مُخَـــدَّرَةٍ   قَـــوْلٌ تُـغَـلِّـظُــهُ وَإنْ جَـــرَحَـــا
عُسْـــرُ النِّسَـــاءِ إِلَـــىٰ مُيَـــاسَـــرَةٍ   وَالشَّـــيءُ يَسْهُـلُ بَعْـدَمَـا جَمَحَـا[1]

(١) حدَّثَ أبو الشّمقمق واسمهُ ـ مروانُ بنُ محمّد ـ المتوفىٰ نحو سنة (٢٠٠ هـ) قال: دخلتُ على بشارَ بنِ بُرد وماً وبين يديهِ مئة دينار، فقال: خُذْ منها؛ أتدري ما قصَّتُهما؟ قلتُ: لا.
قال: أنا اليومَ جالسٌ ، وإذا بفتىً منْ ذوي النِّعمةِ دخَلَ عليَّ فقال: يا أبا معاذ ـ كنيةُ بشَّار ـ هذه مئةُ دينار ، نذرتُ أنْ أدفعَها لكَ ، فَتسلّمها.
فقلتُ: ما سببُها؟
قال: كنتُ هويتُ امرأةً وتعرّضتُ لها ، فتصعَّبَتْ عليَّ ، فأردتُ السُّلو ، فذكرتُ قولَكَ:

لا يـــؤْيِسَنَّـــكَ مـــنْ مخبّـــأةٍ   قـــولٌ تغلّظـــهُ وإنْ جَـــرحَـــا
عُسْـــرُ النِّســـاء إلـــى مُيـــاسَـــرةٍ   والصَّعْــبُ يُـركَـبُ بعـدمـا جَمحَـا=

* ثمَّ اقتفىٰ أثرَه في ذلك الطريقِ الموحشِ المُهلكِ المُريبِ ، الشّاعرُ العبّاسيُّ الشّهيرُ أبو نُوَاس الحسنُ بنُ هانئ الذي قال:

كَـانَ الشَّبَـابُ مَطيَّـةَ الجَهْـلِ ... ومُحَسِّـنَ الضَّحِكَـاتِ وَالهَـزْلِ
وَالبَـاعِثـي وَالنَّـاسُ قَـدْ رقَـدوا ... حتّـى أَزُورَ حَليلَـةَ البَعْـلِ

* وإلىٰ مثلِ هذهِ الأقوال المغريةِ بالفسادِ ، اطمأنَّت بعضُ الأسماعِ إلى مقالِ السُّوء ، وإشاعةِ الفَاحِشَة بينَ النَّاس.

* لقد راحَ أولئكَ الخُلعاء والماجنون والغَاوون وأشباهُهم ينشدون منَ الأحاديث المبذولةِ ما يروِّضُ المرأةَ الأبيّة ، ويستنزلُ النّفوس الأبيّة ، ويهوِّنُ سُبُلَ الفَواحِش كيما ينالوا مآربَهم وشهواتِهم[1].

* ويبدو أنَّه كانَ للجواري[2] نصيبٌ وَافرٌ فِي إغراءِ بعضِ النِّساء

= فصبرتُ، فأدركتُ مقصودي منها، وآليتُ على نفسي أن أحملَ إليكَ هذه المئة دينار.
(سرح العيون ص ٤٧١ و٤٧٢).
* وأوردَ ابنُ خَلِّكان كيفَ قَطَعَ المهديّ على بشّار هذا الطّريق فقالَ:
ولما بلغَ المهديَّ هذان البيتَان استدعىٰ بشّاراً ، فلما قدمَ عليهِ استنشَده ، فأنْشَده إيّاهما ، وكانَ المهدي غيوراً ، فقال: تلك أمُّك يا عاضَّ كذا وكذا من أمِّه ، تحضّ النِّساءَ علىٰ الفجورِ ، وتقذفُ المحصنات المخبّآت! واللهِ لئن قُلتَ بعد هذا بيتاً واحداً فيه تشبيبٌ لآتينَّ علىٰ نَفْسِك.
ثم إنَّ بشَّاراً هجا المهديَّ بكلامٍ بذيءٍ مُوحشٍ ، وضَبَطَه المهديُّ يؤذِّنُ في ضُحى النّهار وهو سَكْران ، فأمَرَ بضربِهِ حتّى تَلِفَ وماتَ.
ولمّا نُعيَ لأهْلِ البَصْرة تَبَاشَرَ عَامَّتهم ، وهنَّأَ بعضُهم بعضاً ، وحَمدوا اللهَ وتصدقُوا لِما كانَوا قد بُلوا بهِ منْ لِسَانِه ، وكانتْ وفاتهُ وقد نَاهزَ تسعينَ سنة ودُفِنَ بالبصرةِ سنة (١٦٧ هـ). (وَفَيَات الأعيان ١/ ٤٢٦ ـ ٤٢٨) مختصراً.

(١) رويَ أنَّ مطيع بنَ إياس قد مرَّ بيحيى بنِ زِياد وحمّاد الرَّاوية ، وهما يتحدّثان فقالَ لهما: فيمَ أنتما؟ قالا: في قذف المحصنات!!.
قال: أو بقيت في الأرض محصنة فتقذفانها؟!

(٢) تشيرُ الدِّراساتُ والأخبارُ الأندلسيَّةُ إلىٰ وفرةِ الجواري في القُصور وبينَ الحرائِر =

الحرائرِ باقتحامِ الآثامِ ، حيثُ قُلْنَ مَا قُلْنَ لإغواءِ الحرائرِ وتشويهِ صُوَرِ حياتهنَّ وسُمعتهنّ ، ولعلَّ مردَّ ذلك إلىٰ الحياةِ المتموّجة التي كانَ الجواري يلعبْنَ فيها أدْوَاراً خطيرة.

* لذلك نرىٰ أنَّه قد أوذيت بعضُ الحَرائرِ العربيّات الشَّهيرات ، وتلوثَتْ سمعتهنَّ في كثيرٍ منَ القَصصِ التي نُسِبَتْ إليهنَّ ، أو منَ الحكاياتِ التي حِيْكَتْ حولَ حياتِهنَّ ، وهؤلاءِ النّسوة منهنَّ المشرقيّات من مثلِ: العبّاسة[1] ابنةِ المهدي أخت هارون الرّشيد ، ومنهنّ ولّادة ـ المزعومة ـ حتى إنَّ «هِنْري بيريس» قد اعترفَ في كتابه «الشِّعر الأندلسيّ في عَصْر الطَّوائف» بهذِه الحقيقةِ عندما تحدَّثَ عن حريةِ المرأةِ وحريةِ «ولَّادة» فقال: وربّما داخَلَ أخبارَها شيءٌ منَ التَّزيُّدِ ، وهو ما يعودُ إليها نفسها[2].

= حتى غدا الأمرُ مقْلوباً ، فقد كانَ لِزاماً علىٰ الخاطِب أنْ يقدّمَ للمخطوبة صَدَاقاً ولكنْ إزاء وفْرةِ الجواري النَّصرانيات ورخصهنّ في أرجاءِ الأندلس ، كانَ مفروضاً علىٰ المسلمين لكي يزوّجوا بناتِهم أنْ يتنافسُوا في التَّرفِ عند إعدادِ الجهاز ، وكانتْ متطلّبات العروس تتكوّنُ منَ الثّياب والحلي والدُّورِ. (المعجب ص ٣٨) بتصرف يسير جداً.

* أضفْ إلى ذلك كلِّه أنَّ الحريةَ التي تمتَّعَتْ بها الجواري قد أوجدتْ بعضَ الصُّعوبات التي تواجِهُ المرأةَ المسلمةَ كي تتزوَّجَ ، وذلك بسببِ الأعداد الكبيرة مَنَ الأسيراتِ والعشيقاتِ النَّصرانياتِ اللائي أخَذْنَ طريقهنَّ إلى الحريمِ يقبعْنَ بينَ الحرائر!!

* لكنَّ هذهِ الصعوبات لم تعمّ إلا فئةً قليلةً منَ النِّسوةِ في بعض القصور أو المناطق ، إذْ إنَّ المرأةَ المسلمةَ لم تكتسبْ حريّتها منَ البيئة النَّصرانية حولَها ، بل ظلَّتْ محافظةً علىٰ قيمها وعاداتِها. فهذا المستشرقُ «آدم متز» يتحدّثُ عن وضْعِ المرأةِ في هذه البيئةِ الإسبانيةِ النَّصرانية فيقول: بتأثيرِ الإسبان كانت لا تُرى امرأةٌ قَطُّ في شوارعِ إيطاليا حوالي منتصف القَرن السَّابع عشر الميلادي.

(الحضَارة الإسلاميَة في القرن الرابع الهجري ٢/ ١٧٠). ط ٣ القاهرة ١٩٥٧ م.

(١) اقرأ سيرة العباسة في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» تجد ما يسرّك بإذن الله.

(٢) انظر: الشعر الأندلسي في عصر الطوائف لهنري بيرس (ص ٣٤٩).

* إنَّ في سيرةِ ولّادة ـ إنْ صحَّ وجودها ـ بعضَ النَّواحي والقَصَصِ التي لا يطمئنُّ إليها الباحثُ تماماً ، وأصدقُك القول ـ عزيزي القارىء ـ بأنَّ في النَّفْس منها أشياء ، وعلى الباحث أنْ يضعَ النِّقاط على الحروفِ لتبدو الخطوطُ واضحةً مقروءةً ، وهذه وقفةُ تصحيح لطيفة نَسعى من خلالها لإبرازِ الحقيقة .

ولاَّدَةُ وَوقْفَةُ تَأَمُّلٍ وتَصْحِيْحٍ :

* أعزّائي القُرّاء ، يحسنُ بنا هنا أنْ نَقِفَ وقفَة تأمُّل نُحَكِّمُ فيها العَقْلَ والمنطقَ والتّأريخ والحقائقَ ، ونتساءَل : هل كانَ للمُسْتكفي ابنةٌ تُدعىٰ ولّادة؟! وهل نَشَأَتْ هذه الابنة في كَنَف أبيها المخلوع السَّاقِطِ الجاهل؟! أمْ أنَّ ولّادة شخصيةٌ مزعومةٌ مُخْتلَقَةٌ تلعبُ بها الأُسطورَةُ ، ويدحرجُها المغرضونَ على سُلَّم الزَّمَنِ يلعبون بها ذاتَ اليمين وذاتَ الشّمال ، وكلبهُم باسِط ذراعية أمامَ أكاذيبهم ينبحُ مَنْ يودُّ الاقترابَ منَ الحقيقةِ ليجلوها لمحبي الحقّ؟!!!

* نحنُ لا نستطيع ـ منذُ الوهلة الأولى ـ أنْ نفاجىءَ القارىءَ بخبرٍ يهزُّه هزَّاً ونقولُ له : يا صاحِ إنَّ سيرةَ ولادةَ بنتَ المستكفي ضربٌ منَ الخيالِ ، وهي أقربُ إلى الأسطورةِ المنسوجةِ منها إلى الواقعِ وإلىٰ الحقيقةِ ، وقد حاكَها صُنَّاع الأخبارِ في معامِل الكذِب والتَّزوير التي يمتلكونَها في أخيلتهم ، ومنْ ثمَّ طلعُوا بها على النَّاس يوهمونَهم بأخبارٍ وأشعارٍ متوافقةٍ ـ نوعاً ما ـ ليسدّوا عليهم طريقَ الحقّ ، وليسدِّدُوا سَهْم سمومِهم إلى كَبد الحقيقةِ .

* ولن نتركَ كلامنا دونَ دليل ، وها نحنُ أولاءِ نطرقُ سُبُلَ الحقّ ، ونلجأُ في الحكْمِ إلى جماعةٍ منْ أعلامِ المؤرّخين والنّسّابين ، وبعضُهم قد عاشَ عَصْر ولّادة ـ المزعومة ـ وكلّهم يقول : إنَّ المستكفي ماتَ ولم يُعقبْ .

* فقد ذكرَ ابنُ حَزْمٍ الأندلسيُّ ـ رحمه الله ـ وهو ممْن عاصرَ المُستكفي وماتَ بعده بنحوٍ منْ (٤٠ سنة) وكانَ منْ أعرفِ النَّاسِ بسيرةِ المستكفي ـ بأنَّ المستكفي قد أعْقَبَ ابنةً واحدةً تزوَّجت ، ولم يذكر ابنُ حزم اسْمها ، ولم يذكُر شيئاً عنْ حياتِها أو مكانتِها ، ولو كان لها شهرةٌ لذَكَر ذلكَ ، ولما ضَرَب عنْه صفحاً ، حيث قال ما نصُّه: «وأمّا عُبيدُ اللهِ ، فمن ولدِهِ: المسمّى بالخلافَةِ ، المُتلقّب بالمستكفي ، وَلِيَ سبعةَ عشرَ شَهْراً ، وهو أبو عبد الرحمن محمّد بْنُ عبد الرّحمن ابن عبيد الله بن النَّاصر ، وقُتِلَ أبوه أيّام هشّام المؤيد في طلب هذا الأمْر ، وابن عمّه لَحّاً ، وليُّ عَهْدِه ، سليمان بن هشام بن عبيد الله بن النَّاصر ، انقرضَا جميعاً من غيرِ عَقِبٍ ، حاشَا ابنتَيْن نَـكَحَهُما مَسْلمـةَ ويحيى ابنا هشام ، من ولَد الأصْبغ بن الحَكَم الرَّبضي. وكان محمّد بنُ عبد الرّحمن المستكفي ، ووليُّ عَهْـدِه المذكور في نهايةِ الضَّعَةِ والسُّقُوطِ والضَّعْفِ والتَّأخُّر ، وأخبارُهما في ذلكَ عظيمة؛ ولَم يبقَ لعُبيدِ اللهِ بنِ النَّاصر عقبٌ إلاَّ من أحمدَ بنِ عبد الرّحمن بن عُبيد الله بنِ النَّاصر»[1].

* إذاً ، فمن أينَ جاءَتْ ولاَّدة هذه التي طاولت شهرتُها الجوزاء ، والثّريا ، وكلّ نجومُ السَّماء ، وأضاءتْ سيرتُها آفاقَ المنتدياتِ الأدبيّة؟! ومن ثمَّ غدا أدبُها سِرَاجاً وهّاجاً في فَضاءِ الأَدب الأندلسيّ ، بل والأدبِ العربيِّ المشرقيّ ، ثمّ الأدبِ الغربيّ وخُصوصاً الإسباني؟!!.

* وذكر الحُميديُّ المتوفىٰ سنة (٤٨٨ هـ) ترجمةَ المستكفي ، وهو منْ أعرفِ النَّاس بسيرتهِ وسيرةِ أسرتهِ ، ولم يذكرْ أنَّ له ابنة تُدعى ولاّدة ولا غير ولادة ـ مع العِلْم أنَّ الذين صنعُوا ولاَّدة كانت معاصرة للحميدي ـ فقال: وَلِيَ محمّد بنُ عبد الرحمن وله ثمانٌ وأربعونَ سنة

---

(١) جمهرة أنساب العرب (ص ١٠٠ و١٠١).

وأشهر، لأنَّ مولده سنة ستٍّ وستين وثلاثمئة ، وكنيتهُ أبو عبد الرحمن ، وأمُّه أمّ ولد اسمُها حَوْراء ، وكان أبوه قَد قَتَلَهُ محمدّ بنُ أبي عامر في أوّلِ دولةِ هشام المؤيد لسعيهِ في القيام ، وطلبه للأمْر .

* وكانَ محمدُ بنُ عبد الرّحمن هذا قد تلقَّب بالمستكفي ، فوليَ ستةَ عشرَ شَهراً وأيّاماً إلى أنْ خُلِعَ ، ورجعَ الأَمْرُ إلى يحيىٰ بنِ عليّ الحُسيني ، وهربَ المستكفي ، فلمّا صار بقريةٍ يُقال لها «شمُّونت» منْ أعمالِ مدينة سَالِم جَلسَ ليأكلَ ، وكان معه عبدُ الرحمن بنُ محمّد بنِ السّليم من وَلَدِ سعيد بن المنذر القائدِ المشهورِ أيّام عبد الرحمن النَّاصر ، فَكَرِهَ التّمادي معه ، وأخذَ شيئاً منَ البيش وهو كثيرٌ في ذلك البلد ، فَدَهَنَ له به دجاجةً ، فلمّا أكلَها ماتَ لوقْتهِ ، فَقَبْرهُ هنالك .

وكان هذا المستكفي في غايةِ التَّخلُّف ، وله في ذلك أخبارٌ يقْبُحُ ذكرُها، وكانَ مُتَغَلَّباً عليه طولَ مدّته ، لا ينفذُ له أمْر ، ولا عَقِبَ له[1] .

* وممن أدلىٰ دلْوه بهذا المجالِ أيضاً صاحب كتاب «المُعجب» وهو عبد الواحد المرّاكشيّ المتوفىٰ سنة (٥٨١ هـ) فقد ترجمَ للمستكفي ، وذكرَ في نهايةِ ترجمته قصّةَ موتهِ بقريةٍ تعرف باسم «شمُّنت» وكانَ معه أحدُ قوّادِه ، فاستدعىٰ المستكفي غَداءَه ، فعمدَ القائدُ إلى دجاجةٍ فدهنَها بعُصَارة نَبْتٍ يُقَال له البَيش ـ وهو زهرةٌ ذات ألوان ، عصارتها سمّ ناقع ، وهو كثيرٌ ببلادِ الأندلس وخُصوصاً بتلك الجهة ـ فلمّا أكلها المستكفي ماتَ مكانَهُ ، فغسَّلَه وكفَّنَه وصلى عليهِ ودفَنَه ، فقبْرُه هناك ، ولا عَقِبَ له[2] .

---

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي (ص ٢٦ و٢٧). إذاً فمن أين جاءت ولادة؟

(٢) المعجب (ص ١٠٨).

* ومنَ العجيبِ والجديرِ بالذّكر أنَّ المراكشيَّ هذا يذْكُر ولّادة في موضعَيْن من كتابِه «المعجب»[1] ولكنْ ليس ولادة بنت المستكفي، وإنّما يقول: ولادة بنْت المهدي، واسمع إليه يقول في الموضعَيْن عندما يتعرّض لذكْر ابنِ زيدون: ومنْ نسيبهِ الذي يختلِطُ بالرُّوح رقّةً، ويمتزجُ بأجزاء الهواء لطافةً، قصيدتُه التي قالَها يتشوّق ابنةَ المهدي ولّادة[2] وهي بقرطبةَ، وهو بإشبيلية[3].

* ويؤكّد مؤرِّخٌ آخر بأنَّ المستكفي لا عَقِبَ له، فقد ذكرَ الضّبيُّ في «بُغية الملتمس» بأنَّه لا عَقِبَ له[4].

* وأدعوكَ عزيزي القارىء الآنَ لتقرأَ ما قاله النُّويري عندما تعرَّضَ لترجمةِ المُستكفي فقال: وكانَ محمّدُ بنُ عبد الرحمن ـ المستكفي بالله ـ في نهايةِ التّخلُّفِ صاحب أَكْل وشُرْبِ ونكاح، ولم يزلْ مُتَغَلباً عليه طولَ ولايتهِ، لا يُنفذُ له أمْرٌ، ولا عَقِبَ له[5].

* إنَّ ما أوردناهُ منْ أقوالِ المؤرّخينَ فيه مَقْنَعٌ بأنَّ ولّادةَ شخصيّةٌ أسطوريةٌ، إذْ ليس للمستكفي عَقِب، ولعلَّ هناك امرأةً مليحةً كانتْ تشتهرُ بهذا الاسمِ، قد ارتبطَ اسْمُها باسمِ ابنِ زيدون وشِعرهِ، فغَدَتْ

---

(١) انظر المعجب (ص ١٦٣ و١٦٨).

(٢) إذاً، من ابنةِ المهدي ولادة هذه؟! لا شكَّ بأنَّها غيرُ ما يزعمه الزَّاعمون من أنّها ولادةُ بنتُ المستكفي المزعومة، أو لعلّها إحدىٰ النّساء أو الجواري الأندلسيات.

(٣) المعجب (ص ١٦٣ و١٦٨).

(٤) بغية الملتمس (ص ٣٣).

(٥) نهاية الأرب للنويري (٢٣/ ٤٣٦). ومنَ المضْحكِ حقّاً أنْ نجدَ أنَّ محقّقي الجزءَ الثّالث والعشرين من كتابِ «نهايةِ الأرب» قد مرّا علىٰ ذِكْر أمِّ المستكفي واسمها حوراء، ثمّ نَجدُ ما نَصّه في الهامش رقم (١): وابنتهُ الأديبةُ المشهورةُ ولّادة. ترىٰ ألم يُحقّقا ما قاله النُّويري، وما نَقَله عنْ أعلامِ المؤرّخين قَبْله بألاَّ عَقِبَ للمُستكفي؟!!

شهيرةً ، ونَسَبَ مَنْ نسبَها إلىٰ المستكفي ، وأضْفَى علىٰ سيرتها الأخبارَ المشوِّقة والأشعارَ الرَّائقةَ فَغَدَتْ منَ المسلّمات بين النّاس ، وراجَتْ عندهم وتلقَوْها بالقَبول.

* علىٰ أنّنا سنعرضُ في الفِقْرةِ التَّالية بعضَ أخبارِ ولاّدة المزعومة مع ابنِ زيدون وغيرِه منْ شعراء ونبهاء العَصْر ، كما وردتْ في المصادر.

وَلاَّدَةُ فِـي شِـعْرِ ابـنِ زَيْـدُونَ :

* لكي تكونَ صورةُ ولاَّدةَ ـ ولادة ابنِ زيدون ـ في شِعْرِ ابنِ زيدون واضحةَ المعالِم في أَذْهَاننا ، لا بدّ أنْ نعرفَ شيئاً عنِ ابنِ زيدونَ ، وما أدراكَ ما ابنُ زيدون؟!

* فأَبو الوليد أحمدُ بنُ عبد الله بنِ أحمدَ بنِ غالب بن زيدون المخزوميّ الأندلسيّ القُرطبي[١] الشّاعر المشهور في مَيْدانِ الشُّعراءِ ، والنَّاثرُ البارعُ في رحابِ النَّثْرِ ، كانَ منْ أبناءِ وجوه الفُقَهاء بقرطبةَ ، برَعَ أدبهُ ، وجادَ شِعْره ، وعَلا شَأْنُـهُ وانطلقَ لِسانه[٢].

* كانَ ابنُ زيدون يُسمّى بحتريَّ الأندلس أو بحتريَّ المغربِ لحُسْنِ ديباجَةِ لَفْظِه ، ووضُوحِ مَعانيهِ.

* قالَ ابنُ بسَّام الـشَّنْـتَريني في حقِّهِ من فِقْراتٍ جميلةٍ نقتطفُ منها قولـه: كانَ أبو الوليد غايةَ منثورٍ ومنْظُومٍ ، وخاتمةَ شعراءِ بني مخزوم ، فـاقَ الأنامَ طرّاً ، ووسعَ البيانَ نَـظْماً ونَـثْـراً ، إلى أدبٍ ليس للبحرِ تدفّقـه ، ولا للبدرِ تألّقه ، وشعر ليسَ للسِّحْرِ بيانه ، ولا للنّجومِ الزُّهْرِ

(١) ولد ابن زيدون بقرطبة سنة (٣٩٤ هـ)؛ وتوفي بإشبيلية سنة (٤٦٣ هـ) ، وعمره (٦٩ سنة).

(٢) انظر: الوافي بالوفيات لصلاح الدين الصفدي (٧/ ٨٧).

اقترانه ، وحظٌّ منَ النَّثْر غريبِ المباني ، شعريّ الألفاظِ والمعاني[1] .

* وقال الحُميديّ المتوفي سنة (٤٨٨ هـ) عن ابنِ زيدون : أحمدُ بنُ عبد الله بن زيدونَ أبو الوليد منْ أهْلِ قرطبةَ ، شاعِرٌ مقدّمٌ ، وبليغٌ مجوّدٌ ، كثيرُ الشّعْرِ ، قبيحُ الهِجَاءِ ، أدركَنَا زمانَه ، وأنْشَدَنا له غيرُ واحدٍ منْ أهلِ المغربِ أبياته السَّائرةَ :

بَـيْنِي وَبَـيْـنَـكَ مَا لَوْ شِئْتَ لَمْ يَضِعْ سِرٌّ إذا ذَاعَتِ الأَسْرارُ لَمْ يُذَعِ[2]

* نعمْ لقد كانَ ابنُ زيدونَ شَاعراً مَشْهوراً معروفاً ، بل حاملَ لواءِ الشُّعراءِ في عَصْره ، ورايةَ البُلغاءِ في مِصْره ، وهو صاحبُ القصيدةِ الزَّيدونيةِ[3] التي طارتْ شهرتُها بينَ أدباءِ الدُّنيا ، واحتلَّتْ بينَ القَصائِدِ الطَّـنَّـانـةِ المرتبةَ العُليا .

* لذلك تجاذَبَ الحديثَ عنه أعيانُ المؤرّخينَ وأعلياءُ الأُدباء ، وأكثروا عليه منْ حُلل الثَّناء ، ومنهم ابنُ خاقان في «القلائد» حيثُ قلَّده عقْداً فريداً في الأَدبِ فقَال : ذو الوزارَتَيْن، أبو الوليد أحمدُ بنُ عبد الله ابنِ زيدون ـ رحمةُ اللهِ عليه ـ ، زعيمُ الفئةِ القُرطبيّةِ، ونشأةُ الدَّولةِ الجهورية، الذي بَهَرَ بنظامِهِ، وظَهرَ كالبدْرِ ليلةَ تمامِهِ، فجاءَ منَ القَول بِسِحْر، وقلَّده أبهى نَحْر ، لم يصرفْه إلاّ بينَ ريحانٍ وراح ، ولم يطلعْه إلاّ في سماءِ

---

(١) انظر : وفَيات الأعيان (١/ ١٣٩) نقلاً عن الذخيرة (١/ ٢٠٧) طبعة بيروت ، بتصرف يسير .

(٢) جذوة المقتبس (ص/ ١٣٠) ترجمة رقم (٢٢٤) ، ولم يذكر الحميديُّ اسمَ ولادة ، ولم يُشِرْ إلىٰ علاقةِ ابنِ زيدون بها ـ عِلماً بأنَّه كان مُعَاصِراً له عارفاً أخبارَه ـ بل إنَّه عندما تحدَّثَ في بابِ النِّساء عنهنّ ، لم يشِر إلى ولاّدة أيضاً ، ولم يذكرْ سوىٰ ثلاثِ نسوةٍ وهنَّ : صفيةُ بنتُ عبد الله الرَّيِّي ، ومريمُ بنتُ أبي يعقوب الفصولي ، والغسَّانية الشَّاعرة .

(جذوة المقتبس ص ٤١٢ و٤١٣) .

(٣) النّونية المشهورة والتي سيأتي ذكْرها ـ إنْ شَاء الله تعالى ـ .

مؤانَسةٍ وأفْراح ، ولا تعدّى به الرُّؤساءَ والملوك، ولا تردّى منه إلا حظوةً كالشَّمسِ عند الدُّلوك ، فَشَرفَ بضائعه ، وأرهفَ بدائعَه وروائعَه(١) .

* بمثلِ هذهِ الرَّوائع والبدائع ، كانتْ أقلامُ الأُدباءِ والشُّعراء ، ترسمُ صورةَ ابن زيدون ، وتوضّحُ ملَامحَ شَخصيتهِ ، ومعالمَ أدبهِ ، وبمثلِ ما رسمتْ بعضُ تلكم الأقـلام والقرائح صورةَ ابنِ زيدون ، كانت تَضَع معها شخصيّـة ولّادة ، فكانا بذلك قرينَـيْـن ، أو كدُرَّتَـيْـن نُظِمَتَـا في عقْدٍ نفيس برّاق ، فلا يَـكادُ يُذكرُ ابن زيدون وتُذكرُ أغْزالُه ، إلا تُذكرُ معه ولّادة .

* ونحنُ لا نستطيعُ أنْ نحدِّدَ بشكلٍ واضحٍ ملامحَ العلاقة التي كانت بينَ ابنِ زيدون وبين ولَّادَتِه هو ، إلاَّ أننا نؤكِّدُ أنَّ قرائحَ الشُّعراءِ تأتي ببدائعِ البَدائهِ أحياناً ، وتهيمُ في كلِّ وادٍ(٢) ، بل وتجعلُك تحلِّقُ في أجواءِ صنعتِهم الشِّعرية ، وتطوفُ معها حيثُ يطوفون؛ وابنُ زيدون أحدُ عمالقةِ هذا الفَنِّ ، وأحدُ أساطين الشُّعراء الأدباءِ ، والأُدباء الشُّعراء ، وقد شَهِدَ ببراعَتهِ ومقدرتهِ علىٰ الكلام أحدُ أعلياءِ عَصْره ، فقد قال بعضُ الوزراءِ بإشبيليةَ : عَهْدي بأبي الوليد بنِ زيدون قائماً علىٰ جنَازةِ بعضِ حُرُمهِ ، والنَّاسُ يعزّونَه علىٰ اختلافِ طبقاتِهم ، فما سمعتُه يجيبُ أحداً بما أجابَ به غيرُه ، لِسَعَةِ مَيْدانه ، وحضورِ جنَانه(٣) .

---

(١) قلائد العقيان ومحاسن الأعيان (١/ ٢٠٩).

(٢) واسمعْ إلى أحَدِ الشّعراء الذي أجَادَ اقتباسَ قولهِ تعالى: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾ ، فقال:

هُـمُ الشّعـراءُ أربـابُ الأيـادي   لِغَـوْصِ الفِكْـرِ فـي النّكـتِ الجيـاد
ولكـنْ أصبحُـوا في الفِكْـر مرضىٰ   أَلَـم تَـرَ أنَّهـم فـي كـلِّ وَادِ

(٣) انظر: تمام المتون (ص ١١). وذكر المقّري ذلكَ فقال: حُكي أنَّ الوزيرَ أبا الوليد بنَ زيدون تُوفيت ابنتهُ، وبعدَ الفَراغ منْ دفنِها وقفَ للنَّاس عند=

* فابنُ زيدونَ إذاً كاتبٌ مجيدٌ ، وناظمٌ ناثِرٌ ، وبليغٌ مُفوَّهٌ لَسِنٌ ، صاغَ منْ بناتِ أَفْكارِه عرائسَ أبكارِ المعَاني ، وقلّدَ من معانيهِ نُحُورَ الغِيْدِ الغَواني ، فلا عَجبَ أنْ يصوغَ أشعارَهُ وأغزالَه في مودّة امرأةٍ تُدعى «ولّادة» ، ويضْفِي عليها مِنْ روحهِ الشِّعْرية غَزَلَ صبابَتهِ ، فكانَ لها وقْعٌ لطيفٌ في نفوسِ النَّاس ، إذْ طارتْ قصائدُه في سمواتِ الأَدبِ ، وحفلتْ بها كتُبُ العربِ.

* فقد كان ابنُ زيدون شَاعِراً أنيقاً جَذَبَتْه هذه المرأةُ الجميلةُ ـ التي تدعى ولّادة ـ إلى فَلَكِها ، فَغَدا يدورُ في مضْمارِ هذا الفَلَك ، وكان ما يزالُ في ميعةِ الصِّبا؛ ويبدو أنَّ ولّادة هذه كانت لمّاحة ، قد عرفَتْ مقدرةَ ابنِ زيدون الأدبيّة ، فبادلَتْه الهيامَ ، وساقَتْه كؤوس الغَرام ، بأجملِ الكلام ، وأعذبِ الأنغام.

* ونقلتْ كتبُ الأدبِ إلينا أنَّ ولَّادةَ ابنِ زيدون هذه ، كانتِ امرأةً ظريفةً ، ذاتَ خُلُقٍ جميلٍ ، وأدبٍ غَضّ نبيلٍ ، ونوادرَ عجيبةٍ[1] ،

= منصرفهم منَ الجنازة ليتشكَّر لهم ، فقيل: إنَّه ما أعادَ في ذلك الوقتِ عبارةً قالَها لأَحدٍ.

قالَ الصَّفديُّ ما مُفاده: وهذا منْ بابِ التوسُّع في العبارةِ ، والقدرةِ على التّفنُّن في أساليبِ الكلام ، وهو أمرٌ صَعْبٌ إلىٰ الغايةِ ، إذْ كانَ في تلك الجنازةِ ألفُ رئيس ممن يتعيّن عليه أنْ يتشكّرَ له ، ويضطرَ إلى ذلك ، فيحتاج في هذا المقامِ إلى ألفِ عبارةٍ مضمونها الشّكر ، وهذا كثيرٌ إلى الغايةِ ، لاسيما منْ محزونٍ ، فَقَدَ قِطْعةً من كبده:

ولكنَّــه صَــوْبُ العُقــولِ إذَاانْبَــرتْ سَحــائِــبُ منْــه أُعْقِبَــتْ بِسَحــائِــبِ

(نَفْح الطِّيْب ٥/ ١٠٦ و١٠٧) باختصار وتصرف.

(١) لعلَّ كثرةَ ما رُوي عَنْ نوادرِها ونظمِها ، وما نُسِبَ إليها منْ أشعارٍ وأخبارٍ وطرائفَ ومواقفَ ، قد صارتْ بطلةَ قَصَصٍ ومواقِفَ مثيرةٍ ، ترويها بعضُ كتبِ الأدبِ ، عندما تتحدَّثُ عن شاعرِ الأندلسِ الشّهيرِ ابن زيدون.

ونظمٍ جيّد ، وزهرةٍ منْ أزاهرِ عَصْرِهـا ، فأعجبَ بهـا الكُبراء والأُدبـاء والشُّعراء ، ومنهم ابنُ زيدون الذي أحبَّها ، فأضْفَىٰ علىٰ الحُبِّ شَيئاً لطيفاً ، حينَ رسمَه في حنَاياه ، وقيَّده في مذكّرتهِ ، ليندّي خواطِرَه وذكرياتِه ، أو ليملأَ الفراغَ الذي خيَّمَ عليهِ بَعْدَ فرارِه منْ قرطبةَ وابتعادِه عنها حيناً منَ الدَّهْرِ.

* وقد روىٰ ابنُ بسّام والتَّجاني عنِ ابنِ زيدونَ ما نصَّه في وصْفِ ليلةٍ طَواهَا مع ولاّدةَ في نعيمٍ ، ثمّ في عتابٍ أشبه بالنَّعيم:

قالَ أبو الوليد: كنْتُ في أيّامِ الشَّباب ، وغَمْرةِ التَّصابِ ، هائماً بِغَادة ، تُدعىٰ ولاّدة[1] ، أرىٰ الحيَاةَ متعلِّقَةً بقربها ، ولا يزيدُني امتناعُها إلاَّ اغتباطاً لها ، فَلمّا قُدِّر اللقاءُ ، وسَاعَد القَضَاءُ ، كَتَبَتْ إليّ:

تَرقَّبْ إذَا جَنَّ الظَّلامُ زِيَارتي فَإنّي رأَيْتُ الليْلَ أكْتَمَ للسِّرِّ
وبِيْ مِنْكَ مَا لَو كَانَ بِالبَدْرِ مَا بدَا وَبالليْلِ مَا أدْجَىٰ وبالنَّجْمِ لَمْ يَسْرِ[2]

فلمَّا طوىٰ النَّهارُ كافُوره[3] ، ونَشَر الليلُ عَنْبره[4] ، أقبلتْ بقدٍّ

---

(١) لاحظْ كلمة «تُدعىٰ» ، إذ ندرك من خلالِها اختراع القصّة ، ثمّ إنَّها قيلَتْ بلفظ المبني للمجهول «تُدعى» زيادة في التّعمية.

(٢) ورواية البيتِ في تحفةِ العروس:
وبي منْكَ مَا لو كانَ الشَّمس لم تَلُحْ وبالبَدْرِ لم يطلعْ وبالنَّجم لم يَسْرِ
(تحفة العروس ص ٤٥٤).

(٣) «كافوره»: بياضه.

(٤) «عنبره»: سواده ، وهُنَا استعارتان جميلتان من ابن زيدون أحسنَ فيهما كلّ الإحسان ، وطارَ وحلّق بخيالهِ بعيداً بعيداً ، ولكنْ كيفَ يصحُّ أنْ تخشىٰ «ولاّدته» النَّهار وفضائِحَه وتطلبُ أنْ تزورَه في عَنْبرِ الليلِ البَهيمِ ، وهي التي زَعموا أنَّها كتَبَتْ علىٰ عاتِقها الأيمن والأيسر ما زعموا ، وما مرَّ معنا آنفاً مِنْ أنّها تُعْطي القُبلات لمن يَشتَهي ، وهنا تخافُ وتخشىٰ الفضيحةَ وتحبّ كتمانَ السِّرّ ، وترقّب زيارتها في الظّلام ، أليسَ في الأمر شكّ؟!

كالقَضيب ، وردفٍ كالكثيب ، وقَد أطبقَتْ نَرجسَ المُقَل ، على وَرْدِ الخَجل ، فَمِلْنَا إلى روضٍ مدبّج[1] ، وظلٍّ سَجْسَج[2] ، قد قامتْ راياتُ أشْجارِه ، وفاضَتْ سلاسلُ أنْهارِه ، ودرّ الظّلِّ منثورٌ ، وجيبُ الرَّاح مَزْرور ، فلمّا شَبَبْنَا نارَها ، وأدركَتْ فينا ثَارها ، باحَ كلُّ منّا بِحُبِّه ، وشَكا أليمَ ما بقلبِه ، وبتْنَا بليلةٍ نَجْني أقحوانَ الثُّغور ، ونقطفُ رمّانَ الصُّدور ، فلما انفصلتُ عنها صَباحاً ، أنشدتُها ارتياحاً[3] :

وَدَّعَ الصَّبْـرَ محـبٌّ ودَّعَـكْ ... ذَائـعٌ مِـنْ سِـرِّهِ مـا اسْتَـودَعَـكْ
يَقْـرِعُ السِّـنَّ علـىٰ أنْ لـم يكُـنْ ... زَادَ فـي تِلْـكَ الخُطَـى إذْ شَيَّعـكْ
يَـا أخَـا البَـدْرِ سَنَـاءً وسَنـاً ... حَفِـظَ اللهُ زَمَـانـاً أَطْلَعَـكْ
إنْ يَطُـلْ بَعْـدَكَ لَيْلـي فَلَكَـمْ ... بِـتُّ أَشْكُـو قِصَـرَ اللَّيـلِ مَعَـكْ[4]

* هذه لوحةٌ أدبيّةٌ شِعْريّةٌ تضجّ بالحركةِ يرسُمها لنا أبو الوليد بنُ زيدون ببيانِه وبَنَانِه ، وينفثُها أدَباً ورحيقاً نديّاً علىٰ الأَوْرَاقِ ، لِيُتَيِّمَ بها قلوبَ العُشَّاق ، فهو ـ كما قُلنا ـ شاعرٌ مرهَفُ الإحساس ، زكيُّ الأنفاس ، متوقّدُ الذّهْن ، لطيفُ البديهة ، يحبُّ هذه «الولادة الغَادة»

---

(١) «مدبّج» : مزين بالأزهار ، منقوش بالنوار.

(٢) «سَجْسج» : لا حرَّ ولا قرّ، أي الهواءُ المعتدلُ اللطيف، والسَّجسج : الأرضُ ليستْ بصُلْبة ولا سَهلة، وما بينَ طلوع الفجر إلى طلوع الشّمس. ومنه حديثُ ابن عبّاس ـ رضي الله عنهما ـ في صفة الجنّة : «وهواؤها السَّجسج» (القاموس المحيط) مادة سج .

(٣) وفي تحفة العروس قال : ولما نشرَ الصّبحُ لواءه ، وطوى الليل ظلماءه ، ودعتها وأنشدتها.

(٤) انظر : الذخيرة (١/ ٣٧٧) طبعة مصر ، وتحفة العروس للتجاني (ص ٤٥٤ و٤٥٥) مع الجمع بينهما.
وانظر : نفح الطيب (٥/ ٣٣٨) وقد نسبَ المقّري الأبيات الكافية لولادةَ. وانظر كذلك : المُطرب (ص ٩) ، وشاعرات العرب (ص ٤٧٨) وغيرها كثير من المصادر والمراجع.

التي جعلَها شاعرةَ الأندلس ، وفاتنةَ تلكم الأنْحاء ، وأميرتَها الجميلةَ الجليلةَ التي خَلَطَتْ كلَّ هيبتها وعلوَّ كعْبِها بالعبَثِ واطِّراحِ التَّحصيل، ولا يصدِّقُ أنّه يَلْقَاها، ولكنَّهما يلتقيان ـ كما قرأنا من فقرةِ ابنِ زيدون ـ بَـيْد أنَّ أويقاتِ السُّرور قصيرةٌ ، وأوقاتِ الفراقِ مريرةٌ ، ويتفتَّقُ ذلكَ اللقاء ، ومن ثمَّ الفراق عن أبياتٍ حلوةٍ مغناج لها جرْسٌ أليفٌ في حواشيها ، وهمسٌ لطيف مُطْرِب في قوافيها.

* ومنَ الطَّريفِ والجميل أنَّ ابن خاقان قد ذكرَ الأبياتِ الكافيّة السّابقة بمقدمةٍ رائعةٍ قال فيها: ورحلَ مَنْ كانَ يهواه، وفاجأَه بِبَيْنِهِ ونَواه، فَسَايَره قَليلاً ومَاشَاه ، وهو يتوهَّمُ أَلَم الفُرقةِ حتّى غشَّاه ، فاستعجلَ الودَاع ، وفي كَبِدِهِ ما فيها منَ الانْصِداعِ ، فأقامَ يومَه بحالةِ المفجوع ، وباتَ ليلَه نافراً للهجوع ، يردّدُ الفِكر ، ويجدِّدُ الذِّكْر ، فقال:

وَدِّعَ الصَّبْـــرَ مُحِـــبٌّ وَدَّعَـــكْ ذَائِعٌ مِـنْ سِـرِّهِ مَـا اسْتَـوْدَعَـكْ[1]

---

(١) انظر: قلائد العقيان (١/ ٢٢٠ و٢٢١). وهذهِ القصيدةُ الغنائيةُ الرّائعة قد أوحَتْ لأحمد شوقي أنْ ينظمَ قصيدةً غنائيةً أخرى تتكونُ مِنْ تِسْعَةِ أبياتٍ قَالَ في مَطلعِها:

رُدّتِ الـرُّوحُ علـى المضْنَـى مَعَـك أحْسَـــنُ الأيّـــام يـــومٌ أَرْجَعَـــك
مـــرَّ مـــنْ بعْـــدِك مـــا روَّعنِـــي أتُـــرىٰ يـــا حُلـــو بُعْـــدي رَوَّعَـــك

وَجَاءَ في نهايتها:

نَـــامَـــتِ الأعْيُـــنُ إلا مقْلَـــةً تَسْكُـبُ الـدَّمْعَ وتـرعـىٰ مَضْجَعـك

(الشوقيات ٢/ ١٣٠).

بينما أوردَ محمد صبري في «الشَّوقيات المجهولة» هذه القصيدة كاملة وقد بلغَتْ (٢١ بيتاً) ، كلُّها في الغَزَلِ ومنها بعد البيتِ الثّاني: مرَّ منْ بُعْدِك ما لوَّعني. . .

يَـا نَعيمـي وعَـذَابـي فـي الهـوى بعـذولـي فـي الهـوىٰ مـا جَمَعَـك
مَـــوقعـــي عنْـــدَكَ لا أعْلمُـــه آهِ لـــو تعلـــمُ عنـــدي مَـــوْقعَـــك
أرجفـــوا أنَّـــك شَـــاكٍ مـــوجـــعٌ ليـتَ لـي فـوقَ الضّنـىٰ مـا أوْجَعَـك

(الشَّوقيات المجهولة ٢/ ١٤٤) جمع ودراسة: محمد صبري. دار المسيرة ـ بيروت ط ٢ ١٩٧٩ م. =

* ولم تكنْ هذهِ القصيدةُ الكافيّةُ التي يتحدَّثُ فيها ابنُ زيدون عن لقائِه[1] مع «ولاّدته» ، وإنّما كانَتْ هنالِكَ مع هذا اللقاءِ أسْمارٌ وأبَاطيلُ ، بل أباطيلُ وأسْمار.

* ويتابعُ ابنُ زيدون بقيّة حديثِهِ ذي الأَباطيلِ والأَسْمارِ ، ويتحدَّثُ عنْ غيْرةِ «ولادته» ومحبوبتهِ ، فقد زَعم أنَّه قد طَلَبَ منْ مغنيةٍ ـ وهو في مَجلِسها ـ أنْ تعيدَ مقْطعاً منَ الغِنَاء أجادَتْ في أدائِه ، وذلك دونَ أنْ

= * ويبدو أنَّ أحمد شوقي ـ رحمه الله ـ كانَ كَلِفاً بابنِ زيدون ، فعارضَه في نونيّتِهِ الشّهيرة ، وَأنشأ قصيدةً أخرى بعنوان «ابن زيدون» ، شَدا بها عندما صَدرَ ديوانَ ابن زيدون للمرةِ الأولىٰ في مصرَ ، ومنْ أبياتِ هذه القصيدة قولُه :

يـــا بْـــنَ زيْـــدونَ مَـــرْحَبـــا ... قَـــــدْ أَطَلْـــــتَ التَّغيُّبَــــا
إنَّ ديْـــــوَانَـــــك الـــــذي ... ظَـــــلَّ سِـــــرّاً مُحجَّبــــا
يَشْتكـــــــي اليُتْـــــــمَ درَّه ... ويُقـــاســـي التّغـــرَّبـــا

ومنْ هذهِ القصيدة قولهُ مخاطباً ابنَ زيدون منْ بين ثنايا الزَّمن وأغوارِ التَّاريخ :

أنـــتَ فـــي القَـــول كلّـــه ... أجمـــلُ النّـــاسِ مَـــذْهَبـــا
بـــأبـــي أنـــتَ هَيْكـــلاً ... مـــنْ فنـــونٍ مـــركّبـــا
شَـــاعـــراً أمْ مصـــوّراً ... كنـــتَ أمْ كنـــتَ مُطـــربـــا
أَحْسَـــنَ النَّـــاسِ هـــاتفـــاً ... بـــالغـــوانـــي مشبّبـــا
جُلْـــتَ فـــي الخلْـــد جـــولـــةً ... هـــل عـــن الخلـــدِ مَـــنْ نَبـــا
وَصِـــفِ الحـــورَ مُـــوجـــزاً ... وإذا شئـــتَ مُطنبـــا

(الشّوقيات ٤/ ٧٨ و٧٩) باختصار وانتقاء.

(١) يبدو أنَّ حدائقَ قرطبةَ وبساتينها كانتْ مَرتعاً لحبِّ ابنِ زيدون ومعشوقَته ، وكذلك مرتعاً للشّعراء العشّاق ، فقد كانَ ابنُ زيدونَ ومحبوبتُه يتساقيَان تحتَ ظِلالِ تلكم الحدائق كؤوسَ الهوىٰ ، ويعبّان منْ شَذا النَّعيم ، تغمرهما ظلالُ الحبّ ودفؤه ، وسِحرُ الطَّبيعةِ وأناقتها. وكان كلُّ واحدٍ منهما مُولّهٌ بصاحبهِ ، تغمرُه نشوةُ العِشقِ ، وتداعبُه همساتُ الهيامِ ، تحتَ أنداءِ الأنسامِ العطرات التي تفوحُ من حدائقِ قرطبةَ الزّاهيات الجميلات. وهكذا أحبَّ ابْنُ زيدون أنْ يرسمَ بريشتهِ الشّاعرية صوراً حلوةً لمعشوقتهِ التي سمّاها «ولاّدة».

يحصلَ علىٰ إذنٍ منْ معشوقتِهِ ولاّدة؛ وهناكَ عَبَسَتْ «ولاّدتهُ» وبَسَرَتْ[1]، وأَرْعَدتْ وأبرقَتْ، وهدَّدت وتوعَّدت، فكانتْ كما قالَ ابنُ زيدون عنها: فَخَبا منْها بَرْقُ التَّبسُّم، وبَدَا عارِضُ التجهم[2].

* وزعموا أنَّ ولاّدة هذه قد ثَارَتْ لأنوثتِها، وأعرضتْ عنِ ابنِ زيدون، وتجهمَتْ بوجههِ، ولعبَتْ بها الغيرةُ لعباً عكَّر مزَاجَها، وزلزلَ في حبِّه أسَاسَها. وذلك أنَّه كانَ لولادةَ جاريةٌ سوداءُ بديعةُ المعنىٰ، حسنةُ الصَّوت، بارعةٌ في أداءِ الغِناء، يداعبُ صوتُها أوتارَ القُلوب، وهذهِ الجاريةُ المغنيةُ تُدعى عُتْبةَ؛ وقد غنَّتْ عتبةُ ذات ليلةٍ ابنَ زيدون وولاّدتَه:

أَحبَّتَنَا إنِّي بَلَغْتُ مُؤمَّلي ... وسَاعَدَني دهْري وَوَاصَلني حِبّي
وَجَاءَ يهنِّيني البَشيْرُ بوصْلِهِ ... فَأَعْطَيتهُ نَفْسي وزدْتُ لَه قَلبي

* ويظهرُ أنَّ عتبةَ قد أدَّت هذَين البيتَيْن أحْسَنَ أداء، وطرَّبَتْ فيهما، وحَسَّنتْ صوتَها، فَسَرىٰ في النُّفوسِ، فأدّى ذلك إلىٰ أنْ يطلبَ منها ابنُ زيدون أنْ تعيدَ اللحنَ نَفْسَه والأداءَ عينَه، وبدا لمعشوقهِ ابنِ زيدون ولاّدة أنَّه قد مَالَ إلى جارِيتها، وأنَّها شَغَفَتْه حبّاً، وظنَّت - وما أكثر ظنونهنَّ - أنَّه يُغَازِلُها منْ دونها، فتحرَّكَتْ غيرتُها، وغَضِبَتْ غَضَباً شَديداً، وكيفَ لا وقد سألَها الإعادة دونَ إذْنٍ منها؟! ثمَّ صبَّتْ نارَ غضبها وعتْبِها علىٰ جاريتها؛ وقد ذكرَ هذه الواقعة ابن زيدون فقال: فسألْتُها الإعادة، بغيرِ أمْر ولاّدة، فخَبا منها برقُ التّبسُّم، وبدا عارِض التّجهم، وعاتَبَتْ عُتْبَةَ، فقلتُ:

وَمَا ضَرَبَتْ عُتْبىٰ لذَنْبٍ أَتَتْ بِهِ ... ولكنَّما ولاّدةٌ تَشْتَهي ضَربي
فقامَتْ تَجُرُّ الذَّيْلَ عَاثِرةً بهِ ... وتَمْسَحُ طلَّ الدَّمعِ بالعَنَمِ الرَّطْبِ

---

(١) «بسرت»: نظرتْ بكراهيةٍ شديدةٍ عابسَة من شدّةِ الهمِّ الذي أصابها منَ الغيرةِ القَاتِلة.

(٢) الذخيرة (١/ ٣٧٨) طبعة مصر. وقال المقّري عن وَلَهِ ابنِ زيدونَ بولاّدة: وفيها خلعَ ابنُ زيدون عذاره، وقال فيها القصائدَ الطّنانة، والمقطّعات. (نفح الطيب ٥/ ٣٣٧).

* وهنا تبدو «ولّادة» بصورةٍ أخرىٰ ، لقد تبدّلَتْ عواطفُها ، وتغيَّرتْ مشاعِرُها، وهناكَ أنشأتْ أبياتاً ـ عَفْواً أنْشَأها ابنُ زيدونَ على لسانِها ـ فيها بعضُ الحِدَّة ، وفيها لَسْعُ الغيرة ، والتّعريض بأنَّه قد جَارَ عليها ، فلم ينصفْ في الحبِّ ، ولم يعرفْ كيفَ يختار ، حيثُ تَركَ غُصْناً مُثْمِراً دانيَ القُطوف، شهيَّ الثّمر، بل تركَ بَدْراً متفرّداً في السَّماء ، عالياً في الفَضَاءِ، جميلاً يسرُّ النَّاظرين ، ومن ثم اصطفىٰ غُصْناً ذاوياً غيرَ مثْمر ، ونجماً غيرَ مقمر، ولتعاستِها فُوجئَتْ بمنافسٍ لها لا يترقَّى ولا يصلْ إلى مُستَواها.

* ثم إنَّ «ولَّادة المزعومة» أنشأتْ في عِتابه والتَّعريضِ به أسلُوباً قد تعانَقَتْ فيهِ الألفاظُ والمعاني ، كيما تعبّرَ عن مكنونِ نفسِها ، وتبرزَ خصالَها وجمالَها ، وكيفَ أَتَمَّا تلكَ الليلة على أسوأ حالٍ ، وهَجَرا الكأْسَ وركَنَا إلىٰ الملالِ.

* ذكر ابنُ زيدونَ هذا الخِصام ، بأسلوبهِ وصَنْعتِه فقال: فبتْنَا علىٰ العِتابِ ، في غيرِ اصطحابِ ، ودَمُ المدام مَسْفُوك ، ومأخذُ اللهوِ مَتْروك ، فلمّا قامتْ خطباءُ الأطْيارِ ، علىٰ منابرِ الأشْجار ، وأنفتْ منَ الاعترافِ ، وباكرتْ إلىٰ الانصِراف ، وشتْ بمسْكِ الأنفاس ، علىٰ كافُورِ الأَطْراس:

لَوْ كُنْتَ تُنْصِفُ في الهَوى مَا بيْنَنَا ... لَـمْ تَهْـوَ جَـاريتـي وَلَـمْ تَتَخَيَّـرِ
وتَـركْـتَ غُصْنـاً مُثْمِـراً بِجَمَـالِـهِ ... وَجَنَحْتَ للغُصْنِ الذي لَمْ يُثْمِرِ
وَلَقَـدْ عَلِمْـتَ بـأَنَّـني بَـدْرُ السَّمَـا ... لَكنْ دُهيْتُ لشَقْوتي بالمُشْتَري[1]

* نعم لقدْ أَنْشَأَتْ ـ بل أنْشِئَتْ ـ لولّادة تلكم الأبيات ، حيثُ جعلَتْ

---

(١) الذخيرة (١/ ٢٦٨ ـ ٢٧٠) ، ونفح الطيب (٥/ ٣٣٧ و٣٣٨) ، ونزهة الجلساء (ص/ ٧٨ و٧٩) ومعجم النساء الشواعر (ص/ ٤٨٨) ، وشاعرات العرب (ص ٤٨٠) ملاحظة: ما قرأناه من إنشاء ابن زيدون.

نَفْسَها نِدّاً للبدْرِ المُنير ، وعَرَّضَتْ بعتبةَ التي تُشْبِه نَجْم المُشتري المُظْلم ، ولعل نفسيّة ـ «ولاّدة المزعومة هذه» ـ وشعورَها بجمالِها وملاحتِها ، وترفّعِها عن مستوىٰ الجواري والقِيان جَعلَها تقولُ ما تقولُ ، فهي أنْثىٰ ، وهي حرّةٌ حسيبةٌ ، وهي شاعرةٌ ، وهي أديبةٌ جعَلَتِ البيانَ ناصِعاً في نَظْمِها وشِعْرِها وكلامِها.

* وهكذا تلعبُ الغيرةُ في قَلْب هذه المرأة الحسْنَاء ، وتكون سَبباً منْ أسبابِ جفائِها للعاشِقِ الوامِقِ الرّقيقِ الأنيقِ ابنِ زيدون ، فقد جاءتِ الغيرةُ لتذكيَ في نَفْسِها شتّى الوساوس ، ومنْ ثمّ تحصلُ القطيعةُ ، ويذوقُ ابن زيدون ـ بعد نعيمِ قُربها ـ جحيم هجرها وصدّها ، فقد ازورَّتْ عنه ، وغَدا وحيداً في مَيْدانِ الحبِّ.

أَنّـاتُ الـفِـرَاق:

* هناك سؤالٌ يطرحُ نَفْسَه: مَا حالُ ابن زيدون بعد تصرُّفهِ مع عتْبَةَ؟

* إنَّ أبَا الوليد بنَ زيدون ـ رغْمَ ما صدرَ عنْه ـ ما زالَ يحنُّ إلى تلكَ المرأةِ التي دعَاها «ولاَّدة» وإلى لقائِها ، فيترجمُ أنَّاتِه جميعَها في شعْرٍ جميل ، يتضوّعُ منه رائحةُ ذلك الحبِّ الهامسِ ، وتشاركُ فيه مشاعرهُ وأحاسيسُه ، وفي ذلك يعبّرُ عنْ فراقِهِ بالبكاء والسَّهرِ لغيابِ الوجْه الحسنِ وأنَّه لا يستطيعُ أنْ يكتمَ الهوىٰ ، وأيّ هوى ، يقول:

تَـبْكي فراقَك عَيْنٌ أَنْتَ نَاظِرُها ... قَدْ لَجَّ في هَجْرِهَا عنْ هَجْرِكَ الوسَنُ
إنَّ الزَّمَانَ الذي عَهْدي بِهِ حَسَنٌ ... قَدْ حَالَ مُذْ غَابَ عنّي وجْهُكِ الحسنُ
وَاللهِ مَا سَاءَني أنّي جُفيْتُ ضَنىً ... بلْ ساءَني أَنَّ سِرّي بالضَّنى عَلَنُ
لَو كَانَ أمْريَ في كَتْمِ الهوَى بِيَدِي ... ما كانَ يَعْلَمُ ما في قَلْبيَ البَدنُ[1]

---

(١) ديوان ابن زيدون (ص ٣١٦) بشرح د. يوسف فرحات طبعة بيروت. ولعلَّ ابنَ زيدون في هذهِ الأبياتِ يحنُّ إلىٰ وطنهِ قرطبةَ الذي خرجَ منه وفرَّ خائفاً يترقب.

* وأثَّرَ الفراقُ في ابنِ زيدونَ ، وبَدتْ علائمُ اللوعةِ تظهرُ علىٰ لسانِهِ ، وكذلكَ علاماتُ الحبّ تنمُّ عنها أنفاسُه ودموعهُ وقلبهُ ، وهناك يطلبُ منها التفاتـةً نحوه عَلَّ ذلك ينقذُه منَ الموتِ الذي أضْحَى قريباً منه قابَ قوسَيْن أو أدنىٰ ، أو علَّها تخفّفُ شيئاً منْ بلباله وبلابلِه ، ثم يطلبُ منها لقاءَه لتعرفَ حقيقةَ أمْرِهِ ، وبعد ذلك لتصنعَ ما هيَ صانعة؛ فاسمعْ إليه يتحرَّق قائِلاً :

أَغَـائِبَـةٌ عنّـي وحَـاضِـرةٌ مَعـي ... أُناديكِ لما عِيْلَ صَبْريَ فاسْمَعي
أَفي الحقِّ أَنْ أَشْقَىٰ بحُبِّكِ أو أرىٰ ... حَريقاً بأَنْـفَاسي غَريقاً بأَدمُعِي
أَلا عطْفَةً تحيَا بها نَـفْسُ عَاشِقٍ ... جَعَلْتِ الرّدىٰ منْه بِمَرأَىٰ ومَسْمَع
صلِيْني بَعْضَ الوَصْلِ حَتّى تَبيَّني ... حَقْيقةَ حَاليَ ثمّ ما شئْتِ فاصْنَعي(١)

صـوْرَةُ وَلاَّدَةَ عنْـدَ ابـنِ زَيْـدُونَ :

* كانَ لولادةَ معشُوقَةِ ابنِ زيدون صورةٌ خاصةٌ في عينَيه اللتين حاولَتا أنْ ترسمَاهَا شِعْراً .

* ولعلَّ جمالَ ولاّدتهِ وملاحتَها قد فَجَّر عبقريتَه الشِّعرية في رسْمِها بالكلماتِ الهامِسَة ، وإذا أردْنَا أنْ نقفَ علىٰ نوعِ جمالِ ولاَّدة ابنِ زيدون ، فلا بدَّ منْ وقْـفَةٍ جميلةٍ هادئةٍ مع ديوانِه الذي حفلَ بوصْفِها ورسْمِها والتّغزُّل بها ، إذْ كانتْ حبَّه ونشيده ، ومصدْرَ وحيهِ وإلهامِه ، وسببَ نعيمِه وشقائِه في مرحلةِ الشَّباب .

---

(١) المصدر السَّابق (ص ١٦٣). ويثيرُنا ابنُ زيدون كثيراً في مواطنَ من أشعاره ، لأنَّ الآلامَ التي عاناها بِسَببِ هَجْر «ولادته» أو بسببِ نَفْيه عن قرطبةَ كانتْ تعبيراً عن شعورهِ ومشاعِره الحقيقية ، حيثُ جسَّمها في نَغمٍ صادقٍ مثيرٍ ، وتعبيرٍ يَعْبرُ حنَايا النفوسَ ليصلَ أضالعَ القلوبِ عندما يقول :

هـل تَـذكـرونَ غَـريبـاً عَـادَهَ شجَـنُ ... مـنْ ذكـرِكُـم وجَفَـا أجْفَـانَـه الـوَسَـنُ
يخفـي لـواعِجَـه والشـوقُ يفضحُـهُ ... فقـد تسـاوَىٰ لـديـه السِّـرُّ والعَلَـنُ

* ومَنْ يطالعُ شِعْرَ ابن زيدون في محبوبتهِ هذه يظهرُ له بأنَّها ذات عينَيْن سوداوَيْن نجلاوَيْن ، يبهرَان بِحَوَرِهما الأنام ، فهيَ ذاتُ طرفٍ سَاحِر ، ولونٍ حنطيٍّ آسِرٍ ، اسمعْ إليه يقول:

فهِمْتُ مَعْنَىٰ الهَوَىٰ منْ وحْيِ طَرفكِ لي
إنَّ الحَـــوَارَ لمفْهُـــومٌ مِـــنَ الحَـــوَرِ

* ونتابُع العَيْنَ الزَّيدونيّـةَ التي ترسمُ الحبيبةَ ، فنجدُ منْ خلالِ أغْزَاله بها بأنَّه كانَ لها خَالٌ أسودُ جميلٌ يزدانُ به خدّها السَّاحر ، أمّا ثَغْرُها فهو مفضض ، وأمّا شَعْرها فذهَبيُّ اللونِ يلهثُ خَلْفَها ويداعبُ أكْتَافَها ، و:

مفَضَّـــضُ الثَّغْـــرِ لَـــهُ نُقْطَـــةٌ مـنْ عَنْبَـرٍ فـي خَـدّهِ المُـذْهَـبِ

* وهذهِ الحبيبةُ أَلْيَنُ النّاسِ أَعْطافاً ، فهيَ دقيقةُ الخَصْرِ ، رشيقةُ القَدّ ، فاتنةُ النَّظرات ، عطرةُ الأنْفَاس:

يا أَلْيَنَ النَّاسِ أَعْطَافاً وأَلْينَهم لَحظْـاً وأَعْطَـر أنْفَـاسـاً وَأَرْدَانَـا

* أمّا خلقُ المحبوبةِ فهو عَذْبٌ لطيفٌ ، وأما ملاحتُها فحدّثْ عن حسنهِ ، وأمّا ظرفُها وخفّة روحِها فرائحةُ الطِّيْبِ ، وأما حديُثها اللذيذ فهو كالمنىٰ واللقاءِ بعد الهجر المُضني:

لَـهُ خُلُـقٌ عَـذْبٌ وخَلْـقٌ مُحسَّـنٌ وظَرْفٌ كَعَرفِ الطِّيْبِ أو نَشْوَةِ الخَمْرِ
يُعَلّلُ نَفْسي منْ حَديثٍ تَلذُّهُ كَمثْلِ المُنَىٰ والوَصلِ في عَقِبِ الهجْرِ

* ومع هذا كلّه فهيَ ذاتُ قامةٍ ممشوقةٍ هيفاءَ ، وجيدُها طويلٌ وضَّاء ، وطلعتُها بهيّـةٌ تشبهُ ريمَ الفَلا ، ورضَاها هو منىٰ الرُّوح ، وروحُ المنى:

يَا فَتيْتَ المِسْكِ يَا شَمْسَ الضُّحَىٰ يـا قَضيْـبَ البَـانِ يـا ريْـمَ الفَـلاَ
إنْ يكُـنْ لـي أَمَـلٌ غَيْـرَ الـرِّضَـا مِنْـــك لا بُلِّغْـــتُ ذَاكَ الأَمَـــلا

* وحسنُ محبوبتهِ بِشَكْلٍ عام فيه حياتُه وموتُه ، وهو لا يستطيعُ سلوانَها ، فهو باكٍ ، وعيناها تَقْضيان علىٰ عَينَيْه:

رَأَيْــــتُ الحُسْــــنَ قَــــدْ ولاَّ ... لِكِ إحْيَــــائــــي وَإِهْــــلاكــــي
وَلاَ أَسْطِيْــــعُ سُلْــــوانــــاً ... فَقَــــدْ أَوْثَقْــــتِ أَشْــــرَاكــــي
فَكَــــمْ أَبْكــــي عَلَيْــــكِ دَمــــاً ... ولا تَــــرثيْــــنَ للبَــــاكِــــي
فَهَــــلْ تَــــدريْــــنَ مــــا تَقْضِــــي ... عَلَــــىٰ عَينَــــيَّ عَيْنَــــاكِ
وَمَــــا يُــــذْكيْــــهِ مــــنْ نَــــارٍ ... بقَلْبــــي نُــــورُكِ الــــذَّاكــــي؟

* يُضاف إلى ذلك كُلّه أنَّ ولاّدتَه لها نقابٌ سَاتِر يزهـرُ وجهها منْ تحتِه:

مَتَــــىٰ أبثُّــــكِ مــــا بِــــي ... يَــــا رَاحَتِــــي وعَــــذَابــــي
متَــــىٰ يَنُــــوبُ لِسَــــانــــي ... فــــي شَــــرْحِــــهِ عــــنْ كِتَــــابــــي
يــــا مُنْيَــــةَ المُتَعَــــزّي ... وحجّــــةَ المُتَصَــــابــــي
الشَّمْــــسُ أَنْــــتِ تَــــوارَتْ ... عَــــنْ نَــــاظِــــري بِــــالحِجَــــابِ
مَــــا البَــــدْرُ شَــــفَّ سَنَــــاهُ ... علــــىٰ رقيــــقِ السَّحَــــابِ
إلاَّ كَــــوجْهِــــك لمّــــا ... أَضَــــاءَ تَحْــــتَ النِّقَــــابِ[1]

وَلاَّدَةُ وَأَغْـزَالُ ابْـنِ زَيْـدونَ:

* لا شَكَّ في أنَّ أحمدَ بنَ زيدون كانَ شاعِرَ قرطبةَ ولسانَ غَزَلها، وكانَ شِعْرُه مرايا لحسَانِها، فهو رسَّامٌ ماهِرٌ، وشاعِرٌ بارِعٌ يجسِّدُ بأشعارِه صُورَ الفتَياتِ، لذلك انصرفَتِ الأذْهانُ إلىٰ أنَّ كلَّ ما تغزَّل بهِ ابنُ زيدون كانَ في «ولاَّدة» التي شَهرها شِعْره وشَهَرتْه باسْمِها.

* ونحنُ في رحاب أَغْزَالِ ابنِ زيدون بولاّدته نستمتعُ بأويقاتٍ حلوةٍ نَقْضيها في أُنْس معهما، لأنَّ الآثَارَ الزَّيدونيّة الغَزَليّة قد تمخَّضَتْ عن

(١) إذاً، كيف نقرّ بأنَّ ولاَّدة التي زعموها كانتْ تخالِطُ الرجال، وتعقدُ الصَّالونات الأدبية، وتعرضُ وتستعرضُ جمالَها؟ لعلَّ ابنَ زيدون قال هذه القصائد في إحدى البنَات الإسبانيّات أو غيرهنَّ.

هُيَامِهِ بهذهِ المرأةِ التي أوحَتْ إليه بقصائدَ رقيقةٍ تَسْحَرَ الأَلْباب ، وتُضْفي على المجالسِ الأدبية أطيبَ الرُّضاب ، لأنَّ حبيبَته هذه كانتْ مَصْدَرَ إلهامهِ ، ومنْبَعَ حبِّه وهيامِه.

* إنَّ أغزالَ ابنِ زيدون بولاّدته أشهرُ منْ نارٍ على عَلَم ، إذْ أصبحتْ حديثَ النَّاسِ في مجالسِ الإيناس ، ومعاقدَ الفكاهةِ والائتناسِ ، خُصوصاً عندما كانَ ابنُ زيدون يرسمُ أغزالَه في قصائدَ رقيقاتٍ ، تبعثُ البَهْجة في النُّفوس ، وتزرعُ الأُنْس في القلوب وترطّبها بحلاوةِ معانيها ، وتأْسِرُ الأرواحَ بسلاسةِ مغَانيها ، وتغذّي الأعين بحسنِ مبانيها وقَوافيها.

* ومنَ العجيبِ حقّاً أنّنا نَلْمحُ أنَّ ابنَ زيدون يلهجُ بذكْرِ محبوبَتهِ ولاّدة وهو هاربٌ بعيدٌ عنْ قرطبةَ، وعن جنَّاتِها السَّاحرة ، وعن حبيبةِ القَلْبِ ومُنى النَّفسِ في قرطبةَ ، تلك الحبيبةُ التي استضاءَ بجمالِها في لياليه الطَّويلة ، فأضاءَ بجمالِ شِعْره نفوسَ العُشَّاق ، وملأَ أفئدتهم بأكوابِ الأَشْواق.

* وها نحنُ أولاءِ نتحدَّث في فقْراتٍ لطيفةٍ جميلةٍ عن ألوانِ أغْزالهِ وحبّه وهيامِه «بولادته هو» التي اشتهرتْ عند النَّاس بولادةَ ابنةِ المستكفي ، والتي رأينا منْ خلالِ ما قدّمناه من أدلَّة فيما مضىٰ بأنَّها شخصيَّةٌ غيرُ موجودة ، وأنَّه لا عقبَ للمستكفي الذي طارَ المُلْكُ منه ولم يَعُدْ.

أَشْوَاقٌ وَهُيَامٌ وَذِكْرَيَاتٌ:

* في غربةِ ابنِ زيدون واغترابهِ يزداد شوقهُ ، وتندلعُ أشواقهُ ، فتهفو روحه نحوَ محبوبتِه ، فتتوالدُ المعاني الجميلةُ في ذِهْنِهِ وخيَالِه ، وتتفتَّقُ قريحتُه عن أبياتٍ عذبةٍ كالماءِ النَّميرِ الفُراتِ ، تروي القَلْب ، وتغذّي الضَّمير ، فها هو يتغزَّلُ بِمَنْ يَهوى ، بذلك الحبيب الذي تَنَاسَاه ، والذي

أَلْهَتْه عنه المُلَح والفُكاهات ، ولكنْ لعلَّ الليالي والآمالَ توصلهُ إلىٰ ما يَصْبو إليه :

يَـا نَـازِحـاً وضَميـرُ القَلْـبِ مَثْـوَاهُ   أَنْسَتْـكَ دُنْيـاكَ عَبْـداً أَنْـتَ دُنْيَـاهُ
أَلهتْـكَ عنْـه فُكَـاهَـاتٌ تَلـذُّ بهـا   فَلَيْـس تَجـري بِبَـالٍ منْـكَ ذكْـرَاهُ
عَـلَّ الليـالـي تُبقّينـي إلـىٰ أَمـلٍ   الـدَّهْـرُ يَعْلَـمُ والأيَّـامُ مَعْنَـاهُ[1]

* وفي أيَّامِ مُقامِهِ في بلَنْسيةَ ، تهزُّه الأشواقُ ويحرّكُهُ الهيامُ إلىٰ محبوبتهِ في قرطَبةَ ، وكيف لا يبعثُ بِسلامِه لها ، وإنْ كانتِ المسافةُ نائيةً بينهما؟! ولكنَّ المسافةَ قريبةٌ بينَ قَلْبِهِ ولسانِهِ ، فإذا به يفيضُ برقيقِ الكَلام ، وعَذْبِ النّظام ، وإذا به يريدُ أنْ يُحمِّلَ أنسامَ الصَّبا سَلامَ جسْمِه ، وهو في بلنسيةَ ، إلى قَلْبِهِ المُدنف الذي تركَه في قرطبةَ ، فيصوغُ هذه المشَاعر بمعاني هذين البيتَيْن الرَّقيقَيْن :

غَريْبٌ بأقْصَىٰ الشَّرقِ يشْكُرُ للصَّبَا   تَحَمُّلَهـا منْـه السَّـلامَ إلـى الغَـرب
وَمَا ضَرَّ أَنْفَاسَ الصَّبا في احْتِمالِها   سَلامَ هَوىً يهْديهِ جسْمٌ إلى قلْبِ[2]

* إنَّ هيامَ ابن زيدون بمحبوبتهِ هذه هيامٌ يبعثُ في النَّفْسِ الشَّفَقَة والإشْفَاق عليه ، فهو يُبَرهنُ لها على حبِّه المقيمِ علىٰ الرغمِ منَ المسافاتِ الشَّاسعةِ بينهما ، ويذكرُ لها الأرقَ والسَّهْرَ ، وأنَّ خيالَها عن ضميرِهِ لا يغيبُ .

---

(١) ديوان ابن زيدون (ص ٣٢٠) ، وانظر : قلائد العقيان (١/ ٢٢٥) ، والمغرب (١/ ٦٥) .

(٢) ديوان ابن زيدون (ص ٣٢٠)؛ وانظر : قلائد العقيان (١/ ٢٢٩) وغير ذلك من مصادر . وما أجملَ قولُ الشَّاعر في هذا المعنىٰ :

أراكُـم بِقَلْبِـي مِـنْ بـلادٍ بَعيـدةٍ   فَيَـاهَـلْ تَـروني بـالفُـؤَادِ علىٰ بُعْـدي
فُـؤَادي وطَـرفـي يـأْسَفَـان عليكـمُ   وعنـدكـمُ روحـي وذكـركُـمُ عنْـدي

(الداء والدواء ص ٣٧٤) .

* قالَ ابنُ خاقان في «القلائد» ما ملخَّصُه: وَلما تعذّرَ فَكَاكُهُ، وعَفر فَرقَدُهُ وسَماكُهُ، قالَ يَصِفُ ما بين مَسرَّاتِهِ وكروبِه، ويذْكُر بَعْدَ طلوعِ أَملِهِ منْ غُروبه... ويخاطبُ ولّادة بوفاءِ عَهْده، ويقيمُ لها البراهين على أَرقهِ وسُهده:

مَا جَالَ بَعْدَكِ لَحظِي في سَنَا القَمَرِ ... إِلَّا ذكـرتُـكِ ذِكْـرَ العَيْـنِ بـالأَثَـرِ
لا يَهْنَأُ الشَّامِتُ المرتَاحُ خَاطِرهُ ... أَنّي معنًّىٰ الأماني ضَائِعُ الخَطَرِ
إِنْ طَالَ في السِّجْنِ إِيْدَاعي فلا عَجَبٌ ... قَدْ يُودَعُ الجفْنَ حدُّ الصَّارمِ الذّكَرِ(١)

* ويبدو أنَّ هذهِ المرأةَ الحبيبةَ المحبَّبةَ إلىٰ ابنِ زيدون كانت كلّما استمعَتْ وسَمِعَتْ أشعارَه وأغْزَاله فيها تزدادُ تدلّلاً وتدلّهاً، وهو يزدادُ تذلُّلاً وتولهاً وتدلهاً، فيشكو ويستوحشُ ويأْلَمُ ويعاتبُ، ويتمنّى ويمني نَفْسه بالآمالِ يرقُبها، ويعيشُ بين لو وليت، تُرىٰ هل يستجيبُ الدَّهْرُ له؟! وهل يرقُّ لمعانيهِ الرَّقيقةِ في معشوقتهِ الأنيقةِ؟! إذاً لنقرأ هذا الغَزَل الرّقيق:

أَيـوحشُنِي الـزَّمـانُ وأنْـتَ أُنْسِي ... ويُظْلِـمُ لـي النَّهـارُ وأنْـتَ شَمْسِي
وأَغْـرِسُ فـي محبَّتِـكِ الأَمَـانـي ... فأَجْنِي الموتَ منْ ثَمراتِ غَرسِي
لَقَدْ جَازَيْتِ غَدْراً عَنْ وفَائي ... وَبعْـثِ مـودَّتـي ظُلمـاً بِبَخْـسِ
وَلَـو أنَّ الـزَّمـانَ أطـاعَ حُكْمِـي ... فَـديتُـكِ مـنْ مكـارهـةٍ بنَفْسِـي(٢)

* ويكادُ الشَّاعر العاشقُ ينهارُ، ولكنْ ما عَسَاه أنْ يقولَ فيمن ملكَتْ عليه دَرْبَ حياته، وحياةَ دَرْبِهِ:

وَلَـقَدْ شَكَوتُكِ بالضَّميرِ إلىٰ الهَوىٰ ... وَدَعَـوْتُ مـنْ حَنْـقٍ عَلَيـك فـأَمَّنَـا
منَّيْتُ نَفْسي منْ صَفَائِك ضلّةً ... وَلَقَـدْ تَغُـرُّ المَـرْءَ بَـارِقَـةُ المُنـى

---

(١) انظر: قلائد العقيان (١/ ٢٣٣ و٢٣٤) بتصرف واختصار يسير.
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ٢٣٥)، ولعل ابن زيدون في هذا الغزل يخاطب قرطبة مدينته.

أنْـتِ سِـرُّ الـهَـوَىٰ:

في أنفاسِ ابنِ زيدون الغزليّةِ بولادتهِ ، نلمحُ معاني الحبِّ ، وخَفَقَاتِ القَلب ، كما نلمحُ المعاني العذبةَ الجذّابةَ التي يستهوي بها قَلْبَ محبوبتِه ، ويرضي كبرياءَها ، بل ودَلالها ، فهو الشّاعِرُ العَاشِقُ الوامِقُ الذي تبرّحُ آلامُ الجوى مشاعِرَه ، ولكنّه يبثُّ هذه المشاعر إلىٰ محبوبتِه في صورةِ شكْوىٰ ، وفي صورةِ المولّه السَّاهر الباكي بدموعِ الحبِّ الدَّافئة ، فإذا به يجمعُ معانيه في أزاهرَ متنوعةِ الألْوان ، نديّة الرَّوائح ، ويجعلُ من حبيبتهِ سرّ الهوىٰ والضَّنى والدّموع و . . . اسمع إليه :

أَنْتِ مَعْنَىٰ الضَّنَىٰ وسِرُّ الدُّمُوع وسَبيـلُ الهَـوىٰ وقَصْـدُ الـوُلُـوعِ
أنْـتِ والشَّمْـسُ ضـرّتَـان ولكـنْ لَكِ عنْدَ الغُروبِ فَضْل الدُّموعِ
ليسَ بالمؤيسي تكَلُّفُكِ العُتْبَ دلالاً مـنَ الـرِّضـا المَطْبـوعِ
إنّمـا أَنْـتِ والحسـودُ معنّـى كَـوكَـبٌ يستقيمُ بَعْـدَ الـرُّجـوعِ[1]

* إنَّ قَطْعَ العلائقِ الودّية لا يستطيعُ ابنَ زيدون تحمّلَها منَ النَّاس ، فكيفَ بمن يهواها ، ويتمنّى لِقَاها؟!

* ولعلَّ الفتورَ الذي حَصَلَ بين ابن زيدون وبين «ولّادتِهِ» قد جَعَلَ شَاعِرنا لا يطيقُ صَبْراً ، ولا يطيقُ تحمّلاً ، فَإِذا به يترجمُ عواطفَ قَلْبهِ علىٰ لسانه ، ويبعثُ لها بأبياتٍ من العِتاب ، وهذه الأبياتُ ممزوجةٌ بالسِّحْرِ الحَلال منْ ألفاظِ الهوىٰ والدَّلال ، ويعبِّر في ختامها عَن رضاه بجورِها ، ترىٰ ما دور الواشين في حبِّ ابنِ زيدون؟ هذا ما ستفصحُ عنه أبياته :

أَأُسْلَبُ مِنْ وصَالِكِ مَا كُسيْتُ وأُعْـزَلُ عَـنْ رِضَـاكِ وقَـدْ وليْـتُ
وَكَيفَ وَفي سَبيْلِ هَوَاكِ طَوْعاً لَقيْـتُ مِـنَ المَكَـارِهِ مَـا لَقِيْـتُ

(١) انظر : ديوان ابن زيدون (ص ١٦٢).

أســرُّ عَلَيْــكِ عتبــاً لَيْــس يَبْقَــىٰ وَأُضْمِــرُ فيــك غَيْظَــاً لا يَبِيْــتُ
ومَــا ردّي عَلَــىٰ الــواشيــنَ إلاّ رضيْتُ بجورِ مَالِكَتي رضَيْتُ[1]

* وفي واحدةٍ من وقْفات ابنِ زيدون مع «ولاّدته» ينقُلنا إلى عالَم الموتِ ، إذ كانَ الموتُ حاضراً في فكْرِه دائِماً ، حتى غدا خاطراً مُلحّاً ، لا يمكنُ أنْ يمضيَ دونَ أنْ يدعَ تأثيرَه فيْنَا ، وذلك عندما قالَ فيها وهو يقسمُ باللهِ على طريقةِ العُشَّاق :

تَــاللهِ لَــوْ حَلَـفَ العُشَّــاقُ أَنَّهمــو موتَىٰ منَ الوَجْدِ يومَ البَيْنِ ما حَنَثُوا
قَومٌ إذا هُجِرُوا مِنْ بَعْدِ ما وُصِلُوا ماتُوا فإنْ عَادَ مَنْ يَهْوَونَه بُعِثُوا
تَرىٰ المحبّينَ صَرعىٰ في عِراصِهِم كَفِتْيَةِ الكَهْفِ مَا يَدْرُونَ مَالَبِثُوا

* ويشاركُ شعراءُ «التّروبَادُور»[2] ابنَ زيدون في فكْرةِ الموتِ والحبِّ ، فيقول «بَـرْنَـارَد دي فينْتَادور» عن نَـفْسِه إنَّه : ميتٌ حقيقة هذا الذي لا يحسُّ في قَلْبه الطَّعم النّاعم للحُبّ ، كيفَ تسيرُ الحياةُ دون حبّ؟! كيف تكونُ إن لم تكنْ أَسَفاً للآخرين؟

* ويقولُ «برنَــارد دي بُــورن» : دونَ شَــكّ ينبغــي أنْ أمــوتَ منْ حبِّ أجْمَلِ واحدةٍ في العَالم .

* ويقولُ أيضاً : أنا تحتَ رحمتِهــا ، ولو سَرَّها قَتْـلي فلسوفَ تجدُني رَاضياً .

بـيْنِي وَبَـيْـنَـك :

* نَلحَظُ أنَّه في شِعْرِ ابن زيدونَ في «ولاّدته» ملاحظةً ملفتةً للنَّظر ،

---

(١) ديوان ابن زيدون (ص ٥٢) ، وأرى أنَّ الخطاب هنا لقرطبة!!! .
(٢) «شعراء التّروبادور» : همُ الذين عُرِفُوا في العُصورِ الوسطىٰ في أواخِرِ القَرنِ الحادي عشَر الميلادي ، وهم شعراءُ جوَّالُون كانُوا يتنقّلُون منْ قَصْرٍ إلىٰ قَصْرٍ ومن بلاطٍ إلى بلاطٍ في جنوبِ فرنسا ، ينشدونَ منْ أغاني الحبّ ما شَاءَ لهمُ الإنْشَاد .

فهو يُنوِّع أساليْبه في التَّغزُّلِ بها ، فمرّةً يخاطبُ قلبَها وعقْلَها ، ومرّةً يعرضُ لوعتَه وأسَاه وصَبْره ، وتارةً يعرِضُ أقوالَ الواشين[1] ؛ لكنَّه يلجأُ أحياناً إلىٰ مداعبةِ محبوبَتِه ، ويعمدُ إلىٰ الصَّنْعَةِ الشِّعريةِ ، وإلىٰ التَّلاعبِ بالكلماتِ علَّ الحبيبةَ تلتفِتُ إليهِ ، ويهمسُ همساتٍ دافئاتٍ ، فيتحدَّثُ عن الأسْرارِ بينهما ، ثمّ يذكرُ حظَّه منها ذلك الحظّ الذي باعَتْه وحَمّلَتْ قلبَه الأحمالَ التي تعجزُ عن حملها قلوبُ العالمين ، وبعدها يستسلم لحبّه ، فإنْ تكبَّرتْ عليه احتملَ ، وإنْ استطالَتْ صَبَر ، وإن وإن. . . . .

بَيْني وبينَك مَالو شِئْت لم يَضع ... سِرٌّ إذا ذَاعَتِ الأَسْرارُ لـم يُـذِعِ
يَا بائعاً حَظَّهُ منّي وَلو بُذِلَتْ ... لـي الحيـاةُ بحظّـي منْـه لَـمْ أَبِـعِ
يكْفِيْك أنَّك إن حَمَّلْتَ قلبي مَا ... لم تَسْتَطِعْه قُلُوبُ النَّاسِ يَسْتَطع
تِهْ أَحْتَمِلْ، واسْتَطِلْ أَصْبِرْ، وعزَّ أَهُنْ ... وَوَلِّ أَقْبِلْ، وَقُلْ أَسْمعْ، وَمُرْ أُطِعِ[2]

---

(١) أكثرُ ما يشكو منه الشّعراء: أقوال الواشين والعذّال ، وهو كثيرٌ في أَدبهم.

(٢) ديوان ابن زيدون (ص ١٦٣) ، وانظر: وفيات الأعيان (١/ ١٤٠) ، والذخيرة (١/ ٢٢٨) ونلاحظُ في البيتِ الأخير هَمَساتِ الحرمان التي مُنيَ بها ابنُ زيدون ، والتي قد شَارَكه فيها ـ فيما بعد ـ شُعَراء التّروبادور.
ـ يقولُ أحدُ شُعراءِ التّروبادورِ «سوردل»: مع أنَّ الحبَّ يسبِّبُ آلامي ومَوتي ، فإنّني بعيدٌ عنِ الشّكوىٰ ، وإذا متُّ منَ الحبِّ ، فلذلك أقلّ شيءٍ بالنّسبةِ لأحبِّ وألطف النّساء ، وإنّني أنظرُ لهذا القَدَرِ كأنَّه سعادةٌ إذا سمحَ لي بالأَملِ بأنَّ يوماً ستَـتَـنَـازَلُ وتمنحُني رحمتَها ، فما تكونُ الآلامُ التي أكابِرُها أبداً ، إنّها لَنْ تسمعَ منّي أقلّ هَمْس.
ـ ويقولُ «جيوم دي سانت ديدييه»: إنَّ آلامَ الحبِّ الذي تَـنْـزِلُـه منْ قَلبي هذه الحسناءُ والتي أكونُ عَبْـدَها الخاضعَ والمتفاني في سبيلها ستَسَبّبُ موتـي ، مع أنّها تستطيعُ أنْ تجعلَني سعيداً ، إذا سَمَحتْ بشعرةٍ فقط منْ شَعْرِها الذي يتساقَطُ فوقَ مِعْطفها. . . . وكلّما أعيتنـي بالجفَـاء والقسوةِ ، كلّما أحببتُها بإخلاصٍ وشدّة.
ـ ويقولُ «برنارد دي فينتادور»: لقد جَرَحني الحبُّ بطريقةٍ لطيفةٍ ، حتّى إنَّ قَلبي يشعرُ منْ خلالِ التَّعاسةِ بإحساسٍ لذيذٍ ، إنّني أموتُ منَ الأَلم مئةَ مرّةٍ في اليوم ، وأعودُ للحياةِ منَ الفرحِ الشّديدِ مئة مرّة يوميّاً ، فمصيبَتي منْ نوعٍ غريبٍ جدّاً ، =

* ومنَ الملاحَظ أنَّ الأبياتِ الثلاثةَ الأولىٰ يخاطبُ فيها ابنَ زيدون قَلْبَ محبوبَته ومشاعرَها ، ويبثُّها حُبَّه ولوعتَه ، وأمّا البيتُ الرَّابعُ قد خاطبَ الحبيبة بالصَّنْعَةِ البديعيّةِ البديعةِ التي رصفها ، والتي تمثّلتْ في صِيَغٍ ستٍ مُتتالية من صنيع الطِّباق والتّفويف[1] .

= حتّى إنَّ هذه المصيبةَ ، أو المضرّة نَفْسَها مفضلة على كلّ خير ، ولأنَّ لهذا الألمِ سِحْراً كبيراً ، فكمْ تصبحُ المسرّات أكثرَ سعادةً وفرحاً بَعْدَ هذه الآلام ؟!
ـ ويقولُ «جيوم دي كابستان» : قسوتُك ، آهٍ أيّتها السَّيّدةُ الحسناءُ لا تفزعيني ، إذا سمحَ لي بالأَمَل في أنْ أنالَ منكِ بعضَ الحظوةِ في حيَاتي ، كان ذلك سَهْراً ، سَالياً منْ خلالِ هذه الفكرة الآلامَ التي أصبحتْ بالنّسبةِ لي عزيزةٌ وحلوةٌ ، إنّني متأكدٌ أنَّ الحبَّ سيعوِّضني عن آلامي وثباتي، وعلىٰ المحبِّ الرّقيق أن يغض الطَّرفَ عن القسوةِ المستمرة ، وعليه أنْ يتألمَ بطيْبِ خاطر ليستحقّ أحْسَنَ مصير .
ـ ويقول أيضاً : أيّها المخلوقُ الحلوُ السَّاحرُ البخيل ، اللطيفُ المتكبّرُ ، المليحُ الجميلُ فوقَ ما ينبغي ، يا حبيبتي التي لا أحبُّ سواها ، أسألُك باسم الرّحمة فقط أن تشفقي عليَّ .

(١) «التَّفْويف» : اشتقاقٌ منَ الثَّوب الذي فيه خطوطٌ بيْضٌ . وأصْلُ الفُوف : البياضُ الذي في أظْفار الأَحْداث ، والحبّة البيضاء في النواة .
و«التّفويف» في الاصْطلاح : عبارةٌ عن إتيانِ المتكلِّم بمعانٍ شتّى منَ المدحِ ، أو الغزَلِ ، أو غيرِ ذلك منَ الفنونِ والأغراضِ ، كلُّ فنّ في جملةٍ منَ الكلام منفصلة عن أختِها بالتّجميع غالباً ، مع تَساوي الجمل المركّبة في الوزن ، ويكونُ بالجملِ الطّويلة ، والمتوسّطة ، والقصيرة .
فالتّفويف منَ الجمل الطّويلة قولُ عنترة :
إنْ يلْحقُوا أكْرُرْ ، وإنْ يُسْتَلحقوا أَشْدُد ، وإنْ نَزلوا بضَنْك أَنْزلِ
والتفويف من الجمل المتوسطة قول ابن زيدون :
تِهْ أَحتملْ ، واحتكمْ أصْبر ، وعزّ أهُنْ وَدِلَّ أَخْضَع ، وقُل أَسْمَع ، ومرْ أُطعِ
ومثالُ ما جاءَ منهُ بالجمل القصيرةِ قول المتنبي :
أَقِلْ ، أَنِلْ ، أَقْطِعْ ، احْمِل ، عَلّ ، سَلِّ ، أَعِدْ
زِدْ ، هشَّ ، بَشَّ ، تفضّلْ ، ادْنُ ، سُرَّ ، صِلِ
(تحرير التحبير ص ٢٦١).=

إنـي ذَكَـرتُـكِ:

* تنحدرُ علاقةُ ابنِ زيدون بمحبوبتهِ إلى أسفل ، ولكنَّ علائقَ قَلبِه ظلَّتْ متمسِّكَةٌ بولادتهِ الأنيقةِ ، ذاتِ المشاعرِ الرقيقةِ ، والآدابِ الرَّشيقة.

وعلىٰ الرغمِ منْ أنَّ ابنَ زيدون قد أُلْقِي بهِ في غَياهبِ السِّجن ، إلاّ أنَّه استطاعَ الإفلاتَ ، ومنْ ثمَّ نجدُه يختبىءُ في الزَّهراءِ ضاحية قرطبة ، ومنْ هناكَ طفِقَ يستعيدُ الذّكريات ، وأخذتْ محبوبتُه تسيطرُ علىٰ مخيِّلَته في صُبْحِه ومسائِه وغدوّهِ ورواحِه ، حتّى كَتَبَ فيها قصيدتَه القافيّةَ الرّائعةَ التي تتثنّىٰ في عالَم القَصائدِ الغَزليّةِ الزَّيدونيّةِ التي بعثَتْها ولاّدته في نفسهِ ، والتي جنَى أزاهيرها من حدائقَ فيها من كلِّ فاكهةٍ زَوجَان.

* ولعلَّ هذهِ المرأةَ الجميلةَ ولاّدة كانَتْ ذاتَ صورةٍ حَسَنةٍ عند ابنِ زيدون ، أو صورةً رائقةً منْ محاسنِ الطَّبيعة ، والطَّبيعةُ تجدُ في المرأةِ ظلَّها وجمالَها ، ولذا كانتِ الحبيبةُ روضاً وجنَّةً وشَمْساً ، وقد قال المقّري عنْ شعراء الأندلس: إنّهم إذا تغزّلُوا صاغُوا منَ الوَرْدِ خُدوداً ، ومنَ النَّرجسِ عيوناً ، ومنَ الآسِ أَصْداغاً ، ومَن السَّفرجَلِ نُهُوداً ، ومن

= ولأبي الفَرج الأصفهاني كما جاء في معجم الأدباء (١٣/ ١٣٤):

يا فرجَةَ الهمّ بَعْد اليأسِ منْ فَرجِ   يا فرحةَ الأمْنِ بَعْد الخَوفِ والوَهَلِ
اسلمْ، ودُمْ، وابْقَ، وامْلُكْ، وانمُ، واَسْمُ، وَرِدْ   وأَعْطِ ، وامنعْ ، وضرَّ ، وانْفعَ ، وصِل ، وصلِ

والأصل في ذلك قول أبي العمثيل في عبد الله بن طاهر كما جاء في وفيات الأعيان (٣/ ٨٩).

أُصْدُقْ، وعفّ، وبرّ، واصبرْ، واحتملْ   واصفـحْ، وكـافِ، ودَارِ، واحلـمْ، واشْجَـع
والطفْ ، ولِنْ ، وتأنَّ ، وارفقْ ، واتّئدْ   واحـزمْ ، وجـدَّ ، وحـام ، واحمـلْ ، وارفـع

قَصَبِ السُّكَّر قُدوداً ، ومنْ قُلوبِ اللوز وسُرَرِ التُّفَّاح مباسمَ ، ومن ابنةِ العنب رُضَاباً.

* وهكذا كانتِ العلاقةُ شديدةً بينَ جَمالِ المرأةِ وبين الطَّبيعةِ ، فلا تُذْكَرُ ولاّدةُ عندَ ابنِ زيدون أو معشوقته ، إلا تُذْكَرُ معها الطَّبيعةُ الجميلةُ.

* هذا وقصيدةُ ابنِ زيدون القافيّة منْ أجملِ قَصائِد الغَزَلِ الممزوجِ بالطَّبيعةِ والمستوحىٰ منْ جَمالِ المرأةِ.

* ولنترك ابنَ خاقَان في «قلائدِه» يُحدِّثنا عَن كَلَفِ ابنِ زيدون بولاّدتِه ، وعن قصيدتِهِ الغَزَليّة هذه التي طاولتْ عنانَ السَّماءِ بغاربِ الغَزَلِ ، وأيّ غَزَل؟! ، يقولُ ابنُ خاقَان فيما نَقَله عنِ المصادرِ ، وصاغه بأُسْلُوبه السَّاحِر:

* وَكَانَ يكْلَفُ بولادةَ بنتِ المُستكفي هذهِ ويهيم ويستضيءُ بنورِ تخيّلهَا في الليلِ البَهيم ، وكانَتْ منَ الأَدَبِ والظَّرف ، وتتييم المَسْمَع والطَّرف ، بحيثُ تختلسُ القلوبَ والألْبَاب ، وتعيدُ الشُّيَّب إلىٰ أخلاقِ الشَّباب ، فلمّا حلَّ بذلك الغَرْب ، وانْحَلَّ عقْد صَبْرِه بِيَدِ الكَرْب ، حَنَّ إلى دُنُوِّها ، وجُنَّ بالقُرب مِنْ جَوِّها ، فكَرَّ إلى الزَّهْراءِ ليتوارىٰ في نواحيْها ، ويتسلَّىٰ برؤيةِ مَنْ فيها ، فوافاها والرَّبيعُ قد خَلعَ عليها بُرْدَه ، ونَثَرَ سوسَنَه وورِدَه ، وأتْرعَ جداولها ، وأنْطَق بلابلَها ، فارتاحَ ارتياحَ جَميل[1]

---

(١) «جميل»: هو أبو عمرو جميلُ بنُ عبد الله بنِ مَعْمَر الشّاعر العذريّ المشهُور ، صاحبُ بثينةَ ، وأحدُ عشّاق العرب ، كانَ يسكنُ وبثينة بوادي القرى ، وقد ذكرَ هذا الوادي بشعْرِه:

ألا ليتَ شِعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بوادي القُرى إنّي إذاً لسَعيدُ

وقد استوفىٰ ابنُ خَلّكان ترجمته في وفياته. (وفيات الأعيان ١/٣٦٦ ـ ٣٧١) وانظر (سمط اللآلي ١/ ٢٩ و٣٠) و(خزانة الأدب ١/ ١٩١).

بوادي القُرىٰ[1] ، وراح بين روضٍ يانعٍ وريحٍ طيّبة المَسْرىٰ ، فتشوَّقَ إلى لقاءِ ولّادة وحَنَّ ، وخافَ تلك النَّوائبَ والمحن ، فكتبَ إليها يصفُ فَرط قَلَقِهِ ، وضيقَ أمْرِه إليها وطَلَقِه ، ويعاتبُها علىٰ إغفالِ تَعهُّدِه ، ويصِفُ حُسْنَ محضرِها معه ومشهده ، فقال رحمهُ الله تعالى:

إنّي ذكرتُكِ بالزَّهراءِ مُشْتَاقا ... وَالأفْقُ طَلْقٌ ووجهِ الأرضِ قَدْ راقا
وَللنَّسيمِ اعتِلالٌ في أصَائِله ... كأنَّما رقَّ لي فاعتلَّ إشْفَاقا
وَالرَّوضُ عنْ مائِهِ الفضّي مبتسمٌ ... كما شَقَقْتِ عنِ اللبّات أطْواقَا
يَومٌ كأيّام لذّاتٍ لنا انصَرمَتْ ... بتْنَا لها حينَ نامَ الدّهْرُ سُرّاقا
نَلْهُو بمَا يَسْتَميلُ العينَ منْ زَهَرٍ ... جَالَ النَّدىٰ فيهِ حتى مالَ أَعْناقَا
كَأنَّ أعْيُنَهُ إذْ عايَنَتْ أَرقي ... بَكَتْ لِما بي فَجالَ الدَّمْعُ رَقْرَاقَا
وَرْدٌ تَألَّقَ في ضَاحِي منَابِتِه ... فازْدَادَ منْه الضُّحىٰ في العَينِ إشْراقَا
سَرَىٰ يُنَافِحُهُ نَيْلُوفَرٌ عَبِقٌ ... وسْنَانُ نَبَّهَ منْهُ الصُّبْحُ أَحْدَاقَا
كلٌّ يَهيجُ لنَا ذِكْرىٰ تُشَوُّقِنا ... إليكِ لَمْ يَعْدُ عنْها الصَّدْرُ أنْ ضَاقَا
لا سَكَّنَ الله قَلْباً عقَّ ذكرَكُمُ ... فَلَم يَطِرْ بجنَاحِ الشَّوقِ خَفّاقَا
لو شَاءَ حَملي نَسيمُ الصَّبْح حينَ سَرىٰ ... وافاكُمُ بفتىٰ أَضْنَاهُ ما لَاقَىٰ
لو كَانَ وَفَّى المُنَى في جَمعِنَا بكُمُ ... لكَانَ مِنْ أكْرَمِ الأيَّام أخلاقَا
يا علقيَ الأخطرَ الأسْنى الحبيبَ إلى ... نفْسي إذا ما اقْتَنَى الأَحْبَابُ أعْلاقَا
كانَ التّجارِي بمحضِ الوُدّ مذْ زَمنٍ ... مَيْدانَ أُنْسٍ جَرَيْنا فيهِ أَطْلاقَا
فالآنَ أحْمَدُ ما كنَّا لِعَهْدِكُمُ ... سَلوتُمُ وبَقينَا نحنُ عُشّاقَا[2]

---

(١) «وادي القرى»: وادٍ كبير منْ أعمالِ المدينة ، كثيرُ القُرى بينَ المدينة والشّام ، فَتَحه النبي ﷺ في سنة سبع عنوة ثمّ صُولحوا علىٰ الجزية. (المغانم المطابة ص ٤٢٣).

(٢) قلائد العقيان (١/ ٢٢٥ و٢٢٦) ، وديوان ابن زيدون (عدة طبعات)؛ وهكذا فالطبيعةُ والشّاعرُ إلْفَان لا يفترقان ، والحب وصورة ولّادته يدعمان هذه المشَاركة ، وإذا تغزّل ابنُ زيدونَ عنَّتْ له أيّامُ اللقاء بالأندلس وبالزَّهراء ، فيتذكّرُ=

* وقد طارَ صيتُ هذهِ القصيدةِ في الآفاقِ ، وانتشرَ رذاذُ رحيقِها في أنوفِ العُشَّاق ، وتناولُوها بالمعارضَةِ والتَّخميسِ والتَّشْطيرِ وجميعِ فُنون البديعِ وألوانِه ، وممن عارضَها في العَصْرِ الحديث الأديبةُ السُّورية مَولداً ومَوطَناً زينب بنت يوسُف فوّاز المتوفاة بمصرَ عام (١٩١٤م) حيثُ قالَتْ متغزِّلةً ومعارضةً ابنَ زيدون في قافيته :

لَا زالَ قَلْبِي مَدىٰ الأيَّام خَفَّاقَا ... وَبَـدْرُ حُسْنِك يَجْلو العَيْنَ إشْراقَا
تكوَّنَ الجِسْمُ منْه منْ سَنَا قَمَرٍ ... حتّـى تكَـامَـل إلْمـاعَـاً وَإينَـاقَـا
نُورٌ تَجلَّىٰ علىٰ الأَرواح منْفَرداً ... حتّى جَلَى منْه في الأَحْشَاء إحْداقَا
سَرىٰ غرامُك في قَلْبي وفي جَسَدي ... لـذاكَ أثَّـر إسْقَـامـاً وإحْـراقَـا
كُلّـي بكلِّـكَ مَشْغُـولٌ ومـرتَبـطٌ ... فَلَسْتُ أشْكُو إلىٰ لقياكِ أَشْواقا
وَأَصْبَح القَلْب مَنْ وَجْدٍ يذوبُ بهِ ... نُـورُ الشَّبيبَـةِ تهْيَـامـاً وإشْفَـاقَـا

* كما تناولَ هذهِ القصيدة من قبل زينب يوسف فواز العامليّة الشَّيخ إبراهيم الأَحْدب المتوفىٰ سنة (١٨٩١م) وعارضَها بألفاظٍ تحاكي نجومَ السَّماء جَمالاً ، وتُناغي الغِيْدَ دلَالاً فقال :

يَا مَنْ إليهَا حَديْثُ النَّفْسِ قَدْ سَاقَا ... صبٌّ لَهُ الوجْدُ كَاسَات الجوىٰ سَاقَا
يـا غَـادةً وجْنَتَـاهـا جنَّـتَـانِ وإنْ ... كانَ الحشَا بهما قَدْ ذَابَ إحْراقَا
يا ظَبْيةً نَفَرتْ منْ بَعْدِ ما قَـنَصَتْ ... قَلباً غَدا بكِ مثلُ القُرط خَفَّاقَا
يَا مَنْ حَكتْ يُوسُفاً يعقوبَ وَجْدَك منْ ... هَـوَاكِ أَسْحقَـه التّهيَـامُ إسْحَـاقَـا
عَقَلتِ بالفَرعِ عَقْلاً منه كانَ لَهُ ... في سَاحَةِ الفَضْل بالآدابِ إطْلَاقا
فأَسْعِفـي مُغْرَمـاً صيّرتِـهِ غَـرضـاً ... لأَسْهُمِ العَذْلِ لاقىٰ منْك مَا لَاقَىٰ

= موضعَ اللقاء الذي ضمَّ حبَّه ، وفي هذا التّذكّر اتّصالٌ بالطَّبيعةِ ، كأنَّ ذكْرَ الطبيعةِ ومواطنَ اللقاء يعينان علىٰ بيان حُرقةِ الشّاعر في حبّه ، وكأنّ الشُّعراء الرّومانسيين فيما بَعْد قد استلهموا حبّهم من ابن زيدون ، إذ كانوا يصوّرون حبّهم في أحضان الطّبيعة وأفياءِ الأشجار ، ومع الأنسامِ العطرات وتغريدِ البلابل الصّادحات.

يَقْضِي الليالي بذكْراكِ التي عَذَبتْ ... وليسَ يَقْضي بطيْبِ الوَصْل أَشْواقا[1]

* وهكَذَا كَانتْ قافيةُ ابن زيدون قدوةً حسنَةً لمن عارضَها مِنْ بعدهِ منَ الشُّعَراء ، بل كانَتْ أمُّ القصائدِ في هذا المضْمَار الأنيق ، مضمار الغَزَل الممزوجِ بالعَاطِفَةِ المتموّجةِ ، وبالطَّبيعة الخلاّبة[2] .

* ومن بدائع نَظْمِهِ في محبوبَتِهِ قصيدة كافية منها:

واهَـاً لِعطْفِـكِ والـزَّمـانُ كـأنَّمـا ... صُبغَـتْ غضَـارتُـه ببـردِ صبَـاكِ
أمّـا منىٰ نَفْسـي فـأنـتِ جميعُهـا ... يَـا لَيْتَنـي أَصْبَحـتُ بَعْـضَ مُنَـاكِ
يَدْنُو بِوَصْلِكِ حيْنَ شَطَّ مَزَارُه ... وهْــمٌ أَكَــادُ بِــهِ أُقَبِّـلُ فَـاكِ[3]

* ومن بدائعِ أغْزَاله ـ ولعلّه قالَها في قرطبةَ وليس في محبوبة ـ:

---

(١) انظر: مسرحيات الشّيخ إبراهيم الأحدب الطّرابلسيّ (ص١٠٦ و١٠٧).
(٢) في كتابه «شعر الطّبيعة في الأدب العربيّ» يعلّقُ الدّكتور سيّد نوفَل بقولهِ عن تموّجِ عاطفةِ ابن زيدون بعد أنْ أوردَ قصيدتَه القافيّة:
وهو هنا بين عاطفتَيْن: عاطفةُ الماضي الجميلِ في الوَصْلِ تكْسِبُه الطّبيعةُ البديعةُ مزيداً منَ البهاءِ والحُسْنِ. وعاطفةُ الحاضرِ المحرومِ يكسو الطبيعةَ لوناً منَ القتامة والظّلام ، فأنت ترىٰ صورتها جميلةً في حزْن ، وبديعةً في أسىً ، كالحسناءِ في لباسِ الحِداد ، وأخذتْ بطرفٍ من انطلاقِ الماضي وأسْرِ الحاضر ، يتمثّل الماضي بانطلاقةٍ في طَلاقةِ الأفْقِ ، وصفاءِ وجْهِ الأرضِ وابتسامِ الرّوض ، وطرب الزّهر ، وتألّق الوَرْد ، وإشراق الضّحى ، كما يتمثّل الحاضرُ بأسرِه في اعتلال النَّسيم وإشفاقِهِ ، وبكاءِ الزّهر ، وجَولانِ دَمْعِهِ الرّقراق ، ونعاسِ النّيلوفر. وجو الذكرىٰ يثيرُ في نفسِ الشّاعر الجوىٰ ، وفي نفسِ القارىء الأسى والإشفاق والتأثّر بهذا الفن الرائع يصدرُ عن الشّعور الصّادق والإحساسِ العميقِ ، فابن زيدون فُتِنَ بالطّبيعةِ ، وأحبَّ ولاّدة ، فمثل الطّبيعة يجملها الحبّ ، ومثل الحبيب جامعاً لمفاتنِ الطبيعة ، ثمّ حالتِ الأحداثُ بينَه وبين التمتع بالطبيعةِ وبالحبيب ، فعاشَ على ذكْراهما ، وأضفىٰ على الطبيعةِ ثوبَ الأسى الذي يسربلُه ، وغشّاها بلون الحرمان الذي اصطبغتْ به نفسُه. (شعر الطبيعة في الأدب العربي ص ٢٦٧ و٢٦٨).
(٣) ديوانه (ص ٢١٠ و٢١١) باختصار.

سَقَى الغَيْث أَطْلالَ الأَحبَّة بالحِمىٰ ... وَحَاكَ عَلَيْها ثَوْبَ وشْي مُنَمْنَمَا
وَأَطْلَع فيهَا لـلأَزَاهيـرِ أَنْجُمَـا ... فكَم رفَلَتْ فيها الخرائدُ كالدُّمىٰ
إِذِ العيـشُ غَـضٌّ والـزَّمـانُ غُـلامُ
أهيـمُ بجبَّـارٍ يعـزُّ وأخْضَـعُ ... شَذَا المِسْكِ منْ أرْدَانِه يتضوَّعُ
إِذَا جئْتُ أشْكُوه الجوىٰ لَيْسَ يَسْمَع ... فما أنَا في شيءٍ منَ الوصْلِ أطمَعُ
ولا أَنْ يزورَ المُقْلَتَيْن مَنَامُ
قَضيْبٌ منَ الرّيحانِ أَثْمَر بالبدْرِ ... لـواحـظُ عينَيْـه مُلئْـنَ مـنَ السِّحْـرِ
وديباجُ خَدَّيْه حَكَى رونَق الخَمْرِ ... وألفاظُه في النُّطْقِ كاللؤلؤِ النَّثْرِ
وَريقَتُه في الارتشَافِ مُدَامُ(١)

وَلـلْـوُشَـاةِ دَوْرٌ:

* لعلَّ صُدودَ ولادة المحبوبة الزَّيدونية ، وتجهمَها في الوامقِ ابنِ زيدون ـ بعد أنْ تَخلَّلتْ مَسْلَك الرُّوح منه ـ جعلَتْ منه نَبْعاً ثرّاً تفجَّرَ بسلسبيلِ الشِّعر ، وكافورِ العاطفةِ وينبوعها المتدفّقِ بالحنَانِ؛ فقد كانَ ابنُ زيدون ـ بادىء الأمر ـ أملَ دنياها ودنيا أملِها ، وأنسَ روحِها ، وروحَ أُنْسِها ، وشمسَ نهارِها ، وقمرَ ليلها؛ وكانَتْ هي عنده روحَه وحياتَه وأملَه ، وكانا كما عنَاهما القائِل:

لَها أَحادِيْثُ منْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُها ... عَـنِ الشَّـرَابِ وتُلْهِيْهَـا عَـنِ الـزَّادِ
لَهـا بِـوَجْهِـكَ نُـورٌ تَستضـيءُ بِـهِ ... وَمِنْ حَديثِكَ في أَعْقَابِها حَادي(٢)

* ويبدو أنَّ للواشينَ أثراً أيضاً في أغْزَالِ ابنِ زيدون ، فالوشاةُ القُسَاةُ أرادوا هَدْمَ سعادتِه ، لكنَّه عَمَّرَ صَرْحَ الأدبِ بقصائدَ رائعاتٍ خالداتٍ.

* ومنَ العجيبِ والمطرب حقّاً أنْ نقرأَ قَصصَ السِّعَايةِ والوشايةِ

---

(١) ديوانه وهي قصيدة طويلة على طريقةِ المُسَمّط.
(٢) انظر: الداء والدواء (ص ٣٣٥).

والرُّقباءِ والعُذَّالِ في تواريخِ الحبِّ على مدى الأعْصُر الخَوالي ، فتاريخُ العُشَّاق موشّى بالسِّعَاياتِ والدَّسَائِس ، وجمراتِ الحَسَدِ؛ وقد تحدَّثَ ابنُ زيدون عنْ أولئكَ الحُسَّادِ والوشاةِ الذين التَهَبَتْ صدورهم وأحشاؤهم بنارِ ونيرانِ الغَيْظ فقال:

لمّا اتَّصَلْتِ اتّصالَ الخِلْبِ بالكَبِدِ — ثمّ امتزجْتِ امتزَاجَ الرُّوحِ بالجسَد[1]
سَاءَ الوُشَاةُ[2] مكَاني منْك واتّقدت — في صَدْرِ كُلّ عدوٍّ جَمْرةُ الحَسَدِ
فَلْيَسْخَطِ النَّاسُ لا أُهدي الرّضَا لَهمُ — ولا يَضعْ لكِ عهْدٌ آخِرَ الأَبدِ
لو اسْتَطَعْتُ إذا ما كنْتِ غائِبةً — غضَضْتُ طَرْفي فَلَمْ أنْظُر إلى أحَدِ[3]

---

(١) «الخلب»: لُحيْمة رقيقةٌ تَصِلُ بين الأضْلاع ، أو الكَبد. (القاموس المحيط) مادة: خلب.

(٢) في كتابه اللطيفِ الظّريفِ «طوق الحمامة» عقدَ ابنُ حزم ـ رحمه الله ـ بَاباً بعنوان: بابُ الواشي؛ تعرَّضَ فيه لأحوالِ الحبّ والواشين فقالَ ما مفاده: ومن آفات الحب: الواشي؛ وهو على ضربين:
١ ـ واشٍ يريدُ القَطعَ بينَ المتحابين فَقَط ، وربّما ذكرَ هذا الواشي أنَّ ما يظْهِرُ المحبُّ منَ المحبّةِ ليست بصحيحة، وأنَّ مذهبَه في ذلك شفاءُ نفْسه ، وبلوغُ وطَره.
٢ ـ والثّاني: واشٍ يسعىٰ للقَطْع بينَ المحبّين لينفردَ بالمحبوبِ ويستأثرَ به ، وهذا أشدُّ شيءٍ وأقطعه وأجْزمُ لاجتهادِ الواشي واستفادةُ جُهْده.
ومن الوشاة جنس ثالث: وهو واشٍ يسعىٰ بهما جميعاً ، ويكشف سرهما ، وهذا لا يُلْتَفَتُ إليه إذا كانَ المحبُّ مُساعِداً. (طوق الحمامة ص٥٣ ـ ٥٥) باختصار وتصرف.
وفي الرّقيبِ والواشي يقولُ ابنُ حزم:
وربّ رقيبٍ أرقبُوه فلمْ يَزَلْ — علىٰ سيّدي عَمداً ليُبعدني عَنْه
ويقول:
علىٰ سيّدي منّي رقيبٌ محافظٌ — وفيٌّ لمن وَالاهُ لَيس بناكثِ
ويقول:
عجبتُ لواشٍ ظلَّ يكشفُ أمرنا — وما بسوى أخبارِنا يتنفَّسُ

(٣) ديوان ابن زيدون (ص ٧٣).

* وفي قصيدةٍ أخرىٰ يقولُ مبيّناً أنَّه يأْمُلُ استمرار الوِصَال ، وديمومة الاتّصال ، ولكنَّ الأعداءَ ، والواشين لم يكفُّوا عمّا جُبِلَتْ عليه نفوسهم من غشّ وحقْد:

إليكِ منَ الأنَام غَدا ارتياحِي ... وأنْتِ علىٰ الزَّمَانِ مَدَى اقْتِراحي
وَما اعْتَرَضَتْ هُمومُ النَّفْسِ إلاّ ... ومنْ ذكْرَاكِ رَيْحَاني وَرَاحِي
وَلي أمَلٌ لو الواشُون كفُّوا ... لأَطْلَعَ غرسُهُ ثمرُ النَّجاحِ
وأعجبُ كيفَ يغلبُني عدوٌّ ... رضاكِ عليهِ منْ أمضىٰ سلاحِ[1]

* ولا يكادُ ابن زيدون ينظمُ قصيدةً في ولاّدته إلا يذكر الوشَاة أو العِدا ، يقولُ في ذلك:

غِيْظَ العِدَا منْ تَساقِيْنَا الهَوىٰ فَدَعَوا ... بأن نَغصَّ فَقَال الدَّهْرُ آمينَا

قلادَةٌ زَيْدُونيّةٌ لِوَلاّدَةَ:

* إذَا أردْنَا أنْ نقولَ: إنَّ لولاّدةَ ابنِ زيدون فَضْلاً علىٰ الأدبِ الأندلسيّ خاصّةً والأدبِ العربيّ بعامّة ، فإنَّنا نقصدُ تلكم الأزَاهِرَ العبقاتِ التي شَدَا بها ابن زيدون وقلَّدَ جِيْدَ الدَّهْرِ بحلْيها.

* فَقَد نَظَم ابنُ زيدونَ قلادةً شعريةً لولادةَ ، بل نظمَ درّةً من دُررِ الشِّعرِ العربيّ تزدانُ بها الكُتُب، وتحلو بها المجالسُ ، حيث أنشأَ بولاّدته المحبوبةِ قصيدةً سارتْ في البلادِ، وطارتْ بينَ العباد ، في كلِّ نَاد ، ولكنَّه علىٰ الرّغمِ منْ ذلكَ كلّه لمْ يَحْظَ بمحبوبتِهِ الفَاتنةِ التي قدَّرَ اللهُ إنشاءَها منَ المِسْك، وقَدْر إنشاءَ الورىٰ منَ الطِّيْن ـ كما زعم ابن زيدون ـ.

* وقد وصفَ ابنُ خاقان حالةَ ابن زيدون في «قَلائدِه» فقال: وَلَم يَزَلْ يرومُ دنوَّ ولادةَ فيتعذَّر ، ويُباحُ دمُه دونَها ويُهْدَر.... فلما يئسَ منْ

(١) ديوانه (ص ٥٨).

لُقياهَا ، وحُجِبَ عنه محيّاها ، كَتَبَ إليها يستديمُ عَهْدَها ، ويؤكّدُ وُدَّها ، ويعتذر من فراقها بالخطْبِ الذي غَشِيَهُ ، والامتحانِ الذي خَشِيَه ، ويعلمُها أنَّه ما سَلا عَنْها بِخَمْر ، ولا خَبا ما في ضُلُوعه من جَمْر ، وهي قصيدةٌ ضَرَبَتْ في الإبداع بسَهْم ، وطلَعَتْ في كلِّ خاطرٍ وَوَهْم ، ونَزَعَتْ مترعاً قَصَّرَ عنه حَبيبٌ[١] وابنُ الجَهْم[٢] ، وأوّلُها :

أَضْحَىٰ التَّنائي بَديلاً مِنْ تَدانِيْنَا ... ونَـابَ عَـنْ طيْـبِ لُقيـانَـا تَجـافِيْنَـا
بِنْتُـمْ وبنَّـا فَمـا ابتلَّـتْ جَـوانِحُنَـا ... شَـوقـاً إليكـم ولا جفَّـتْ مـآقينـا

ومنْها :

لم نَعْتَقِدْ بَعْدَكُم إلاّ الوفاءَ لكُم ... رأيــاً ولَــم نَـتَـقَلَّـد غَيْـره دِينــا
لا تَحْسَبـوا نـأيكـم عنَّـا يغيِّـرنـا ... أنْ طـالمـا غَيَّـرَ النَّـأْيُ المحِبّينـا
واللهِ مَـا طَلَبَـتْ أهـواؤُنَـا بَـدلاً ... منْكُم ولاَ انْصَرَفَتْ عنْكم أمانينا

---

(١) «حَبيب» : أبو تمّام حبيبُ بنُ أوس الشّاعر المشهور ، كانَ أوحدَ عَصْره في ديباجةِ لفْظه ، ونصاعةِ شعْره ، وحُسْن أسلوبه ، وله منَ المحفوظِ ما لا يلحقُه فيه غيره ، كان يحفظُ أربعَ عشرةَ ألف أرجوزة للعَرب غير القَصَائد والمقَاطيع ، مدحَ الخُلفَاء ، وجابَ البلاد؛ قال له ابنُ الزَّيَّات : يا أبا تمام ، إنّك لتحلّي شِعْرَك منْ جواهِرِ لَفْظِك ، وبديع معانيكَ ، ما يزيدُ حُسْناً على بَهيّ الجواهِر في أجْيادِ الكواعِب . وأخبارُه كثيرَةٌ جدّاً . كانتْ وِلاَدةُ أبي تمّام سنة (١٩٠هـ) بقريةِ جاسِم في سورية ، وتوفي بالموصلِ سنة (٢٣١هـ) ، ورثاه وزيرُ المعتصمِ محمّد بنُ عبد الملك الزَّيات فقال :

نَبَــأٌ أتــىٰ مــنْ أعْظَــمِ الأَنْبــاءِ ... لمّــا ألــمَّ مقَلْقِــلُ الأحشَــاءِ
قـالـوا حبيـبٌ قـد ثـوىٰ فـأجبتُهـم ... نـاشـدتكـم لا تجعلـوهُ الطّـائـي

أقولُ : وأمّا عبارةُ ابنِ خاقان : «وقَصَّرَ عَنْه حَبيبٌ وابنُ الجهم» فهذَا رأيه وحْدَه ، وقد جاءَ بذلك ليكمل السَّجع ، لأنَّ أبا تمام بَحْرٌ لا يُدْرَكُ قَعْره ، ونجمٌ لا يُطاول ، وسابقٌ في المعاني لا يلحقُه ابن زيدون ولا غيره ، ثمّ لكلّ واحدٍ منهما طعْمٌ خاص .

(٢) «ابنُ الجهم» : هو عليُّ بنُ الجهم ، شاعرٌ رقيقٌ منْ أهلِ بغدادَ ، كانَ معاصراً لأبي تمام ، وله قصائدُ رائعات مشهورات في عالَم الأدب ، توفي عام (٢٤٩هـ) . (وفيات الأعيان ٣/ ٣٥٥ ـ ٣٥٨) .

يَا سَاريَ البَرقِ غَادِ القَصْر فَاسْقِ بِهِ ... مَنْ كَانَ صِرف الهوىٰ والودّ يَسقينا
ويَـا نَسيـمَ الصَّبـا بلِّـغْ تحيّتنـا ... مَنْ لو علىٰ البُعْد حيّاً كَانَ يُحيينا
ربيـبَ مُلْـكٍ كـأنَّ الله أَنْشَـأَه ... مِسْكـاً وقـدَّرَ إنْشـاءَ الـورىٰ طِينَـا
أَو صَاغَهُ وَرِقاً محضاً وتوَّجَه ... مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إبْداعاً وتَحْسِينا
كَأنّما أُثْبِتَتْ في صَحْنِ وجنَتِهِ ... زُهْـرُ الكـواكـبِ تعـويـذاً وتـزييـنـا

ومنْها:

كأَنَّنا لم نَبِتْ والوصْلُ ثالِثُنا ... والسَّعْدُ قد غَضَّ منْ أَجْفَانِ واشينا
إنْ كانَ قَدْ عزَّ في الدُّنيا اللقاءُ بِكم ... في مَوقفِ الحشْر نَلقاكمُ وتَلْقُونَا
إنّا قَرأْنَا الأَسى يومَ النَّوى سُوَراً ... مكتـوبـةً وأخـذْنَـا الصَّبْـر تَلقِيْنـا
أمّـا هَـواكِ فَلَـمْ نَعْـدِلْ بمنْهَلِـهِ ... شُـربـاً وإنْ كـانَ يُـروينـا فيُظْمِيْنـا

واختَتَمها بقوله:

عَليْـكِ مِنّـا سـلامُ اللهِ مـا بَقيتْ ... صبـابـةٌ بِـكِ نُخْفيهـا فَتُخفينـا(١)

* ومنَ الطَّريف أنَّ هذهِ القصيدةَ اللطيفةَ والنّونية الخفيفة، قد طارتْ شهرتُها في الآفاقِ، وأضحَتْ محذورةً عند بعضِهم حتى قيل: إنَّه ما حفظها أحدٌ إلاّ ماتَ غريباً.

* ويبدو أنَّ ابنَ زيدون قد عارضَ البُحتريَّ في نونيةٍ جميلةٍ له، إذ يمدحُ أبا الجَيْش خمارويْهِ بنَ أحمدَ بنِ طولون في قصيدةٍ مَطْلعُها:

يَكَادُ عَاذِلُنَا في الحبِّ يُغْرينا ... فمَـا لجـاجُـكَ فـي لَـوْمِ المُحبّيْنَـا
نُلْحَىٰ علىٰ الوَجْدِ منْ ظُلمٍ فَدَيْدَنُـنَا ... وجْـدٌ نُعَـانيـهِ أَوْ لاحٍ يُعَنّيْنَـا

---

(١) انظر: قلائد العقيان (١/ ٢٤٥ ـ ٢٤٨) بتصرف واختصار، وانظر: المغرب (١/ ٦٦ ـ ٦٨)، والمطرب (ص ١٦٤)، وجذوة المقتبس (ص ١٣٠ و١٣١)، وديوان ابن زيدون (ص ٢٩٨ ـ ٣٠٣) ونفح الطيب (٥/ ٣٤٣) ووفيات الأعيان (١/ ١٤٠) وغيرها كثير جداً. ومن الملاحظ في هذه القصيدة الشهيرة أن ابن زيدون لم يصرح باسم ولادة.

* وهي قصيدةٌ جميلةٌ راقِصَةُ المعاني بلغَتْ (٣٩ بيتاً) ومنها:

إنَّ الغَواني غَدَاةَ الجَزْعِ منْ إضَمٍ ... تَيَّمْنَ قَلْبَاً مُعَنّى اللُّبِّ مَحْزُونا
إِذَا قَسَتْ غِلْظَةً أكبادُهَا جَعَلَتْ ... تَزْدَادُ أَعطافُها مِنْ نِعْمةٍ لِيْنَا
يَلومُنَا في الهوىٰ مَنْ لَيس يَعْذُرنا ... فيهِ ويسْخِطُنا مَنْ ليس يُرضيْنَا

* وقالَ في آخرِها:

تَسْمُو إلىٰ الرّتْبَةِ العُلْيا محاسِنُهُ ... فما ترىٰ وسطاً منْها ولا دُونَا[1]

* وكما نعلمُ أنَّ ابنَ زيدون يلقّب: بحتريّ الأندلس، وذلك لحسنِ ديباجَته، وسهولةِ معانيه، فأحبَّ أنْ تكونَ له قصيدةٌ مماثلةٌ لبحتريّ الشّرق أبي عُبادةَ الوليد بنِ عُبيد الطَّائي[2].

* ومنَ العجيبِ أنَّ الناس نَسُوا قصيدةَ البُحتري، ولكنَّ قصيدةَ ابن زيدون قد اشتهرتْ وكُتِبَ لها الخُلود، حتى لقد غَدَتْ أهزوجةً نشوىٰ على شَفَةِ كلِّ أديبٍ، وغَدتْ أَشْهَر منْ نارِ العشقِ في قَلْب كُلِّ حبيب. ولذلك قال بعضُ الأُدباء عنها: مَنْ لَبِسَ البيَاض، وتختَّمَ بالعقيقِ، وقرأَ لأبي عَمرو، وتفقَّه للشَّافعي، وروىٰ قصيدةَ ابن زيدون، فقد استكملَ الظَّرف[3].

* واستكمالاً للظَّرفِ والفائدةِ نودُّ أنْ نشيرَ هنا إلىٰ أنَّ كثيراً منَ الأدباءِ والعُلماء والنَّاس قد أُغرِمُوا بهذه القصيدةِ، وشُغِفُوا بها، وعشقوها أكثرَ منْ عشْقِ ابن زيدون لولّادتِهِ، ونهجوا نَهْجَها، لكنّهم لم يبلغُوا ما بلغَه ابنُ زيدون.

---

(١) انظر: ديوان البحتري (٤/ ٢٢٠٠) رقم القصيدة (٨٢٦).
(٢) توفي البحتري سنة (٢٨٤هـ)، وهو أحد الثلاثة الكبار الذين ملؤوا الدنيا وشغلوا الناس وهم: أبو تمام، والبحتري، والمتنبي.
(٣) نفح الطيب (٥/ ١٠٧).

* قال ابنُ بسَّام الشَّنتريني في «الذَّخيرة» عن نونية ابن زيدون: وهذه القصيدةُ بجملتِها فريدة، وقد عارضَه فيها جماعَةٌ قصّروا عنه، منهم أبو بكر بن الملح، فإنَّه نَازَعه فيها الرَّاية، فقصَّر عن الغَاية، حيثُ يقولُ من قصيدةٍ أوّلُها:

هَلْ يَسْمَعُ الرَّبْعُ شكْوانَا فَيُشْكِينا   أَوْ يَرجعُ القَولُ مَغْنَاهُ فيُغْنِيْنا

ومنها:

سَرىٰ منَ المِسْكِ عَن مَسْراكُمُ خَبَرٌ   يُعيدُ عَهْدَ هواكُم نَشْرُه فيْنَا
أيّام بَذْركُمُ يُحيي لَيالِينَا   قُرباً وظَبْيُكم يرعىٰ بوادِيْنَا[1]

* وممن أُغْرِمَ بنونيةِ ابنِ زيدون خليلُ بنُ أَيْبك الصَّفديَّ صاحبُ النَّظم الرّائق والنَّثْرُ الفَائق، الذي عارض نونيةَ ابن زيدون فقال: وكنْتُ وأنا في زَمَنِ الشَّبيبة، قد نَظَمْتُ مرثيةً في بعضِ الأصحابِ الأعزّة بِصَفَد علىٰ وزْنِ قصيدة ابن زيدون ورويّها وهي:

تَحَكَّمَتْ بَعْدَكُم أَيْدي النَّوىٰ فيْنَا   وقَدْ أَقامَتْ بِنَادِينَا تُنَادِيْنَا
وَجَرَّعَتْنَا كُؤُوسَ الحُزْنِ مُتْرَعَةً   مِزَاجُهَا كانَ زقُّوماً وغسْلِيْنا

ثمَّ قَالَ في آخرها:

وَإنْ تمتعت في الفردوسِ يا سَكَنِي   بطيبِ عَيْشٍ فَلن تنْسىٰ لَيالِيْنا

* ثمّ تتابَعَ الشُّعراء تترىٰ في معارضةِ نونية ابن زيدون وتفنّنوا بذلك وأظْهروا براعتَهم، ولا يكادُ شَاعِرٌ من الشُّعراء الذين اطّلعُوا علىٰ نونيةِ ابنِ زيدون وحفظُوها إلا أدْلىٰ دَلْوَه في هذا المضْمَار، ونظمَ وأتىٰ بالجميلِ الرَّائع، إلا أنَّ لَفْتَةَ الجمالِ ومسْحَته ظلَّتْ متعلّقَةً بنونيةِ ابنِ زيدون، وهذا منَ الطَّرائفِ في عالَم الأدب.

* ومنَ الجديرِ بالذّكْر أنَّ مصادرَ الأدب القديمة وكذلك دواوين كثير

---

(١) الذخيرة (١/ ٢٢٣) بتصرف واختصار.

منَ الشُّعراء تَحْفَلُ بمعارضاتٍ لقصيدةِ ابن زيدون ، والأعجبُ منْ ذلك أنَّ بعضَ هذه المعارضات قد حملَ بين ثناياه اسمَ ولاّدة التي كانَتْ سببَ انتشارِ هذه النُّونيّة الرّائعة الماتِعَةَ في مجالِ الشِّعر. ولو رحْتُ أَجْمَعُ ما تفرَّق في بطونِ المَصَادرِ القديمةِ وحْدَها منْ معارضات نونية ابن زيدون لتحصلَ عندي مجلدات كثيرة ، ولكنّي اكتفَيْتُ بذكْر نموذجَيْن قديمَيْن.

وفي العَصْر الحديثِ تقاطرَ الشُّعراءُ وتسابقوا في حلبَةِ المعارضاتِ الشِّعرية المتنوّعة وخصّوا نونية ابن زيدون بالمعارضةِ[1] ، وكانَ لها نصيبٌ وافرٌ في جميعِ الأَقْطار العربيّةِ حيثُ عارضَها المشاهيرُ وغيرُهم ، وحفلُوا بها وأولوها كلَّ رعايةٍ وعنايةٍ واهتِمام.

* وممن عارضَ نونيةَ ابنِ زيدون بمصرَ عبد الله النَّديم المصريّ (١٨٥٤ ـ ١٨٩٦م) الذي أُغْرِمَ بها غراماً شديداً ، حيثُ استخدمها في أغراضٍ كثيرة منها: مديحُ الخديوي توفيق ، وكذلك تراهُ في قصيدته يبكّتُ المصريّين على افتخارِهم الدّائم بآبائِهم ، بينما هم في خمولٍ وتقصيرٍ وكَسَل وخَبَل ، أقرب إلىٰ الموتِ منهم إلىٰ الحياة ، أضاعُوا

---

(١) إنَّ مَنْ يتصدّى لدراسَةِ المعَارضاتِ في العَصْر الحديثِ يلاحظُ كثرتَها وانتشَارها بين الشّعراء وخصوصاً جماعةَ إحياءِ التّراث العربي كالبارودي وشوقي وحافظ ومَنْ في طبقتهم ، أو مَنْ عاصرَهم ، ولعلَّ بواعثَ ودوافعَ هذه المعارضاتِ تشيرُ إلىٰ الواقع الثّقافي والاجتماعي لهؤلاء الشّعراء.
ـ ولعلَّ البَاعثَ الفنّي هو منْ أبرزِ البواعثِ في هذا المَيدان ، إذْ يقومُ هذا الباعثُ بدورٍ كبيرٍ في حَفْزِ الشّاعر المتأخّر إلىٰ معارضَةِ الشُّعراء السَّابقين ، وهذا الباعثُ يبرزُ في مظاهرَ متعدّدة ، كتماثلِ التّجربةِ بين الشَّاعرين السَّابق واللاحق ، أو الإعجاب بقصيدةٍ قديمة ، أو التّحدي والمنافسة الشّعرية.
ـ هذا وقد تفنَّنن الشُّعراءُ في معارضةِ مشاهيرِ القصائدِ في عالَم الشِّعر وكانَ السَّبْقُ في هذا الميدانِ لقصيدةِ البردةِ الشَّهيرة التي لاقتِ الاستحسانَ بينَ مختلفِ الشّعراء في مختلفِ العُصور والأزمَان. وكذلك قصيدة ابن زيدون التي نحنُ بصددها الآن.

العُلومَ، وتركوا الصِّناعاتِ واستمرؤُوا الصِّفاتِ التي تذلُّ الشُّعوب وتَضَعُها، حتى صاروا في عَدم، يقولُ في مطلعِها:

أَنْوارُ عَدْلكَ تُهْدي حيّ نَادينَا وحُسْــنُ سَيــرِكَ للـدُّنيــا يُنَــادِيْنَــا

ومنها قد ضمَّنَ بيتاً لابنِ زيدون:

هَـذي مَعَـالِمُنـا تَبْكـي وتنْشِـدُنـا قولَ ابنِ زيدون إذْ قامت تُعزّينا
[بنْتُم وبـنّا فَمَا ابتَلَّتْ جَوانِحُنَا شَـوقـاً إِليكُـم وَلاَ جَفَّـتْ مَـآقِيْنَـا]

وفيها يتحدَّثُ عمّا عرىٰ المصريّين منْ فَسَادٍ وخُمول:

قُلْ للنُّفوسِ التي مَاتَتْ بِلا أَجَلٍ أينَ القُلوبُ التي كانَتْ تُجارِيْنَا
أينَ العُلومُ التي كانَتْ توصِّلُنا بابَ السُّعودِ فَصَارَتْ منْ أعادينَا
أينَ الصَّنائِع أينَ العارفُون بِها أيـنَ الـدِّيـارُ التـي كـانَـتْ لأَهْلينـا
كانتْ وكانُوا وصَارَ الكُلُّ في عَدَم واستَعْبَـدتْنَـا بمـا نَهْـوىٰ أمـانِيْنَـا
إذَا سَمِعْنَـا خَطيْبـاً ذَاكِـراً حكمـاً قُلْنَـا لــه عــزَّةُ الآبــاءِ تكْفِيْنَـا[1]

* وفي مصرَ شُغِفَ شعراءُ العَصْر الحديثِ بنونيّةِ ابنِ زيدون، وأوسعُوها معارضةً وتضميناً وحفْظاً، وممن تصدّىٰ لمعارضتها أحمد شَوقي، عندما كانَ منفيّاً بإسبانية ـ الأندلس ـ، فنُونية شوقي أعجوبةٌ أرسلَها منَ الأندلس في أعقابِ الحرب العالميةِ الأولىٰ، فضجَّ لها شعراءُ مِصْرَ، وأجابه: إسماعيل صَبري، وحافِظ إبراهيم[2]، وعبد الحليم

---

(١) في الأدب الحديث لعمر دسوقي (٢/ ٣٣٥) بشيء من التصرف.

(٢) منَ الجديرِ بالذكْر أنَّ شاعرَ العَصْر الحديثِ بمصرَ أحمد شوقي، كانَ وهو في منْفَاه بالأندلسِ، قد طارَحَ علىٰ منوالِ نونيّةِ ابن زيدون كُلّاً منْ صديقَيْه الحميمَيْن الشَّاعرين: إسماعيل صَبْري، وحافظ إبراهيم، فكتبَ إليهما منْ منفاهُ بالأندلس أبياتاً استهلّها بقوله:

يَـا سَـاكِنـي مصْـرَ إنّـا لا نـزالُ عَلـىٰ عَهْــدِ الــوَفَــاء وإنْ غِبْنَــا مُقيمِيْنَــا
هــلّا بعثتُــم لنَـا مــنْ مـاءِ نِيلِكـم كـأْسَـاً نَبُـلُّ بِهـا أَحْشَـاءَ صَـادينـا

فأجابَه إسماعيلُ صبري بأبياتٍ استهلّها بقولِه: =

المصريّ ، ولكنّهم عجزوا جميعاً عن الجريِ في مَيْدانه.

* ابتدأَ شَوقي نونيتَه يخاطبُ الطَّائر الحزينَ في وادي الطَّلح بضاحيةِ إشبيلية[١]. حيثُ تَمثَّلَ الطَّائر شبيهاً بهِ في لوعَتِه وجَواه ، أو تخيّل المعتمد بنَ عباد في أَسْرِه ، فاندفَع يقول:

يَا نَائِحَ الطَّلحِ أَشْبَاهٌ عوادِيْنَا ... نَشْجَى لِوَاديكَ أمْ نَأْسَى لوادينَا
مَاذَا تقصُّ عَلَيْنَا غَيْرَ أنَّ يَداً ... قَصَّتْ جَنَاحَك جَالَتْ في حواشينا
فإنْ يَكُ الجنْسُ يا بْنَ الطَّلح فرَّقَنا ... إنَّ المصائبَ يَجْمَعْنَ المُصَابينا
تجرُّ مِنْ فَنَنٍ ذيلاً إلىٰ فَنَنٍ ... وتَسْحَبُ الذَّيلَ تَرتَادُ المُواسينَا

* وقد اقتبسَ شوقي كثيراً منْ ألفاظِ ومعاني ابن زيدون فقول شوقي:

يَا سَارِيَ البَرْقِ يَرمي عَنْ جَوانِحنا ... بعد الهدوءِ ويَهْمي عَنْ مآقِيْنا

اخْتُلِسَ برفقٍ وحذْقٍ من قولِ ابن زيدون:

بِنْتُم وبنّا فمَا ابتلَّتْ جوانِحُنا ... شَوقاً إليكُم ولا جفَّتْ مآقِيْنَا
يَا سَاريَ البرقِ غادِ القَصْر واسقِ بهِ ... مَنْ كانَ صِرْفَ الهوىٰ والود يَسْقينا

* وقد أجادَ شوقي في هذه المعارضة ، وحلَّقَ فيها في أجواءِ البَيان ، فَغَدتْ قلادةَ الأشْعار الشَّوقيةِ وزينتَها في هذا المجال[٢].

* وممّن أُغْرِمَ بنونيّةِ ابنِ زيدون بمصر أيضاً؛ الأديبُ الألمعيُّ

= بأفقِ أندلسٍ بَرْقٌ يحيّينا ... يبيتُ يضحكُ منّا وهو يَبْكينا
وفيها يقول يذكر ولادة وابن زيدون:
وهل تَبيَّنْتَ في أطلالِ قُرطبةٍ ... آثارَ ولاّدة معَ ابنِ زَيدُونا
وأجابَه حافظُ منْ أبياتٍ:
عجبْتُ للنّيلِ يَدري أنَّ بلبلَه ... صَادٍ ويَسْقي رُبَا مصْر ويَسْقينا
واللهِ ما طابَ للأحبابِ موردُه ... ولا ارتضوا بعدكم منْ عيشِهم ليْنَا
لم تنأَ عنْه وإنْ فارقتَ شاطئه ... وقد نأينا وإنْ كُنّا مقيمينا

(١) وربما يخاطب المعتمد بن عباد.
(٢) اقرأ القصيدة كاملة في الشَّوقيات (٢/ ١٠٣ ـ ١٠٧).

السُّوري أصْلاً مصطفى صادِق الرّافعي ـ رحمه الله ـ ، الذي امتدحه محمود سَامي البارودي بقوله :

لمُصطَفَى صَادِقٍ في الشِّعْر منْزِلَةٌ   أَمْسَى يُعـادِيْه فيها مَـنْ يُصَـافيـهِ

فقد غـرّدَ مصطفى صـادق الرّافعـي علىٰ أغْصَـان ابن زيدون وفَـنَنِه ، ونهج نَهْجه ، فقال في مَطْلَع نونيته :

كُفّي صُدوداً فمَا أَبْقى تَجافِيْنَا   منّـا ولا الـدَّمْع أَبْقَـى مـنْ مَـآقِيْنَا

ومنْها :

كانَتْ بها نسَماتُ العُتْبِ راقصةً   تهـزُّ مــنْ حُبِّنــا فيهــا ريَــاحيْنَــا
كانَتْ ليالي الهوىٰ تَـفْـتَـرُّ ضَاحكةً   عنْـه فَبِتْـنَ علـيَّ اليـومَ يَـبْـكيْـنَـا
إذا نَسِيـمُ الصَّبـا رقَّـتْ جَـوَانبـه   علـىٰ مُتـونِ الـرَّوابـي راحَ يُصْبِيْنـا
سَلـي الظَّـلامَ إذا شـابـتْ ذوائبـهُ   مِنْ هولِ ما بتُّ ألقىٰ في تَنائِينا

ثم ختَمها بقوله :

إنْ كـانَ سَهْـلاً علـى اللهِ تفـرقُنـا   فَليـس صَعبـاً عليـهِ أنْ يُـلاقيْنَـا(١)

* هـذا والذيـنَ عـارضوا قصيـدةَ ابن زيـدون لا يُحْصَـون بمـصر ، وآثارُهم مبثوثةٌ في آثارِهم وأعمالِهم.

* وإذَا ما اتّجهْنا إلىٰ أدباءِ بلادِ الشَّام ألفينَا شعراءَها قد سَاهَمُوا وأُغْرِمُوا في بناءِ النُّونيّاتِ الشّعرية معارضينَ بذلك ابنَ زيدون.

* فهذا شاعرُ الشَّامِ شفيق جَبْري(٢) يستوحي في رثاءِ أحمد شَوقي

---

(١) انظر : ديوان الرافعي (ص ٩١ و٩٢) والقصيدة مؤلفة من (٣٤ بيتاً).

(٢) شفيق جبري الدّمشقي ، وُلد ليلة (١٤) شعبان سنة (١٣١٤هـ) الموافق (١٩) كانون ثاني عام (١٨٩٧م)، نظمَ الشّعر في مرحلةٍ مبكّرةٍ منْ حياتِه، تقلَّب في عَددٍ منَ الوظائفِ ، ومنها أنَّه كان عميداً لكليةِ الآداب في جامعةِ دمشق ، له عددٌ منَ المؤلّفات فيها: أنا والشّعر ، أنا والنّثر ، دراسةُ الأغاني ، المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس، الجاحظ معلّم العَقْل والأدب، وديوان شعر بعنوان: نوح العندليب. توفي عام (١٩٨٠م) رحمه الله. نوح العندليب (ص١٧٧ـ١٨٦) باختصار وانتقاء والقصيدة تعدّ (٨٠) بيتاً.

نونية ابن زيدون التي شَدا بها في (٢٤) تِشْرين ثاني (١٩٣٢م) ومطلعُها:

يَـا كَـرمـةً ذويـتْ فيْهَـا أمَـانينـا   لَا الظِّلُ ضَافٍ ولا الأَفْنانُ تُنْدينا
يا نائحَ الكرمةِ الولهىٰ ظلائُلها   سَقَتْ غصونَك أجْفَانُ الشَّجيينا

ومنها وقد نوّه بتغريدِ شَوقي وحسْنِ نَظْمِهِ:

قُـم نَـاجِ كَـرمَتَـهُ واسْأَلْ منَـابِتَهـا   أَمَـا عَلـىٰ مِصْـرَ غـرّيـدٌ يُغَنّينـا؟
قد كُنْتَ بُلْبلَها في عزِّ نهضتِها   وفَّيْتَهـا الحـقَّ فـي رأْسِ المـوفّينـا
يا ناظمَ الشَّرقِ في شعرٍ يُطافُ به   على حمىٰ الشَّرقِ رُوحاً أو ريَاحينا
فَنَمْ علىٰ الدَّهر شَوقي في هواجِسنا   مـورَّفَ الظِّـل لا نـامَـتْ ليـالينـا

ثم يختُمها بقوله:

هَـذي أُميّـةُ لَـمْ تَهْـدأْ وسَـاوِسُنَـا   عَلـىٰ دمشـقَ وَلـم تَنْشَـفْ مـآقينا

* وأمّا شَاعِرُ جِلَّقَ ـ دمشق ـ محمّد محمود البزم[1] ـ رحمه الله ـ ، فقد ناجىٰ مصْرَ بنونيةٍ زيدونيةٍ جميلة ، ذات فُتون وأَشجان وألحان راقصة وأفْنَان ، يقولُ في مطْلَعِها:

حَيِّ العُروبةَ والصِّيدَ الميامِينَا   في مصْرَ وانْشُدْ فُؤاداً ثمَّ مَرهُونا

ومنها يذكرُ النِّيلَ ووادِيه ، والفسْطاطَ وناديه:

واحْمِلْ إلىٰ النّيلِ تَحْنَاناً يردّدُهُ   روضٌ علـىٰ بـردىٰ وَرْدَاً ونسْـرِينـا
وَاقـرأْ تحيَّتَنَـا الفسطـاطَ إنَّ لـه   ذكـرى تـؤرِّخُ ريّـاهـا الـرَّيـاحينـا
وقُـلْ لحـاميـةِ الـوادي وفتْيَتِـه   غـرسُ الفَـراعيـن نَبْـتُ العَبْشَمِيِّنـا

---

(١) محمدُ بنُ محمود بن محمّد بن سَليم البزم ، وُلدَ بدمشق عام (١٣٠٦هـ) الذي يوافق (١٨٨٧م) ، من أبرزِ شعراء العَصْر الحالي في الشّام ، فخْمُ الألَفاظ ، قويُّ الدِّيباجة ، شديدُ الحماسِ للغةِ العربيةِ ، مارسَ التّدريس قرابةَ ربع قرنٍ من الزّمن ، منْ أبرزِ ألوانِه الشّعرية وأغراضِه: الفخرُ ، والغزَلُ ، كما أبدعَ في الشّعرِ الاجتماعي ووصْف الطّبيعة الدّمشقيةِ الجميلةِ ، وكذلك ازدانَ شعرهُ بالحكمةِ.
أُصيب بأواخِر حياته بالعمىٰ ، ثم الشّلل ، وتوفي بدمشق سنة (١٩٥٥م).

وقال في آخرها مُختتماً ومُتَسائِلاً:

هَل تَأْمُلُ العَيْشَ أكْبَادٌ مفتَّتَـةٌ ... تَسْتَمْطِرُ العَطْفَ منْ أكبادِ عَاتينا[1]

* وممن عارض نونية ابن زيدون في بلاد الشَّام، واستهوتْه معانيها، وأَسَرَتْه مغَانيها، وسَحرتْه مبانيها الشّيخ إبراهيم الأحدب الذي أنْشَأَ نونيةً جميلةً قال فيها:

هَيْهَاتَ تقْضَى كَما نَهْوىٰ أَمانيْنَا ... ودونَهـا حَـالَ سَعْـيٌ مـنْ أَعـادِينـا

فمَا الذي أرتَجيْه بَعْدَمَا حَكَمَتْ ... أَيـدي العِـدا ببعـادٍ مـنْ تَهـانينـا

ثمّ يورِدُ ذِكْر «ولاّدة خاصّة بِهِ» فيقول:

وَعهْـدُ ولاّدةٍ أَنِّـي أواصلهـا ... بمـا يَطيْـبُ بـريَّـاهُ تَـلاقيْنـا

ومـا درت أننـي وافَيْـتُ أُودِعُهـا ... قَلبـي بتـوديْعِهـا طَـوعـاً لِـواليْنَـا

سعيُ العدا ساءَني عندَ المليكِ بها ... والدّهرُ عونٌ لَها لا كانَ سَاعِيْنَا

يا مَنْ هواهَا غريمي لم يطلْ أملٌ ... بـأنْ نشـمَّ وُروداً أو ريـاحيْنـا

فأبقي علىٰ الوُدّ فالأفكارُ تجمعُنا ... إذا غَدَتْ أَلْسُنُ الشّكوى تُناجينا[2]

* وعارضَها إبراهيمُ الأحدبُ أيضاً في واحدةٍ منْ مسرحيّاته الجميلةِ علىٰ لسانِ المُعتمدِ بنِ عبّاد فقال:

في أَرضِ أَنْدلُسٍ تَزْهُو مَعَالينا ... وتَنْثَني في الوغىٰ عُجْباً عَوالِيْنا

وَقَدْ بلغْنَا مِنَ العَلياءِ ما قَصرتْ ... عنْـه الأمـانـي ممّـن لا يُـوالينـا

تَمتـدُّ كـفُّ الثُّريـا دونَ سُؤددِنـا ... فـلا تنـالُ الـذي نـالَـتْ أيـادينـا

ومنها:

فيَـا بـلابِـلُ أَغْصَـانِ السُّـرور أَلا ... منْكُـنَّ مغنَـى بـهِ تَـزْهـو مغَـانيْنـا

---

(١) انظر كتاب: الشّعراء الأعلام في سورية (ص ٦٦و ٦٧) والقصيدة جميلة ونادرة وعدد أبياتها (٣٤ بيتاً).

(٢) انظر: مسرحيات الشيخ إبراهيم الأحدب (ص ١٢٩).

فَقد تَطاوَلَ عَهْدي بالصَّفا زَمناً إذْ في الوغىٰ بُدِّلَتْ نوحاً أغَانينا
وعنْ سوالفِ أوقاتٍ بكنَّ مَضَتْ في الرَّوعِ أَلْهَتْ أيادينَا مَواضِيْنَا
أَطْرِبْنَني حَسْب عاداتٍ لَكُنَّ سَمَتْ ونَسْـأَلُ اللهَ لطْفـاً منْـه يَكْفيْنَـا

* وعَلىٰ لسانِ إحدىٰ الجَواري أنْشَأَ إبراهيمُ الأحدب هذهِ المعارضةَ التي ضمَّنَها بَعْضاً منْ نونيةِ ابنِ زيدون ، تقولُ الجاريةُ :

مَولايَ عَزَّ لقَانَا بالسُّرورِ وَقَدْ [أَضْحَى التَّنائي بديلاً من تَدانينا]
وراعَنَا الدَّهْر بالأَحْزانِ بَعْدكم [ونَابَ عنْ طيْبِ لقيانَا تَجافينا]
كمَا غَدَتْ بالنَّوىٰ أيّامنا سَلَفَتْ [سُوداً وكانَتْ بكم بيضاً ليَالينا]
أحييتُمـونـا بـأَنْـواع السُّـرورِ فَمـا [كنْتُـم لأرواحِنـا إلاّ ريَـاحينـا]
فَالآنَ نَشْكرُ في مَغْنَىٰ مَطالِعنَا [بيْض الأيادي التي مَا زلتِ تولينا][1]

* وممن عارضَ نونية ابن زيدون أبو الفَضْل الوليد بن طُعمة ، ولكن هذه المرّة في رثَاء الأندلس ، فقد ذكر الأميرُ شكيبُ أَرسلان في كِتَابه «الحُلل السُّندسيّة في الأَخبارِ والآثارِ الأندلسيّة» ما نصُّه : وبينما أنا أختمُ هذا الجزء ـ الثَّالث ـ وأهيِّئُـه للطَّبْعِ ، إذِ اطّلعتُ في جريدةِ الصَّفاءِ سنة (١٩٣٩م) على قصيدةٍ مؤثّرةٍ في رثاءِ الأَندلس وذكرى أيّامِها الخاليةِ لأبي الفَضْل الوليدِ بن طعمة من أدباءِ المسيحيّين اللبنانيّين ، فأحبَبْتُ تخليدَها في هذا الكتابِ لمكانِها منَ النَّخْوةِ الأدبيّةِ والنَّزعَةِ العربيّة وهي :

يَا أَرضَ أَندَلُسِ الخَضْراءَ حيِّنَا لعَـلَّ رُوحـاً مِـنَ الحَمـراءِ تُحيينَـا
عَادَتْ إلىٰ أهلِها تشتاقُ فِتْيتُها فأسمعَتْ منْ غناءِ الحبِّ تلحيْنَا
كَانَتْ لنَا فَعَنَتْ تحتَ السُّيوفِ لَهم لكـنَّ حَـاضِـرَهـا رسْـمٌ لمـاضيْنَـا

ومنها :

وَإنْ طَـرِبْنَـا لأَلْحَـانٍ نـردّدُهَـا فَـإنَّهـا أخَـذَتْ عنَّـا أغَـانيْنـا

---

(١) انظر : مسرحيات الشيخ إبراهيم الأحدب (ص ١٧ و١٨) بتصرف.

في البُرتغالِ وإسْبَانيّةَ ازدهرتْ آدابُنا وسمَّعَتْ دَهْراً مبَانينَا
كم منْ قُصورٍ وجنَّاتٍ مُزخْرَفةٍ فيها الفُتونُ جَمعْنَاهَا أَفَانينا
وكم صروحٍ وأبراجٍ ممرَّدَةٍ زِدْنا بها المُلْكَ توطيْداً وتمكينا
وكَمْ مَساجِدَ أَعْلَيْنا مآذِنها فأطلَعَتْ أنْجماً منْها مَعاليْنَا
تلكَ البلادُ استمدتْ مِنْ حضَارتنا مَا أَبْدَعتْه وأولتْه أَيادِيْنَا

ومنها:

أيّامَ كَانَتْ قصورُ الملْكِ عاليةً كَانَ الفرنْجُ إلىٰ الغاباتِ آويْنَا
وحينَ كُنَّا نجرُّ الخزَّ أرديةً كانُوا يسيرونَ في الأَسْواقِ عارينا
لم يَعْرفُوا العِلْمَ إلاّ منْ مدارسنَا وَلاَ الفُروسَةَ إلاّ مِنْ مَجَارينا
كِسْرىٰ وقيصَر قَدْ فرَّت جيوشُهما للمرزَبانِ وَلِلْبطْريقِ شَاكيْنَا
حيثُ العَمامةُ بالتّيجانِ مُزْرِيةٌ منْ يَومِ يَرْمُوكَ حتّى يوم حِطّينا

ومنْها:

يَا أيُّها المَسْجِدُ العَاني بقُرطبةٍ هلاّ تذكِّرُكَ الأَجْراسُ تَأْذِينا
ففي المَحاريبِ أشباحٌ تلوحُ لَنَا وفي المنابرِ أصواتٌ تُنادينا

ثم ختَمها بقوله:

وفي رقَابِ العِدا انفَلَّتْ صوارِمُنا وَاليومَ قَد نَزعُوا مِنّا السَّكاكينا(١)

* وأمّا الذينَ استهوتهم نونية ابنِ زيدونَ في اليمنِ وعُمَان وسائرِ البُلدان فكثيرون، وقد اخترتُ لكَ ـ عزيزي القارىء ـ من الأَدبِ العُماني نموذجاً لمعارضة نونية ابنِ زيدون، فقد وجدَ الشُّعراء في عُمانَ في شِعْرِ ابنِ زيدون الأندلسيّ نماذجَ تُحتَذى، وباعتبارِهم منَ المشَارقةِ فقد تاقَتْ أنفسُهم إلى فنّ عبقري الشّعر الأندلسيّ، وشَاعَتْ روحُه فيهم، وانسكبَ في آذانِهم أثرُ نونيتِه في شعرٍ كثيرٍ منهم، وكان مبعثُ ذلك الإعجاب

(١) انظر: الحلل السندسية (٣/ ٥٥٠ ـ ٥٥٢) وهي قصيدة بلغت (٥٢ بيتاً).

نابِعاً منْ حبِّهم لفنِّ ابن زيدون ، وغرامِهم بغزليّاتِه واستعطافِه للمحبوب؛ حتى كان علىٰ طريقتها نماذج كثيرة.

* ففي ذكرىٰ ابنِ زيدون ـ في المهْرجَان الذي أُقيم بالمغربِ عام ١٩٧٥م لتخليدِ ذكرىٰ ابنِ زيدونَ في عِيْدِه الألفيّ ـ شاركَ شعراءُ عُمانَ بهِ ، ومنهم أبو سُرور الذي عارضَ نونية ابن زيدونَ موحياً بمدىٰ حبّه لفنّ ابن زيدون ، وأورد اسْمَه مِراراً في معارضتِه فقال أبو سرور ـ واسمه حُميد بنُ عبدِ الله ـ:

بُعْدُ المسَافَةِ شيءٌ لَيْسَ يَمْنَعُنَا ... مِنْ أَنْ نَطُوفَ نَشَاوىٰ في أمَانِيْنَا
إذا تغنَّتْ بأَقْصَى الغَرْبِ صادحةٌ ... أَجَابَها مِنْ أقاصي الشَّرق صَادِيْنَا

ثم يذكرُ ابنَ زيدون فيقول:

يا بنَ زيدونَ لَوْ أَبْصَرتَنَا زُمرَاً ... جِئْنا لِذِكْرَاكَ أَبْصَرتَ الوفَا فِيْنَا
يا بنَ زيدونَ إنَّ الموتَ ما جَرَحَتْ ... سِكّينُه جَائِشَاتٌ منْكَ تَدوِيْنَا
خلَّفْتَ للدَّهر تَاريخاً وألويةً ... مَنْ ماتَ في ظلِّها ما مَاتَ مَغْبُونَا
أَينَ التَّواشيحُ يا قَيْثارَ أَنْدُلُسٍ ... بل أينَ أوتارها إنْ رُمتْ تَشْجِيْنَا
بل أينَ أَحْمدُ في شعْرٍ منمَّقَةٍ ... سطورُه حِكَماً غُرّاً عنَاوينا
ذكرىٰ ابنِ زيدون ذكرىٰ ليس يقنِـ ... ـعُها نبكي عليهِ وندعوه يغنّينا
ذكرىٰ الأديبِ وذكرىٰ كلّ ذي هممٍ ... تنفيذُ مَا خَطَّه فِعْلاً وتَلْحينا

ثم إنَّ الشَّاعر أبا سُرور بنَ عبد الله العُماني قد اتّجه إلىٰ الحديثِ ـ في نونيته ـ عن تاريخ العربِ في الأنْدلس وما أقاموا من حضارةٍ هنالك ، ويؤكّد علىٰ حقيقةِ أنَّ ابنَ زيدون من حُداةِ المجدِ الذين يجبُ أنْ نلتفتَ إلىٰ أدبِهم ونحتذيه.

* كما أنّنا نجدُ القاضيَ الشَّاعرَ سعيدَ بنَ خَلف الخروصيّ قد استلهمَ منْ نونيةِ ابن زيدون أُسْلوباً للدَّعْوة القوميّةِ ، وإيقاظاً للشّعور العربيّ ،

وحثّاً له ، حتّى يُحرِّرَ أوطانَه الممزّقة ، فكانتْ خواطرُه إشادةً بفنِّ ابنِ زيدون كقوله:

يَا سَاهِرَ البَرْقِ أَيْقِظْ حيّ سيْنيْنا عَساه فـي يَقْظَـةٍ يُحيـي فلسْطيْنَـا
ذكّرهُ يَعْرُبَ أَهْلَ المجدِ مَنْ صَعدُوا عَرْشَ العُلا وبنُوا فيها أَساطينا
وَقُلْ لَه ما لإسرائيلَ قد جَثَمَتْ فـي أرضِنـا فَعَلَـتْ أَعْلَـىٰ رَوابيْنَـا

* ثم إنَّه يقولُ عن ابنِ زيدون ويصفُه بالإباء والأدب:

لله أنْـتَ فَتـىً زيـدونُ مـنْ رجُـلٍ صَعْبِ الشّكيْمَةِ في دُنْياهُ ما دِيْنَا
صَمَدتَ حرّاً لأَحْداثِ الزَّمان ولَمْ تَلِـنْ حَصَـاةً وذَا شَـأْنُ العليّيْنـا
حيّ ابنِ زيدونَ في الآدابِ حافلة نظمـاً ونثـراً بـه الفُصْحـى تُـوافينـا
وفي هواهُ ابنةُ الأَمْلاكِ إنْ رُويت [أَضْحَى التَّنائي بديلاً منْ تَدانيْنَا]
أَحْيا ابنُ زيدون في أحياءِ أندلسٍ للضَّـادِ كَنْـزاً بـهِ تَشْـدُو نَـوادينـا

* وما زِلْنا في عمانَ ، ومازلنا معَ الذين أحبُّوا نونيةَ ابنِ زيدون وتأثّروا بها ، وأثْروا الأدبَ العربيَّ بثراءِ اللغة والفَنّ والكلمة الحلوةِ ، فهذا عبدُ الله بن علي الخليليّ الذي استطارَ وطارَ بأَدب ابنِ زيدون وأُعْجِبَ به ، فقد حيَّاه في نونيتهِ التي مطلعُها:

قُمْ عَانِقِ الحُسْنَ والْثُمه رياحِيْنَا ودَاعِبِ الزَّهْر جُوريّاً ونسْرينَا
ولامِسِ الأُنْسَ في مَهْدِ السُّرور وقفْ بيـنَ المعـالِـم والأعـلامِ مَفْتُـونـا

* وبعد أنْ هَمس الخليليُّ همساتٍ دافئاتٍ في مقدمةِ نونيتهِ بوصفِ الحدائِقِ والرِّياض والزَّهْر والبساتين ، تعرَّض إلىٰ ابنِ زيدون وإلىٰ «ولادة» وإلىٰ «أَضْحى التَّنائي بديلاً منْ تَدانينا» ولنستمعْ إلىٰ ما قال:

حَيِّ ابنَ زيدونَ في عَلْيَائِهِ وعَلىٰ وزارتَيْـه ولمّـا كَـانَ مَسْجُـونَـا
وحَيِّـهِ فـي بُنَيَّـاتِ الخيـالِ وقَـدْ أَبْدَتْ منَ الشَّوق سِرّاً كان مكْنُونا
وحَيِّـه فـي رقيـقٍ مـنْ مَشَـاعِـرِه يذوبُ في الكأسِ منْه خمْرُ دَارِيْنا

وحَيِّه في هوىٰ «ولادةٍ» وعلىٰ   [أضْحى التَّنائي بديلاً منْ تدانينا]
وقُلْ له يا بنَ وديّ عُد بِنا فَلَقَدْ   أضْحى التَّداني بديلاً من تَنائِيْنا

* ويتابعُ الخليلي مُشيداً بمواقف ابن زيدون وأدبِه ، وينوِّه بحضارةِ العربِ بالأندلسِ ، فيقول:

ألفٌ يَمرُّ منَ الأعوام أنْتَ بهِ   مجدَّدُ الذّكْر باقٍ يا بنَ زَيْدونا
لَمْ يَبْلُ ذِكْرُكَ والآثارُ شَاهِدةٌ   إنْ يَبْلُ جسمك تَحتَ التُّرب مدفونا
وَلا نأىٰ منْكَ شَخْصٌ حَشْوهُ أدَبٌ   وعزْمُه يَقْهَرُ الدُّنيا أَواوينا

* وفي الذّكرى الألفيّةِ لابن زيدون يقولُ هلال السّيابي في نونيةٍ جميلة بَدأ فيها:

يَاسَاريَ البَرْقِ يَروي عنْ مآقينا   لَفْح الصَّبابةِ فيْضاً مِنْ تَنائِينَا
غَادِ الرّبىٰ الخضْر مِنْ جنَّاتِ أندلسٍ   وَعَانِقِ الرّوضَ فيها وَالرَّياحينَا
وَباكِرِ الزَّهْر في أكْمامِهِ فَعَسىٰ   تَحكي أزَاهِيرَه أسْطَار ماضيْنَا
فَبينَ أوراقِه الخَضْراء سيرتُنا   مرسومةٌ بخطوطٍ منْ مواضِيْنَا
يبكي الزَّمانُ وذكْراه مؤرِّقَةٌ   تميتُنا كيفَما شَاءَت وتحيينَا

* ثم يمضي الشّاعر هلالُ السَّيابي في نونيتِه ، ويعبِّرُ من خلالِها عنْ مواقفِ ابنِ زيدون من «ولادة» وهيامه بها ، وكيف سَلَبَتْ منه العَقْل ، وكيف تحمّل وعاشَ في سجنه؟ ثم ينادي هلال السّيابي علىٰ ابن زيدون أنْ يشهدَ حاضِرَ الأمّة العربيّة فيقول:

بِاللهِ يا شَاعِرَ الفُصْحىٰ وفارِسَها   هَاتِ الحديثَ لنا وارْوِ الأَفانيْنَا
ما شأْنُ «ولّادة» الزّهراء كيف سَبَتْ   منْك الفؤادَ فَبِتَّ الدّهر تشْجينا
أضْفَىٰ عليْها الجمالُ الغَضُّ فتْنَتَه   فَعِشْتَ عُمركَ مفْرىٰ القَلْب مَفْتُونا

* ترىٰ هل توقَّفَ الشُّعراءُ المعجبونَ بنونيةِ ابنِ زيدون عند هذا الحدّ؟! وعارضُوها ونسجُوا علىٰ منْوالها؟!

* لقد أُغْرِمَ الشُّعراءُ قديماً وحديثاً بهذهِ القَصيْدةِ الجميلةِ ، واعتبروها

يتيمةً نفيسةً في هذا البابِ اللطيف ، لذا فقد سارعَ الشُّعراءُ إلى تخميسِها وتَسْديسها وتَشْطيرها ، وشَغَلَتِ الأذْهَان زمَناً غير قليل.

* وممن اشتغلَ بها من القُدماء وشَغَلَتْه وألْهتْه عن ذي تمائم محولِ الشّاعرُ الفارسُ صفيُّ الدِّين الحلّيّ الذي خَمَّسها وجعلَها مرثيةً في الملكِ المؤيّد عماد الدّين صاحب حماة.

* ترىٰ كيفَ استطاعَ هذا الشَّاعرُ العبقريُّ أنْ يجعلَ الأبيات الغزلية الرّقيقةَ في الرِّثاء؟! إذاً اقْرأ معي ذلك:

كانَ الزَّمانُ بلقْياكُمْ يُمنّينَا ... وحَادِثُ الدَّهْرِ بالتَّفريقِ يثْنِيْنَا
فعنْدَمَا صَدَقَتْ فيكم أمانيْنَا ... [أَضْحَىٰ التَّنائي بديلاً منْ تدانينا
ونابَ عن طيبِ لقيانا تَجافينا]

خِلْنَا الزَّمانَ بلقْيَاكُم يُسَامحنَا ... لكي تُزَانَ بذِكْرَاكمْ مَدَائحُنَا
فعنْدَمَا سَمَحَتْ فيكُم قَرائِحُنَا ... [بنْتُم وبِنَّا فمَا ابتَلَّتْ جوانحنَا
شَوقاً إليكُم وَلاَ جفَّتْ مآقينا]

وقالَ في نِهايتها:

كَمْ منْ حَبيبٍ عَدَلْنَا مع ترحُّلِهِ ... إلىٰ سِواهُ فأغْنَىٰ عنْ تأمُّلهِ
وَصَعْبِ وِرْدٍ عَدلْنَاهُ بأَسْهَلِهِ ... [أمّا هواكِ فَلَمْ يُعدل بمنْهَلهِ
شُرباً وَإنْ كانَ يُروينا فيُظمِيْنَا]

تَشْكُو إلىٰ اللهِ نَفْس بعضَ ما لَقِيتْ ... عِبَّ النَّعيم الذي منْ بعدهِ شَقِيَتْ
فيا سحاباً بهِ كلّ الورىٰ سُقِيَتْ ... [عليكِ منّي سلامُ اللهِ ما بقيتْ
صَبابةٌ منك نُخفيها فتخْفِيْنا][1]

* وممنْ خمَّس نونيةَ ابنِ زيدون منَ المحدثين عبد الله فريج المتوفىٰ سنة (١٩٠٥م) ، حيث ألزمَ نَفْسَه بأنْ تظلَّ قصيدتَه في إطار موضوعها

(١) ديوان صفي الدين الحلي (ص ٣٥٩ ـ ٣٦٣).

وهو الغَزَلُ خِلافاً لصفي الدِّين الحليّ الذي طوَّعَها للرّثاء ، يقولُ عبدُ الله فريج في مَطلع تخميسه :

وَاهـاً لِعهْـدٍ بـهِ تمَّـتْ أمـانيْنـا بِجَمْـعِ شَمْـلٍ فخـانَتْنَـا ليَـاليْنَـا
وبعدَما ازْدَانَ بالأحبابِ نادينا [أضحى التَّنائي بديلاً منْ تدانينا
ونابَ عن طيْبِ لُقيانَا تجافينا]
فكمْ لَكُمْ في الهوىٰ حنَّتْ جوارِحُنا وعامِلُ الوَجْدِ بالأشْواقِ جَارِحُنا
وإذ نوىٰ البَيْن يوماً لا يبارِحُنا [بنْتُم وبنّا فما ابتلَّتْ جوانِحُنا
شوقاً إليكم ولا جفَّت مآقينا]

* ويختم عبدُ الله فريج هذا التّخميس الجميل بقوله :

وقُلتُ إذْ ظَعَنتْ والبَيْنُ ما خشِيَتْ والأرضُ منْ عبراتِ الصَّبّ قد شَقيتْ
يا مَنْ بها النَّفْسُ أهوال الهوىٰ لقيتْ [عليكِ منّي سلامُ اللهِ ما بقَيتْ
صبابةٌ منكِ نخفيها فتُخْفينا]

* إنَّ الذين خمَّسوا هذه النّونية الرّائعة ، ومَنْ عارضوها لا يُحصون ، ولو رحتُ أستقصي لكَ بعضَ أعمالِهم في هذا المضمار الصَّعْب ، لاحتاج الأمْر منّا إلىٰ مجلّدات ، وأمّا الذين استخدموا النّونية في أغراض مختلفةٍ فلا يُحصون[1] . وكثيرٌ منَ الشُّعراء عمل قصّة ولادةَ وابن زيدون في مسرحيةٍ شعرية ومنْهم أحمد رامي ، فلنقرأ ما جادت به قريحته .

* * *

(١) انظر مثلاً : موشّح الشّيخ إبراهيم الأحدب الطّرابلسيّ المتوفى سنة (١٣٠٥هـ) الذي أدْخَل فيه أعجاز نونيةِ ابن زيدون ، ومطْلَع الموشّح :
أَجْـرىٰ مـآقِيْنـا بُعْـدُ المحبّينـا [ونـابَ عـنْ طيـبِ لقيـانـا تجـافيـا]
انظر (حلية البشر في تاريخ القرن الحادي عشر ١/ ٥٨ ـ ٦١) .

غَـرامُ الـشعَـرَاء
مـسْـرَحيَّـة شِـعْـريَّـة

* ابن زيدون
* ولأدة
* ابن عبدوس
* ابن برد

تجري الحوادث في قرطبة أيام ابن جمهور في قصر ولادة

الـزيـارة

(غناء خافت ينبعث من مقصورة موقعاً على العود والشعر لابن زيدون).

ولادة ـ تغني:

يـا نـائيـاً وضميـر القلـب مثـواه   أَنستْـك دنيـاك عبـداً أَنـت دنيـاه
أَلهتْـك عنـه فكـاهـات تلـذُّ بهـا   فليـس يجـرى ببـال منـك ذكـراه
عـلّ الليـالـيَ تُبقينـي إلـى أَمـل   الــدهــر يعلــم والأَيــام معنــاه

(ابن زيدون ـ لصديقه ابن برد وهما يدخلان القاعة):

أَتسمعهــا تُغنِّــي مــن نسيبــي   ومـا عـرفَـتْ هـواي ولا حبيبـي
نظمتُ الشعر من دمعي وغنّت   به شكوى الغريب إلى الغريب

ابن برد:

تقــدَّمْ فــالهــوى يــدعــو إليــه   قلـوب العـاشقيـن علـى البعـاد
هَشَشْــتَ إلـى زيـارتهـا وحَنَّـتْ   إلــى اللُّقيــا ، أَتسمعُهــا تنــادي

ابن زيدون:

أخــاف لقــاءهــا وأَودُّ أَنــي   أَظَـلُّ المستهـام علـى التنـائـي
سمعــتُ غنــاءَهــا فــإذا بكــائـي   مــن الــدنيــا تَـرَدَّدَ فـي الغنــاءِ
وجدتُ لصوتها في النفس شجْواً   يــرفِّــهُ مــن تبــاريــح الشقــاءِ
وأَخشـى أن يُخـامـرنـي هـواهـا   وأَلقــى فــي محبتهــا عــزائــي
فـأُصبح لا تطيـبُ لـي الليـالـي   بغيــر القــرب منهــا واللقــاء

ابن برد:

كيف تخشى لقاءَها وهي تشدو — بـالـذي بَثَّـهُ هـواك الـدفيـن
قـد تعـارفتمـا غنـاء وشعـراً — قبـل أَن تبصـر العيـونَ العيـونُ
فابعث الحبَّ وانظم الشعر فيه — يتـرنَّـمْ بـه الفـؤاد الحـزيـن

تعال اسمع أَغانيها

ابن زيدون:

أَخاف السحر من فيها

(يدخلان)

ولادة

يا مرحباً بأَخي الغزل

ابن زيدون:

أهلاً بحادية الأَملْ

ولادة

هل كنتَ في الدار على مسمع

ابن زيدون:

وانْهَلَّ من فَرْط الشَّجا مدمعي

ولادة:

وهـل شجتْـكَ الأَغـانـي — أو أَعجبتْـكَ المعـانـي

ابن زيدون:

وهـل تَـروق المعـانـي — إلا بـرجـع الأَغـانـي
غَنِّي وخَلِّي الدمع يُرْوِي الذي — قـد جَـفَّ مـن نفسـي ولـم يَيْنَع
لعـل فـي نجـواك إحيـاءَ مـا — دفنـتُ مـن حُبِّـي ومـن مطمعـي

ولادة:

وهل عشقتَ قديما

ابن زيدون:
وكان عشقاً أليما
وأنت هل ذقت حبا؛
ولادة:
ألست أَملك قلبا؛
ابن زيدون:
كيف مَرَّت على هواك القلوبُ؟
ولادة:
قد تحيَّرتُ من يكون الحبيب
ابن برد:
لقد كان يخشى لقاكِ ويُشْفقُ من أَن يراك
ولادة:
وماذا يخافُ الدَّعيُّ
ابن برد:
يخاف الردى هواك
ولادة:
لا تُصدّق ما يقول الشعراءْ فالذي قالوه في الحبّ هباء
كلما استهواهم حسنٌ مضوْا يُرسلون الشعر فيه والغناء
لا يَقِرُّون على حبّ ولا يستطيعون على حال بقاء
حُبُّهم وَقْفٌ على أَنْفسهم وهوى الناس التفاني والفداء
ابن زيدون:
ماالذي تعنين؟
ولادة: أعني أنكم كفراش الليل تهوَوْن الضياء
فإذا ما مَسَّكُمْ من ناره لَهَبُ الوجد خَلَوْتم للبكاء

ابن زيدون:

نحن نبكي!

ولادة:

أَنتُـــــــــمُ علمتــــــــــم أعيــن النــاس أفــانيــن البكــاء

ابن برد:

قسوتِ عليه فرفقاً به

ولادة: لقد كان أقسى على قلبه:

سمعـت لـه مـا يـذيـب الفـؤاد ومـا يُـرسـل الـدمـع مـع غَـرْبـه

ولمـــا تغنَّيْـــتُ مـــن شعـــره وجـدتُ لَظَـى الـوجـد فـي حبّـه

ابن زيدون:

وما ذا الذي يُشقى أَخا الحبّ في الهوى؟

ولادة:

تَخَوَّفُه من أَن تسوءَ ظنونه

ابن زيدون:

قُتِـــلَ الشـــكُّ مـــا أَشـــدّ أَذاه فـــي فـــؤَاد المـــدلَّـــهِ الحيـــرانِ

يبعث الغيرة التي تأكل القلب وتقضـــي عليـــه بـــالهَيَمـــان

ابن برد ـ (مخاطباً ابن زيدون)

لقـد كنـت تخشـى اللقـاءَ وهـذا حـــديـــثُ خليـــل إلـــى خِلِّـــه

تنـاجيتمـا فـي سمـاء الهـوى وعـــرَّفتمـــا الحـــبَّ مـــن أَصلـــهِ

فهـــل حـــنَّ قلبـــاكمـــا للغـــرام ومـــال الحبيـــب إلـــى ظلِّـــه

عجبـــتُ لأهـــل الهـــوى قلبُهـــم يَـــدُلُّ الغـــريـــب علـــى أَهلـــه

(يخرج ابن برد)

* * *

الـخلـوة

ابن زيدون:

ما الذي شاهَدَ ابنُ برد علينا ... مـن دليـلٍ علـى غـرام كميـن؟

ولادة:

هل رأَى منك ما يَنِمُّ عن الحبّ؟

ابن زيدون:

رأى الدمع حائراً في عيوني

وقفنـا نسمـع النجـوى ... إذا قلبـي ومـا يهـوى

تعـالـي نُقْـن نفسيْنـا غـرامـاً ... ونَخْلـدْ بيـن آلهـة الفنـون

أُرَتِّـلُ فيـكِ أَشعـاري وأُصغـي ... إلـى تـرجيعـك العـذب الحنـون

ولادة:

وهل تصفو لنا دنيا الأَماني؟

ابن زيدون:

نعم يصفو الغرام

ولادة:

وتصطفيني؟

ابن زيدون:

وأنظـم فِيـكِ مـن حَبَّـاتِ قلبـي ... معـانـي الـوجـد والحـب الحـزيـن

ولادة:

وهـل تَـزِنُ الأَمـانـة فـي ودادي ... وتوقن من هواي ومن شجوني

وتجزيني على حبٍّ بحبٍّ؟

ابن زيدون:

نعم ، لكن أخاف من العيون

وأعلم مَيْلَ نفسك أن تكوني هوى الدنيا ومُنْبَعَثَ الحنين

ولادة:

ولكني أَبُثُّ شَكَاةَ قلبي إلى قلب على ودِّي أَمين

وأُوثِرُ في الغرام نَجيَّ نفسي ومؤنسَ خاطري وهوى فنوني

ابن زيدون:

وهل تجدين صبّاً مستهاماً يُحبك للهوى والشعر دوني

ولادة:

شاعرٌ كل أَمانيه التغني بالغرام

يعشق الحب ويهوى الهجر فيه والخصام

ابن زيدون:

تعالي نُفْن نفسينا غراما

ولادة:

تعال اقرأْ على قلبي السلاما

وسائِلْه أَلمْ يهتف حنيناً إلى اللُّقيا ولم يخفق هياما؟

عرفتُكَ قبل أَن ترعاك عيني ويشرب مسمعي منك الكلاما

وداخلني اليقين من التلاقي ومن كشفي عن الحب اللثاما

أتهواني؟

ابن زيدون:

نعم يهواك قلبي ويرعى في محبّتك الذِّماما

سمعت غناءَك العذب استراقاً كأَني أَبصرتْ عيني مناما

ولما أَنْ تلاقينا تجلّى لها صدق الهوى والقلب هاما

وطالعني النعيم كأَن دنيا من الآمال حَيَّتْني ابتساما

(تغشى ابن زيدون سهمة طويلة)

ما الذي نالك؟ ماذا تشتكي؟

ابن زيدون:

لستُ أَدري لِمَ يَغْشَاني الْحَزَنْ؟

غمــرتنــي نعمــة الحــب ولا   آمَــنُ الغيــب ولا رَيْــبَ الــزمــن

ولادة:

ما الذي تخشاه؟

ابن زيدون:

أخشـــــــــــى عـــــــــــاذلاً   يُضمـر الكيـد ويسعـى فـي الفتـن

* * *

الـغـيْـرة

(يدخل ابن عبدوس وابن برد)

ابن عبدوس:

من أَرى؟

ولادة:

هذا ابن زيدون

ابن عبدوس:

وما لي أَراهُ شارد اللُّبِّ حزين

قـد عـرفنـاه طـروبـاً ينثنـي　　مـرحـاً عنـد سمـاع العـازفيـن

ابن زيدون:

وأَرانـي ربَّمـا أحـزنَنـي　　من صدَى الأوتار شَدْو أو رنين

ابن عبدوس:

هـذه حـال الـذي أَوْدَى بـه　　لاعـجُ الأَشـواق أَو مـسُّ الجنـون

ولادة:

أَرَى عينيكمـا رَمَتَـا شـراراً　　وأَخشى النار تَرْعَى في الهشيم

أَلـم يجمعْكمـا سبـبٌ متيـن　　علـى حفـظ المـودَّة والإخـاء؟

ابن زيدون:

وأَلَّفنـا علـى الإخـلاص عـرشٌ　　نُفَـدِّيـه ونخلـص فـي الفـداء

ابن عبدوس:

وهل أخلصتَ للعرش المُفَدَّى　　وقمـتَ علـى الـرعـايـة والـولاء

وأَنــتَ العمــرَ تقضيــه هبــاءً صريع الكأْس أَوْ خِلْبَ النساء؟

ابن زيدون:

خَسِئْتَ فإِنَّ في القِدْحَ المُعَلَّى إذا خَـفَّ الـرجـال إلـى العـلاء
تَـأَسَّسَ مُلْكُ قـرطبـةٍ وقـامـت دعـائمُـه وكـانـت مـن بنـائـي
ونـاولـتُ ابـن جهـور صـولجـانـاً علـى جنبـاتـه تجـري دمـائـي

ابن عبدوس:

ومـن يَبْـن المـالـك لا يبـالـي بِهَـدْمِ العـرش أَوْ هـدِّ اللِّـواءِ

ولادة:

كفـى مـا قلتمـاه فـإِنَّ داري مَـراحُ الشّعـر أو مَغْـدَى الغنـاء
ومـالـي والسيـاسـة وهـي بحـرٌ أَتِـي المـوج مُـرْبَـدُّ السمـاء
يـا خليلـيَّ ومَـا كـانـت لنـا نـدحَـةٌ عـن ذلـك القـول الهُـراء

ابن زيدون:

قد تحدَّاني

ولادة: وماذا قال لك؟

ابن زيدون:

قال إني أصْرفُ العمر هباءْ

ابن عبدوس:

بل تصدَّى لي

ولادة:

وماذا قال لك؟

ابن عبدوس:

قال يُغْويني سرابٌ في سماء

ولادة:

وهــل الــدنيـا ســوى أَخْيلَــة من ظلام اليأْس أَو نور الرجاء

وهـــل الأيـــام إلاَّ ســـاعـــةٌ ينعـم القلـب بهـا حيـث يشـاءْ
خلِّيَـــانـــا م الـــذي فـــات ولا تذكرا الماضي إذا الماضي أَساء
وصـلا حبـل التصـافـي واعلمـا أَن هـذي الـدار نـادي الأَصفيـاءْ

ابن زيدون:

دَرَجْنـا مـع الـودّ منـذ الصبـا وكـــانـــت رُبـــاه لنـــا ملعبـــا
وأَلَّفنـــا أُمْنيـــات الشبـــاب زَهَـتْ كـوكبـاً وسَمـتْ مطلبـا
ومـرَّت بنـا عـاديـات الـزمـان فكنَّـا علـى غـدره أَقـربـا

ابن عبدوس:

ومـا لـك أَنكـرت منـي الـوداد وقـد ذقتَـه سـائغـاً طيبـا

ولادة:

حنـانيكمـا لا تطيـلا المـلام ولا تسـأَلا القلـب مـن أَذنبـا
بَـدَت جفـوة بيـن نفسيكمـا ومَـرَّت كلمـح شهـاب خبـا
ومـا أَجملَ الـودّ بعـد العتـاب وأَبقـى الصـديـق إذا أَعْتَبَـا

ابن عبدوس:

اغفـري لـي أَنـي أَسـأْت إليكـم بحضـوري فُجَـاءَة وذهـابـي
نـازعتنـي إليـك نفسـي فـأَقبلـت علـى خلـوة مـن الأَحبـاب
لـم أَكـد أَقـرأُ التحيَّـة حتـى نـالنـي منكمـا رشـاش السِّبـاب

(ينصرف ابن عبدوس ويدخل ابن برد)

* * *

الـوداع

ابن زيدون:

هـل تَـبَـيَّـنْـتِ كيف نَمَّـتْ عليه   نظرة الحقد في العيون الغضاب
وسمعــتِ الــذي يعبِّــرُ عمــا   ينطـوي فـي فـؤاده المـرتـاب
شَهَـرَ الحـرب عـامـداً وتصـدَّى   يـرسـل اللـوم فـي ثنـايـا العتـاب
ثــم ولّـى يقـول نحـن بـدأنـا   ه ولــم نَــرْعَ حُــرمــة الآداب

(مخاطباً ابن برد)

يـا بـن بـرد مـا الـذي يمنعني   مــن زيــاراتــي لهــذا المنـزل
أيَّ أمـــــر كنــــت أخشــــى؟

ابن برد:

كنـــــــت تخشـــــــى   فتنــة الــواشــي وكيْــد العُــذَّل

ابن زيدون ـ مخاطباً ولادة:

أَرأَيـت كيـف تحقَّقـتْ أوهـامـي   وجنى عليَّ الصِّدق في أَحلامي
ما زلتُ أَطلب أَن أَراك فلم أَكدْ   أَلقـاك حتـى خِفْـتُ مـن أَيـامـي

ولادة:

ماذا تخاف؟

ابن زيدون:

أَخـــاف تشتيـــت النـــوى   وأَخـاف طـول تَـلَـذُّذي وهيـامـي

ولادة:

ما هذه الأَوهام في فجر الهوى   والحـبُّ لـم يلبـثْ رضيـع فطـام؟

ابن زيدون:

يا بن برد أُحِسُّ في القلب شيئاً يبعث الخوف من أَذى الأَشرار

سِرْ إلى القصر واستمع ما يقولون وأَلْمِمْ هذا المساءَ بداري

لست أَدري ماذا يدسُّ لَي الوا شي وماذا يسوق من أَخباري

(يخرج ابن برد) (مخاطباً ولادة):

أَرَأيت كيف تنبأَ القلب وشهدت كيف يُعذِّب الحب

الحظ واتاني فَبلْلَبَلني والحظ قتَّال متى يكبو

(بعد صمت):

خبّريني على العهود تقيمين فألَقى الأهوال ثَبْتَ الجنان

كيف أَخشى أَذى الليالي وحُبّيك سلامي من الرَّدى وأَماني

ولادة:

أَنتَ رَوَّعْتَني وحيّرت لُبّي وأَثَرْت الكمين من أَشجاني

لم تكدْ تبسم الحياة بقربي منك حتى لوَّحْتَ بالحرمان

ابن زيدون:

سامحيني جادت عليَّ الليالي بالذي أَرتضي وطاب زماني

وإذا تَمَّت الأَماني لنفس خَشِيَتْ عندها ضياع الأماني

طالعيني

ولادة:

هل ترى في العين أَشجاني؟

ابن زيدون:

عانقيني

ولادة:

هل سمعت القلب زَكّاني؟

ابن زيدون:

ودّعيني

ولادة:

هل ترى التوديع أَبكاني؟

ابن زيدون:

قبّليني

ولادة:

قبلة للملتقي الداني

ختام[1]

هذه صورة عن غرام الشعراء على مر العصور بقصة ولادة وابن زيدون، ورأينا المرحوم أحمد رامي كيف أبدع في شعره الغنائي بقصة ولادة، ترى هل كان أحمد رامي يعرف أن ولادة شخصية مزعومة؟!!

* * *

---

(١) ديوان أحمد رامي (ص ١٨٢ ـ ٢٠٠).

وَلاَّدَةُ الأَديْـبَـةُ الشَّاعِـرَةُ:

* لا شَكَّ في أَنَّ الأدبَ والشِّعْر الذي وصَلَنا عن ولادةَ أو صُنِعَ ووضِعَ علىٰ لسانِها يدلُّ على أَنَّها من أميراتِ البيَانِ اللواتي حَفِظَ الدَّهْرُ مقامهنَّ ، ويبدو أَنَّها قد نالَتْ حظّاً وافراً منَ العُلومِ والآدابِ والمعرفةِ ، فغَذا أدبها يدلُّ على ثقافَتِها المتنوعة.

* فقد كانت ـ ولاّدةُ ابن زيدون هذه ـ شاعرةً مجليةً بين لِدَّاتِها ، فأدبُها كَشمْسِ النَّهار ، وشِعْرها سَهْلُ الأَلفَاظ ، قويُّ السَّبْك ، سَلسُ العِبارة ، طرقَتْ فنونَ الأدبِ من غَزَلٍ وهجاءٍ وفخرٍ ودُعابةٍ وغير ذلك.

* ولعلَّ الشّعْرَ الذي بينَ أيدينا والذي نُسِبَ لولادة ، أو الذي صنَعَه ابنُ زيدون على لسانِها ، لا يدلُّ على سَعَة تبحرّها في الشِّعر إذ لا تعدو الأبيات التي نُسِبَتْ إليها سوى أقلّ من عشرين بيتاً ، وهذا لا يُعطي صورةً واضحةً عن شاعرةٍ مشهورةٍ ـ كولاّدة المزعومة هذه ـ بل إنَّ حفصةَ بنتَ الحاج الرّكونية أفْضَل منها وأكثر شِعراً منْ ولاّدة ، ولكنّنا الآن أمامَ أشعار تزيدُ عن عَشرةِ أبياتٍ قليلاً زعموا أنَّها مَنْ نَظْمِ ولاّدة ، وتبدو لنَا في ناحيتَيْن بارِزَتَيْن هما: الغَزَل والهِجاء. وها نحنُ أولاء نتحدّث عن كلّ ناحيةٍ في فقْرةٍ منفصلة.

وَلاّدَةُ وَفَـنُّ الـغَـزَلِ:

* حملَتْ إلينا المصادرُ المتنوِّعَـةُ بينَ دفَّـتَيْها بعضَ أشْعَارِ ولاّدة ، وتدورُ في فَلَكِ الغَزَل فِي معْظَمِها ، إلاّ ما جاءَ في الهجاءِ ـ كما سنقرأُ إنْ شَاء الله ـ.

* إنَّ ولادةَ تَحسنُ القَولَ ، ولم تَشْتَطَّ في غزلها ، وهي شاعرةٌ تحملُ

بينَ جوانحها أحاسيس الشِّعراء وتخيلاتهم(١) ، ناهيك بأنَّها تصوغُ المعاني التي تريدُها في سُهولة دون تَصَنُّع أو تَعَثُّر؛ وإنَّ مَنْ يقرأ الأبيات الغزليةِ الآتية ، يجدْ بأنها أشعارُ امرأةٍ تتغزّل في رجلٍ ، وتتذكّرُ أوقات اللقاءِ وأويقات السَّعادة ، فقد أوردَ صاحبُ «النَّفح» أبياتاً لها تصفُ فيها فراقَ ابن زيدون أو جَفْوته ، فكتَبَتْ إليه:

أَلاَ هَلْ لنَا منْ بَعْدِ هذا التَّفرُّقِ سَبيْلٌ فيشْكُو كلُّ صبٍّ بما لَقِي
وَقَدْ كُنْتُ أوقاتَ التَّزاورِ في الشّتا أبيتُ علىٰ جَمْر مَن الشَّوق محرقِ
فكيفَ وَقَدْ أَمْسَيْتُ في حَالِ قَطْعَةٍ لقد عجَّلَ المقْدُورُ ما كنْتُ أَتَّقي
تمرُّ الليالي لا أَرىٰ البينَ يَنْـقَضِي ولا الصَّبرُ منْ رقّ التّشوق مُعْتِقي
سَقَى اللهُ أرضاً قد غَدَتْ لكَ مَنزِلاً بكل سَكُوبٍ هَاطِلِ الوبْلِ مغْدِقِ

* ولما قرأَ ابنُ زيدون أبياتِ ولادته أخذَتْه هِزّةُ الطَّرب ، لدفءِ عاطفتها وحسنِ اختيارِها للمعاني الرّقيقة التي تُداعبُ بهمساتِها شغافَ القَلْب ، وهناك كَتَب مُرسِلاً(٢) إليها بيتَيْن منَ البَحْرِ نَفْسهِ والقافِية نَفْسِها مع توجيهٍ بسيطٍ لانتقاءِ بَعْضِ الكَلمات فقال:

---

(١) يزعُمُ عبدُ الله عفيفي بأنَّ ولاّدة وأمثالَها كنّ قد خصصنَ بنقْدِ الشّعر ، ذلكَ ليثرنَ فيه قوّةَ الخيال ، وروعةَ الجمال ، فيقول: ومنْ عيونِ هؤلاء ـ أي النّساء ـ حفصةُ بنتُ الحاج الركونية من شريفات غرناطةَ وحَسيباتِها ، وولادةُ بنتُ الخليفة المستكفي في الأندلسِ. (المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها ٢/ ١٧٦).
ـ نقولُ لعبد الله عفيفي: إنَّه مع الأَسَفِ الشّديدِ لا يُوجد للمستكفي ابنةً ناقدةً تُدعى ولاّدة وإن اشتهر ذلك في كُتُب الأدب.

(٢) عقَدَ ابنُ حزم ـ رحمه الله ـ في كتابهِ «طوق الحمامة» باباً لطيفاً عن المراسلةِ فقال: وينبغي أنْ يكونَ شَكْلُ الكتابِ ألطفَ الأشكال ، وجنْسُه أمْلحَ الأجْناسِ. . . إنّ لوصولِ الكتابِ إلى المحبوب ، وعِلْمُ المحبّ أنَّه قد وَقَعَ بيدهِ ورآه للذّة يجدهُا المحبُّ عجيبةً تقومُ مقامَ الرّؤية ، وإنّ لردّ الجواب ، والنّظر إليه سروراً يعدلُ اللقاء. (طوق الحمامة ص ٣٣ و٣٤) باختصار.

لحىٰ اللهُ يوماً لَسْتُ فيهِ بملتَقِي محيَّاكِ منْ أَجْلِ النَّوىٰ والتَّفرُّقِ
وكيفَ يطيْبُ العيشُ دون مَسرَّة وأيّ ســورٍ لكئيــبِ المُــؤَرَّقِ[1]

* بهذا الرَّدِّ الأنيقِ كان ابنُ زيدون يجيبُ محبوبتَه وولّادته التي كانَتْ تعتبرهُ مَالِكاً زمامَ الشِّعر في الأندلس ، ومالِكاً زمامَ نَقْدِ الشِّعر ، فأرسلَ مع بيتَيْه السَّابقَيْن ما وقعتْ فيهِ من هنَاتٍ في نَظْمِها ـ وقد كانَتْ زعموا تطلبُ فيه أَنْ ينتقدَ شِعْرها ويوجّهُها إلىٰ الأَفْضَل ـ لذا فإنَّه كتَبَ عُقيْبَ شِعْره لها: وكُنْتِ ربّما حَثَثْتِني علىٰ أنْ أنبِّـهَكِ ، علىٰ ما أَجِدُ فيهِ عَلَيْكِ نَقْداً ، وإنّي انتقدتُ عليكِ قولَكِ:

سَقَىٰ اللهُ أَرضاً قد غَدَتْ لَكِ منزلاً بِكُلِّ سَكُوبٍ هَاطِلِ الوبْلِ مُغْدِقِ

فإنَّ ذا الرُّمّة[2] قد انتقُدِ عليه قولُه مع تقديم الدّعاء بالسّلامة:

أَلَا يا اسْلَمي يا دارَ ميّ علىٰ البِلىٰ وَلَا زَالَ مُنْـهَلاًّ بِجرعَائِك القَطْرُ[3]

إذْ هو أشبهُ بالدُّعاءِ علىٰ المحبوب منَ الدّعاءِ له ، وأمّا المستحنُ فقول الآخر:

---

(١) انظر: ديوان ابن زيدون (ص ١٧٤).

(٢) «ذو الرُّمة»: اسمهُ غيلانُ بنُ عقبة بن نهيس العدويّ الشّاعر المشهور المعروف بذي الرُّمة ، أحدَ فحولةِ الشّعراء ، وهو أحدُ عشّاق العربِ المشهورين بذلك ، إذ عشقَ ميّةَ بنتَ عاصم المنقريّة ، وسائرُ شعره فيها ، قال أبو عمرو بن العلاء: خُتِمَ الشّعر بذي الرّمة ، كان من مشاهيرِ الشُّعراء في عَصْره ، وذوي التّقدّم في دهره ، توفيَ سنة (١١٧هـ).
(وفيان الأعيان ٤/ ١١ ـ ١٧) و(سمط اللآلي ١/ ٨١ ـ ٨٢).

(٣) هذا البيتُ من البحرِ الطويل لذي الرُّمة ، وهو منْ أغزالهِ الجميلةِ الشّهيرة بين عالم العُشاق وهو من قصيدةٍ منها قوله:
لهــا بَشَــرٌ مثــلُ الحــريــرِ ومنطــقٌ رخيــمُ الحــواشــي لا هــراءٌ ولا نَــزْرُ
وعينــان قــالَ اللهُ كــونــا فكــانتــا فعــولان بِــالألبــاب مــا تفعــلُ الخمــرُ
ومن الجدير بالذّكْر أنّ بيتَ ذي الرُّمة منْ شواهدِ ابن عقيل في شَرحه على ألفيّةِ ابن مالك.

فسَقَىٰ دِيَارَك غيرَ مفسِدِها   صَوبُ الرَّبيعِ ودَيْمةٌ تَهْمي[1]

* إنَّ النَّقْدَ الذي أرسَلَه ابنُ زيدون لولّادته لا يعني أنَّها لم تكُنْ بصيرةً بالنَّقْدِ؛ وإنَّما كانَتْ ناقدةً ، دقيقةَ النَّظَرِ في معاني الأشْعار ، وفي ألفاظِها ومبانيها ، فقد كانت تنقدُ الشِّعْر ، وتبيّنُ ما فيهِ منْ محاسِنَ ومساوىء علىٰ قَدْرِ اطّلاعها وثقافتِها ورهافةِ حسّها وتذوّقها للشِّعْر ، لا سيّما أنّها ـ كما ذكر عشّاق الأدب وصُنَّاع قَصَصه ـ قد فتحَتْ أبوابَ منزلها لعشّاقِ الأدب وروّاد المعرفةِ، تناقشُهم في موضوعاتٍ متنوّعةٍ وخصوصاً في فنونِ الأدبِ والشِّعْر.

* وتذكرُ كتُبُ الأدبِ والأسْمار بأنَّ هذه الولّادة المحبوبةَ ، قد طلبَتْ من ابنِ زيدون أنْ ينظمَ قصيدةً في أبي عبد الله بن القلّاس البطلْيَوسي ويداعبَه بها ، فأرسلَ له ابن زيدون قصيدةً تزيدُ عن عشرينَ بيتاً[2] قال في مطلعِها:

أَصِخْ لمقَالَتي واسْمَع   وخُذْ فيها ترىٰ أَوْ دعْ
وأَقْصِرْ بَعْدَها أَو زِدْ   وطِرْ في إِثْرِها أَو قَعْ

ثم اختتمَها بقوله:

فإِنَّ قُصَارَكَ الدّهْلِيْـ   ـزُ حيْنَ سواكَ في المَضْجَع[3]

وَهُنالِكَ اسْتَدرَكْتَ عليه ولّادة. وقالت: يحسنُ أنْ تقولَ:

فَإِنَّ قُصَارَك الإصْطَبْـ   ـلُ حيَن سِواكَ في المضْجَع[4]

---

(١) انظر: نفح الطيب (٥/٣٣٩) ، وانظر نقد أبي هلال العسكري لهذا في كتابه الصّناعتين ص (٣٧٩).
(٢) انظر القصيدة كاملة في ديوانه (ص ١٩٨ و١٧٩) وهي تعد (٢٢ بيتاً) من مجزوء الوافر.
(٣) «الدّهليز»: ما بينَ الباب والدّار ، مدخل الدّار. «المضجع»: مكانُ النّوم.
(٤) وَضَعتْ ولّادة كلمة الإصطبل مكانَ الدّهليز ، ولا يخفىٰ على القارىء ما في هذا =

* إنَّ الغَزَل عندَ وَلّادةِ ابنِ زيدون من نوع مُدهش ، يرتقي بالنّفوس إلى ذُرا المشَاعر ، ويجعلُ القُلوب تتهامس في دفءٍ وفي وُدٍّ ، ترىٰ أيّ محلٍّ بلغَتْ ولّادة في هذا المجال؟!

* إنّ مما يُنْسبُ إلىٰ ولادةَ هذين البيتَيْن الجميليْن اللذَيْن يُشيران إلى عبقريتها ، وإلىٰ رقّتها وأنوثتها ودفءِ كلماتِها حيثُ تقول:

لِحاظُكُمْ تَجرحُنَا في الحَشَا ... ولَحْظُنَا يجرحُكم في الخُدُود
جُرحٌ بِجُرحٍ فَاحْمِلوا ذَا بِذَا ... فما الذي أَوْجَبَ جُرحَ الصُّدود[1]

* ولكنَّ هناك بعضَ القَرائنِ التي تجعلُنا لا نَقْبل هذا الشِّعر «لولادةَ المزعومةِ» ولا «ولادة غير المَزْعُومة» لأَنَّ البيتَيْن السَّابقَيْن هما علىٰ ما يبدو لأَحَدِ الشُّعراء المجهوليْنَ في الأَنْدلس ، حيثُ يتقدَّمُ بالسُّؤَالِ مباشرةً إلى محبوبهِ فيقول:

أَلْحَاظُكُمْ تَجْرحُنَا في الحَشا ... ولحظُنَا يَجْرحُكم في الخُدود
جرحٌ بجرحٍ فاجْعَلُوا ذَا بِذَا ... فَمَا الذي أَوْجَبَ جُرحَ الصُّدود؟

وتتولى الرَّدَّ عليه ولّادة بظرف وخفّة ظلّ فتقول:

أَوْجَبَهُ مِنّي يا سَيّدي ... جَرحٌ بِخَدٍّ لَيْس فيهِ الجحُود
وأَنْتَ فيما قُلْتَهُ مُدَّعٍ ... فَأَيْنَ مَا قُلْتَ وَأَينَ الشُّهود؟[2]

= منْ مفارقةٍ ودُعابةٍ إذ المعنى: إنَّ غايةَ ما تستطيع بلوغَه هو الإصطبْل ، في الوقتِ الذي يكونَ سواكَ نائماً في غرفةِ النّوم علىٰ الأسرّة منعماً.

(١) انظر: سرح العيون (ص٢٣) ، وانظر: معجم الأديبات الشواعر (ص ٤٨٨).

(٢) يبدو أنَّ هذا الحوارَ حول الحبّ قد نَما وازْدَهر ، فقد أوردَ المقريُّ في «النّفح» أنَّ أحدَ الأدباءِ قد كتَبَ إلىٰ القاضي منذرِ بنِ سعيد البلوطيّ في هذا القضيّة بهذْين البيتَيْن:

مَسْألةٌ جَئْتُكَ مُسْتَفتياً ... عنْها وأنتَ العالِمُ المُستَشَار
علامَ تحمرُّ وجوهُ الظّبا ... وأوجهُ العشّاق فيها اصْفِرار؟

فأجاب منذر بقوله: =

* ومما يُنْسبُ إلىٰ ولاّدة من شِعْر قولُها:

إنّـي وَإنْ نَظَـر الأنَـامُ لبَهْجَتـي ... كَظِبـاءَ مكّـةَ صَيـدهُـنَّ حَـرامُ
يُحْسَبْنَ منْ لينِ الكَلام فوَاحِشاً ... ويَصـدهُـنّ عـن الخنَـا الإسْـلام[1]

ولاّدَةُ وَفَـنُّ الـهِجَـاءِ:

* لم تكنْ ولاّدةُ شاعرةً تحسنُ الغَزَلَ فَحسب، وإنّما كانتْ تجيدُ فنَّ الهِجاء، وربّما فاقَتْ بهجائِها مشاهيرَ الهجّائين منَ الرِّجال، ولكنَّ الهجاءَ لم يكنْ صفةً ثابتةً منْ صفاتِها كنزهون القُلاعيّة[2] التي اشْتُهِرتْ بفنِّ الهجاء.

* ولكنّ ولاّدة ـ هذه ـ لها قفزاتٌ عجيبةٌ في الهِجَاء، وذلك حسبَ الأشْعار التي وصلتْ إلينا منسوبةً إليها عن طريق المصَادر الأدبيّة، فقد هَجَتْ عدَداً منْ أعيانِ عَصْرِها وفي مقدمتهم ابنَ زيدون عندما تعكَّرتِ الأجواءُ بينهما، خصوصاً عندما نافَسه الوزيرُ ابن عبدوس في حبِّها، هنالك شهَّر ابنُ زيدون بها، وتعرَّضَ لها، وتحدّى الوزيرَ أبا عامر بنَ عبدوس وسخرَ منه، فقد كانَ ابنُ عبدوس يلقّب بالفَارِ، فقال ابنُ زيدون معرضاً به وبولاّدته:

أكْـرِمْ بـولاّدَةَ عِلْقـاً لمعْتَلِـقٍ ... لـو فـرَّقَـتْ بيـنَ بيطـارٍ وعَكّـارِ[3]
قَالُوا أبو عَامرٍ أَضْحى يلمُّ بِها ... قُلتُ الفَرَاشَةُ قد تدنَو منَ النَّارِ

= احمـرَّ وجْـهُ الظّبـي إذْ لحظُـه ... سيـفٌ علـىٰ العشّـاق فيـه احْـورارْ
واصفـرّ وجْـهُ الصّـبّ لمـا نـأىٰ ... والشّمـسُ تبقـي للمغيـبِ اصْفِـرار

(١) منَ الجدير بالذكْر أنّ هذَيْن البيتَيْن مستوحيان من قولِ الأوّل:
بيـضٌ غـرائـرُ مَـا هممْـنَ بـريبـةٍ ... كظبـاءِ مكـةَ صيـدهـنّ حـرامُ
يُحْسَبْـنَ مـن ليـنِ الكـلامِ زَوانيـاً ... ويصـدهـنّ عـن الخِنـا الإسـلامُ
(٢) اقرأ سيرتها في هذا الكتاب.
(٣) «العِلق»: النفيس من كل شيء. (لسان العرب ـ مادة علق).

عَيرتُمُونَا بأَنْ قَدْ صار يخلُفُنا فيمَنْ نُحِبُّ وَمَا في ذَاكَ منْ عَارِ
أَكْـلٌ شَهـيٌّ أصبْنَـا مـنْ أطـايِبِـه بَعْضاً وبَعْضاً صَفَحْنا عنْه للفَار[(١)]

* وأثمرَ ميدانُ التَّحدي، وتعددتْ أَلْوانُ الخِصَام، وإذا بابن زيدون ينالُ منْ ولاّدته ومن ابنِ عبدوس بهذه القَصيدة الضَّادية التي يقولُ في مَطلعِها:

أَثَـرتَ هِـزَبْـرَ الشَّـرىٰ إذْ ربَـضْ وَنَبَّهْتَــه إذْ هَــدا فَــاغْتَمَــضْ
وَمـا زِلْـتَ تَبسـطُ مُسْتـرسـلاً إليـهِ يـدَ البغْـي لمّـا انقبـضْ
حـذَارِ حـذَارِ فَـإنَّ الكـريـمَ إذا سِيـم خَسْفـاً أبـىٰ فـامتعَـضْ

* ثم يخاطبُ الوزيرَ ابنَ عبدوس فيذكّرُهُ بالوفاءِ والودادِ والصَّداقة، وأنَّه كانَ ينهلُ منْ أَدبه، فإذا بابنِ عبدوسٍ يغدر به:

أَبـا عَـامِـرٍ أَيـنَ ذَاكَ الـوفَـاء إذِ الـدَّهْـرُ وسْنَـانُ والعيشُ غَضّ
وأيـنَ الـذي كنْـتَ تَعتَـدُّ مـنْ مُصَـادقتـي الـواجـبَ المُفْتَـرضْ
أتنشَــق مــنْ أدبــي نَفْحَــةً حَسِبْتَ بهـا المسْـكَ طيباً يُفَضّ
عَمَـدتَ لِشِعْـري وَلـم تَتَّئِـبْ تعـارضُ جَـوهَـرَهُ بِـالعَـرض[(٢)]
أَضَاقَتْ أساليبُ هذا القريض أمْ قَـدْ عفَـا رسْمُـه فـانْقَـرضْ
وشَمّـرتَ للخـوضِ فـي لجّـةٍ هـي البحـرُ سـاحِلُهـا لـم يُخَـض

ثم يأتي دور التعريض بولادته فيقول:

وَغـــرّكَ مـــن عَهْـــدِ ولاّدة سَـرابٌ تـراءىٰ وبـرقٌ ومَـضْ
تظـنُّ الـوفَـاءَ بهـا والظّنـونَ وفيهـا تقـولُ علـىٰ مَـنْ فَـرضْ
هِـيَ المـاءُ يـأبـىٰ عَلـىٰ قَـابِـضٍ ويمنَـعُ زُبْـدتَـه مَـنْ مَخَـضْ
ونُـبّئْـتُهـا بعـديَ استحمـدَتْ بِسـرّي إليـكَ لمعنـى غَمَـضْ

---

(١) ديوانه (ص ١٣٦)، وانظر: تمام المتون (ص ١٢). وقد أطلقَ الدكتور أحمد الحُوفي علىٰ هذا النّوع من الغزل اسم: غَزَل المكايدة، أو الغزل الكيدي.
(٢) «لم تتئب»: لم تستح.

أبــا عــامــرٍ عشْــرةً فــاسْتَقِــلْ لتبــرمَ مــنْ وُدِّنــا مــا انْتَقَــضْ
وحَسْبــي أنّــي أطبْــتُ الجنَــىٰ لإبّــانِــهِ وأبْحــتُ النَّفَــضْ
ويهنيــكَ أنَّــك يــا سيِّــدي غــدوتَ مقــارنَ ذاك الــرَّبَـضْ[1]

* ولكنَّ الوزيرَ ابنَ عبدوس لم يصْغِ إلى تعريضِ ابنِ زيدون وإلىٰ وعيدهِ في شعْرِه، وكذلك ولاّدة لمْ تَرِقَّ هي الأخرىٰ لآلامِ حبِّه وآمالِ قَلْبِه.

* وعندها لم يتوقَّفِ ابنُ زيدونَ عن التّهكُّم بابنِ عبدوس في النَّظم، وإنّما سَخِرَ منه في رسالةٍ هزليّة، أشهرُ منْ نجمِ الثّريا عند الأُدباء، وكانَ الباعِثُ علىٰ إنشاءِ تلكم الرسالة، أنَّ ابنَ عبدوس لما سَمِعَ بولّادة[2] هذه، أرسلَ إليها امرأةً من جهتهِ تستميلُها إليهِ، وتذكُر لها محاسِنَه ومناقِبَه وثراءَه، وترغّبُها في التّفرُّدِ بمواصلتَهِ؛ فبلغَ ابنَ زيدون ذلك، فانْشَأَ يقولُ هذه الرّسالةَ البديعةَ جواباً له عنْ لسانِها، تتضمَّنُ غرائبَ من سبِّ أبي عامِر، والتّهكُّمِ به، والهجاء له، والعَبَثِ به، وجعلَها جواباً له علىٰ لسانِ ولادته، وأرسلَها إليهِ عقَيْبَ رجوع المرأةِ، فبلغَتْ منه كلَّ مَبْلَغ، واشتُهِر ذكْرُهَا في الآفاقِ، وأمْسَك ابنُ عبدوس عنِ التّعرض لها، إلىٰ أنِ انتقلَ ابن زيدون إلى إشبيليةَ، وماتَ بها[3].

* وبدأَ ابنُ زيدون رسالتَه بقوله: أمّا بَعْدُ: أيُّها المُصَابُ بعقلِهِ،

---

(١) انظر: ديوان ابن زيدون (ص ١٤٧ ـ ١٥١)؛ والقصيدة طويلة تعد (٤٠ بيتاً)، ومعنىٰ البيتَيْن الأخيريْن: يكفي يا بنَ عبدوس أنّي قد جعلتُ الثّمارَ قابلةً للقطْف، وأفسحتُ المجال أمامَ تساقطها، وليهنك يا سيّدي الوزير أنّك قد أصحبتَ مساوياً للمكانِ الذي تأوي إليهِ الماشية وهو الرّبضِ.

(٢) مما يزيدنا تأكيداً على أنّ ولادةَ هذه ليست ابنة المستكفي وأنّها امرأةٌ عاديةٌ إرسال ابنُ عبدوس امرأةً تستميلها، وأنّه سمعَ بها، لأنّهم زعموا أنَّ ابنة المستكفي كان لها صالون معروف.

(٣) انظر: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة (ص ٢٤).

المورّطُ بجهلهِ ، البَيِّنُ سَقَطه ، الفَاحِشُ غَلَطه ، العاثرُ في ذيلِ اغتراره ، الأعمىٰ عنْ شَمْسِ نهارِه ، السَّاقِط سقوطَ الذُّبابِ على الشَّراب ، المتهافتُ تهافتَ الفَراشِ في الشِّهاب، فإنَّ العُجْبَ أكذبُ، ومعرفةُ المرءِ نَفْسَه أصْوَب، وإنَّك راسلْتَنِي مستهدياً منْ صِلَتِي ما صَفِرَتْ منه أيدي أمثالِك ، متصدّياً منْ خُلّتي لما قُرِعَتْ دونه أنوفُ أشكالِك ، مُرسلاً خليلتَك مرتادةً ، مستعمِلاً عشيقتَك قوّادة ، كاذباً نَفْسك أنَّك ستنزلُ عنها إليَّ ، وتخلُفُ بعدهَا عَليَّ[1] . . . .

* وفي هذهِ الرّسالةِ يسخرُ ابن زيدون أشدَّ السُّخرية من ابنِ عبدوس ، ويسدِّدُ إليهِ ألواناً منَ المهانَةِ والإهانةِ ، وشفىٰ غليلَه وأبرأَ سُقْمَه منْ هذا المزاحمِ الثَّقيل ، لكنَّ هذه الرسالةَ وذاك الشِّعْر لم يحقِّقَا الغرضَ لابنِ زيدون ، فلم يَنَلِ الشِّعُر ولا النَّثْرُ الذي قالَه في ابنِ عبدوس ، ولم تَعُدْ إليهِ ولاّدةُ المحبوبةُ ، وإنّما كانتِ الرِّسالةُ سبباً في توسيعِ شقّة الخِلافِ بينَه وبينَها ، لأنَّه أهانَها بشِعْرِه ، وعرَّض بها وسخرَ بابنِ عبدوس عندما قال:

أَكْـلٌ شَهـيٌّ أَصَبْنَـا مـنْ أطـايِبِـه   بَعْضـاً وبعضـاً صَفَحْنـا عنْـه للفَـار

* وتروي الأخبارُ بأنَّ ولاّدةَ هذه قد ردَّتْ عليه بشواظٍ من نارِ الهجاءِ ، بل كانَ ردُّها عنيفاً كالرّيح الصَّرصَرِ العاتيةِ ، إذْ سخّرتْ كُلَّ الألفاظِ والمعاني المناسبة وسَخِرتْ من ابنِ زيدون ، وراحتْ تكيلُ له الصَّاع صاعَيْن ، بل استخدمَتْ كلمات تخدشُ الحياء ، إذ اتّهمتْه بأخلاقه وعفافِه مع فَتَاه عليّ؛ فقالت فيه ، وهي غَضْبىٰ حانقةٌ عليه:

---

(١) انظر: سرح العيون (ص ٢٣) وما بعدها. وهي رسالةٌ ظريفةٌ شرحَها ابنُ نباتة ، وهي الرّسالةُ الهزلية. ولابن زيدون رسالة أخرى تسمّى: الرسالةُ الجدّية وقد شرحها صلاحُ الدين الصَّفدي وسمّاها تمامُ المتون. والرّسالتان مطبوعتان بتحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم.

إنَّ ابـنَ زيـدونَ علـىٰ فَضْلِـهِ يَغْتَـابُنـي ظُلْمـاً ولا ذَنْـبَ لـي
يَلْحظُنِـي شـزْراً إذا جئْتُـه كـأنَّمـا جئْتُ لأُخْصِـي علـي[(١)]

* ولا يخفىٰ علىٰ القارىءِ مدىٰ السُّخريةِ والتَّعريضِ في قولها: «كأنَّما جئْتُ لأُخْصي عليّ».

* وفي هجائِها لابنِ زيدون كانَتْ تتفنَّنُ في إظْهارِ عيوبهِ الخَلْقيّةِ والخُلُقيّةِ، وترسُمه رسماً سَاخِراً (كاركاتيرياً)، فكانت تلقبه بالمُسدس، ولم تتورعْ عنْ وصْفِهِ بستِّ صفاتٍ منْ أشْنَعِ ما قِيْلَ في الهجاء، بل التّشفّي، فمما قالتْ فيه، وجارتْ عليه:

وَلُقِّبْـتَ المُسَـدَّسَ وهـو نَعْـتٌ تُفَـارِقُـك الحيـاةُ ولا يُفَـارِق
فلُـوطـيٌّ ومـأْبـونٌ وزَانٍ وديـوثٌ وقـرنَـانٌ وسَـارق[(١)]

* بل وصفَتْه بما هو أبْشَعُ منْ ذلك وأشْنَع فقالت:

إنَّ ابـنَ زيـدونَ عَلـىٰ فَضْلـه يَعْشَـقُ قُضْبـان السَّـراويـل[(٢)]

* وتقسو المحبوبةُ ولادةُ علىٰ أبي الوليد بنِ زيدون، وتصفهُ أحياناً بأنَّه لا يفرِّقَ بينَ الغثّ والسَّمين، فقد كانَ لها جاريةٌ سوداءُ بديعة الغناءِ، فظهرَ لها من ابنِ زيدون أنَّه قد مالَ إلى الجاريةِ، وسلا عنها، فحلَّ الخِصامُ والعتابُ، وكتَبَتْ إليه تنعى عليه عشْقَ جاريتها فتقول:

لَو كنْتَ تنْصِفُ في الهَوىٰ ما بَيْنَنا لـمَ تَهْـوَ جَـارِيتـي ولَـمْ تَتَخيّـر
وتـركْـتَ غُصْنـاً مُثمـراً بِجمَـالِـهِ وجنَحْتَ للغُصْنِ الذي لم يثْمِر

---

(١) نفح الطيب (٥/٣٣٨)، ونعتقدُ أنَّ مثل هذا الهجاء لا يصدرُ عن أنثى، لأنَّ مَنْ يعيّر آخرَ يعيّره بما يهمّه، فنجدُ أن ولادةَ تعيِّر ابنَ زيدون في البيتَيْن الأولين باللواط وخصاءِ غلامهِ علي، وهذا من تعيير الرّجال بعضهم بعضاً، لذا فإننّا نعتقدُ أنَّ هذه الأبيات وأمثالَها قد قالَها أحدُ أعداءِ ابن زيدون أو حسّاده، ومن ثمّ نُسِبَتْ إلىٰ ولادة هذه على أنَّ صفة الذكُورة ظاهرة عليها وأنّ قائلَها رجلٌ.

(٢) المصدر السّابق نفسه، وانظر البيت الذي يليه إذ تعففنا عن روايته لفحشه.

ولَقـد علمـتَ بـأنَّـني بَـدْرُ السَّمـا   لكنْ ولعْتَ لشقْوتي بالمُشْتري[١]

* وهكذا نلمحُ همساتِ الحبّ تنقلبُ في لحظةٍ إلىٰ لفحاتِ السَّعير ، ونلمحُ أغاريدَ الأَغْزالِ والإعجابِ تنقلبُ إلى أعاصيرِ الهجاءِ المُرّ والعتابِ والسَّبِّ والشَّتْم والقذفِ وما شابَه ذلك ـ كما قرأْنا ـ.

* إنَّ ولادةَ ابن زيدون هذهِ تثأَرُ لغيرتها ، فهيَ الحسناءُ الطَّروبُ ، وهي الغادةُ المليحةُ ، لذا عليها أنْ تترجمَ عواطفَها بين السُّطور ، لتنفُثَ ما علِقَ في ثنايا الصُّدور.

* ترىٰ هل كانتْ ولادةُ هذه متخصِّصة في هجاءِ ابن زيدون وحده؟

* تشيرُ المصادرُ الأدبيّةُ بأنَّ ولادةَ هذه ، كانت تَسْخَرُ من ابنِ عبدوس أيضاً ، حيثُ إنَّ الوزيرَ أبا عامر بنَ عبدوس قد هامَ بها ، وشُغِفَ بها حبّاً ، وكُلِفَ بعشرتها ، وطلبَ وصالَها ، فكانتْ ولّادة كثيرةَ العَبَثِ به ، ولَها معه نوادرُ طريفةٌ وأخبارٌ ظريفةٌ خفيفة.

* قال ابنُ بسّام الشَّنتريني في «ذَخيرته» عنها: وأمّا ذكاءُ خاطرِها ، وحرارةُ نوادرِها ، فآيةٌ مِنْ آياتِ فاطِرها[٢].

* ولما حصلتِ القطيعةُ بينَ ولّادة وابن زيدون ، وكانت هي البادئةُ ، وسَمَحتْ لعاشقٍ جديد ـ ليس بالشّاعر المرهفِ هذه المرّة ، أن يتقرّبَّ منها ـ هو الوزيرُ الخطيرُ أبو عامر بن عبدوس.

* ترىٰ هلْ كانَ ابنُ عبدوس ينتظرُ هذه الجفوةَ بين هذَيْن العاشقَيْن ، ليتقرّبَ بدورِه منْ هذه الغادةِ المليحةِ الحسناءِ التي أخذتْ أصداءُ حلاوتها ، ورناتُ أشعارِها تتجاذبُها أنديةُ قرطبةَ الأدبيةِ العَابثةِ. ؟!

* هذا ما يفسّرُ لنا المَقّري في حديثهِ عن ذلك حيثُ أوردَ في «نفحه» قال: م

---

(١) الذخيرة (١/ ٤٣١ و٤٣٢) ومعجم الأديبات الشواعر (ص ٤٨٨).
(٢) الذخيرة (١/ ٣٤٢) طبعة مصر.

رّتْ ولادةُ بالوزيرِ أبي عامر بن عبدوس ، وأمام دارِه بِركَةٌ تتولّدُ عنْ كثرةِ الأمْطارِ ، وربّما استمدَّتْ بشيءٍ مما هنالك منَ الأقْذار ، وقد نشرَ أبو عامر كُميْهِ، ونظرَ في عطفَيْه، وحشَر أعوانهَ إليه ، فقالت له: أبا عامر:

أَنْتَ الخَصيْبُ وهذه مِصْرُ فَتَدَفَّقَا فَكِلاكُما بَحْرُ[1]

فتركَتْه لا يحيرُ حَرفاً ، ولا يردُّ طَرفاً[2].

* وانتشرتْ هذه النَّادِرَة بينَ الأندلسيّين ، واشتَغَل بها النَّاسُ في قرطبةَ حيناً منَ الدَّهر، وظلتْ علامةً بارزةً تشيرُ إلى بديع بديهةِ ولّادة، وإلى تفنّنها، ومعرفتها شعراءَ المشرقِ، وحِفْظِها أخبارهم وأشعارهم ، ودقائق معارفهم.

* ويظهرُ أنَّ هذه النَّادرة كانتِ الضَّربةَ الصَّاعِقة التي أصابَتْ قلْبَ

---

(١) هذا البيتُ لأبي نُواس ، تمثّلتْ به ولّادة ، ونقلتْه هذا النَّقل الحَسنَ منَ المَدْحِ إلىٰ الهجاء ، وهو من قصيدةٍ يمدحُ بها الخصيبُ عامل مصْر ، وهذه القصيدةُ منْ أجملِ قصائدِ أبي نواس ، حيث خَتَمها بأحسنِ خاتمةٍ ، لأنَّ حُسْنَ الخاتمةِ للقصيدة آخرُ ما يبقىٰ في الأسماع ، ولأنّها ربّما حُفِظَتْ من دونِ سائرِ الكلام في غَالبِ الأحوال ، فيجبُ علىٰ الشّاعر أنْ يجتهدَ في رشاقتِها ونضجِها وحلاوتِها وجزالتِها ، ويأتي بكلّ نكتةٍ ترقصُ لها القُلوب ، وتغني عن النّسيب في المحبوبِ ، ولقد أحسنَ أبو نواس في خاتمةِ مَدْحِهِ الخصيَب إذْ قال:

أَنْتَ الخصيبُ وهذِهِ مصْرُ فتدفّقَا فكلاكما بَحْرُ
لا تعْقِدا بي في مدى أَمَلي شَيئاً فما لكما بهِ عذْرُ
ويحقّ لي إذْ صِرْتُ بينكما ألّا يحلَّ بساحتي فقْرُ

وحسنُ الخاتمةِ بابٌ طويلٌ جميلٌ عُنِيَ به البلاغيون ، وأشَادُوا بأَهْلِه ، واعترفُوا لهم بالتّقدمُ والسَبْق. وللمزيدِ من ذلكَ راجعْ كتاب «تحرير التّحبير» لابنِ أبي الأصبع (ص ٦١٦ ـ ٦٢٣).

ومن خلال هذا البيت يظهرُ للقارىء مدىٰ ثقافة ولّادة هذه ، وحسْن استخدامها شعر أبي نواس لتخدمَ غرضها وهو السّخرية.

(٢) نفح الطيب (٥/ ٣٤٠) نقلاً عن الذخيرة (١/ ٣٤٢).

الوزير ابن عبدوس ، فجعلتْه يتبعُها بعد أنْ صادتْهُ بحبائِلها ، ثمّ بادلته بالعشقِ عِشْقاً وبالغرامِ غَراماً.

* وكان لولادةَ مداعباتٌ أخرىٰ مع أدباءِ عَصْرِها ومصْرِها ، ومنهم الأصبحيّ ، فقد مزَّقَتْ عرضه وعرضَ ابنه كلَّ ممزق ، وسخرتْ منه ، وعرَضَتْ به فقالت:

يا أَصْبَحيُّ اهنأ فكَمْ منْ نعمةٍ جَاءَتْكَ مْن ذي العَرشِ ربِّ المِنَن
قد نِلْتَ باسْتِ ابنَك ما لَم يَنَلْ بفرجِ بُورانَ أبوها الحَسَن[1]

* ويبدو منْ أخبارِ ولّادة هذه ، أنّها قد هَجَتْ بنات جنْسها ومنهنَّ مهجة بنت التّياني القرطبيّة[2] إذ تبادلت معها الهجاء ، وأقذعت كلّ واحدة منهما في حقّ الأُخرىٰ.

---

(١) نفح الطيب (٥/٣٣٨) ، ومعجم الأديبات الشّواعر (ص ٤٨٨) ، وبورانَ هذه هي: بورانُ بنتُ الحسَن بنِ سهل تزوّجها المأمونُ بنُ الرشيد ، وكانَ لأبيها الحسنِ مكانةٌ مهمةٌ في الدّولةِ العباسيّةِ. وللمزيد منْ أخبارِها اقرأ سيرتَها في كتابنا «نسَاء في قُصور الأمراء».

(٢) مهجةُ بنتُ التّياني القرطبيّة ، كانَ أبوها يبيعُ التّيْن ، وهي صاحبةُ ولّادة ، وكانتْ تدخلُ عليها ، وكانتْ منْ أجملِ نساء زمانِها ، وأخفهنّ روحاً ، فعلقَتْ بها ولّادة ، ولزمت تأديبها ، إلىٰ أنْ صارت شاعرةً ، وهجتْ ولّادة ، وزعمتْ أنّها ولدتْ وليس لها بعلٌ ، فقالت ما نقصَ عنه ابنُ الرّومي:

ولادةُ قد صرتِ ولادةً منْ دونِ بَعْل فُضح الكاتمُ
حكتْ لنا مريم لكنّه نخلةُ هذي ذكَرٌ قائِمُ

قال بعضُ الأكابر: لو سمعَ ابنُ الرّومي هذا لأقرَّ لها بالتّقدّم.

ومما تقدّمت به فحولَ الذكْرانِ قولُها:

لئن حلأّتْ عنْ ثغرِها كلّ حَائم فما زالَ يحمي عَنْ مطالبه الثّغْرُ
فذلك تحميهِ القواضبُ والقَنا وهذا حِماه منْ لواحظها السّحْرُ

«حلأت»: معناها: طردت ومنعت.

ولها شعرٌ في الهجاء المقذع أورده صاحب النفح. (نفح الطيب ٦/٢٢ و٧٣) و(المغرب ١/١٤٣) بتصرف.

وقْـفَـاتٌ مَـعَ وَلاَّدَةَ قَـبْـلَ الـوَدَاعِ:

* قبلَ أنْ نُوْدِعَ ما قُلْنَاه عَن «ولادةَ ابنِ زيدون» في ذاكرةِ الأيّام ، وقبلْ أنْ نودِّعَ سيرتَها المتموِّجةَ بين الحقيقةِ والأُسطورةِ ، أحبَبْنا أنْ نقفَ عدّةَ وقفْاتٍ نقديةٍ مع بعضِ الآراءِ التي أُثيرتْ حولَها وفيها وبَعْدَها ، وأنْ نضعَ ذلك في الميزانِ ، لتكونَ دراستُنَا عنْها قد آتتْ حصَادَها ، ولكي نعطيَها حقَّها في أَوَانِ الحَصَاد.

* ففي البدايةِ زعموا أنَّ ولاّدةَ بنتَ المُستكفي هي ابنةُ الخليفةِ المخْلوعِ سنة (٤١٦هـ)، وكانَتْ ما تَزالُ في ميعةِ الصِّبا، وغُصْنِ الشَّباب الرَّطيْبِ، قد تفتَّحَ زهْرُ أدبِها عن ثَمرِ لُبِّها، فغدتْ أنداؤُه العَطِرةُ تهزُّ النَّسائمَ المنتشرةَ في الأرضِ الأندلسيّة ، وتوشّي أردانَ الآدابِ بحُلَى الكَلمات السُّندسيّة.

* وقد أبرزتْ منها الأخبارُ المتنوّعةُ الملوّنةُ المضطربةُ عاشقةً لَعُوباً ، تيّاهةً مدلّلةً ، ذات أنوثةٍ جذَّابةٍ ، وجمالٍ وظرفٍ ، ولها أدبٌ معجبٌ وجرأةٌ وتحرّر. وها نحنُ أولاء نقفُ وقفات نستجلي فيها الحقيقةَ إن بانَتِ الحقيقةُ.

الـوقْـفَـةُ الأُولىٰ:

* للقُدماءِ منَ الأَخْباريّين ، وللمعَاصرينَ ممن يتعاطونَ حِرفَةَ الأَدب ، في ولاّدة آراءٌ متضاربةٌ متناقِضَةٌ ، فمنهم مَنْ طَعَنَ في سيرتها وسلوكها وأحدوثتها ، ومنهم مَنْ دافَعَ عنْها فيما نُسِبَ إليها منْ أَقْوالٍ وتصرُّفَات ، ومنهم مَنْ توقَّفَ عنِ القولِ فيها[١] ، ومَن المعاصرينَ من أنْكَر وجودَها نهائيّاً ، ومنهم مَنْ كان يرىٰ بأنَّها فتاةٌ عابثةٌ ترضي غرورَها بالاستكثارِ منَ المعجبين والعشّاق[٢].

---

(١) انظر ذلك في نفح الطيب (٥/ ٣٣٧ ـ ٣٤٣) طبعة دار الفكر.

(٢) انظر: أدباء العرب في الأندلس وعصر الانبعاث (٣/ ١٢٤ و١٢٥) لبطرس =

* ومنَ النَّاسِ مَنْ يَرىٰ أنَّها كانتْ تهوىٰ المنتدياتِ الأدبيّةِ ، ولذلك غشيَ منزلَها الأدباءُ والشُّعراءُ ، واتَّخذوه منتدىً لهم يديرونَ بين جنَباتِهِ أحاديث شتّى في الفُروع العِلميّة والأدبيّةِ حتى قَاسُوا عليها بعضَ النِّسوةِ الفرنسيّات[1] .

الـوقْفَـةُ الـثَّـانِـيَـةُ :

مَن الدَّارسين مَنْ يزعُم أنَّ ولاَّدةَ كانتْ إباحيّةً ، وبنَىٰ زعْمَهُ علىٰ ضوء

= البستاني طبعة دار الجيل. وقَدْ قالَ بطْرس البُستاني عنها حرفيّاً ـ ولا يخفىٰ ما في قولهِ منِ اضطرابٍ وتأثّر بالنّظريات الغربيّة ـ :
وكانتْ ولاّدَةُ أديبةً مثقفةً ، تميلُ إلى الأدباءِ وتعاشِرُهم ، وماجنةً لعوباً تَعْبَثُ بالقلوبِ وتحطمُها ، تمنحُ مودَّتَها لمن تَشاء ، وتستردُّها متى تشاءُ ، فلم تكنْ في ودّها كاذبة ، ولا في رجوعها عنه غادرة ؛ وإنّما هو طبعُها الهازىء ، تستلذُّ خَفَقات القُلوب ، فتَتَبّدلُ واحداً بَعْدَ آخر ، تنتقلُ كالفراشةِ من زهرةٍ إلى زهرةٍ ، وكان ابنُ زيدون يعلمُ تقلّب أهوائِها ، ولا يجهلُ أنَّ أدباءَ قرطبةَ يتنافسون في معاشرتها واسترضائِها ، ولا سيما الوزيرُ ابن عبدوس الذي لا ينقطعُ عن ملاحقتِها لينفردَ بها ، فنراهُ يخصُّ جانباً من غَزَلِهِ بذكْر الحُسَّاد الذين يحاولون أنْ يفتنوها عَنْه ، ويرجو منها أنْ تدومَ علىٰ العَهْد ، وتذكرَ صافي مودّته ، ويشرحَ لها سُوءَ حالِهِ بعدها ، وشدّة شَوقه إليها ، ويأبى أن تضعفَ ثقتَه بها ، فيتصوّر الغَدْر والخيانةَ فيها. (أدباء العرب ٣/ ١٢٤ و١٢٥) نقول: ولا يخفىٰ على القارىء الذّكي مرمىٰ وهدفَ بطرس البستاني هذا من خلالِ حديثه عن ولادة. وفي فقرةٍ سبقَتْ فقرته هذه من كتابهِ أدباء العرب كلامٌ مناقِضٌ تماماً لما أوردَه هنا ، فليُراجع.

(١) زعمَ أحدُ الكتّاب في العَصْر الحديثِ أن ما قامَتْ به ولاّدة بنتُ المستكفي في أدبنا الأندلسيّ القديم ، قامَ به في الأدبِ الفرنسي في القرنِ الثّامن عَشر الميلادي «مدام دي ديفاند» التي كانْت تميلُ إلىٰ العبثِ واللهو ، وقد أحبَّها وأُعْجبَ بها روادُ الفكر ونبغاءُ العَصْر حينذاك من مثل: «فُولتير» الأديب السّاخر ، و«منتسكيو». كما برزت امرأةٌ أخرىٰ وهي «مدام وازيل دي لسبيناس». وفي أدبنا الحديث برزتِ الأديبةُ «ماري زيادة» المشهورة باسم «مي زيادة» لتفتحَ ما أغلقته ولاّدة الأندلسيّة المزعومة.

ما تطوَّرتْ إليه العلومُ الجنسيّة[1] في العَصْر الحديث ، ومنَ المُستشرقينَ والمُستعْرِبين منْ يتّهم ولاّدة بالسَّاديةِ[2] ، ويترتَّبُ علىٰ هذا أنَّ ابنَ زيدون

---

(١) في ضوءِ دراسةِ العلومِ الجنسيّة توصَّل أحدُ دارسي شعْرِ وحياةِ ولاّدة إلى نتائجَ منها: يلوحُ منْ حياةِ العنَاسِ التي عاشتْها ولاّدة أنّها كانتْ مصابةٌ بالجنسيةِ المِثْليّة ـ وهي مَيلُ المرأةِ إلى جنْسِها والرجلِ إلى جنْسه ـ وليسَ يوضحُ هذا الأمْر غير ما قاله عنها ابن سُعيد عندما يقرر تعلّقها «بمهجة القرطبية» في قوله: «فَعَلقتْ بها مُهجة ولزمتْ تأديبها». (المغرب ١/ ١٤٣).
ونحنُ نقولُ لهذا الدّارس: إن كلمة علقتْ ليس معناها كما ظنَّ وخال وحَسَب ، وإنما معناها هنا: لَزِمَتْ. ويتابع هذا الدارس فيقول: وإنَّ «غرسيا غوس» قالَ في ولادة: ولكنّها كانتِ امرأة رَجِلَة. (الشعر الأندلسي لغرسيا غوس ص ٤٩) ترجمة د. حسين مؤنس طبعة مصر ١٩٥٢ م.
وهذا النوعُ من الحبِّ والتعلّق له في التّاريخ شهرةٌ ، ويحكىٰ أنَّ شاعِرةً إغريقيّةً تسمّى «سافو» وقعتْ في غرام إحدىٰ تلميذاتها ، غيرَ أنَّ التّلميذةَ لم تستجبْ لنداءِ هذا الحبّ ، كما أنّها تعلقتْ بصديقةٍ لها تسمَّى «فاون» ولكنَّ الشاعرةَ أخيراً عصفَ بها اليأسُ القاتلُ ، فألقتْ نفسَها في اليم!.
إنّ أولئكَ النّسوة اللاتي عُرِفْنَ بهذا الشّذوذ أَطْلَق عليهنَّ الأغارقةُ «تريباديس» Tribades ، المشتقّ منْ كلمة Tribein ، ومعناها: يحكّ جسْمَه بجسمِ شخصٍ آخر.
انظر كتاب: (تاريخ العلاقات الجنسية ٢/ ٤٩) لمؤلفه ريشارد لونيسون ، ترجمة أمين سلامة.

(٢) انظر مقدمة ديوان ابن زيدون (ص ٣٨) تحقيق علي عبد العظيم ، طبعة مصر ١٩٥٧ م.
و«السَّادية»: مرضٌ نفسي ، وهو حبُّ الإنسانِ تعذيب الجنْس الآخر وتحميله الألم ، وأصلُ هذا الدّاء أنَّ المرأةَ عندما تحسّ بنقصِ بعضِ أعضائِها التي يمتّعُ بها الطّفلُ تشعرُ بغيرةٍ وحَسَدٍ يسمّى «حَسَدَ الذّكورة» وعند ذاك يبدأُ الحقدُ يتأصّل في داخِلها علىٰ الرجالِ ، ويترعرعُ في أعماقِ نفسها إلى أنْ يصبحَ سادية.
وقد دخَلَ هذا الكلام وهذا الهراءُ إلىٰ نَفْس بعض دارسي أدب ولاّدة المزعومةِ فقال: وحسبُك أنْ تعلمَ أنَّ شاعرتنا ولاّدة فَقَدتْ عرشَ آبائِها ، فكانَ طبيعياً أنْ تحقدَ علىٰ الرجالِ ، وخصوصاً الذين مكّنتْ لهم الظّروف تحطيمَ عرشِ بني أميّة!!....!!..!!. =

في عذابِهِ وسجنه كان ضحيةَ نزعِتها السَّادية ، أو عَبثِها الماجنِ أو ما شَابَه ذلك؛ والميدانُ في هذا المجال رحْبٌ يَذرُعُه الدَّارسونَ مُشَرِّقينَ ومغرِّبين.

* إنَّ النَّظرةَ المتأنيةَ الهادئةَ والموضوعيةَ في أمْرِ ولاّدة ابنةِ المستكفي تبيِّنُ وتكشفُ أنَّ ما وردَ عنْها وفيها منَ الاتّهاماتِ أكبرُ منْ الوقائع المذكورةِ وأضخمُ ، وجُلّ ما وردَ لا يأذن بتأييد ، إذ الدّلائل منقطعةٌ وغيرُ ثابتةٍ ، وتشيرُ إلىٰ أنَّها شخصيّةٌ أُسطوريّةٌ مختَلقَةٌ ، ومنْ ثمَّ وُضِعَ حولَها هالةٌ بل هالاتٌ منَ الأخبارِ الصَّاخبةِ ، والضَّجيج المغري المُثير.

* وَلعلَّ كثيراً منَ الاستنتاجِ الذي رَافَقَ حيَاةَ ولاّدةَ المزعومةِ ، بالإضافةِ إلىٰ التَّعميم في إطلاقِ الأَحْكامِ علىٰ هذه المرأةِ المُخترعَةِ قد

= ثمَّ إنَّ بعض الدَّارسين منْ علماءِ الجنْسِ عَلَّلَ مرضَ السَّادية بأثرٍ وراثي نتيجةَ فَسَاد النَّطفة النّاجم عن تعاطي الخمر ، وأنَّه لم ينْجبْ غيرَها ، فليسَ غريباً إذا أفْسَدتِ الخمرةُ الحيويةَ الجنسيّةَ ، وأحدثَتْ ضَرراً في الجنين ، ظهرتْ آثارُه بعدَ ذلكَ في نفسيّتها!!..

والمرضُ السَّادي يتّخذُ صوراً وأشْكالاً ، منها أنَّ المرأةَ تستعملُ جمالَها لإخضاعِ الجنْسِ الرّجولي لتشبعَ لذّاتها ، ومنها حبّ التّلويث ، كتلويثِ الملابسِ والشّخص ذاته ، وأنت إذا استَنْطَقْتَ التَّاريخَ ـ يعني تاريخ ولادة ـ حَدّثَك عمّا فَعَلَتْهِ الأميرةُ الأمويةُ مع ابنِ عبدوس وهو جالسٌ مع ثلّةٍ منْ أصدقائهِ ، وأمامَه بركةٌ من الأقذارِ فقالت له:

أنـــتَ الخصيـــبُ وهـــذه مصْـــرُ فتـــدفّقـــا فكـــلاكمـــا بحـــرُ

وكذلك فَعلَتْ مع ابن زيدون ، وصديقتها «مهجة القرطبية» ، والأصبحيّ الذي مزَّقَتْ عرِضه ، وعرض ابنه كلّ ممزق.

ونحنُ نقولُ بدورنا: إنَّ قصّة هذا البيت:

أنـــتَ الخصيـــبُ وهـــذه مصْـــر فتـــدفّقـــا فكـــلاكُمـــا بَحْـــرُ

هي قصّة سَمِجةٌ ثقيلةُ الدَّم لا يقبلُها الذّوق وتخالِفُها الحقائِقُ ، ثمَّ لا نستطيعُ أنْ نخضعَ حياةَ امرأةٍ كولادة ـ إنْ كانت موجودة فعلاً ـ لدراساتٍ نفسية حَديثةٍ ، ونستخلصَ منها سلوكها بشكلٍ صحيح يغطّي معالمَ حياتها وملامحها ، ولكنْ لا مانع من الائتناسِ والاستئناسِ ببعض الدّراسات المفيدة.

مُزجَ بالشَّائِعات ، ولا يحسنُ إغفال شَأْن الشَّائعات في كلِّ مجتَمع ، وما يصيبُها منَ الاخْتِراع أو التَّضخيم والنَّفْخ ، ولا تفيدُ أخبارها ـ تلكَ ـ سوىٰ أنّها كانتِ امرأةً قويةَ الشَّخصيّةِ ، حسنَـةَ الثَّقافةِ ، جيّدةَ الموهبةِ ، صَنَاعاً في اكتسابِ قُلُوبِ الرِّجالِ الأدباءِ؛ وهذه صِفَةُ الجَواري الأديباتِ لا الأميرات بنَات الملوك.

* ولعلَّ سلوكَ هذه «الولّادة» لا يختلفُ كثيراً عمّا كان لبناتِ جنْسِها من نساءِ عَصْرها ، بل أكبرُ الظَّنِّ أنَّ شهرتَها المحلّقةِ في سماءِ النِّساء الأندلسيّات ، إنّما كان لاقترانِ اسمِها باسمِ شاعرٍ كبيرٍ من شعراءِ الأندلسِ في عَصْرِها ، وذاعَ منْ أمرِها ما ذاعَ وشاعَ ، وخُصُوصاً في تلكم القَصائدِ الزَّيدونيّةِ التي تداعبُ خَفايا النُّفوس ، وتلامسُ شغافَ القُلوب ، وتؤجِّجُ نيرانَ الشَّوقِ إلى لقاءِ الأَحْبابِ ، ومسامرةِ الأَصْحابِ ، ولولا ذلك لكانَ شَأْنُ ولّادة ـ هذه ـ نَسْياً منْسياً ، شأنَ كثيراتٍ منَ المنسيّات علىٰ أرضِ الأندلسِ وغيرِ الأَنْدلس.

* وفي هذهِ الوقفاتِ علىٰ أطْلالِ ذكرياتِ ولّادة الزَّيدونيّة ، لا نستطيعُ أنْ نبنيَ شيئاً علىٰ تلكم الأخبارِ المنقطعةِ أو الرِّواياتِ المُتَناقضة ، ما دامتِ النَّتائج تحتاجُ إلىٰ الحجَجِ القاطعةِ المقنعةِ والتي لا تخالفُ حقائقَ التَّاريخ.

الوقْفَةُ الثَّالِثَةُ:

* لعلَّه منَ المفيدِ في أخبارِ ولّادة وفي وقْفَتنا هذه معها ، بل منْ خيرِ تلكَ الأخبارِ ، أنْ نستأنِس بالأحكامِ من الوقائعِ التي احتواها شعْرُ ابنِ زيدون ، إذ تمنحُنا أَضْواء ـ وإن كَانتْ خافتةً ـ أَدنىٰ إلىٰ الصَّواب ، وربّما تُغيّرُ كثيراً ممّا قيلَ فيها ، وفي حقيقةِ ما كانَ بينهما منْ تعاطُفٍ ، ثمَّ نبحثُ عن سببِ حبْسهِ وسجنهِ.

* وقد ذكرَ بعضُ القُدماءِ ، ومَنْ تابَعَهم منَ المحدثينَ أنَّ ابنَ زيدون

قد أحبَّ ولّادة ـ هذه ـ حُبّاً عميقاً ، وأنَّه دخلَ السّجْنَ لما حدثَ بينه وبين ابنِ عبدوس منَ المنافسة علىٰ قلبِها ، وأنَّ هذا الحبَّ أضْناه في سجنِه ، وعذَّبه في هَربهِ وتواريه ، وأنَّه فجَّر علىٰ لسانِهِ قصائدَ عاطفية كانت آيةً في الصِّدْقِ والبلاغةِ ، فاكْتَسَبتِ الخلود.

* ولكنَّ نظرةً هادئةً فاحصةً في ديوانِ ابنِ زيدون ، تشيرُ إلى أنَّ ابنَ عبدوس قد ظفر بهذهِ «الولادة» قبل حبْسِ ابن زيدون لا بَعْده[1] ، لذلك لما رأىٰ ابنُ زيدون أنَّ «ولادته» قد انصرفَتْ عنه[2] ، ازدَراها وهو غيرُ آسفٍ .

* وثمَّة موقف آخرَ يجبُ أنَّ يُؤْخَذَ بعينِ الاعتبارِ في شخصيّة ولّادة المزعومة ، إذ اعتبرَها الرُّواة بأنَّها امرأةٌ سليلةُ بيتِ خِلافةٍ ، شَهِدَتْ ثورةَ بلدِها علىٰ أسرتها وأبيها ، ففقدتِ المُلْكَ ، ثمَّ وجدَت أنَّها ذاتُ أدبٍ بارعٍ ، وجمالٍ رائعٍ ، ونظرةٍ ثاقبةٍ في الأَحوالِ الاجتماعيّةِ ، ورجالِ الأدَب والسِّياسَةِ ، فلا غرابةَ أنْ تجدَ في ابنِ زيدونَ فَتىٰ أحلامِها ، فهو قويُّ العارضةِ في الأَدَبِ ، مَكينٌ في تدبيرِ الدَّوْلَةِ حيثُ وَليَ الوزَارةَ ، فربّما اختارَتْه ليحقِّقَ بعضَ طموحاتِها المندثرة ، وربّما تَرىٰ أمْجادَ أسرتها قد عادَتْ في إهابِ هذا الرَّجُلِ الذي أَوْلَتْه عنايتها وقلبَها ، ولكنَّ ذلك لم يتحقَّقْ ، بل حلَّ محلَّ ذلك العِتَاب ، ثمّ الهَجْر إلى الأبد[3] . !!! . .

---

(١) انظر : ديوان ابن زيدون (ص ١٨٧ ـ ١٩٦) بتحقيق علي عبد العظيم.

(٢) ومنْ هذهِ النقطة تسنّى لبعضِ الرّواة وضْعَ القصصِ المصنوعةِ عن ولّادة وابن زيدون باعتبار أنّ ولادةَ وارثةُ المُلْكِ الحقيقي لأبيها.

(٣) منَ المستبعدِ أنْ يكونَ هجرُ ولّادةِ ابن زيدون ناجماً عن زَهوها بنفسها وشموخِها إشباعاً لنهمَها السَّادي بتحطيم قَلْبِ ابن زيدون ـ كما زعمَ وظنَّ بعضُ الباحثين ـ ، وأغلبُ الظَّنِّ أنَّ ولّادةَ هذه ، قد اكتشفَتْ في ابنِ زيدون رجُلاً محبّاً لنفسهِ ، يتحدّثُ عَنْ ذاتهِ ، يستمتعُ بها كما يستمتعُ بالزّهرةِ ، إذ يعبُّ منْ عبيرها ما شاء ولا تنالُ منه غير رجْع أنفاسِه ، ولم يُدْخِلْها أغوارَ قَلبه ، فمن هُنا نشأ =

* وهنا أخذَ الأَمْرُ شَكْلاً آخرَ عند ابنِ زيدون ، ففي فورةٍ من فوراتِ غرورِه ، قَطَعَ عُرا المودَّةِ ، وأفْسَدَ ما أصْلَحَهُ الدَّهْرُ ، وذلك عندما كتَبَ رسالتهَ علىٰ لسانِ ولاّدته إلى الوزيرِ المنافسِ ابنِ عبدوس ، وقد زعمَ أنَّه أرسلَ جاريتَه تستميلُها إليهِ ـ كما مرَّ معنا في الفِقْرة السَّابقة ـ.

* ولكنَّ ابنَ زيدون قد أحرزَ في هذهِ الرِّسالة نَصْراً ، ومُنِيَ بخسارة ، أمّا النَّصْرُ فقد أشْبَعَ نَهْمةَ تَعَاليْهِ باستهزائِهِ بخصمهِ وتحقيرِه وتعفيرِه وتَسْفيْلِهِ وتمزيقهِ كلَّ ممزّقٍ والتّـندُّر به ، وذلك بأنْ عمدَ ابنُ زيدون إلىٰ إظهار ثقافَتِهِ الجامعةِ المنوَّعةِ، ومقدرتهِ النَّثْريّة ، وتطاولهِ في فنِّ الكَلام.

* وأمَّا الخَسَارةُ ، فكانتْ في الحقيقةِ أكبرَ منَ النَّصْر ، إذ خَسِرَ امرأةً زعم أنَّه أحبَها ، وأشْعَلَتْ كوامنَ عبقريتهِ الشّعرية.

* إنَّ نظرةً فاحصةً في الرِّسالةِ الهزْليّة الزّيدونيّة ، تُرينا أنَّها شهَّرَتْ بولاّدتهِ أضعافَ ما شهَّرتْ بابنِ عبدوس ، إذ تُظْهِرها امرأةً سهلةَ المنالِ ، تطمعُ فيها الغاويات ، ويرغبُ فيها الرِّجال من أجلِ اللذّةِ العابرة.

* وقد ألمحْنَا من قَبْلُ مقدرةَ ابن زيدون علىٰ التَّصرُّفِ بالكلامِ[1] ،

= الخلافُ ، وحصلت مرّة مشادّة تصاعَدت إلىٰ الضّرب ، فتناوَلها بيدِه. (ديوانه ص ١٦٤ ـ ١٦٦ و١٧٥) بتحقيق علي عبد العظيم.
ترى: لو كانت ولادةُ أميرةً وموجودةً فعلاً ، هل يجرؤُ ابن زيدون على ضَرْبها؟!!!.

(١) منَ الواضح أنَّ ابنَ زيدون قد كدَّ الذّهن في صياغةِ رسالتهِ الهزليةِ ، وتخيّرِ العباراتِ والإشاراتِ، وهو الأديبَ الأريبُ لا تخفىٰ عليه اللمحةُ، ولا يغلبُه اللفظُ على الغَرض ، ولعلَّ ابنَ زيدون قد استهدفَ ولاّدة وابنَ عبدوس بِسَهْمٍ واحد.
ومن المحتملِ أنْ تكونَ مناسبةُ الرّسالة الهزلية ـ وهي إرسالُ ابن عبدوس جاريتَه إلى ولاّدة لتزيّن لها مواصلته ـ مناسبةً مصنوعةً من اختراعِ ابن زيدون ، ومنْ تخيّلاته المجنّحة للتّشهير بهما ، وما هذا ببعيد عن أسلوبِ ابن زيدون ومقدرته الشّعرية والنّثرية.

ولذلك أهانَ ولّادته بما نَعَتَها؛ ممّا جعلَها تحقد عليه ، وتستبعده مِنْ حياتِها ، وباتَتْ له عدواً ، وظهيراً لأَعدائِهِ عليه ، وربّما كانَ لها دورٌ في سجنِ ابن زيدون مع خصومهِ وحسّاده، ولما أعياه السَّجنُ فرَّ منه ثمّ اختفىٰ.

الوقْفَةُ الرَّابِعَةُ:

* ممّا يلفتُ النَّظَرَ للباحثِ ، أنَّ ابنَ زيدون قد نظَم قصائد الشَّوقِ المغناجِ في ولّادةَ وهو هارِبٌ من سجنهِ ، وتيقَّظَ حبّه فجأةً ينْضَحُ بتباريحِ الشَّوقِ والهُيام ، حيث كانَ يناشِدهَا أنْ تعودَ إليهِ ، فما أحلىٰ الرَّجوع إليهِ! و لو تخلَّتْ عن ابنِ عبدوس لفعلتْ شيئاً كبيراً له:

دُومي عَلىٰ العَهْدِ مَا دُمْنَا مُحَافِظَةً ... فَالحرُّ مَنْ دانَ إنْصَافاً كما دِيْنا
أَوْلي وَفَاءً وإنْ لم تبذُلي صِلَةً ... فالطّيْفُ يقنِعُنَا والذّكْر يكْفِيْنَا

* إذاً فحبُّه لولادتِهِ في حقيقتِه حبٌّ لماضيهِ ، ولمجده المغتصبِ وللوزارةِ التي طارَتْ من يدهِ.

* إنَّ كثيراً ممَّنْ علا صوتُهم في سَماءِ الحبِّ كان عشقُهم لأنْفسِهم(١) ، وعندما ينهزمون أو يشعرونَ بالإخفاقِ تظهرُ أشكالٌ منْ ردودِ الفعْلِ العاطفيّ ، كما حدَثَ مع ابنِ زيدون ، لذلك توقَّف غَزَلُه اللاهبُ اللاهثُ عندما زالتْ أسبابُ نكبتهِ وإخفاقهِ ، ورجعَ إلى الوزارةِ ، وكأنَّ ولّادته المزعومةَ لم تكن في حياتِه ، وبراءةُ الأطْفَال في عينَيه ، ولم تستأنفْ له علاقةٌ بها.

الوقْفَةُ الخَامِسَةُ:

* لقد لَعِبَ الأخباريّونَ بالأحداثِ ، ولعبتْ بهم العاطفةُ ، فأكثَروا أقْوالَهم في ولّادة ، وشَرقُوا وغَرّبُوا ، وصَعِدُوا ونَزلُوا ، وهتفُوا باسْمِها عندما يُذْكَرُ ابنُ زيدون ، وقطعُوا ووصلُوا ، حتّى وصلتْنَا الأخبارُ مرقوعةً

(١) مِن مثلِ عمرَ بنِ أبي ربيعةَ؛ ومَنْ في شاكِلته.

موصولةً عنها ، وعن أمثالِها ممن كان لهنّ ذكْرٌ في تواريخِ النِّساء اللاتي عشْنَ في قصورِ الملوكِ أو الخُلفَاء أو الأمراءِ في العَصْر الغابِر.

* لذلك لا يمكننا أنْ نجزمَ بحقيقةِ ولاَّدة تماماً ، إلاّ أنَّ الأضواءَ التي ألقيناهَا علىٰ سيرتها توضّحُ معالمَ شخصيّتها أكثرَ من ذي قَبْل ، وَلَعلَّ الأيامَ تمدّنا بمصادرَ تضيءُ جوانبَ حياةِ كثيراتٍ ، ممَّنْ عِشْنَ في مَغْرِبِ الخلافةِ الإسلاميّةِ وفي مشْرقها ، وتُجلَىٰ كثيرٌ منْ غوامضِ حيَاتهنَّ لتعطيَ المرأة فيما بعدهُنَّ آثاراً حِسَاناً ، فتقْتَفيَ بذلك أثرهنّ وآثارهنّ ، وتنيرُ دربَ المرأةِ العربيّةِ بجلائِلِ الأعمالِ ، وفضائلِ الأقوال.

* ترىٰ هل يأتي اليوم الذي يتحقّقُ فيهِ ذلك؟!

الـوقْـفَـةُ السَّادِسَـةُ:

* في دراساتِ المعاصرينَ ، نلمحُ أَقْوالاً متناقضةً عنْ ولاّدة ، لا تكادُ تروي غليلَ الباحِثِ ، أو تسدُّ رمقَ نَهمِه وحبّه للمعرفة.

* فمن خلال تحقيقِ ودراسةِ «علي عبد العظيم» لديوانِ ابنِ زيدون في أواخر الخمسينات ، يتحدَّثُ عن ولاّدة ، وينقلُ أقوالَ القدماءِ عنها ، ومما قاله عنها مردِّداً أقوالَ منَ سَبقَه: ولاّدةُ زهرةٌ منْ زَهراتِ البيتِ الأمويّ الكريمِ، كان أبوها ساقطَ الهمّةِ، ضَعيفَ الرّأي، مشهوراً بالتَّخلُّفِ والضَّعَةِ والانغماسِ في الشَّهواتِ. . وكان قد تزوَّج من أَمَةٍ مسيحيّةٍ حبَشيّةٍ هي بنتُ سَكْرىٰ المَوروريّة ، ولعلَّها أمُّ ولادة[1] ، وجاءت ولادةُ على العكسِ منْ أبيها رئيسةَ الطَّبع ، كريمةَ النَّفسِ ، شريفةَ الأَصْلِ ، جميلةَ الشَّكْلِ ، وكانت لا تتركُ أحداً يتصرَّفُ في مجلسِها ولا بالدِّرهم الفَرْد.

* ومع أنَّ للوراثةِ أثرُها المحتومُ ، فليسَ منَ الضَّروري أنْ يرثَ الابن صفاتِ أبوَيْه ، بل قد يرثُ صفاتِ أجداده الأبعدين ، وممّا لا شكَّ فيه ،

---

(١) لاحظْ قولَه: ولعلّها أمُّ ولادة؟!!؟. . !. .

أنَّ أجدادَ ولاّدة كانُوا من أفذاذِ الرِّجالِ ، على أنَّ للزَّواج المختلطِ أثرَهُ في نَجابةِ البنين ، وكانت أمُّها أجنبيّةً ، وجدَّتُها لأبيها أجنبيّة ، فلا عجبَ إذا جاءت «نَادرة زمانِها ظرفاً وحُسْناً وأَدباً».

* وفي هذا يقولُ المقّري : «وكان أبوها جَاهِلاً سَاقِطاً ، وخرجتْ هي علىٰ نهايةِ الأدبِ والظَّرف».

* ويقولُ ابنُ بسَّام : «كانتْ واحدةَ أقرانِها حُسْنَ مَنْظرٍ ومَخْبر».

* وقد أثنىٰ عبدُ الله بنُ مكّي ـ وكان مُعَاصِراً لها ـ على فَضْلِها وسرعةِ بادرتها ونباهتِها وفصاحتِها.

* أمّا مواهبُها فيقولُ فيها الضَّبي : «أديبةٌ شاعرةٌ جَزْلةُ القولِ ، مطبوعةُ الشِّعْر ، تُمالِطُ الشُّعراء ، وتساجِلُ الأدباء ، وتفوقُ البُرعاء».

* ويقولُ ابنُ بسَّام : «وأما ذكاءُ خاطرِها ، وحرارةُ نوادرِها فآيةٌ منْ آياتِ فَاطرها».

* ويروي ابنُ نباتة أنَّها كانت ذات خُلُقٍ نبيلٍ جميل ، وأدب غضٍّ ، ونوادر عجيبة ، ونَظْم جيد.

* ويحدّثُنا بدرُ الدِّين الصِّديقي أنَّها أُجِيْزَتْ بالإفْتاءِ والتَّدريس!!. أمّا جمالُها ورقّتُها فحسْبُنا ما ذكَره ابنُ خَاقان : «وكانت منَ الأدبِ والظَّرفِ ، وتنعيمِ السَّمْع والطَّرفِ ، بحيثُ تختلسُ القلوبَ والأَلْباب ، وتُعيدُ الشُّيَّبَ إلىٰ أخلاقِ الشَّباب».

* وكانتْ لها مع هذا موهبةٌ في الموسيقا والغِناءِ ، وكثيراً ما كانَ العُظَماءُ يحضرونَ مَجالِسَها ، فينعمونَ بِسَمَرِهَا ، ويطربونَ لأحاديثها ، ويسْكَرونَ بموسيقَاها وألحانِها!!!!..

* وكانت قد تحرَّرَتْ منَ التَّقاليدِ بعد سُقُوط الخلافةِ الأمويّة ، ففتحتْ أبهاءَ قَصْرِها للعظماءِ والأُدباء ، وبهذا فتحتْ (صَالُوناً) أدبيّاً

سبقتْ به شهيرات فرنسا بعدّةِ قرون ، فتهافَتَ على ندوتها الشُّعراءُ والوزراءُ ، مأخوذين برقّتها المغريةِ وجمالها الخلاّبِ ، فَـتَعشَّقَها الكبراءُ منهم ، ولكنَّها كانتْ متصاونةً ، فزادتْهم انجذاباً إليها ، وإلىٰ هذا يشيرُ ابنُ بسَّام بقولِهِ: «يعْشُو أهلُ الأدب إلى ضوءِ غرّتها ، ويتهالكُ أفرادُ الشُّعراء والكُتّاب علىٰ حلاوةِ عشرتها ، إلىٰ سهولةِ حجّابها ، وكثرةِ منْتَابِها ، تخلطُ ذلك بعلوِّ نصَاب ، وكرمِ أَنْساب ، وطهارةِ أثواب»!!!

* وقد أشارتْ هيَ إلىٰ ذلك بقولها:

إنّـي وَإنْ نَظَـرَ الأَنَـامُ لبَهْجَتـي ... كَظِبـاءِ مَكَّـةَ صَيْـدهُـنَّ حَـرامُ
يُحْسَبْنَ منْ لينِ الكَلامِ فَواحشاً ... ويصـدهـنَّ عـنِ الخَنَـا الإسـلامُ

* وأنشدهَا أحدُ زوّارِها قولَ بشَّار:

لاَ يُـؤْيِسَنَّـكَ مِـنْ مُخَـدَّرَةٍ ... قَـولٌ تُغَلِّظُـهُ وإنْ جَـرَحَـا
عُسْـرُ النِّسَـاءِ إلـىٰ مُيـاسَـرَةٍ ... والصَّعْـبُ يُـرْكَـبُ بَعْـدَما جَمَحَـا

فقالَتْ: إلاّ منْ ولاّدة.

* ولكنَّها كانتْ تبدرُ منها بوادرُ تطمِعُ فيها المُتَهافتينَ ، منْ ذلك ما كتبتْهُ عَلىٰ عاتِقَيْ ثوبها:

أنَـا وَاللهِ أصْلُـحُ لِلمَعَـالـي ... وَأَمْشِـي مشْيَتـي وأتيـهُ تِيْهَـا
وَأمْكِنُ عَاشِقي منْ صَحْنِ خَدّي ... وأُعْطِـي قُبْلَتـي مَـنْ يشْتَهيْهَـا

* ومن نزواتِها أنَّها كانتْ تقولُ شِعراً ماجِناً خليعاً.

* ومما يُؤخذُ على ولاّدة تعلّقها بمهجةَ بنتِ التَّياني القُرطبيّة ، وكانتْ منْ أجملِ نساءِ زمانِها ، وأخفهنَّ روحاً ، فَعَلِقَتْ بها ولادةُ ، وكانت مهجةُ مكشوفةَ الوجْهِ ، وقاحَ اللِّسانِ ، مما حملَ كثيراً منَ المستشرقينَ علىٰ إساءَةِ الظّنِّ بهذهِ العلاقةِ المُريبة(١).

---

(١) إنَّ هذا الكَلامَ وأشباهَه ، أَوحىٰ لكثيرٍ منْ دَارسيْ الأَدبِ الأَندلُسيّ أنْ يحذوا =

* ويحدثُنا «نيْكِل»[1] أنَّ نزواتِها لا تكادُ تختلفُ عن النّزعاتِ

= حَذْوه ، وأنْ يدخُلوا في جُحْرِه ، فهذا الدّكتور سَعْد إسماعيل شَلبي يقولُ عن ولاّدةَ ومهجةَ في كتابهِ «البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشّعر» : ومهجةُ بنتُ التّياني ، ولها شِعرٌ تقدَّمَتْ فيه فحولَ الذّكْران ، ولم يبلغْ هؤلاء جميعاً ما بلغتْ ولاّدة بنتُ الخليفة المُستكْفِي ، وكَانتْ نهايةً في الأَدبِ والظَّرفِ ، وكان مجلسُهَا بقرطبةَ منتدىً لأَحْرارِ المِصْر ، وفناؤُها مَلْعباً لجيادِ النّظم والنّثر . . . . وقيل : إنّها بالمغربِ كعُليّة بنةِ المهديّ العبّاسيّ بالمشرقِ ، إلاّ أنَّ ولادةَ تزيدُ بمزيةِ الحُسْنِ ، وأمّا الأدبُ والشّعْرُ والنّوادرُ ، وخفّةُ الرّوح فلم تكنْ تقصرُ عَنْها ، وكانتْ لها صنعةٌ في الغِنَاءِ ، ولها نوادرُ كثيرةٌ مع الأدباءِ والشّعراءِ تخالطُهم وتساجلهُم ، وكانتْ تخرجُ سافرةَ الوَجْهِ (!!! . . . !!) وتجمعُ حولَها نجومَ الأدبِ ، وتثيرُ بينَهم التّنافُسَ في حُبِّها ، وتعمدُ إلىٰ أشدِّ تلك النّجوم لمعاناً ، وأعظمها حِرْصاً علىٰ القُرب منها ، فتبعِدُه كي يزدادَ كَلَفاً بها ، وتسبيحاً بحمدِها ، فإذا أضفْنا إلىٰ ذلك نَسَبها الرّفيع ، وجمالَها الذي يتمثّل ـ كما ذكرَ نيكل ـ في زُرْقَةِ عينَيْها ووفرةِ شَعْرِها ـ لعلّ أمَّها كانَتْ أجنبيّة ـ وشغفْنَاها باستعدادِها الفِطْريّ ، ومشاركتها في الحبّ ، فإنَّ بلاءَ الأوساطِ الأدبيّةِ بها كانَ شديداً دونَ شَكّ . وقصّتُها مع ابنِ زيدون من أروعِ قَصَص الحبِّ التي عرفَتْها الأندلس ، قال فيها هذا الشّاعر أغلبَ غزلِهِ ، وتمنّعتْ عليه تارةً ، وأقبلتْ عليه أخرىٰ .

وأعطانَا هذا الشّاعر نَفْسه كاملةً فيما قالَه منْ خلالِ الطّبيعة التي وصفَها ، فقد اعتصرَ فؤادَه شِعْراً عَذْباً فيهِ جوىً وحرقةً وهوىً ولوعةً ، وقد قال : «غرسيه غُومس» في قصيْدته النّونية : «إنّها أجملُ قصيدةِ حبٍّ نظمَها الأندلسيّون المسلمونَ وغرّةٌ منْ أبدعِ غُررِ الأدب العربيّ كلّه» .

وقال الأستاذُ «ول» عنَ ندوتِها أنّها كانَتْ «شبيهة بندوات عَهْد الاستنارةِ في فرنسا ، فكانَ يلتفّ حولَها الظُّرفاءُ والعلماءُ والشّعراء» .

والمهم أنَّ الأدبَ العربيَّ أفادَ كثيراً منْ ولاّدة وابنِ زيدون ، وظهرَ فيه نموذج للحبّ لعلّه كانَ الأوّل منْ نوعِه .

(البيئة الأندلسيّة وأثرها في الشّعر ـ عصر ملُوك الطّوائف ـ ص ٤٤٤ و٤٤٥) بتصرف .

(١) «نيكل» : مُسْتَشرِقٌ اسمهُ عبدُ الرّحمن نيكل . (A. B. NYK1) .

وُلِدَ الدكتور نيكل عام (١٨٨٥ م) في بُوهيمية ، إحدى المقاطعاتِ التي نَشَأَتْ منها جمهوريةُ تشيكوسلوفاكية بعد الحربِ العالميّة الأولىٰ . =

التَّحريريّة بينَ النِّساءِ الجامعيّات ، ونجوم المسرحِ والخيّالةِ في العَصْرِ الحديثِ ، ويشبِّهُها «بجورج صَانْد» في مغامراتِها العاطفيّة.

* على أنَّ بعضَ معاصريها ضاقَ بتحرّرِها ، فقال ابنُ مكّيّ: إنّها «لم يكنْ لها تصاونٌ يطابِقُ شرفَها».

* وقال ابنُ بسَّام ـ بعد أنْ أثنىٰ عليها ـ: «على أنَّها ـ سمح اللهُ لها وتغمَّد زللَها ـ اطّرحتِ التَّحصيل ، وأوجدتْ إلى القولِ فيها السَّبيل بقلّةِ مبالاتِها ، ومجاهرتها بلذّاتِها»[1].

الوقفَةُ السَّادِسَةُ:

* من خلالِ رحلتِه في دراسةِ أحْوالِ وصِفَاتِ ولاّدةَ بنتِ المُستكفي يتابعُ «علي عبد العظيم» المشوارَ ، فيستخْلصُ أوصافَها وشمائلَها من خلالِ الأشْعار الزّيدونيّة فيها فيقول:

* أمّا صفاتُها الجسميةُ ، فديوان الشّاعرِ حافلٌ بوصفِ جمالها الرّائع ، وسِحْرها الخلاّب.

= وفي عامِ (١٩٤٦ م) تخرّج في جامعةِ شيكاغو برتبة دكتور في الفَلسَفة ، وكان منذُ ذلكَ الحينِ قد استقرَّ نهائياً في الولاياتِ المتحدة.
والدكتورُ نيكل متوفّرٌ علىٰ دراسةِ الآدابِ العربيّة ، ودراسةِ الصِّلَة بين الموشّحات الأندلسيّة ، ونشأةِ الشّعر البروفنسالي ـ أو شِعر شُعراء التّروبادور في جنوبي فرنسة السّابق ـ.
وقد زار الدكتور نيكل العالَم كلّه ، وقضىٰ مُدَداً مختلفةً متفرقةً في المغربِ ومصْرَ ولبنان وسورية، وهو كاتبٌ خصيب ، فيّاضُ القريحةِ ، يجيدُ لغاتٍ متعددةً منها: التّشيكية ، والفرنسيّة ، والإنكليزيّة ، والألمانيّة ، والإسبانيّة ، والعربيّة ، واليابانية ، وهو يقرأُ ويتحدّثُ ويكتبُ بهذهِ اللغات كلّها ، وللدكتور نيكل اهتمامٌ بالإسلام وبالدّراساتِ الإسلاميّةِ ، ولقد نَقَلَ القُرآن الكريم إلىٰ اللغةِ التّشيكية، فُطبع مرتَيْن عام (١٩٣٤م و١٩٣٨م). (شاعران معاصران ص ٤٠ و٤١).

(١) انظر: ديوان ابن زيدون (ص ٢٩ ـ ٣١) تحقيق علي عبْد العظيم بتصرّف يسير.

* كانت بيضاء الوجْهِ ، صفراءَ الشَّعر ، وبهذا يصفُها فيقول:

أَوْ صَاغَه وَرِقَاً مَحْضَاً وتَوَّجَه   منْ ناصِعِ التِّبْرِ إبْداعاً وتَحْسِيْنَا

* وكانت ممشوقةَ القوام ، طويلةَ العُنق ، بارزةَ الصَّدْرِ ، دقيقةَ الخَصْرِ ، رابيةَ الرِّدْفِ ، مع عينَيْن حوراويْنِ ، وأهداب وطْف.

وفي السِّيَراءِ الرَّقمِ وسْطِ قِبَابِهِم   بَعيدَ مَنَاطِ القُرْطِ أَحْوُر أَوْطَفُ

تَبَايَنْ خَلْقَاه فَعَبْلٌ مُنَعَّمٌ   تأَوَّدَ في أَعْلاهُ لَدْنٌ مُهَفْهَفُ

فللعَانِك المرتجّ ما حازَ مئْزَرٌ   وللغُصُنِ المهتزّ مَا ضَمَّ مطرَفُ(١)

* وهي إلىٰ هذا رقيقةُ البشْرة لَيِّنَةُ الملْمَس:

إِذَا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفَاهِيَةٌ   تومُ العُقُودِ وأَدمته البُرىٰ لِيْنَا

يَا أَلْيَنَ النَّاسِ أَعْطَافاً وأليَنهم   لَحْظاً وأَعْطَرَ أنْفَاساً وأَرْدَانَا

* وكان لها خَالٌ أسودُ بخدِّها:

مُفَضَّضُ الثَّغْرِ لَهُ نُقْطَةٌ   مِنْ عَنْبَر في خَدِّهِ المُذْهَبِ

* وكانت تجمعُ إلى جمالِ الخلْقَةِ جمالَ التزيُّنِ وعذوبةَ الحديثِ:

لَه خُلُقٌ عَذْبٌ وَخَلْقٌ مُحسَّنٌ   وظرفٌ كعرفِ الطِّيْبِ أو نَشْوةِ الخَمْرِ

---

(١) انظر: ديوانه (ص ٤٨١ و٤٨٢). و«السِّيَراء»: نوعٌ منَ الثّياب فيهِ خطوطٌ صفْر ، أو يخالطه الحرير أو الذّهب الخالص؛ ومنه سمّىٰ ابن الأبّار كتابه «الحلّة السِّيراء». و«الرّقم»: الخزّ ، أو ضَرْبٌ مخططٌ منَ الوشي. «منَاط الشّيء»: مكان تعليقه ، وكأنَّ ابنَ زيدون استعارَ هذه الصُّورة منْ قولِ عمر بن أبي ربيعة:

بعيدةُ مهوىٰ القُرط إمّا لنَوفَلٍ   أَبوها وإمّا عبد شَمْس وهاشم

و«أحور»: شدّة سواد العَين في شدّة بياضها. «أَوْطف»: طويلُ أهدابِ العينَيْن. والمعنى: في الحللِ المذهبة الموشّاة يميسُ حبيبٌ لي كالغَزال طويلُ الجيد ، أحورُ العينين طويلُ الأهداب. و«تباين»: اختلفَ وتباعدَ. و«عَبْل»: ضخم. و«تأوّد»: انعطفَ وتمايلَ. و«لَدن»: طريّ. و«مهفهف»: ضامرُ البطن. و«العَانِك»: المرأةُ السَّمينة. و«المُطرف» بضم الميم وكسرها: رداء مربع من الخز.

يُعلّلُ نَفْسي مِنْ حديثٍ تلذُّه كمثْلِ المُنَىٰ والوصْلِ في عقبِ الهَجْرِ[1]

* ويتابعُ علي عبد العظيم الحديثَ عنْ ولّادةَ وعنِ ابنِ زيدون فيقول: عرفَ شاعرنا ولّادة بعد أنْ بلغَ أشدّه، وتبوأَ منصبَ الوزارة، ونضجتْ مواهبُه، وكانَ يغشىٰ ندوتَها[2] مع من يغْشَاها منَ العُظَماء مدلاًّ بمكانةِ أسرتهِ، ووفْرِ ثَروته، وعلوِّ منزلته، وذيوع شُهرته في فنون الشّعرِ والنَّثْر، والشّؤون السّياسة.

* وكان الشّاعِرُ عزْباً ـ كما نفهمُ منْ رسالتِه الهزليّة ـ وصادفت ولّادةُ فيه فتىً وسيمَ المحيّا، حُلْوَ الحديثِ، قويَّ العارضَةِ، رقيقَ الشّعر، نَابِهَ المكان، وصادفَ هو منها رقّةً وانعطافاً، وأنوثةً صارخةً، وجَمالاً فتّاناً، فانبعثَ فيهما مَيْلٌ قويٌّ تدرّجَ إلىٰ حبٍّ عنيفٍ:

أَمّا الضَّنَى فَجَنَتْهُ لَحظَةٌ عَنَنٌ كأَنَّها والرَّدَى جَاءَا علىُ قَدَرِ
فَهِمْتُ معنَى الهوىٰ منْ وحي طرفكِ لي إنَّ الحَوارَ لمفهومٌ مِنَ الحَورِ[3]

---

(١) ديوان ابن زيدون (ص ٣١ و٣٢).

(٢) يزعم د. شوقي ضَيف: أنَّ المرأةَ الأندلسيّة في القرن الخامسِ الهجريّ قد قَامَتْ بدورٍ خطيرٍ يشبُه دورَ المرأةِ في الأدب الفرنسيّ خلالَ القرنيَنْ السَّابع عشَر والثّامن عشر الميلاديَّيْن.
(الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص ٤٤٠).
وهذا زعمٌ ووهمٌ منْ سَعادةِ د. شوقي ضَيف، إذْ لا نستطيعُ أنْ نشبّه المجتمعَ النّسويَّ الفرنسيَّ، بالمجتمع النّسوي العربيّ في القرنِ الخامسِ الهجريّ. وعلىٰ الرّغم مما أُحيطَ بِهِ التّاريخَ الأندلسيُّ للمرأةِ منْ أوهام وتخيّلات، فإنَّ المرأةَ كانَتْ ذات تصوّن وحجابٍ وأدبٍ وعفافٍ، وإنْ زعمَ الزّاعمونَ ما يزعُمون ويفترون!!! ومَنْ يدرسْ بدقّةٍ دراسةً صحيحةً التاريخَ الأندلسيَّ والحياةَ العلمية والاجتماعية يجدْ مصداقَ ما قلناه.

(٣) ديوان ابن زيدون (ص ٢٥١). و«لحظةٌ عَنَن»: نظرةٌ عارضة. والمعنى: إنّ هذا الهوىٰ المبرّح جَنَتْهُ عليَّ نظرةٌ عارضةٌ كأنّها صحبَتْ معها المنية، فنزلا بي علىٰ =

* ولقد قوّىٰ هذه العاطفة اتّفاقُ ميولهما ، ومشاربهما الفنيّة ، وصفاتُهما الجسميةُ ، فكلاهما كانَ شاعِراً مفتوناً بالموسيقا والغِناء ، ميّالاً إلىٰ معاقَرةِ الشَّراب (!!!! . . . !!) ، وكلاهما كانَ وسيماً ظريفاً حاضِرَ البديهةِ ، عَذْبَ الحديثِ ، وكلاهما منْ صفوةِ الطَّبقةِ الرَّاقيةِ ، وسنُّهُما متقاربةٌ ، وكلاهما عَزَبٌ ؛ فلا عجبَ إذا جَذَبَ الهوىٰ شَبيهاً إلىٰ شَبيْه ، فاندفَعا معَ الحبِّ في تستُّر وتصوّنٍ عبّر عنهما الشَّاعر بقوله :

أَصُونُكِ منْ لَحظَاتِ الظُّنُون ... وأُعْليكِ عَنْ خَطَراتِ الفِكَرْ
وَأَحْذَرُ منْ لحظَاتِ الرَّقيْب ... وقَد يُسْتَدامُ الهَوىٰ بِالحَذَرْ

* وقد وصفَ لنا الشَّاعِرُ أوّلَ لقاءٍ تمَّ بينَهما ، وأنَّهما قضيَا ليلةً حافلةً في حديقةٍ غنَّاءَ تَساقَيا كؤوسَ الرَّاحِ ، وأنَّه باتَ معَها «يجني أقحوانَ الثُّغور ، ويقطفُ رمّان الصُّدور» . . .

* ولكنَّ هذه العاطفة المشبوبةَ الثَّائرةَ ، لم تلبثْ أَنِ اشتهرتْ ، وطارَ ذِكْرُهَا علىٰ كلّ لسَان ، فلم يجدِ الشَّاعِرُ بعد هذا حاجةً إلى التّستُّر فقالَ :

يَا مَنْ غَدوتُ بهِ في النَّاسِ مُشْتَهِراً ... قَلْبي عليكَ يُقَاسي الهمَّ وَالفِكَرَا
إنْ غِبْتَ لَمْ أَلْقَ إنْسَاناً يُؤانِسُني ... وإنْ حَضَرْتَ فكلُّ النَّاسِ قَدْ حَضَرَا

فضاقَتْ ولاّدةُ بهذا الإعلان ، ووجدَ الخصومُ الفرصةَ سانحةً ، فأوغروا صَدْرهَا عليه ، فاعتذَرَ إليها :

وَاللهِ مَا سَاءَني أَنّي خفيتُ ضَنَىً ... بَلْ سَاءَني أَنَّ سِرّي بالضَّنَى عَلَنُ
لو كانَ أمْريَ في كَتْمِ الهَوىٰ بِيَدي ... ما كانَ يَعْلَمُ ما في قَلْبيَ البَدَنُ

* ولكنَّ خصومَه لم يكفُّوا عنْ إذكاءِ حفيظتها عليه ، واندفعَ هو في مخاصمتِهم ، فمسَّ حبيبتَه مسّاً عنيفاً في قصيدتِه لابنِ القلاّس وابن

= قَدَرٍ محتوم ، وقد أدركتُ سرّ الهوى من لحظات طرفك ، فما بعينيك من الحور يغني عن حوَار الكلمات .

عبدوس ، ثمَّ ازدادَ في اندفاعِهِ ، فصوَّرهَا بصورةِ البغيّ الهلُوكِ في رسالتهِ الهزليّةِ؛ وهنَا ضاقَتْ بهِ ولادة ، وانكشفَ عن عينَيْها الغطاءُ ، فرأتْ غرورَه وصلفَه ، وتذكَّرَتْ إعجابَه بجاريتِها عتبةَ ، ومرَّ بخاطرِها نَقْدَه لشعْرِها ، فصدَّتْ عنه ، وفي فورةٍ من فوراتِ غَضَبه الجنونيّة اعتدىٰ عليها بالضَّرب ، وإن كان قد ندمَ علىٰ فعلتهِ ، وحاولَ عنها الاعتذار:

إنْ تكُنْ نَالَتْكِ بالضَّربِ يَدي ... وأَصَابَتْكِ بِما لَمْ أُرِدِ
فلَقَدْ كنْتُ لَعَمْري فَادِياً ... لكِ بالمالِ وبَعْضِ الولَدِ
فَثِقي مِنّي بِعَهْدٍ ثَابتٍ ... وضميرٍ خَالِصِ المُعْتَقَدِ
وَلئنْ سَاءَكِ يَومٌ فَاعْلَمِي ... أَنْ سيتلُوهُ سُرورٌ بِغَدِ

والواقعُ أنَّهما ـ علىٰ تقاربِهما في الميولِ والأَهْواءِ ـ كانا علىٰ أهبةٍ للجفَاء ، فكلاهما كانَ طاغيَ الشَّخصيّةِ ، عارمَ الغَضَبِ مُندفعاً؛ وهذه الصِّفاتُ تجعلُ صاحبَيْها متوازيَيْن لا متكاملَيْن؛ ولما زادتْ في دلالها عليه[1] ، ثارتْ ثورتُه ، فكتبَ إليها:

قَدْ عَلِقْنَا سِواكِ عِلْقاً نَفيسا ... وَصَرفْنَا إليهِ عَنْكِ النُّفُوسَا
وَلَبِسْنَا الجَديدَ مِنْ خِلَعِ الحـ ... ـبِّ وَلَمْ نألُ أَنْ خَلَعْنَا اللبيْسَا
ليسَ منْكِ الهوَىٰ ولا أَنْتِ فيهِ ... اهْبِطي مصْرَ أنْتِ منْ قَومِ مُوسىٰ[2]

---

(١) هذا القولُ يؤكّد لنا أنّها ليستْ ولادةُ بنتُ المستكفي ، إذ لو كانتْ ولادة الأميرة ، لما احتاجَتْ إلى كلِّ هذا الدّلال علىٰ رجلٍ كابنِ زيدون وعندها مِن الرّجال الوافدين علىٰ مجلسها مَنْ تلعبُ به كالكرة ـ كما زعموا ـ.

(٢) كنايةٌ عنْ أنّها مبتذلةٌ مباحةٌ؛ ويشيرُ بهذا إلىٰ قولِ أبي نواس:

أظنُّكَ مِنْ بقيّةِ قومِ مُوسىٰ ... فَهمْ لا يصْبِرونَ علىٰ طعَامِ

وفي دراسته لابن زيدون يقول علي عبد العظيم عن نظرة ابن زيدون إلى المرأة:
أمّا نظرته إلىٰ المرأةِ خاصّة ، فقد كُنّا نتوقَّع أنْ ترتفعَ منزلتُها عنْدَه استجابةً لهواهُ العنيفِ وحبِّهِ القهّار ، ولكنَّ فشلَه في حبِّه جعلَه يقسو علىٰ المرأةِ ويرَاها متعةً

* وهنا نجحَ خصومُ الشَّاعِرِ في حَمْلِ الأميرِ علىٰ سجْنِهِ ، فهدأتْ نفسُه في السّجْنِ ، وأخذَ يناجيها منْه بأبيات عاطفيّة رقيقة ، ثمَّ فرَّ منْ سجنهِ إلىٰ إشبيليةَ ، ومنها كتبَ إليها النُّونية الخَالِدة التي مطلعُها :

أَضْحى التَّنَائي بَديلاً منْ تَدانيْنَا ... ونَابَ عَنْ طيْبِ لُقْيانَا تَجَافيْنَا

* ولما عفَا عنه الأميرُ وعادَ إلىٰ قرطبةَ بالغَ في التّودُّدِ إليها ، ويظهرُ أنَّها عادَتْ معه إلىٰ مودّتِها السَّابقة ، ولكنْ إلى حين ، فقد انصرفَتْ عنه بقيّة الحياة ، وإن كانَ حبُّه لها ظلَّ يعتلجُ في حنَايا صدرِه ، ويتردَّدُ في ألحانِ شِعْره زُهاء ثلاثينَ عَاماً حتّى طَوَتْه المنون[1] .

الـوقْـفَـةُ الـسَّـابِعَـة :

* بعد أنْ قَرأْنا ما قرأْنَا عنْ ولاّدة ، يطلعُ علينا «علي عبد العظيم» بدراسةٍ تحليليّةٍ لشخصيّةِ ولاّدة ، أغرقَ فيها وأغربَ ، وأتىٰ بالعجابِ والعَجائب ، وخَلَطَ السُّكَّرَ بالطِّينِ ، واختلطَ عنده الحابلُ بالنَّابِل .

* وعلىٰ الرغمِ منْ أنَّ جهْدَه في هذا التَّحليل كانَ واضحاً ، إلاّ أنَّ دراستَه لم تكنْ واضحةَ المعالِم ، بل مضْطَربةً ، متنوّعةً لا تستقرُّ علىٰ رأي ولا تروي الغُلَّة ، ومع هذا وذاك أحببتُ أن أوردَ كلامَه ، ودراسته

= عابرةً يلهو بها الإنسانُ حيناً ، ويقسو عليها في كثيرٍ من الأحايين ، فهو يرىٰ أنَّ خيرَ زوجٍ للفتاة هو القبْرُ :

حبّذَا هَـذْيُ عَـروسٍ ... دفْنُها كـانَ الهـدَاء

ويشبّهُ المرأةَ بالحذاءِ يخلعهُ الرَّجُل ويستبدلُ به آخر ، ولا يتورَّعُ عنْ ترديدِ هذا المعنى في تهنئتِه للمعتضدِ بزواجِه منْ بنتِ مجاهد العامريّ بعد أنْ ماتت زوجتهُ الأولىٰ :

هـيَ والفقيـدةُ كـالأديـم اختـرتَـه ... فقَـدَدْتَ إذْ خَلـق الشِّـراكَ شِـراكَـا

وكان لا يورّع عن شَتمِ ولاّدة وإيذائِها ، حتى لقد استعملَ يدهَ في تأديبها ، وإنْ كان قد عادَ إليَها نادماً مُستغفراً . (ديوان ابن زيدون ص ٧١) .

(١) ديوان ابن زيدون (ص ٣٧ و٣٨) .

التَّحليليّة لشخصيةِ ولادة ، وكيف ربطَها بدراساتِ الغربيّين التي اعتمدتْ على التَّحليل النّفسي.

* يقولُ علي عبد العظيم: لا يزالُ الغموضُ يعتورُ موقفَ ولّادة من ابن زيدون، وموقفها منْ غيرِه منَ المحبّين، فإنّها علىٰ جمالِها ورقّتها ظلّتْ عانِساً طولَ الحياةِ، معَ كثْرةِ الرّاغبين فيها، المتهافتين عليها ، وإنّها لتقبلُ علىٰ ابنِ زيدون ، ثمّ تصدُّ عنه ، ثمّ تعودُ إليه لتنصرفَ عنه انصرَافاً تامّاً ، وتقبلُ على ابنِ عبدوس ، ثم تعبثُ به ، وتسخرُ منه ، ثمّ تعودُ إليه عودةً أشْبَه بالصَّداقَةِ منها بالمحبّة ، وقد حارَ فيها معاصروها فوصفوها بالتصوُّنِ والعفَاف، ثم نعتُوها «بقلّة مبالاتها، ومُجَاهرتها بلذّاتها».

* كما حارَ فيها المستشرقون فرموها بالجنْسيّة المِثْلِيّة وهي ميلُ المرأةِ (Homosexuality) إلى المرأةِ؛ والرَّجل إلىٰ الرّجل ، واتّهموها بمهجةَ بنتِ التّياني القُرطبيّة ، وشبّهوها في هذا بالشّاعرة الإغريقيّة «سَافُو» ، ولكنَّ هذا الاتهامَ يدفعه أنَّ مهجةَ هَجَتْ ولّادة ، فاتَّهمتها بالجنسيّة المُغَايرة (Heterosexuality) حيثُ قالت:

وَلَّادةُ قَـــدْ صِـــرْتِ وَلّادة ... مِـنْ غَيـرِ بَعْـلٍ فُضِـحَ الكَـاتِـمُ
حكَـتْ لنَـا مـريـمَ لكنَّمـا ... نَخْلَـةُ هـذي ذكـر قـائِـمُ

وَصِلاتُها بابنِ زيدون تقطعُ بأنوثتها الطَّبيعيّة ، وحَسْبُنا قراءة وصفهِ لأوّل لقاءٍ تمَّ بينهما وما حَدَثَ فيه(١).

* ويصلُ علي عبد العظيم بَعْدَ مَشَقَّة ، وبَعَدْ بُعْدِ الشُّقَّةِ إلى مَسْلَكٍ وعرٍ مشَىٰ فيه ، وهو يحسبُ أنَّه قد سهَّلَ الطَّريق ، وفسحَ المجالَ لغيرهِ كيما يَعْبُرَ دونَ عَنَاء ، إلاّ أنَّه كانَ في تعليلهِ واستنتاجهِ غَيْـرَ موفَّقٍ حيثُ قال: ولكنّنا لا نستطيعُ أنْ نَجِدَ تعليلاً مقْنِعاً لجميعِ تصرفاتها ، هذا

---

(١) ديوان ابن زيدون (ص ٣٨).

التّعليل هو أنَّها مصابةٌ بالسَّادية (Sadism) ، وهي حبُّ إيقاع التَّعذيب علىٰ الجنْسِ الآخر ، وتنغرسُ بذورُ هذا المرض في المرأةِ منْذُ الطُّفولةِ حين تشعرُ بأنَّها تنقصُ عنِ الطِّفْل بعضَ الأَعْضَاء ، فتشعر بحَسَدٍ وغيْرةٍ يُسمّى: «حَسَد الذّكُورة» (Penisenyx) ، ويظلُّ هذا الحسدُ ينمو حتّى يؤولَ إلى مرضٍ خَطير بعْدَ البلوغ.

* ويرجّحُ بعضُ الباحثينَ أَنْ يكونَ هذا المرضُ أثراً ورَاثيّاً لفسادِ النُّطفَةِ النّاتجِ عن التّسمّم بالخمْرِ ، ونحن نعلم أنَّ أباها كانَ منَ المدمنين.

* ومنَ مظاهرِ السَّادية أنْ تَنْصِبَ المرأةُ شَرَاكَها للرَّجُل حتّى يقعَ فريسةَ هواهَا ، فتذيقَه أنواعَ الصُّدود ، وتجلبُ عليه صنوفَ الشَّقاء ، وضروبَ الحِرْمَان؛ وقد اعترفتْ إحدىٰ السَّيِّدات للعَالِمِ النَّفْسيّ «اشتكل» فقالت: إنَّ اللذةَ الجنْسيّة ضعيفةٌ إذا قيْسَتْ باللذَّةِ التي أستشعرُهَا منَ العملِ السَّادي ، فهي لذّةٌ لا يحدُّها الوصْفُ ولا تصورها الألفاظُ ، فإنّني أشْعُرُ بشخْصي يَسمو ويعلو ويملؤني الزّهوُ والكبرياءُ والجَلال ، وتبلغُ بي النَّشْوةُ أوجَها كلّما شَعَرْتُ أنَّني بَسطْتُ سيطرتي علىٰ هؤلاء الرِّجال دونَ أنْ أشبعَ لهم رغبةً ، أو أطفىءَ لهم شهوة ، فهم عَبيدي يظلُّون يجرُون خَلْفي طَمَعاً في أنْ يتذوّقُوا حلاوةَ وصالي بعد أنْ ذاقُوا مرّةَ قَسْوتي وكبريائي ، فهم أتباعٌ لي دائماً ، يحدوهم الأملُ في نعيمي ، فلا يدخلُون إلاّ جحيمي.

* وفي هذا يقولُ شاعرنا:

عَللتْنِي بِالمُنَى حتَّى إِذَا عَلقتْ ... بِالنَّفْسِ لمْ أُعْطِ منْ أسبابِها طَرفَا
غُيِّرت عنْ خُلُق قَدْ لاَنَ لي زَمناً ... لِيْنَ النَّسيمِ فَلما لَذَّ لي عَصَفَا

* ومنْ مظاهِرِ السَّاديّة حبُ التّلويثِ ، وقد لوَّثَتْ ولاّدة سُمعةَ كلّ مَنْ اتَّصلَ بها ، فقد عبثَتْ بابنِ عبدوس ، «وكانت كثيرةَ العَبَثِ به».

* ولوَّثَتْ سمعةَ ابنِ زيدون ـ وقد مرَّ بنا هجاؤُها الفاحِش له ـ.

* ثمَّ لوّثَتْ سمعةَ الأَصبحيّ وابنَه ، ومزَّقَتْ عرضَهُمَا كلَّ تمزيق.

* وإلىٰ هذا يشيرُ العَمريُّ بقوله: «وكانَت ولاّدة ذاتَ بوادرَ يشيبُ لها رأْسُ الوليد. . .».

* ويقرّرُ «نيكل» أنَّ سلوكَها كانَ متّسِماً بالخشونَةِ المتطرّفَةِ ، والاتجاهِ المادي الطَّبيعي الذي يذكّرنا «بجورج صَاند» ، وأَنَّها ورثتْ عن أبيها بعضَ ملامح الخُشُونَة؛ والمريضةُ بهذا المرضِ لا تدومُ صِلاتُها إلاّ برجلٍ ذي انْحرافٍ مقابل لانحرافها ، تسيطرُ عليه نزعة قبول التَّعذيب (Masochis) وهي النَّزعَةُ المقابلةُ للسَّادية ، ولعلَّ ولاّدة صادفَتْ هذا الشَّخصَ في ابنِ زيدون ، حيثُ كانتْ تكثرُ منَ العَبَثِ ، فيرضىٰ بعَبَثِها ، ثمّ تنصرفُ عنه إلىٰ ابـنِ عبدوس ، فيظلُّ يترامىٰ على قدمَيْهـا راضياً مُغتبِطـاً ، ثمَّ تَسْخَـرُ منه فَيرضىٰ من هذه السُّخرية ، ولهذا دامتْ علاقتُها حتى جَاوزا الثَّمانين[1].

* وفي نهايةِ المطَاف يقولُ علي عبد العظيم بعد أنْ أوردَ ما أوردَ ، وشَكَّ في أشياءَ كثيرةٍ: وإذا كُنّا لا نملكُ إلاّ الفروضَ ، فإنّنا نستطيعُ أنْ نفترضَ أنّها بعد أنْ بدَّدَتْ ثروتَها اضطُرّتْ إلىٰ الانزواءِ في خِدْرِها في عِفَّةٍ وقناعةٍ واستحياء؛ أو أنَّها بعد أنْ لاكتِ الألسنُ حياتَها ، وارتفعتْ إلىٰ ذروتها الشُّبهات ، وحامَتْ حولَها الشُّكوك ، أدركَتْ أنَّها فرطَتْ في حياتِها ، وتَساهَلَت في كرامتِها ، وأساءَتْ إلى حَسَبِها ونَسَبِها ، فآثرتِ الانسحابَ منَ الحياةِ العامّة ، ورفَضَتِ الزَّواجَ حتى لا يظنُّ القادحون أنَّه نتيجةُ حبٍّ عنيفٍ ، ومنَ التَّقاليدِ العربيّةِ المتوارثةِ أنَّ الأسرةَ كانت ترفضُ زواجَ فتاتِها بمن اشتُهِر بحبِّها نفياً للظّنون ، وإبعاداً للشُّبُهات.

---

(١) انظر: ديوان ابن زيدون (ص ٣٨ ـ ٤٠) ، وابن زيدون (ص ١٠٦ ـ ١٣٥) لعلي عبد العظيم.

* وقد تكون انسحبَتْ منَ الحياةِ العامّة خشيةَ أنْ تتعرضَ حياتُها ، لما تعرض إليه آلُها بعد أنْ ذهبَتْ دولتُهم ، وتبدَّد سلطانُهم.

* هذه كلُّها فروضٌ قائمةٌ علىٰ مجرّد الظُّنون. . . . ونعودُ فنقول مع القائلين: «نموتُ وفي أنفسِنا شيءٌ من ولاّدة».

* ولكل قارىءٍ في ضوءِ ما ذكرناه ، أنْ يختارَ لنفسِه الرّأيَ الذي يستريحُ إليه في شَأْن ولاّدةَ الفتاةِ الشّاعرةِ السّاحرةِ الموهوبةِ ، ذات الأصْلِ الكريمِ والمجد الخالدِ[1].

الـوقْـفَـةُ الـثَّـامِـنَـةُ:

* في هذه الوقفةِ نطَّلِع علىٰ رأْي يخالفُ ما ذكَره علي عبد العظيم وغيرُه ، ففي مقدمة تحقيقـهِ لديوان ابنِ زيـدون يتحدَّثُ محمّد سيّد كَيلاني عن ولادةَ، ويدلي دلْوه بينَ الدِّلاء ، ويخرجُ منْ ذلكَ برأي مفادُه:

* ولادةُ بنتُ المُستكْفِي نَشأَتْ في أَحْضَانِ الفَقْرِ والبؤسِ ، ومع ذلك فابنُ زيدون يقول فيها:

رَبيْـبَ مُلْـكٍ كـأَنَّ اللهُ أَنْشَـأَهُ ... مِسْكـاً وقَـدَّرَ إنْشَـاءَ الـوَرىٰ طِيْنَـا
أَوْ صَاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً وتوَّجَه ... مِنْ نَاصِعِ التِّبْرِ إبْداعاً وتحسيْنا
إذَا تـأَوَّدَ آدتْـهُ رفـاهِيـةٌ ... تُـومُ العُقُـود وأدْمَتْـه البُـرىٰ لِيْنَـا

قُلْنا: إنَّ أباهَا تولّىٰ الخَلافَةِ في سنَةِ (٤١٤ هـ) ، فكم كانَ عُمْرُ ولاّدة في ذلك الحيْن؟!

* لـقد أجمعَ ثـقاتُ المؤرّخينَ على أنَّها لما توفّيتْ سنةَ (٤٨٤ هـ) كانَتْ قد قاربتِ المئـةَ ، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّـها وُلدتْ سنةَ (٣٨٤ هـ) ، فيكونُ عمرُهَا حينَ تولّى أبوها الخِلافَـة حوالي الثَّلاثين ، فمنْ هُنا نَـعْلَمُ

---

(١) ابن زيدون (ص ١٣٥) لعلي عبد العظيم من سلسلة أعلام العرب.

أنَّها قَضَتْ زهرةَ حياتِها في أَحْضَانِ البؤْسِ والفَاقَةِ ، فلم تكنْ ربيبةَ مُلْكٍ ، بل كانتْ ربيبةَ فَقْرٍ وجُوعٍ ، فالشَّاعرُ لم يكنْ صَادِقاً في هذا الشّعْرِ ، ولا فيما يجري مَجْراهُ ، ممّا قالـه في هذا الصَّدَدِ منْ وصفِ ولاّدةَ بأنَّها بلغَتْ درجـةً منَ الرَّفاهية جعلَتْها تنوءُ بعقودِ الجوهَر ، وجعلتْ جسْمَها يدمىٰ منَ الأَساورِ والخلاخِل ، فأغلبُ الظَّـنِّ أنَّـها لم تعرفْ هـذهِ الأَشْيـاء.

* وقد ذكرَ المؤرّخُون أنَّ أبَاها بقيَ في الخلافةِ تَسْعةَ عَشَر شَهراً ، ثمَّ ثارَ عليهِ أهْلُ قرطبةَ ، فهربَ مُستخفياً بينَ امرأتَيْن ، ثمّ إنَّه ماتَ بعد قليلٍ من هَربهِ غَريباً طريداً ، فلم يحملْ معه شَيئاً منَ الثَّروةِ ، وقد كانَتْ خزائنُ الدَّولَةِ في عهْدهِ خاويةً؛ ثمّ إنَّ ولادةَ كانَتْ في أواخِرِ حياتِها تستجدي ابنَ عبدوس ، وربّما غيره.

* وولادةُ هـذه بنْـتٌ لِقَيْنَـةٍ حبشيّـةٍ ، ولـم يكـنْ للقيـانِ حجـابٌ ولا تصوُّنٌ ، فلذلك خرجَتْ علىٰ عادةِ أُمِّها مِنْ تركِ الحجابِ ، ومقابلةِ النَّاس وَجْهاً لوجْهٍ ، فغشيَ منزلَها الشُّعراءُ والأُدَباء ، ولكن لم نَجِدْ آثاراً أدبيّةً في ولاّدةَ لهؤلاء الشُّعراءِ والكتّاب اللهمّ إلاّ ابنَ زيدون ، فإنَّه هو وحدهَ الذي قالَ فيها ، وأكثرَ القَوْل.

* ولم تبدأْ صِلَةُ ابنِ زيدون بولادةَ إلاّ بَعْد زَوالِ الدَّوْلَةِ الأمويّة ، أي بَعْدَ سنة (٤٢٢ هـ) ، وكان عمرُها حوالي الثَّامنة والثلاثين[١].

الـوقْـفَـةُ الـتَّـاسِعَـةُ:

* وممنْ تعرَّضَ لولادةَ ومَسْرَح حياتِها الشَّيخ إبراهيمُ الأَحدبُ الطَّرابلسيّ[٢] في مسرحيّاتِه الشَّهيرة ، وخصَّها بمسرحيّةٍ عنوانُها: «رواية

---

(١) ديوان ابن زيدون (ص ٢٦ و٢٧) شرح وتحقيق محمد سيد كيلاني. مصر ـ ط ٣ ـ ١٩٦٥ م.

(٢) إبراهيمُ بنُ علي الأَحدَبُ الطَّرابلسيّ ، وُلِدَ في طرابلس الشَّام سنة (١٨٢٦ م) تلقّى العِلْمَ صَغيراً وحفِظَ القُرآن علىٰ عُلماءِ بلده ، زارَ الآستانة في عَهْد السُّلطان =

الوزيرِ ابنِ زيدونَ معَ ولادةَ بنتِ المستكفي».

* تحدَّثَ الشّيخُ إبراهيمُ الأحدبُ عنْ ولّادةَ وحياتِها، وقدّمَ لمسرحيْتِه عنْها بمقدمةٍ أفْصَحَ عنْ حياتِها بأسلوبٍ مسجَّعٍ جميلٍ أنيقٍ رصين ، يدلُّ على تمكّنِ الأَحْدبِ منْ ناصيةِ البيَان، ولكنَّه لم يخرجْ عنْ أفكارِ الأقدمين، ورسَمَ حياتها اعتماداً علىٰ ما قرأَ في المصَادرِ الأندلسيّةِ الأدبيّة.

* يقولُ الأحْدبُ بعدَ تحميدِ اللهِ والصَّلاةِ على نبيّهِ؛ أمّا بَعْدُ: فإنَّ ولادةَ بنتَ المُستكفي باللهِ محمّدَ بنَ عبدِ الرّحمن؛ ممّن كانَ منْ سُلالةِ الدَّاخلِ منْ بني مروانَ ، تلك التي كانتْ واحدةَ زمانِها في الأَدب والجمَالِ ، ورقَّةِ الطَّبْعِ ولطافَةِ الشَّمائلِ التي نفحتْ بطيْبِها أنفاسَ الشّمال ، برزتْ بعد نَكبةِ أبيها منْ خدِرها إلىٰ محاضرةِ الوزراءِ ، ومطارحةِ الأُدباء منهم والشُّعراء ، بما سَحَر منهم العُقول ، وتركهم تدبّره بلا مَعْقُول ، مع عفافٍ وصيانَةٍ ، وسلامةِ ضمير لم يدنّسْ بخيانة.

* فلذلك كانَ كبراءُ ذلك العَصْرِ يتهافَتُونَ عَلىٰ لقائِها ، وتشنيفِ آذانهم بِدُرِّ آدابِها ، ومشَاهدةِ جمالِها وبهائِها ، فكانَ ممنْ شُغِفَ بها ذو الوزَارتَيْن أبو الوليد بنُ زيدون ، ذاكَ الذي كانَ لجنونِهِ في تهتُّكِ عشْقِها فنُون ، وقد زَاحَمه عَلىٰ الولَهِ بها الوزيرُ أبو عامر الملقّب بالفارِ ، ولكنْ دون أنْ يدركَ منْ خطبةِ قربها الأَوْطَار ، وقد أرسلَ إليها عجوزاً تنوّهُ لديها بشَأْنِ اعتباره ، وتخطبُ أُنْسَها له بما يُطلعُ لديه بَدْرَ الأَمَلِ منْ سِرَاره ، فأخفقَ مسعىٰ تلك من نيلِ أَمَل ، ولم يستفدْ من عملِها إلا سوءُ

= عبد الحميد (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) ومدحَه بقصيدةٍ طويلةٍ ، والتقىٰ فيها كبارَ العُلماء والرّؤساء ، وزار مصْرَ سنة (١٨٧٢ هـ) ولهُ آثارٌ مهمّة منها: ذيلُ ثَمرات الأَوْراق ، وديوان إبراهيم الأَحدب ، وفرائد اللآل في نَظْم الأمثال ، وغيرها كثير جدّاً بالإضافةِ إلى مسرحيّات تاريخية مهمّة. توفي إبراهيم الأحدب سنة (١٨٩١ هـ).

العَمل ، فكانَ ذلك داعياً لابن زيدون علىٰ إنشاءِ رسالتِه المشهورةِ علىٰ لسانها ، تتضمّنُ العبثَ بأبي عامر والتّهكُّم بـهِ بما أعْرَبَ عن بدائع بيانها.

* وقد كانَ ابنُ زيدون نكبَ في تلك الأثناء ، وأُودعَ في السّجْنِ يعاني الذُّلّ والعنَاء ، وهو مع ذلك لم يفترْ من ذكْرِ ولّادة ، ويجيدُ بمحاسنِها إنْشاء الشّعر وإنشاده ، ثم فَرَّ من ذلك السّجن إلىٰ إشبيليةَ مقرّ المعتضد ، فقامَ بأعباءِ دولته وزيراً واعتمدَ على وزَارتهِ بعده المعتمد.

* وحيثُ كانَ موضوعُ عشْقِه لولّادة حسْن الحمْلِ لما فيهِ منَ العَفَاف ، ولطائفِ الآدابِ التي تُسْكِرُ الألْبَابَ بما دونَه سُكْر السُّلاف ، أنشَأتُ في ذلكَ روايةً ذات خمسةِ فصول ، يدرك النّاظرُ لبدائع معانيها منَ المحاسنِ غاية المأْمُول[1]. . . .

الـوقْـفَـةُ الـعَـاشِـرَةُ:

* وكانَتْ لنا وقْفَةٌ مع كتابِ «تاريخ الأدب العربيّ في الأندلس» لإبراهيم علي أبو الخشَب ، حيث تحدَّث طويلاً عن ولّادةَ فكانَ ممّا قال: ومنَ الأسماءِ التي تنتسبُ إلى بيوتِ المجدِ والسُّلْطَان والعزّ والرِّفْعَةِ ، ولّادةُ بنتُ المستكفي باللهِ الأمويّ. . . . . . . أديبةٌ لا تتخلفُ في الرُّكبان ، ولا تتأخرُ في الميدان ، ولا تنقصُ شاعريّتها الضّخمة عن كثيرٍ من فحولِ الرّجال الذين جرىٰ حديثُهم علىٰ الأفواهِ ، أعذبَ منْ حُلْوِ المياه ، وطارتْ شهرتُها في كلّ أفق ، وكان مجلسُها بقرطبةَ مدرسةً للنَّقْد ، وجامعةً للأدب ، لا يغشىٰ بيتها إلاّ الجهابذة ، ولا يتردَّدُ عليها

---

(١) انظر: مسرحيات الشيخ إبراهيم الأحدب (ص ٩٣ ـ ٩٥).

إلا كبارُ الأساتِذة ، تعطينا صورةً عن ثقافَةِ المرأةِ وفكْرها وأدبها ، وحسنِ بيانها ، وبلاغةِ منطقِها من أحسنِ الصُّور وأروعها[1].

* وفي موضع آخر منْ الكتابِ نفسه يتحدَّث إبراهيمُ أبو الخشبَ عن وضْعِ قرطبةِ ومجالِسها ، ثمّ يذكرُ أثرَ النّساءِ في تلكَ المجالس ، ويعرّجُ للحديثِ عنْ ولادةَ وابنِ زيدون فيقولُ:

* وكانتْ قرطبةُ لا تزالُ في أوجِ عزّها علىٰ الرغمِ من أفولِ شَمْس بني أميّة بها ، وأهلها في رخاءٍ منَ العيشِ ، أكثرُهم يميلُ إلىٰ العِلْمِ والأَدَبِ ، ومجالسةِ الأُدباء ، فامتلأَتِ المحافلُ بضروبِ اللهوِ والطَّرب ، وكان لابنِ زيدون خفّةٌ ودعابةٌ ومَيْلٌ إلىٰ المجونِ ، فساعَدَهُ ذلك على أنْ يسبقَ غيره ، وأنْ ينالَ شهرةً واسعةً بينَ أتْرابِه.

* وكانَ للنّساء أثرٌ عظيمٌ في هذه المجالسِ ، فاتَّجهَ النّاسُ إلىٰ الاندماجِ فيها ، واستعذبَوا هذا المورد ، وانصرفَتْ هِمَمُ الأُدباء إلىٰ التّفوّق في هذا الميدانِ ، فكان لذلك أثرٌ عظيم في أخْلاقِ الأُدَباء ، وصورة البلاغة منْ نظمٍ ونثْرٍ ، وكأنّما صاغَتْ كلّ صبغْةٍ جديدة المجامع الأدبيّة ، فجرؤ الوزراء علىٰ المجاهرةِ بالمجونِ ، وكانَ ابنُ زيدون أحدَ هؤلاءِ الأبطالِ الذين جذبُوا إليهم الأنْظَار.

* وكان لولادةَ بنتِ المستكفي شهرةٌ عظيمةٌ في قرطبةَ لجمالِها وعلمها وأدبِها ، فوقعَ ابنُ زيدون في شَرَكها ، ووقعتْ في شَركه ، واشتملَ كُلٌّ منهما علىٰ صاحِبه ، حتى حُسِدَ عليها ، وحَسَدها النّاسُ عليه ، وكان منْ بين هؤلاءِ الحُسَّاد الوزيرُ أبو عامر بنُ عبدوس ، وهو كبيرُ الحولِ والطَّول ، فتقرَّب إلىٰ ولادةَ حتى أمالَها إليه ، واغتصبَها منْ صديقها ، وكانتْ ولادةُ مَلَّتْ صداقةَ ابنِ زيدون ، واتَّهمَتْه بعدمِ

(١) تاريخ الأدب العربي في الأندلس لإبراهيم أبو الخشب (ص ١٩٧ و٢٠١ ، ٢٠٢) بتصرف.

الإخلاص لها ، كما اتَّهمها بذلك أيضاً ، فهبَّتْ عاصفةٌ منَ الجفاءِ بينهما ، شتَّتَتْ منْ شملِهما ، وحالَتْ بينَ قلبَيْهما ، لذلك غُلِبَ ابنُ زيدون علىٰ أمْرِه ، ثمّ حَدَثَ أنْ رجَعَتْ لابنِ زيدون ، فكتبَ علىٰ لسانِها لابنِ عبدوس رسالتَه الهزليَّة ، ثمّ استأثرَ بها ثانياً ابنُ عبدوس ، فكانتْ هذه الحال سببَ اضطرابٍ في حياةِ ابنِ زيدون العقليّة والسّياسيّة[1].

* ويتابعُ أبو الخشَب حديثَه عن ابنِ زيدونَ وولادةَ فيقولُ: وقد كانَتْ صلتُه بولادةَ التي عرفْنَا مكانتَها في المجتمع ، وذوقَها في النَّقد ، وكفايتَها في الأدَب ، ومنزلتَها في الشِّعْرِ ، وحظّها منَ الجمَال من أقوىٰ الأسْبابِ التي رقّقَتْ حسَّه ، وهذَّبَتْ رأيَه ، وقوَّمَتْ طبْعَه ، وأيقظَتْ وجْدانَه ، وأثارَتْ شعورَه ، وألهبت فؤَادَه ، وفتحَتْ وعْيَه ، ووسَّعَتْ خيَالَه ، والشُّعراء صناديقُ مغلقة مفاتيحُها عند النّساء ـ كما يقولُ شَوقي ـ ، ولم يحظَ ابنُ زيدون بتلك المكانةِ عند ولّادة إلاّ لكفايةٍ فيه واستعداد له ، وتفوّق لَديْه[2].

الوقْفَةُ الحَادِيةَ عَشْرَة:

* هذه وقفْةٌ مهمّةٌ نوعاً ما بالنّسبةِ لما قبلَها ، وذلك لما تحتويهِ منْ جرأةٍ في الرّأي، وضربٍ للقَصَص الذّائعِ المحفُوظِ في الصُّدور وبينَ ثنايا السُّطور.

* ولعلَّ منْ حسنِ حظِّ ولادةَ أنْ تأخَّرَ صدور كتابي هذا نصف عَقْد[3] منَ الزَّمن كيما نطّلع أكثرَ وأكثرَ عمّا كُتِبَ عن ولادةَ بنتِ المُستكفي.

---

(١) المرجع السابق نفسه (ص ٣٠١).

(٢) المرجع السابق نفسه (ص ٣٠٣).

(٣) منذ أكثر من بضع سنين تمَّ إنجاز هذا الكتاب ، وعلىٰ وجْه التحديدِ في نهايةِ صيفِ عام (١٩٩٥م) ، وكنتُ إذ ذّاك أعّد هذا الكتاب للطَّبع ، ولكنْ حال دون صدورهِ عدة مشاغل ، وتأخّر صدوره إلىٰ الآن ، وخلالَ ذلك أعدتُ النَّظر فيه ثم دفعته للطّباعة ، وهذه مشيئة الله ، ولعلّ في ذلك خيراً.

* ومنْ ذَلك أنَّني اطَّلَعْتُ علىٰ كِتابٍ صغيرِ الحجْمِ لمؤلِّفِهِ «هزّاع بن عيْد الشُّمَّري» تحت عنوان: «ولاّدة بنت المستكفي بين الحقيقةِ والأُسطورة»[1]، وقد راقَ لي بحثُ الأستاذِ هزّاع، فمضيتُ في قراءةِ كتابِه الصَّغير الحجم الكبيرِ الفائدة، ووجدتُ بعضَ تقارُبٍ في النَّظر بيني وبينَه، لذا فقد جَعَلْتُ هذه الوقْفة مع كتابِه عن ولاّدة، لتعمَّ الفائدة.

* ومنذُ الأسْطُرِ الأولى في كتِابه: «ولادة بنت المُستكفي» يطالعُكَ الأستاذُ هزّاع برأيِهِ الصّريح الواضحِ بأنَّ قصَّةَ ولاّدة أكذوبةٌ بَلْهَاء يتداولُها النَّاس بالتَّسليم دونَ مناقَشَة.

* ففي مفتتحِ الكتابِ يقولُ هزّاع الشُّمري: عرفَ الأدبُ العربيُّ، علىٰ مرِّ العُصورِ المتتاليةِ قَصَصاً ذاعَ صيتُها، وضَربتْ شهرتُها الآفَاق مثل قصّة ولاّدة المنسوبة بنت المستكفي الخليفة الأمويّ الأندلسيّ، تلك الموصوفَة بالأميرةِ الثّريةِ، ذاتِ الجمالِ البارعِ الأخّاذِ المدلّلةِ التي لا ترىٰ حِجاباً عنِ الرّجال، وذات المنتدىٰ الأدبيِّ الشّهير بقرطبةَ الذي ارتاده الشُّعراء والأدباءُ ووجهاءُ البلدِ وأعيانُه، يتساجلونَ نَظْماً ونَثْراً، وتعشَّقَ بعضُهم صاحبتَه، وهامَ بها البعضُ وهامَتْ بهِ، وليس أدلَّ على ذلك منْ قصّة غرامِها مع الأديبِ المخزوميّ ابن زيدون، تلك القصّة الماثلة بجلاء بينَ قَصَصِ الغَرام في الأدبِ العربيّ، وبقيتْ من قَصَصِ التَّاريخ الرَّاسخَةِ، وكأنَّها حقيقةٌ ثابتةٌ مكتملةُ الصُّورة في أذهانِ النَّاس، يُمْنَعُ حتّى الشَّكّ فيها[2]...

* ثمّ إنَّ المؤلفَ الأستاذَ الشّمري عرضَ صورةَ ولادة في الرّواياتِ

---

(١) طبع هذا الكتاب في دار أجا بالسعودية بالرياض سنة ١٩٩٧م ويقع في (٨٠ صفحة) من القطع الصغير.

(٢) انظر: ولادة بنت المستكفي بين الحقيقة والأسطورة (ص٥ و٦).

الأدبيّةِ القديمةِ والمعاصرةِ ، ومن ثمّ تعرَّضَ إلىٰ الحديثِ عن حالِ الأندلسِ في عَصْر ولاّدة ، ومرَّ بذلك علىٰ المستكفي الذي نُسِبَتْ إليه ولاّدة ، وتوصّل إلىٰ آراء نقديةٍ لخَّصَها في بضع نقاط مهمّة أوصلَ فيها القارىء إلى أنَّ ولادةَ امرأةٌ مزعومةٌ ليس لها وجُود ، ثمّ يخلص في النّهاية ليقول ما مفادُه: يجوزُ التَّسليمُ بوجودِ ابنة للمستكفي ، ويجوزُ أنَّها كانت تُدعى ولاّدة جدَلاً ، ولكنْ لا يصحُّ كونها هي نفسُها التي وُصِفَتْ بهذه الشُّهرة ، وحتّى قصّة ولادة ابن زيدون ، فإنّها لا تعدو كونها قصّةً صغيرةً حدثَتْ أيّام شَبابه ، فأصبحتْ بفعلِ المبالغةِ والتّشويق أسطورةٌ منَ الأساطيرِ أُلْصِقَتْ بإحدىٰ نساءِ بني أميّة للإساءةِ إليهنَّ مثلما أُسيء في قصَّة العبّاسة[١] وعليّة[١] بنتَي المهدي ، وستبقىٰ ولاّدة التي هويها ابن زيدون أيّام شبابِه شخصيّة مجهولة[٢].

* وممن اهتمّ بسيرةِ ولادة ، وأنشأَ عمَلاً كاملاً عنها الشّاعر «علي الجارم» حيثُ ألَّف كتاباً كامِلاً يدورُ حولَ ولاّدة وعنوانه «هاتفٌ منَ الأندلس»[٣] وقد حلَّقَ الجارمُ بخيالِه بعيداً وخالفَ حقائقَ التَّاريخ ، إذ هذا الكتاب يصلحُ لأنْ يكونَ فِلْماً منَ الأَفْلام التي عاصَرها الجارمُ.

وَدَاعـاً ولاّدَة الـشُّهْـرَةِ:

* تلْكُم ـ أحبَّائي ـ صفحاتٌ منْ أَخبارِ ولاّدة ابنِ زيدون التي ملأَتِ الدُّنيا وشَغَلَتِ النَّاس ، بينما نامَتْ ملءَ جفونها في حينِ كانَ الخَلْق يَسْهرون ويختِصمُون فيها وحولها.

---

(١) اقرأ سيرتي: العباسة وعلية ابنتي المهدي في كتابنا «نساء في قصور الأمراء» وانظر ردّنا على مفتريات المفترين.

(٢) انظر: ولادة بنت المستكفي للشمري (ص ٧٨).

(٣) طبع هذا الكتاب بدار المعارف بمصر سنة (١٩٥٩ م) ويقع في (٢٤٠) صفحة من القطع المتوسط.

* لقد عشْنَا في الصَّفَحات الماضِيَاتِ عَبِقَاتٍ ناعماتٍ من أريجِ أخبارِها ، عرضَنْا خلالَها ما حفظتْهُ المَصادِرُ[١] ، وكنّا قد نَقَدْنا بعضَ الأَخْبار ، ووضعنَاها في ميزانِ الحقّ ، وتركْنَا بعضَ الأخبار الأخرىٰ لذوقِ القارىءِ وتذوّقهِ وميزانه .

* إنَّ ولاَّدَةَ ابنِ زيدون منْ أَشْهرِ الأندلسيّات الشَّاعرات ، وقد وصفَها القُدماء بأنَّها امرأةٌ قد طالَ عمرُها كما طالَتْ وقفتُنا معَها ، وطارتْ أخبارُها مشرِّقَةً ومغرّبةً ، حتّى كادَتْ تطغَىٰ علىٰ جميع مشَاهير نساءِ الأندلسِ ، وكانتِ السَّابقةُ ـ كما زعموا ـ في حلبَات الأدبِ ، ولما اتَّسمَتْ به منْ شهرةٍ كُلّما ذَكَرنَا ابنَ زيدون وشعره[٢] .

---

(١) ممّا يُؤْسَفُ له حقّاً أنْ تضيعَ معظمُ الآثارِ والأشعارِ التي وصلتْنَا عن النِّساء الأندلسيّات ، وأنْ تكونَ معظمُ أخبارهنَّ مفقودةً مع ما فُقِدَ منْ مصادرِ التراثِ الأندلسيّ الذي أبادَه المسيحيّون الإسبانيّون بعد إجلاءِ العَرب عنِ الأندلس .
وَممّا يؤيدُ مقولتنا هذه ، مَا جادَتْ به قريحةُ أحدِ الشّعراء الأندلسيّين يبكي ما ضاعَ منْ ثمراتِ العُقول والأوراقِ والأفكارِ الإسلاميّة في الأندلس ، فيقولُ منْ قصيدةٍ وجَّهَها إلىٰ بايزيد العُثماني ، مستغيثاً من مَلِكِ الرّوم وتنكيله بالمسلمين ، وقَضائه علىٰ تراثهم الفكريّ :

وَخَانَ عُهُوداً كَانَ قَدْ غَرَّنَا بِهَا ... ونَصَّرنَا كُرْهاً بعُنْفٍ وقَسْوةِ
وأحرقَ مَا كانَتْ لنَا منْ مصَاحفٍ ... وَخلَّطَها بالزِّبلِ أو بالنَّجاسَةِ
وكُلّ كِتَابٍ كانَ منْ أمْرِ دينِنَا ... ففي النَّار ألقَوه بهزءٍ وحُقْرةِ
ولم يتركُوا فيها كِتاباً لمسْلِمٍ ... ولا مُصْحَفاً يخلىٰ به للقَراءةِ

هذا ويختلفُ المؤرّخون في تقديرِ عَددِ المخطوطات العربيّة التي ذَهَبتْ فريسةً لجرائمِ الإسبان الشّائنة ، فيقدّرها بعضُهم بأكثرِ منْ مليون ، وبعضُهم قدَّرها بثمانينَ ألفاً ، وأودُّ أنْ أذكّر القارىء بأنَّ المكتبةَ الأمويّة الشّهيرة بقرطبةَ كان فيها قرابة ستمئة ألف مجلّد . وكل هذا التّراث راح ضحية الجرائم الشّنيعة التي صنَعها الإسبان في الأندلس بعْدَ احتلالها .

(٢) منَ العجيبِ أنَّ شهرةَ هذهِ الولادة عند ابن زيدون والتي لم يذكرْها في شِعره ونثرِه سوى خمسِ مرات : ثلاثَ مرّاتٍ في شعره ، ومرتَيْن في نثره . ولو كانت ذات =

* ذكَرتِ المصَادرُ أنَّ ولاّدةَ هذه قد عُمّرتْ وعمّر معَها ابن عبدوس حتى أربيَا على الثّمانين ، وهو لا يَدَعُ مواصلتَها ولا يغفلُ مراسلتَها ، وتحيَّفَ هذا الدَّهْرُ المستطيلُ حالَها ، فكان يحملُ كَلَّها ، ويرقَعُ ظلّها ، علىٰ جَدْبِ واديهِ ، وجمودِ روائعهِ وغواديهِ ، أثراً جميلاً أبقاهُ ، وطلقاً من الظَّرف جرىٰ حتى استوفَاه[1] .

* وكانَتْ وفاةُ ولاّدة لليلتَيْنِ خَلَتَا منْ صفر سنة (٤٨٤ هـ)[2] ، بيد أنَّ بحتريَّ الأَنْدلسِ وعبقريَّ الأَغْزَال الولاّدية كانَ قد سَبقَها إلى رحمةِ اللهِ بسنواتٍ ، حيث توفيَ سنة (٤٦٣ هـ) .

* وأخيراً ، تُرى هل ستبقىٰ ولاّدة مرسومةً في الأذهانِ بأنّها أميرةُ وابنةُ الخليفة المُسْتكْفِي؟!

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

* * *

= أهميةٍ في حياته لأكثرَ منْ ذِكْرها ، أو لو كانتْ ابنة المستكفي لسمعْنَا اسْمَها في أشعارِ معاصريها ، أو لَفَتُوا النَّظر إليها؛ أليس كذلك؟!
إنَّ مَنْ يحبّ شيئاً يُكْثر منْ ذِكْره ، خُذْ مثلاً عنترةً؛ ذكَر محبوبتهَ عبلةَ عشَرات المرات ، وخُذْ جميلَ بنَ معمر الذي ذكرَ بُثينة عشَرات المرات أيضاً وكذلك كُثير بنَ عبد الرحمن الذي ذكر عزَّة ، وعمر بن أبي ربيعة والثّريا ، والمجنون وليلىٰ ، وقيس ولُبنى وغيرهم كثيرون. ألا يحتاج الأمْرُ إلى تأمّل؟!

(١) انظر: الذَّخيرة (١/ ٢٧٠) طبعة بيروت.
(٢) انظر: الصلة (٢/ ٦٩٦) ترجمة رقم (١٥٤٠) ، ونفح الطيب (٥/ ٣٤٠) ، والدر المنثور (ص ٥٤٩) ، ونزهة الجلساء (ص ٨١). وقيل: توفيت سنة (٤٨٠ هـ).

فهرس المصادر والمراجع

١ ـ القُرآنُ الكريمُ.

٢ ـ الصَّحيحان.

٣ ـ كتُبُ السُّنَن والمسَانيد.

٤ ـ آثارُ البِلادِ وأخْبارُ العباد: للقزويني ـ دار بيروت للطّباعة والنَّشْر ـ بيروت ـ ١٩٧٩ م.

٥ ـ ابنُ زيدون: لعلي عبد العظيم ـ سلْسلة أعلام العَرب ـ رقم (٦٦) ـ دار الكاتِب العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦٧ م.

٦ ـ ابنُ عمَّار: لثروتْ أباظة ـ سلسلة اقْرأ ـ رقم (١٤٣) ـ دار المعارف ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م.

٧ ـ الإحاطةُ في أخبارِ غَرناطةَ: للسانِ الدّين بنِ الخطيب ـ تحقيق محمّد عبد الله عنان ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٧٣ م.

٨ ـ إعْتابُ الكُتّاب: لابن الأبّار ـ تحقيق د. صالح الأشْتر ـ مطبوعات مجمع اللغةِ العربيّةِ بدمشق ـ ١٩٦١ م.

---

(١) عُدنَا في هذهِ الموسوعةِ إلى مئاتٍ منَ المصادرِ والمراجعِ، ولكنّا لم نذكرْهَا كاملةً في هذا الفهرس، وإنّما يجدُها القارىءُ مبثوثةً بينَ ثنايا الكتاب. وقد اختصرنا في هذا الفهرس أهمَّ المصادر والمراجع. ولم نذكرِ المجلات والأبحاث التي رجعنا إليها لأنَّ ذلك يطولُ بنا كثيراً.

٩ ـ أعلامُ النِّساء: لعمر رضا كَحّالة ـ موسّسةُ الرِّسالة ـ بيروت ـ ط ٩ ـ ١٩٨٩ م.
١٠ ـ الأغاني: لأبي الفرح الأصفهانيّ ـ تحقيق عَدَد من الأساتذة ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ط ٢ ـ ١٩٩٢ م.
١١ ـ بَدائِعُ البدائِه: لابن ظافِر الأزديّ ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٧٠ م.
١٢ ـ بغيةُ الملتمس في تاريخ رجالِ أهل الأندلسِ: للضَّبي ـ طبعة دار الكِتاب العربي ـ مصر ـ ١٩٦٧ م.
١٣ ـ بغيةُ الوعَاة: للسُّيوطي ـ تحقيق محمّد أبو الفَضْل إبراهيم ـ القاهرة ـ ١٩٦٤ م.
١٤ ـ بَهْجةُ المجالِس وأُنْس المُجالِس: لابن عبد البرّ ـ تحقيق محمد مرسي الخولي ـ دار الكتُب العلميّة ـ بيروت ـ دون تاريخ.
١٥ ـ البيئةُ الأندلسيّةُ وأثرهُا في الشِّعر ـ عَصْر ملوك الطَّوائف ـ: د. سعد إسماعيل شَلبي ـ دار نهضة مِصْر ـ القاهرة ـ دون تاريخ.
١٦ ـ تاريخُ الأَدب العربي في الأَندلس: لإبراهيم أبو الخشب ـ دار الفِكْر العربيّ ـ القاهرة ـ ١٩٧٠ م.
١٧ ـ تحريرُ التَّحبير: لابن أبي الأصبع المِصْريّ ـ تحقيق د. حفني محمد شَرف ـ لجنة إحياء التُّراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٦٣ م.
١٨ ـ تحفةُ العروسِ ومتعةُ النُّفوس: للتّجاني ـ تحقيق جليل العطية ـ دار الرّيس ـ لندن ـ وقُبرص ـ ط١ ـ ١٩٩٢ م.
١٩ ـ تمامُ المُتون في شرح رسالة ابن زيدون: لخليل بن أيبك الصفدي ـ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ـ ١٩٦٩ م.

٢٠ ـ ثِمارُ القُلوب في المُضافِ والمنْسوب: للثَّعالبي ـ دار نهضة مصر ـ ١٩٦٥ م.

٢١ ـ جذوةُ المقتبس: للحميديّ ـ تحقيق محمّد بن تاويت الطّنجي ـ ١٣٧٢ هـ ـ وطبعة مِصْر.

٢٢ ـ الجليسُ الصَّالح الكافي والأنيسُ النَّاصح الشَّافي ـ للنّهروانيّ ـ تحقيق د. محمد مرسي الخولي ود. إحسان عبّاس ـ عالَم الكتُب ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.

٢٣ ـ جمهرةُ الأَمْثال: للعسكريّ ـ ضبَطه د. أحمد عبد السَّلام ـ خرَّجَ أحاديثه أبو هاجر محمد سعيد زغلول ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٨ م.

٢٤ ـ جمهرةُ أَنْسابِ العرب: لابن حزم الأندلسيّ ـ تحقيق عبد السَّلام محمّد هارون ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٥ ـ دون تاريخ.

٢٥ ـ حَدَائِقُ الأَزاهِر: لابن عاصِم الغرناطيّ ـ تحقيق عبد اللطيف عبد الحليم ـ المكتبةُ العصريّة ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٩٢ م.

٢٦ ـ الحضَارةُ الإسلاميّة في القَرنِ الرّابع الهجري: ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريدة ـ القَاهِرة ـ ط٣ ـ ١٩٥٧ م.

٢٧ ـ الحلّةُ السِّيَراء: لابن الأبّار ـ تحقيق د. حُسين مؤنس ـ دار المعارف ـ مصْر ـ ط٢ ـ ١٩٨٧ م.

٢٨ ـ الحللُ السُّندسيّة في الأخبارِ والآثارِ الأندلسيّة: لشكيب أرسلان ـ منشورات مكتبة دار الحياة ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٢٩ ـ حليةُ البَشَر في تاريخِ القَرن الحادي عَشَر ـ لعبد الرّزاق البيطار ـ مطبوعات مجمع اللغةِ العربيّةِ ـ دمشق ـ ١٩٦١ م.

٣٠ ـ خريدةُ القَصْر وجريدةُ العَصْر (قسم شعراء المغرب والأندلس)

للعمادِ الكاتب ـ تحقيق آذرتاش آذرنوش ـ الدّار التّونسية للنَّشْر ـ تُونُس ـ ١٩٧١ م.

٣١ ـ خِزانةُ الأدب ولبّ لبابِ لسانِ العرب: للبغدادي ـ تحقيق د. محمد نبيل طريفي ـ دار الكتُب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨ م.

٣٢ ـ الدُّرُّ المنثورُ في طبقاتِ ربَّات الخُدور: لزينب بنت يوسُف فواز العامليّة ـ طبعة مصورةً عن الطَّبعة المصرية ـ ١٣١٢ هـ.

٣٣ ـ ديوانُ ابنِ حمديس: لابن حمديس ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠ م.

٣٤ ـ ديوانُ ابن خفاجَة: لابن خفاجَة ـ شرح د. يوسفُ شكري فرحَات ـ دار الجيلِ ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٣٥ ـ ديوانُ ابن درّاج القَسطليّ: لابن درّاج ـ حقَّقه وعلَّق عليه د. محمود علي مكّي ـ المكتب الإسلاميّ ـ ط٢ ـ ١٣٨٩ هـ.

٣٦ ـ ديوانُ ابنِ زيدون: لابن زيدون ـ تحقيق علي عبد العظيم ـ دار نهضة مصْر ـ القاهرة ـ ١٩٥٧ م.

٣٧ ـ ديوانُ ابن زيدون: لابن زيدون ـ شرح وتعليق محمد سيّد كيلاني ـ مطبعة البابي الحلبيّ ـ مصر ـ ط٣ ـ ١٩٦٥ م. وطبعة بيروت أيضاً بتحقيق د. يوسُف شكري فرحات وغيرها.

٣٨ ـ ديوانُ ابن الوردي: لابن الوردي ـ تحقيق د. أحمد فوزي الهيب ـ دار القلَم ـ الكويت ـ ط١ ـ ١٩٨٦ م.

٣٩ ـ ديوانُ أبي نُواس: لأبي نُواس ـ تحقيق أحمد عبد المجيد الغزَالي ـ مصر ـ ١٩٥٣ م ـ وطبعة دار صَادر بيروت.

٤٠ ـ ديوانُ البحتريّ: للبحتريّ ـ تحقيق حسن كامل الصَّيرفي ـ دار المعارف ـ مصر.

٤١ ـ ديوانُ ذي الرُّمَّة: لذي الرُّمة ـ بشرح الخطيبِ البغدادي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.
٤٢ ـ ديوانُ الصَّبابَةِ: لابن أبي حجَلة التَّلمساني ـ تحقيق د. محمد زغلول سلام ـ منشأةُ المعارف بالإسكندريّة ـ دون تاريخ.
٤٣ ـ ديوان صفي الدِّين الحليّ: لصفي الدّين الحلي ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٠ م.
٤٤ ـ ديوان المتنبّي: للمتنبي ـ طبعاتٌ مختلفةٌ.
٤٥ ـ ديوانُ المعتمدِ بن عبّاد: للمعتمد بنِ عبّاد ـ تحقيق أحمد أحمد بدوي ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.
٤٦ ـ ديوانُ مصطفى صادِق الرَّافعي: للرافعي ـ تحقيق أسامة محمّد السّيد ـ مؤسّسة الكتب الثّقافية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٣ م.
٤٧ ـ ديوانُ الموشَّحات الأندلسيّة: تحقيق د. سيّد غازي ـ منشأةُ المعارف بالإسكندريّة ـ ١٩٧٩ م.
٤٨ ـ الذَّخيرةُ في محاسِنِ أهْلِ الجزيرة: لابن بسَّام الشَّنتريني ـ تحقيق سالم مصطفى البدَري ـ دار الكتبُ العلميّة ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٨ م ـ وطبعةُ القاهرة ١٩٣٩ م، وطبعةُ تُونس بتحقيق د. إحسان عبّاس.
٤٩ ـ راياتُ المبرزين وغاياتُ المميزين: لأبي الحسن علي بن موسىٰ بن سعيد الأندلسي ـ تحقيق محيي الدّين عبد الحميد ـ مكتبة النّهضة المصرية ـ القاهرة.
٥٠ ـ راياتُ المبرزين وغاياتُ المميزين: لعلي بن موسىٰ الأندلسي ـ تحقيق د. رضوان الدّاية ـ دار طلاس ـ دمشق ـ ١٩٧٨ م.
٥١ ـ رحلةُ ابن بطّوطة: لابن بطوطة ـ تحقيق د. علي المنتصر الكتاني ـ مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ٧٩.

٥٢ ـ رقْمُ الحُلل في نَظْم الدُّول: لابن الخطيبِ ـ تحقيق د. عدنان درويش ـ طبعة وزارة الثَّقافة ـ دمشق ـ ١٩٩٠ م.

٥٣ ـ الروض المعطار: للحميري ـ تحقيق د. إحسان عباس ـ مكتبة لبنان ـ بيروت ـ ط١ ١٣٧٥ هـ ؛ ط٢ ١٩٨٤ م.

٥٤ ـ سرحُ العيونِ في شرح رسالةِ ابن زيدون: لابن نباتةَ المصري ـ تحقيق محمّد أبو الفضل إبراهيم ـ المكتبةُ العصريّة ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٨٦ م.

٥٥ ـ سلافَةُ العَصْر: لابن مَعْصوم ـ القاهرة ـ ١٣٠٤ هـ.

٥٦ ـ سِمْطُ اللآلي في شَرحِ أمالي القالي: للبكريّ ـ تحقيق عبد العزيز الميمني ـ مطبعة لجنة التّأليف والتّرجمة والنَّشْر ـ مصْر ـ ١٣٥٤ هـ.

٥٧ ـ سِيَرُ أعْلامِ النُّبلاء: للذَّهبيِّ ـ تحقيق جماعة من العُلماء والأفاضِل ـ مؤسّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٨٥ م.

٥٨ ـ شَاعِراتُ العَرب: جمعُ وتحقيق عبد البديع صَقْر ـ المكتب الإسلاميّ ـ ط١ ـ ١٩٦٧ م.

٥٩ ـ شَاعِران معاصران: إبراهيم طوقان ، وأبو القاسم الشّابي: لعمر فرّوخ ـ منشورات المكتبة العلميّة ومطبعتها ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٥٤ م.

٦٠ ـ شاعِرٌ مَلِك: لعلي الجارم ـ سلْسلة اقرأْ رقم (٦) ـ دار المعارف ـ مصر ـ ١٩٤٣ م.

٦١ ـ شرحُ ديوان عمر بن أبي ربيعة: شرح محمّد محيي الدّين عبد الحميد ـ المكتبة التّجارية الكبرى ـ مصْر ـ ط٣ ـ ١٩٦٥ م.

٦٢ ـ شرحُ مقامات الحريري: للشَّريشيّ ـ تحقيق محمد أبو الفَضْل إبراهيم ـ المكتبة العصريّة ـ لبنان ـ صيدا ـ ١٩٩٢ م.

٦٣ ـ الشُّعراءُ الأعلامُ في سوريةَ: للدكتور سامي الدَّهّان ـ دار الأنوار ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٦٨ .

٦٤ ـ الشّعْر الأندلسيّ في عَهْدِ الطَّوائف: لهنري بيرس ـ ترجمة د. الطَّاهر أحمد مكّي ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط١ ـ ١٩٨٨ م.

٦٥ ـ شعْرُ الطَّبيعة في الأدب العربيّ: لسيّد نوفل ـ دار المعارف ـ مصر.

٦٦ ـ الصِّلَةُ: لابن بشكوال ـ طبعة الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة ـ مصر ـ ١٩٦٦ م ـ وطبعة مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ ط٢ ـ ١٩٩٤ م.

٦٧ ـ الطِّرازُ: ليحيى بن حمزة العلويّ اليمني ـ راجعه محمد عبد السَّلام شاهين ـ دار الكتُب العلمية ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٥ م.

٦٨ ـ طِرازُ الحلّة وشفاءُ الغلّة: للرُّعيني ـ تحقيق د. رجاء السَّيد الجوهريّ.

٦٩ ـ طوقُ الحمامةِ: لابن حزمِ ـ تحقيق حَسن كامل الصَّيرفي ـ المكتبة التجارية ـ مصر ـ ١٩٥٠ م. وطبعات أخر.

٧٠ ـ الغيثُ المسجم في شرحِ لاميّة العَجم: للصَّفدي ـ دار الكتب العلميّة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٩٠ م.

٧١ ـ الفتوّةُ عند العربِ: لعمر دسوقي ـ مطبعة لجنة البيان العربي ـ القاهرة ـ ١٩٥١ م.

٧٢ ـ فصولٌ في الشِّعر ونَقْده: د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر.

٧٣ ـ الفنُّ ومذاهبُه في الشِّعْرِ العربي: د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر ـ.

٧٤ ـ فقْهُ اللغةِ وسرُّ العربية: للثَّعالبي ـ طبعات مختلفة.

٧٥ ـ فواتُ الوفَيات: لابن شاكر الكُتبي ـ تحقيق محيي الدِّين عبد الحميد ـ مصر ـ ١٩٥١ م.

٧٦ ـ القاموسُ المحيطُ: للفيروزأبادي ـ مؤسَّسة الرّسالة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨٧ م.
٧٧ ـ قلائدُ العِقْيان ومحاسن الأعيان: لابن خاقان ـ تحقيق د. حسين يوسف خريوش ـ مكتبة المنار ـ الأردن ـ ط١ ـ ١٩٨٩ م.
٧٨ ـ كِتَاب الصِّناعتين: للعسكريّ ـ دار الكتُب العلمية ـ بيروت ـ ١٩٨١ م.
٧٩ ـ لِسَانُ العَرب: لابن منظور ـ دار صَادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩٠ م.
٨٠ ـ مَجْمعُ الأَمْثال: للميداني ـ تحقيق محمد محيي الدِّين عبد الحميد ـ مطبعة السُّنَّة المحمدية ـ القاهرة ـ ١٩٥٥ م. وطبعات أخر.
٨١ ـ المحاسنُ والأضدادُ: للجاحظ ـ حقّقه محمد سويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١ م. وطبعات أخر.
٨٢ ـ المحاسنُ والمساوىء: للبيهقي ـ حقّقه محمد سويد ـ دار إحياء العلوم ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٩١ م، وطبعة دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٠ م.
٨٣ ـ مُحاضَراتُ الأُدباء ومحاوراتُ الشُّعراء والبُلغاء: للرَّاغبِ الأصفهانيّ ـ دار مكتبة الحياةِ ـ بيروت ـ دون تاريخ.
٨٤ ـ مَدامعُ العُشَّاق: د. زكي مُبارك ـ المكتبةُ العصريّة ـ صيدا ـ بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٧١ م.
٨٥ ـ مرآةُ الجِنان: لليافعيّ ـ حيدرآباد ـ ١٣٣٨ هـ.
٨٦ ـ المرأةُ العربيّة في جاهليتها وإسلامِها: لعبد الله عفيفي ـ دار الرّائد العربي ـ بيروت.
٨٧ ـ المرأةُ في حضَارة العربِ: لمحمد جميل بيهم ـ دار النَّشر للجامعيين ـ ١٩٦٢ م.
٨٨ ـ مسرحيّاتُ الشَّيخ إبراهيم الأَحْدب: للأحدب ـ تحقيق د. محمد يوسُف نجم ـ دار صادر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٥ م.

٨٩ ـ المطربُ منْ أشعارِ أهْلِ المغرب: لابن دحيَّة ـ تحقيق إبراهيم الأبياري، وحامد عبد المجيد، وأحمد بدوي، راجعه طه حسين. المطبعةُ الأميرية ـ القاهرة ـ ط١ ـ ١٩٥٤ م.

٩٠ ـ المعجبُ في تلخيصِ أخبارِ المغرب: للمراكشيّ ـ تحقيق محمد سعيد العريان.

٩١ ـ معجمُ الأدباء: لياقوت الحمويّ ـ دار المأمون ـ القاهرة ـ ١٩٣٦ م.

٩٢ ـ معجمُ الأدبياتِ الشَّواعر: للسَّمّان الحمويّ ـ تحقيق أحمد يوسُف الدَّقاق ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٤ م.

٩٣ ـ معجمُ البُلدان: لياقوت الحموي ـ دار إحياءِ التُّراث العربي ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٩٤ ـ المغربُ في حُلىٰ المَغْرِب: لابن سُعيد المغربي ـ تحقيق د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٢ ـ دون تاريخ.

٩٥ ـ المنازِلُ والدِّيار: لأسامةَ بنِ منقذ ـ تحقيق مصطفى حجازي لجنة إحياءِ التُّراث الإسلاميّ ـ القاهرة ـ ١٩٥٤ م.

٩٦ ـ الموشّى: للوشّاء ـ دار صادر ـ بيروت ـ دون تاريخ.

٩٧ ـ النُّجومُ الزَّاهرة في ملوكِ مصْرَ والقاهرة: لابن تغري بردي ـ طبعة مصوّرة عن طبعةِ دار الكتُب المصرية.

٩٨ ـ نزهةُ الجُلساء في أشعارِ النّساء: للسُّيوطي ـ شَرحَه وعلَّق عليه سمير حسين حلبي ـ مكتبة التّراث الإسلامي ـ القاهرة ـ دون تاريخ.

٩٩ ـ نزهةُ الجلساءِ في أشعارِ النّساء: للسُّيوطي ـ تحقيق د. صلاح الدِّين المنجدّ ـ بيروت ـ ١٩٥٨ م.

١٠٠ ـ نساءٌ منَ التاريخ: لأحمد خليل جمُعَة ـ دار اليمامة ـ دمشق ـ ط١ ـ ١٩٩٧ م.

١٠١ ـ نفحَةُ الرَّيحانة: للمحبّي ـ تحقيق عبد الفتّاح محمد الحلو ـ مطبعة عيسى البابي الحلبي ـ مصْر ـ ١٩٦٩ م.

١٠٢ ـ نفحُ الطِّيبِ من غُصْنِ الأندلسِ الرَّطيب: للمقّري ـ حقَّقه يوسُف الشَّيخ محمد البُقاعي ـ دار الفِكْر ـ بيروت ـ ط١ ـ ١٩٨٦ م ـ وطبعة مصْر بتحقيقِ محمّد محيي الدِّين عبد الحميد.

١٠٣ ـ نهايةُ الأَربِ في فُنون الأَدب: للنّويري ـ طبعة مصوّرة عن طبعةِ دار الكتُب المصريّة.

١٠٤ ـ نوحُ العندليب: لشفيق جَبْري ـ مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق ـ ١٩٨٤ م.

١٠٥ ـ الوافي بالوفَيات: لصلاح الدّين الصَّفدي ـ جميعة المستشرقين الألمانيين ـ باعتناءِ هلموت ريتر فيسباداان ـ ١٩٦١ م.

١٠٦ ـ وفياتُ الأعيان: لابن خلِّكان ـ تحقيق د. إحسان عبّاس ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٦٨ م.

١٠٧ ـ يتيمةُ الدَّهر: للثَّعالبي ـ تحقيق محمّد محيي الدّين عبد الحميد ـ القاهرة ـ ١٩٦٥ م.

ومصادر ومراجع أخرى كثيرة جداً جداً.

فهرس الموضوعات